صَلاحُ الدِّين

القَائِدُ وَعَصْرُهُ

الدكتور مصطفى الحياري



صَلاحُ الدِّين

القَائِدُ وَعَصرُهُ

صَلاحُ الدِّين

القَائِدُ وعَصْرُهُ

الدكتور مُصْطفى الحيَاري



الطبعة الأولى
1415هـ - 1994م .

دار الغرب الإسلامي
ص. ب. 5787-113 بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

السياسة هي:

قود الملوك والأئمة رعاياهم الذين ينقادون لهم ويدخلون تحت طاعتهم إلى الأفعال الحميدة المرضيّة والطريق السديدة القوية»[1].

فأحد معاني السياسة في تراثنا هو القيادة الحكيمة التي تدفع «الأمة» إلى الطريق السديد والقيام بالفعل الحميد. وأساس القيادة الأولى هو «الشورى» في اتخاذ القرارات بعد الاستماع إلى رأي أهل العلم والرأي في القضايا الأساسيّة التي لا تدخل في حكم الشريعة المنزلة الواضح.

ومن هذا المفهوم الأساسي للسياسة ـ القيادة كان اختيار العنوان الفرعي «القائد وعصره» لهذه الدراسة عن صلاح الدين وأعماله، الذي كان لا يُقْدم على عمل في أغلب الأحيان إلاّ بعد عقد مجلس مشورته والاستماع إلى رأيهم ثم يتخذ الرأي النهائي بما يجب عمله.

كانت فكرة هذا الكتاب نتيجة سنوات غير قليلة من دراسة وتدريس عصر هذا القائد الكبير الذي استكمل الكثير من الأعمال التي ابتدأها آل زنكي من قبله خاصة في مجال توحيد الجهد للإمارات الإسلاميّة في بلاد الشام والجزيرة الفراتية ومصر في كل المجالات في مواجهة التحدي الذي تمثّل بالإمارات الصليبيّة التي تشكلت على كل ساحل بلاد الشام. وقد كَتَبْتُ خلال هذه المدة

(1) قدامة بن جعفر، السياسة من كتاب الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق مصطفى الحياري، عمان، 1981 ص 34.

عدداً من الدراسات مثل **بانياس خلال القرن الثاني عشر الميلادي**، **وحصن بيت الأحزان**، **وحصن حبيس جلدك**، **والقدس في ظل السيطرة الصليبيّة**، **وتحرير القدس 1187 م**: عبرة من الماضي، **وعسقلان** في القرن الثاني عشر الميلادي (غير منشور). وفي كل بحث من هذه الأبحاث كان يتكشّف لي جانب من جوانب شخصية صلاح الدين ودوره القيادي واعتماده شبه الدائم على المشورة في اتخاذ القرار. لكن طبيعة هذه الأبحاث المحددة الهدف لا تساعد في تكوين صورة متكاملة عن شخصيّة الرجل ودوره.

وفي سنة **1990** م كتبت بحثاً مطولاً نسبياً عن صلاح الدين ودوره في استعادة الأراضي المُقَدّسة (لا أعرف إن نشر أو لم ينشر أو بأي صورة نشر) فاتضحت جوانب أخرى جزئية من الصورة، لكنّ البُنْيَة الكليّة بقيت غير واضحة إذ بقي الكثير من جوانب شخصيّة صلاح الدين ودوره وعصره غير مدروسة وغير واضحة أو متكاملة.

وفي بدايات سنة 1993 م، سنة الذكرى المئوية الثامنة لوفاة القائد الكبير، دعيت لإلقاء محاضرة في جامعة العلوم التطبيقيّة الأهلية كانت بعنوان «صلاح الدين وتوحيد الجهد لمواجهة التحدي الصليبي»، استكملت فيه جانباً آخر من جوانب حياة القائد الذي أمضى معظم حياته العامة على ظهر جواده في ميدان المعركة، والذي لم أتطرق له بالتدقيق المناسب في الأبحاث السابقة. وفي ذات الفترة شاركت في ندوة نظمتها كليّة الآداب في الجامعة الأردنية في الذكرى ذاتها، عرضت فيها ملاحظات عامة عن جانب آخر من سيرة صلاح الدين يتعلق بحياته من البداية وحتى ولايته على مصر نائباً عن نور الدين محمود بن زنكي. لكن هذه الملاحظات العامة كانت بحاجة إلى تفصيل وتدقيق مما فتح أمامي المجال إلى مزيد من البحث والتمحيص الذي أدى إلى استكشاف جوانب جديدة في حياته وتطورات عصره.

وعلى الرغم من كل هذه الأعمال التي قمت بها إلاّ أنني وجدت نفسي أمام صورة غير مكتملة وغير شاملة لهذا القائد وعصره، إذ بقي جوانب كثيرة

تحتاج إلى المزيد من البحث والدراسة حتى تتكامل الصورة قَدَر الإمكان وحتى تترابط الأجزاء بشكل شمولي يمكن أن تسمح به المعلومات المتوافرة في المصادر حتى تتضح صورة هذا الإنسان المجاهد والأعمال الكبيرة التي أنجزها والإحباط الكثير الذي واجهه الذي أثر في نفسه وجسمه دون أن يؤثر على عزمه وصبره ومرابطته خلال مُدّة تزيد على أربعة عقود.

كنت في فترة الدراسة والتدريس التي ذكرت سابقاً قد قرأت أكثر ما كتب عن صلاح الدين وأعماله باللغات التي أعرفها وما ترجم إلى العربيّة منها، لكنني لم أتمكن من تكوين الصورة الشاملة عن الرجل القائد ودوره وبالعمق المناسب، الذي يُمَثّل روح الفترة التي عاش فيها وعاصر أكثر عقودها. وقد حفزني كل ذلك على الإقدام على كتابة سيرة هذا القائد والظروف المتشابكة الأحداث التي عاصرها وشارك مشاركة فعّالة فيها وفي صُنع جانب منها خاصة بعد سيطرته على مصر وإقامة الدعوة العباسيّة فيها. ولم أقم في هذه الدراسة، كعادتي، بمناقشة ما كتب الدارسون المحدثون؛ فما كتب يُمَثّل جُهْد من كتب واجتهاده، وما يبقى مما كتب هو ما يمكن من فهم حقيقة الماضي كما كان لا كما يجب أن يكون في تَصَوّر من يكتب.

وقد اعتمدت في كتابة هذه الدراسة أسلوباً مغايراً بعض الشيء للأسلوب الأكاديمي الملتزم كلياً، إذ أكثرت في معالجتي لكل فصول هذه الدراسة من الاقتباس من مصادر ذلك العصر البعيد. وكان هدفي من ذلك إعطاء القارىء لمحات من روح ذلك العصر الذي عاش فيه صلاح الدين، بكل الأفكار والاتجاهات والتيارات والفهم الذي كان سائداً فيه، من مصادر تلك الفترة وشهودها بالرغم من ميول واتجاهات وتعصبات وتحفظات كل واحد منهم في ما سَجّل أو نقل.

وقد يجد القارىء لهذا الكتاب صعوبة في قراءة بعض النصوص على الرغم من محاولتي تفسير بعض المصطلحات وتبسيطها، لكنني آمل أن يأخذ ذلك بحلمه وصبره مع اعتذاري عن الجهد الإضافي الذي سيبذله والذي أرجو أن يكون مفيداً.

وفي هذا التقديم السريع فإنني أود أن أتقَدّم بالشكر الخاص إلى صديقي وزميلي الأخ الأستاذ الدكتور إحسان عباس الذي حفزني بداية إلى القيام بكتابة هذه الدراسة والاستمرار فيها، وقراءة النص بعد اكتماله، وإبداء ملاحظات قيمة ومفيدة حول بعض جوانبه.

وفي الختام فإنني أرغب في القول بأن ما في هذه الدراسة من هفوة أو خطأ في قراءة النصوص وتحليلها هو مسؤوليتي وحدي؛ فالكمال لله سبحانه وتعالى وحده. وأكون شاكراً وممتناً لكل قارىء أو باحث يجد في هذه الدراسة ما يستحق التصويب أن يزودني بها للاستفادة منها في المستقبل، والله ولي التوفيق.

مصطفى الحياري

قسم التاريخ ـ الجامعة الأردنية

آذار 1994

1 نجم الدين وأسد الدين

في فجر اليوم الأول من حزيران (الجمعة 19 صفر 580 هـ) وَصَل الرحَالة الأندلسي ابن جبير، في صحبة ركب الحاج العائد إلى الموصل وديار بكر وغيرها من البلاد، إلى أسوار مدينة تكريت على الشاطىء الغربي لنهر دجلة على أقَلّ من منتصف الطريق من بغداد إلى الموصل. ويَصف الرحَالة المدينة التي كانت تقع على الحَدّ الفاصل آنذاك بين العراق وديار الجزيرة الفراتية، فيقول:

«هي مدينة كبيرة واسعة الأرجاء، فسيحة المساحة، حَفِيلة الأسواق، كثيرة المساجد، غاصّة بالخلق، أهلها أحسن أخلاقاً وقِسْطاً في الموازين من أهل بغداد، ودجلة منها في جوفيها، ولها قَلْعَة حصينة على الشطّ هي قصبتها المنيعة، ويطيف بها سُور قد أثّر الوَهْنُ فيه، وهي من المدن العتيقة المذكورة» [1].

وأمّا ياقوت فقد وصفها بأنها بلدة مشهورة، وذكر قلعتها الحصينة الواقعة في طرفها الأعلى «راكبة على دجلة» من جهة شاطئه الغربي [2].

وفي ذات التاريخ الذي وصل فيه الرحالة الأندلسي الدقيق الملاحظة إلى هذه المدينة العريقة، ومكث فيها يومين فقط، كان السلطان صلاح الدين في مدينة دمشق قاعدة عملياته العسكرية ضِدّ الصليبيين، إذ أَرسل رُسُلَه إلى العساكر يطلبها لموافاته للتوجه بحملة جديدة إلى الكرك قاعدة إمارة أرناط، جنوبي

(1) ابن جبير الرحلة، ص 208.
(2) معجم البلدان، ص 38.

الأردن الحالي، التي كانت وقلعة الشوبك الشوكة الأخيرة على طريق مواصلاته بين مصر والشام التي يتوجب عليه اقتلاعها. وفي يوم الخميس 18 صفر 580 هـ/ 31 أيار 1184 م، كانت عساكر نور الدين ابن قرا أرسلان الأرتقي، صاحب حصن كيفا وآمد ودارا، تصل إلى حلب في طريقها إلى دمشق [1].

قبل حوالي ست وأربعين سنة شمسيّة من زيارة ابن جبير لتكريت كانت قلعتها الحصينة تشهد ولادة القائد الكبير صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي وحّد إمارات العالم الإسلامي المحيطة بالإمارات والممالك الصليبيّة تحت قيادته، ثم قادَها لتحقيق النصر الحاسم في حطين (4 تموز 1187 م)، وحَرّر القُدس الشريف، وكاد يقضي نهائياً على بقايا الصليبيين في بلاد الشام لولا إرادة الله والظروف التي ترتبت على الحرب الطويلة عند أسوار عَكّا وما تلاها.

وحتى نستطيع فهم الدور القيادي الذي قام به صلاح الدين في النصف الثاني من عمره الذي امتَدّ قرابة ستة عقود قمريّة، لا بدّ لنا من عرض لنشأته ومسيرته الأولى وتجربته السابقة لتَولِّيهِ السلطة في مصر وزيراً مطلق الصلاحيات على عادة الوزراء في ذلك الوقت:

تُرَجّح الروايات أن مَوْلِدَ صلاح الدين كان سنة 532 هـ/ 1137 - 1138 م في قلعة تكريت كما ذكرنا. وكان والده نجم الدين أيوب بن شاذي مستحفظاً (والياً) للقلعة فيها ومعه أخوه أسد الدين شيركوه، فماذا كانت أوليات هذا البيت الذي أسَّسَ عميده الأول دولة حكمت قلب العالم الإسلامي مُدّة تقارب القرن من الزمان؟.

تختلف الروايات في أصْل ونسب البيت الأيوبي. وقد حاول الملك الأمجد حسن بن الناصر داود بن المعظم عيسى بن العادل بن نجم الدين أيوب أن يَحِلَّ الإشكال في كتاب: **الفوائد الجليّة في الفرائد الناصرية** [2]. كما حاول

---

(1) النوادر، ص 66.

(2) النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ج 28 تحقيق محمد أمين ومحمد حلمي أحمد، مركز تحقيق التراث، القاهرة 1992، ص 351 وما بعدها.

غيره من المؤرخين وأصحاب كتب التراجم قبله الوصول إلى نتيجة دون طائل. والمتفق عليه هو ما ذكره ابن أبي طيء في كتابه.

«وقد نَقَّبْتُ عن ذلك، فأجمع الجماعة من آل أيوب. . . أنّ جميع آل أيوب لا يعرفون جداً فوق شاذي. وكذلك أخبرني الملك الناصر (صلاح الدين). . .

ودليل صحة ذلك أني وقفت على وقف الرباط النجمي بدمشق، ولم يزد فيه على: نجم الدين أبو سعيد أيوب بن شاذي العادلي»[1]، نسبة إلى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي.

واختلف أيضاً في الأصل العرقي له، هل هو كردي أم غير ذلك؟. والمتفق عليه أن البيت الأيوبي كردي أذري من بلدة دُوَين من بلاد أذربيجان من الأكراد الرّوادية، «وهذا النسل هم أشرف الأكراد»[2]. وقَدْ شكك الملك الأمجد المذكور في النسب الكردي، فقال:

«والمشهور عند بيتنا أنّ جَدّنا نزل على الأكراد وتَزَوّج منهم، فَصَارت بيننا وبينهم خؤولة لا غير. ويَدُل على ذلك أن السلطان. . . صلاح الدين يوسف، لمّا ملك البلاد تَقَدّم في دولته جماعة من الأكراد، فلم يبق منهم أحد إلاّ جاء بنو عمه وأقاربه حتى صار في عصبة من أهله، والسلطان رحمه الله لم يأت إليه من يَمُتُّ بقَرَابة إلاّ من جهة النساء فقط. ولو كان من الرّوّادية لكان جميع القبيلة أولاد عَمّه، وإن لم يكن له

---

(1) الروضتين، 1 ص 210. وتَدُلّ النسبة إلى أنّه ارتبط منذ دخوله في خدمة آل زنكي مع الملك العادل نور الدين، ومن هُنا كان الارتباط الوثيق بينهما.

(2) يذكر ذلك ابن الأثير عند وفاة أسد الدين شيركوه. انظر الكامل، 11 ص 341. واعتمد عليه غالب من كتب عن أصلهم. انظر مناقشة الآراء في منورسكي: «Pre - history of Saladin» in **Studies in Coucasion History,** Taylor's Foriegn press, London, 1953, pp. 130 .FF

ومن المفيد ملاحظته أن صلاح الدين كان من المهتمين بالأنساب (القبائل، والخيل) كما يذكر بعض من ترجم له.

ابن عم قريب فيكون ابن عم بعيد قطعاً، لأن القبيلة كُلّها أولاد رجل واحد. ولا شكّ أن الدواعي تَتَوَفر على الانتماء إلى الملك ما لا تتوفر على الانتماء إلى الأمراء»[1].

وقد شكّك ابن أبي طيء أيضاً في كون نجم الدين من مواليد دُوين إذ قال عن مكان مولده:

«ببلد شَبُختان، كذا حكاهْ مؤيد الدولة بن منقذ.

وحدثني جماعة: أن مولد نجم الدين كان بجبل جور، ورُبي ببَلَد الموصل»[2].

ومهما كان أصل البيت الأيوبي، فإن البدايات المعروفة لهذا البيت تتصل بالعلاقة بين الخادم الأبيض (الخصي) بِهْرُوز وبعض سلاطين السلاجقة في بداية القرن الخامس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وبقلعة تكريت. ذلك أن الروايات تذكر علاقة صداقة بين بهروز وشاذي جَدّ البيت الأيوبي في أرمينية أو أطرافها مع ديار بكر، وأنّ هذه العلاقة استمرت بعد انتقالهما إلى خدمة سلاطين السلاجقة في إقليم الجبال وأرمينية وأذربيجان.

كان بَهْرُوز الخادم قد دخل في خدمة السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي وتولى تربية ابنه، ثم عينه سنة 502 هـ/ 1108 - 9 م شحنكية بغداد[3]. والشحنة في ذلك العصر وظيفة تشبه وظيفة صاحب الشُرْطة قبل ذلك

---

(1) نهاية الأرب، 28 ص 352.

(2) الروضتين، 1 ص 210. وشبختان من البلاد التي يرد ذكرها في المصادر التاريخية في نواحي ديار بكر، لكن ياقوت لا يذكرها، أما جبل جُور فـ «اسم لكورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي أرمينية، أهلها نصارى أرمن، وفيها قلاع وقرى» معجم، 2 ص 102، وهنا يلاحظ القادة من أصول أرمنيّة، ممن أسْلَم، وكان في خدمة صلاح الدين أثناء سلطنته.

(3) المنتظم، 9 ص 159 وعنه مرآة الزمان، 8 ص 27؛ الكامل، 10 ص 471. كان السلطان محمد قد قبض على صاحب مخزن الخليفة ووزيره واعتقلهما ثم أطلقهما في هذه السنة «وقرَّر عليهما مالاً يحملانه إليه» فأرسل بهروز لقبض المال وعمارة دار المملكة، ففعل ذلك. وعندما قدم السلطان بغداد، ولاّه شحنكيّة العراق. الكامل 10 ص 471.

مع صلاحيات أوسع بكثير خاصة بالنسبة لممثل السلطان السلجوقي في بغداد، عاصمة الخلافة العباسيّة ومقر دارٍ للسلطنة للإقامة عندما يزور السلاطين بغداد. وكانت بغداد تحكم آنذاك من قبل سُلْطتين: سُلطة الخليفة وجهازه الإداري الصغير، وسلطة ممثل السلطان السلجوقي المتنفذ في العراق. وكانت أوامر السلطان لبهروز بعمران دار السلطنة[1] «وملاحظة الأعمال بالعراق، فحفر السواني [القنوات] فرخصت الأسعار...»[2]. وأقطع السلطانُ بهروزَ تكريت وبلادها[3] مقابل الخدمات التي يقدمها للدولة. ويبدو أنّ الشحنة عين في هذه السنّة صديقه شاذي مستحفظاً لقلعة تكريت التي استعيدت من الأمير صدقة بن مزيد الأسدي، العربي الأسدي، الذي استولى عليها سنة 500 هـ/ 1106 م[4]. أما ابن أبي طيء فقد ذكر أن نجم الدين كان في خدمة السلطان محمد بن ملكشاه «فرأى منه أمانة وعقلاً وسَداداً وشهامة، فولّاه قلعة تكريت، فقام في ولايتها أحسن قيام، وضبطها أكرم ضبط، وأجلى من أرضها المفسدين وقطاع الطريق وأهل العيث حتى عمرت أرضها، وحَسُن حال أهلها، وأمنت سبلها»[5] أما أسد الدين فقد كان معه على إقطاع قدرت قيمته بـ 900 دينار في السنة[6].

(1) المنتظم، 9 ص 159؛ أبو الفداء، المختصر، 2 ص 224. وقد تكاملت عمارة دار السلطان سنة 509/ 1115 م «وحمل إليه [بهروز] أعيان الدولة الفرش والبسط والأواني...» المنتظم، 9 ص 182. واحترقت الدار سنة 515/ 1121 م، ويعلق سبط ابن الجوزي: «وهذه الدار التي بناها بهروز الخادم من أنقاض دور الناس، واستعمل في عمارتها أهل بغداد حتى القضاة والأشراف والأعيان، وكانوا ينقلون الأنقاض في طيالسهم. ولمّا كملت أمرهم.. أن يحملوا إليها الفرش والبسط وغيرها، فحمل الناس إليه ذلك. ولا جرم أن مآلها كان إلى الحريق والخراب». مرآة الزمان، 18 ص 96 - 97.

(2) المنتظم، 9 ص 159.

(3) كان السلطان محمد بن ملكشاه قد أقطعها قبل سنة 500 هـ/ 1107 م بقليل للأمير آقسنقر البرسقي، شحنة بغداد آنذاك، فسار إليها وحصرها مدة تزيد على سبعة أشهر، فراسل صاحبها صدقة بن مزيد الأسدي ليسلمها إليه، فسار صدقه إليها وتسلمها منه في صفر من السنة الكامل، 10 ص 520.

(4) انظر عن ذلك وولاياتها السابقة. أبو الفداء، المختصر، ص 221.

(5) الروضتين، 1 ص 210.

(6) نفسه، 1 ص 173.

وبعد تولي محمود بن محمد السلطنة سنة 511 هـ/ 1117 م، قام في السنة التالية بعزل بهروز عن شحنكيّة بغداد، وعين مكانه الأمير آقسنقر البرسقي، فسار الشحنة المعزول إلى إقطاعه تكريت، وأقام فيها[1] معزولاً مدة سنة إذ أعاده السلطان سنجر إلى منصبه السابق في السنة التالية[2]. ثُمّ عزل عنها. ويرد في أخبار سنة 519 هـ/ 1125 م أنه كان في تكريت، وبعد سنيتن أعيد إلى تكريت، وبعد سنتين أعيد إلى ولاية الشحنة في بغداد، وفي هذه المرة استمر في منصبه متقطعاً حتى وفاته سنة 540 هـ/ 1145 م. وقد أدار شؤون العراق بكفاية عالية مُدّة تزيد على ثلاثين سنة نيابة عن أسياده سلاطين السلاجقة في فترة مليئة بالصراعات بين أبناء البيت السلجوقي على السلطة[3].

كان العراق، في العقد الثاني من القرن الخامس الهجري (1117 ـ 1126 م)، وكذلك بلاد السلاجقة الشرقيّة، بعيدة عَمّا يجري من تطورات في بلاد الشام التي أقام الصليبيون فيها إمارات وممالك توسَعت على حساب الأتابكيات السلجوقية وغيرها هناك. أما منطقة الجزيرة الفراتية (شرق الفرات)، خاصة إمارة عماد الدين زنكي، في الموصل والبلاد التابعة لها، فقد كانت على اتصال وثيق بكل ما يجري في بلاد الشام. أما تكريت الواقعة على الحدود بين العراق والجزيرة الفراتية (ديار ربيعة) فقد كانت تحتضن في جوف قلعتها رجلين استحوذا هما وأبناؤهما من بعدهما على كُلّ الاهتمام في النصف الثاني من القرن المذكور والنصف الأول من القرن الذي يليه: نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه.

في سنة 526 - 527 هـ / 1132 - 1133 م وقع حادثان في قلعة تكريت ومدينتها كان لهما دورٌ كبير في حياة عائلة شاذي: الأول يتعلق بوجيه كبير من رجال دولة السلاجقة أو إحدى دولها، والثاني يتعلق بالأتابك زنكي، ففي السنة

---

(1) أبو الفداء، المختصر، 2 ص 230. وانظر عن سبب عزله والتطورات التالية في شحنكية بغداد. الكامل 10 ص 533 - 534.

(2) الكامل، 10 ص 560.

(3) انظر الكامل، 10 ص 646، 11 ص 106: المنتظم، 10 ص 117.

السابقة توفي السلطان محمود وقبل وفاته قام وزيره بإلقاء القبض على نصر بن حامد الإصفهاني المعروف بالعزيز مستوفي السلطان أو وزير ماليته، وأرسله إلى بهروز الخادم لاعتقاله في قلعة تكريت الحصينة، فقام بهروز بما طلب منه. واهتم نجم الدين أيوب، الذي لم يكن من شيمه الشدَّة في المعاملة والحقد، بضيفه أكبر اهتمام، خاصة وأن الضيف كان من المقربين من السلطان المنافس ومن بيت معروف في خدمة السلاطين. يذكر العماد الإصفهاني، ابن أخي الضيف:

«ثم قالوا للسلطان: الصواب إنفاذه إلى معقل... فَسُلِّم العزيز إلى شحنة بغداد حتى سيّره إلى تكريت...»[1].

وكتب السلطان إلى العزيز بتكريت يأمره بالصبر ويَعده بالإطلاق، لكن السلطان (محمود) توفي قبل أن ينفّذ وعده. وكان السلطان الجديد يميل إلى العزيز، وعندما مَرّ على تكريت في طريقه إلى بغداد حاول إخراج العزيز من معتقله وتوليته وزارته، إلاّ أن وزير السلطان سنجر، صاحب خراسان، أفشل الخطة بالاتفاق مع بهروز الذي أرسل أحد مماليكه إلى تكريت فسار في ليلة واحدة 40 فرسخاً (حوالي 240 كيلومتراً):

«ودخل على العزيز وأخذ بيده [كان في المدينة] وردّه إلى القلعة»[2].

وتمكّن الوزير من أخذ توقيع السلطان على بياض ليُزَوِّره حتى يتمكّن من قتل العزيز، فأتَمَّ التزوير وأرسل الكتاب إلى بهروز، فكتب الأخير إلى نجم الدين أيوب:

«هذا توقيع السلطان مع صاحب وزيره، يأمر بقتل العزيز وتسليمه إليه وتَسْيِيره»[3].

---

(1) تاريخ آل سلجوق، ص 142.
(2) المصدر نفسه، ص 152.
(3) المصدر ذاته، ص 155.

لكن نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه رفضا تسليم العزيز إلى الرسول، ممّا أثار حفيظة الوزير فأمر بهروز بالمسير بنفسه إلى تكريت وقتله.

«فلم يشعر النجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه حتى هَجَم الخصي [بهروز] عليهما القَلعة، وقال لهما: قد دافعتما عن هذا الرجل دُفْعَات، فكيف هذه الدُّفَعة».

فحاولا مَرَة أخيرة منع قتله، لكن أحد أعوان الوزير الذين رافقوا الوزير قام بقتله وهو يُصَلّي [1].

وكانت هذه الحادثة بداية الاتصال بين البيت الأيوبي وعائلة الإصفهاني وصار لعماد الدين الأصفهاني الكاتب بَعْدُ دور كبير في دولة السلطان صلاح الدين. صلاح الدين.

ورغم أن نجم الدين خالف بهروز الخادم أكثر من مَرّة إلاّ أنه أبقاه وأخاه في منصبيهما، فعلاقات سلاطين وأمراء البيت السلجوقي المُتَقَلِّبة أوصلت مسعود بن محمد بن ملكشاه الذي كان يرغب بتولية العزيز وزارته إلى عرش السلطنة في العراق وإيران الغربيّة، كما أنّ الوزير الذي دَفَع بهروز إلى قتل العزيز قُتِل بدوره بعد أربعين يوماً من الحادثة المؤلمة. وأقر السلطان الجديد بهروز على إقطاعه تكريت، وولّاه جميع بلاد العراق، فأقَرَّ بدوره الأمير نجم الدين في ولاية تكريت وقلعتها «وأضاف إليه النَّظَر في جميع الولاية المتاخمة له. وقرَّر أمره عند السلطان مسعود»[2].

أما الحادثة الثانية فقد وقعت قبل مقتل العزيز بقليل. فبعد وفاة السلطان محمود قام أخوه مسعود بالمطالبة بعَرش السلطنة، ووقع خلاف مع الخليفة العباسي الذي كان له موقف آخر، فطلب مسعود مساعدة عماد الدين زنكي للوصول إلى بغداد والخطبة له بالسلطنة فيها. وسار زنكي «الذي لا يستطيع مخالفة سيده وولي نعمته، بقواته باتجاه بغداد فلاقته قوات السلاجقة الآخرين

(1) المصدر نفسه، ص 156.
(2) الروضتين، 1 ص 210.

بقيادة قراجا الساقي عند المشعوق مقابل سامراء[1]، فَهُزِم عسكر زنكي ووَلّى هو هارباً نحو تكريت والتجأ إليها:

«ولجأ إلى سور تكريت وبه عِدّة جِرَاحات، وعَلِم به نجم الدين وأخوه شيركوه فمتحاه [سحباه] إلى القلعة بحبال، وداويا جراحاته، وخدماه أحْسَن خدمة، وتَقَرّبا إليه، فأقام عندهما خمسة عشر يوماً. ثُمّ سار إلى الموصل؛ وأعْوَزَه الظهر [ما يحمل عليه من دواب] فأعطياه جميع ما كان عندهما من الظهر حتى أنهما أعطياه جملة من البقر حمل عليها ما سلم معه من أمتعته. فكان زنكي يرى لأيوب هذه اليد، ويعرف له هذه الصنيعة، ويواصله بالألطاف مُدَة مقامه في تكريت»[2].

وهذا العمل مكّن من استمرار حكم البيت الزنكي من ناحية كما كان أيضاً، كما يقول ابن الأثير، «سبباً لاتصاله [أيوب] به والمصير في جملته حتى آل بهم الأمر إلى ملك مصر والشام وغيرهما»[3].

واستقرت أحوال الأميرين في قلعة تكريت ومدينتها وسَطَ بحر من الصراعات الدموية بين الخلفاء والسلاطين والأمراء الأتراك والأمراء العرب، قانعين بما قُدِّر لهما، ويُراقبان من أبراج قلعتها حركة القوافل والجيوش في مختلف الاتجاهات، لا يعكر صفو الحياة سوى ضيف جديد أرسل للاعتقال خلف أسوار القلعة الحصينة أو زيارة مفاجئة من بهروز للقيام ببعض مهام الدولة وللاطمئنان عن ما ادخره فيها لأنه، كما يروى، جعلها «... خزانة أمواله وبيت عقائله، وجعل جميع ذلك منوطاً بالأمير نجم الدين ومعْقوداً بهمته»[4]. وتصف الروايات سياسة الأميرين: فتقول عن الأمير نجم الدين في تكريت بأنه

---

(1) ابن جبير، الرحلة، ص 207. ويصِفُه بأنّه حصن قُرب دجلة، قبل تكريت من جهة بغداد «ويقال أنّه كان متعرجاً لزبيدة ابنة عم الرشيد وزوجة... وعلى قُبالة هذا الموضع في الشطّ الشرقي مدينة سُرّ من رأى...».

(2) الروضتين، 1 ص 21 - 211.

(3) الكامل، 10 ص 675.

(4) الروضتين، 1 ص 211.

كان محبوباً من الناس لدينه وخَيْره وحسن سياسته خاصة تجاه أهل العلم والدين من المقيمين لديه أو المارين بقلعته، يغدق عليهم الأموال حسب الإمكان، وكان لا يفارق القلعة ولا يخرج منها. أما أسد الدين الشجاع، ورجل الحرب والنزال، فقد كان أيضاً يعيش مع أخيه في القلعة، ولا نعرف طبيعة العمل الذي كان يقوم به وربما كان كالشحنة في المدينة، وكان يخرج من القلعة «ويصعد إليها في أسبابه وحاجاته».

وفي يوم من أيام سنة 532 هـ/ 1137 - 1138 م، وقعت حادثة في المدينة أدّت إلى طرد الأميرين من القلعة ومن الخدمة البهروزيّة والسلجوقيّة:

قَتَل أسد الدين كاتِبَ بهروز، وعندما وَصَل الخبر إلى الخادم المذكور، أرسل كتاباً إلى نجم الدين أيوب «يُنكر عليه ما جرى من أخيه، ويأمره بتسليم القلعة إلى نائب سَيَّره مع الرسول»[1]. وتَقَبّل نجم الدين الطرد من المركز الذي خدم فيه مدة طويلة دون معارضة أو تذمر، وقَرّر بعد التشاور مع أخيه التوجه إلى عماد الدين زنكي في الموصل اعتماداً على خدمتهما السابقة له وعلاقاتهما الوثيقة معه بعد ذلك، وأملاً في إعطائهما فرصة حياة جديدة في خدمته ويستفيد من خبرتهما الإداريّة (نجم الدين) والعسكريّة (أسد الدين) في بلاده التي كانت تتسع سَنَةً بعد أخرى. وأرسل نجم الدين أخاه أسد الدين إلى الموصل لتمهيد الأمر، ثم:

«وأنْزَل من القلعة جميع ما كان له بها من أهل ومال...»[1].

ويروي ابن أبي طيء رواية موثقة عن أحد أصحاب نجم الدين وأحد غلمان الأمير نجم الدين نفسه، جرى التحدث في مجلس نجم الدين في القاهرة قبل وفاته بسنة واحدة، أنّ صلاح الدين وُلِدَ في الليلة التي وصل فيها أمر بَهْرُوز بخروجه من تكريت: (على لسان نجم الدين).

«... إنني ليلة رُزقت هذا الولد ـ يعني السلطان الملك الناصر ـ

---

(1) الروضتين 1 ص 211.

أمرني صاحب قلعة تكريت بالرِّحْلَة عنها... وكنت قد ألفت القلعة وصارت لي كالوطن، فثَقُل علي الخروج منها والتحول عنها إلى غيرها، واغتممت لذلك. وفي ذلك الوقت جاءني البشير بولادته فتشاءمت به وتطيرت لماجرى عليّ... وخرجنا من القلعة وأنا على طِيرَتي لا أكاد أذكره ولا أسمّيه...»[1]؛ فتدخل كاتبة وهَوَّن عليه الأمر، فتقبل الأمير قَضَاء الله وعطف على المولود الرضيع.

وسار في قافلة نحو الموصل. أما موقف سُكّان مدينة تكريت فإنه قد عَزّ عليهم طَرْده بحيث «لم يبق أَحَدٌ [من أهلها] إلاّ خرج لتوديعه، وأظهر البكاء والأسف على مفارقته»[2]:

واستقبل زنكي الأميرين استقبالاً حافلاً، ويروى أنه «أمر بلقائهما وأكرمهما إكراماً عظيماً». ولا يقام اللقاء عادة خارج حدود العاصمة إلاّ للأمراء الكبار، ومنح كل واحدٍ منهما إقطاعاً مناسباً. ويروى أن إقطاع نجم الدين كان في بلاد شهرزور (534 هـ/ 1139) وقطاع أسد الدين بالمُوزر (535 هـ/ 41 - 1140 م): الأول في إقليم كردستان والثاني على الحدود بين ديار بكر وديار مضر من الجزيرة الفراتية الذي كان قد استعاده من الصليبيين.

وكان وزير زنكي وأبنائه من بعده في الجزيرة آنذاك جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الإصفهاني الذي صحبه زنكي معه عندما تولى الموصل. ولم يكن هذا الوزير رجلاً قديراً فحسب وإنما كان كريماً كثير الخير وكثير الأوقاف والأعمال العمرانية في كل بلاد الجزيرة الفراتية وحتى المدينة المنوّرة في الحجاز[3]. ويروى أنه قامت بينه ومن أسد الدين مَودّة وصداقة حميمة بحيث «حَلَف كل واحدٍ منهما للآخر بأن يقوم بأمره في حياته وحَتّى بعد وفاته»[4]. ويبدو أنّ الرجلين اتفقا على أن يُدْفَنا في المدينة المنوّرة. ومن هنا

---

(1) الروضتين 1 ص 211.

(2) المصدر نفسه.

(3) الوفيات 5، 143 - 146، وتراجمه الكثيرة في كتب الطبقات والتاريخ.

(4) الروضتين، 1 ص 211.

يمكن أن نفهم اهتمام أسد الدين شيركوه بعد وفاة جمال الدين (559 هـ/ 1164 م) بتسهيل نقل جثمانه إلى المدينة، كما دفن كل من أسد الدين (ت 564 هـ/ 1168 م) ونجم الدين (568 هـ/ 1172 - 1173 م) في المدينة أيضاً.

واهتم الوزير الإصفهاني اهتماماً كبيراً بالأميرين الوافدين من تكريت، وشجع زنكي على الاستفادة من خبراتهما وإمكاناتهما. ولم يخيب نور الدين أمل وزيره فجعل نجم الدين مع ابنه الأكبر سيف الدين غازي، كما جعل أسد الدين مع ابنه الثاني نور الدين محمود. وسنرى في ما يلي أثر هذه العلاقة على أوضاع الأمير نجم الدين بصورة خاصة عند مقتل زنكي.

كان زنكي في الوقت الذي التحق به نجم الدين وأسد الدين في خدمته قد بدأ يركز اهتمامه في المناطق الغربيّة الخاضعة لولايته في الجزيرة الفراتية وبلاد الشام، نظراً للتحدي الكبير الذي مثلته الإمارات الصليبيّة آنذاك، والتي كانت قد ثَبّتَت نفوذها في سواحل الشام كله جنوباً حتى حدود عسقلان، وعلى حدوده الغربيّة في الجزيرة الفراتية (إمارة الرها) حتى جملين والموزر (استرد الأخيرة 535 هـ/ 1141 م). وما أن نصل إلى أوائل العقد الخامس من القرن الخامس الهجري حتى كانت إمارات الرها وأنطاكية وطرابلس ومملكة القدس الصليبيّة قد وصلت إلى أقصى امتداد لها نتيجة توسعها التدريجي على حساب الإمارات الإسلامية المجاورة، بحيث وصلت إلى أطراف ديار بكر وحفرة الانهدام من جبال طوروس شمالاً وحتى جزيرة فرعون (عند مدخل خليج العقبة) وحدود مصر جنوباً، وصارت تهدد مراكز الاستقرار الكبرى في بلاد الشام: دمشق وحلب وحماة وحمص، بصورة دائمة.

ولما كانت حلب وبلادها قد صارت تتبع زنكي بعد سنة 528 هـ/ 1133 م مضافة إلى الموصل وبلادها، فقد كان عليه للتصدي للإمارات الصليبية على الجبهتين، كما أخذ يعمل على توحيد الجُهْد، باللين حيناً وبالقُوّة أحياناً أخرى، مع أتابكية آل طغتكين في دمشق والمناطق الجنوبية من بلاد الشام، خاصة وأن أصحاب دمشق كانوا يواجهون ضَغْطاً عسكرياً مستمراً من مملكة بيت المقدس اللاتينية وإمارة طرابلس، وضَعْفِ إمكاناتهم العسكرية وأعْداد قواتهم الذي لم

يمكنهم من مواجهة الضغط المستمر بصورة مناسبة نظراً لاتساع جبهة المواجهة في هذه المناطق، مما كان يدفعهم إلى عقد المهادنات المؤقتة معهم بشروط محددة، وإلى اللجوء إلى نظام المقاسمات[1] مع أصحاب القدس وطرابلس من ملوك وكونتات الصليبيين. كما أن هذا الضعف دفع أصحاب دمشق إلى التخلي كلياً عن المنطقة من شرقي الأردن التي تمتد من وادي الموجب شمالاً وحتى جزيرة فرعون وخليج العقبة جنوباً، والتي استغل الصليبيون الوضع فيها، فأقاموا إمارة (أو بارونية) الكرك ـ الشوبك المشهورة التي هَدّدت الشريان الحيوي للمواصلات في بلاد الشام للخطر الدائم: طريق الحاج الشامي وطريق المواصلات إلى مصر والمغرب بحيث تحول الطريق إلى الشرق بعيداً عن مناطق السيطرة الفعليّة للصليبيين كما تحَوّل طريق الحاج المصري التقليدي (من القاهرة ـ السويس ـ العقبة) إلى وادي النيل وميناء عيذاب[2] على البحر الأحمر ومن ثَم إلى سواحل الحجاز فالمدينة ومكة؛ أما قوافل التجارة فصارت تحتاج إلى حماية عسكرية مناسبة.

وبعد تولي زنكي حلب ـ إضافة إلى الموصل ـ أخذ يهتم بأمور أتابكية دمشق الضعيفة، فاستولى على حمص وأتبعها له. وفي سنة 533 هـ/ حزيران 1138 م جاءت الفرصة المناسبة للتدخل في شؤون دمشق المهادِنة للصليبيين، ففي هذه السنة قتل صاحب دمشق من آل طغتكين وتولى السلطة مكانه أخوه محمد الذي كان في ذلك الوقت يتولى مدينة بعلبك. وفوض محمد أمور دولته إلى معين الدين أُنَرْ، مَمْلوك جَدّه. وصار أنر هو صاحب السلطة الفعلية في دمشق أو كما قال ابن الأثير: «هو الجملة والتفصيل»[3]، وأقطعه بعلبك وبلادها. لكنّ محمداً توفي في العشر الأول من شعبان من السنة التالية وتولى مكانه ولده مجير الدين آبق فأبقى لأُنَر مكانته في الدولة وإقطاعه، فأرسل هذا بدوره نائباً عنه في بعلبك.

---

(1) سنتحدث عن هذا الموضوع بتفصيل أكثر عند الحديث عن صلح الرملة.
(2) عيذاب: على شاطىء البحر الأحمر الغربي مقابل جُدّة وسواحل الحرمين الشريفين.
(3) الكامل، 11 ص 68.

وعندما علم زنكي بهذه التطورات في دمشق توجّه إليها بقصد الاستيلاء عليها، خاصة وأن والِدَةَ صاحبها الذي قتله الأمراء طلبت مساعدته للثأر لولدها. وفي ذي القعدة 533 تموز 1138 توجّه الأتابك إلى دمشق. وفي الطريق قام بحصار قلعة بعلبك (20 منه / 19 تموز) ونصب عليها 14 منجنيقاً وشدّد الحصار عليها، واستمر ذلك عِدّة شهور مما دفع أهل المدينة إلى طلب الأمان لأنفسهم، فقَبِل ذلك وتسَلّم المدينة. أما القلعة فإن حاميتها التركيّة من أصحاب أنر استمروا في القتال على أمل وصول إمدادات من سيدهم. ولمّا لم تصل الإمدادات «طلبوا الأمان، فَسَلّموا القلعة إليه». ويذكر ابن القلانسي المعاصر العالم بالتطورات:

«فلّما حصلت في ملكه، نكث عهده، ونقض أمانه لحنقٍ أَسَرَّه، وغيظ على من فيها أَكنَّه، فأَمَرَ بصلبهم ولم يفلت منهم إلاّ من حماه أَجله، فاستبشع الناس ذلك من فعله، واستبدعوه من نكثه»[1].

وكان ذلك من العوامل التي دفعت أهل دمشق بعد ذلك بقليل إلى عدم الاطمئنان له وتسليم المدينة إليه خوفاً من أن يعمل بهم ما عمله ببعلبك[2]. لكن ما لا تذكره هذه المصادر أن الأُمَراء في القلعة لم يَفُوا بشروط التسليم المعروفة عادة في عمليات الحصار وهو ترك الأسلحة والذخائر والمؤن في القلعة على ما هي عليه. ويذكر ابن أبي طيء أن الأمراء قاموا بإفساد ذخائر القلعة قبل نزولهم منها، وعند ذلك:

«. . . قبض عليهم أتابك زنكي، وقتل بعضهم وصَلَبَهم. وكانَ وَلَّى قَتْلهم [للأمير] صلاح الدين محمد بن أيوب الياغسياني، فحكى أنّه أحضر إليه في جملة الأمراء شيخ مليح ومعه ولد له. . فقال الشيخ لصلاح الدين: سألتك بحياة المولى أتابك الاّ صلبتني قبل وَلَدي لئلا أراه يعالج سكرات الموت وبكى. . . ».

---

(1) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، 423. ويذكر ابن شداد أن تاريخ استسلامهاكان 13 صفر سنة 534 (9 تشرين الأول 1138 م)، الأعلاق، 2/2 ص 47.
(2) الكامل، 11 ص 69.

وهنا تدخل **الأمير نجم الدين أيوب**، الذي كان حاضراً الحصار، وطلب الرحمة للشيخ وبكى، وسأل الأمير في إطلاقه، لكن الياغسياني اعتذر قائلاً: «ما أفعل خوفاً من المولى [زنكي]». عند ذلك ذهب نجم إلى أتابك زنكي وشفع في الشيخ وحكى له القصة، فقبل شفاعته وأمر بإطلاق بقية الأمراء. ثم رتَّب زنكي أمور بعلبك، وولّى عليها نجم الدين أيوب صاحب الخبرة الطويلة في ولاية القلاع الاستراتيجية الحصينة[1]. وفي هذه المدينة وقلعتها أمضى صلاح الدين يوسف، الذي كان في ذلك الوقت في أوائل (أو أواسط) السنة الثانية من عمره، سنوات طفولته وبداية شبابه حتى أيام نور الدين محمود (سنة 1146 م).

وعلى الرغم من ذلك فإن أهالي دمشق وجندها وقفوا إلى جانب آبق وأنر بقوة عندما حاصر زنكي المدينة بعد سقوط بعلبك مباشرة، مما أدى إلى تأخير عمليّة توحيد الشام مُدّة عقد ونصف من الزمان. وخصّص زنكي للوالي الجديد نصفها (أو ثلثها في رواية أخرى) هِبَة وملكاً. وقام نجم الدين ببناء رباط للصوفية فيها.

كانت بعلبك في ذلك الوقت مدينة سَهْل البقاع الخصيب الكبرى ولا تُقطع إلاّ لكبار أمراء آل طغتكين وكبار أمراء دولتهم، ومن المراكز الهامة التي تتبع دمشق، وقد وصفها ابن شداد فقال:

«. وهي مدينة على جبل، ولها قَلْعَة محكمة البناء، وعليه سُورٌ مبني بالحجر الصلد سعته [عرضه] سبعون شبر، وبها بئر يُسَمّى بئر الرحمة. . . والماء يشق البَلَد والقلعة ويدخل دُورها، وعليه أرحاء. . .»[2].

وصارت مدينة السهل الخصيب التي تتحكم بطرق المواصلات تابعة لحلب بعد استيلاء زنكي عليها، ووقع على واليها والقلعة مهمة حمايتها وحماية

---

(1) **الروضتين**، 1 ص 33 - 34.

(2) **الأعلاق الخطيرة**، 2/2 ص 42. ثم يذكر من تولاّها.

الحدود مع الإمارات الصليبية في هذه المنطقة الاستراتيجية ومع إمارة دمشق القريبة منها. ومع ذلك فإن بعلبك وبلادها لم تتعرض، حسب المعلومات المتوافرة، للغارات من قبل هاتين القوتين في خمس سنوات من ولاية نجم الدين إلاّ مرة واحدة في ربيع سنة 539 هـ/ تشرين الأول 1144. في هذا الوقت هاجمت قُوّة صليبيّة كبيرة منطقة البقاع حولها بقَصْد العيث والتخريب وشن الغارات، فخرجت حامية القلعة للقائهم وتمكنت من هزيمة القوة المذكورة وقَتْلِ معظم أفرادها والاستيلاء على كل ما لديهم من أشياء سلبوها في طرق تقدمهم، وعادت فلول الفرنج إلى الساحل. أما الحامية فقد عادت إلى بعلبك محملة بغنائمها[1]. وتَمّت هذه الواقعة قبل شهرين تقريباً من استعادة زنكي لمدينة الرها وبلادها من أيدي الصليبيين. (كانون أول 1144).

إغتيل عماد الدين زنكي بعد سنتين تقريباً من استعادة الرها (ربيع الآخر 541/ أيلول 1146). وفجأة برزت مشكلة من يتولّى من أبنائه السلطة مكانه. فعَادة الأتراك، إذا لم ينُص الأمير أو الملك على من يخلفه، أن يتولى أكبر أفراد العائلة الحاكمة السلطة مكانه في جميع بلادها فيُقْطِعَ البقية مناطق تكفيهم ومن معهم. ويبدو أنّ قتل زنكي المفاجئ دون وصيّة هو الذي أدى إلى قسمة البلاد التي كانت تخضع لسيطرته بين ولديه الكبيرين بالرغم من رغبة (وعمل) الابن الأكبر على أن يكون هو المُتَفرّد بكل شيء.

خلّف زنكي أربعة أولاد، هم: سيف الدين غازي الأكبر وكان يتولّى شهرزور ونور الدين محمود وقطب الدين مودود ونصرة الدين ميرميران، وانقسمت الأمراء والعساكر إلى حزبين: عساكر الموصل التي التف أمراؤها حول سيف الدين غازي وقطب الدين مودود، وعساكر حلب التي وقف أمراؤها إلى جانب نور الدين الذي يبدو أن بلاد الشام كانت تحت إدارته. وسارع كل عسكر إلى مركز منطقته. وتوجه سيف الدين (ومعه ابن السلطان السلجوقي الذي كان زنكي يقوم بتربيته) والوزير جمال الدين والياغسياني ـ قائد قواته ـ إلى

(1) ابن القلانسي، تاريخ، ص 435.

الموصل فدخلوها وثبتوا ملك الابن الأكبر بَعْد أبيه، أما نور الدين فقد حمله سِوار وأسد الدين شيركوه إلى حَلَب وثَبّتُوا سلطته في بلاد الشام. ويُفصّل ابن أبي طيء الحلبي كيف تَمّ ذلك:

«لمّا اتصل قتل أتابك [زنكي] بأسد الدين شيركوه ركب من ساعته وقَصَد خيمة نور الدين، وقال له: إعلم أن الوزير جمال الدين قد أخذ عسكر الموصل وعَوَل على تقديم أخيك سيف الدين، وقَصَده إلى الموصل، وقد انضوى إليه جل العسكر. وقد أنفذ إليّ جمال الدين وأرادني على اللحاق به فلم أعرج عليه»، وقد رأيت أن أصيّرك إلى حلب وتجعلها كرسي مُلكِكَ، وتجتمع في خدمتك عساكر الشام، وأنا أعلم أنّ الأمر يصير جميعه إليك، لأن مُلْك الشام يحصل بحلب ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق. فركب وأمر أن يُنادي في الليل بعساكر الشام بالاجتماع، فاجتمعوا وساروا في خدمة نور الدين إلى حلب ودخلوها سابع ربيع الأول» (17 آب 1146 م).

«ولمّا دخلوا حلب جاء أسد الدين إلى تحت القلعة ونادى واليها، وأصْعَدَ نور الدين إليها، وقَرَّر أمره ومَشّى أحواله، فكان نور الدين يرى له ذلك وأسد الدين يَمَنّ بأنه كان السبب في توليته» [1].

ويلاحظ أن الذين قام بأمر تنصيب الملكين الزنكيين هما جمال الدين الوزير وأسد الدين شيركوه وهما من الرجال الأحرار وليسا من المماليك الأتراك.

وكان القائمون على دولة سيف الدين غازي يعتبرون نور الدين تابعاً لهم، ولذلك أرسلوا الأمير صلاح الدين الياغسياني الذي كان مقطعاً حماة لتدبير دولة نور الدين باسم الملك السلجوقي والأمير سيف الدين بن زنكي.

ماذا كان موقف نجم الدين أيوب من هذه التطورات؟.

لم يحضر نجم الدين حصار قلعة جعبر التي اغتيل زنكي عند أسوارها،

---

(1) الروضتين، 1 ص 46 - 47. وكذلك ابن الأثير، الباهر.

ولذلك فلم يكن له دور في التطورات التي وقعت. وتَصَرّف شيركوه دون استشارته لأن الظرف لم يكن يسمح بإجراء مثل هذه المشاورة التي تأخذ وقتاً طويلاً. وكان موقف نجم الدين بداية مع الوريث الشرعي لزنكي كما يَتّضح من التطورات التي وقعت في بعلبك بعد وفاة الأتابك؛ ذلك أن مجير الدين آبق، صاحب دمشق، استغل الظرف لاستعادة بعلبك من آل زنكي فجمع قُوّاته وتوجّه إليها، وقَام بحصارها حصاراً طويلاً وشديداً. وصبر نجم الدين أيوب مع الحامية أحسن صَبْر، وكان ينتظر نجدة تصله من سيف الدين غازي الذي كان يعتبره المرشح الأقوى لتولي السلطة، وحتى من نور الدين الذي كان أخوه أسد الدين في خدمته. لكن التطورات في بلاد الجزيرة وحلب لم تكن تسمح لأي منهما بتقديم أي عون ومساعدة. وعندما وجَد، مع طول الحصار، عدم إمكانية وصول النجدة المطلوبة قَرّر التصَرّفَ بحكمة وبما يخدم مصلحته وأولاده. يروي ابن أبي طيء أنّه طلب الأمان والمصالحة على «شروط» حَدّدها، فوافق مجير الدين على ذلك وقام نجم الدين بتسليم القلعة والبلد إليه. يذكر ابن القلانسي المعاصر في دمشق:

«... وكان الوالي بها ذا حزم وعقل ومعرفة بالأمور، فشَرَط ما قام به من إقطاع وغيره، وسلّم البلدة والقلعة إليه، ووفى له بما قُرّر الأمر عليه، وتسَلّم ما فيه من غلّة وآلة في أيام من جمادى الأولى [تشرين الأول 1146] من السنة»[1].

ويضيف ابن أبي طيء أن مجير الدين:

«استخلف... نجم الدين [في بعلبك] وأَقَرّ له الثلث الذي كان أتابك [زنكي] قد جعله له فيها، وأقَرّه فيها»[2].

أما ابن الأثير فيكتفي بالقول، فيما يتعلق بتطورات ما بعد التسليم:

(1) ابن القلانسي، تاريخ، ص 449. ويشير هذا النص على عدم معرفة ابن القلانسي، صاحب الديوان بدمشق، بنجم الدين أيوب، انظر أيضاً ابن الأثير، الكامل، 11 ص 118.
(2) الروضتين 1 ص 48.

«وأخذ [نجم الدين] منه إقطاعاً ومالاً، وملك عدة قرى في بلد دمشق، وانتقل أيوب إلى دمشق فسكنها وأقام بها»[1].

وليس هنالك من تعارض بين هذه الروايات، ذلك أن ولاية نجم الدين كانت للمدينة دون القلعة، وربما استخلف فيها ابنه الأكبر تورانشاه ثم انتقل هو إلى دمشق مع بقية عائلته واستقر فيها بعد مدّة. مِن ناحية أخرى فقد ولّى صاحب دمشق قلعة بعلبك لرجل من مماليكه يقال له شجاع الدولة عطاء الخادم فبقي فيها إلى أن قتلَه مجير الدين آبق في آخر ذي الحجّة سنة 548 هـ/ أواخر آذار 1154 م[2]، وولّاها بعد خمسة أشهر (آب 1153) إلى أمير محليّ هو الضحّاك بن خُلَيد البقاعي[3].

ونتيجة لهذه التطورات صار الأخوان يتبعان دولتين مختلفتين. فأسد الدين في خدمة نور الدين في حلب ومن أخلص أمرائه، ونجم الدين مع صاحب دمشق التي أخذ نور الدين يتطلع إلى الاستيلاء عليها وتوحيدها مع بلاده لمواجهة الصليبيين، ومن هنا بدأ خوف نور الدين من هذا الوضع غير الطبيعي وأخذ يقلل من الاعتماد على أسد الدين:

«ولما بلغ ذلك [دخول نجم الدين في خدمة صاحب دمشق] خاف أن يَفْسُدَ عليه أسد الدين إلى صاحب دمشق بحصول نجم الدين عنده، ومال نور الدين إلى مجد الدين أبي بكر بن الداية حَتّى ولّاه جميع أمور مملكته، فَشَقّ ذلك على أسد الدين»[4].

وكان نور الدين محقاً في خوفه، كما كان أسد الدين أيضاً محقاً في عتبه نظراً للخطر الذي عَرّض له نفسه ومستقبله في اللحظة الحاسمة كما ذكرنا سابقاً. ومن ذلك يمكن أن نفهم موقف أسد الدين شيركوه التقاعس في موقعة

---

(1) الكامل، 11 ص 118.
(2) الأعلاق، 2/2 ص 47، ابن أبي طيء في الروضتين، ص 99.
(3) الروضتين، ص 99 - 100.
(4) ابن أبي طيء في الروضتين، 1 ص 47.

يَغْرَى 543 هـ/ 1148 م) في منطقة العمق قرب دَرَبْسَاك بين المسلمين والصليبيين. فقد عَتِبَ نور الدين على شيركوه، وقال له:

«ما هذا الوقوف والغفلة في هذا الوقت والمسلمون قد انكسروا، فقال [شيركوه]: ياخوند، إيش ننفع نحن، إنما ينفع مجد الدين أبو بكر فهو صاحب الأمر. فاستدرك نور الدين ذلك، وطيّب قَلْبَ أسد الدين بعد ذلك، وألزم مجد الدين أن يعْرِف لأسد الدين حقه وأصلح بينهما»[1].

كان هذا موقف نور الدين الأول سنة 541 هـ/ 1146 م ولمّا تستقر دولته بعد أو تَتَحَدّد علاقته مع أصحاب دمشق. وفي أثناء حصار دمشق من قبل الحملة الصليبية الثانية تعاون نور الدين مع أصحابها، وتَمّ الصلح بين الجانبين، وتَعاونا في الدفاع عن المدينة حتى تراجعت قوات الصليبيين، كما تعاونا في الاستيلاء على حصن العَرِيمة. وكان اجتماعهما، من أجل التقدم نحو هذا الحصن، في بعلبك التي كانت لا تزال في ولاية نجم الدين. وفي هذه السنة قتل أثناء العمليات العسكرية التي تمت فيها الأمير شاهنشاه بن أيوب الابن الثاني للأمير[2]، وبذلك قَدمت العائلة الأيوبية أولى شهدائها، الأمير شاهنشاه بن أيوب، والد الأميرين الكبيرين في دولة صلاح الدين: تقي الدين عمر وعز الدين فرخشاه اللذين كان لهما دورٌ كبير في التطورات التي سنتحدث عنها فيما بعد.

وسواء كانت إقامة نجم الدين بعد سنة 541 هـ/ 1146 م في بعلبك أو في دمشق، فإن عمله ارتبط بأصحاب دمشق من آل طغتكين إلى أن استولى نور الدين سلماً على دولتهم سنة 549 هـ/ 1154 م. وفي هذه الفترة (8 سنوات) ظهر إسم صلاح الدين يوسف لأول مَرّة. فقد بقي مع والده متنقلاً بين بعلبك ودمشق. وربما تلقى تعليمه الأولي في ديوان والده أوالرباط الأول الذي بناه في بعلبك أو الثاني في دمشق. ومن معرفتنا السابقة بحب نجم الدين للعلماء ومساعدته لهم بالمال، واستقباله لهم في ديوانه إضافة إلى الشعراء، نرى أن

---

(1) المصدر نفسه، ص 55.

(2) المصدر نفسه.

صلاح الدين تَزود بالمعرفة الأساسيّة لأمثاله من أبناء رجال الإدارة. وكان والده «مثاله» الأول الذي اقتدى به، والذي أثر كثيراً في نظرته إلى الأمور، كما سيتّضح لنا من بعض جوانب سيرته فيما بعد.

في سنة 546 هـ/ 1152 م وقع حادثان كان لهما ارتباط بالأسرة الأيوبيّة وخاصةً صلاح الدين. ففي هذه السنة كانت إغارة التركمان على بانياس التي كانت آنذاك بيد الصليبيين، مخالفين بذلك الهدنة المنعقدة بينهم وبين صاحب دمشق[1]. ورغم تدخل أنر، وإعادته لما نهبه التركمان، إلاّ أن الصليبيين جَمَعُوا قواتهم وتوجهوا نحو البقاع:

«وخرجوا في جيش عظيم، وشنوا الغارة على البقاع، والناس غافلون، فامتلأت أيديهم من الغنائم والأسارى. واتصل خبر غارة الفرنج بنجم الدين أيوب، وهو في بعلبك، وعنده جماعة من عِسكر دمشق وأصحابه، فقَدّم [قائد] عليهم ولده شمس الدولة [تورانشاه]، وأوقع بالفرنج. واتفق أنّه أصاب الفرنج ثَلج عظيم فَهَلك أكثرهم. وجاء شمس الدولة وهم متوَرّطُون، فقتل فيهم مقتلة عظيمة، وخلّص من كان عند الفرنج من الأسارى»[2].

وفي هذه السنة أيضاً، غادر صلاح الدين، الذي كان إذ ذاك قد بلغ الرابعة عشر من عمره، بلاد بعلبك إلى حلب ودخل في خدمة عمه أسد الدين لاستكمال تربية أبناء الأمراء من أمثاله من الناحية العسكرية الميدانية، «فقدمه [أسد الدين] بين يدي نور الدين، فقبله وأقطعه إقطاعاً حسناً»[2]. وكان ذلك بداية خبرته العسكرية واستقلاله المالي وتكوين قُوّاته الصغيرة من المماليك الذين اشتهروا في حروبه فيما بعد.

---

(1) كان ذلك في آخر شعبان. ابن القلانسي، تاريخ، ص 491.

(2) الروضتين، 1 ص 83 - 84؛ ابن القلانسي، تاريخ، ص 491 - 492. ويذكر ابن القلانسي أن النصر، واسترداد الأسرى والقليل من الحاشية لأن معظمها هلك من الثلج، كان في الأيام الأوائل من رمضان/ العشر الثاني من كانون الأول 1151.

وبقي الأخوان نجم الدين وأسد الدين متباعدين ومتقاربين في ذات الوقت: نجم الدين في خدمة صاحب دمشق، وأسد الدين في خدمة نور الدين. لكنّ العلاقة الطيبة أحياناً بين صاحبي حلب ودمشق كانت تؤدي إلى التقارب بين الأخوين دون الخوف من آثار سلبيّة قد تلحق بهما.

2 صلاح الدّين في دمشق

في سنة 1153 م استولى الصليبيّون على مدينة عسقلان الحصينة التي كانت آخر المعاقل الإسلامية على الساحل الفلسطيني. وأثار سقوطها ردّة فعلٍ كبيرة خاصة في مراكز بلاد الشام الرئيسيّة: دمشق وحلب. فعلى الرغم من طلب الفاطميين من كل من صاحب دمشق وصاحب حلب مساعدة القوات الفاطميّة في الدفاع عن المدينة إلاّ أنهما لم يقدما شيئاً. فمجير الدين آبق كان على علاقة طيبة مع الصليبيين ليستعين بهم عند الضرورة ضَدّ نور الدين محمود صاحب حلب والبلاد التابعة لها. أما نور الدين فقد حاول الاتفاق مع صاحب دمشق أثناء حصار الصليبيين الطويل لعسقلان لتقديم المساعدة المناسبة. ووافق صاحب دمشق على ذلك بداية لكنّه تراجع عن ذلك. يذكر المؤرخ الدمشقي المعاصر أن نور الدين قرَّر أن يقوم بنصرة أهل عسقلان، والتقوا في محرم 534 هـ/ تموز 1148 م «للتعاضُد على الجهاد»، وتوجهوا إلى حصن بانياس «الصُبيبة»، الذي كان لا يزال بيد الصليبين، لحصاره ودفع الصليبيين إلى التخلي عن حصار عسقلان، خاصة وأنه «قد تَواصلت استغاثة أهل عسقلان واستنصارهم بنور الدين». لكنّ الخلاف وقع بين الجانبين عند الوصول إلى بانياس.

«فقضى الله تعالى بالخلف بينهم والقتل، وهم في تقدير عشرة آلاف فارس وراجل، فأجفلوا عنها من غير طارق من الإفرنج طرقهم ولا عسكر منهم أرهقهم، [فرحلوا] ونزلوا على المنزل المعروف **بالأعوج** [1]،

(1) خارج دمشق، على الطريق منها إلى بانياس عاصمة الجولان وبحيرة الحولة وجسر بنات يعقوب.

وعزموا على مُعَاوَدَة النزول على بانياس، ثُمّ احجموا عن ذلك من غير سبب ولا موجب، وتَفَرَقُوا، وعاد مجير الدين إلى دمشق ودخلها سالماً في نفسه وجملته... وعاد نور الدين إلى حمص ونزل بها في عسكره»[1].

وسقطت عسقلان، فكان لسقوطها أثر كبير على التطورات السياسيّة والعسكرية فيما بعد. فطريق الصليبيين إلى مصر صارت مفتوحة لا يعيقها عائق من تحصينات أو حَامِيات وجند. أما الأثر المباشر فقد كان تَحَول أهل دمشق، الذي كانُوا السند الأكبر لأصحاب دمشق، عن مجير الدين وعائلته إلى نور الدين. فأخبار تقاعس مجير الدين لم تَخْفَ على أهلها، وتعاونه مع الصليبيين وَصَل إلى درجة صار معها كل من يعيش في دمشق يعرفه خاصة ما يذكره ابن الأثير:

«... لم يكن لنور الدين طريق إلى إزعاجهم [الفرنج المحاصرين لعسقلان] عنها لاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان. فلمّا ملك الفرنج عسقلان طمعوا في دمشق حتى أنّهَم استعرضوا كل من بها من مملوك وجارية من النصارى، فمن أراد المقام بها تركوه، ومن أراد العَوّد إلى وطنه أخذوه قهراً شاء صاحبه أم أبى. فكان لهم على أهلها كل سنة قطيعة [من المال]، فكان رسلهم يدخلون البَلَد ويأخذونها منهم. **فلمّا رأى نور الدين ذلك خاف أن يملكها الفرنج فلا يبقى حينئذٍ للمسلمين بالشام مقام**، فأعمل الحيلة في أخذها حيث علم أنها لا تملك قُوّة»[2].

وكان يقابل هذا الخوف على دمشق من قبل نور الدين خوف الصليبيين من استيلائه عليها وتوحيده جميع بلاد الشام. وقد عبّر عن هذا الخوف وليم الصوري، المؤرخ الصليبي المعاصر[3]. وقد أكد ابن الأثير ذلك عندما ذكر قرار نور الدين الاستيلاء على دمشق:

---

(1) تاريخ دمشق، ص 496.

(2) الكامل، 11 ص 197.

(3) انظر الجزء الخاص بذلك في تاريخه وسيشار إليه عند بحث الفصل المتعلق بتوجيه=

«وكان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق، لأنه كان يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له دمشق، فكيف إذا أخذها وقَوِيَ بها»[1].

وتمكن نور الدين بسياسته ولينه من أن يوقع الشقاق بين مجير الدين وأمرائه ومن زيادة نقمة الأحداث[2] والعامة ضِدّه، أما في الظاهر فكان يتودد إليه ويُهاديه. وجاءت الفرصة المناسبة لنور الدين للتقدم للاستيلاء على دمشق عندما قام مجير الدين بقتل عطاء الخادم، والي قلعة بعلبك سابقاً، ومُدَبِّر دولته لاحقاً. فتقدم بقواته نحو دمشق. وفي العشر الثاني من مُحَرّم نهاية آذار 1154 وصل «الأمير الإسفهسلار أسد الدين شيركوه رسولاً من نور الدين...» إلى ضواحي دمشق، في عسكر من ألف فارس، وخيّم في المرج[3].

واعتبر مجيرالدين هذا التصرف من نور الدين تحدياً له، وقال: «**ما هذه رسالة، هذه مكيدة**»؛ لذلك قَرَّر إهمال استقبال الرسول بداية، وقام بإعداد قواته للدفاع عن المدينة. ثمّ تَعَدّدت المراسلات بين الجانبين للوصول إلى اتفاق لكنها «لم تُسفِر عن سَداد ولا نيل مراد»[4]. عند ذلك بعث أسد الدين شيركوه إلى نور الدين يعلمه بحقيقة التطورات، فتقدّم نور الدين بعساكره إلى المدينة وقام بحصارها. في ذات الوقت كاتب مجير الدين الصليبيين طالباً مساعدتهم، ووعد بإعطائهم الأموال وقلعة بعلبك إن ساعدوه في ترحيل نور الدين[5]. وفي يوم الأحد العاشر من صفر 549 هـ/ 26 حزيران 1154 م بدأ القتال وكُسِرَ عسكر مجير الدين، وتمكنت قوات نور الدين من دخول المدينة

= صلاح الدين للإمارات المجاورة للصليبيين بتفصيل أكثر.

(1) التاريخ الباهر، ص 107.

(2) الأحداث: شباب المدينة الذين كانوا أشبه بالميليشيا الشعبية، والمنظمين ولهم قيادات خاصة بهم تقودهم عند الحاجة. وكان عملهم الأساسي حماية المدينة والمحافظة على الأمن والاستقرار فيها في فترات الفوضى السياسية.

(3) تاريخ دمشق، ص 503، ابن أبي طيّ في الروضتين، 1 ص 96.

(4) تاريخ دمشق، ص 503.

(5) الباهر، ص 107.

دون سفك دماء وبتعاون وتنسيق مع أهل المدينة[1]. وكان لأسَد الدين شيركوه، في قول ابن أبي طيء، دور كبير في فتحها:

«. . . وتَوَلّى أسد الدين القِتَال، وأبلى الجهد، فكَسَر عساكر دمشق إلى الأسوَار من قِبْلِيّ البلد، ولم يكن أحد من المقاتلة على السُّور من ذلك الجانب لأن نور الدين كان من شَرْقِها وجُلّ العسكر مقابله. . . »[2].

وفي 25 نيسان من السنة المذكورة دخل نور المدينة ثُمّ القلعة، وأخرج آل طغتكين ومؤيديهم من الأمراء منها، ولا بُدّ أنّ صلاح الدين، الأمير الأيوبي الصغير (17 سنة)، كان يقود جزءاً من قوات عَمِّه عند الحصار والقتال.

قام نور الدين بترتيب أمور مدينة دمشق. فبعد دخوله مباشرة عَيّن أسد الدين شيركوه والياً عليها مما يؤكد دوره في الاستيلاء عليها. لكنّ أسد الدين كان رجل حرب ونزال وليس رجل إدارة وسياسة. وكان طول حياته رجل الميدان وليس رجل الديوان. مع ذلك فقد خضع لرغبة قائده وبقي في الولاية مدة سنة.

فإذا كان صلاح الدين مع عَمّه في دمشق، فأين كان نجم الدين وابنه الأكبر توران شاه؟.

هنالك روايتان تتعلق بنجم الدين وأين كان في ذلك الوقت: الأولى تذكر أنّه كان لا يزال في بعلبك، وأنه عندما وَصَل إليه خبر استيلاء نور الدين على دمشق، كَتَبَ إليه في تسليم بعلبك فأنفذ إليه وتَسَلّمها. أمّا الرواية الثانية فتذكر أن مجير الدين كان، قبل تسليم دمشق، قد بادَل المركزين الرئيسيين في بعلبك: ولاية القلعة وولاية المدينة، فأنزل نجم الدين من القلعة وجعله والي البلد «وولى القلعة رجلاً يقال له ضَحّاك. فلمّا ملك نور الدين دمشق خرج إلى

---

(1) انظر ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 504 - 505؛ الكامل، 11 ص 197 - 198.
(2) الروضتين 1 ص 96.

بعلبك واستنزل منها ضَحَاكاً»(1) . وفي كلتا الحالتين كان نجم الدين في بعلبك، لكن التطورات في بعلبك بين استيلاء نور الدين على دمشق وتسليم بعلبك إليه تحتاج إلى توضيح.

ذكرنا سابقاً أن بعلبك تقع على الطريق الدولي الذي يصل بين حلب وحمص ودمشق. ولم يتعرض نور الدين لها أثناء تقدّمه إلى دمشق خوفاً من إثارة الشكوك حَوْلَ هدفه الأساسي ولذلك تخطاها وتابع سيره نحو دمشق. وعندما تَمّ له السيطرة على دمشق «امتنع الضحاك بها [بعلبك]، ولم يمكن نور الدين محاصرتها لقربه من الفرنج فلطف الحال معه. . .» إلى أن سلمها منه فيما بعد(2) . أمّا ابن القلانسي فيذكر أنّ نور الدين، بعد استيلائه على دمشق بسنة، هادن الصليبيين لمدة سنة، وتوجّه بعد أيام من عَقْد الهدنة:

«خَرَج الأمر الملكي النوري بالقبض على ضَحّاك والي بعلبك، وطلب منه تسليمها، فأجابه إلى ذلك، ورحل العسكر المنصور إليها لتسلمها. وفي يوم الخميس السابع من شهر ربيع لأول [550 هـ 11 أيار 1155]. . . كان تسليمها، ورَتّب فيها من سُلِّمت إليه، واعتمد في حفظها عليه»(3) .

ويضيف ابن شدّاد أن الضَحّاك قَدِم إلى دمشق لخدمة نور الدين، فأمَرَ بالقبض عليه، ثم حمله معه وسار إلى بعلبك فقاتلها وضيّق عليها إلى أن تسلَّمها(4) في اليوم الذي يذكره ابن القلانسي.

وبعد سيطرة نور الدين على بعلبك وترتيب أمورها «توسَّطَ أسدُ الدين في أمر أخيه نجم الدين» مع الملك العادل نور الدين، فقبل وساطته ودخل

---

(1) ابن أبي طيء في الروضتين 1 ص 99. وكان ذلك عند قتل مجير الدين سنة 1153/548 لعطاء الخادم.

(2) الكامل 11 ص 227 - 228؛ لكنه يذكر أن ذلك تَمّ سنة 552 هـ/ 1157 م، وهذا يخالف ما ذكره ابن القلانسي القريب من الأحداث في دمشق والعالم بأخبارها.

(3) تاريخ دمشق، ص 509.

(4) الأعلاق، 2/2 ص 47 - 48.

نجم الدين في خدمة الملك «فأقطعه إقطاعاً وسيّره إلى دمشق فأقام فيها وردّ نظر دمشق إليه»؛ كما ولّى ابنه الأكبر تورانشاه بن أيوب شحنكيّة المدينة . ويؤكد ذلك ما ذكره أبو شامة من أنّ الشاعر عرقلة وفَدَ على أسد الدين في داره فمدحه بقصيدة هَنَأ في بيتين منها توران شاه بولاية الشحنكيّة[1] :

قُـل لحُسّـادك زيـدوا فـي الحسـد قـد سَكَـن الـدّار وقـد حـاز البلـد
لا تعجبـوا إن حَـلَّ دار عَمِّـه أمـا تحـل الشمـس فـي بـرج الأسـد

وهكذا فإن المناصِبَ الأساسية في مدينة دمشق كانت في أواسط سنة 1155 بيد الوالي العام أسد الدين ومعه نجم الدين على أموالها، وتوران شاه على الشحنكيّة وشؤون الأمن العام فيها، وصلاح الدين من أمراء حاميتها.

وفي 21 رجب 550 هـ/ 1 آب، 1155 م، توجه أسد الدين شيركوه إلى حلَب بناءً على استدعاءِ من نور الدين[2]، ويبدو أنّه فَوّض أمور دمشق كلها لأخيه نجم الدين وأبنائه؛ ثم عاد نور الدين وأسَد الدين إلى دمشق في نهاية السنة(10 ذو الحجة) ثم عاد الملك العادل مرّة أُخْرَى إلى حلب بسبب فَساد الفرنج في بلادها ومعه أسد الدين ثم عاد إلى دمشق فوصلها في رمضان. وفي شوّال «تَقَرّرت الموادعة والمهادنة بينه وبين ملك الإفرنج مدة سنة كاملة أولها شعبان [نهاية مدة الموادعة السابقة] وأن المقاطعة (المال) المحمولة إليهم من دمشق ثمانية آلاف صوريّة، وكتبت المواصفة بذلك بعد تأكيدها بالأيمان والمواثيق المشدّدة[3].

وفي فترة السنة التي تَوَلّى فيها أسد الدين دمشق عَيّنَ على إشراف ديوان أموالها المعروف بأبي سالم بن همام الحلبي، كما عين توران شاه ـ كما ذكرنا ـ على الشحنكية. وأثناء فَترة غياب أسد الدين في حلب عزل نجم الدين ابنه

---

(1) المصدر نفسه، ص 100؛ الديوان، ص 36.
(2) تاريخ دمشق، ص 509.
(3) المصدر نفسه، ص 516.

تُوران شاه، وولّى ـ مؤقتاً كما يبدو ـ صلاح الدين مكانه إضافة إلى الديـوان. وبَعْد أيام قليلة من ولايته اصطدم صلاح الدين مع أبي سالم بسبب خيانات مالية وسوء إدارة أظهرها بعض العاملين معه، وتوجّه بعد ذلك مباشرة إلى حلب لإعلام نور الدين وأسد الدين بذلك. وربما كانت هذه الحركة بإيماءٍ من والده لأنها تُسِيءُ للإدارة الجديدة في دمشق التي كان على رأسها. ويذكر ابن القلانسي هذه الحادثة بشيء من التفصيل:

«وكان المعروف بأبي سالم قد ولي مشارفة [الإشراف العام والمحاسبة] الديوان بدمشق بعناية (واسطة) أسد الدين النائب عن الملك العادل. . . فظهرت منه (أبو همام) خيانات اعتمدها وتفريطات قَصَدَها بجهله وسخافة عقله وتقصيره، **فأظهرها قوم من المتصَرِّفين عِنْدَ الكَشْفِ والتحقيق لها**، فاقتضت الحال القبض عليه والاعتقال له إلى أنّ يقوم بما وجب عليه. فلمّا كان يوم الأحد السادس عشر من شوال. . . (551 هـ) **خرج الأمر السامي النوري بالكشف عن سعاياته في فُضُول كان غنياً** عنها، فاقتضت الحال بأن تُحْلَق لحيته ويركب حماراً مقلوباً، وخلْفَه من يعلوه بالدِرّة[1]، **وأن يطاف به في أسواق دمشق** بعد سخَام وجْهة، ويُنادى عليه: هذا جزاء كل خائن ونَمَّام. ثُمّ أقام بعد ذلك في الاعتقال أياماً، ثُمّ أمر بنفيه إلى حلب بشفاعة من شفع فيه من مُقَدّمي الدولة. . . فمضى على أقبح صفة من لعن الناس، ونَشْرِ مخازيه، وتعديد مساويه»[2].

ويبدو أن صلاح الدين تَولّى الشخنكية بعد ذلك أصالة. وقد قال فيه الشاعر عرقلة[3]:

لصوص الشام توبوا من ذنوب　　　تُكفرها العُقوبة والصِّفادُ

(1) الدِرّة: آلة يُضْرب بها.

(2) تاريخ دمشق، ص 516.

(3) الروضتين، 2 ص 100؛ الديوان، ص 35 - 36.

لئن كان الفساد لكم صلاحاً   فمولاي الصلاح لكم فسادُ

وقال أيضاً:

رويدكم يا لصوص الشا   م إني لكم نَاصِح في مقالي
وإياكم وسمي النـ   ـبي يوسف ربّ الحجى والجمال
فذاك مقطع أيدي النساء   وهذا مقطع أيدي الرجال

ومنذ ذلك الوقت ارتفعت مكانة نجم الدين عند نورالدين، ووصلت إلى درجة لم يسمح فيها الملك العادل لأحدٍ من الأمراء غيره بالجلوس في ديوانه دون إذن: «ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس إلاّ نجم الدين والد صلاح الدين يوسف. وأما من عَداه كأسد الدين شيركوه ومجير الدين بن الدايّة وغيرهما، فإنهم كانوا إذا حضروا عنده يقفون قياماً إلى أن يأمرهم، بالقُعُود»[1]، وكيف لا يثق به وقد أنقذ هيبة الدولة النوريّة في دمشق ممّا قد يضعفها في أعين الناس من الخاصة والعامة. أمّا الشاب صلاح الدين «واستخص نور الدين صلاح الدين وألحقه بخوَاصِّه، **فكان لا يُفارقه في سفر ولا حضر**»، وبدأ دوره القيادي الجسور بتوليه منصباً من أَهَمّ المناصب في دمشق لمواجهته للفساد الذي مثله أبو همام الحلبي، وعدم سكوته عنه بالرغم من أن عمره لم يتجاوز العشرين من السنين. ويبدو أنّ صلاح الدين استمرّ في مركزه هذا إلى ما بعد ولاية القاضي الإمام ابن الشهرزوري سنة 555 هـ[2] / 1160 م. وعندما دخل صلاح الدين دمشق بعد وفاة نور الدين سنة 570 هـ / 1174 م، واستقَرّ فيها بعض الوقت زار القاضي كمال الدين المذكور في داره:

«فانزعج [كمال الدين] وخرج إلى لقائه. ودخل صلاح الدين فجلس وباسطه، وقال: يا كمال الدين، لمّا كُنْتُ في الشحنكية قد كانت بيننا هنّات ومُشاحَنات.. وكان كمال الدين يكرهه ـ، فكان كل واحد

(1) الباهر، ص 172.
(2) تاريخ دمشق، ص 548.

منهما ينقض على الآخر أحكامه. فقال له صلاح الدين: ما مَشَيْتُ إليك إلاّ لأُزِيل ما في خاطرك من الوَهْم، وأعُرِّفكُ أنّ ما في قلبي لك نَكْرَة، فَطِبْ نَفْساً وقِرّ عيناً، فالأمر أَمْرِكَ والبلد بلدك»[1]. وقد نستطيع تَفَهّم علاقة الكراهية هذه إذا عرفنا من هو القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري. فقد كان عمره عندما تولى القضاء يُقارب الستين سنة، وقد تولى قضاء الموصل لعماد الدين زنكي وابنه سيف الدين غازي سنة واحدة ثم قرّبه قطب الدين مودود بن زنكي دون تَرْسيم. وفي سنة 550 هـ/ 1153 م انتقل إلى دمشق وانتظم في خدمة نور الدين دون ترسيم أيضاً إلى أن استعفى القاضي زكي الدين من ولاية القضاء، فولاه نور الدين كما تَقَدّم. وقد وصفه ابن خلّكان فقال: «كان فقيهاً أديباً شاعراً كاتباً ظريفاً فَكِهَ المجالس.. وكان عظيم الرياسة خبيراً بتدبير الملك»[2]. فكيف يمكن أن ينسجم في دمشق عاصمة بلاد الشام الجنوبية كلها واليان للأحكام فيها: القاضي الشرعي ابن الستين والأمير الشاب المعتد بنفسه وبمركزه والمسؤول عن شرطة المدينة الكبرى وما يترتب عن هذه المسؤولية من أعباء وإصدار أحكام على المخالفين الكثر الذين تفرزهم مدينة مزدحمة بالسكان آنذاك كدمشق.

هنا لا بدّ من التوقف قليلاً لنرسم صورة سريعة لمدينة دمشق[3] التي صارت مركز إقامة نجم الدين أيوب وابنه صلاح الدين لمُدّة تزيد على عقدٍ ونصف من الزمان:

---

(1) مرآة الزمان، 8 ص 327؛ سنا، 1 ص 177.

(2) وفيات الأعيان، 4 ص 242 وترجمته ص 241 - 245.

(3) وصف ابن عساكر المدينة وصفاً دقيقاً في الجزء الثاني من كتابه وذلك خلال فترة نور الدين لكن وصفه لا يعطي الصورة الحيوية للمكان والإنسان فيها. وكذلك فعل ابن شداد في **الأعلاق الخطيرة** الذي نقل عن ابن عساكر وأضاف ما استجد من عمرانها في الفترة التالية لعصر ابن عساكر حتى بداية عصر المماليك. وصورة ابن جبير أقرب إلى ما كان عليه حالها في الوقت الذي نتحدث عنه.

زار الرّحّالة ابن جبير المدينة سنة 580 هـ/ 1185 م، أي بعد حوالي ثلاثين سنة من استقرار البيت الأيوبي فيها وانتقال القاضي كمال الدين إليها. وكان انطباعه الأول عنها:

«قد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر، واكتنفتها اكتناف الكِمامَة [1] بالزهر، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر، فكل موضع لحظته بجهاتها الأربع نظرته اليانعة قيد النظر» [2].

وكانت أبرز معالم دمشق في ذلك الوقت: القلعة والميدان الأخضر، والمدينة المُسَوَّرة، والمسجد الجامع الكبير، والغوطة، ويهمنا هنا التركيز على المعلمين الأولين: الأول مركز الملك والإدارة والحكم، والثاني مركز حياة الناس ونشاطهم وفعالياتهم اليوميّة:

«ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان، منحازة إلى الجهة الغربيّة من البلد، وهي بإزاء باب الفرج من أبواب البلد. وبها جامع السلطان يجمع فيه، وعلى مقربة منها، خارج البلد في جهة الغرب ميدانان كانهما مبسوطان خزاً لشدّة خضرتهما، وعليهما حَلَق، والنهر [بردى] بينهما، وغيضة من [شجر] الحَوْرِ متصلة بهما. وهما من أبدع المناظر، يخرج إليهما السلطان [ونور الدين ونجم الدين من قبله] إليهما ويلعب فيهما بالصوالجة [لعب الكرة من على ظهور الخيل ـ البولو] [3]، ويسابق بين الخيل فيهما، ولا مجال للعين كمجالها فيهما. وفي كل ليلة يخرج أبناء السلطان إليهما للرماية والمسابقة واللعب بالصوالجة» [4].

---

(1) الكمامة: الغطاء الذي يدور حول الشيء، وعاء الطلع وغطاء النور. اللسان، مادة «كمم».

(2) الرحلة، ص 224 - 225.

(3) كان من الأسباب التي قربت نجم الدين أيوب من نور الدين محمود هذه اللعبة، فقد كان نجم الدين «يفوق الناس جميعاً في لعب الكرة، وكان نور الدين يحب لعب الكرة» الروضتين، 1 ص 100. وكانت وفاة نجم الدين أثناء لعبها في القاهرة سنة 568 هـ.

(4) الرحلة، ص 261.

وإذا أردنا أن نعرف المزيد عن القلعة فعلينا الرجوع إلى ابن شَدّاد الذي يعطينا لمحة عن تاريخها وتَطَوّر عمرانها:

«كانت بنو أميّة تنزل الخضراء ظاهر دمشق، فلمّا ملك بنو العباس، وخَرّبوا دورهم وسور دمشق، وعَفّوا آثارهم بَنُوا سورها ودار إمارة بها، وكانت تسمى بالقصر.

ولم تزل الأمراء ممن يملك دمشق ينزله؛ إلى أن كانت بين الرعيّة وبين أميرها.. بدر الجمالي [القائد الفاطمي] مناوشات ومنافرات أوجبت الوحشة بينه وبينهم، فأحرقوا **القَصْر** ونقضوا أخشابه، وشمله الخراب.

ولم يبق بدمشق دار إمارة إلى أن مَلَكها تاج الدولة تتس سنة [571 هـ]... **فبَنَى بها قلعة لطيفة جعلها دار إمارة، وسَكَنَها**، وبنى لولده رَضْوان بها داراً، وهي الآن تُعرَف به.

ولمّا ملكها شمس الملوك دُقَاق ولده في سنة [488 هـ]... زاد فيها وشَيّدها... (ثم زاد فيها) ظهير الدين طغتكين...

فلمّا مات وملك بعده ولده شمس الملوك إسماعيل (527 هـ)... جَدّد باب الحديد الأوسط بقلعة دمشق الذي يفتح شمالاً، وعمل جسر الباب الشرقي، وعمل جسر خشب في وسطه باب يُفتح ويُغلق، ويُشَال [يُرفَع] الجِسْر] متى أحبّ ذلك.

ولمّا ملك نور الدين محمود بن زنكي دمشق، بنى بها داراً حسنة ـ وهي الآن تعرف به [زمن ابن شداد]، وأنشأ بها داراً تُسَمّى دار المَسَرّة في غاية الحُسْن، وأنشأ إلى جوارها حَمّاماً»[1].

وينتقل ابن جبير إلى وصف المدينة فيذكر أبوابها والمسجد الجامع ثم الأرباض [الضواحي]: «الأرباض بها مطيفة إلاّ من جهة الشرق مع ما يَتّصِل بها من القبلة يسيراً، والأرباض كبار». أما المدينة:

---

(1) الأعلاق، 1/2 ص 37 - 38.

«والبلد ليس بمفرط الكبر، وهو مائل للطول، وسككه ضيقة مظلمة، وبناؤه طين وقَصَب، طبقاً بعضها فوق بعض، ولذلك ما يسرع الحريق إليها، وهو كُلّه ثلاث طبقات، فيحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن، لأنّه أكثر بلاد الدنيا خَلقاً، وحسنه كُلّه خارج لا داخل»(1).

وكان يحيط بالمدينة سورٌ متصل بسور القلعة، ويحيط بها من كل الجهات، وخندق. وفي السور أبواب المدينة، وعند جزئه الضعيف باشُورة، وهي تحصين إضافي. وفي داخل المدينة الشوارع والسّكك والأزقة والأسواق والحارات والرحبات والمربعات والقناطر والمساجد الكثيرة والكنائس والمدارس والرباطات والبيمارستانان المشهوران ودور الحكومة والدور العامة والفنادق والمسالخ والطواحين والمعاصر والمسابك والحمّامات والقنوات والسقايات والعيون ودور كبار رجال الدولة والوجهاء(2).

ويهمنا من دور وجهاء وأشراف دمشق الكثيرة في هذا المجال دار العقيقي التي سكنها نجم الدين أيوب عند استقراره كما أقام فيها صلاح الدين عند دخول دمشق فاتحاً سنة 570 هـ/ 1174 م. وتنسب هذه الدار إلى الشريف أبي القاسم أحمد بن أبي هشام العقيقي العلوي الذي عاش في القرن الرابع الهجري، وتقع قُرْب المدرسة العادليّة إذ يذكر في حوادث سنة 676 هـ/ 1276 م أن الملك السعيد بن الظاهر بيبرس «شرع في بناء الدار التي تُعْرف بدار العقيقي تجاه العادلية لتجعل مدرسة وتربة للملك الظاهر [بيبرس]، ولم تكن قبل ذلك إلاّ داراً للعقيقي، وهي المجاورة لحمّام العقيقي»(3).

وتشير تطورات سيرة كبار رجال البيت الأيوبي وشيركوه خلال العقد السادس من القرن السادس الهجري، إلى أنّه صار لهم مكانة بارزة في دولة

(1) **الرحلة**، ص 255.

(2) انظر الجزء الثاني من **تاريخ ابن عساكر**.

(3) انظر حاشية رقم 4 ص 122 من **الأعلاق الخطيرة**، ج 2 قسم 1. عن ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج 13 ص 277. فالمكتبة الظاهرية في دمشق تكون مكان دار نجم الدين.

نور الدين محمود بن زنكي، ودور هام في شؤونها الداخلية ـ خاصة في دمشق وحلب ـ والخارجيّة، فنجم الدين استقر في دار العقيقي أولاً مستشاراً لأخيه وأبنائه ثُمّ مستشاراً خاصاً للملك العادل الذي لم يعد يستغن عن خدمته مقيماً ومسافراً، يستفيد الملك من خبرته وحنكته الطويلة في شؤون دولته خاصة في دمشق. وصار أَسَدُ الدين شيركوه أكبر أمراء نور الدين فعلاً إن لم يكن رسماً في الأعمال العسكرية التي كان يَقُودها الملك في مختلف الجبهات خاصة جبهة دمشق وحمص. وقد أقطعه العادل بلاد حمص والرحبة جميعها. وصلاح الدين كان يسيطر على دمشق من ناحية فعليه.

ويستفاد من الروايات المتوافرة إلى تمكن الأخوين الكبيرين في دولة نور الدين إلى الدرجة التي دفعتهما إلى التفكير في السيطرة على دمشق وبلادها والاستقلال بها. وجاء هذا التفكير بعد سنة من دخول نجم الدين في خدمة الملك العادل، وفي أثناء فترة البلبلة والاضطراب السياسي والخوف الذي رافق فترة المرض الشديد الذي أصاب نورالدين سنة 552 هـ / 1157 م. فالدولة التي تستند إلى رجل قوي واحد ـ ولو كان عادلاً ومستنيراً ـ تتعرض لمثل هذا الخوف والاضطراب خاصة في مثل حال نور الدين الذي لم يكن قد وُلِدَ له ولي عهدٍ بعد، إضافة إلى التراث القبلي التركي فيما يتعلق بكبير العائلة الذي سنتحدث عنه في فصل تالٍ.

يروي ابن القلانسي المعاصر، الذي كان مقيماً في دمشق آنذاك، ومطلعاً على أسرار الدولة، أنّه عندما اشتَدَ المرض بنور الدين، في هذه السنة عمل على ترتيب شؤون مملكته خوفاً من حدوث فتنة وفرقة في حال وفاته، فاستدعى إلى مجلسه أخاه الأصغر نُصْرة الدين ميرميران ـ الذي انظم إليه منذ البداية وقف إلى جانبه في الصراع مع سيف الدين غازي والأمير الكبير أسد الدين شيركوه وكبار أمراء جيشه والمُقَدمين، وتداول معهم في ولاية البلاد التابعة له وتدبير شؤونها بما يحقق المصلحة العامة ويبقي على الوحدة في مجابهة الصليبيين، وقرر معهم: أن يكون أخوه نصرة الدين القائم في منصبه من بعده «... ويكون [نصرة الدين] مقيماً في حلب، ويكون أسد الدين [شيركوه] في نيابة نصرة

الدين، واستحلف الجماعة على هذه القاعدة»[1].

وبعد إتمام هذه التراتيب نُقِلَ نور الدين من الميدان قرب البقيعة في بلاد حماه إلى قلعة حلب للإقامة فيها حتى يتماثل للشفاء ومعه أخوه نُصرَة الدين. أمّا أسد الدين شِيركوه، ومن معه من الأمراء والعساكر، فقد توجه إلى مركزه في الرحبة وبلاد حمص حتى يكون قريباً من دمشق للانتقال إليها عند حدوث أي طارىء[2].

وفي حلب استغل نُصْرَة الدين الظرف الصعب فاستعجل الاستيلاء على السلطة في دولة نور الدين قبل وفاة الأخير، فقاد مؤامرة إلتف حوله في تنفيذها عدد من أمراء والده زنكي وبعض أحداث المدينة، فاستولى على المدينة، ثم قام بمحاصرة القلعة الحصينة حيث يقيم الملك المريض. وفي ذات الوقت وصلت أخبار المؤامرة وإشاعة بموت نور الدين إلى أسد الدين بحمص. ولم يكن من صفات القائد العسكري الجسور التروي والتفكير في اتخاذ القرارات كأخيه نجم الدين، فـذلك لا يتلاءم مع طبيعة الحرب والقتال الذي يحتاج إلى الحسم قبل فوات التدبير. ولذلك سار مسرعاً إلى دمشق بقصد الاستيلاء عليها مع أخيه نجم الدين، فوصلها وتوجّه مباشرة إلى دار العقيقي حيث يسكن نجم الدين. لكنّ الأخ الأكبر، المشهور بسياسته وحنكته وذكائه وترويه، أنكر

---

(1) تاريخ دمشق، ص 533 - 534. ويؤكّد وليم الصوري قِصّة مرض نور الدين بعد موقعة البقيعة (1157 م) إذ يقول أنه بعد مغادرة الفرنج لساحة المعركة باتجاه أنطاكية وَصَل مخبر إلى الملك والنبلاء وذكر أنّ نور الدين، الذي كان مخيماً بقواته قرب حصن (Nepa) قد مات أو أنه مشرف على الموت ـ مريض جداً. وليؤكد المخبر أقواله ذكر أنه شاهد في اليوم السابق في معسكر نور الدين فوضى كبيرة، وأن أثقاله نهبت وأن العساكر كانت تبكي وتنتحب وتفرقت في كل اتجاه وقد نقل نور الدين محمولاً إلى حلب. تاريخ الأعمال [E] ج 2 ص 265 - 266. واستغل الصليبيون هذه الفرصةلحصار شيزر والاستيلاء عليها. نفسه، ص 266 - 267. كما استفادوا أيضاً من ذلك واستولوا على حصن حبيس جلْدك في السواد وقلعة حارم على الطريق بين أنطاكية وحلب وهما موقعان لهما تاريخ طويل أثناء الصراع بين المسلمين والصليبيين. انظر تاريخ الأعمال، 2 ص 278 - 271، الحياري، مصطفى «حصن حبيس جلدك. . .» دراسات، م 13 ع 12 الجامعة الأردنية، عمان، 1986 ص 141 - 160.

(2) المصدر ذاته، ص 534.

سرعة قدوم أخيه وحركته دون التثبت من الأخبار، وقال له عندما التقاه:

«أهلكتنا. والمصلحة أن تَعُود إلى حلب، فإن كان نور الدين حياً خدمته في هذا الوقت، وإن كان ميتاً فإنّا نفعل ما نريد من مُلكها [دمشق وبلادها]»[1].

وتختلف الأخبار حول التطورات التي تلت اللقاء بين أسد الدين وأخيه الأكبر في دمشق. فالبعض يذكر أن أسد الدين أسرع عائداً إلى حلب وصَعَد إلى القلعة، «وأجلس نور الدين في شبّاك يراه الناس وكلّمهم. فلمّا رأوه حياً تفرقوا عن أخيه»[2]. والبعض الآخر ذَكَر أن الأخبار وصَلَت الى دمشق بعافية الملك العادل فسار أسد مجداً إلى حلب، ووصل إليها، فتلقاه نور الدين «فأكرم لقياه وشكر مسعاه، وشرعوا في حماية الأعمال [البلاد] من شَرّ عصب الكفر والضلال بما يعود بصلاح الأحوال...»[3]. لكن الفتنة والمؤامرة وما رافقها من بلبلة مكنت الصليبيين من الاستيلاء على شيزر وحبيس جلدك وحارم[4] وجميعها من المراكز الحصينة التي تتحكم في الطرق إلى المناطق الساحلية: طريق أنطاكية وطريق طرابلس والطريق إلى طبرية والساحل وحتى طريق الحاج الشامي.

وعاد نور الدين، بعد شفائه، إلى دمشق، ودخل قلعتها في 6 ربيع الأول سنة 553 هـ/ 7 نيسان 1160 م:

«سالماً في نفسه وجملته، ولُقي بأَحْسَن زي وترتيب وتجمُّل، واستبشر العالم بمقدمه المسعود وابتهجوا، وبالغوا في شكر الله تعالى

---

(1) الكامل، 11 ص 193 - 194؛ زبدة الحلب، 2 ص 308 - 309. إضافة إلى ذلك توجهت قوات مملكة القدس من عسقلان بقصد الإغارة على غَزّة وحدود مصر، لكنّ الحملة فشلت. تاريخ دمشق، ص 537. وفي صَفَر منها هاجم الصليبيون داريا فأحرقوها ونهبوها وخرج إليهم أحداث دمشق وطردوهم. مرآة الزمان، 8 ص 230.

(2) الكامل، 11 ص 194؛ زبدة الحلب، 2 ص 309.

(3) تاريخ دمشق، ص 535.

(4) انظر الملاحظة في الصفحة السابقة.

على سلامته وعافيته، والدعاء له بدوام أيامه ونَصْر أعلامه، **وشَرَع في تدبير أمر الأجناد والتأهب للجهاد»**[1].

وقدم مع الملك الأمير الكبير، مَقّدم العساكر أسد الدين شيركوه، فطلب منه التجهّز مباشرة للإغارة على المناطق التي يسيطر عليها الصليبيون، فتجهّز أسد الدين وجمع عسكره وجماعة من فرسان التركمان، وسار فأغار على بلاد صيدا وأعمالها «فغنموا أحسن غنيمة وأوفرها، وخرج إليهم ما كان بها [صيدا] من خيّالة الإفرنج ورجالتها، وقد كمنوا لهم، فغنموهم وقتل أكثرهم وأسر الباقون، وفيهم ولد المقَدَّم المُوَلّى حصن خارم، وعادوا سالمين بالأسرى ورؤوس القتلى، والغنيمة، لم يُصَب منهم غير فارسٍ واحد فُقِد»[2]، ووصلوا إلى نور الدين وعسكره عند جسر الخشب حيث خرج بعد شهر من دخوله دمشق [9 ربيع الآخر/ 10 أيار].

واشترك مع أسد الدين في هذه الغزوة أخوه نجم الدين وأولاده[3]. وربّما كانت هذه الحملة أول حملة يُشارك فيها صلاح الدين مشاركة فعّالة في القتال، وكان وقتها قد بلغ العشرين من العمر.

وفي أوائل ذي الحجّة 553/ أواخر كانون أول 1158 عاود المرض الملك العادل مَرّة أخرى[4]، وضعفت قُوّته وكثر الإرجاف به **«من حُسّاد دولته والمفسدين من عَوَامّ رعيته»**، وخشي مَرْة أخرى من وقوع الفتنة، ودبّ الرعب في قلوب الأجناد وعامة الناس «وضاقت صدور قُطّان الثغور والبلاد خوفاً عليه، وإشفاقاً من سوءٍ يصل إليه، لا سيّما مع أخبار الروم، والخبر من الفرنج...»[5]. كما خاف نور الدين نفسه على تفكك دولته فعَقَد اجتماعاً

---

(1) تاريخ دمشق، ص 536.

(2) المصدر ذاته، ص 537.

(3) ابن أبي طيء، الروضتين، 1 ص 123.

(4) يجمع ابن الأثير وابن العديم بين المرضين كمرض واحد، لكن تدقيق المعلومات يشير إلى دقّة معلومات ابن القلانسي وأنّه بعد المؤامرة الأولى هرب أخوه نصرة الدين إلى حَرّان فاستولى عليها. انظر الكامل، 11 ص 251 - 252؛ زبدة الحلب، 2 ص 308 - 309.

(5) تاريخ دمشق، ص 542.

حضره خواص أصحابه والأمراء وكبار رجال الدولة كالعادة لتحليفهم على ما يوصي به. وقد وصف ابن القلانسي الاجتماع وما تمّ فيه وصفاً بليغاً، والإجراءات الأمنية التي اتخذت في حلب، والنتائج التي ترتبت عن الاجتماع:

«وكان الأمير مجد الدين [ابن الداية]، النائب في حلب، قد رتّب في الطرقات السالكين فيها. . .» خوفاً من نصرة الدين ميرميران وما يمكن أن يقوم به من أعمال. أما بالنسبة للاجتماع، فقد قال:

«. . . ولما أَحَسّ [نور الدين] من نفسه بالضعف، تَقَدّم إلى خواص أصحابه، وقال لهم: إنني قد عزمت على وصية إليكم بما قد وقَع في نفسي، فكونوا لها سامعين مطيعين، وبشروطها عاملين. فقالوا: السمع والطاعة لأمرك، وما تقرره من رأيك وحكمك فإنا له قابلون وبه عاملون. فقال: إني مشفق على الرعايا وكافة المسلمين ممن يكون بعدي من الولاة الجاهلين، والظلمة الجائرين؛ وإن أخي نصرة الدين ميرميران أعْرِفُ من أخلاقه وسوء أفعاله ما لا أرتضي معه بتوليته أمراً من أمور المسلمين، وقد وقع اختياري على أخي قطب الدين مودود. . . متولي الموصل، وخواصه، لما يرجع إليه من عقل وسداد ودين وصحة اعتقاد، بأن يكون في منصبي من بعدي. . . فكونوا لأمره طائعين ولحكمه سامعين، واحلفوا له بصحة من نياتكم وسرائركم، وإخلاص من عقائدكم وضمائركم. فقالوا: أمرك المطاع، وحكمك المتبع. فحلفوا الأيمان المؤكدة على العمل بشروطها واتباع رسومها مُسْرِعاً. . .»[1].

وبعد الاجتمع بأيام بدأ نور الدين يتعافى، لكن ذلك لم يمنع قيام مؤامرة بدأت مع بداية المرض. فقد أمسك رجال مجد الدين ابن الدَّاية في منبج[2] برجل من أهل دمشق برجل يُعرف بابن مغزو ومعه كتب، فاعتقله وأرسله إلى مجاهد الدين والي حلب، ففتح الكتب وعرف مُحتواها فقتل الرجل وصَلَبَه، وأرسل الكتب إلى نور الدين في القلعة [العشر الثاني من محرم 554 هـ/ العشر

(1) المصدر نفسه ص 542. (2) مدينة أو بلدة غرب الفرات على الطريق إلى حَرّان والجزيرة الفراتية.

الأول من شباط 1159 م]. وكانت الكتب موجهة من متولي ديوانه ووالي القلعة مملوكه وأحد حُجّابه إلى نصرة الدين المتحصن في حَرّان، شرق الفرات، تعلمه:

«بوقوع اليأس من أخيه... ويحضونه على المبادرة والإسراع إلى دمشق لتُسَلَّم إليه»[1].

فقام نور الدين بإحضار أصحاب الكتب وعَرَضها عليهم فأقَرّوا، وأمر باعتقالهم.

ثُمّ وصل إلى نور الدين كتاب صاحب قلعة جعبر ويخبر فيه بأنّ نصرة الدين قطع الفرات وتوجه نحو دمشق. وبادر نور الدين فأرسل العساكر بقيادة أسد الدين شيركوه لمواجهته والتصدي له: «لرَدّه ومنعه من الوصول». وفي الطريق جاء الخبر إلى شيركوه بأن نصرة الدين، عندما عرف بشفاء أخيه، عاد مسرعاً إلى حَرّان فعاد أسد الدين بالعساكر إلى دمشق[2].

وكان نور الدين، في فترة اشتداد مرضه، أرسل وفداً إلى مودود في الموصل. وعاد الرسل إلى دمشق وأخبروه بأنه خرج بعسكره من الموصل «متوجهاً إلى ناحية دمشق». لكن مودود عرف بعد ذلك خبر عافية أخيه، فأرسل وفداً برئاسة الوزير جمال الدين، صديق شيركوه القديم، إلى دمشق للتأكد من الأحوال وعافية نور الدين. ووصل الوفد إلى دمشق يوم السبت الثامن من صفر سنة 554 هـ/ 14 آذار 1159 م، فاستقبل استقبالاً كبيراً:

«واجتمع مع الملك العادل نور الدين، وجرى بينهما من المفاوضات والتقريرات ما انتهى عوده إلى جهته...»[3].

وفي يوم السبت 14 صفر [20 آذار] غادر الوزير جمال الدين إلى الموصل

---

(1) المصدر نفسه، ص 542 - 543.

(2) تاريخ دمشق، ص 543.

(3) في جمادى الآخرة توجه نور الدين حَرّان فاستولى عليها وأقطعها للأمير زين الدين علي نائب =

وصحبته الأمير الكبير أسد الدين شيركوه لشكر قطب الدين مودود على موقفه الحازم من المؤامرة[1].

كانت تجربة أسرة شاذي ومن انضم إليها من الأمراء الأكراد حتّى سنة 558 هـ/ 1162 - 1162 م، في خدمة آل زنكي وفي المواجهة مع الإمارات الصليبيّة تتمثل في الإدارة بدمشق، وقيادة قُوّات الجيش العمادي العادلي من قبل الأمير الكبير أسد الدين شيركوه، ودوره في الحروب الخارجيّة ضِدّ الإمارات الصليبيّة، إضافة إلى دوره في تثبيت حكم نور الدين بداية، وفي التصدي لمؤامرات نصرة الدين ميرميران محمد بن زنكي.

أمّا عميد البيت الأيوبي نجم الدين أيوب الإداري والسياسي المحنّك الذي عجمته التجارب، نظراً لخدمته الطويلة في هذا المجال، فقد كان مُفكّر البيت وسياسيّه الصبور الكابح دائماً لاندفاع أخيه شيركوه صاحب العقل العسكري الجَسُور في اتخاذ القرار الجسور. أما صلاح الدين يوسف، الذي كان يقترب من الثلاثين من عمره، والذي لم يكن أكبر أبناء نجم الدين، فقد كان أكبرهم عَقّلاً، وأكثرهم تمرساً بالسياسة والإدارة في معالجته الأمور، نظراً لطبيعة عمله الذي يستدعي الحَزْمَ في اتخاذ القرار والشدّة في تنفيذه، لحفظ الأمن والاستقرار في مدينة الشام الكبرى، ربّما عبر العصور.

وقَدْ تَرَبى الأمير الشاب وتَدَرّب بداية في ديوان والده أثناء فترة طفولته ومراهقته في مدينة بعلبك وقلعتها وسهل البقاع الخصيب، وربما دَرَس العلوم الأساسيّة على بعض علماء بعلبك الذين كانوا يعيشون فيها مثل المحسن بن الحسين بن أبي المضاء الذي ربما كان وزير والـده وغيرهم ممن يفدون إليها، ثمّ تدرّب عسكرياً، كما أوضحنا، بارتباطه مع عَمّه أسد الدين شيركوه في حلب وبلادها حيث كان استقلاله المالي بإقطاعه الصغير الذي منحه إياه الملك العادل نور الدين وهو لا يزال في الرابعة عشرة من عمره، وكأن الملك كان يشعر بأن

= أخيه مودود وفَوّض إليه تدبير أمورها تاريخ دمشق، ص 547؛ مرآة الزمان، 8 ص 232؛ الكامل، 11 ص 252.

(1) تاريخ دمشق، ص 547؛ ابن أبي طيء في الروضتين، 1 ص (122 - 123.

الأمير الصغير سيكمل مسيرته في الجهاد وتحرير البلاد الشاميّة من الصليبيين. ومنذ ذلك الحين ارتبط مصير صلاح الدين ببلاط نور الدين محمود الذي كان لقبه الذي اشتهر به بحق وعن جدارة «الملك العادل» فصار نور الدين نموذجه الثاني ومثاله الذي يُقْتَدى في القيادة والحكم وإدارة الحرب والسلام، وفي اختيار الرجال الأمناء الأقوياء للجيش والقضاء والإدارة في دولته في المستقبل، والذين كانوا خير عون له، كما سنرى في ما يلي من هذه الأوراق.

وقد لَخّص العماد الإصفهاني، الذي وَصَل من العراق إلى دمشق سنة 562 هـ/ 1167 م، ودخل في خدمة نور الدين كاتباً ثَمّ مشرفاً على الديوان، واتصل بالبيت الأيوبي منذئذٍ بسبب الخدمات التي قدمها هذا البيت ـ كما ذكرنا ـ لعمه العزيز الذي اعتقل في تكريت مُدّة قبل قتله ظلماً سنة 527 هـ/ 1133 م[1]. قال العماد:

«وكان صلاح الدين أحد خواصّه [أي نور الدين] وأخْلَص ذَوي اسْتِخْلَاصِه ـ وَلَد نجم الدين من أكابر أمرائه ـ **لا يفارقه راكباً في ميدانه، ولا جالساً في إيوانه، يَقِفُ على رأسه ووالده من جُلّاسه، وقد اقتدى به في جميع ما اتصف به من التقى والعفّة والنزاهة والنباهة، وآداب الملك وأحكام السلطنة، فتلَقّن منه مبادىء الخبرات، ثُمّ جاوز بها في أيامها إلى الغايات»**[2].

وفي سنة 559 هـ/ 1164 م، كان بداية التحول الحاسم في حياة الأمير الأيوبي الشاب صلاح الدين حيث شارك في الحملة التي وجهها الملك العادل بقيادة أسد الدين إلى مصر بناءً على طلب من شاور، وزير الدولة الفاطميّة المطرود من مركزه، والذي قدِم إلى دمشق طالباً مساعدة الملك العادل بالقوات العسكرية لاسترجاع منصبه الذي غصبه ضرغام.

---

(1) سنا، 1 ص 56 - 57.

(2) سنا، 1 ص 56.

3 من دمشق إلى القاهرة

«وكان عادة [الخلفاء] المصريين أنّه إذا غلَب شخص صاحب المَنْصِب [الوزير]، وعجز صاحب المنصب عن دَفْعِه، وعَرَفُوا عَجْزَه، وقَّعُوا للقاهر منهم ورتّبُوه ومَكّنُوه، فإن قُوّتهم إنّما كانت تكون بَعسْكَر وزيرهم، وهو الملقب عندهم بالسلطان».

ثلاث قوى كانت تتحكم في مصر وبلاد الشام في العقد السابع من القرن الثاني عشر الميلادي كان أولها دولة نور الدين محمود التي تمكنت من توحيد كل بلاد الشام وجزءاً من الجزيرة الفراتية (ديا مضر)، وتمكنت بعد ذلك من تصفية عددٍ من الحصون الصليبية ودفعهم إلى الحَدِّ الذي تمثّل بوادي العاصي وسهل البقاع ووادي الأردن حتى طبريّة ووادي نهر الزرقاء؛ وكانت تهادن الإمارات الصليبية أو تحاربها عند انقضاء الهدن خاصة في المناطق الاستراتيجيّة عند قلعة حارم وبانياس وحوران وغيرها مثل السواد أو تجدّد الهُدَن. أما نظام المقاسمات، الذي سنتحدث عنه بتفصيل أكثر عِنْد بحث هدنة صلح الرملة، فقد استمر في مناطق الحدود وسواد الأردن [المنطقة بين وادي اليرموك ووادي الموجب شرقي النهر] فقد استمر في مناطق الحدود في حال الحرب والسلام. وكان الهدف الاستراتيجي لدولة نور الدين هو الاستعداد والتجهز باستمرار لاستعادة السّاحل، لكن تحقيق هذا الهدف كان أكبر من الإمكانات العسكرية والماديّة التي توافرت لديه في بداية هذا العقد. أما علاقة دولة نور الدين بالدولة الفاطميّة فقد كانت علاقة وُدٍ ووئام خلال العقد السابق خاصة خلال وزارة العادل طلائع بن زُرَّيك للفاطميين التي جرت خلالها محاولات لتوحيد الجهد

بين الشام ومصر في مواجهة الصليبيين، كما سنرى عند بحثنا لأوضاع الدولة الفاطميّة في الصفحات التالية.

أمّا الإمارات الصليبية ومملكة القدس اللاتينية فقد كانت لها سياستها الخاصة بها تجاه دولة نور الدين ودولة الفاطميين فإمارة أنطاكية كانت في مواجهة حلب وبلادها، وكان عليها القيام بالعمليات العسكريّة الضروريّة بمفردها أو بمساعدة بقيّة الإمارات. وكذلك كان الوضع بالنسبة لإمارة طرابلس في مواجهة جبهة حماه وحمص. أما المملكة اللاتينية في الجنوب فقد كانت تُحادّ بلاد دمشق ومصر. وقد تحدثنا عن علاقاتها مع دمشق في البداية. وحكم المملكة في بداية الفترة الملك بلدوين الثالث الذي كان يلجأ أحياناً للهجوم والفساد في المناطق التي كانت تخلو من القوة العسكرية مثل استغلاله لغياب نور الدين محمود مع قُوّاته - في النصف الثاني من العقد السابق - في بلاد سلاجقة الروم ومسير أسد الدين بقوات دمشق مع قافلة الحاج الشامي (1) للإغارة على بلاد دمشق مرتين في فترة قصيرة: فعندما عرف الملك خُلُوّ بلاد دمشق من قوّاتها للمشاركة في الحملة التي قادها نور الدين إلى الشمال جمع الملك بلدوين قواته وتوجه إلى بلاد دمشق، فأفسد فيها وأحرق كما يشاء، دون مقاومة، المناطق الممتدة من بصرى جنوباً وحتى داريّا شمالاً قرب المدينة. وفي دمشق كان الوالي نجم الدين أيوب الذي تركه نور الدين لحمايتها. وتمكن الأمير الأيوبي من شراء هُدنة من الملك الصليبي لمدة ثلاثة أشهر بمبلغ أربعة آلاف دينار وإطلاق سراح ستة أسْرَى عاديين، فأخذها بلدوين وعاد من حيث أتى (2). وعند انتهاء المُدّة المحددة في الهدنة، كان نور الدين لا يزال في بلاد حلب، فدخل بلدوين الثالث مَرّة أخرى فعاث وأفسد كما يشاء ثم استولى على المواشي وأحرق الحقول وعاد دون مقاومة (3).

---

(1) قاد أسد الدين شيركوه قافلة الحاج، كأمير لها من الشام، سنة 555 هـ/ 1160 م. الكامل، 11 ص 263؛ ابن أبي طيء، في الروضتين، 1 ص ا(ويعتبرها من أحداث السنة لتالية.
(2) وليم الصوري، تاريخ، (E)، ص 288 - 283.
(3) المصدر نفسه، ص 283.

وأما سياسة بلدوين الثالث نحو الدولة الفاطميّة فقد كانت قريبة من سياسته تجاه دمشق من حيث الغارات على الأطراف وعقد الاتفاقيات وأخذ «قطيعة» المال السنوية منهم. لكنّ هذه السياسة تغيّرت عندما تولى الملك عموري الذين اتخذ سياسة أكثر شِدّة وعداء من سابقه خاصة بعدما عرف ضعف الدولة الفاطميّة وطلبها المساعدة منه أثناء الأزمة التي أدّت إلى نهاية حكم الخلفاء الفاطميين في مصر. وقِصَة أحوال مصر في العقد المذكور والتي لخَّصَها المقريزي في الاقتباس المذكور أعلاه كانت كالتالي:

قبل قرن أو يزيد قليلاً من نهاية الدولة الفاطميّة، كان الخلفاء قد فقدوا نفوذهم الفعلي في الدولة، وأصبح الوزراء الأمراء هم أصحاب السلطة الحقيقية. وابتدأت هذه الحقبة بالوزير بدر الجمالي وانتهت بشاور. وللوزير طلائع بن رُزيك، الذي تولى منصبه في سنة 549 هـ/ 1153 م، موقع خاص بين هؤلاء الوزراء خاصته في ما يتعلق بالعلاقة بين الدولة الفاطميّة وكل من دولة نور الدين محمود والفرنجة الصليبيين في فلسطين. فقد حاول بالنسبة للدولة الأولى إحياء العلاقات مع أصحابها وتوحيد الجهد ضد الصليبيين، أما علاقته بالمسيطرين على فلسطين وغيرها من مناطق الساحل فقد تمثلت على الأغلب بالعمليات العسكرية التي قام بها ضِدّهم والتي لم تحقق سيطرة على الأرض لكن كان لها أثر في إثارة القلق الدائم في مملكة القُدس اللاتينيّة وفي توجيه اهتمام هذه القُوّة إلى خطر العلاقات المستجدة بين مصر وبلاد الشام.

قبل تولي العَادل طلائع الوزارة أرسل الأمير أسامة بن منقذ الى نور الدين الذي كان يُحَاصر دمشق للاتفاق معه على القيام بحملة من الجبهتين ضِدّ الصليبيين. يذكر أسامة:

«وتَقَدّم إليّ الملك العادل [طلائع]. . . بالتجَهّز للمسير إلى الملك العادل نور الدين. . وقال: تأخذ مالاً وتمضي إليه ليُنازِل طَبريَّة ويشغل الفرنج عنّا، لنخرج من ها هنا نخرب غَزّة. وكان الإفرنج، خذلهم الله، قد شرعوا في عمارة غَزّة[1] ليُحاصِروا عسقلان. قلت: يا مولاي، فإن

(1) بدأ الملك بلدوين الثالث بناء غَزّة لإحكام السيطرة في حصار عسقلان ومنع الإمدادات البرية =

اعتذر أو كان له من الأشغال ما يعوقه، أي شيء تأمرني؟ قال: إن نزل على طبرية فاعْطِه المال الذي معك، وإن كان له مانِع فَدَيْون[1] من قدرت عليه من الجند واطلع إلى عسقلان، وأقم بها في قتال الإفرنج، واكتب إليّ بوصولك لآمُرُكَ بما نَعْمَل»[2].

وسار أسامة بن منقذ حَتّى وصل إلى بُصْرى:

«فوجَدْنا الملك العادل نور الدين.. على دِمَشْق [يُحَاصِرها]. وقد وَصَل الأمير أسد الدين شيركوه [إلى بُصرى]... فسرت معه إلى العسكر فوَصَلْته.. وأصبحت فتحدثت مع نور الدين بما جئت به، فقال لي: يا فلان، **أهل دمشق أعداء والإفرنج أعداء، ما آمن منهما إذا دخلت بينهما.** قلت له: فتأذن لي أن أدَيْون من محرومي الجند قوماً آخذهم وتُنْفِذ معي رجلاً من أصحابك في ثلاثين فارساً ليكون لك الاسم. قال: أفعل»[3].

كانت هذه، ربّما، المَرّة الأولى التي يجتمع فيها شيركوه بإنسان عاش طويلاً في القاهرة، وخَبَر أمُورها، وشارك في مؤامرات وزرائها.

لم ينجح أسامة في الجزء الأول من مهمته، وحالَفَه في الجزء أو البديل الثاني، بسبب ما ذكره نور الدين عن أصحاب دمشق آنذاك. لكنه بدأ علاقة تَعاون ودي بين الملكين الشّامي والمِصْري.

وسقطت عسقلان بيد الصليبيين (1153 م) قبل أقل من سنة من تولي ابن رُزَيك الوزارة، وزال بذلك الحاجز الكبير الحصين الذي كان شوكة دائمة في خاصرة مملكة الصليبيين في القدس، ويمنع أي تَقَدّم لهم نحو حُدود مِصْرَ. وقد

= من الوصول إليها في حدود سنة 1150. انظر وليم الصوري، تاريخ، 2 ص 202- 203.

(1) سَجّل لديك في سجل أو ديوان الجند.

(2) الاعتبار، ص 12.

(3) المصدر ذاته، ص 17.

بيّنا أن سقوطها ساعد في سيطرة نورالدين محمود على دمشق وتوحيد كل بلاد الشام التي كانت بيد أمراء المسلمين.

وفي السنة الأولى من ولاية طلائع الوزارة مال إلى مُهَادَنة الفرنج:

«... لمّا استقام له الأمر عزم على مصالحة الإفرنج وموادعتهم، واستكفاف شَرِّهِم، ومُصَانَعَتِهم بمال يُحمل إليهم من الخزانة [العامة للدولة]، وما يُفرض على إقطاع المُقَدّمين من الأجناد...»[1].

لكنّ المشروع وجَدَ معارضة شديدة خاصة بعدما كان من سقوط عسقلان وبعد فشل الجيش الفاطمي في تقديم المساعدة المطلوبة لمن بها، فهددوه بالعزل وقَرّروا إرسال أسطول كبير لغزو السواحل الشاميّة ومن فيها من الصليبيين[2]. من هنا كان اهتمامه المتزايد بتوحيد الجهد مع نور الدين قدر المستطاع بالرغم من اختلاف المذهب، وشَنّ الغارات على البلاد التي كانت لا تزال بيد الصليبيين. ومع ذلك فقد عَقَد بداية هدنة مع ملك القدس من أجل الاستعداد والتجهز لذلك المشروع.

وفي أوائل سنة 552 هـ/ 1157 م، أرسل طلائع رسولاً إلى نور الدين في دمشق فاستُقْبِلَ ثُمّ جُهّز في ربيع الأول (نيسان ـ أيار)، وأعيد من الشام ومعه رَسُول من نور الدين «لإيصال ما صحبه من [الكتب]... إلى صاحب الأمر فيها»[3].

وبعد شهرين من عودة الرَسُول من الشام إلى القاهرة «كان انفساخ الهدنة المعقودة بين الفرنج والمصريين» ـ ربما بسبب هذه الاتصالات التي لا نعرف محتواها ـ، وبدأ طلائع بتجهيز الجند والعربان للإغارة على البلاد الخاضعة للصليبيين.

---

(1) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 509 - 510.
(2) المصدر نفسه، ص 510.
(3) المصدر نفسه، ص 519؛ إتعاظ 32 ص 230.

1 - في 17 جمادى الأولى / 8 تموز 1157 م بعث سريّة باتجاه غَزّة، فوصلت إليها، ونهبت أطرافها، ثم سارت إلى بلاد عسقلان فأسرت وغنمت وعادت.

2 - وفي 14 جمادى الآخرة / 24 تموز، بعث سرّية لا تُحَدّد المصادر الجهة التي أغارت عليها.

3 - وأرسل سرية ثالثة إلى غور الأردن (الشريعة) «فأبْلَت بلاءً حسناً» وعادت.

4- وجَهَّز السفن الحربيّة، ووجهها إلى سواحل الشام، «فانتهت إلى بيروت، وأوقعت مراكب الإفرنج، وأسرت منهم وغنمت». ورُبما كان ذلك في الفترة التي كانت قُوّات نور الدين تقوم بعمليات عسكريّة ناجحة في منطقة بانياس بين الأخيرة وطبريّة، وحصار المدينة والاستيلاء عليها [1]، ثم «شرع في قَصْد أعمالهم لتملكها وتدويخها» [2].

5 - وسيّر العادل طلائع قُوّة في البرّ إلى بلاد الشُّوبك «فعاثوا فيها وأغاروا، ورجعوا بالغنائم في رجب (آب) ومعهم كثير من الأَسْرَى.

6 - «وسيّر الأسطول [مَرّة أخرى] إلى عَكّا، فأسروا نحواً من سبعمائة نفس بعد حروب كثيرة، وعاد الأسطول في رمضان» (تشرين الأول).

7 - وجهز سَريّة أخرى وأرسلها «وعادت بالغنائم في رَمضان».

8 - وبعث سرية في أول ذي القعدة (كانون الأول) وأردفها بأخرى «فوصلت غاراتهم إلى [حدود] أعمال دمشق [من جهة جنوب الأردن]، وعادوا غانمين» [3].

وتتابعت الغارات من العسكر الفاطمي على البلاد الخاضعة للصليبيين في السنة التالية: (553 هـ/ 1158 م).

---

(1) تاريخ دمشق، ص 519 - 525.

(2) المصدر نفسه، ص 525.

(3) جمع هذه الغارات المقريزي، إتعاظ، 3 ص 230.

1 ـ في المُحَرّم جَهز طلائعُ ضرغاماً للغارة فوصل إلى تل العجول[1]، وحارب الصليبيين (15 منه / 16 شباط)، «فانهزموا من المسلمين هزيمة قبيحة». وفي أوائل ربيع الأول (نيسان)، وصلت أخبار هذه الحملة إلى دمشق. يذكر ابن القلانسي:

«. . . ورد الخبر من ناحية مصر بخروج فريق وافر من عسكرها إلى غَزَة وعسقلان، وأغاروا على أعمالها.

وخرج إليهم من كان بها من الفرنج الملاعين، فأظهر الله المسلمين عليهم قتلاً وأسراً بحيث لم يفلت منهم إلاّ اليسير، وغنموا ما ظفروا، وعادوا سالمين ظافرين»[2].

2 ـ وفي ربيع الآخر قَدِم إلى الإسكندرية الأسطول محملاً بالغنائم ثم توجّه مَرّة أخرى للإغارة على السواحل وأرسل أيضاً عسكراً إلى وادي موسى شرقي وادي عربة «فنزل على حصن الوُعَيْرة [أ ص. الدميرة] وحَاصَره ثمانية أيام، وتوجه إلى الشّوبك وأغار على ما هنالك، وأقام أميران على الحصار، وعاد بقية العسكر»[3].

3 ـ وفي شعبان سيّر عسكراً آخر إلى ذات المنطقة «فواقعوا الفرنج على العريش [على الحدود] وعادوا»[3].

4 ـ في ذات الوقت وصل رسول من نور الدين إلى القاهرة، وعاد بأجوبة الرسائل من العادل طلائع ومعه «رسول من مقدمي أُمَرائها. . .». وحاولت فرقة من الصليبيين التَعَرض لهم عند أحد الممرات في الطريق لكنها هزمت وقتل معظم أفرادها[4] ويُفَصّل المقريزي الهدية التي أرسلت إلى نور الدين:

«ومعه هدية فيها من الأسلحة وغيرها ما قيمته ثلاثون ألف دينار،

---

(1) تل العجول: موقع أو محطة على الطريق بين غَزّة وعسقلان.
(2) تاريخ دمشق، ص 537.
(3) يذكر ابن القلانسي هذه الغارة للأسطول. ص 537، 540؛ إتعظ، 3 ص 234.
(4) تاريخ دمشق، ص 539 - 540؛ (4) إتعاظ، 3 ص 234.

ومن العين (النقد) مبلغه سبعون ألف دينار تقوية له على جهاد الفرنج . . . ولبس نور الدين خِلَعَ الملك الصالح طلائع».

5 ـ ووصل رُسُل الصليبيين إلى القاهرة «يسألون الصُلْح»[1]. وفي ذات الوقت راسل بلدوين الثالث نور الدين «في طلب المهادنة والصلح، وحَرص على ذلك، وترددت المراسلات بين الفريقين، ولم يستقر الحال بينهما . . .» على اتفاق.

6 ـ وأرسلت سريّة إلى بيت جبرين على أول الطريق الجبلي إلى الخليل ـ التي كان الصليبيون قد عمروها واستوطنوها لأجل إحكام الحصار على عسقلان ـ ثمّ رجعت بالغنائم[2].

7 ـ في جمادى الأولى: سار عسكر إلى بلاد القدس فخرّب وعاد، ثم كانت وقعة عند طبرية هزم فيها الصليبيون[2].

ويعلق المقريزي على هذه الوقائع:

«وانقضَتْ [السنة] في تجهيز العساكر في البَرّ والبحر وسيرها وعودها بالغنائم الكثيرة والأسارى العديدة»[3].

وفي 12 صفر سنة 554 هـ/ 5 آذار 1159 م، توجه رَسُول نور الدين مَرّة أخرى من دمشق إلى القاهرة[4] ومعه كتاب يذكر فيه أنّه توجّه لقتال الصليبيين، ويطلب إرسال قوات لشغلهم في الجبهة الجنوبيّة، فبعث طلائع سريّة إلى غَزّة، ثم جهّز جيشاً من 6500 فارس، وأرسله (أوائل جمادى الأولىٰ/ أواخر حزيران)؛ كما أرسل أُسطولاً في البحر. وعاد الجيش في أواخر الشهر التالي[5]

(1) تاريخ دمشق، ص 538.
(2) إتعاظ، 3 ص 233 (كل الغارات) ـ 234.
(3) المصدر نفسه.
(4) كان ذلك بعد شفاء نور الدين من المرض، كما ذكرنا. انظر ما تقدم، وتاريخ دمشق، ص 544.
(5) إتعاظ، 3 ص 236.

وفي هذه الأثناء «قدم رسول الفرنج [إلى القاهرة] بهديّة لطلب الهُدْنَة» [1] .

وفي هذه السنة أيضاً بنى الوزير «حصناً من لِبْنٍ» على مدينة بلبَيْس [2] ، التي سيتردد ذكرها كثيراً في الصفحات التالية نظراً لموقعها الاستراتيجي على الطريق إلى القاهرة.

وفي سنة 555 هـ/ 1160 انشغل الوزير طلائع بالفتن الداخليّة وبوفاة الخليفة وتنصيب خليفة جديد فأَرْسَل الخليفة الجديد ـ العاضد ـ الخلع إلى نور الدين في دمشق. وفي السنة التالية قُتِل الوزير العادل، وتَوَلّى ابنه مكانه، ثم سَيْطَر شاور على الوزارة والدولة، فتَوقَفَت الاتصالات مع نور الدين، ثُمّ قام شاور بإرسال الخلع إلى الصليبيين (1163 م)، وتم الاتفاق على المهادنة والصلح مقابل مال سنوي يدفع للفرنج. وهكذا فبعدما كان الصليبيون يطلبون الهدنة والصلح من الوزير السابق فترفض، قام الوزير الجديد الذي لم يستقر أمره بالمهادنة ودفع المال أيضاً.

ووقعت الفتنة بين الوزير شاور وضرغام صاحب باب الخليفة، وانتهى الصراع بينهما بهرب شاور إلى الشام وتولي ضرغام الوزارة «واختلّت الدَوْلَة [الفاطمية] وضَعُفَت بذهاب أُمَرائها وأولي الرأي فيها» [3] .

واستغَلّ الصليبيون هذه الظروف الصَعْبَة في مصر، فتوجهت قُوّة منهم للإغارة على المناطق الشرقيّة من مصر وكانت حُجّة ملك الصليبيين الجديد في ذلك هي رفض المصريين ، حسب الاتفاق الموقع سابقاً مع سلَفه ، دفع مال «**قطيعة**»[4]. وصَلَت الحملة إلى **السَدِير**[5]، ثُمّ وَصَل الخبر في شَوال 558 إلى

---

(1) **إتعاظ**، 3 ص 236.

(2) **نفسه**.

(3) **إتعاظ**، 3 ص 262. ويبدو أن المقريزي ينقل أخباره عن ابن أبي طيء. وقد لخص أبو شامة هذه الحملة مع إضافات جديدة. **الروضتين**، ص 165-167.

(4) وليم، **تاريخ**، 2 ص 302 - 303.

(5) السدير: مَحَطَة على الطريق إلى الشام.

القاهرة (أيلول 1163 م) بوصولهم إلى فاقوس[1] . عند ذلك أرسل ضرغام أخاه هماماً لمواجهتهم، فالتقى بهم فهزموه واتجه عائداً إلى بلبيس[2]، فلحقوا به وحاصروه، وتمكنوا من هدم جزء من السُّور لكنه تمكّن من ردّهم بمساعدة بني كنانة[2]. في هذه الأثناء كان شاور قد وصل إلى الشام[*].

فهل ابتعدنا في ما تقدم عن مناقشة عن سيرة الأمير صلاح الدين وعَمّه أسد الدين، أم أنهما بحكم موقعهما ونجم الدين كانوا على اطلاع تام بما يجري في مصر عن طريق الاتصالات الرسميّة، والعيون، والتّجار المتنقلين دوماً في قوافلهم بين مصر والشام، ومن كان يرافقهم من رجال العلم والأدب. ولا نَنْسى أيضاً أن أسامة بن منقذ كان قد استَقَرّ في بلاط نور الدين بدمشق، واتصل بأبناء شاذي وبيت أيوب قبل تَوَلّي صديقه العادل طلائع بن رُزيك بقليل.

في السنة التي ضَمّ فيها نور الدين دمشق وبلادها إلى دولته، وصلت الأخبار إلى بغداد باختلال الأحوال في مصر بعد مقتل الخليفة الفاطمي الظافر وولاية ابنه الصغير الفائز، واختلاف الجند فيها. ولا بُدّ أن هذه الأخبار وصلته بصورة رسمية من نور الدين محمود الذب بَعَث ـ دون ما يشير إلى ذلك ـ إلى بغداد البُشْرَى بذلك، ويطلب موافقة الخليفة على توليته ما تمكّن من فتحه من بلاد. يذكر عبدالرحمن بن الجوزي، الواعظ المشهور:

«وفي هذه السّنَة اتصلت الأخبار باختلاف مصر والسَّاحل، وهلاك خليفتها [1 ص: خليفتيهما] وولي عهده والجُند، وأنّه لم يبقَ ثَمَّ إلاّ صبي [العاضد]، فكتب المقتفي لأمر الله عهداً لنور الدين بن زنكي،

---

(1) فاقوس: مرج واسع للتخييم على الطريق بين القاهرة وايلة (العقبة).

(2) إتعاظ، 3 ص 263.

(*) يفهم من المقريزي ووليم الصوري أنّ شاور كان يراقب المعركة من على تل هناك: «وكان شاور قد أنظم إلى بني منصور لأنه من فخذهم، وكان قائماً على كوم عال. . .». اتعاظ 3 ص 262، أما وليم فيقول أنه اختبأ عند العرب بانتظار ما تسفر عنه الحرب. وعندما عرف بعودة الملك إلى بلاده توجه إلى نور الدين (في شوال) ـ (أيلول ـ تشرين أول 1164) تاريخ، ص 303.

وولّاه مصر وأعمالها والسّاحل، وبعث إليه المراكب والتحف وأمره بالمسير إليها»[1] .

وقبل سنتين من التاريخ المتقدم، . كان السلطان مسعود السلجوقي قد توفي (547 هـ/ 1152 م). وبدأ الخليفة المقتفي سياسة الاستقلال الكلّي عن السلاجقة في المناطق التي يتمكن من السيطرة المباشرة عليها، وطَرَد كل الجند الأتراك لديه من خدمته، وأخضع كل العراق **«من أقصى الكوفة إلى حُلْوان»**[2] [علـى الحـدود مع إيران] **ومن حـد تكريـت إلى عبـادان»** علـى الخليج العربـي لنفوذه المستقل والمباشر. وتَمّ ذلك بمساعدة وزيره القدير عون الدين يحيـى بن هبيرة الشيباني الذي قيل عنه: «وكان مبالغاً في تحصيل التعظيم [للخلافة] قامعاً للمخالفين بأنواع الحيل حتى **حَسَمَ أمُور السَّلاطين السَّلْجوقية»**[3] . وكان السلطان مسعود وأصحابه قد جاوزوا الحَدّ في الإساءة للخليفة العباسي الى درجةٍ دفعت الإمام العباسي الى حربه بالدعاء عليه قبل حرب أصحابه في العراق. قال أبو شامة:

«وذكر الوزير يحيـى بن هبيرة في كتابه الإفصاح: أنّه لما تطاول على الخليفة المقتدي أصحاب مسعود، وأساءوا الأدب، ولـم يمكن المجاهرة بالمحاربة، **إتفق الرأيُ على مَسْعُود** [لاحظ دون ألقاب] بن **محمد شهراً، كما دعا، رسول الله ﷺ على رَعْلَ وذكوان شهراً**؛ فابتدأ هُو [أي الوزير] والخليفة سراً، كل في موضعه [قصره]، يدعو سَحَراً من ليلة تسع وعشرين من جمادى الأولى سنة سبع وأربعين وخمسمائة. واستمَرّ الأمر على ذلك كُلَّ ليلة. فلمّا كان ليلة تِسْعِ وعشرين من جمادى

---

(1) المنتظم، 10 ص 158. ويكرر ذلك المقريزي في الاتعاظ، 3 ص 223. والغريب أن لا أحد غيرهما ممن اطلعت على ما كُتب يذكر ذلك. وفي نظري أن ذلك دقيق. فالتطورات التي ذكرتُ والتي سأذكر تدل على ذلك.

(2) تاريخ آل سلجوق، ص 216.

(3) المنتظم، 10 ص 214 وسنتحدث بصورة أوسع عن الخلافة والسلطنة في الفصل عن فترة صلاح الدين وعلاقته مع آل زنكي.

الآخرة، كان موت مسعود على سريره، لم يزد عن الشهر يوماً ولا ينقص يوماً. ووَصَل القُصَّاد بذلك من همذان إلى بغداد في ستة أيام، فأزال الله يَدَه ويَدَ أتْبَاعِه عن العراق. وأورثنا أرضهم وديارهم. . . »[1].

وأعطى عَهْدُ المقتفي لحكم نور الدين الشرعيّة الضرورية بالاستقلال في البلاد الخاضعة له، وتبعيّة أولاد أخيه في الجزيرة له، وأن يُتْبع لحكمه وسيطرته كل ما يستطيع استعادته من السّاحل الذي يسيطر عليه الفرنج أو ما يفتحه من بلاد جديدة. وربّما كانت العلاقة الوثيقة التي نَشَأت بينه وبين طلائع بن رُزيك ناتجة عن هذا التفويض، وبداية تنفيذ الأمر في ضوء القدرات الواقعيّة آنذاك وليس التنفيذ الفوري مهما كانت النتائج. وقد حقق هذا التعاون ما ذكرنا إضافة إلى ما أدت إليه سياسة ابن رُزيك الداخليّة من تفكيك الجيش الفاطمي بعد مقتله وقيام الصراع بين شاور وضرغام:

«وكانت عادة المصريين أنّه إذا غلبَ شخص صاحبَ المنصب، وعجز صاحب المنصب عن دفعه، وعرفوا عجزه، وقَعَوا [كتبوا المرسوم] للقاهر منهم ومكنوه، فإن قوتهم إنما كانت بعسكر وزيرهم، وهو الملقب عندهم بالسلطان»[2].

وأدى ذلك إلى طلب شاور المساعدة من نور الدين لإعادته إلى منصب الوزارة، فكانت حملة شيركوه الأولى سنة 559 هـ/ 1164 م. ففي افتتاح أحداث هذه السنة يقول أبو شامة:

«وسار أسد الدين. . . إلى مصر المَرّة الأولى. . **عازماً على مُلْكِ الديار المصرية واستضافتها إلى المملكة النوريّة**»[3].

فهل كان هذا متابعة لأمر الخليفة المقتفي الذي كان قد توفي سنة

---

(1) الروضتين، 1 ص 89.

(2) الروضتين، 1 ص 130 عن ابن شداد، نوادر، ص 36.

(3) المصدر نفسه، ص 129.

555 هـ/ 1162 م بعد تأسيس استقلال العراق وسيادة دولة الخلافة عليه، والذي بني عليه الخلفاء من بعده؟.

وهنا لابدّ من تحليل رواية انفرد بها المقريزي - وربّما كانت منقولة عن ابن أبي طيء الحلبي. عن الواعظ الحنبلي المشهور زين بن نجا، الذي عاصر ما يقرب تسعة عقود من القرن السادس الهجري، ومات سنة 599 هـ / 1202 م. ومُلَخّص الرواية أنّ هذا الواعظ «سَمع بسعة أرزاق مصر فقدم إليها في [فترة] وزارة الصالح بن رُزّيك [التي كانت العلاقات بين مصر والشام في أفضل حالاتها] فأقبل عليه وحَصَل له من إنعامه ومما أخذه له من العاضد في ثلاث سنين ما يناهز عشرين ألف دينار، وسَوَّغه عدة دُورٍ بتوقيع»[1].

وأثناء إقامة الواعظ بمصر، سمع بالزاهد أبي عمرو بن مرزوق الذي كان يتحدث الناس عنه «**بأنه مهما قاله وقع**»، وأنه كان يَرْكَبُ في نصف شعبان من كل سَنَةٍ مع جماعة إلى طرف الجبل في القاهرة فيبقى هو ويعود الباقون. ثم يَصْعد هو إلى الجبل. وفي الليلة الثانية «يلقاه الناس... ويجتمعون كاجتماع العيد، ويركب حماره والنّاس تحته، وينتظر؛ وينزل بعد صلاة المغرب إلى مسجده بقصد زيارته، وقد تجمع الناس على الأسطحة والدكاكين والطرقات، والشيخ يعمل الختمات»[2].

وفي إحدى هذه المناسبات بعد ذهاب الناس، اجتمع زين الدين ابن نجية بالزاهد المجهول «فخلا به وتَعَرّف إليه»، وقال الزاهد للواعظ: «أتعرف بالشام أحداً يُقَال له شِيركُوه. فقال: **نَعَم، أميرٌ من أُمراء نور الدين. فقال: هذا يأتي إلى هذه البلاد ويملكها**»[3]. فهل كان الزاهد يتنبأ بما سيحدث؟ أم أن القِصّة ترتبط باستخبارات نور الدين عن أوضاع مصر بعدما كلّفه الخليفة بالاستيلاء عليها، وإعطاه شرعيّة لحكمه المستقل ببلاد الشام كما ذكرنا؟ فلننظر في سيرة زين الدين عَلّنَا نجد شيئاً من العلاقة.

(1، 2، 3) إتعاظ، 3 ص 265.

ولد زين الدين في دمشق سنة 510 هـ/ 1116 م، ودَرَس فيها الفقه والحديث، لكنّه اشتهر بالوعظ أكثر من غيره. وفي سنة 540 هـ/ 1145 م سافر إلى بغداد وأقام فيها مدة طويلة نسبياً إذ تَزوج هناك من فاطمة بنت الشيخ أبي الفرج عبد الواحد بن الفرج الحنبلي. وكان ذلك بعد استعادة المسلمين للرُّها، والخليفة المقتفي في بغداد. والتقى فيها بكبار العلماء والوعاظ ومنهم عبد الرحمن بن الجوزي الذي جاءه عند وصوله إلى بغداد مهنئاً[1]. وأثناء إقامته في بغداد وعظ ودَرّس في جامع المنصور[2].

وقد وصفه ابن النجار بأنه «كان مليح الوعظ، لطيف الطبع، حلو الإيراد. . . متديناً، **ذا منزلة رفيعة ومكانة عند السلاطين والأكابر، وقبول عند العوام**[3].

وعاد الواعظ الدمشقي إلى بلده، لكننا لا نعرف تاريخ عودته إليها. ويبدو أنّه كان مقيماً فيها عندما ضَمّها نور الدين إلى دولته (أم أنه رجع مع رُسُل الخليفة المقتفي إليها؟]. ولا بُدّ أنه تَعَرّف على نور الدين أو اتصل به وبرجال دولته آنذاك، وربّما كُلّف بمهمة الذَّهَاب إلى مصر والإقامة فيها للتعرف على أحوالها، وتزويد نور الدين بأخبارها على الصحة، حتى يتمكن من تحقيق أمر الخليفة.

وفي سنة 549 هـ/ 1154 م، سنة استيلاء نور الدين على دمشق، تولى طلائع بن رُزِّيك الوزارة في مصر الذي حكم حتى مقتله 556 هـ/ 1161 م. وأثناء هذه السنوات السبع قَدِم زين الدين إلى القاهرة كما نقل المقريزي. ويبدو لي أنّ ذهابه كان في فترة التعاون الوثيق بين السلطان نور الدين في دمشق والسلطان طلائع في القاهرة في النصف الأول من عقد الخمسينات من القرن السادس الهجري. **وقد تجَوّل في مصر من قُوص إلى الإسكندريّة**، لكن مركزه

(1) ابن رجب، **ذيل طبقات الحنابلة**، 1 ص 436 - 437.

(2) **المصدر ذاته**.

(3) **ذيل تاريخ بغداد**، 3 ص 12.

الرئيسي فيها كان جامع القرافة، كما كانت زوجته تُدَرس وقد روى عنها بعض أهل مصر من العلماء الكبار والكُتّاب [1].

وتشير رواية المقريزي بوضوح إلى أنّه عاد إلى دمشق قبل الحملة الأولى التي قادها شيركوه إلى مصر، وكان إقناعه لأسد الدين في قيادتها كما ذكرنا.

وفي سنة 564 هـ/ 1169 م توجه زين الدين إلى بغداد رَسُولاً من نور الدين إلى الخليفة المستنجد مبَشِّراً له على الأغلب بوزارة أسد الدين أو صلاح الدين في مصر وسيطرتهم الفعليّة على أمورها [2]، فخلَع عليه الخليفة «أهِبَة سوداء فكانت عنده يلبسها في الأعياد» [3]. فهل كان هذا الإيفاد لكي يبشر بإنجاز المهمة الكبيرة التي كان قد كُلّف بالقيام بها قبل أكثر من عشر سنوات؟.

لكنّ مهمة زين الدين لم تنته عند هذا الحد أو حتى بعد إلغاء الخلافة الفاطميّة، إذ نجده يشارك فيما بعد في مؤامرة عمارة اليمني ورجال الدولة الفاطمية لطرد صلاح الدين وقواته من مصر وإعادة دولة الخلافة الفاطمية وإفشائِه سِرَّها. وسنفصل ذلك في ما يلي من صفحات.

واستَقَر زين الدين بعد ذلك في مصر وارتبط بصلاح الدين الأيوبي وابنه العزيز من بعده. وعندما فتح صلاح الدين القدس كان معه «ووعظ أول جمعة فيه على كرسي الوعظ وكان يوماً مشهوداً» [3].

وعندما توفي سنة 599 هـ/ 1202 م كان فقيراً بحيث لم يوجد لديه ما يكفي لكفنه بعد الحياة الرغيدة التي عاشها بحيث يذكر أنه «عاش عيشاً طيباً متلذذاً بالمباحات من المطعم والمشرب والملبس والمنكح» [4]. وقال سبط ابن الجوزي أنّه «اقتنى أموالاً عظيمة، وتنَعَم تنعماً زائداً، بحيث أنه كان في داره عشرون جارية للفراش، تساوي كل واحدة ألف دينار وأكثر، وكان يعمل من

---

(1) انظر المقفى، الفهارس.
(2) ذيل طبقات الحنابلة، 1 ص 437.
(3) المصدر ذاته، 1 ص 438.
(4) ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، 3 ص 14.

الأطعمة ما لا يعمل للملوك، أعطاه الخلفاء والملوك أموالاً جزيلة»[(1)].

حملة شيركوه وصلاح الدين الأولى على مصر:

في ذي القعدة 558/ تشرين الثاني 1162 وصل شاور إلى دمشق «وترامى على نور الدين...»[(2)] «... مستصرخاً به ومستنصراً فأحسن [نور الدين] لقاه، وأكرم مثواه، فطلب منه إرسال العساكر إلى مصر ليعود إليها»[(2)] وعندما علم ضرغام بهذه الأخبار أرسل الأمير علم الملك بن النحاس[(*)] إلى نور الدين يطلب منه القبض عليه، «فأجاب بالظاهر وأضمَر غير ذلك»[(3)].

---

(1) **مرآة الزمان**، 2/8: ص 515؛ **سير أعلام النبلاء**، 21 ص 396.

(2) **إتعاظ**، 3 ص 262: **رواية ابن أبي طيء: صورة حيّة للقاء بين نور الدين وشاور**

«ولمّا وصل [شاور] إلى بُصرى، اتصل خبره بنور الدين، فَنَدب جماعة إلى تَلَقّيه، وأنزله في جوسق الميدان الأَخْضَر، وأحسن ضيافته وإكرامه.

ثُمّ بَعْدَ سبعة أيام من مقدمه، أحضر نور الدين ابن الصوفي [رئيس دمشق] وجماعة من وجوه الدمشقيين، **وقال لهم**: أخرجوا إلى هذا الرجل، وسلّموا عليه، وعَرّفوه إعذارنا في التقصير بحقه؛ وسَلُوه فيما قَدِم وما حاجته، فإن وَرَد علينا مختاراً للإقامة، أفردنا له من جهاتنا ما يكفيه ويقوم بأزيه وأوده، ونكـون له عوناً على زمانه؛ وإن كان ورد لغير ذلك فيفصح عن حاجته.

فخرج الجماعة إليه بالرسالة، فشكر إحسان نور الدين، وسكت عَمّا وراء ذلك. فسأله القوم الجواب، **فقال**: إذا لم يبيت الرأي جاء فطيراً. **فعاد القوم إلى نور الدين**، وعَرّفوه ما دار بينهم، **فأمرهم** بالعود إليه من غدِ ذلك اليوم، ففعلوا وطلبوا الجواب، فسكت أيضاً، وأطال، ثم قال:

إن رأى نور الدين، أطال الله بقاءه، الاجتماع بي، فله عُلُوّ الرأي.

فعَرّفوا نور الدين بمقالته، **فأجاب نور الدين**:

أن يكون الاجتماع على ظهرِ بالميدان الأخضر.

وركب نور الدين من الغد في وجوه دولته وخواص مملكته، في أحسن زي وأكمل شارة، فلمّا دخل الميدان، ركب شاور من الجوسق والتقيا في وسط الميدان بالتحية فقط، ولم يَتَرجّل أحد منهما لصاحبه. ثم سارا من موضع اجتماعهما. وهو نصف الميدان إلى آخره، ثُمّ انفصلا من هناك.

وعاد نور الدين إلى قلعة دمشق، وأخذ من وقته ذلك في جمع العساكر».

الروضتين، 1 ص 165

(*) في طريق عودة هذا الرسول هاجمه فيليب بن الرفيق قرب الكرك واستولى على جميع ما معه، وهرب هو بنفسه حتى وصل القاهرة الروضتين، 1 ص 166.

(3) **المصدر نفسه**، ص 262 - 263. ولم أعثر على شيء يبحث في هذه السفارة غير هذه الإشارة.

وتَرَدَّد نور الدين في الاستجابة السريعة إلى طلب شاور بالرغم من عَرْض شاور السخي مقابل إعادته إلى مركزه، وهو: « ثُـلْث دخل مصر خالصاً لنور الدين، واقطاعات مناسبة للعسكر الذي سيشارك في الحملة، وأن يقيم معه من الأمراء الأتراك في مصر عدد مناسب، وأن يتصرف في إدارة مصر حسب رغبة الملك العادل. وجاءَ التَرَدّد للتشاور وحساب الموقف في ضوء إمكاناته العسكرية والماديّة، وبُعْدِ مصر وبالتالي طول طريق الإمدادات العسكرية في أراضٍ غالبيتها صحراء قاحلة تحتاج إلى التزود الكثير بالغذاء والماء للرجال وخيولهم، والعلاقات المتردية مع الصليبيين إذ لـم يكن هنالك اتفاقات هدن بين الجانبيين. ولذلك تذكر المصادر أنه كان «يُقَدّم في ذلك رجلاً ويؤخر أخرى، تارة تحمله رعاية قَصْد شاور له وطلب الزيادة في الملك والتقوي على الفرنج، وتارة يمنعه خطر الطريق وكون الفرنج فيه، إلاّ أن يوغلوا في البرّ فيتعرّضوا لخطر آخر، مع الخوف من الفرنج»[1]، وأن يخلف شاور، عندما يتحقق غرضه، بوعوده[2].

وهنالك عقبة أخرى كانت تواجه نور الدين: من سيقود الحملة، ومن الأمراء والعساكر الذين سيختارون الابتعاد عن ديارهم وإقطاعاتهم مُدّة قد تطول في هذه المغامرة الخطرة. ولذلك كُلّه فقد امتدت فترة المفاوضات والمداولات والمشاورات مُدّة تقرب من أربعة أشهر. وفي النهاية تَوَصَّل إلى قرار حاسِم هوالقيام بالمغامرة المحسوبة والتوكل على الله. وطلب من الأمير الكبير أسد الدين شيركوه[*]، الذي كان آنذاك في حلب، التوجه إلى دمشق لقيادة الحملة «قضاء لحق الوافد المستصرخ، وجَسّاً للبلاد وتطلعاً إلى أحوالها»[3]. وربما كان

(1) الروضتين، 1 ص 130.

(2) إتعاظ، 3 ص 265.

(3) النوادر، 36.

(*) يصف وليم الصوري أسد الدين فيقول: كان محارباً قديراً وحيوياً، وله تجربة كبيرة في الشؤون الحربيّة، ويرغب بالشهرة» شديد التحمل وقت الشدائد، يتحمل الجوع والعطش بتقبل غير عادي في مثل سنّه».

هذا الأمر الأخير هو الحَدُّ الأدنى من المكاسب التي ستتحقق [1].

كان نور الدين يعرف الظروف معرفة جيدة من المعلومات التي توافرت لديه خاصة من زين الدين بن النجا، وربما كان لدى أسد الدين من المعلومات ما يشجع على المغامرة، لكنّ حساباته العسكرية كانت تدفع إلى التَريُّثِ وربّما إلى مزيد من التحقق من المعلومات والاستعداد. فالأمر ليس غارة تستمر لأيام معدودة تكون فيها خطوط الاتصال مع قواعدة قريبة ومزودة بكل ما يحتاج إليه. ولذلك لا أرجح من أنّ هواه بملك مصر هو الذي دفعه إلى الإقدام على القبول بالمخاطرة، وكذلك فإن المقريزي، الأعرف بدقائق تاريخ مصر في الداخل وعلاقاتها الخارجيّة، يذكر أن شيركوه قد امتنع بداية عن الموافقة محتجاً:

«لا، أمشي بألف فارس إلى إقليم فيه عشرة آلاف فارس ومائة شِيني [سفينة حربيّة] فيها عشرة آلاف مقاتل، وعندهم أربعون ألف عبد لخمس خلفاء، وهم مستوطنون في أوطانهم، قريبة منهم خَزائنهم. ونأتي نحن من تَعَب السفر بهذه العدّة القليلة» [2].

هذا كلام قائد شجاع لكنه ليس متهوراً، في قوله كلام منطقي وعلمي محسوب بدقة حسب التقاليد العسكريّة. عند ذلك أطلعه نور الدين على المعلومات الإضافية التي عَرَفها من شاور وعُيُونه، وحديث ابن النجّا الواعظ المذكور سابقاً. عند ذلك قَرّر قيادة الحملة واختار صلاح الدين لمرافقته، عن كراهية الأخير لذلك، **«وجعله مُقَدّم عسكره وصاحب رأيه»**[3]. وكانت مشاركة صلاح الدين هذه أوّل تجربة معروفة لدينا في القيادة العسكريّة الكبيرة والقتال الميداني في المصادر المتوافرة.

---

(1) النوادر، ص 36.

(2) إتعاظ، 3 ص 266. يذكر وليم الصوري أن نور الدين «أمل أنه إذا دخل جيشه إلى مصر يمكن أن يأخذ مملكتها لنفسه». تاريخ 2 ص 303.

(3) النوادر، ص 36.

وسار أسد الدين شيركوه، على رأس قُوّاته على الطريق العاديّة حتى حدود البلاد التي يسيطر الصليبيون عليها ورافقه نور الدين حتى هذه النقطة، قريباً من الموجب حدود إمارة الكرك. لكن هَمّ الصليبيين في ذلك الوقت كان المحافظة على بلادهم من هجمات نور الدين المتكررة [1]. ومع ذلك، وزيادة في الاحتياط، قَرّر أسد الدين التوجه إلى الطريق الصحراوي شرقي السَّوَاد والبلقاء والكرك والشوبك حَتّى لا يَعْرِف عيون الفرنج والفاطميين بحركته، ويتجنَب إرهاق قُوّته في مواجهة قد تعطل الحملة كلها. وهذه الطريق هي تلك التي كانت تسلكها قافلة الحاج في حال عدم توقيع اتفاق هدنة مؤقتة.

وسارت القوة العسكرية النوريّة في هذا الطريق الدائري حتى وصلت أينة (العقبة)، ثم عَبَر سيناء إلى صدر [2]. في هذه الأثناء، ونظراً لفشل سفارته إلى نور الدين أو عدم التيقن من الموقف الحقيقي في دمشق منه، ووصول أخبار يحملها الحمام الزاجل إلى بلبيس بقدوم قُوّة تركيّة وأنها دخلت حدود مصر ووصلت إلى السويس [3]، وعدم قدرته على الصمود لوحده بقدراته الذاتية، فقد قرر ضِرّغام إرسال وفدٍ مع رسل الملك للبدوين الثالث الذين وصلوا إلى القاهرة «في طلب مال الهدنة المُقَرّر لهم في كل سنة على أهل مصر، و .و ثلاثون ألف دينار، وهو يدافعهم ويماطلون»، مُزّود بكتبٍ يطلب فيها من الملك المهادنة والسلام، والمساعدة ضد العدو الذي يُهَدّد بالهجوم على مصر، ووَعَدَهم مقابل ذلك أن يدفع لهم ليس فقط المال الذي كان مُقَرّراً مع الملك، وإنما مبلغ آخر حسبما يقرر الملك؛ كما أعلن عن استعداده لتقديم رهائن كمبادرة حسن نية من جانبه، وكرمز للخضوع له، وللتحالف الدائم بينهما [4].

(1) مفرج، 1 ص 138.

(2) منزل على الطريق بين العقبة والسويس. ويذكر وليم الصوري أنّ الحملة واجهت عاصفة رمليّة شديدة في البادية.

(3) إتعاظ، 3 ص 266 - 267. ووصلت الأخبار من بلبيس إلى القاهرة يوم الأحد 25 جمادى الأولى. وفي اليوم التالي «شاع ذلك بين الناس، فخافوا على أنفسهم وأموالهم، وانتقلوا من مكان إلى مكان على عاداتهم وجمعوا الأقوات والماء» نفسه.

(4) وليم الصوري، تاريخ، 2 ص 304.

وفي الوقت الذي أتمّ فيه الوفد الفاطمي المفاوضات وعقد الاتفاقية مع الملك الصليبي، كانت القُوّات التي يقودها أسد الدين ومعه صلاح الدين قد اقتربت من بُلْبَيْس[1]. وقبل ذلك كان ضرغام قد أرسل قُوّة كاملة التسليح (أول يوم من جمادى/ 26 نيسان 1164 م) لدعم قوة والي المدينة، فوصلت إليها في اليوم التالي. وفي اليوم الرابع (29 نيسان) كان اللقاء بين العسكرين على تعبئة. وطلب شاور من شيركوه التريث في القتال وبدء الهجوم حتى تشتدّ حِدة الشمس، فوافق شيركوه، يصف المقريزي الوضع:

«فتحَرّك المصريون وتأهبوا، وأقاموا حتى حَمِي النهار، فَسَخن الحديد عليهم، ولم يروا أحداً يسير إليهم، فنزلوا عن خيولهم وأقاموا الخِيَم، وألقى بعضهم السِّلاح، فلما عاين ذلك شاور أمر بالحملة عليهم...» فهرب العسكر الفاطمي وجرح أحد أمرائه الكبار [ابن ضرغام] «فكان أشجعهم من يصير على ظهر فرسه، وانهزموا بأجمعهم إلى بلبيس، وغنم العسكر الشامي جميع ما معهم، فقووا به، وتبعوهم وأسروا منهم جماعة من الأمراء وغيرهم، ثُمّ مَنُّوا عليهم وسيروهم في جمعهم»[2].

ووصل العسكر الشامي ومعهم شاور إلى القاهرة يوم الخميس 6جمادي الثاني (1 أيار 1164 م)، ونزلوا **تحت التاج** خارج المدينة الذي كان أحد متنزّهات الخلفاء الفاطميين الكثيرة، «وانتشر العسكر في البلاد يريدون الأكل والعلف»[3]، بعد رحلة طويلة وشاقة امتدت قريب شهرين، وجدوا فيها بعض المُساعدة من أعراب كنانة.

وتمركز ضرغام ومن تجمع لديه من قُوّات داخل أسوار القاهرة، أمّا شاور فقد سيطر على مصر (الفسطاط والإضافات التي جرت عليها حتى بناء القاهرة).

---

(1) وليم، تاريخ، سص 305.
(2) إتعاظ، 3 ص 267.
(3) إتعاظ، 3 ص 268 - 272.

وكانت قوات أسد الدين تخيّم قريباً منها وتدخلها للتزود بما يحتاجون إليه. وجَرَت مناوشات وغارات مستمرة بين الجانبين، واستمال شاور بعض الفرق من الجيش الفاطمي إلى جانبه. كما تخلّى الخليفة العاضد عن قَضِيّة ضرغام وعن دعمه بالمال والرّجَال، وضعف أمره وانفَضّ الناس عنه، ورفض الخليفة حتى الحديث معه «ولم يبق معه غير ثلاثين فارساً. ثم طلب شاور من الخليفة: «يستأذنه في الدخول إلى القاهرة، فأذن له»، فهرب ضرغام ولحقه بعض الفُرسَان الأتراك وغلمان شاور فقتلوه [الجمعة 28 جمادى الآخرة/ 23 أيار 1164 م] [1].

وفي يوم الاثنين 3 رجب (25 أيار) دخل شاور دار الوزارة، وأخرج مر كان معتقلاً من أصحابه ورجاله ومنهم ابنه الكامل والقاضي الفاضل[2] الذي كان قد استقدمه من الإسكندرية في وزارته الأولى ورتبه في ديوانه. وللقاضي الفاضل دور أساسي في إدارة دولة صلاح الدين كما سيتضح فيما بعد. أمّا شيركوه فقد ركب ومعه صلاح الدين إلى مدينة مصر «وتَفَرّج» عليها، وزار عدداً من الفقهاء فيها «واجتمع مع الشيخ أبي عمرو بن مرزوق»، فأخبره الأخير ما كان حدّثه به ابن نجا الذي رافقه في الحملة، وعاد إلى مُخَيَّمه[3].

وما أن استَقَرّ شاور في دار الوزارة حتى بدأ يتصَرّف بما ؛رقّعَه نور الدين من نقض العُهُود التي قَطَعها على نفسه في دمشق. ومكث شيركوه وصلاح الدين في المعسكر انتظاراً لتنفيذ الاتفاق، ورفض حتى الاجتماع بالعاضد. والحوار التالي الذي ينفرد به المقريزي، يلخص بطريقة تصويرية موقف الجانبين من الاتفاق:

«أرسل [شيركوه] إلى شاور يقول: قد طال مقامنا في المخيّم، وضجر العسكر من الحَرِّ والغُبار»، ويطلب منه: «ما وعد به السلطان

(1) إتعاظ، 3 ص 268-272.
(2) المصدر ذاته، ص 272.
(3) إتعاظ، 3 ص 272.

نور الدين». فأرسل شاور إليه ثلاثين ألف دينار [وهو مبلغ يساوي القطيعة التي تدفع للصليبيين سنوياً!]، «وقال: تَرْحَل الآن في أمن الله وحفظه». فرَدّ عليه شيركوه: أن الملك العادل نور الدين **أوصاني** قبل انفصالي [خروجه من دمشق] عنه: **إذا ملك شاور تكون مقيماً عنده ويكون لك ثلث مغل البلاد والثلث الآخر لشاور والعسكر، والثلث الثالث لصاحب القصر [الخليفة] يصرفه في مصالحه».**

«فأنكر شاور ذلك، وقال: إنّما طلبت نَجْدةً، وإذا انقضى شُغْلي عَادُوا، وقَدْ سيّرت لكم نفقة فخذوها وانصرفوا، وأنا أُرْضِي نور الدين.

فقال شيركوه: لا يمكنني مخالفة نور الدين، ولا أنصرف إلاّ بإمضاء أمره»[1].

وأصَرّ الجانبان على موقفيهما، وبدأ كل منهما يستعد للقتال، فأغلق شاور أبواب القاهرة، أما شيركوه فأرسل صلاح الدين بقسم من الجيش إلى الأرياف لجمع الغلال والأتبان، فتوجه إلى منطقة فرع النيل إلى رشيد وتغلب عليها «وحاز الأموال والغلال» ثم عاد إلى عَمّه فانتقل بعسكره إلى الجنوب قليلاً. ثم وقعت معزكة صغيرة بين الجانبين انهزم فيها شاور، ولحقه شيركوه حتى كاد أن يدخل القاهرة[1].

وقام شيركوه وقواته بحصار القاهرة حتى 9 رمضان/ أول أيلول 1164 دون طائل، فتراجع إلى بلبيس وتَحَصّن بها. ويذكر الصوري أنه اعتبرها مدينته، ودَلّت أعماله وأقواله على أن نيته إخضاع مملكة مصر لسلطته[2]. وبَعْد يومين وصلت الأخبار إلى شاور بأن الصليبيين يُحاصرون بلبيس[3].

في هذه الأثناء كان كل من نور الدين وشاور يعمل لتدعيم موقف العساكر في مصر: فقد قام نور الدين بحصار قلعة حارم والاستيلاء عليها ثُمّ توجّه إلى

---

(1) **المصدر نفسه،** ص 273 - 275.

(2) **تاريخ،** 2 ص 305.

(3) **إتعاظ،** 3 ص 275.

بانياس فاستولى عليها، وذلك لدفع الصليبيين إلى التخلي عن حصار قُوّاته في بلبيس. أما شاور فقد بعث وفداً إلى الملك عموري بالموافقة على بنود الاتفاق المعقود سابقاً مع ضرغام وفَوّضَهم بالتوقيع، فسار الملك من جهته إلى بلبيس[1]، وسار شاور من القاهرة إليه أيضاً، وحاصروا المدينة مُدّة تزيد على تسعين يوماً جَرت خلالها مفاوضات مع شيركوه أدت إلى الاتفاق على خروجه من المدينة «بحرية ودون أي عائق»، وأن يَدْفع إليه شاور مبلغ 50 ألف دينار. وتمّ الاتفاق يوم 15 ذي الحجة 559 هـ[2]/ 23 تشرين الأول 1164 م. وخرج شيركوه وصلاح الدين على رأس القوة عائدين إلى دمشق. يذكر ابن الأثير عن شاهد عيان كيفيّة خروج أسد الدين مِن بلبيس، التي ذكرنا أن سُورها كان من لبن طين وقصير جداً وليس له خندق:

«أخْرَج أصحابه بين يديه وبَقي في آخرهم [كعادة القادة المحترفين]، وبيده لتٌّ من حديد، يحمي ساقتهم، والمسلمون [الجند الفاطمي] والفرنج ينظرون إليه. قال: فأتاه فرنجي من الغرباء[3] الذين خرجوا من البحر، فقال له: أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج، وقد أحاطوا بك وبأصحابك، ولا يبقى لكم بقيّة؟ فقال شيركوه: يا ليتهم فعلوه حتى ترى ما أفعله؛ كنت والله أضع السيف، فلا يُقْتَل مِنّا رجل حتى يقتل منهم/ رجالاً، وحينئذٍ يقصدهم الملك العادل نور الدين، وقد ضعفوا وفَنِي شجعانهم، فنملك بلادهم ويهلك من بقي منهم، والله لو أطاعني هؤلاء لخرجت إليكم من أول يوم، ولكنّهم امتنعوا، فَصَلّب على وجهه، وقال: كُنّا نعجب من فرنج هذه البلاد

---

(1) وليم، تاريخ، 2 ص 305 ، وتشبه رواية المقريزي إتعاظ، 3 ص 276 - 277.

(2) المصدر ذاته، إتعاظ، 3 ص 275 (الأكثر تفصيلاً بالنسبة للاتفاق) ويذكر ابن شداد (النوادر، ص 37) إن العسكر غادر إلى دمشق يوم 7 ذي الحجة سنة 558 هـ. والمقريزي أدق. وانظر ذلك ملخصاً عن العماد. الروضتين، 1 ص 131؛ والكامل 11 ص.

(3) الذين يأتون من أوروبا للحج أو المشاركة في العمليات العسكرية لمدة يعودون بعدها إلى بلادهم.

ومبالغتهم في صنعتك وخوفهم منك، والآن قد عذرناهم؛ ثم رجع عنه»[1].

وحاول صاحب الكرك والشوبك[2] اعتراض أسد الدين في طريق العودة إلى دمشق. وكان أرناط كما يبدو من بين الأمراء الذين رافقوا الملك عموري إلى بلبيس، ومن الذين حلفوا على السماح لشيركوه، بالخروج دون إعاقة أو ملاحقة في البريّة، لكنّه ـ كما يذكر ابن أبي طيء **تأوّل اليمن**، وقال:

«أنا حلفت أني ما الحق أسد الدين ولا عسكره في البَر، وأنا أريد أن ألحقه في البحر. وصار في يوم واحد إلى عسقلان، وخرج منها إلى الكرك والشّوبك، وبذلك سار من البحر المتوسط إلى البحر الميت، وجمع عسكره المقيم هناك، وقَعَد مرتقباً خروج أسد الدين في البريّة ليُوقع به»[3].

لكن أسد الدين، صاحب الخبرة الطويلة بمكائد الحرب وبنقض الصليبيين لأيمانهم، قَرّر المسير في طريق أخرى غير الطريق التي جاء فيها إلى مصر. فبعدما وصل قريباً من العقبة الحالية توجه نحو الغَوْر، وسار حتى وصل إلى البلقاء [من الموجب إلى الزرقاء] التي كانت منطقة عازلة تخضع لحكم مقاسمة الغلاّت، وتوجَه إلى دمشق فوصلها على ما يبدو في أواخر السَّنَة [النصف الأول من تشرين الثاني 1164 م]. فأي خِطّة بارعة ابتكر لتجنب اللقاء مع صليبيي الكرك والشوبك؟ إذ سار مع وادي عَرَبَة وسَاحل البحر الميت الشرقي، وطَلَع شرقاً إلى الهضبة إما عن طريق ماعين أو الموجب ـ الوالة أو عن طريق سويمة الرامة إلى حسبان والبلقاء.

---

(1) الكامل، 11 ص 300 - 301.
(2) الروضتين، 1 ص 167.
(3) المصدر نفسه.

4 في الطّريق إلى الوزَارة

«من تأمل أحْوَال الوزارة [في مصر] فإنه يجد أن الصّالح بن رُزّيك رَبّى رجَال الدّولة، وجاء ضرغام فأفنَاهم، ثم جاء شاور فأتلف الأموال، وأطمع الغُزَّ [الأتراك]، وجَرّأ الفرنج عليها، حَتَى كان من كان...»
اتعاظ، ٣ ص ٢٨٨.

عاد كل من الأمير شيركوه والملك عموري، وكُل في نفسه أنْ يعود للسيطرة عليها، وكل منهما يخشى من الآخر أنْ يسبقه إلى الغنيمة الغَنيّة التي كانت سلطتها تتآكل بسرعة. فالقول المذكور أعلاه يلخص بدقة ما آلت إليه السلطة في مصر بعد عودة شاور اليها على رأس أسنة رماح عسكر نور الدين. وكان كل جانب منهما يُفكّر ويخطط لتحقيق هدفه في منع الآخر من السيطرة على مصر قبله. أما شاور فقد كان هَمّه الأساسي تثبيت سلطته، لكن لم يبق لديه القُوّة العسكريّة المدربة الكافية ولا القيادات لهذه القوة. وقد أثبتت المواجهة الأولى بين شيركوه والقوات التي أرسلها ضرغام لمواجهته ذلك. وتبع ذلك انتقام شاور من الذين تعاونوا مع ضرغام بالقتل والتشريد، وهَرَب البعض إلى أماكن آمنة بما في ذلك الشام. وقد عبّر عمارة اليمني المعاصر لشاور، والقريب منه ومن مجالسه، عن نَفَسيّته في فترة الوزارة الثانية، بكلمات قليلة تُعَبّر بدقة بليغة الدلالة وعميقتها:

«وفيها تكشّفت صفحَاته، وأحْرَقَت لفحاته، وغرَقَت نَفَحاته، وغَضْهُ الدّهْر وعَضّه، وأوجعه الشكل وأمَضّه، ولم يَجِف من الأنكاد لبده،

ولا صفا من الأقذاء وِرْده؛ وما هو إلاّ أن تَسَلّمها [الوزارة] بالرّاحة، وسُلِّمَت له الهموم عوضاً عن الرّاحة»[1].

ثم يقول في سنوات وزارته هذه:

«كثيرة الوقائع والنوازل، وفيها ما هو عليه أكثر مما هُو له...»[2].

ثلاثة رجال قادة أصحاب مناصب كبيرة، وكل منهم وراءه دولة إقطاعية من عالم العُصُور الوسطى، لها نظمها وإدارتها ومؤسساتها الخاصة بها، تدعم الجهد العسكري الذي كان يقوم به كل واحد منهما في مواجهة التحديات بكل إمكاناتها، وفَعَاليّة الدعم تعتمد بصورة أساسيّة على فعاليّة إدارتها وعَدْلِها، وتقبل عامة الناس لأعمالها. هؤلاء القادة الثلاثة هم الذين قَرّروا ميدانياً، بسياستهم وتدبيرهم لأعمالهم، مصير الدولة الفاطميّة التي عَمّرت أكثر من قرنين ثم انتهت: أسد الدين شيركوه، القائد المتمرس ذو التجربة الطويلة في الحروب، والملك الصليبي الشاب المندفع الذي يقف وراءه عَدَد من المستشارين المجربين، والأمير الوزير الذي عاد إلى مركزه في الحال التي ذكرنا. وفي النهاية قطف الثمرة الناضجة أمير شاب، وقائد إداري، صغير السِنّ، كبير العقل، جيد التدريب في الإدارة والسياسة والحرب، تَعَلّم من أستاذين كبيرين: نجم الدين أيوب ونور الدين محمود، هذا القائد هو صَلاَح الدين.

فماذا كان حال القادة الثلاثة في الفترة بين حملتي شيركوه؟.

عاد أسد إلى دارِه في دمشق أو إقطاعه في الرحبة للراحة وإراحة جُنْدِه. وبعد أيام من عَوْدِه احترقت ضاحية جيرون التي يبدو أن دار أسد الدين كانت فيها. وبعد سنة أو يزيد توفي ابنه فتح الدين. لكنّ ذلك لم يمنعه من رياضة

---

(1) النكت العصرية، ص 78.

(2) المصدر نفسه، ص 81.

حياته: الغارة داخل المناطق التي يسيطر عليها الصليبيون، فاستولى على كهف حصين قُرْب صُور، ثم أردفه بآخر مثله شرقي نهر الأردن. وفي هذه المَرَّة سارع الملك عموري لنجدة الحصن الاستراتيجي، وعندما وصل إلى النهر جاءت الأخبار بسقوطه بيد شيركوه[1]. من ناحية أخرى كان تفكير الأمير الكبير يتوجه إلى مصر وأوضاعها ومصيرها.

وشَغلت ملك القُدس أوضاعه الداخليّة وقضيّة زواجه من القريبة التي لا يجوز الزواج بها حسب قوانين الكنيسة في ذلك الوقت. كما كان حال مِصر والخوف من سيطرة نور الدين عليها هاجسه الذي لا يغيب. واستمرّ الوضع الهادىء نسبياً حتى انتشرت الإشاعات، من مصادر عديدة، في بلاد مملكته بأن شيركوه تَحَرّك على رأس قُوّة كبيرة متوجهاً نحو مصر[2]، إذ لم يتمكن الأمير الكبير من إخفاء حركته مع كثرة العيون المترقبة على الطريق.

أما شاور فقد كان في وضع لا يُحْسَد عليه. فقد ذكر عَمّارة أنّه بعد رحيل شيركوه والصليبيين:

«ثُمّ تَلا ذلك قيام يحيى بن الخياط طالباً للوزارة، ثُمّ تلا ذلك نِفاق لُوَاتة ومن ضَامّها من قَيْس، وخروج أخيه نجم وابنه سليمان وجماعة من غلمانه لحربهم، ثُمّ خروج ابنه الكامل في بقيّة العسكر.

وفي أثناء هذه المُدّة قَبْضُه على الأثير بن جلب راغب وقتله، وأسر معافى بن فريح ثم قتله»[3].

ويصف عَمّارة بعد ذلك موقف القائد شاور عند وُصُول أخبَار عيونه بقدوم أسد الدين والملك الصليبي نحو مصر في المرة الثانية ودُخولهم أراضي مصر:

---

(1) وليم الصوري، تاريخ، 2 ص 305 و 312.

(2) المصدر نفسه، ص 312.

(3) النكت، ص 78 - 79 وهرب الشريف المعروف بالمحنّك من مصر إلى الشام خوفاً من شاور والتحق بنور الدين. وكان هو السفير في السنة السابقة إلى دمشق لإقناع نور الدين بعدم مساعدة شاور ضد ضرغام» إتعاظ 30 ص 280.

«حدثني القاضي الأجل الفاضل... قال: أنا أذكر وقد خلونا في خيمه وليس معنا أحد إنّما هو شاور وابنه الكامل وأخوه نجم. فعزم الكامل على النهوض مع الفرنج، وعزم نجم على التغريب إلى سُلَيْم وما وراءها، قال شاور: لكني لا أبْرَح أُقَاتِل بمن صَفَا معي حتى أموت»[1].

في هذا الوقت وصل الرُّسُل من عند عموري وقد التزموا بدفع المال له، كما وصل الأتراك قريباً من القاهرة. هنا نتوقف قليلاً، ونسأل: ما الذي دفع نور الدين إلى إرسال الحملة الثانية بقيادة شيركوه؟ وماذا كان موقف الأخير من شاور وقضيّة مصر؟.

نستطيع أن نُقدّر موقف نور الدين إذا تذكرنا الاتفاق بينه وبين شاور عند تسيير الحملة الأولى قبل ثلاث سنين، ونظرته، كصاحب سلطة، من العهود والمواثيق التي كان يعقدها مع الدول المجاورة له من مسلمة وصليبيّة، والمصادر تجمع على الاتفاق الذي عقده مع شاور وشروطه المحدّدَة. صحيح أنّ هذا الاتفاق كان في مصلحته ومصلحة الخلافة العبّاسيّة على المدى الطويل، لكن يبقى ملزماً له ولشاور. وقد التزم هو بتنفيذ جانبه من الاتفاق وساعد في إعادة شاور إلى مركزه. من ناحية أخرى نعرف أن الملك العادل كان يلتزم بالعهود والاتفاقات المؤقتة التي يعقدها حتى مع الصليبيين. ولذلك عندما غَدَر شاور وفَسَّر الاتفاق كما يريد[2]، واستعان بالملك عموري وقُوّاته، ودفع له الأموال من أجل مساعدته، كان يميل إلى إرسال حملة أخرى ليس للانتقام من وزير الدولة الفاطمية ولكن للتأكد من أن لا تقع مصر فريسة سهلة بيد لصليبيين. فإذا لم يكن شاور قادراً على حماية بلاد المسلمين من الوقوع بيد عدو المشترك لهم رغم اختلاف المذهب ـ والذي يمكن التعايش معه فهو قَضيّة خلية ـ فإن على نور الدين بذل كل جهد ممكن لإبقائها بيد المسلمين.

وأما بالنسبة لشيركوه فتؤكد المصادر على أن الأمير الكبير «كان بعد

---

(1) المصدر نفسه، ص 79-80.

(2) انظر مُفَرّج، 1 ص 148.

رجوعه من مصر لا يزال يُحَدِّثُ نفسه بقصدها ومُعاودتها، حريصاً على الدُّخول إليها، يتحَدّث به من كل من يثق إليه، وكان مما يُهيجه على العَوْد زيادة حِقْده على شاور وممّا عمل معه»[(1)]، الذي وصل إلى حَدّ استفساد بعض أُمرائه وجُنده الذين فَضّلُوا البقاء في مصر مثل خشترين الكردي ومن معه[(2)]. أما العماد فيكتفي بالقول: «وعاد أسد الدين إلى الشام، وجرى على عادته في خدمة نور الدين، وفي قلبه من شَرّ شاور الإحن، وكيف تمّت بغدره المِحَن»[(3)].

كان نور الدين مستعداً لتوجيه حملة جديدة باختياره، وكذلك كان أسد الدين، الذي يُروى أنّه «لا بدّ له من قَصْدِها». فالبدائل التي كانت أمام السلطان والأمير كانت تثير الخوف والقلق من ضِيَاع بلاد المسلمين، ولذلك كان القرار بإرسال الحملة الثانية، بِضعْف القُوة السابقة، لتدارك الأمْر[(4)].

وأمّا الملك عموري فقد كانت سياسته من بداية حُكْمه، وبعد أول حملة له إلى ما وراء العريش داخل مصر، أن بالإمكان بمزيد من الدعم للقوة العسكرية لديه الاستيلاء على مصر. كان هذا ما ذكره في رسالة كتبها إلى مَلِك فَرَنسا بعد الغارة المذكورة[(5)]، كما تَبَدّى في الإجراءات الطارئة التي اتخذها عند وُصُول الأخبار إليه بتَجَهّز أسد الدين وتَحَرُّكه نحو مصر. فقد دعا إلى اجتماع عاجل للنبلاء ورجال دولته الآخرين عُقِدَ في نابلس، وحضره البطريرك وكبير الأساقفة والأساقفة والبارونات والوجهاء وغيرهم. وعَرَض الملك بالتفصيل المخاطر التي تُهَدّد المملكة. وطلب منهم مساعدته بالأموال

---

(1) الروضتين، 1 ص 142؛ الكامل 11 ص 324 النوادر، ص 37.

(2) إتعاظ، 3 ص 279 (عن ابن أبي طيء، الروضتين، 1 ص 167.

(3) سناء 1 ص تقي الدين ٢٦.

(4) لا دقة أو صحة في ما أضافه ابن الأثير من أنّ نور الدين كان كارهاً لمسير شيركوه لشدّة حرص الأخير على الذهاب الكامل، 11 ص 324 وينقل المقريزي عنه. إتعاظ، 3 ص 282. أما ابن شَدّاد فيذكر أن مراسلة شاور للصليبيين للعود إليه «ويمكنونه فيها تمكيناً كلياً ويعينونه على استئصال أعدائه» هي التي دفعت نور الدين إلى إرسال الحملة «خوفاً من أن يملكها الكفار، فيستولوا على البلاد كلها» النوادر، ص 37.

(5) وليم الصوري، تاريخ، 2 ص 314.

في مثل هذه الظروف العصيبة، حتى يتمكن من تجهيز قُوّاته، فَقَرَّرَ المجتمعون بالإجماع تقديم عُشْرِ ما يملكون لمساعدة المملكة، ونَفَّذوا القرار بعد الاجتماع مباشرة [1].

يبقى أخيراً أن نوضح موقف القائد الثالث صاحب الأمر والنهي في مصر. وقد عرفنا شيئاً من أوضاعه في بداية هذا الفصل. أما الجديد فهو أن أخبار الحملة الثانية وصَلَتْهُ من الملك عموري، فأرسل شاور إليه يطلب:

«إعادة النجدة، والمُقَرّر من المال يصل إليه على ما كان يَصل إليه في العام الماضي» [2].

ويذكر عمارة اليمني عن القاضي الفاضل في المخيّم:

«فنحن في ذلك [ما تقدم] حتى وَصَل إلينا الدّاعي ابن عبد القوي، وصنيعة المُلْك، وقد التزموا بالمال»[3].

وتجهّز عموري وسار على رأس قُوَّاته عن طريق البر ليقطع الطريق على شيركوه، ووصل إلى Kades Barnia فلَمْ يَجِد أي أثر للقُوّة فعاد أدراجه [4] وسلك طريق الساحل الأقل صعوبة وخطورة إلى القاهرة. وتذكر المصادر أن الصليبيين:

«. . . أتوه على الصَّعْب والذّلُول، وحملهم على ذلك أمران: **أَحَدُهما الطّمعُ في تمّلك الدّيَار المصريّة، والثاني الخوف من تَمَلُّك العساكر النُّوريّة لها، وعلموا أنّه إن ملكها نور الدين. . . واستضافها إلى البلاد الشاميّة، لم يبق لهم بالبيت المُقَدّس والشام مقام، وأنه يَسْتأصِلَهُم وتصير بلادهم في وسط بلاده»** [5].

---

(1) المصدر السابق.

(2) ابن أبي طيء في الروضتين، 1 ص 168. وعنه إتعاظ، 3 ص 282.

(3) النكت العصريّة، ص 80.

(4) وليم الصوري، تاريخ، 2 ص 314.

(5) مفرج، 1 ص 149؛ وجزء من النص في الروضتين، 1 ص 142.

وفي يوم الجمعة 20 ربيع الأول 562 هـ/ [1] 14 كانون الثاني 1167 م).

سار أسد الدين، ومعه الأمير صلاح الدين، على رأس قوته المُكَوّنة من ألفي فارس، في الطريق البري الذي سلكه في المَرّة الأولى حاملاً من الأقوات والمياه الكثيرة في القرب ما يكفي الرحلة الطويلة [2]. وفي ذات الفترة عاد الملك إلى عسقلان، وأرسل رجاله لاستدعاء كل قُوّة المملكة العسكرية في كل المدن والاجتماع به في عسقلان، التي صارت قاعدة عملياته الكبيرة ضدّ مصر بعدما كانت قاعدة مصر في عمليات المقاومة للغزو الصليبي، وفي 30 كانون الثاني، وبعد حمل المؤن الضرورية للحملة في الرحلة الطويلة، تَقَدّم مسرعاً في الطريق إلى غَزّة، ثُمّ قطع الصحراء بينها وبين العريش، أول المراكز داخل حدود مصر. وهناك قام الملك بِعَرْضِ القوات، وتوقف لتتبعه بقيّة القوات. ثُمّ تَحَرّك مسرعاً ووَصَل بكل قُوّاته إلى بلبيس [3]. وفي هذه المدينة اجتمع به شاور وقواته [4]، «وأقاموا في انتظار شيركوه» [5]، وأرسل شاور كشّافة لمعرفة مكان شيركوه وقُوّاته.

عَرف أسد الدين باجتماع القائدين ببلبيس، فغَيَّر طريقه، ومَرّ «في يوم السبت... [15 ربيع الآخر/ 9 شباط] من وادي الغُزْلان إلى أسكر، وخرج إلى قبليّ مصر فَشَنّ الغَارَة هناك» [6].

---

(1) **إتعاظ**، 3 ص 282. ويذكر محقق سنا، بين حاصرتين، أنه توجه في النصف من ربيع الأول، ص 67.

(2) وليم الصوري، **تاريخ**، 2 ص 314.

(3) وليم الصوري، **تاريخ**، 2 ص 314 - 315.

(4) يذكر وليم أن شاور أصيب بالذعر إذ اعتقد أن الملك عموري جاء ضِدّه «ولم يصدّق أسباب قدومنا». وعندما عَرف صدقهم اطمئن «ووضع كل ثروات مصر والقصر في تصرف الملك، كما لبّى منذئذٍ كل رغبات الملك». **المصدر نفسه**، ص 315. ويبدو أن ما أصابه بالذعر هو حضور الملك بكل قوّاته وليس المعونة فقط.

(5) **إتعاظ**، 3 ص 282. (الأرجح عن ابن أبي طيء، المصدر الأساسي للحملة عن مشاركين ومتعاونين مع شيركوه في مصر).

(6) **المصدر نفسه**.

وجَرت تَحَرّكات ومناوشات بين قوات شيركوه من جهة وقوات الملك وشاور من جهة أخرى استمرت مُدّة تزيد عن أربعين يوماً [1] قرّر شيركوه في نهايتها إقامة المعسكر المؤقت في الجيزة، حيث أقام بها أكثر من خمسين يوماً، ثم «بَعَث الشريف الملَقّب بالرضي، ابن الشريف المُحَنّك، إلى الطَلْحِيِّين والقرشيين يستفزّهم ويدعوهم إليه، وكان قد بلغه أنّ شـاور قد أساء إليهم، فأتوه مسرعين» [1]. وفي الوقت ذاته وَجَد شاور أنّ موقفه الحرج في الميدان، وتخلي أهل البلاد عنه وانضمامهم إلى شيركوه، قد يؤدي إلى نهايته، فَقَرّر أن يُجَدّد الاتفاق مع عموري وزيادة الأموال التي سيعيطها له حتى لا يتخلّى عنه في الوقت الحَرِج الذي سَيُواجه، وأرسل مبعُوثَيْه إلى معسكر الملك طالباً «**عقد معاهدة سلام دائم بين الجانبين [الملك والخليفة] علـى قواعد ثابتـة**». وبعـد المفاوضات تَقَرّر أنْ يُزاد المبلغ السنوي المُقَرّر للصليبيين ومبلغ آخر محدد من المال للملك وباروناته يدفع من خزينة الخليفة. وحُدّد المبلغ الذي سيعطي للملك بـ 400 ألف قطعة ذهبيّة، يُدفع نِصفُها مقدماً ويقَسّطُ الباقي على أقساط تدفع في أوقات محددة دون تأخير، «وأنّه يجب على الملك ألاّ يَرْحَل عن أرض مـصر إلاّ بعـد مغـادرة شيركـوه وكل جيـشه منهـا»[2] وتـم الاتـفاق وحلفـت الأيمان، ثم أرسل الملك هيو (Hugh) صاحب قيساريّة مع آخرين إلى دار الخلافة ليُصَدِّق الخليفة عليها «**بوضع يده في يد هيو**»[3]. ووصَل الوفد إلى القَصْر، وبعد تَردد «**وَضَع الخليفة يده اليمنى في يد هيو. . .**»، وأعاد الوفد مع الهدايا المعتادة[4].

ووقف الجانبان في مواجهة بعضهم: شيركوه في الجيزة على الضفة الغربيّة للنيل وشاور وملك الصليبيين على الضفة الشرقيّة. وحاول شيركوه من

---

(1) **المصدر نفسه**، ص 282 - 283.

(2) أصر عموري ومستشاريه على تصديق الخليفة الفاطمي لعدم ثقتهم بالوزراء. وليم الصوري، **تاريخ**، 2 ص 318 - 319.

(3) **المصدر نفسه**.

(4) **المصدر نفسه**، ص 318 - 320.

جانبه أن يتفق مع شاور إذ كانت قوات الصليبيين والفاطميين تفوق قُوّاته عدداً، فأرسل إلى شاور:

«بأني أحلف لك أنّي لا أقيم ببلاد مصر، ولا يؤذيك أحدٌ من أصحابي، وأكون أنا وأنت على الفرنج، وننتهز فيهم فُرصة قد أمْكَنَت، وما أظنّ أن يتفق للإسلام مثلها كثيراً، فأبَى شاور من قبول ذلك»[1].

ولما رفض شاور هذا العرض بدأ أسد الدين الاتصال «بأهل السُنّة» في مصر، فأرسل إلى الإسكندريّة مستنجداً بمن فيها، فاتفقوا على مساعدته «وأَمّرُوا عليهم نجم الدين بن مصال»، وكتبوا إلى أسد الدين «أنهم يمدُّونَه بالسلاح والحديد وجهَّزُوا إليه خزانة [المقصود بالخزانة هنا كميات كبيرة من السلاح، وليس مجرد خزانة عادية من السلاح] مع ابن أخت الفقيه ابن عوف»[1]. قال ابن أبي طيء عن الشريف الإدريسي:

«حدثني الشريف الإدريسي نزيل حلب، قال: كُنْتُ بالإسكندريّة يومئذٍ، فكتب معي ابن مصال كتاباً إلى أسد الدين، وقال لي: قل له أني أُخْبِرك أنَّ السلاح واصل ـ وكان أنفذ لأسد الدين خزانة من السلاح. قال: فسبقتها بيومين، وحضرت بين يدي أسد الدين، وأعطيته الكتب، وشافهته برسالة ابن مصال في معنى السلاح والآلات، ثُمّ وصَلَت الخزانة بعد يومين. . .»[2].

ثم قال الشريف:

«وبقينا في الجيزة يومين فَوَصَل إلينا رسول ابن مدافع يخبر أَسَد الدين بقرب شاور منه ويأمره بالنجاة، فترك أسد الدين الخيام والمطابخ

(1) اتعاظ، 3 ص 383.

(2) الروضتين، 1 ص 168. ويُفَصّل وليم الصوري أعمال الصليبيين وتحركاتهم في الجهة المقابلة، ومحاولات عمل الجسر والمناوشات التي جرت ومراقبتهم لتحركات شيركوه، وعدم معرفتهم بتحركات أسد الدين والموقع الجديد الذي توقف فيه، وترك قوة لحماية القاهرة خوفاً من هجوم الأتراك عليها. وفي الصباح لحق الملك بشيركوه: تاريخ، 2 ص 325 - 327.

وما يثقل حمله، وسار سيراً حثيثاً حتى قارب **دَلْجَة**، فأمر أسد الدين بنهبها، فنهبت. ونزل الناس لتَعْشِيَةِ الدّواب، فلم تستتم عليقها حتى أمر أسد الدين بالرحيل، وأوقدت المشاعل ليلاً، فإذا الجاوُوش ينادي في الناس بالرجوع، وعاد أسد الدين إلى دلجة فنزل عليها، ونزل شاور على الأشمونين، وأمر أسد الدين الناس أن يقفوا على تَعْبِئَة...» [1]، فكانت صباح اليوم التالي **معركة البابين** [25 جمادى الآخرة/ 18 نيسان 1167].

وعقد أسد الدين، كالعادة، مجلس مشورة لخطورة الموقف وكثرة عدد القوات [2] مع عموري وشاور:

«فجمع أصحابه واستشارهم، فكلّهم أشَارُوا عليه بعبور بحر النيل [النهر] إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام، وقالوا: إن نحن انهزمنا فإلى من نلتجىء وبمن نحتمي، وكل من في هذه الديار من جندي وفلاح عَدُو لنا. **فقام** أمير من مماليك نور الدين يقال له **برغش** (بزغش)... وكان شجاعاً، فقال: **من يخاف القتل والأسر فلا يخدم الملوك، بل يكون في بيته مع امرأته**، والله لئن عدنا إلى نور الدين من غير غلبة وبلاء نعذر فيه ليأخذّن أموالنا وما معنا من الإقطاع والجامكيّة(*)، وليعودنّ علينا ما أخذناه منه من يوم خَدَمْناه وإلى يومنا هذا، ويقول: تأخذون أموال المسلمين وتفرّون من عدوهم، وتُسَلِّمون مثل مصر إلى الكُفّار.

فقال أسد الدين: **هذا الرأي وبه أعمل**، وقال... **صلاح الدين**... مثله، وكَثُر الموافقون، **واجتمعت الكلمة على القتال**» [3].

وهنا تظهر القدرات القياديّة التي مكّنت في نهاية اليوم من تراجع الصليبيين مفلُولين.

---

(1) المصدر السابق.

(2) كالعادة يبالغ وليم الصوري في عدد قوات أسد الدين، تاريخ 2 ص 331.

(*) المخصصات الأخرى التي تُعطى للجند والأمراء.

(3) مفرج، 1 ص 150.

تقع البابين جنوب المِنْيَا بعشرة أميال [16 كم] في تقدير الصوري، على الحَدّ بين الصحراء والأرض الخصبة. ولم يكن الموقع سهلاً مستوياً بل كان مكوناً من تلال رمليّة بينها منخفضات. وقد استغل شيركوه الموقع لصالحه فبات على تعبئة على التلال من اليمين والشمال، ودفع الصليبيين ومن معهم من التَّقَدّم إليه.

كانت تعبئة قوات أسد الدين، كما يرد في رواية ابن واصل، كما يلي:

قسم قواته إلى قسمين [حسب طبيعة المكان]: قلب وميمنة. ووضع الأثقال والمؤن في القلب «لا ليستكثر بها لأنه لا يمكن تركها في مكان آخر خوفاً من أن تنهب»[1]. وعين صلاح الدين قائداً لهذا القسم، وزَوَّدَه بتعليمات محددة، معروفة في التكتيك العسكري عند الأتراك في ذلك الوقت:

«إن المصريين والفرنج يَجْعَلون حملتهم على القلب، فإذا حملوا عليكم فلا تُصْدِقُوهم القِتَال، ولا تهلكوا أنفسكم، واندفعوا بين أيديهم، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم». ويوضح عماد التعبئة باختصار دون ذكر الاجتماع [سنا، ص 63] ووضع صلاح الدين في القلب حتى يعتقد العدو أن أسد الدين فيه[2].

واختار شيركوه من شجعان عسكره من يثق بصبرهم في الحرب وشِدّتهم، ووقف بهم إلى يمين القلب. أما البقية فوقفوا في الميسرة.

وقد صدق حَدسُ شيركوه بالنسبة لتَصَوّر قادة قوات عموري وشاور لتعبئة شيركوه. يذكر الصوري: «احتَلّ شيركوه القلب والبقية في الجانبين»[3] [الأيمن والأيسر].

واقتربت قوات عموري وشاور على تعبئة، لكنّ طبيعة الموقع منعتها من

(1) المصدر نفسه.
(2) مفرج، 1 ص 150 - 151.
(3) تاريخ، 2 ص 332.

الاندفاع بهجوم سريع كما هي عادة الصليبيين، وهجموا على القلب فانهزم من فيه «غير متَفَرقين، وتبعهم «ملك الفرنج، وهاجم صاحب قيسارية الفرقة التي كان يفترض لديهم أن يقودها صلاح الدين، فَصدهم حتى «تخاىل جند هيو عنه فهُزِم وأسر هو وبعض رجاله»، وقتل القسم الأكبر منهم [1].

يذكر عماد الدين أن عدد من أسر كان سبعين فارساً منهم بعض البارونات الكبار. [سنا، 1 ص 64]. وسيرد أسماء بعض الأسرى الذين كَلَّفهم أسد الدين أثناء المفاوضات لفك الحصار عن الإسكندرية. أما شاور فإنه هاجم، كما يبدو، الميسرة التي كان يقودها عز الدين جاولي ومعه إمدادات الإسكندرية، فهُزِمَت «وانهزم منها عز الدين.. من أصحابه فلم ينزل إلاّ بالإسْكَنْدريّة [التي]... قتل من (أهلها)... كثير» [2].

وامتدت هذ العمليات حتى الظهر، فاجتمعت قُوّات أسد الدين وصلاح الدين وأحاطوا بقوات الصليبيين التي تخلّفت مع الآلات والأثقال فهربوا «واستولى الأتراك عليها دون قتال وحملوها معهم» [3].

واستمرّ القتال بعد ذلك متقطعاً حتى الليل، عند ذلك قَرّر ملك الصليبيين وشاور العودة إلى قواعدهم والانسحاب. وكان الطريق يقع بين التلال التي تجمع الأتراك فوقها. ومع ذلك فقد سار بوحدات متماسكة ليلاً بين صَفّي جند أسد الدين دون أن يُعْتَرض، وترك الرجالة بقيادة جوسلين السُمْيسَاطي الذي لحق به بعد أربعة أيام [4]. وانسحب أيضاً شاور ومن معه باتجاه معسكره قرب منية بني خصيب. أما أسد الدين فقد قَرّر التوجه إلى حلفائه بالإسكندرية على طريق الفَيُّوم، ونهبت قُوّاته غلال منطقة البحيرة ومواشيها [5]. ووصل إلى

---

(1) وليم الصوري، تاريخ، 2 ص 331 - 332.
(2) إتعاظ، 3 ص 283 - 284.
(3) وليم الصوري، تاريخ، 2 ص 332.
(4) المصدر نفسه، ص 332 - 334؛ إتعاظ، 3 ص 284.
(5) إتعاظ، 3 ص 284.

المدينة العريقة «فَسلمها أهلها إليه ـ لميلهم إلى مذهب السنة. . .»[1]، «ونزل في القصر، وجعل فيه محبس الفرنج الذين أسرهم»[2].

مكث أسد الدين في الإسكندرية مُدَة شهر يُرَتب دِفَاعَاتِها ضَدّ أي هجوم، وقَدّم أهل المدينة بقيادة الوجهاء وخاصة ابن مصال والشريف ابن الزبير، كل الذخائر والآلات والأموال المتوافرة لديهم إليه. وكان من بين الآلات المذخورة التي أخرجوها لمقاومة الحصار «أربعة وعشرون ألف قوس زنبورك وما يناسب ذلك من الآلات»[3].

وأدرك شيركوه بخبرته الطويلة وبُعد نظره أن الأقوات المتوافرة في المدينة لا تحتمل بقاء قُواته فيها خاصة، وأن المدينة تعتمد في ذلك على إمدادات تَصِلُها باستمرار عن طريق نهر النيل والقوافل البرية بصورة دائمة؛ لذلك قَرّر الخروج منها إلى الصَّعِيد. من ناحية أخرى فإن حصار كل القُوّة التركية في مكان واحد، سيمكن الصليبيين وقوات شاور من وضع كل قواته عملياً تحت رحمتهم: «أنا لا أستطيع أن أحصر نفسي وجماعتي في البلد»[4]. فأخذ القسم الأكبر من القوات، وترك على ولايتها وتدبير أمورها بمساعدة أعيان أهلها نائبه صلاح الدين. وكانت هذه الخطوة المحسوبة هي التي مكنته من الخروج هو وقُوّاته والقوات المُحَاصَرَة فيما بَعْد بسلام، ذلك أنّه خفّفَ على أهل المدينة المؤونة التي سيحتاجها لقُوّاته ممّا مكّنهم من الصمود مُدَّة كافية حتى تمكن من الرجوع والقيام بعمليات حول القاهرة لدفع الملك وشاور إلى التفكير جدياً بأخذ مُقترحاته فيما بعد، وقبولها وفَكّ الحصار.

أما بالنسبة لعموري وشاور فقد عادا إلى القاهرة أولاً، ثم عَرفا بتوجّه شيركوه وصلاح الدين إلى الإسكندرية ودخولها، فقرّرا التوجه إليها ومحاصرتها

(1) مفرج، 1 ص 151.
(2) ابن أبي طيء، الروضتين، 1 ص 168.
(3) النويري، نهاية الأرب، 28 ص 337.
(4) سنا، 1 ص 64.

وقطع كل أنواع الإمدادات عنها حتى تستسلم لهم من الجوع والخوف. وكان هذا القرار بعد اجتماع عقد بين الملك وشاور وحضره رجال ووجهاء دولة كل منهما. ثم تَقَرّر نَشْر الأسطول الصليبي في فرع رشيد من نهر النيل وإغلاق الملاَحة فيه كلياً منعاً لوصول الإمدادات الى المدينة كلياً خاصة وأن موقع الإسكندرية يُمكِّنُ من ذلك. ثُمّ توجهت القوات المشتركة نحو الإسكندرية وخيّم الملك على مسافة قريبة منها. في هذا الوقت غادر شيركوه المدينة إلى الصعيد، وبدأ بالاستيلاء على غلاّتها وجباية أموالها [1].

وعندما عرف عموري بخروج شيركوه من الإسكندرية، سار خلفه حتى بابليون، لكنه لم يتمكن من اللحاق به. عند ذلك قَرّر هو وشاور استغلال الفُرْصَة، والاقتراب من المدينة وتشديد الحصار عليها حتى تستسلم، خاصة وأن أحد وجهاء المدينة من حزب شاور وصل إلى المُعَسكر وأخبر أن المدينة كانت تعاني من قلّة الغذاء وبداية التَذَمُر والمجاعة. وتوجه الحليفان من معسكريهما نحو المدينة واقتربا منها وحاصراها. ثم قدمت سُفُن صليبية من ساحل الشام وأحكمت الحصار من جهة البحر [2]. وبدأت خطّة منظمة لتشديد الحصار، فقاموا بتخريب بساتينها، وقطع أشجارها لبناء الأبراج المناسبة للحصار.

وبدأ الوضع داخل المدينة يتَردّى، وخشي صلاح الدين أن يؤدي ذلك، مع قلّة الأقواتِ، إلى تذمّر السكان وتَمرُّدهم، لكنّ أهل المدينة صَمَدوا، وتحملوا بتَقَبُّلٍ وصَبْر وحماس الدفاع بكل ما لديهم من آلات وأسلحة. ولمزيد من الدعم للروح المعنويّة والصمود، بعث صلاح الدين إلى شيركوه رُسُلاً لإعلامه بالوضع في المدينة، وعدم وصول إمدادات اليها، وقِلّة ما تبقى لديهم من أقوات، وطمأن سكان المدينة من العامة بأن شيركوه سيعود ليفكّ الحصار ويجلب الأقوات. أما الملك فقام بتشديد الحصار أكثر من السابق على

(1) وليم، تاريخ، 2 ص 334.
(2) المصدر نفسه، ص 337.

أمل الاستسلام بسرعة[1]. وأثناء الحصار راسل شاور أهل الإسكندرية، وطلب منهم تسليم صلاح الدين إليه مقابل إسقاط المكوس عنهم وإعطائهم الأخماس، إلاّ أن أهل المدينة رفضوا ذلك، وقالوا: «معاذ الله أن نُسَلّم المسلمين إلى الفرنج والإسماعيليّة». عند ذلك قام بتشديد الحصار[2].

ووصلت أخبار الحصار وشِدّته إلى شيركوه وهو ما زال يجمع المال والمؤن، فأسرع عائداً ووَصَل إلى بابليون بقصد حصار القاهرة، فوجد صاحب يُبْنَى الصليبي مع القُوّة التي تركها الملك في القاهرة مُتَحصنة في مواقعها، كما رأى أن حصار القاهرة سيطول مما يؤثر على الموقف في الإسكندرية، ولذلك قَرّر إجراء مفاوضات مع الجانب الآخر للتوصل إلى اتفاق يخرج بموجبه هو وقُوّاته جميعها من مصر وكذلك ملك الصليبيين وقُوّاته، وتركها لأهلها[3]. فطلب إحضار هيو، صاحب قيسارية، الأسير لديه من معركة البابين لمجلسه. وجرى بين الإثنين حديث طويل، فهِمَ منه هيو أن شيركوه يطمع في الاستيلاء على مصر[4]، واتفق وإياه على إيفاده إلى الملك لعرض الشروط المذكورة إضافة إلى تبادل الأسرى. فأوفد هيو من جانبه أرنوف (Arnuf) صاحب تل باشر السابق، ومن المقَربين من الملك عموري، الذي كان ضمن الأسرى[5].

ووصل الموفد ومن يرافقه إلى معسكر الملك وشاور. وكالعادة عقد الملك مجلساً، للتداول، وعَرَض أرنوف الشروط وأوضح جميع بنود الاتفاقية. ووافق الجميع على فكرة إنهاء القتال الذي طال، خاصّة وأنّ شروطها لا تتعارض مع المعاهدة المعقودة مع الخليفة الفاطمي: تسليم الاسكندريّة إلى شاور، ومغادرة كل القوات التركية أرض مصر، وتبادل الأسرى، وأن يدفع

(1) المصدر نفسه، ص 337 - 338.
(2) ابن جلب راغب في نهاية الأرب، 28 ص 237.
(3) يذكر العماد الإصفهاني أن ألفاً من التركمان الذين معه استمالهم شاور إلى جانبه بالأموال. أما قوله أن الصليبيين هم الذين طلبوا المهادنة فغير دقيق، سنا، 1 ص 64.
(4) المصدر نفسه، ص 339 - 340.
(5) وليم، تاريخ، 2 ص 340.

شاور إلى شيركوه جميع ما صرفه من أموال في هذه الحملة»[1]. كما وافق شاور أيضاً عليه[2].

وأعلنت أخبار الاتفاق في جميع أرجاء المعسكر الصليبي والفاطمي والمدينة، وخرج المُحَاصرون ودخل المُحاصِرين. ودخل شاور المدينة بموكبه دخول الفاتحين، وخاف صلاح الدين، الذي انتقل إلى خيمة في معسكر الملك عموري، من انتقام شاور من أهل المدينة الذين تعاونوا معه بصورة فعّالة، ولذلك طلب ـ حسب شروط الاتفاق ـ من الملك إصدار أمرٍ بمنع التعرض لأهل الإسكندرية[3]. وكان سبب هذا الطلب أن شاور قام، بعد دخوله المدينة بالقبض على «ابن مصال وجماعة ممن أعان صلاح الدين، وضيّق عليهم، وتتبع أهل الإسكندرية»[4].

وعندما دخل شاور الإسكندريّة، واستقرّ بها، جاءه الملك عموري، ثم وصله وجهاء المدينة للسلام عليه «فلم ينظر شاور الى الجماعة، ولا أكرمهم، ولا أذن لهم في الجلوس»، لأنهم دافعوا بشِدّة عن مدينتهم وصلاح الدين والأتراك، فقال له عموري: «أكرم قُسُسَك [الشيوخ والفقهاء]». عند ذلك أذن لهم بالجلوس، وعاتبهم على مخالفتهم له ودعمهم للأتراك وصلاح الدين فتصَدّى له فقيه مالكي، وقال: «**نحن نقاتل كل من جاء تحت الصليب كائناً من كان**». فقال له عموري: «**وحق ديني لقد صدقك هذا الشيخ**»[5].

وطلب صلاح الدين من الملك أيضاً تزويده بعددٍ من السفن لنقل الجرحى والمرضى والضعفاء من رجاله عن طريق البحر إلى عكا[6] ومنها إلى دمشق.

---

(1) **الروضتين**، 1 ص 169.

(2) **المصدر نفسه**، ص 341. (وليم).

(3) **المصدر نفسه**، ص 341 - 42.

(4) **الروضتين** (الشريف الإدريسي)؛ **إتعاظ**، 3 ص 286.

(5) **إتعاظ**، 3 ص 285 - 286.

(6) احتجز الذين سافروا في البحر في عكا، وظلّوا معتقلين حتى عاد الملك إلى عسقلان فأصدر أمراً بإطلاقهم **الروضتين**، 1 ص 169، **إتعاظ**، 3 ص 285، ويؤكد ابن جلب راغب اجتماع صلاح الدين مع أسد الدين في بلبيس. النويري، **نهاية الأرب**، 28، ص 238.

أما صلاح الدين فسار مع الأقوياء من قواته في البر، والتقى مع عَمّه في بلبيس، وعادوا جميعاً إلى الشام، ووصلوا إلى دمشق[1]، فدخلوها صباح يوم الاثنين 18 ذي القعدة [6 أيلول 1167].

وبعد عودة كل من شيركوه وعموري إلى الشام، وشاور إلى القاهرة، أخذ يتتبع أهل الإسكندرية فهرب البعض إلى الشام والتحقوا بخدمة صلاح الدين، فعرف لهم صِدْق ولائهم وكان لهم دور كبير في دولته فيما بعد، وعاقب البعض الآخر وصادر أمواله، وقتل البعض ومنهم القاضي الرشيد بن الزبير [2].

بعد انتهاء الحملة الثانية، وعودة أسد الدين إلى دمشق وعموري إلى فلسطين، استندت سياسة شاور إلى قاعدتين ظَنّ أنّهما تمكنا من تثبيت نفوذه في مصر، وتمنع الأتراك من العودة إلى مصر وتهديد سُلْطته. لكن خطأ حسابه في تنفيذ هاتين القاعدتين أدّى إلى نهايته ونهاية الدولة الفاطمية. وهاتان القاعدتان هما: الاعتماد على الصليبيين في حماية القاهرة وحمايته شخصياً، والثانية إقناع نور الدين بمنع شيركوه من التفكير بالقيام بحملة جديدة عن طريق زيادة إقطاعه، مقابل تنازلات يقدمها له كان أبرزها: الولاء لنور الدين، والمال. وفي الحقيقة فإن كل الظروف التي كانت سائدة آنذاك كانت تمنع التوفيق بين هاتين القاعدتين لا على المستوى الرسمي لكل من دولة نور الدين والملك عموري، إذ كان لكل منهما استراتيجيته الخاصة تجاه مصر التي تستند إلى وجوب العمل على الاستيلاء عليها وإخضاعها لنفوذه، ولا على مستوى عامة الناس عند المسلمين في الشام ومصر ومملكة الصليبيين.

يذكر ابن جلب راغب أنّ أسد الدين قد اشترط على شاور قبل عقد الاتفاق النهائي المذكور:

---

(1) سنا، 1 ص 64. وكان خروج أسد الدين من بلبيس في منتصف شوّال 562 هـ/ 5 آب 1167 م. وبذلك تكون رحلة العودة قد استغرقت شهراً كاملاً.

(2) المصدر نفسه، ص 287 - 288، المقفى، 1 ص 533 وما بعدها، النويري، نهاية الأرب، 28 ص 338.

«أنّ الفرنج يرحلون ولا يلتمسون من البلاد درهماً ولا ضيعة ولا غير ذلك» [1].

وقد تَقَيّد شاور بجانب من ذلك الشرط علناً، لكنّه عَقَد اتفاقاً سرياً هو في الحقيقة امتداد للواقع الذي نشأ نتيجة تنفيذ المعاهدة الدائمة أثناء حملة شيركوه الثانية. وتَمَثّل هذا الواقع بالإبقاء على الحامية التي وضعها الملك عموري بقيادة صاحب يُبْنَى لحماية القاهرة وأسوارها وتحصيناتها قبل موقعة البابين. وقد بقيت في مواقعها حتى عقد الاتفاق النهائي، وكان الجديد هو أنه سمح لها بالبقاء بصورة دائمة بعد ذلك. ومن هنا يمكن أن ندرك حقيقة ما ذكرته المصادر، خاصة المقريزي:

«فَرَحَل الفرنج إلى بلادهم، وتركوا بالقاهرة عدّة من فرسانهم، ورتّبوا بها ابن بارزاني والياً» [2].

وابن بارزان (de Ibelin) هذا هو صاحب إقطاعية يبنى في فلسطين والذي كان من كبار بارونات المملكة الصليبية، وسيتردد ذكر أفراد من هذه العائلة في ما يلي. فهل اقتصر الأمر على ما أضيف من شروط وجود الصليبيين في القاهرة أم كان هنالك أمور أخرى. تذكر المصادر مائة ألف دينار كل سنة يدفعها شاور سنوياً من دخل مصر. وربما كان هذا أيضاً استكمالاً لشروط المعاهدة بدفع بقية الأقساط في وقتها المحدد [200,000 دفعت مقدماً من أصل أربعمائة ألف. والباقي قُسّط سنوياً بـ 100,000، وبعد مضي السنتين ودفع القسطين كانت الحملة التي قادها عموري لاحتلال مصر]. أما بالنسبة إلى الشحنة: «وأن تكون أسوارها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من إرسال عساكر إليها» [3]، فإن حقيقة الأمر أن الشحنة كان الوالي الفعلي (وهو ابن بارزان نفسه) لأن الشحنة ـ كما عرفنا سابقاً كان صاحب شرطة ومسؤول عن الأمن الداخلي في المدينة وعن

---

(1) النويري، نهاية الأرب، 28 ص 338.
(2) إتعاظ، 3 ص 287.
(3) المصدر ذاته، ص 287. وغيرها من المصادر الأخرى.

حمايتها، وهذا هو المفهوم الذي كان سائداً آنذاك في كل العالم الإسلامي ويقابل ذلك في المدن التي كانت بيد الصليبيين (Vice Count) أو نائب صاحب المدينة. وحتى قصة مفاتيح الأبواب التي يذكرها أبو شامة (أو مصدره) التي كانت بيدهم فلأن ذلك جزءٌ من مهمة الشحنة.

خوف شاور من فقدان سلطته، وتمسّكه المَرَضِيّ بكبريائه، وسياسة الانتقام التي اتبعها، وفقدانه القُوّة العسكريّة المدربة هي التي دفعته إلى السير في الطريق الذي مكّن الصليبيين من عاصمة مملكته. ومن يسيطر على العاصمة يسيطر على البلاد كلها. ولذلك كان طبيعياً أن يتحكّم الصليبيون، الذين أتيحت لهم هذه الفرصة، تحكماً متزايداً في شؤون العاصمة الفاطميّة، وجمع كل المعلومات الضرورية عنها وإرسالها إلى الملك للاستفادة منها في المستقبل. وفي ضوء ما تقدّم يمكن أيضاً فهم الفقرة التي افتتح بها المقريزي، وغيره، أحداث سنة 564 هـ/ 1168 - 1169:

«فيها تمكّن الفرنج من ديار مصر، وحكموا فيها حكماً جائراً، وركبوا المسلمين بالأذى العظيم، وقد تيقّنُوا أنّه لا حامي للبلاد، وتبيّن لهم ضعف الدولة، وانكشفت لهم عورات، فجمع مُري [عموري] جموعه، واستشارهم في قصد ديار مصر، فقَوُّوا عزمه على المسير إليها، فأجمع (أمره) على الرحيل إليها، واستدعى وزيره، وأمره بإقطاع بلاد مصر لأصحابه، فَفَرّق قُراها عليهم بعدما كتب جميع قراها وارتفاع (دَخْلِ) كل ناحية، واستنجد عسكراً قَوّى به جنده» [1].

هذا بالنسبة للقاعدة الأولى، فماذا يمكن أن يُقال عن القاعدة الثانية في سياسة شاور؟.

يذكر العماد الإصفهاني المؤرخ المعاصر الذي كان كاتباً لنور الدين أشبه بالوزير، وعلى اتصال وثيق ببيت أيوب وشيركوه وصلاح الدين ما يلي:

---

(1) إتعاظ، 3 ص 291.

«وكان لمّا أراد أسد الدين الانفصال عن الديار المصريّة، وصلاح الدين من الإسكندريّة، **اجتمع الكامل بن شاور** بشهاب الدين محمود خال صلاح الدين وقال له: أوصل إلى نور الدين سلامي، وعَرّفه شغفي بخدمته وغرامي، **وأنا أتَوَسط في جمع الكلمة**، ورَدّ هذه القُلُوب المتبدّدة إلى عقود القلوب المنتظمة، وأتكفّل بما أحمله من **مالي على** وجه الهديّة، **أقصدُ بها سلامة البلاد والرعيّة. فلما** وصل شهاب الدين محمود [إلى دمشق] أعاد على نور الدين مقاله، وذكر سُؤْلَه وسُؤَاله، **وسأله مكاتبة الكامل والرضا بما التزمه به الالتزام الكافي**»[1] .

كان ذلك في أواخر سنة 562 هـ وبداية سنة 563 هـ بعد عودة شيركوه وصلاح الدين مباشرة. ويبدو أن نور الدين وافق على ذلك جمعاً لكلمة المسلمين بالرغم من اختلاف المذهب، وغدر شاور وما كَلّف نور الدين وقُوّاته من مال وجهد، فأرسل كتاباً إلى شاور يوافق فيه على ما وَعَد الكامل، وأنّه سَيُرضِي شيركوه وصلاح الدين تعويضاً لجهدهما وزيادة بلادهما، وعاد الرسول شهاب الدين محمود الحارمي من مصر بكتاب شاور بما اتفق عليه مع طلب خاص من شاور بأن «**يَصْرف عنه أسد الدين**»[1أ] .

وتوجّه نور الدين إلى حلب، ومعه صلاح الدين وأسد الدين[2]، ثم سار إلى منبج وتسلمها وعاد إلى حلب، وهنا أصدر أمره إلى المسؤولين بزيادة إقطاع الأميرين، الكبير والصغير، فأقطع صلاح الدين ضيعتين «إحداهما من ضياع كفرطاب: مدكين، والأخرى من ضياع حلب: زَرْدَنا». ويعلق العماد الذي كتب برقه الشامي بعد وفاة نور الدين: «**وزَعَم أنه بلغ به المنتهى من المُنَى**»[3] . وأنعم نور الدين أيضاً على أسد الدين فأقطعه حمص إضافة إلى الرحبة التي كانت بيده. وكان الهدف الظاهر لهذا العمل هو أن «**ثغر حمص**

(1) سنا، 1 ص 71.

(1 أ) اتعاظ، 3 ص 289.

(2) الروضتين، 2 ص 149.

(3) سنا، 1 ص 7.

أخطر الثغور [وهو كذلك] [ولذلك] تعيّن أسد الدين لحمايته وحفظه ورعايته، لتفرّده بجده واجتهاده، وبأسه وشجاعته. . .»[1]، فأطاع شيركوه أمر السلطان «فسار إليها وضبط أمورها ونذر على نفسه المرابطة للفرنج»[2]. لكن نور الدين طلب منه قبل الإقطاع والمسير:

«السُلُوّ عن حُبّ مصر، وقال: قد تَعِبْت مرتين واجتهدت، ولم يحصل لك ما طلبت، وقد أذعنوا بالطاعة، وشفعوا السؤال بالشفاعة، وسمحوا بكُلّ ما يدخل تحت الإستطاعة»[3].

ومدح العماد أسد الدين في هذه المناسبة[4]:

أنت كهف الإسلام أنت فلا زلت ... لأهـــل الإســـلام خيـــر مـــلاذ
فأنت من نازل الدعيّين في مصـ ... ـــر لنصـــر الإمـــام فـــي بغـــداذ
وبـــلاد الإســـلام أنقـــذتهـــا أنـ ... ـــت مـــن الشـــرك أيمـــا إنقـــاذ

وعندما عرف شاور بما اتخذه نور الدين من إجراءات بعث إليه كتاباً يشكره على فعله. ويُعَلّق ابن الفرات على هذا الكتاب، ثم ينقل نصه عن أبي شامة، معتبراً إياه معبّراً عن حا ل الوزير آنذاك:

«وإنما ذكرنا هذا الكتاب لما فيه من الإبانة عن حال الوزير شاور فيما كان يعتمده:

حدثني أبي: ورد كتاب استدعى شكري وحمدي، واستخلص من الصفاء ما عندي، واستفرغ في الثناء على مُرسله جهدي، وكأنما استمليَتْ معانيه ممّا عندي، واشتملت على حقائق قَصْدي، وسُررت للإسلام وأهله والدين الذي وعده أن يظهره [من يطلعه] على الدين كُلّه، بأن يكون ملكاً من ملوكه يرجع إليه في حلِّه وعقده، وتشير الأصابع

---

(1) المصدر نفسه، ص 70 - 71.
(2) ابن الفرات، تاريخ، 4 ص 5.
(3) العماد، الروضتين، 1 ص 151 (عن البرق الشامي).
(4) المصدر نفسه، ص 151 - 152.

وتُعقد الخناصر على عُلُوّ محلِّه. والله يزيده بمكانه تثبيتاً وقوّة، ويحقق على يديه من مخايل النصر المرجُوّة.

فأمّا وصُول الأمير شهاب الدين وما سَرّ به من إبلاغ رسالتي، ونقله إليه من سالف مقالتي، **وتحقيق طلوعها عليه بما كان متطلعاً،** ــ ووقوعها من نفسه النفيسة بحيث كان متوقعاً، فما أسعد رأساً دَلّ على نُصْرة الكلمة، ودعا إلى سبيل ــ الفئة المسلمة **ووفّر على مصالح الأمة** قلوب رعاياها المنقسمة. **وأنا مُتَمّم من هذا الأمْر ما صدر مني، باقٍ منه على ما نُقِل عني،** لا أتغير عن المصلحة فيه، **ولا أعدل عمّا أظهر منه لما أخفيه،** ولا أستكثر كبيراً أصل إليه، **وأتوصَلُ به لما سبق للملك العادل من حقوق استوجب شكرها قولاً وفعلاً»**، ونُصْرَة كانت في هجير الخطوب برداً وظلاً، وأنْعُم لا تزال آياتها بألسنة الحمد تُتْلَى، ولعمري لقد عَلا بناؤها مجداً وفخراً. . . ووجب أن يستتمها فلا يصل إلى مواردها الكَدَر، ويحوطها فلا يتطرّق إلى جوانبها الغِيَر.

ووراء هذه المكاتبة من اهتمام ما لا يعوقه عائق، **إلاّ انتظام العقد** على الأمور المألوفة، **وتَمام التوثقة باليمين المنصوصة الموصوفة، مع أنّ قوله كيمينه، وكتابه كصفحة يمينه، والثقة به واقعه على كل حال،** والمحبّة له توجب الاحتراس على الوَدَاد مع تَطَرّق أسباب الاختلال» [1].

وكان استئناف المراسلات بين نور الدين، وهذا الكتاب خاصة، هو السبب المباشر الذي أدى إلى قيام الملك عموري بحملته بقصد احتلال مصر. وفي تقديري أن محتوى هذه المراسلات كان يصل إلى الشِّحْنة وقائد الحامية أولاً بأول، عن طريق فئة من رجال الدولة الفاطميّة المتعصبين الذين شكّلُوا حزباً يؤيد بقاء الصليبيين في القاهرة والإبقاء على المعاهدة الدائمة التي عقدت بين الملك والخليفة وما أضيف إليها من اتفاقيات، والذين يكرهون الأتراك وما

---

(1) الروضتين، 1 ص 169، ابن الفرات، تاريخ، 4 ص 5 - 6. ولا بدّ أن الكتاب من إنشاء القاضي الفاضل.

يمثلونه من دولة ومذهب، ويخافون عودتهم إلى مصر والسيطرة عليها، والقضاء على الخلافة القائمة فيها. وكان هؤلاء من القيادات المعروفة في الدولة، وسنذكر شيئاً من دورهم فيما يلي من سطور.

يذكر وليم الصوري:

«وبدأت تنتشر إشاعات كثيرة في كل البلاد [الفرنجيّة]، بأن شاور، سلطان مصر كان يراسل نور الدين بصورة متواصلة، وأنه التمس منه سراً المساعدة، وادعى له أنّ اشتراكه في معاهدة السلام مع العدو [الفرنج] كان ضِدّ رغبته، وأنّه يرغب في الإنسحاب من الاتفاق الذي عقده مع الملك، وأنّه إذا تأكد من مساعدة نور الدين فإنه سَيَنْقُض المعاهدة ويتخلّى عن الملك كلياً» (1).

وإذا قارنّا بين هذا النص وبين الكتاب الذي بعث به شاور إلى نور الدين فإننا نجد مَدى اطلاع الصليبيين على الأوضاع الداخليّة في القاهرة وفي أهم دواوينها، ديوان الإنشاء الذي كان يمثل في بعض مهامه في ذلك الوقت وزارة الخارجيّة في الوقت الحاضر. كما يمكن أن نعرف مدى التحريف، أو الصحة التي نقلها الأعوان من خواص شاور والخليفة إلى الشحنة المقيم في القاهرة.

وتَدُل رواية الصوري على أنّ القادة في الجانب الصليبي ناقشوا هذا الموضوع مطولاً، وأنه ظهر بينهم اختلافات كبيرة حول قرار الملك عموري النهائي بجمع كل قُوّات المملكة والتوجه إلى مصر. فالصوري نفسه يقول بأنّ توجه الملك كان نقضاً لبنود المعاهدة المعقودة سابقاً مع شاور والخليفة. واعتقد البعض أنّ التهم التي وجّهت الى شاور غير صحيحة وأنّه لا يستحق مثل هذه المعاملة من الملك، وأكّد هذا الفريق أن إعلان الحرب ضِدّه غير مقبولٍ لأنّ مثل هذه الحرب غير عادلة وتناقض القانون الإلهي، وأنّ كل هذه الإشاعات مجرد حُجّة اخترعها الملك للدفاع عن قيامه بهذا العمل غير المقبول (2).

---

(1) وليم الصوري، تاريخ، 2 ص 350.
(2) المصدر نفسه، 2 ص 350.

وقال فريق آخر من قادة مملكة القدس الصليبيّة أن المقدّم الأكبر لفرسان الاسبتارية كان المحرض الرئيسي للقيام بهذه الحملة، ذلك أنه استدان مبلغ مائة ألف قطعة ذهبيّة لتجنيد أعداد جديدة من الفرسان في جماعته (أو مؤسسته) العسكرية، وأنه قد صَرَف هذا المقدار الكبير من المال بناءً على تفاهم مُسْبَق مع الملك الذي عقد صفقة معه أنه إذا تَمَّ الاستيلاء على مصر فإن الملك سيمنح جماعة الاسبتارية بلبيس وكل بلادها ملكاً أبدياً [1].

وأما جماعات (بيت) الداويّة العسكريّة، الأقدم والأكبر من الاستباريّة، فقد رفضوا المشاركة في الحملة إما بسبب ما أملاه عليهم الضمير من نقض المعاهدة أو لأن المُقَدّم الأكبر المنافس لبيتهم كان صاحب الفكرة وقائدها؛ وبَدَا لمقدّمي هذا البيت أنّ إعلان الحرب على قُوّة صديقه، التي كانت تعتمد في حمايتها على حسن نيّة الصليبيين، كان مخالفاً للحق والعدل ولبنود المعاهدة، لأن رجال الدولة في مصر حافظوا على مصداقيتهم ولا يستحقون هذه المعاملة من المملكة الصليبيّة [2].

أما الصورة التي نجدها في المصادر العربيّة عن السبب أو الأسباب المباشرة للحملة التي قادها الملك إلى مصر فتختلف عن الصورة التي يُقَدّمها الصوري؛ وهذا يشير إلى تخلف الاستخبارات لديهم في مصر (لم يكن ابن نجيّة فيها) أو في داخل المناطق التي يحتلها الصليبيّون. ولكنها تتفق في شيء واحد هو أن «الحامية» التي تركت في القاهرة هي التي كاتبت الملك موضحة الظروف الصعبة التي تَمُرّ بها، «واعلموه خُلُوّها من المُمَانع، وهَوّنوا أمرها عليه» [3] وتُقَدّم الرواية العربيّة الناحية الأهم، وهو مكاتبة بعض أعيان الدولة في مصر ممن كانوا خارج السلطة من أعداء شاور، الملك عموري طالبين منه الاستيلاء عليها نكاية بشاور، ومنهم ابن الخياط الذي كان كبير العساكر في وزارة شاور الأولى

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه، ص 305 - 306.

(3) انظر ما تقدم ومفرج، 1 ص 156.

ثُمّ ثار ضِدّه في الوزارة الثانية [1] وابن قرجلة [2] الذي سيرد ذكره مَرّة أخرى في مؤامرة عمارة اليمني وأصحابه.

وعقد الملك عموري مجلس مشورة كالعادة لـ «فرسان الفرنج وذوي الرأي منهم، **فكل منهم أشار بقصدها وملكها، فقال لهم** (عموري): الرأي أنّا لا نقصدها، **فإنها طعمة لنا، وأموالها تساق إلينا** (ترسل)، نتَقوّى بها على نور الدين، وإن نحن قصدناها لنملكها **فإن صاحبها وعساكره، وعامة بلاده وفلاّحيه لا يُسلّموها إلينا، ويُقاتلونا دونها، ويحملهم الخوف منا على تسليمها لنور الدين، ولئن أخذها، وصار له فيها مثل أسد الدين، فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام»**.

وهذا موقف قائد عارف بدقائق الأمور، وردّة الفعل التي يمكن أن تنتج عن مثل هذه الحملة المكشوفة بقصد السيطرة والبقاء الدائم فيها. فكيف غلب على أمره واستجاب للاتجاه الذي مثلّه الاسبتارية؟ الجواب في بقيّة الخبر: **«فلم يقبلوا قَوْله، وقالوا: إنه لا مانع منها ولا محامي**، وإلى أن يتجهّز نور الدين ويسير إليها نكون قد ملكناها وفرغنا من أمرها، وحينئذٍ يتمنى نور الدين السلامة»[3]. وهذا منطق عسكري يعتمد سرعة الحركة، وإنجاز المهمة قبل أن يتمكن نور الدين وشيركوه من الوصول إليها، لكنّه لا يأخذ بعين الاعتبار موقف عامة الناس وما يمكن أن يقوموا به أو حتى موقف شاور الضعيف وما يستطيع عمله لتأخير السيطرة الصليبيّة على العاصمة، من تحصينات ودفاعات أو أية وسائل، حتى تصل النجدات التي لن يتردد نور الدين في إرسالها.

ونتج عن كل هذه المشاورات قرار التجهّز والمسير.

ويُقَدّم المقريزي أعذاراً جديدة عَرَضها الملك على الوزير، عند وصوله إلى الدّاروم، عن طريق السفير الذي بعث به شاور إلى الملك طالباً تفسيرَ سبب

---

(1) النكت العصرية، عدة أماكن فيه.
(2) مفرّج، 1 ص 156.
(3) اتعاظ 3 ص 292

هذه الحملة. وكان السفير هو شمس الخلافة محمد بن مختار. وعندما دخل على الملك، قال الأخير للسفير: «مرحباً بشمس الخلافة»، فرَدّ عليه «مرحباً بالملك الغدّار، وإلاّ ما أقدمك إلينا؟ قال: اتصل بنا أنّ الفقيه عيسى [بن محمد الهكاري الكردي، الذي سيتكرر ذكره كثيراً في فترة صلاح الدين]، وَصَل إليكم ليزوج أختاً للكامل بن شاور بصلاح الدين يوسف ويتزوج الكامل بأخت صلاح الدين، فحسبنا أن هذا عَمَل علينا» فأجاب السفير: «ما لهذا صحة، ولو فعل لما كان ناقِضاً للهدنة. فقال [الملك]: الصحيح أنّ قوماً من وراء البحر انتهوا إلينا، وغلبوا على رأينا وخرجُوا طامعين في بلادكم، فخفنا من ذلك، فخرجت لتوسط الأمر بينهم وبينكم ورَدّ الملك في قسمه الأول ربّما كان صحيحاً جزئياً، لكنّه رد فيه أساسٌ قانوني وفيه تحايل على هذا الأساس. ففي الهدن والاتفاقات التي كانت تعقد بين الإمارات الإسلاميّة والإمارات والمملكة الصليبيّة كان هنالك نَصٌ أو عرف، أنه إذا قدم ملك أو أمير كبير من أوروبا إلى الشرق بقصد القيام بعمليات عسكرية ضدّ الإمارات والممالك الإسلامية فإن الهدنة أو الاتفاق يُعَلّق من حيث نفاذ شروطه حتى يعود الملك والأمير إلى بلاده [1]. أمّا التوسط فهو تحايل لتبرير دخول حدود مصر.

وانتقل السفير بعد ذلك إلى التفاوض حول مبلغ القطيعة المالية التي يريدها الملك حتى يعود إلى بلاده، فطلب الملك مليوني دينار، فقال السفير: «حتى أعود إلى شاور وأرجع إليكم بالجواب فلا تبرحوا من مكانكم، فقال عموري: بل ننزل على بلبيس» [2]. وهذا يخالف الاتفاقية ويعني إعلان الحرب، ذلك أن الملك كتب، قبل هذه السفارة، إلى شاور يبرّرُ أنّ قُدومه كان ليأخذ ما تَقَرّر له في كل عام من مال. وكان جواب شاور:

«إن الذي قَرّرته إنما جعلته لك متى احتجت إلى نجدتك، أو إذا قَدم عليّ عدو، فأَمّا مع خُلُوّ بالي من الأعداء فلا حاجة لي إليك، ولا لك

---

(1) البرق الشامي، 3 ص 53.

(2) إتعاظ، 3 ص 292.

عندي مُقَرّر». فأجابه الملك: «لا بُدّ من حضوري وأخذي المُقَرّر، فعلم شاور أنّه قد غدر، وخان الأَيْمان، ونقَضَ العُهُود، وطمع في البلاد»[1] .

وفشلت المفاوضات لتصميم الملك عموري على تحقيق الهدف الذي جاء من أجله، فكانت العمليات العسكرية التي أدت إلى تراجع الصليبيين إلى بلادهم بعد قدوم شيركوه وصلاح الدين في الحملة الثالثة، ومقتل شاور، ووزارة شيركوه ووفاته، وتولى صلاح الدين الوزارة للخليفة الفاطمي.

---

(1) المصدر نفسه، ص 292.

5 الوزير

جمع الملك عموري كل قُوَّات المملكة وانضمّ إليه فُرسَان الاسبتارية في عسقلان، وتوقف فيها بعض الوقت لاكتمال وصول الجميع؛ فمنذ الاستيلاء عليها سنة 1153 صارت قاعدة العمليات العسكرية الرئيسية المتوجهة إلى مصر، ومركز تجمع لمساعدة إمارة الكرك شرقي البحر الميت ووادي عربة، ولمواجهة الحملات التي قدمت من مصر بعد أن تولّى صلاح الدين الوزارة في مصر. وفي عشرين تشرين الأول 1168 م(*)، تحرّكت القوات بقيادة الملك على طريق السّاحل جنوباً مارّة بغَزّة، وتوقفت للراحة في الداروم قبل التوجه إلى بلبيس. وعندما وصلت إلى الداروم، كان شاور قد عرف بحركتها، فبعث رسولاً من قبله إلى الملك للاستفسار عن سبب هذه الحملة العسكرية على بلاده دون استدعاء أو وجود عدوٍ يُهدد البلاد، وهو الشرط الأساس في الاتفاقيات المعقودة بين الجانبين الذين يستوجب القيام بمثل هذا العمل كما ذكرنا.

واستمال الملك الرسول الأول المدعو بدران إلى جانبه، ووعده «بعدّة من قُرى مصر، نحو الثلاثة عشر قرية» إذا أخفى عن شاور نيّة الملك الحقيقيّة من الحملة، وطلب منه أن يُخبر الوزير «أنّهم إنما قَصَدوا البلد لخدْمة»[1]. وأرسل شاور سفارة ثانية إلى الملك قبل دخوله حدود مصر، هي تلك التي تحدثنا عنها في نهاية الفصل السابق، والتي فشلت في اقناع الملك بالتخلي عن

(*) وهو بالتحديد التاريخ الذي يذكر العماد 15 محرم 564. سنا، 1 ص 74.

(1) الروضتين (ابن أبي طيء) 1 ص 170.

فكرته؛ وكيف يتراجع وقد شاور كثيراً واتخذ القرار؛ وتجهّز وقطع نصف الطريق، وتكلّف ما تكلف من مال ومُؤن؟ عند ذلك بدأ شاور يستعد لمواجهته بما بقي لديه من قوات، فأرسل مجموعة من الجند إلى بلبيس للدفاع ومعها الأقوات والعُدَد للقتال وتَحَمُّل الحصار، وبدأ بتحصين القاهرة.

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه هذه التطورات على الحدود بين مملكة الصليبيين والديار المصرية، والاستعدادات في القاهرة، كان نور الدين في حلب ـ عاصمة مُلكه الأولى ـ يستريح بعد أن حقق أحد أمرائه السيطرة على قلعة جعبر [1] على الفرات ـ القلعة التي قُتِل والده عند أسوارها، ومعه الأمير صلاح الدين الذي صار من خَواصّه. أمّا أسد الدين فقد كان في حمص يحمي الحدود هناك [2]، مترقباً وصول قُوات الملك عموري في هذه الجهة، ذلك أن الإشاعات التي أطلقت عند الاستعداد للحملة، أنّها ستتوجه لحرب حمص حيث لا اتفاق ولا هدنة يقيّد أياً من الطرفين. وعندما تأكد أسد الدين بتوجه الحملة إلى مصر. أسرع بالمسير إلى حلب، وقطع المسافة بينها وبين حمص في ليلة واحدة، واجتمع بنور الدين وصلاح الدين. ويلخص العماد الإصفهاني بأسلوبه المعروف ما جرى في الاجتماع الذي اتخذ فيه القرار بجمع العساكر والعود إلى دمشق:

قال أسد الدين لنور الدين: «إن الفرنج قد استحكم في البلاد المصريّة طمعهم، وليس سواك في الوجود يَزَعُهم، ومتى تَجْمع العساكر؟ وكيف تَدْفَعَهم؟ فقال [نور الدين] له: إن خزائني لك فخذ منها ما تريد. واطْلَقَ له في العاجل مائتي ألف دينار، وأَمَرَ خازنه ولي الدين إسماعيل بأن يوصل إليه كثير ما يلتمسه والقليل» [3].

وتوجّه نور الدين إلى قلعة جعبر ليتسلمها رسمياً ثم يعود إلى دمشق،

(1) إنعاظ، 3 ص 292؛ وليم الصوري، تاريخ، 2 ص 352.
(2) سنا، 1 ص 73 - 75.
(3) المصدر نفسه، 1 ص 75.

وطلب من أسد الدين شيركوه التوجه إلى مرابع التركمان لجمعهم والتوجه إلى دمشق. أما صلاح الدين فقد أرسله نور الدين إلى دمشق لجمع القُوّات هناك والاستعداد.

ويذكر ابن شداد أنّ صلاح الدين كان كارهاً المسير مع عَمِّه إلى مصر. أما ابن الأثير فيذكر بداية أن نور الدين أحبَّ مسير صلاح الدين «وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه»؛ ثُمّ يذكر حديثاً عن صلاح الدين فيما بعد، يفهم منه صدق موقف السلطان:

«**فلقد حكى لي أنّه** قال: لمّا وَرَدَت **الكُتُب** من مصر إلى. . . نور الدين. . . أحضرني وأعلمني الحال، وقال: تمضي إلى عَمّك أسد الدين بحمص مع رسول إليه تأمره بالحضور، وتحثه على الإسراع، فما يحتمل الأَمْر التأخير.

قال: ففعلت، فلمّا فارقت حلب، على ميل منها، لقيناه قادماً في هذا المعنى.

فقال له نور الدين: تجهّزْ للمسير، فامتنع من غَدْرِهم [الفرنج] أولاً، وعدم ما ينفقه في العساكر ثانياً؛ فأعطاه نور الدين الأموال والرجال.

وقال له: **إن تأخرت عن المسير إلى مصر، فالمصلحة تقتضي أنْ أسير أنا بنفسي إليها، فإننا إن أهملنا أمْرَها مَلَكَها الفرنج، ولا يبقى معهم مقام بالشام ولا غيره.**

قال: فالتفتَ الى عمي أسد، وقال: تَجَهّز يا يوسف.

قال: فكأنما ضرب قلبي بسكين. فقلت: والله لو أعطيت مُلْكَ مصْر ما سرت إليها فلقد قاسيت بالإسكندريّة من المشاق بها ما لا أنساه أبداً.

فقال عمي لنور الدين: لا بُدّ من مسيره معي، فَتَرْسم له؛ **فأمرني** نور الدين وأنا أستقيله؛ فانقضى المجلس. ثمّ جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم، ولم يبق غير المسير.

فقال لي نور الدين [في دمشق على الأغلب]: ولا بدّ من مسيرك مع عَمّك، فَشَكَوْتُ إليه الضائقة وقلّة الدَّوَاب وما احتاج إليه، فأعطاني ما تجهزت به، وكأنّما أساق إلى الموت، ـ وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته ـ فَسِرْت معه. **فلما توفي** [نور الدين] **أعطاني الله من الملك ما كنت أتوقعه**»[1].

وفي 29 صفر 564 / 2 كانون الأول 1168 وَصَل نور الدين إلى دمشق[1أ]؛ وكان ذلك بعد ثمانية وعشرين يوماً من وُصُول الصليبيين إلى بلبيس. [1 صفر / 4 كانون الأول].

ويذكر ابن الفرات أنّه «قيل» أن الكامل أرسل إلى نور الدين «وضمن عن نفسه أن يجمع كلمة المسلمين بمصر على طاعته، ونذر مالاً يحمله في كل سنة، فأجابه [نور الدين] إلى ذلك، وحملوا إليه مالاً جزيلاً، فبقي الأمر كذلك، إلى أن قَصَد الفرنج مصر وعمل في بلبيس. . . (ما عمل)» [2].

فماذا حدث في بلبيس[3] ؟

كانت القُوّة التي أرسلها شاور بقيادة ابنه طيء غير كافية للدفاع عنها وتحمل الحصار داخلها. وعندما وصل الملك عموري، وخيّم عليها، كان معه جماعة الأمراء المعارضين لشاور. ويروى أنّ الملك طلب من

(1) الباهر، ص 141.

(1 أ) سنا، 1، ص 75.

(2) تاريخ، 4 ص 22.

(3) هنالك روايتان أساسيتان عن ما حدث في بلبيس إحداهما لوليم الصوري والثانية لابن أبي طيء عن موسى بن شمس الخلافة الذي حدثه بذلك شخصياً في حلب. وشمس الخلافة كان من كبار رجال الدولة الفاطميّة آنذاك.

طيء أن يُحَدّد له مكاناً ينزل فيه انتظاراً لوصول المال الذي جاء للمطالبة به، فكان جواب طيء «**أسنّة الرماح**» [1] . عند ذلك قام الملك بحصارها حصاراً شديداً، وبعد ثلاثة أيام دخلها بالقوة واستباحها، وقتل قسماً من سكانها دون تمييز بين كبير أو صغير، وذكر أو أنثى؛ وأسر ابن شاور واحد أفراد عائلته. وغنم العسكر الصليبي كل ما وجدوه فيها، وأسر عدد كبير من الناس[2] . واقتسم أمراء عسكر عموري الأسرى الكثر ويصف مصدر المقريزي [ابن أبي طيء] ما عمل عموري بالأسرى:

«وأَمَرَ بإخراج الأسرى من أهل بلبيس إلى ظاهر البلد، وركب وقد اعتقل[3] رمحه، وحمل على الأسرى حتى فَرّقَهم فرقتين، فجعل لنفسه الفرقة التي وقعت عن يمينه، وأنعم بالفرقة الأخرى على أهل عسكره: وقال لمن صار إليه من الأسرى: **قد أطلقتكم شكراً لله على ما أولاني من فتح مصر، فإني ملكتها بلا شك**. وما زال واقفاً حتى عَدّى أكثرهم النيل إلى جهة منية حَمَل[4] ؛ وأخذ عسكره أسراهم فاقتسموهم»[5] .

ويعلق مصدر ابن أبي طيء:

«وبقي أهل بلبيس الذين أُسِرُوا أكثر من أربعين سنة في أسر الفرنج، وهلك أكثرهم في أيديهم وأفلت منهم اليسير». وبعد وزارة صلاح الدين ثُمّ سلطنته قام صلاح الدين باتخاذ إجراءات لفك الأَسْرى والتخفيف على أهل بلبيس الذين عرفهم جيداً خلال الحملتين السابقتين، فقد: «**وقف مغل بلبيس على كثرته على فكاك الأسرى منهم، وسامح أهل بلبيس بخراجهم إلى آخر أيامه**»[6] .

---

(1) الروضتين، 1 ص 170.

(2) وليم، تاريخ، 2 ص 352.

(3) جعله بين ساقيه وركابه.

(4) قرية تابعة لبليس شرقي النهر.

(5) الروضتين، 1 ص 170.

(6) الروضتين، 1 ص 170.

وكان سقوط بلبيس صدمة كبيرة لشاور وأهل مصر إذ لم يتوقع مثل هذه الفظائع التي ارتكبت بحق أهلها، أما أهل القاهرة ومِصر فقد أصابهم الذعر من مصير مماثل. واحتار شاور فيما سيفعل: هل يُغري عموري بالرجوع إلى بلاده بالمال أو يطلب المساعدة من نور الدين. وقَرّر استعمال الطريقتين، وأُرْسِلَت سفارة من عدة رُسُل بكتاب إلى دمشق. وتختلف المصادر العربيّة حول صاحب الاقتراح على الخليفة العاضد: شاور أم ابنه الكامل وشمس الخلافة. أما العماد الأصفهاني، فيقول:

«وواصل [شاور] بكتبه إلى نور الدين مستصرخاً ومستنفراً، وبما نالَ الإسلام من الكفر مخبراً. وسَيّر الكتب مُسَوّدة بِمدادها، كَاسِيَة لباس حِدَادها، وفي طيّها ذَوَائِب مجزوزة، أظُنّ أنها من شعور نساء القصر للإشعار بما عراهم من بلية الحَصْر، وأرسلها تباعاً، وردف بين نَجّابِين سراعاً، وعامل الفرنج بالمطال، وبالإرسال بعد الإرسال» [1].

وأما موسى بن شمس الخلافة فيعطي الفضل لوالده في إقناع الكامل بن شاور في الدخول على الخليفة دون علم والده، وقال له: «عندي أمْرٌ لا يمكنني أن أفضي به إليك، إلاّ بعد أن تحلف لي أنّك لا تطلع أباك عليه، فلمّا حلف له، قال له: إنّ أباك وَطّن نفسه على المصابرة وآخر أمْرِه يُسَلِّم البلاد إلى الفرنج ولا يكاتب نور الدين، وهذا عين الفساد، فاصْعَدْ أنت إلى العاضد وألْزِمه أن يكتب إلى نور الدين، فليس لهذا الأمر غيره، فقَصَده الكامل وكتب الكتاب» [2].

وَعِماد الدين هو الذي استلم الرسائل في دمشق، وهو الذي عرضَها على نور الدين، وشمس الخلافة في مصر يَعْرف ما يدور وكذلك الكامل وحتى شاور.

---

(1) سنا، 1 ص 74 - 75.
(2) الروضتين، 1 ص 170.

ومهما يكن من اختلاف فقد **وَصَل الكتاب أو الكتب إلى دمشق**، وأرسل نور الدين الفقيه عيسى الهكاري بالجواب:

«برسالة ظاهرة إلى شاور يعلمه أنّ العساكر واصلة، وبرسالة سريّة إلى العاضد، وأَمَرَه أن يستحلفه على أشياء عينها، وأن يكتم ذلك عن شاور» [1].

وهنا يتضح أن شاور والعاضد كتبا إلى نور الدين. الأول للمساعدة ضِدّ الصليبيين، والثاني ضِدّ الصليبيين أولاً وضِدّ شاور ثانياً. وربما كان المرشح لخلافته عند انقضاء الأمور على خيرٍ للمسلمين الكامل أو شمس الخلافة أو من يقترحه نور الدين. ومن هنا يمكن فهم الكلام بين عموري وشمس الخلافة عن قِصّة الزواج بين صلاح الدين وبنت الكامل محمد وأخت صلاح الدين التي ذكرت سابقاً الذي اعتقد الصليبيّون أن الفقيه عيسى جاء من أجله.

وبعد إرسال كتاب العاضد إلى نور الدين، قيل للخليفة:

«لما لا أطْلَعْت وَزِيرك على ذلك، فقال: أعرف أنّه لا يوافقني عليه لكراهته في الغُزّ [الأتراك]، وأنا أعلم من أي باب أدخل عليه. **وأرسل إلى شاور يقول: أين استدعائي الغز من المسلمين لنُصْرَة الإسلام من استدعائك الفرنج للإعانة على المسلمين.**

فقال شاور للرسول: **«قُل لمولانا عني أنت مغرور بالغُزّ والله لئن يَثْبت لهم رِجْل بديار مصر كانت عاقبته وخيمة إلاّ عليك.**

فلمّا بلغ العاضد ذلك، قال: **رَضِيتُ أن تكون إسلاميّة وأكون فداء للمسلمين»** [2].

ويتّضحُ من النصوص السابقة أن القُوى في مصر كانت موزعة، وأنها جميعاً كاتبت نور الدين، وكل منها كانت تسعى وراء هدف، وهذا يُفَسّر ما يذكره العماد عن تتابع الرسل، وما يذكر عن مجيء الفقيه عيسى.

---

(1) الروضتين، 1 ص 170.

(2) إتعاظ، 3 ص 293 - 294.

فشاور كان يريد من نور الدين إرسال حملة يُهَدّد بها الصليبيين حتى يغادروا البلاد، لكن لا يريد منهم البقاء للحفاظ على سلطته ومكاسبه.

والكامل كان يسعى لأن يكون أكثر قبولاً من والده لدى نور الدين بحيث يبقيه في الوزارة بعد والده.

واتخذ شمس الخلافة من الكامل وسيلة لقدوم الغُزّ وتخليصها من شاور وولده ومن الصليبيين، وأن يتولى الوزارة للعاضد. ومن هنا كانت ثورته، كما سنرى، عندما استَقَرّت الأمور في النهاية لصلاح الدين.

والخليفة العاضِد، كما يبدو، سئم من مناورات شاور وتحكمه واستعانته بالصليبيين ضِدّ المسلمين، خاصة وأنه الخليفة الوحيد الذي أجبر على وَضْع يده بيد مفاوض الصليبيين عند توقيع الاتفاقية التي نقضها الملك عموري. ووَصَل الحال لديه أنّه إذا كان لا بُدّ من خروج مصر من يد الفاطمين فالأَوْلَى أن يكون إلى المسلمين، ولو كانوا مخالفين له في المذهب، **وأن يكون هذا «فداءً» لكل المسلمين في مصر وغيرها.**

قبل استيلاء عموري على بلبيس، كان شاور قد وافق على دفع القطيعة السنوية من المال، وأعاد شمس الخلافة رسولاً إلى الملك، لكنّ الأخير احتجزه حَتّى دَخَلها، ثمّ سمع رسالته واعتذر عن دخوله المدينة بالقُوّة بأن ابن طيء استفزّه «وأنه باقٍ على ما تَقَرّر معه بقاء شمس الخلافة»[1]. وعاد الرسول إلى شاور وأخبره، وهُنا بدأت الاتصالات المتتالية مع نور الدين لتلافي الأمر، كما قام شاور بتحصين مدينة مصر ببناء سُورٍ حولها وحفر خندقاً أيضاً، وجعل في السور ثمانية أبواب، وسخّر كل الناس في بنائه[2].

ومكث عموري في بلبيس خمسة أيام[3]، ثم توجّه نحو القاهرة، وأقام

---

(1) إتعاظ، 3 ص 295 - 296؛ ابن الفرات، تاريخ، 4 ص 24 - 25.

(2) إتعاظ، 3 ص 296، حيث يفصل ذكر الأبواب، وأنه أزيل بعد سنة 650 هـ، أي في بداية دولة المماليك.

(3) المصدر نفسه، ص 296.

مخيّمه في بركة الحبش[1] (10 صفر/ 13 كانون أول).

وفي اليوم السابق كان ابتداء الحريق بأمر شاور في مدينة مصر[2] لأن أهلها هربوا إلى القاهرة والأرياف بعد سماعهم بما حَلّ ببلبيس وعدم وثوقهم بشاور والسُّور الذي بناه، فاجتمع أهل القاهرة ومن انضم إليهم «ووَطّنُوا أنفسهم على الموت». ويُعلّق المقريزي أو مصدره:

«وكان هذا من لطف الله، فإنّه لو قَدّر أنّ الفرنج أحْسَنُوا السِّيرَة في أهل بلبيس، لكان الناس لا يدافعونهم عن القاهرة البتّة لما في قلوبهم من كراهة شاور»[3].

في بركة الحَبَش، التي تبعد حوالي 12 كم عن القاهرة، استقبل عموري في خيمته شمس الخلافة رسولاً من شاور. فأوقفه هذا على باب الخيمة، وطلب إليه مراقبة الحريق ليقنعه بعدم التقدم إلى القاهرة، لكن الملك لم يقتنع، وتقدم بقواته إلى جهة باب البرقيّة، وخيّم قريباً من الأسوار[4] كما طلب من الأسطول دخول نهر النيل لحصار المدينة، لكنّ مَدَّ الماء ووصول الأخبار بدخول شيركوه إلى بلاد مصر أدّى إلى الطلب منه الانسحاب إلى البحر[5].

ثم قام بالحصار وتشديده، ودافع أهل مدينة القاهرة دفاعاً مستميتاً، لكن شاور تَبَيَّن أنّه لا يستطيع المقاومة وأهل المدينة بنجاح، فَقَرّر الاتفاق مع الملك فأرسل شمس الخلاف في رسالة إلى عموري بأنّه لا يمكن تسليم البلد إليه، ولا يمكنه الاستيلاء عليه إلاّ بعد قتال مرير يقتل فيه من الجانبين عدد كبير،

---

(1) في الجانب الشرقي من مدينة مصر مقابل جزيرة الروضة وبينهما مسجد عمرو بن العاص، وخارج السور الجديد، وقريباً من سور القاهرة.

(2) استمر الحريق 54 يوماً، وهرب السكان منها. ويصف المصدر حال الناس. انظر ابن الفرات، **تاريخ**، 4 ص 24. ويبدو كذلك احتراق الأسطول، **اتعاظ**، 3 ص 297. وانظر أيضاً **مفرج**، 1 ص 157.

(3) **إتعاظ**، 3 ص 296.

(4) الروضتين، 1 ص 171؛ ابن الفرات، **تاريخ**، 4 ص 24؛ **إتعاظ** 3 ص 297.

(5) وليم، **تاريخ** 2 ص 352 - 353.

«والرأي أن تحقن دماء أصحابك، ودماء أصحابي، وتحصل شيئاً أدفعه لك فيحصل لك عَفْوا [دون قتال]» [1]. وتختلف الروايات في المبلغ الذي اقترحه شاور وتحدده بين 400 ألف قطعة ذهبية إلى 2 مليون. ويبدو أن الرقم الثاني، الذي ذكره أيضاً الصوري [2]، هو الأقرب إلى الصحة. وقبل عموري عرض الصُلْح المغري، لكنّه لم يقبل أن يكون الاتفاق النهائي مع شاور الذي اتهمه بالغدر، وإنّما مع الخليفة العاضد. عند ذلك قام ابن عبد القوي، داعي الدعاة وقاضي القضاة، ومعه الأستاذ صنيعة الملك جوهر نيابة عن العاضد، بالتوسط «بين الفرنج وبين الناس» حتّى تَمّ الموافقة على دفع المبلغ المذكور على:

«تعجيل مبلغ مائة ألف دينار، وحمل الباقي بعد ذلك مع القطيعة المُقَرّرة كل سنة، وزيادة عشرة آلاف دينار، وعشرة آلاف إردب غلة على ما يَقْتَرح (الملك) من أصْنَافها».

ثم أرسل الخليفة القاضي الفاضِل، نائب كاتب الدَّسْتِ [3] ابن الخلال الذي كان مريضاً، إلى الكامل بن شاور لاستشارته في الاتفاق الذي تمّ التوصل إليه، فأبلغ الرسالة، فقال الكامل:

«قبل الأرض عني لمولانا، وقل له عن مملوكه: إن وَعَدَ المُشْتَري وصَبَرَ البائع فليست بغَالِية، وبين قيل وقال يتصَرّم الوقت» [4].

وفي هذا القول موافقة الكامل نيابة عن شاور، ومماطلة حَتّى يَتم وصُول قُوّة شيركوه.

وبدأ شاور في جمع المال فلم يجد في أحد خبايا القصر سوى 200 ألف دينار، أرسل منها مبلغ مئة ألف مع داعي الدعاة إلى عموري، ثم شرع في جمع

---

(1) **الروضتين**، 1 ص 171.

(2) قال أن المبلغ المقترح كان كبيراً إلى درجة أنه كان «يساوي كل إمكانات المملكة»، وكل هذا المبلغ من أجل الانسحاب وإطلاق سراح إبنيه.

(3) كاتب الدّست. الكاتب الأول في الدولة.

(4) **إتعاظ**، 3 ص 298.

المال من أهل القاهرة «فلم يتَحصّل إلاّ القليل». في هذا الوقت قال عمارة اليمني [1]:

يا ربّ إني أرى مصر قد انتبهت — لها عيون الأعادي بعد رَقْدَتها
فاجعل بها مِلّة الإسلام باقِيَة — واحْرُس عُيون الهدى من حل عُقْدتها
وهب لنا منك عوناً نَسْتَجير به — من فِتْنَةٍ يتلَظّى جَمْر وَقْدَتها

ولمّا وصل شيركوه إلى منزلة صَدْر على الطريق إلى القاهرة، استغل شمس الخلافة، بالاتفاق مع شاور، الوضع، فتوجه إلى معسكر الملك طالباً تخفيف المبلغ من مليوني دينار إلى مليون واحد، ووافق الملك على ذلك، فقال شمس الخلافة:

«ما بلغني أنّ ملكاً وهب مثل هذا لقوم هم في مثل حالنا. فقال مري (عموري): أنا أعلم أنك رجل عاقل، وأن شاوراً ملكٌ، وإنكما ما سألتماني أن أهب لكما هذا المال العظيم إلاّ لأمر قد حدث. فقال: صدقت، هذا أَسَد الدين قَدْ وَصَل إلى صَدْر نُصْرَة لنا، وما بقي لك مقام، وشاور يقول لك: أرى أَن ترحل، ونحن باقون على الهدنة، فإنه أوفق لنا ولك. وإذا حَصَل هذا الرجل عندنا أرْضَيناه من هذه (المليون)... بشيء، وحملنا الباقي لك متى قدرنا، وإن نحن أخرجنا في رضاهم أكثر من هذا المال عدنا عليك بما يبقى من المقدار. فقال مري: أنا راضٍ بذلك...»[2].

وفي أثناء فترة جمع الأموال هذه، وصلت الأخبار في أول ربيع الآخر [4 شباط 1168] بوصول قوات أسد الدين إلى مصر [2].

كان أسد الدين شيركوه قد جمع العساكر وتوجه إلى مَرْكَز التَجَمّع على الفَوَّار (المزيريب على الأغلب)، في طرف بلاد حوران على الطريق إلى مصر،

(1) النكت العصرية.
(2) إتعاظ، 3 ص 299 - 300.

وانتظر هناك حتى قَدِم نور الدين. وتَمّ بعد ذلك عَرْض القوات، فكانت خمسة آلاف فارس جمعها أسد الدين، وأضاف إليها نور الدين ألفي فارس من عسكره بقيادة عدد من الأمراء الكبار مثل عز الدين جرديك وغرس الدين قلج وشرف الدين بُزْغَشَ وعين الدولة الياروقي (من أمراء خواصه). وفي منتصف ربيع الأول [18 كانون الثاني] سارت القوات إلى مصر، وأقام نور الدين برأس الماء في انتظار وصول الأخبار بالتطورات حَتّى يطمئن على قواته والمهام التي كُلِّفت بها:

«فوصل المبشر برحيل الفرنج من القاهرة عند وصول خبر العسكر، فسَيَّرنا كتب البشائر بالفتح والظفر» [(1)].

وفعلاً عندما وصل الخبر [4 كانون الأول 1169] إلى القاهرة، رحل عموري والإفرنج بعد يومين «ومعهم 12 ألف من الأسرى ما بين رجل وصبي وامرأة، فنزلوا على بلبيس» [(2)]. وهنا وضَعَ عموري قُوّة من الخيالة والرجّالة لحراسة المدينة والأسرى والأثقال وتزود بالمؤن وتوجّه على رأس بقية القوات لاعتراض أسد الدين وقُوّاته. وبعد أن سار بحثاً في التيه مسافة وصله الخبر بعبور شيركوه نهر النيل بكامل قواته، ممّا أدى إلى تغيير خططه فاستبعد الحرب مع شيركوه أو عقد اتفاق وعاد إلى بلبيس [(3)]. وفي 2 كانون الثاني 1170 م عاد الملك وكل قُوّاته إلى فلسطين.

وعندما اقترب شيركوه من القاهرة، خرج شاور إلى لقائه، واقترح عليه أن يلحق بقوات عموري، لكن أسد الدين رَفض ذلك واعتذر، بحق، بحالة التعب من السير المتواصل مُدّة تزيد على أسبوعين. ونزل أسد الدين في ضواحي القاهرة في 7 ربيع الآخر [8 كانون الثاني 1169]. وبعد يومين قابل الخليفة العاضد، ثم عاد إلى مخيمه:

---

(1) **سنا**، 1 ص 76.

(2) **إتعاظ**، 3 ص 299؛ وليم، **تاريخ**، 2 ص 356.

(3) وليم، **تاريخ**، 2 ص 356.

«وقد فرح النّاس بقدومه، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكبيرة والإقامات الوافرة» [1].

وأمنت البلاد، وعاد الناس إلى بيوتهم وأخذوا في إصلاح ما أخربه الفرنج، «وتقاطر الناس إلى خدمة أسد الدين فتلقّاهم بالرحْب والسعة، وأحسن إليهم» [2].

كانت الفترة بين وصول أسد الدين إلى القاهرة ومقتل شاور عشرة أيام [قتل 17 ربيع الآخر/ 18 كانون الثاني 1169] أمضى أسد الدين اليومين الأولين في الراحة والاستعداد لمقابلة الخليفة العاضد. وتَمّ اللقاء بينهما يوم الجمعة ـ يوم الراحة الأسبوعيّة للعمل وللناس وصلاة الجماعة ـ، ولا نعرف شيئاً عمّا جَرَى في الاجتماع، وما الكلام الذي حمله أسد الدين من نور الدين إلى الخليفة الذي استغاث به. فماذا جَرى في فترة الأسبوع الطويل الممتد من صباح السبت 10 ربيع الآخر [11 كانون الأول] وحتى السبت 17 منه [18 كانون الأول]. في تقديري أن الأساس الذي استندت إليه هذه التطورات كان الرسائل التي تبادلها الفرقاء المتعدّدون في القاهرة مع نور الدين، **والالتزامات التي قطعوها على أنفسهم** للملك العادل مقابل إرسال هذه القُوّة، **والشروط التي اقترحوها عليه مقابل ذلك**؛ فكانت التطورات السريعة في المُدّة القصيرة، **والتي شَكّلَت تحولاً جذرياً في تاريخ مصر للقرون التالية، إذ كانت بداية حكم الأتراك في ظل الأيوبيين، ثم المماليك، ثم العثمانيين.**

كان شاور يُريد البقاء في الوزارة والحكم لكنّ فترة السنوات الخمس تقريباً التي مضت منذ بداية وزارته الأولى، وما جرى فيها من أحداث حَرَمَتْه من كل الوسائل التي تمكنه من الاستمرار، فلم يَعُدْ هنالك قُوّة عسكرية يعتمد عليها، ولا نصحاء يخلصون المشورة، ولا مؤسسة الخلافة ورجالها المقربين

(1) إتعاظ، 2 ص 300.
(2) الروضتين، 1 ص 171.

مثل داعي الدعاة وقاضي القضاة وكبير الخدم في القصر. وحتى المُقَرّبين له، مثل ابنه الكامل وشمس الخلافة، كانوا يخالفونه وإن كانوا يحالون إصلاح ما كان من تمسكه بالسلطة. ومن هنا صار يحلم بنهايته ونهاية الدولة التي كانت أساس نعمته على يديه.

وحاول شاور حتى النهاية البقاء في السلطة بأسلوب مناوراته المعهـود وهو اللعب بورقة الصليبيين والأتراك، وتخويف كل واحد منهما من الآخر، لأن سيطرة إحدى القوتين على مصر يعني نهاية القوة الأخرى، وفي هذا التصَوّر شيء كثير من الصِحّة إذا كانت الفئات الأخرى في مصر تدعمه في مثل هذا الموقف. من ناحية أخرى فإنّ خزائن الدولة كادت أن تُفرغ، وارتهنت مواردها لسنوات قادمة. أما عامة الناس فقد كانوا ضِدّه وكارهين لحكمه؛ فالذي كان يهمهم هو الأمن والاستقرار والاطمئنان على حياتهم ومعايشهم اليوميّة في ظل دولة تؤمن ذلك، وتُؤمن حداً أدنى من العدل في التعامل معهم.

وكانت محاولة شاور الإبقاء على سلطته تتمثل في اقتراحه ملاحقة الصليبيين مع شيركوه كسباً للوقت ولإضعاف القوتين. أما ما يذكر عن عمل دعوة كبيرة يدعى إليها أسد الدين وكبار أمراء جنده والقبض عليهم واستخدام من معهم من الجُنْد «فيمنع بهم البلاد من الفرنج»، فكان تفكير يائسٍ لا يستند إلى معرفة علاقة المملوك بسيّده عند الأتراك، وهي علاق ولاءٍ وثيقة جداً. فالأمراء شديدو الولاء لنور الدين، وكذلك الجند لأمرائهم: وجند بدون أمراء يشبهون رجال قبيلته أو أكثر سوءاً. وحتى هذه الفكرة، إن صحّت، وُوجهت بمعارضة شديدة من ابنه الكامل الذي كان من عقلاء رجاله. وعندما عرض شاور الفكرة على ابنة قال الأخير:

«والله لئن عزمت على هذا لأُعَرِّفَنّ شيركوه، فقال له أبوه: والله لو لم نفعل لنقتلَنّ جميعاً. فقال [الابن]: صدقت، لئن نقتلن ونحن مسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فإنه ليس بينك وبين عود الفرنج إلاّ بأن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذٍ لو مشى العاضد لنور الدين

لم يرسل معه فارساً واحداً، ويملكون البلاد» [1] .

وتفكير الوالد تفكير قبلي يتمَسّك بما له من سلطة بكل وسيلة ممكنة، وتفكير الابن تفكير إنسان مستقرٍ خبر الأمور وقَدّم مصلحة الإسلام والمسلمين على مصلحة عائلته وقبيلته بالرغم من رغبته في بقاء السلطة بيد أحد أفراد عائلته. وفي هذا كان تفكيره يتفق وتفكير الخليفة العاضد فيما ذكرناه سابقاً.

وأمّا شمس الخلافة فكان سياسياً محنكاً، وكان له طموحاته في الوصول إلى الوزارة، لكن مرتبته في التسلسل الهرمي لا تسمح له، في فترة الأيام السبعة، بالقيام بأي حركة. وانتهت مهمّته مؤقتاً بمغادرة الصليبيين البلاد واختفى ذكر اسمه من الأحداث، ودخل بعد ذلك في خدمة صلاح الدين، وولاه تورانشاه قُوص عندما أقطعه أخوه صلاح الدين هذه المدينة إضافة إلى أسوان وعيذاب [2] .

وكان هَم الخليفة العاضد الأول وكبار مستشاريه بقاء مصر تحت سلطة الإسلام والمسلمين؛ ويلي ذلك بقاء دولته ودعوتها ـ بالرغم من تراجعها ـ، والتخلص نهائياً من شاور وكل ما تُمَثله وزارة التفويض وحكم الأمراء الوزراء على طريقة الحكم في مصر خلال القرن السابق، والذي أوصل الدولة إلى ما أوصلها إليه. فكيف يمكن تحقيق ذلك في كُلّ الظروف التي ذكرنا؟ كان الخليفة مستعداً للقضاء على آخر أولوياته، ويرغب في استمرار الوسطى منها، لكنّه بالتأكيد لا يمكنه التخلي عن الأولى مهما كان الثمن.

وإذا كُنّا لا نعرف محتويات الرسائل التي تبادلها الخليفة الفاطمي مع نور الدين محمود، فإن الإشارات التي ذكرنا، والتطورات تدفع إلى التقدير بأنها تركزت على التخلص من شاور، وأن يتولي شيركوه الوزارة بالرغم من قلة خبرته الإدارية المدنية (أو صلاح الدين الذي يجمع بين الخبرة الإدارية

(1) ابن أبي طيء، الروضتين، 1 ص ؛ابن الفرات، تاريخ، 4 ص 29 - 30.
(2) ابن الفرات، تاريخ، 4 ص 92.

والعسكريّة)، وحماية الأتراك للدولة من الصليبيين، والإبقاء، على الدولة والبيت كرمز في ضوء الخطر الصليبي. وهنا يمكن التساؤل: لماذا إصرار نور الدين على إرسال صلاح الدين مع الحملة بالرغم من عدم رغبته بالذهاب وإصراره على ذلك، ووجود عِدة أمراء كبار ومتمرّسين في القُوّة الكبيرة التي قادها عمه، وصِغَر سنّه بالقياس إلى هؤلاء الأمراء، وفي ظروف المواجهة مع الصليبيين في الشام؟ وهل كان ذلك لكي **يكون الأمير الشاب والقدير السَّاعِدَ الإداري والسياسي لعمه**، الأمير الكبير والعسكري القدير ـ حتى تستقر الأمور، ثم تفتح الجبهة ضد الصليبيين من جهتيها الشماليّة والجنوبيّة؟ وأيضاً، ما مَوْقع أَمْرِ الخلافة العبّاسيّة بولاية نور الدين للساحل ومصر بعد استعادتهما؟ الأمْرُ يبقى ما بقيت الخلافة العباسيّة ونور الدين حيّاً يستمد شرعيّة حكمه منها.

وفي ضوء ما تقدم سأحاول متابعة التطورات من مقتل شاور 17 ربيع الآخر سنة 564/ 18 كانون الثاني 1169 م.

كان شيركوه يخيّم خارج أسوار القاهرة في اللُّوق، وشاور في دار الوزارة، والعاضد في القصر. وكان الأول بين قواته والثاني في المدينة التي كان أكثر أهلها «الجند وأهل الدولة واتباعهم»[1]، والثالث في قصره الحصين بين خدمه وحاشيته وسودانه وأخلص خُلَصَائِه. شيركوه مقيم في معسكره ينتظر ولم يدخل القاهرة إلاّ بعد مقتل شاور؛ وشاور يتردد على شيركوه يومياً ويتوَدّد إليه: «وتَجَدَّدَ بينهما من الوداد ما تأكد». ولم يعجب هذا الأمر صلاح الدين، وينسب إليه القول:

«هذا أمْرٌ يطُول، ومسألة فَرضُها يَعُول [يَجُور ويميل] [كثرة العِيال وما يحتاجون]/ ومعنا هذا العكسر الثقيل، ولا استيلاء [أمرٌ لنا] مع استيلاء شاور، لا سيما إذا راوغ وغادر»[2].

---

(1) اتعاظ، 3 ص 299.

(2) سنا، 1 ص 88 - 78. وترد رواية أخرى تذكر أن العاضد خرج من قصره سراً إلى شيركوه وطلب منه مقتل شاور.

وأدرك أسد الدين تَذَمّر الأمراء في العسكر من مماطلة شاور، وعدم تنفيذ المتفق عليه، فأرسل الفقيه عيسى الهكاري إلى شاور يحذِّر من عسكره والأمراء: «أخشى عليك ممّن معي من الناس». لكنّ شاور لم يكترث بهذا التحذير وركب كعادته في كل يوم «إلى شيركوه ومعه البوق والطبل» في موكب رسمي. فلمّا وصل إلى المخيّم تلقّاه صلاح الدين وعز الدين جرديك وبزغش من كبار أمراء نور الدين، ومعهم جماعتهم، وأخبروه أن شيركوه قد ذهب لزيارة قَبر الشافعي، وسار برغبته وإياهم للّحاق به، وفي الطريق قبضوا عليه وتفرق أصحابه عنه:

«فاعترضَه صلاح الدين في الأمراء النوريّة، فبغتَه وشَحَته، وقَبَضَه وأثبته، وَوَكّل به في خيمة وحَاوَل امهاله»[1] ، فأرسلوا إلى شيركوه فجاء إلى المعسكر. وعرف بذلك الخليفة العاضِد. فأرسل أحد خدام القصر الكبار إلى أسد الدين ليخبره: « هذا غلامنا، ولا خير فيه لك ولا لنا، فأَمْضِ حكم الله فيه»[2] .

ويكمل العماد: «فجاء من القصر من يطلب رأسه جاء الرسول بعد الرسول، وأبوا أن يرجعوا إلاّ أن ينجح السؤل، فحُمّ حِمامُه، وحُمِل إلى القصر هامه»[3] .

وعندما قُتِلَ شاور، وحملت رأسه إلى الخليفة العاضد، هرب الكامل، هو وأبناء أخيه، إلى قصْر الخليفة، فقتلوا فيه، وتأسّف شيركوه على مقتله[4] .

وفي يوم 19 ربيع الآخر، أي بعد يومين من مقتل شاور، دخل أسد الدين إلى القاهرة للقاء الخليفة، فوجَد المدينة تَعجُّ بالناس، فخاف، ثم أعلن للناس: «إن أمير المؤمنين أمركم بنَهْبِ دار شاور...» فتفرقوا طلباً للنهب، فَسَار هو إلى القصر، واجتمع بالعاضد، فخلع عليه خلعة الوزارة، وكتب القاضي الفاضل

(1) المصدر نفسه، ص 78.
(2) إتعاظ، 3 ص 310.
(3) سنا، 1 ص 78.
(4) المصدر ذاته.

كتاب التعيين. وكتب الخليفة بخطّه في أعلى الكتاب:

«هذا عَهْدٌ لا عَهْدَ لوزير بمثله، وتقليد طوق أمانة رآك الله وأمير المؤمنين أهلاً بحمله؛ والحجّة عليك بما أوضحه لك من مراشد سُبُله؛ فَخُذ كتاب أمير المؤمنين بقوّة، واسحب ذيل الفخار بأن خدمتك اعتزَت بأن اعتزَت إلى بُنُوّة النّبُوّة؛ واتخذ أمير المؤمنين للفوز سبيلاً، ﴿ولا تنقُضُوا الأَيْمانَ بعد تَوكِيدها وقد جَعلتُمُ الله عليكم كفيلا[1]﴾»[2]

وقرأ قاضي القضاة الكتاب على رءوس الأشهاد، وبدأت وزارة أسد الدين شيركوه في مصر، وكتب القاضي الفاضل كتاباً عن العاضد إلى نور الدين يطلب منه «بأن يُقِرّ شيركوه عنده، وأنّه فَوّض إليه الوزارة وأمر الجيوش، تاريخه سابع عشري (27) ربيع الآخر [28 كانون الثاني 1169]، وكتب العاضد علامته بين سطريه الأولين بخطّه «الله رَبّي، فعاد الجواب» بالموافقة[3].

وتَوَثقت العلاقة بين الخليفة العاضد والوزير شيركوه، واطمأن الناس، وعاد أهل مدينة مصر إليها شيئاً فشيئاً، وأقَرّ ابن عبد القوي ـ قاضي القضاة وداعي الدعاة ـ على حاله ثُمّ:

«واستبد شيركوه بأمور المملكة، وغَلَبَ على الدَوْلَة، واستَعْملَ أصحَابه وثقَاته على الأعمال، وأقطع البلاد لعساكره».

ومع كل هذه السلطة فإن شيركوه **العسكري المحترف**، لأكثر من أربعة عقود، سئم من كثرة المعاملات التي تحتاج إلى توقيعه، وجلوسه الطويل لإدارة شؤون الدولة ـ فمجلسه ظهر حصانه ـ فعَلّق مَرّة على عمله الجديد: **«أظُنّ مولانا استخدمني كاتباً»**. وهنا جاء دور الرجل الذي يجمع بين الأمرين: **الإدارة والسياسة، وقيادة العساكر عند الحاجة، الأمير صلاح الدين فوَلّاه الإدارة في المملكة كلها:**

(1) سورة النحل، الآية 91.
(2) إتعاظ، 3 ص 302؛ سنا، 1 ص 79 - 80.
(3) إتعاظ، 3 ص 303.

«وتولّى التدبير عنه ابن أخيه صلاح الدين، وقام بمباشرتها، فَصَار إليه الأمر والنهي حتى مات أسد الدين، بعد أن استَقَر في الوزارة ثلاثة وستين يوماً» [1].

وتوفي أسد الدين يوم الأحد 23 جمادى الآخرة 564 هـ/ 23 آذار 1169 م.

بوفاة أسد الدين شيركوه، نشأت مشكلة جديدة لم تكن متوقّعة، ولكنّها حُلّت خلال ثلاثة أيام العزاء بما فيها يوم الوفاة، إذ خُلِع على صلاح الدين «خلع الوزارة. . . يوم الثلاثاء. . . . [25] من جمادى الآخرة» [25 آذار 1169] ولقبه الخليفة العاضد بالملك الناصر، الذي اشتهر به بعد ذلك. فكيف تَمّ التوصل إلى تعيين صلاح الدين قي منصب الوزارة؟.

كان هنالك جماعتان ستُقَرران من يتولى الوزارة مكان شيركوه. فمن ناحية رسميّة، كان الخليفة الفاطمي هو الذي يعين «وزيره»، ربما بناءً على استشارة رجال القصر، وهناك كبار أمراء عسكر نور الدين إذ أن الأمر كان يتطلّب حسم الأمر بسرعة حتى لا يعود الفساد والإضطراب من جديد ولمّا يخمد بعد، ولذلك فليس من الممكن الانتظار حتى يُبْعَثَ برُسُلٍ إلى نور الدين لأخذ رأيه من قبل الخليفة أو الأمراء الأتراك في القاهرة.

وافترق أهل القصر وحواشي الخليفة، كما يذكر المقريزي، إلى فرقتين: الأولى بقيادة صنيعة الملك مؤتمن الخلافة جوهر، كبير الاستاذين في القَصْر والمتحكم فيه، والثانية لا نعرف من كان يقودها. وكان رأي الفرقة الأولى أن لا يُعَين الخليفة وزيراً، وإنما:

«. . . مات أسد الدين المهدد به في الشرق والغرب، ولم يحدث إلاّ خير، ومن الرأي أن نُمْسِك مخلَّفته[2]، ونضيف إليها من جياد فرسان الغَزّ ما تكون جملته ثلاثة آلاف فارس، ونُقَدّم عليها بهاء الدين قَراقُوش،

(1) المصدر نفسه، ص 304.

(2) المماليك الذين تركهم وراءه.

ونتزله بالشرقيّة، ونجعلها بأجمعها إقطاعاً لهم يسكنون بها، فيصرون بيننا وبين الفرنج الذين طمعوا في البلاد، يقاتلون عن حَرَمِهم وإقطاعاتهم. ويُرَتب مولانا [الخليفة] من أجناد الديار المصريّة من ينتفع به، ولا يقيم وزيراً تَثْقُل وطأته، ويشارك الخليفة في أمره، بل يجعل صاحب وساطة بين الناس والخليفة»[1].

وكان رأي الفرقة الثانية:

«إلا وحق الله، ما يكون وزير مولانا إلّا ابن أخي وزيره، الذي هو منه وإليه... (صلاح الدين)؛ وإذا بقي المذكور أقَام معه قَرَاقُوش وغيره من المعتبرين» [2].

وربما كان هذا الحزب (الفرقة) هو المعارض لهيمنة مؤتمن الخلافة على القصر، وممن أُنْصفوا بعض الشيء خلال الشهرين السابقين. ويبدو أن هذا الرأي هو الذي أخذ به الخليفة فأخبر أصحاب قَصْره: «والله إني لأستحي من تسريح صلاح الدين [وكان الوزير الفعلي]، وما بَلَغْتُ غَرَضاً في حقه لقرب مقام عَمّه»، إضافة إلى دوره في مقتل شاور، وعقله وسداد رأيه وشجاعته[3].

وحَدَث انقسام بين الأمراء في عسكر نور الدين، وكانوا جميعاً من الأمراء الكبار ولديهم من المماليك التابعين لهم من العسكر، فوقف المماليك الأسدية ـ أكبر مجموعة من بينهم إلى جانب صلاح الدين «وتحدثوا بأن أسد الدين أوصى إليه»؛ أمّا بقيّة الأمراء، مثل الأمير شهاب الدين محمود بن تكش، خال صلاح الدين، والأمير عين الدولة ياروق الياروقي وأخاه الأمير بهاء الدولة ـ من كبار أمراء التركمان الياروقية ـ والأمير قطب الدين خسروا بن تليل، والأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري (المشطوب) ـ أخو الفقيه عيسى ـ، فكل طلب الأمر لنفسه[2]. فالكبير في التراث التركي هو المُقدم، وكلهم كانوا

(1) إتعاظ، 3 ص 307 - 308.

(2) المصدر نفسه، ص 308.

(3) الروضتين 1 ص 173.

من الكبار، لكنهم جميعاً كانوا رجال حرب وقتال وليس رجال إدارة وسياسة.

ووقع الخلاف بينهم، ولم يتوصّلوا إلى اتفاق[1]. وبينما هم في هذه الحال وَصَل رَسُول من العاضد إلى الأمراء:

«وسأل عمّن يصلح للوزارة، فأُرشد من جماعة من الأمراء إلى شهاب الدين محمود الحارمي... فأَنْفَذَ [العاضد] إليه وأحضره، وخاطبه في تولي الوزارة، فامتنع من ذلك، وأشار بولاية الملك الناصر - وكان الحارمي أولاً قد رغب في الوزارة وتَحَدَث فيها، وحَصّل ما يحتاجه [هل يعني موافقة الأمراء النورية]، فلمّا رأى مزاحمة يَارُوق وغيره عليها، خاف أن يشتغل بطلبها فيفوته، وربّما فَاتَتْ صلاح الدين، فأشار به، لأنها إذا كانت في ابن أخته كانت في بيته...»[2].

وأمّا العماد فيذكر أن الأمراء النورية اجتمعوا على «يد واحدة، وأيد متساعدة، وعقدوا لصلاح الدين، وقالوا: هذا مقام عمه [رأي الأسدية] والزموا صاحب القصر بتوليته...»[3] [وهو أمرٌ بعيد عن قواعد السياسة آنذاك] واستقر رأي العاضد على تولية صلاح الدين وزارته، «وما خرج شهاب الدين محمود من حضرة العاضد إلاّ وخلع الوزارة قَدْ سبقت إلى الملك الناصر»[4].

وتكونت خلعة الوزارة من: عمامة بيضاء تَنَسِيّ بطراز ذهب، وثوب دَبِيقي في طرازي ذهب، وجُبّة تحتها سقلاطون بطرازي ذهب، وطيلسان دبيقي بطراز دقيق، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار، وسيف محلي مجوهر قيمته 5 آلاف دينار؛ وفَرس حجر صفراء [اللون شعاره فيما بعد] من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار لم يكن في الديار المصرية أسبق منها، وطوق وتخت

(1) سنا، 1 ص 81.
(2) ابن أبي طيء، الروضتين، 1 ص 173.
(3) سنا، 1 ص 81.
(4) المصدر نفسه ص 173.

وسرفَسَار ذهب مجوهر، وفي رقبة الحجر مشدّة بيضاء وفي رأسها مائتا حبّة جوهر، وفي أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر وقصبة ذهب في رأسها طالعة مجوهرة، وفي رأسها مشدّة بيضاء بأعلام ذهب.

ومع الخلعة عِدّة بقج وعدة من الخيل وأشياء أخر»[1].

وكتب القاضي الفاضل، «منشور»[1أ] الوزارة، وأرسل مع الخلعة إلى الأمير يوسف بن نجم الدين أيوب، وكُتِب على رأسه بخط العاضد:

«هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحُجّته عند الله سبحانه عليك، فأَوفِ بعهدك ويمينك، وخذ كتاب أمير المؤمنين ناهضاً بيمينك، ولمن مضى بجدنا رسول الله أحسن أسوة، ولمن بقي (بقربنا) أعظم أسوة، تلك الدار الآخرة نجعَلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين[2] »[3]، ولقبه صلاح الدين.

ونزل صلاح الدين يوسف إلى دار الوزارة لمباشرة مهامِّه، ورفض أمراء نور الدين محمود طاعته وخدمته، فتوسّط الفقيه عيسى الهكاري فاستجاب جميع الأمراء إلاّ عين الدولة اليارقوي الذي أجاب: «لا أخدم يوسف أبداً»، وخرج من القاهرة بجماعته وسار إلى نور الدين في الشام[4].

وفي وزارة صلاح الدين خرج الخليفة العاضد من عُزلَتِه التي فَرَضها عليه المتسلطون في السابق، فركب في أول رمضان مع وزيره في البلد، وحمل العادل أبو بكر بن نجم الدين أيوب السيف أمامه، «ثم ركب أيضاً جمعتين إلى الجامع الأزهر والجامع الأنور [جامع الحاكم]، ورَكب في عيد الفطر»[5].

---

(1) الروضتين، 1 ص 173.

(1 أ) يلاحظ تغيير المصطلح من تقليد الذي كان مستعملاً في السابق، إلى «منشور» الذي كان يستعمله أصحاب الدواوين في الممالك التركية في تلك الفترة.

(2) سورة القصص، اية، 83.

(3) إتعاظ، 3 ص 309.

(4) إتعاظ، 3 ص 309 - 310.

(5) المصدر نفسه، ص 310.

وصارت الخطبة في جميع البلاد المصرية، وهي إحدى رمُوز السيادة الأساسيّة (إضافة إلى السكة)، للخليفة العاضد ومن بعده لنور الدين، وبذلك صار نور الدين يتبع لخليفتين في منطقتين من بلاد المسلمين: الخليفة العباسي، وهو الأصل الذي يمنحه الشرعيّة ويَخْطُبُ له في بلاد الشام والجزيرة الفراتية، والخليفة الفاطمي في مصر على أساس «إمارة الاستيلاء» المعروفة في الشرق وتقاليد مصر: ذكر اسم الوزير ـ الأمير بعد اسم الخليفة. ومثل هذا أمرٌ شاذ، فالخلافة الفاطميّة لها مذهبها الإسماعيلي الخاص، والعباسيّة الممثل الشرعي لأهل السُنّة والجماعة؛ والخلافتان لا تعترفان ببعضهما البعض من بداية تأسيس الخلافة الفاطمية، ونور الدين مأمُورٌ منذ دخول دمشق وبلادها تحت سيادته، بالقضاء على الخلافة الفاطمية والإمارات الصليبيّة. فكيف يمكن التوفيق بين كُلّ هذه المتناقضات؟ هذا ما ستحاول هذه الدراسة الإجابة عليه في الفصل التالي، أما الآن فإن ما سيختم به هذا الفصل فهو ردّة الفعل الصليبي على هذه التطورات التي أدّت إلى ارتباط عسكري وثيق بين القاهرة ودمشق، والتي عَبّر عنها المؤرخ المعاصر وليم الصوري:

«كل موارد مصر وثَرَواتِها الهائلة كانت مُسَخّرة لصالحنا، وحدود مملكتنا كانت آمنة من هذه الجهة، ولم يكن هنالك من عدو نخشاه من الجنوب. وكان البحر يُوَفّر ممراً آمناً (يسوده) السلام للذين يرغبون في القدوم إلى بلادنا. وكان الناس في هذه البلاد والأقاليم يستطيعون دخول الأراضي المصريّة دون خوف، والقيام بالتجارة فيها بشروَط لصالحنا. ومن جهتهم، كان [التجار] المصريون يجلبون إلى مملكتنا غنىً وبضائع غريبة غير معروفة لنا. وإضافة إلى ذلك، فإن المبالغ الكبيرة التي كانوا ينفقونها في بلادنا كل سنة كانت تثري خزينة المال العام وتزيد ثراء الأفراد أيضاً. وعلى العكس من ذلك صار الوضع الآن، فقد تَغَير كل شيء إلى الأسوأ. . .».

«. . . وحيثما أتوجه الآن، لا أجد إلاّ أسباباً للخوف وعدم الاطمئنان. فالبحر يرفض أن يمنحنا مروراً سالماً، فكل البلاد حولنا

تخضع للعَدُوّ، والممالك المجاورة تستعد للقضاء علينا. . . »[1].

ويعلق أيضاً في مكان آخر بعدما تقدم:

«. . . وبدأ العقلاء من رجال المملكة التحقق بأن سيطرة الأتراك على مصر كان ضربة قاسية لنا، وأنّ أوضاعنا من الناحية الماديّة صارت أسوأ. وصار باستطاعة نور الدين، عدونا الأكبر قُوّة، بإرسال إسطوله الكبير من مصر أن يُطَوّق مملكتنا بفعاليّة، ويحاصر كل المدن الساحلية من البحر والبر بجيشه. أمّا الأمر الأكثر رُعْباً لنا فهو أنه يستطيع حقيقة إيقاف مرور الحجاج في طريقهم إلينا وحتى رفض إعطائهم الإذن بالمرور كليّة»[2].

(1) تاريخ، 2 ص 358.
(2) المصدر نفسه، ص 359 - 360.

6 مؤامرات وغزوات

«هذا كُلّه مما تقتضيه الطباع البشرية، والجبلة الآدميّة، وقد أجرى الله سبحانه وتعالى العادة بذلك، إلاّ من عَصَم الله. ومَنْ أنْصَف عَذَر، ومن عَرَف صَبَر، والذي أنكره نُور الدين هو إسراف صلاح الدين في تَفْرِقة الأموال، واستبداده بذلك من غير مشاورته». أبو شامة، الروضتين، 173 - 174 ص.

بين عيد الفطر وبداية ذو القعدة شهران بالتمام. ومَرّت هذه الفترة دون أحداث تذكر في المصادر. فكيف كان وضع السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف، صاحب الوزارة في مصر التي مضى عليها حتى ذلك الوقت أكثر من أربعة أشهر بأيام؟.

اعتمد أسد الدين على القُوّة العسكرية الكبيرة التي جاء على رأسها في السيطرة على الحكم في مصر، لكن ماذا كان لدى صلاح الدين من هذه القوة؟ فالتركمان وكبار أمراء نور الدين الذين شاركوا في الحملة الثالثة غادروا إلى الشام: التركمان بسبب موقف زعيمهم من صلاح الدين، وكبار الأمراء بسبب حاجة نور الدين إليهم في الشام، ولم يبق مع الوزير سوى الأمراء الاسَدَيّة و 500 مملوك يقودهم بنفسه، وبقي معهم أيضاً قُوّاته الصغيرة التي لم تكن تكفي إلاّ لحمايته، وربما كانت في معظمها من الأكراد: خاله شهاب الدين الحارمي وقطب الدين خسرو بن تليل، وسيف الدين الهكاري، والفقيه عيسى وربما أبو الهيجاء السمين. وإذا كُنّا لا نعرف حَجْم القوة التي كانت لديه، إلاّ أنها لم تكن

كافية لمواجهة التحديات الخارجيّة والداخلية الكبيرة. وطلب الوزير من نور الدين إرسال والده وإخوانه وما معهم من قُوّات، فَرفض نور الدين الموافقة على ذلك بداية خشية أنْ يفسدوا عليه الأمر: «أخاف أن يُخالف أَحَدٌ منهم عليك فتفسد البلاد». وهذا الخوف لم يكن وهمياً، فترَاث الأتراك (وأتباعهم الأكراد) مليء بالفساد الذي قام به الاخوة الكبار الذين لم يرثوا السلطة ضِدّ الصغار الذين تَولّوها. لكنْ صلاح الدين، كما يبدو، أصَرّ على إرسال قُوّة لدعم قُوّته، خاصة عندما قام مؤتمن الخلافة بحركته واتصاله بالصليبيين، واستعداد هؤلاء للهجوم على دمياط؛ فأرسل نور الدين إليه أخاه الأكبر تورانشاه ـ وربما غيره ـ وأوصاه: **«إن كنت تسير إلى مصر، وتنظر إلى أخيك على أنّه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تَسِرْ، فإنّك تُفْسِد البلاد، وأُحْضِرَك حينئذٍ وأعاقبك بما تستحقه، وإن كنت تنظُر إليه أنّه صاحب مصر وقائم فيها مقامي، وتخدمه بنفسك كما تخدمني فسر إليه، واشْدُدْ أزره، وساعده على ما هو بصدده»** فتوجّه توارنشاه إلى مصر وساعده في القضاء على فتنة مؤتمن الخلافة، كما أرسل إليه بَعْدُ أبناء أخيه شاهنشاه وشاركوا في حرب دمياط.

وفي فترة الشهر المذكور والذي تلاه كان على صلاح الدين اتخاذ قرارات إدارية صعبة أدت إلى بداية الفتنة والثورات ضِدّه، والتي استمرت حتى نهاية الدولة الفاطمية. كان عليه تهدئة عامة الناس واستمالتهم إلى إدارته الجديدة، وذلك يحتاج إلى المال، وكان عليه أن يؤمن الأمراء (والمماليك التابعين لهم) بالإقطاعات التي ترضيهم حتى يستطيع الاعتماد عليهم. فالقُوّة العسكريّة في ذلك الوقت كانت تعتمد على إقطاع حَقّ الدولة في الأرض (الخراج) إلى أمراء كان عليهم أن يزودوا الدولة بعدد مُحَدّد من المماليك والجند يتناسب وإنتاجيّة الأرض.

وتمكن صلاح الدين في الفترة القصيرة من استمالة الناس إلى جانبه: بتوفير الأمن والاستقرار ممّا مكّن الذين هربوا من العودة إلى مساكنهم في القاهرة وإلى مدينة مصر التي هجروها، وبسلوكه الشخصي وأعماله:

«**وساسَ الأُمور، وكاتَب الأطراف، وأقبل على الجد، وتاب عن الخمر، وأعْرَض عن اللهو**».

وساعد العاضد صلاح الدين في استمالة الناس إليه إذ لم يبخل عليه بالمال. فبعدما استنفد أموال خزائن عَمّه طلب المساعدة من الخليفة فأَمَدّه بالكثير من المال[1]. ولم يذهب هذا المال إلى جيبه الخاص، وإنما أنْفِق على الناس الذين أُفْقِروا نتيجة حصار القاهرة وحريق مصر والنهب والسلب الذي رافق ذلك.

وأما بالنسبة لجيشه، والذي عليه اعتماده، فلم يكن من مماليكه إذ لم يكن من كبار الأمراء عندما تولى الوزارة، وإنما كان يتكوّن من أمراء ومماليك عمه بقيادة قَراقوش الأسدي، وبعض الأمراء الذين ذكرنا. وولاء هؤلاء كان بالدرجة الأولى لأسيادهم. وحتى يستميلهم ويقربهم كان عليه أنْ يُقْطعهم الأراضي الغنيّة ذات المَرْدود المالي المجزي للإبقاء على ولائهم وطاعتهم وإخلاصهم عند الحاجة. لكنّ أراضي مصر كانت موزعة على جيوشها ورجال دولتها وحواشي الخليفة، فماذا يفعل؟.

الجيش الفاطمي آنذاك كان يتكون من خيّالة الوزير عادة ومن الرجَالة السودان والرّماة بالنشاب الأرمن (بقايا الأرمن من الفترات السابقة). (وكان الجيش يسكن القاهرة كما ذكرنا، فهي مدينة عسكرية يقطنها هؤلاء إضافة إلى قَصْر الخليفة ورجال الإدارة وحواشي القصر). أمّا الخيالة فقد قضي عليهم بالقضاء على شاور ومن قبله ضرغام ولم يبق منهم إلا القليل، والرجالة السُّودان عددهم كبير جداً ويسكنون القاهرة، ومنهم أعداد متفاوتة في كل مدينة وبلدة في مصر. يُذْكَرْ:

«. . . كانت البلاد كلها لا تخلو مدينة ولا مَحَلّة من أن يكون فيها مكان مُعَدٌ للعبيد، **محمي** لا يدخله والٍ ولا غيره، وكان منهم ضَرَرٌ على النَاس»[1].

---

(1) إتعاظ، 3 ص 314.

ورأس السودان في القَصْر وخارجه كان مؤتمن الخلافة جَوْهر الذي عرفنا موقفه من وزارة صلاح الدين وحكم الأتراك في السابق. أما بقايا الأرمن، الرُّماة الأشداء، فكانوا يسكنون داراً كبيرة تقع بين القصرين الشرقي والغربي. ولم يكن لأمراء صلاح الدين وجنده حتى ذلك الوقت سُكْنَى داخل أسوار القاهرة.

وكان من المتوقع أنْ يتضَرّر كبار رجال الدولة الفاطميّة والسودان من الإجراءات الإداريّة الضروريّة التي قَام بها صلاح الدين، ووجدوا أن امتيازاتهم الكبيرة تؤخذ منهم وتُعطى لرجال صلاح الدين بالتدريج، فكانت حركة مؤتمن الخلافة جَوهر الذي كان يستند إلى سودانه الكُثْر.

بدأ جوهر حركته بتأمين قُوّة خارجيّة تُساعده في القضاء على صلاح الدين والأتراك. والقوّة القريبة التي كانت تخشى سيطرة الأتراك على مصر كلياً كانت مملكة الصليبيين. وبعث جوهر بمكاتبة إلى الملك عموري والصليبيين:

«يستنجد بهم على الغُز، ويحثّهم على قَصْد البلاد، ليخرج إليهم صلاح الدين بعسكره، فيثور عند ذلك بصعيد مصر وطوائف العسكر، ويَصِير صلاح الدين محصوراً بين الفرنج وبينهم، فيأخذونه، ويُتْلِفُون [يقتلون] من معه» (1).

وقَبض رجال صلاح الدين على الرسول حامل كتب مؤتمن الخلافة إلى الصليبيين، وأحضر إلى ديوان صلاح الدين، فَعَرَف خطّة الثورة ومُدَبِّرها (2)، لكنّه عالج الوضع بسياسة وصبرٍ إذ لم يكن لديه بعد ما يكفي من القوّة العسكريّة ما يمكّنه من مواجهة حركة يشارك فيها رجال القصر وكل عناصر السودان؛ وتَصَرّف وكأنّه لم يعرف شيئاً عنها، لكنّه ـ كما يبدو ـ أرسل إلى نور الدين طالباً إمدادات كافية تمكنه من الصمود عند التحدي.

---

(1) إتعاظ، 3 ص 312.

(2) انظر عن الثورة: العماد، سنا، ١ ص 82 - 85؛ الروضتين، 1 ص 178 - 180؛ الكامل، 11 ص 345 - 347. وغيرهما من المصادر خاصة إتعاظ، 3 ص 311؛ تاريخ ابن الفرات، 4 ص 67 - 72، وهو أكثرها تفصيلاً وعنه يلخص المقريزي.

وعلم جوهر بالقبض على رَسُوله والكتب، فاحتاط وامتنع من الخروج من القصر مدة. وعندما لم يتخذ صلاح الدين قراراً ضِدّه اعتقد أنّه لن يتعرض له، فخرج إلى بستان له خارج الأسوار «فأرسل إليه صلاح الدين بجماعة من أصحابه هاجموه وقتلوه». وتَمّ ذلك في 25 ذي القعدة 564 هـ/ 20 آب 1169 م. وفي نفس اليوم عين الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي مكانه مُشْرفاً على قصور الخليفة. وفي اليوم التالي ثار السودان ومعهم بعض الأمراء الباقين والأرمن والعَوَامّ ضد صلاح الدين، فتجمعوا بين القصرين والخليفة يشاهد ذلك من وراء شرفة قصره. وقُدّر عددهم بعشرات الألوف. وركب صلاح الدين ودخل القاهرة لحماية دار الوزارة، وقَدّم أخاه تورانشاه للتصدي لهم. وفي البداية كانت الغلبة لهم، لحماسهم واعتقادهم أن العاضد كان إلى جانبهم، لكن عندما خرج أحد الخَوَاصّ إلى الشرفة، وخاطب تورانشاه:

«أمير المؤمنين يُسَلّم على شمس الدولة، ويقول: دونكم والعبيد الكلاب، أخرجوهم من بلادكم»(*).

فلمّا سمع السودان ذلك، ضعف أمرهم وأخذتهم السيوف. في هذه الأثناء أرسل صلاح الدين رجَالَه إلى حارة السودان، المعروفة بالمنصورة خارج باب زويلة فأحْرَقها، وأحرق تورانشاه الأماكن التي التجأوا إليها، كما أحرق دارَ الأرمن بين القصرين فاحترقت وهم بداخلها، فخرج السودان إلى الجيزة، فلحقهم تورانشاه فأبادهم «ولم ينج منهم إلاّ الشريد»؛ كما أمر صلاح الدين «بتخريب المنصورة وصَيَّرها بُسْتاناً». وكذا فقد «مضى العبيد وذهبت آثارهم من مصر»[1]. وأخذ الوزير دور العبيد والأرمن والأمراء الذين شاركوا في الثورة وأسْكَن فيها أصحابه مَعَه في القاهرة»[2].

(*) كان خروج تورانشاه من دمشق 10 شوال 564 هـ/ 8 تموز 1169 م، ووصل إلى القاهرة في 3 ذي القعدة/ 29 تموز منها، بعد سفر دام 23 يوماً من يوم خروجه.

(1) إتعاظ، 3 ص 313.

(2) المصدر نفسه، ص 314.

وهكذا تمكّن صلاح الدين، بمساعدة أخيه الأكبر، من القضاء في يوم واحد على القُوّة السودانية التي كانت متمركزة في القاهرة. لكن، وحتى يتمكن من القضاء على أي نفوذ لهم في المستقبل، أرسل خَالَه على رأس قُوة ليتتبع من فَرّ ومن كان متمركزاً هناك، فأنجز المهمة بنجاح، **«ولم يبق منهم بديار مصر إلاّ من فَرّ»**[1].

ولم يبق للخليفة الفاطمي أيةّ قُوّة عسكريّة خاصة به، وصار قَصْره تحت إشراف قراقوش رجل صلاح الدين، وكان مع الخليفة داعي دعاته وقاضي قُضاته وبعض رجال الدولة الآخرين.

وما كاد ينتهي صلاح الدين من مواجهة هذا التحدي الداخلي الخطير حتّى وصَلَته أخبار تَقَدّم الأسطول الصقلي في البحر والجيش الصليبي في البحر نَحْو دمياط، فكان عليه أن يُجَهّز جيشاً قوياً لمساعدتها قبل وصول المحاصرين لها:

منذ تولي أسد الدين الوزارة في مصر ازداد خوف الصليبيين من تطويق نور الدين لهم من الشمال والجنوب والشرق والبحر. وعندما تَوَلى صلاح الدين مكانه ازداد هذا الخوف كما وضّحنا فيما تقدم. ولذلك سارعوا إلى إرسال وفد إلى فريدريك، امبراطور الرومان الكبير وكل ملوكها وكونتاتها، طالبين إرسال القوات والأساطيل إلى سواحل مصر، فاستجاب الامبراطور بسرعة وأرسل أسطولاً كبيراً مكوناً من 150 سفينة حربيّة، وستين سفينة لنقل الخيول، وعشرين سفينة ضخمة تحمل المؤن والآلات الحربيّة الكبيرة. ووصل الأسطول إلى ميناء صور في أواخر شهر أيلول 1169 (أوائل محرم 565 هـ)، وانضمّ إليه قوات بيزنطيّة، وأمَرَ الملك عموري قُوّات الروم التي انضمت إليه بالتوجه إلى قاعدة التجمع في عسقلان بحيث تكون كل القوات هناك في 15 تشرين الأول. وفي ذات الوقت بدأ الأسطول الكبير يتوجه إلى المياه المصرية. وفي 16تشرين الأول تَحَرّك الجيش البري من عسقلان نحو حدود مصر[2].

---

(1) اتعاظ، 3 ص 313.

(2) وليم الصوري، تاريخ، 2 ص 359 وما بعدها.

وهكذا، فبعد أقل من شهرين من قضائه على الفتنة الداخليّة، وُجِّه صلاح الدين بحملة كبيرة، بريّة وبحرية، صليبيّة هدفت إلى القضاء على نفوذه قبل أن يتثبت بصورة مناسبة، وقبل أن يتمكّن من بناء جيش قوي يمكنه من التصدي لهذه الحملة. ومع ذلك فقد أَدَار القائد التجهيزات، وإعداد القُوّات، واختيار قيادتها، بكفاية عالية، كما أرسل إلى نور الدين في الشام يطلب المَدَد، وذكر في كتبه:

«أنّه لا يمكنه الخروج من القاهرة إلى لقاء الفرنج خوفاً من قيام المصريين عليه»[1].

وعندما وصلت كتب صلاح الدين إلى دمشق «اغْتَمّ نور الدين» لذلك، خاصة وأن بعض الصليبيين الذين لم يشاركوا في الحملة توجهوا إلى حصن عكار[2] واستولوا عليه من المملوك خُطْلُخ الذي كان يحميه[3]. ومع ذلك فقد «أمر الأمير قطب الدين خسرو الهذباني أن يسير بالعسكر. . .» القليل في خدمته إلى مصر، فوصلت إلى مقصدها قبل رحيل الفرنج عن دمياط بأسبوع[4]. وسار نور الدين نفسه إلى حدود الإمارات الصليبيّة المجاورة لإشغالهم.

وأما صلاح الدين فقد قَدّم ابن أخيه تقي الدين عمر على القوات التي جهّزها، وطلب منه الإسراع بالوصول إليها قبل الصليبيين ثم ألحقه بالأمير شهاب الدين الحارمي، وأرسل المال والأقوات في نهر النيل إليها. وتمكن الأميران من الوصول إلى دمياط قبل أن يبدأ الجيش والأسطول الصليبيان من الاقتراب كثيراً منها وتشديد الحِصَار عليها [أول صفر 565/ 25 تشرين الأول]. ويذكر الصوري:

«ليس هنالك من شك بأنّ تأخير هجومنا على دمياط بعد وصولنا

(1) إتعاظ، 3 ص 315.

(2) حصن عكار: حصن يشرف على السهل شمالي طرابلس ويتحكم بالطريق بين طرابلس وحمص.

(3) ابن الفرات، تاريخ، 4 ص 82 - 83.

(4) سنا، 1 ص 87.

مباشرة كان ناتجاً عن نوايا خبيثة. ففي ذلك الوقت كانت المدينة مهجُورة [من الجند] ولم يكن فيها سِوَى سكانها الذين كانوا ضُعَفاء ومسالمين ويجهلون فنون القتال... فقد سمح للمحاصَرين [بسبب استراحة الجند الصليبيين] بفترة ثمينة من الراحة والتأخير زادت أعدادَهم خلالها كثيراً بإمدادات من الفرسان الشجعان الأشاوس. وكانت النتيجة أنَّهم صَمَدوا أَمام هجماتنا ليس داخل المدينة فقط وإنما في ميدان القتال في الخارج»[1].

واسْتَمرّ حصار المدينة من البر والنهر مُدة 51 يوماً، اضطر الصليبيّون بعدها إلى فك الحصار عنها، وعودة كلٍ إلى بلاده، فقد انتشرت المجاعة بين القوات البيزنطية، وحدثت أعاصير مرافقة لهطول أمطار غزيرة، وقام المسلمون المدافعون عن المدينة بتحميل قارب كبير بالأخشاب الجافة والقطران ومواد مشتعلة أخرى، وأشعلوا فيه النيران ودفعوه في النهر باتجاه الأسطول، فاشتعلت النيران في ست من السفن الحربيّة وحوصر بقية الأسطول بالنيران. وأثناء ذلك كانت الإمدادات العسكرية والمؤن والأسلحة تتواصل إلى المدينة، ويخرج المقاتلة منها ويغيرون على القوات الصليبيّة التي أخذت بالتذمر، فقَرّر الملك وقادة القوات التفاوض مع أمراء صلاح الدين، وتَمّ التواصل إلى **«اتفاقيّة بشروط سِريّة»**، تَقَرّر بعدها إلغاء الحملة، وعاد الملك بقُوّاته براً إلى فلسطين، وغادر الأسطول الرومي فأصيب بالدمار نتيجة عاصفة بحريّة[2].

وهذا فقد تمكّن صلاح الدين **بمبادرته السَّريعة** في إرسال القوات والأموال والمؤن باستمرار، بإشراف القاضي الفاضل، وتعاون الخليفة العاضد الذي أَمدَّه بالأموال الكثيرة التي قُدِّرت بمليون دينار، وتعاون أهل دمياط، من مواجهة التحدي الخارجي الأول بعد وزارته. ويُذكر أن صلاح الدين، قال:

«ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إليّ مُدّة مقام الفرنج على دمياط

---

(1) وليم، **تاريخ**، 2 ص 365.
(2) وليم، **تاريخ**. 2 ص 366 - 370.

ألف ألف دينار سوى الثياب وغيرها»[1]. وأثبت الخليفة الفاطمي الشاب مرة أخرى **أنّه يُقدّم مصلحة الإسلام على مصالحه الشخصيّة**، وعلى الاختلافات المذهبيّة. وأثبت صلاح الدين قدراته القيادية باتخاذه القرار السريع والحازم في الوقت المناسب بالرغم من كل المعوقات والظروف الصعبة التي كان يمرّ بها.

وبعث الوزير رسالة إلى نور الدين، وكتب العاضد أيضاً كتاباً: الأول يُبَشِّره برحيل الجيوش الصليبيّة وأساطيلها، والثاني أيضاً يُبَشِّر، ويطلبُ.

«بالاستقالة (تقليل) من الأتراك خوفاً منهم، والاقتصار على صلاح وإلزامه (أو أزلامه) وخواصه»[2].

فكتب العماد عن نور الدين إلى العاضد يهنيء الخليفة برحيل الصليبيين ومن معهم[3]، ويمدح الأتراك، ويعلمه أنه:

«ما أرسلهم واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قنطاريات الفرنج ليس لها إلاّ سهام الأتراك، فإن الفرنج لا يرهبون إلاّ مِنْهُم، ولولاهم لزاد طمعهم في الديار المصريّة، وتحصّلوا منها على الأمنية، **فلَعَلّ الله يُيَسّر فتح المسجد الأقصى**، إضافة إلى نعمه التي لا تُحْصَى»[4].

وفي رجب 565 هـ [21 آذار ـ 19 نيسان 1170 م] من هذه السنة، في فَصْل الربيع استأذن الأمير نجم الدين أيوب من نور الدين[5] بالتوجه إلى مصر للإقامة فيها، فوافق السلطان العادل على ذلك[6]، فخرج أيوب «وخيّم

(1) اتعاظ، 3 ص 316.
(2) الروضتين، 1 ص 181.
(3) يذكر مختصر البرق الشامي التهنئة فقط. سنا، 1 ص 87 - 88.
(4) الروضتين، 1 ص 181. ويذكر بعد ذلك أشعاراً قيلت في بني أيوب ورحيل الصليبيين، لعمارة اليمني وفتيان الشاغوري والعماد (قصيدة بعث بها إلى صلاح الدين). ص 181 - 183.
(5) في المقريزي، إتعاظ، 3 ص 316، أن صلاح الدين طَلَب قدومه.
(6) سنا، 1 ص 89.

بظاهر. . . (دمشق) إلى أن بان وضوح جَدَده»[1]. وقبل خروجه وزّع أمواله، وأعطى ماله شركة فيه إلى شريكه «ولم يستصحب شيئاً من موجوده. .»[2] وبعدما التحق به أهله وأصحابه وأصدقاء عائلته، سار ومعه «كثير من التجار ممّن له هوى في مصر وغَرَض في صلاح الدين»[3].

واغتنم نور الدين هذه الفرصة للقيام بحملة على حصن الكرك لاستغلال فرصة فيه إضافة إلى حماية القافلة التي توجهت قبله إلى مصر. وحاصر نور الدين الكرك أربعة أيام حتى عَدَّت القافلة مناطق الخطر[4]، وحَتَّى وَصَل الخبر بأن قطعة من قُوّات الصليبيين (200 فارس و 1000 فارس من التركبوليّة[5]، وراجل كثير من السرجنديّة)[6] بقيادة هنفري الثالث صاحب تبنين (Humphrey III of toron) وفيليب بن الدقيق (Phillip de Milley) مخيَّمين في ماعين[7]، فعاد إلى مخيّم عشترا[8] في حوران في أول رمضان[9]. في هذه الأثناء كان نجم الدين قد وَصَل إلى خارج القاهرة في 26 رجب، فخرج صلاح الدين والخليفة العاضد لتلقيه:

«. . . خارج باب الفتوح ولقيه هناك، ولم تجر العادة بخروج الخليفة إلى لقاء أحَدٍ. . . (ثم) لَقّبَه الملك الأوحد، وزُيِّنَت القاهرة ومصر لقدومه فكان من الأيام المذكورة، وبالغ العاضد في احترامه، ونزل [قصر] اللؤلؤة»[10].

(1) الروضتين، 1 ص 183 وليست هذه الإضافة في مختصر البرق.
(2) سنا، 1 ص 89؛ الروضتين، 1 ص 183.
(3) إتعاظ، 3 ص 316.
(4) توجهت قافلة نجم الدين من ضواحي دمشق في 27 رجب 565 هـ/ 16 نيسان 1170، وتَحَرّك نور الدين بقواته من رأس الماء إلى البلقاء والكرك في 1 شعبان/ 20 نيسان.
(5) فرق من الفرسان خفيفة التسليح كانت على الأغلب من عناصر مختلطة أو دماء مختلطة.
(6) هم الرجالة من أهل المدن من اللاتين الأوروبيين، إذ كان يقرر على كل مدينة عدد من هؤلاء الرجال الذين يخدمون في الميدان عند الحاجة.
(7) منطقة بلدة ما عين الحالية إلى الغرب من ماديا بين الأخيرة وحمامات ماعين المعدنية.
(8) سنا، 1 ص 89 - 91.
(9) إتعاظ، 3 ص 316.
(10) قيل أنّ صلاح الدين رغب في التنازل عن الوزارة لوالده، فرفض نجم الدين وقال: ما اختارك =

وبعد وصول والده، قَرَّر صلاح الدين توليته على الاسكندريّة ودمياط والبحيرة، (الولايات الساحليّة)؛ ثم أقطع أخوه تورانشاه قُوص وعيذاب وأسوان [1]، وبذلك سيطر البيت الأيوبي على ساحل مصر قاعدة أهل السنّة فيها خاصة الاسكندرية، ومركز الدولة وبلادها، والصعيد ومراكزه الرئيسيّة.

وهنا نسأل: لماذا قدم نجم الدين أيوب إلى مصر في هذا الوقت بالذات؟ وهل كان ذلك لأن ولده طلبه في هذا الوقت؟أم كان ذلك لمهمة أساسيّة كَلَّفَه نور الدين بالإشراف على إتمامها خاصّة وأن الظروف كانت مؤاتية لذلك.

ذكرنا في السابق أنّه بعد استيلاء نور الدين على دمشق، قلّد من قبل الخليفة العباسي ولاية دمشق إضافة إلى ما كان بيده وكَلَّفه بالاستيلاء على السّاحل ومصر، وأنّ نور الدين أخذ يعمل، حسب الظروف والإمكانات، على تحقيق هذا الهدف بجمع المعلومات ومساعدة الدولة الفاطمية عندما طلبت منه ذلك، ثم إلزام صلاح الدين بالتوجه مع الحملة الثالثة التي قادها شيركوه، التي أدّت إلى القضاء على شاور وتولي شيركوه الوزارة بالاسم وصلاح الدين بالفعل. وبَعدما تمكن صلاح الدين من القضاء على فتنة السودان وإفشال الحملة الصليبيّة الكبيرة على دمياط، ومن تثبيت نفوذه، جاء الوقت المناسب لنور الدين لإكمال المهمة التي أُوكلت إليه بإعادة بلاد الخلافة الفاطمية إلى سيادة «أهل السنّة والجماعة»، بقيادة الخليفة العباسي في بغداد الذي كان نور الدين يَسْتَمِدّ شرعيّة حكمه منه.

ويبدو أنّه عندما تولّى شيركوه الوزارة في مصر، أرسل نور الدين إلى الخليفة المستنجد ـ الذي خلف المقتفي ـ، الواعظ الحنبلي ابن نجا (نجيّة) إلى دار الخلافة ببغداد مبشراً بطرد الصليبيين من مصر وتولى شيركوه، وأنّ الجزء الأكبر من المهمة قد أنجز ولم يبق إلاّ القليل، ومرّة أخرى كرر الخليفة العباسي

= الله لهذا الأمر إلاّ وأنت له كفؤ فما ينبغي أن نغير موقع السعادة، ثم جعله مسؤولاً عن خزائنه.

(1) ذكرنا في ما تقدّم أنه أناب عنه شمس الخلافة في هذه الولايات، وتقدير دخلها آنذاك 260 ألف دينار. إتعاظ، 3 ص 317.

الجديد الطلب السابق وألَحّ على إنهاء المهمة، وإلغاء حكم الخلافة الفاطمية ومظاهر سيادتها. ويذكر ابن أبي وطيء:

«أرسل الخليفة المستنجد [ربما مع ابن نجيّة] بالله من بغداد إلى نور الدين يعاتبه من تأخير إقامة الدعوة له بمصر، فأحضر الأمير نجم الدين وألْزمه الخروج إلى ولده بمصر بذلك، وحَمّلَه رسالة، منها: وهذا أمرٌ يجب المبادرة إليه لنخصّ بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة، قبل هجوم الموت، وحضور الفوت، لا سيما وإمام الوقت [المستنجد] متطلع إلى ذلك بكليته، وهو عنده أهم أمنية»[1].

فالخليفة يَستحث على العمل ويعاتب، ونور الدين يرغب بتحقيق ذلك قبل موته، ونجم الدين هو الموكل بإنجاز المهمة عند صلاح الدين الذي كان يعتذر عن تنفيذ ما يرد في مثل هذه المكاتبات قبل وصول والده إلى القاهرة من ترك الخطبة لما يخافه من المصريين [2] ـ وكان على حق بسبب ما تقدم ذكره.

وبعد وصوله، وجَدَ نجم الدين أنّ الوقت مناسب، والخليفة الشاب ليس له من يدعمه أو يقف إلى جانبه غير بعض رجال دولته، فطلب من صلاح الدين البدءَ بالقضاء على ما بقي للدعوة الفاطميّة الإسماعيليّة من مظاهر، فقام صلاح الدين في أواخر سنة565 / 1170 م:

1 ـ أبطل الأذان بحيَّ علي خير العمل، محمد وعلي خير البشر، فكان ذلك، فيما ذكر المقريزي: «أوّل وصمة دخلت على الدولة» [3].

2 ـ أَمَرَ أن يذكر في الخطبة يوم الجمعة الخلفاء الراشدون: أبو بكر وعمر وعثمان ثم علي. وكان ذلك يوم الجمعة 10 الحجة 565[4]/ 25 آب 1170 م.

3 ـ عَيّن في نفس الشهر قاضي قضاة جديد مكان داعي الدعاة ابن عبد

(1) الروضتين، 1 ص 183 - 184.
(2) إتعاظ، 3 ص 316 - 317.
(3) الروضتين، 2 ص 317.
(4) المصدر نفسه.

القوي هو المفضل أبو القاسم هبة الله بن كامل التنوخي الإسماعيلي الذي شارك في الثورة ضد صلاح الدين فيما بعد، كما سيأتي، وأضاف إليه قضاء مدينة مصر؛ ورَتَّب صلاح الدين أيضاً الفقيه عيسى الهكاري في قضاء القاهرة مدينة الجند والإدارة، وبذلك حصر القضاء الإسماعيلي في مدينة مصر التي كان يسكنها عامة الناس، بينما جعل القاهرة بحكم أحد أعوانه، الفقيه الأمير وقاضي العسكر[1].

4 - وفي السنة التالية (في 19 جمادى الآخرة/ شباط 1171 م) عَزَل صلاح الدين المفضل بن كامل عن قضاء القضاة وقضاء مصر «وولّى قاضي القضاة عبد الملك بن درباس الهذباني [من قبيلة كردية] الشافعي، وجعل إليه الحكم في جميع بلاد مصر بعدَما أحضره من المحلّة، وخلع عليه.. فعزل من كان بها من القُضاة واستناب عنه قضاة شافعيّة. ومنذ ذلك الوقت اشتهر مذهب الشافعي ومذهب مالك بديار مصر وتظاهر الناس بهما، واختفى مذهب الشيعة من الإماميّة والإسماعيلية، وبطل من حينئذٍ مجلس الدعوة بالجامع الأزهر وغيره[2].

5 - وفي سنة 566 هـ/ 1171 م» رفَع صلاح الدين «جميع المكوس [الضرائب غير الشرعيّة] بديار مصر وأبطلها[3]، متبعاً في ذلك ما عمله نور الدين في بلاد الشام قبل أكثر من عقد ونصف من الزمان، وهي سياسة سار عليها فيما بعد في كل بلد خَضَع لسلطته المباشرة وحتى غير المباشرة.

6 - أمر صلاح الدين بهدم سجن «دار المعونة» في مدينة مصر، وابتدأ عمارة مدرسة للشافعيّة في مكانها «**وهي أوّل مدرسة عُمِّرت بمصر لإلقاء العلم**»، كما أنشأ مدرسة للمالكيّة. كما اشترى تقي الدين عمر أرضاً (منظرة) بمصر، وجعلها مدرسة للشافعية، وأوقف عليها عدة أماكن»[4].

(1) إتعاظ، 3 ص 318.
(2) إتعاظ، 3 ص 319 - 320.
(3) المصدر نفسه، ص 319.
(4) المصدر نفسه.

7 ـ مات ابن الخلال، آخر صاحب ديوان إنشاء فاطمي وولى صلاح الدين القاضي الفاضل الديوان مكان.

وعندما تمكن صلاح الدين من تثبيت نفوذه في مصر، واطمأن بعد القضاء على قوة العسكر السودان فيها، وتمكّن من صد الحملة الكبيرة على دمياط، وزادت قُوّته العسكرية (بحيث وصلت في أول سنة 567 هـ / 1171 م إلى 14 ألف فارس)[1] زيادة كبيرة بقدوم أخيه تورانشاه ومن معه، وخاله ومن معه أيضاً، وتقي الدين عمر وغيرهم من الأمراء، قَرّر القيام بعمليات عسكريّة في اتجاهين ضد مملكة القدس اللاتينية وتابعتها إمارة الكرك الشوبك ـ في ذات الوقت ليمنع قوة الصليبيين من الاجتماع في جبهة واحدة: غارات على جنوب فلسطين على غَزّة والداروم، وحملة إلى قلعة أيلة والبلدة وحصار الكرك والشوبك. ولم يكن الهدف من الغارات الأولى على جنوبي فلسطين الاستيلاء عليها وتثبيت النفوذ فيها، وإنما استكشاف الأحوال العسكرية في هذه الجبهة التي تعطّلَت طويلاً ـ كما بيّنا في تعليق وليم الصوري ـ وإمكانية القيام بحملات كبيرة عليها، وإشغال قوات الصليبيين عن الحملة التي ستتوجه إلى أيلة لفتح طريق الاتصال بين مصر وبلاد الشام.

ـ الداروم وغَزّة:

كان الداروم آنذاك (دير البلح في الوقت الحاضر) حصناً منيعاً بناه الصليبيون على الحدود مع مصر لأغراض الدفاع عن حدود مملكتهم، وقاعدة متقدمة على الطريق إلى مصر لعملياتهم العسكرية التي توجهت إليها قُوّاتهم بعد ذلك في محاولاتهم السيطرة على بلاد الدولة الفاطميّة أو مساعدتها[2]. أمّا غَزّة فقد كانت خراباً عندما استولى الصليبيون على كل فلسطين بعد الحملة الأولى سنة 1099 م، ثم أنشأوا فيها بداية قلعة حصينة لتطويق مدينة عسقلان التي كانت

(1) إتعاظ، 3 ص.

(2) انظر وليم الصوري، تاريخ، 2 ص 372؛ ياقوت، معجم البلدان، 2 ص 424.

آخر المعاقل الفاطميّة في فلسطين التي هدّدت باستمرار كل مناطق المملكة الصليبيّة. ونشأ حول القلعة بلدة صغيرة يحيط بها سور كانت مستوطنة من المستوطنات الكثيرة التي أقاموها في فلسطين. وكانت غَزّة آخر المستوطنات التي أنشأت لهذا الغرض [1] إذ أقيم قبلها بيت جبرين ويُبنى وتل الصافي [2]. وفي سنة 1153 م سقطت عسقلان [3] بيدهم وصارت قاعدة تجمع القوات في العمليات العسكرية التي وجهت إلى مصر وإلى شرقي الأردن.

تَوَجّه صلاح الدين، يوم الخميس 15 ربيع الأول 566 هـ/ 27 تشرين الثاني 1170 م على رأس قُوّاته من بركة الجب [4]، إلى العريش قرب الحدود مع فلسطين؛ وبعد اثني عشر يوماً وَصَل إلى قرب حصن الداروم (أو الدير ـ دير البلح) (أي 8 كانون الأول). وفي اليوم التالي تَقَدّم إلى الحصن وبدأ محاصرته، ونصب عليه المنجنيق، ثَمّ تَقَدّمت القوات إلى الحصن ورَكّزت القتال على البرج الكبير فيه. يذكر القاضي الفاضل، الذي كان مشاركاً في الحملة، في رسالة له إلى صاحب مدينة قوص آنذاك (تورانشاه):

«. . . وصابحنا الدير يوم الأربعاء بقتال جعل كل من في حصن الدير راهباً، ونصبنا عليه منجنيقاً لا يزال بشهاب القَذف ضارباً، فلَمّا تعالى النهار ملكنا ربَضَه وأطلقنا فيه النيران. . . وزحفنا إلى أبراجه. . فجعلنا لكل واحد جورة مفردة وباباً، وسَرَّحنا إليهم رُسل المنايا من النشّاب، وقَصَدنا أحد الأبراج، . . . وتَقَدّمت إليه نَقّابة الحلَبيَّة [5] فباتت ليلتها تُسَاوِره وتراجعه بألسنة المعاول وتشاوره. وأسْفَر الصبح وقد أمكن

---

(1) انظر وليم الصوري، تاريخ، 2 ص 202 - 203.

(2) انظر H. Benvenisti, the Crusaders in the holy land, jerusalem, sec. Printing, 1970, P. 277.

(3) انظر EI, «Ascalan»؛ وبحث قيد النشر لمصطفى الحياري.

(4) محطة على الطريق بين القاهرة والعريش إلى فلسطين.

(5) المهندسون من أهل حلب، وكانوا مشهورين في ذلك الوقت بعمل الأنفاق الكبيرة والواسعة تحت الأسوار وقلع حجارة الأساسات من أجل عملية حرق السور وهدمه.

تعليقه[1] وتَيَسَّر تحريقه[1]، فأوْدَعنا تلك العقود[2] آلات الوقود، فلم يكن إلاّ مقدار اشتعالها حَتّى خَرّ صريعاً، وعفر بين أيدينا سامعاً مطيعاً، وانتظمت[3] الرجال على أحجاره، وتواثبت إلى أمثاله من الأبراج... فحصلت في القبضة، وعجز من كان فيها عن النهضة...»[4].

وفي اليوم التالي تقدم صلاح الدين وقُواته إلى القلعة:

«واستقبلنا يوم الخميس نقب القلعة، وتقديم المنجنيق وتيسير السبيل للقتال وتخليص الطريق. فلما كان بكرة الجمعة، وردتنا الأخبار بأن الملك [عموري] قد زَحَف من غَزّة في فارسه وراجله ورامحه ونابله وحشود دياره وجنود أنصاره...»[5].

ففي الوقت الذي اقترب فيه صلاح الدين عن الداروم، كانت الإشاعات قد انتشرت بين الصليبيين في القُدس بأخبار الحملة. وعندما عرف الملك بذلك جمع قُوّاته المتوافرة، وتوجّه على رأسها إلى عسقلان، ولمّا وصل إليها عرف من مصادر موثوقة أنّ صلاح الدين يُحاصر الداروم منذ يومين، وأنه استولى على القرية وشَدَّد الحصار على القلعة، وأوقع في المدافعين عنها بقيادة النبيل انسلمباس (Anselme de Pass) الكثير من الإصابات بين قتيل وجريح. عند ذلك توجّه الملك بخيالته ورجالته من عسقلان إلى غَزة يوم 18 كانون الأول 1170 م، يرافقه بطريرك المملكة وأسقف بيت لحم اللاتيني والمستشار الملكي وبعض النبلاء[6]. أما صلاح الدين فقد تابع حصار الحصن، واستولت قُوّاته

(1) التعليق والتحريق: حشو النفق الذي يحفر من قبل النقابين بالحطب والخشب والمواد الأخرى الجافة سهلة الاحتراق، وإشعال النار فيها مما يؤدي، نتيجة الحرارة الشديدة، إلى تمدد الهواء وخلخلة الحجارة فوق النفق وسقوطها.

(2) الأنفاق التي حفرت ودعمت بالعوارض الخشبيّة، فصارت كالعقود، وتحشى بالمواد المذكورة سابقاً.

(3) انتظمت: اصطفت لنقل الحجارة المتهدمة من السور إلى الخارج.

(4) من رسالة في الروضتين، 1 ص 192. ويؤيد ما جاء في هذه الرسالة ما ذكره وليم الصوري، تاريخ، 2 ص 371 - 372.

(5) المصدر ذاته، ص 192. وقد اقتبست هذا الجزء المطول لأنه يقدم صورة حيّة لعملية الحصار.

(6) وليم الصوري، تاريخ، ص 372 - 372.

على كل ما وجدوه في القرية والمناطق المجاورة، وبقي ـ كما ذكرنا ـ حتى صباح يوم الجمعة (30 ربيع الأول/ 19 كانون أول) حيث وردت إليه الأخبار بتقَدّم الملك نحو الداروم. وعند ذلك قام صلاح الدين بالتخلي عن الحصار وتوجه إلى الشمال نحو غَزّة لملاقاتهم.

والتقت قُوّات صلاح الدين مع قوات الملك عموري في الطريق بين الدارم وغَزّة، وجرت بعض المناوشات بين الجانبين، وانتظر الملك الناصر أن يقوم عموري بحملة للالتحام مع قواته، إلاّ أن عموري لجأ إلى تجميع قواته في كتلة متراصة، وتابع سيره على تعبئة إلى الداروم حتى وصلها وتَحَصّن بها [1]. يذكر القاضي الفاضل:

«وناوشته الخيل الطراد، وأحدقت به إحداق الأغلال بالأجياد، وانتظرت حملته التي كانت لها قبل ذلك اليوم موقع، وصَدْمَته التي لها من رجال الحرب موضع. . . (ولكنه) لم يزل يُخاتل ويواصل المسير ولا يطاول. . . حَتّى تَحَصّل في الدير هو وخيله ورجله» [2].

ولحقت قُوات صلاح الدين بالملك إلى الداروم وقامت بحصاره فيه ليلة السبت الأول من ربيع الآخر 566 هـ/ 12 كانون الأول 1170 م. وعندما يئس صلاح الدين من خروج الملك لقتاله، قَرّر فك الحصار عنها والتوجه إلى غَزّة [3]:

«فتركناه وراء ظهورنا، وجعلنا بلاده أمام صدورنا. . . وواجهنا غَزّة بعساكرنا المنصورة، وأطفَنَا بها في أحسن صورة» [4].

---

(1) المصدر نفسه، ص 372 - 372. ويُلجأ إلى هذا الأسلوب في السير لمنع هجمات القوات المعادية.

(2) الروضتين، 1 ص 192.

(3) انظر وصف حصار صلاح الدين لعموري في الداروم ثم بداية حصار غزة. وليم، تاريخ، 2 ص 373 - 374، والروضتين، 1 ص 192 - 193.

(4) الفاضل في الروضتين، 1 ص 192.

كانت بلدة غَزّة في ذلك الوقت بيد فرسان الدّاوِية، وكان مُقدّم القلعة منهم يُدعى ميلون صاحب بلانسي (Milon de plancy)، الذي اتهمه وليم الصوري بأنّه المحَرّض الأول للملك عموري قبل سنتين على خداع الفاطميين حتى لا يستولي الملك على كل الغنيمة [1].

وعندما اقتربت قُوّات صلاح الدين من غَزّة، حاول أهل البلدة الصغيرة وخمسة وستون شاباً قدموا من مستوطنة البيرة شمالي القدس [المحمورة الصليبية] للالتحاق بقوات الملك، اللجوء إلى القلعة نظراً لضعف سور البلدة الذي لم يكن محصناً لأن المستوطنة لم تتعرض للهجوم منذ تأسيسها. لكن مُقَدّم القلعة منعهم من الدخول، وطلب منهم الدفاع بكل قُوّة عن البلدة خاصّة بابها الرئيسي [2]. لكنّ قُوّات صلاح الدين تمكنت من اقتحام السُّور والدخول من المنطقة بين باب البلدة الرئيسي والقلعة، وقتلت المدافعين عن الباب، وانتشرت في أحيائها تقتل وتستولي على كل ما تجده في طريقها، وأفرجت عن بعض الأسارى المسلمين فيها، ثم أشعلت النيران فيها، وتوجهت نحو القلعة فحاصرتها بعض الوقت. يقول القاضي الفاضل:

«وفي الحال أمرنا بالنار أن تشتغل بها وتشتعل، وبالهدم أن ينقل عنها معاوله وينتقل، فهل ترى لهم من باقية، أو تنظر إلاّ طلولاً على عروشها خاوية، وعراصاً من سكانها خالية. . .»[3].

وقام صلاح الدين بحصار القلعة عِدة ساعات، وفي المساء عاد على رأس قُوّاته نحو الجنوب باتجاه الداروم[4]. وأثناء مسيره قسم قُوّاته إلى 42 طُلباً[5]

---

(1) وليم الصوري، تاريخ، 2 ص 355.

(2) وليم، تاريخ، 2 ص 374 - 375.

(3) الروضتين، 1 ص 193. وكانت هذه أول مَرّة يشترك فيها كاتب ديوان الإنشاء في الدولة الفاطميّة في حملة عسكرية، وقد اصطحبه صلاح الدين الذي اختاره لديوانه في هذه السنة أو السنة السابقة، وهو الذي أنشأ كتاب تقليده الوزارة.

(4) المصدر ذاته؛ وليم، تاريخ، 3 ص 375.

(5) يفَسّر المقريزي الطلب بـ: هو في لغة الأتراك «الأمير المُقَدّم الذي له عَلَم معقود وبوق =

في مجموعتين وذلك تَحَسُّباً من خروج الملك عموري من الداروم ومهاجمته على غِرّة، مستفيداً جزئياً من الطريقة، التي شاهدها في السابق وفي هذه الحملة، التي يلجأ الصليبيون إليها أثناء سيرهم. وكانت المجموعة الأولى مؤلفة من 20 طُلباً وأمرها بالمسير على الطريق السّاحلي، أما الثانية فكانت مكونة من 22 طلباً أمرها بالسير على الطريق الداخلي. وعندما اقتربت الفرقتان من الداروم، التي تبعد عن الساحل 8 كم، لم يخرج الملك وقُوّاته من قلعتها للتصدي لهم أو اعتراضهم، فتابعتا سيرهما إلى الحدود المصريّة حيث التقتا واجتمعت القوات إلى بعضها فقادها صلاح الدين إلى القاهرة، فوصلها يوم الاثنين 11 ربيع الثاني 566 هـ[1]/ 22 كانون الأول 1170 م، بعد غياب امتدّ أَقَلّ من شهرٍ أمضاها مع قُوّاته على ظهور خيولهم.

ـ الحملة على أيلة (العقبة وجزيرة فرعون ـ القلعة):

كانت أيلة في ذلك الوقت بلدة صغيرة على رأس خليج العقبة. وهي مركز تجاري هام يقع في منطقة استراتيجيّة تتحكم بطرق القوافل والمواصلات للتجارة والحاج وحركة الجيوش بين بلاد الشام ومصر، وبين الحجاز ومصر، وتجارة البحر الأحمر إلى بلاد الشام[2]. وقد أقام الصليبيون، بعد احتلالهم المناطق الجنوبية من الأردن، في جزيرة فرعون الحالية عند مدخل خليج العقبة قلعة حصينة للتحكم بواسطتها والبلدة، بهذه الطرق ومراقبتها، والسيطرة على التجارة التي تصل إلى خليج العقبة أو تتجه إلى خليج السويس. ومن هنا كان تَحَول طرق الحاج في الشام ومصر. ففي الأولى صار الطريق يتجه شرقاً إلى طرف البادية، وفي مصر تحول الطريق أثناء فترة السيطرة الصليبيّة إلى وادي النيل

= مضروب وعِدّة من الجند ما بين 200 فارس إلى مائة فارس إلى سبعين» وذلك حسب مرتبة الأمير وأن صلاح الدين كان لديه في هذه السنة أو السنة التالية، بعد عرض الجند 147 طُلْباً، وبذلك كان معه في هذه الحملة أكثر من ربع قُواته كاملة. إتعاظ، 3 ص 327.

(1) الروضتين، 1 ص 193.

(2) انظر «Ayla» in EI²‏.

ثُمّ إلى عيذاب على السّاحل الغربي للبحر الأحمر مقابل جدّة ومنه إلى سواحل الحجاز.

وكانت طريق المواصلات والتجارة بين دمشق حيث مركز دولة نور الدين وبين القاهرة حيث مركز نائبه في مصر عَرْضة لهجمات الصليبيين عند أيلة أو قريباً منها حيث لا بُدّ أن تسير القوافل والعساكر. ولذلك، كان على صلاح الدين الاستيلاء على أيلة من القُوّة الصليبيّة المتمركزة فيها، والتابعة لأمير الكرك ـ الشوبك التابع بدوره لمملكة القُدس اللاتينيّة، لأنها كانت تعترض الطريق ويحتاج المرور فيها إلى حماية عسكرية مناسبة، ومشاغلة صاحب الكرك ـ الشوبك، مثلما عمل نور الدين عندما توجّه نجم الدين أيوب في ربيع 565 هـ/ تشرين الثاني ـ كانون الأول 1169 من الشام إلى مصر للالتحاق بابنه صلاح الدين لمساعدته في القضاء على الخلافة الفاطميّة[1]. وزاد اهتمام صلاح الدين بهذه القلعة عندما وصَلَت إليه الأخبار من دمشق بخروج قافلة كبيرة فيها بقية أهل بيته في الشام وأصحابه وأتباعه. ويبدو أن هذه الأخبار وصَلَت إلى الوزير في الوقت الذي كان يستعد فيه للخروج فيه إلى غَزة والداروم، فأمر ببناء المراكب قطعاً ثم نقلها إلى خليج العقبة مع قُوّة بريّة مناسبة للاستيلاء على القلعة والبلدة هناك.

وتوجّه صلاح الدين إلى غَزّة والداروم، كما ذكرنا قبل قليل، وتوجهت الحملة إلى أيلة في ذات الوقت أو قبل ذلك بقليل. ونقلت المراكب التي جُهِّزت على شكل قِطَع على ظهور الجمال عبر ولاية الشرقيّة وسيناء إلى ساحل الخليج، وقام الصناع بإعادة تركيبها هنا مقابل القلعة في الجزيرة، وبدأت عملية الحصار في البحر عن طريق المراكب ومن البرّ من قبل رجال الحملة منعاً للإمدادات من الوصول إليها من الكرك والشوبك ووادي موسى. ودام حصار قلعة أيّلة، حسب قول القاضي الفاضل من منتصف ربيع الأول 566 هـ (16 تشرين الثاني 1170 م) إلى 20 ربيع الآخر (31 كانون الأول)، أي أثناء عودة

---

(1) الروضتين، 1 ص 183 - 183، سنا، 1 ص 90 (رواية ابن أبي طيء والعماد).

صلاح الدين إلى القاهرة وبعد استقراره فيها في 22 كانون الأول من السنة نفسها [1].

وتختلف الروايات في كيفية احتلال قوات صلاح الدين للقلعة: فرواية القاضي الفاضل، وكذلك العماد الأصفهاني، تؤكد أنّه تَمّ الاستيلاء عليها بقوة السلاح، وأن قائد الحملة استباحها وقتل بعض الحامية وأسر الباقي [2]. أما القلقشندي، فيذكر في قطعة من رسالة، أن القلعة كانت حصينة جداً [3]، وأن طول الحصار المحكم حول القلعة أدى إلى طلب الحامية الاستسلام مقابل شروط[4]. ويتفق ذلك مع العرف الذي ساد العلاقات العسكريّة بين المسلمين والصليبيين خاصة ما تعلق منه بحصار الحصون: وهو أنه إذا لم يصل إلى الحصن أو حتى المدينة المحاصرة دون طائل، نجدة خلال عشرة أيام فإن الحامية كانت عادة تقوم بالانسحاب بسلام تاركة وراءها العتاد والأسلحة والمؤن [5]. وكانت هذه المرة الأولى التي يستفيد فيها صلاح الدين ويستعين بالخبرة العسكرية المصرية البحرية في القتال.

وبعد الاستيلاء على أيلة وكل ما وجد فيها، قام صلاح الدين بشحنها بالرجال وملأها بالعُدد [6]. وفي اليوم الذي فتحت فيه قلعة أيلة غادرت القافلة الشامية، في قول ابن الأزرق الفارقي الذي شاهدها عند خروجها من دمشق، المكوّنة من سبعين ألف جمل [7]، وكان معها أبناء تورانشاه وإخوته وأولادهم ونساؤهم ومن يتبعهم. واستقبل صلاح الدين القافلة عندها، وسار معها إلى القاهرة فدخلها في آخر جمادى الأولى (شباط 1171 م) [8].

---

(1) الروضتين، 1 ص 191؛ سنا، 1 ص 108 - 109.

(2) المصادر نفسها.

(3) انظر وصفها في M. biinve nisti, Crusaders, P. 319 - 323.

(4) صبح الأعشى، 7 ص 27.

(5) انظر مصطفى الحياري، «حصن حبيس جلدك»، مجلة دراسات، «الجامعة الأردنية»، م 13، 1986، ص 155 - 156.

(6) انظر الروضتين، 1 ص 191؛ سنا، 1 ص 109.

(7) انظر جاكسون وليونز في صلاح الدين [E]، ص 393 حاشية 91.

(8) الخطط، 1 ص 185.

وهكذا فقد حقق صلاح الدين هدفهُ بالإغارة على حدود المناطق الجنوبية من فلسطين ضد حصون الصليبيين، في «عقر دارهم» في غَزة والداروم، وفتح طريق الاتصال بين مصر والشام. ومع ذلك فقد بقي خطر الطريق قائماً بوجود قلعة الكرك وقلعة الشوبك والقلاع الأخرى وما فيها من حاميات، فكان لا بدّ من القيام بعمل ما ضَدّها لاختبارها ومعرفة تحصيناتها والسبل الممكنة للإستيلاء عليها، فكانت حملته إليها في السنة التالية، والتي ستعالج في فصل تالٍ.

وبعد تأمين صلاح الدين لطريق الشام ـ مصر بالاستيلاء على أيله، وزيادة قوته في مصر، تابع سياسته المنهجيّة المنظمة «لقلب الدولة»[1]. وأدى ذلك إلى تذمر بقية أمراء الدولة الفاطمية ورجالها. يذكر المقريزي:

«وفيها [566 هـ/ 1171 م] كثر بمصر عسكر صلاح الدين وأقاربه وأصحابه، وانكفّت أمراء المصريين عن التصَرّف، ومنعوا من كل شيء، فبسطوا ألسنتهم بالقول ضِدّ ما عليه صلاح الدين وأصحابه من الفعل في محو آثار الدولة الفاطميّة وإزالة رسومها، وخلع العاضد وقتله، والدعاء للخليفة العبّاسي».

وأنه: «فلمّا رأى أمْره قد قوي، وأوتاد دولته قد تمكنت من البلاد، عَزَم على إظهار ما يخفيه»[2].

وعند ذلك قَرّر صَلاَح الدين القبض على من تبقى من أمراء الدولة الفاطمية، فاتفق مع أمراء الرّماة بالنشاب لديه أن يتوجّه كل واحد منهم بجنده إلى بيت أحد الأمراء المصريين ليلاً ويقف على الباب، وعندما يخرج الأمير صباحاً للتوجه إلى دار الوزارة يقوم أمير الرماة «بالقبض عليه والاحتياط على داره وما فيها وأخذها لنفسه». ونَفّذ أمراء الرُّماة ما طَلِبَ منهم، واعتقلوا الأمراء المصريين واستولوا على الدور:

---

(1) الروضتين، 1 ص 191.
(2) اتعاظ، 3 ص 321.

«وأصبح الأمراء المصريون أسرى معتقلين في أيدي أعاديهم. فآل أمرهم إلى أنْ صار الأمير بوّاباً على الدار التي كان يسكنها، وصار آخر منهم سائس فرسٍ كان يركبها، وصار آخر وكيل القبض في بلدٍ كانت إقطاعاً له، ونحو ذلك من أنواع الهوان» [1].

وعَرَف العاضد بما حصل لأمراء دولته السابقين:

«فأرسل إلى صلاح الدين يسأله عن سبب القبض على الأمراء، فبعث [صلاح الدين] إليه بأن هؤلاء الأمراء كانوا عصاة لأمْرِكَ، والمصلحة قَتْلهُم وإقامة غيرهم من يمتثل أمرك، فسكت [العاضد]» [2].

وبعد القيام بهذه الخطوات المحسوبة جيداً في إزالة كل العوائق التي يمكن أن تقف أمامه قام صلاح الدين بالخطوة الأخيرة وهي إعلان الخطبة العبّاسيّة. وقد تمت هذه الخطوة على مراحل، بَعْد استشارة أمرائه كالعادة.

1 ـ شَدّد قراقوش السيطرة على القَصْر بحيث صار العاضد معتقلاً في أيدي الأتراك.

2 ـ في يوم الجمعة آخر ذي الحجّة 566 هـ أو أول محرم 567 هـ/ 3 أيلول 1171 م، أُمِر الخطيب بالدعوة للإمام أبي محمد «فتخاله العامة (والإسماعيلية)... العاضد وهو يريد أبا محمد المستضيء، الذي خلف المستنجد»[3].

كما أن الخطيب دَعَا للأئمة المهديين وللسلطان الملك النـاصر، «فقيل له في ذلك، فقال: ما علمت اسم المستضي ولا نعوته، ولا تقرر معي» [4]. وعرف العاضد بذلك وكان مريضاً.

(1) المصدر نفسه، ص 321.

(2) المصدر نفسه.

(3) توفي 9 ربيع الآخر 566 هـ/ 20 كانون الأول 1170.

(4) ابن أبي طيء في الروضتين، 1 ص 196. وربما كان الخطيب هو الذي يذكره المقريزي باسم اليسع بن عيسى بن حزم، أبو يحيى الغافقي الأندلسي. اتعاظ، 3 ص 323.

3 ـ في يوم الجمعة التالية (6 أو 7 محرم/ 10 أيلول) خطب للخليفة المستضيء بالله بن المستنجد[1]، وهو الذي قَلّد فيما بعد صلاح الدين بلاد الشام بعد وفاة نور الدين[1]، وتوفي العاضد بعد ذلك بثلاثة أو أربعة أيام؛ وصار صلاح الدين نائب نور الدين في البلاد المصريّة، والخطبة فيها للخلافة العباسي، ثُمّ نور الدين ثُمّ صلاح الدين. وبذلك انتهت المهمة التي كُلّف بها نور الدين قَبْل سبع عشرة سنة من قبل الخليفة المتقي، وتَوَحّدت مصر وبلاد الشام تحت قيادة واحدة، وابتدأت مرحلة جديدة من مراحل الصراع بين الإمارات والممالك الاسلامية، والإمارات والممالك الصليبيّة.

(1) كل المصادر، مع بعض الاختلاف، تُفَصّل الخطبة العباسية في القاهرة.

7 الفترة الحاسمة

يوم الثلاثاء 22 جمادى الآخرة 564 هـ/ 25 آذار 1169 م، يوم مشهور في تاريخ مِصْر والعالم الإسلامي آنذاك. ففي هذا اليوم تَولّى صلاح الدين الوزارة في مصر للخليفة الفاطمي العاضد؛ وفي ذات الوقت أصبح نائب نور الدين فيها. وقد أطلق هذا التعيين سلسلة من الأحداث والتطورات في مصر وبلاد الشام، وما يتبعها من بلاد، وكذلك في بلاد الخلافة العباسيّة، كما شغل كل رجال الدَّولة في هذه البلاد. وقد ذكرنا معظم هذه التطورات والأحداث في الفصل السابق، ولذلك سوف نركز في بداية هذا الفصل على قضيّة الخطبة للخليفة العباسي وما ارتبط بها من تطورات وتفاعلات في العواصم الثلاث: بغداد ودمشق والقاهرة، إذ انشغل أصحاب البَريد في هذه العواصم ورجالهم في المحطات على الطرق في نقل الرسائل والأجوبة عليها ـ التي لا نعرف الكثير من محتواها ـ من بغداد إلى دمشق (أو أينما كان مكان نور الدين)، ومن ثم ما يرسله الديوان من دمشق إلى القاهرة وبالعكس.

يُلخِّص ابن أبي طيء، المؤرخ الحلبي المدقق والمطلع والمتابع، قضيّة الخطبة العباسيّة بإيجاز:

«قد قَدّمْنا ذكر مكاتبة نور الدين وإلحاحه على صلاح الدين في طلبه في إقامة الخطبة بمصر للعباسيين، وأنّه أنفذ إليه أباه نجم الدين لأجل ذلك لما كتب الخليفة المستنجد الى نور الدين في ذلك. ولما ولي ابنه المستضيء [أي ابن المستنجد] أقبل أيضاً على مكاتبة نور الدين فيه، وألَحّ

نور الدين على صلاح الدين في طلبه وأفضى به الأمر إلى أنه اتّهم صلاح الدين وشَنَّع عليه، وأكثر القول في ذلك [1] . ولمّا قَدِم الأمير نجم الدين حَذَاهُ على فعل،، ذلك، فاعتذر [صلاح الدين] إليه بأنّ أحواله لم تستقرّ بعد وأموره مضطربة، وأعداؤه كثيرون، وأن المصريين [الفاطميين] لـ م جماعة كبيرة متفرقة في بلاد مصر من السودان وغيرهم]، وأنّ هذا الأ. إن لم يؤخذ بالتدريج والاّ فسدت أحواله. فلمّا أوقع السلطان الملك الناصر بالسّودان والأرمن، ونكب أمراء [أ ص: أمر] المصريين وقطع أخبازهم [إقطاعاتهم]، وترك جنوده في دورهم، ثُمّ قطع العاضد، وقبض جميع ما بيده من البلاد، واستولى على القُصُور، ووكّلَ بها وبمن فيها قراقوش الخادم، وخلت له بلاد مصر من معاند ومنابذ. ثم شَرَع وأبطل من الأذان: حَيَّ على خَير العمل، وأنكر على من يَتَسِمُ بمذهبهم والانتساب إليهم، فلمّا رأى أموره مؤاتية، وأعداءه قليلين شرع حينئذٍ في الخطبة لبني العبّاس» [2] .

وبعد هذا الملخص الذي لا يحتاج إلى تعليق، نَعُود إلى جذور قَضيّة الخطبة وتطوراتها حتى إعلانها في الوقت الذي ذكرنا:

في سنة 555 هـ/ 1160 - 1161 م وقعت رؤيا، كما يذكر ابن المارستاني في سيرة الوزير ابن هبيرة - الوزير آنذاك للخليفة الجديد المستنجد، الذي تولّى السلطة يوم الأحد 2 ربيع الأول / 11 آذار 1160 م - أنّ أَحَدَ سَكّان مدينة بغداد رأى رؤيا أخبر بها الوزير فجاء الوزير بمن فَسَّرَها: «بأنّ الإمام بمصر يستبدل به، وتكون الدعوة لبني العباس». وقوي هذا عنده [الوزير] حتى كاتب نور الدين حين دخل أسد الدين إلى مصر في أول مَرّة بأنّه يظفر بمصر وتكون الخطبة لبني العبّاس» [3] .

---

(1) هذا رأي ابن أبي طيء الشيعي الإثنا عشري. وقِصّة الخلاف بين صلاح الدين ونور الدين ستعالج فيما بعد.

(2) الروضتين، 1 ص 196.

(3) ابن المارستاني في الروضتين، ص 197.

كما يذكر أيضاً أن الوزير كاتب نور الدين يحثَه على التعرض لمصر والبعث إليها. ويضيف أبو شامة: «واتفق في أثناء ذلك نوبة شاور وزير صاحب القصر [الفاطمي]، وقدومه هارباً منه إلى نور الدين، **فحَرّك ذلك ما كان تَخَمّر في نفسه ممّا كان كاتبه به ابن هبيرة**، فاستطلع من شاور الأسباب التي يمكن بها الدخول على المصريين، فشرحها وأوضحها، فسَيَّر إليها أسد الدين. . .»[1]. ويَدُل ذلك على مَدى استحواذ الفكرة على الخلفاء في بغداد ورجال دولتهم منذ استيلاء نور الدين على دمشق. وبعد هذه الرُّؤية بأربع سنوات تقريباً كانت حملة شيركوه الأولى إلى مصر. ويبدو أن نجاح شيركوه في طرد الصليبيين، أو أن هذه الخطوة التي اتخذها نور الدين في دعم شاور، والاتفاق الذي عُقِدَ بينهما، دَفَع نور الدين إلى الكتابة إلى الخليفة العباسي بالبُشرى بهذا النَصْر قبل حصوله:

«ورد البشير إلى المستنجد بفتح مصر، فقال حاجب الوزير قصيدة. . .»[2].

ابن الجوزي، الواعظ البغدادي المشهور والمعاصر وصاب العلاقة الوثيقة بالوزير ابن هبيرة وبالخليفة، هو الذي يورد هذا الخبر، وردَّة الفعل عليه في بغداد.

والقَصِيدة التي نظمها الحاجب ابن تركان[3]، تتضمن الأبيات التالية التي تدل على تصديق البشارة، وأنّ مصر قد فُتِحت[4]:

ليهنك يا مولى الأَنام بشارة ... بها سيف دين الله بالحق مُرْهَف
ليهنك يا مولاي فتح تتابعت ... إليك خُوص الرَّكَائِب تُوجِف
أَخَذْتَ به مِصْراً وَقَد حال دونها ... من الشِّرك ناسٌ في لهى[5] الحق تقذف
فَعَادت بحمد الله باسم إمَامِنا ... تُتيهُ على كُلِّ البلاد وتُشرف

(1) المصدر نفسه.

(2) المنتظم، 10 ص 208.

(3) هو الحسين بن محمد بن تركان، حاجب عون الدين ابن هبيرة. ولما توفي الوزير قبض عليه وحُبِس في دار أُستاذ الدار. المنتظم 10 ص 211.

(4) المصدر ذاته، ص 209.

(5) في الأصل (المنتظم) «لحى»، والمثبت من الروضتين.

تَملّكـها من قبضة الكفر يُوسُف وخَلّصَها من عصبة الرَّفض يوسف [1]
كشفـتَ بهـا عـن آل هـاشـم سبـةً وعـاراً أبَـى إلاّ بسيفـه يُكْشَـفِ [2]

وفشلت الحملة، كما ذكرنا، في تحقيق هذا الهدف. فكم كانت خيبة دولة الخلافة العبّاسيّة ورِجَالها المؤيدين لهذه الخطوة بهذه النتيجة؟، وكيف كان حال نُور الدين في تَسَرَعه في إرسال البشارة قبل التحقق من النتيجة؟ ومن ذلك يمكن أن نفهم موقفه كسياسي مسؤولٍ أمام الخليفة ولو معنوياً، من شَاوَر وشيركوه في الفترة بين الحملتين الأولى والثانية، وقراره بإرسال شيركوه فجأة إلى مصر بحملة جديدة، وعندما أرسل هذه الحملة، ثم أثناء مكوثها في مصر، ثمّ بعد عودتها إلى دمشق بعد المشّاق التي مَرّت بها. فالمصادر لا تذكر أي تبادل للرسائل عنها بين دار الخلافة ودمشق أو بالعكس.

وتوفي الوزير ابن هبيرة سنة 560 هـ/ 1165 م، بعد سنة واحدة من الحملة الأولى، دون أن يتحقق ما تَمَنّاه منذ التحاقه بخدمة الخلفاء العباسيين، أما المستنجد فلم ييأس من المطالبة بمصر التي فقدتها الخلافة العباسيّة قبل ذلك بقرنين من الزمان، فكان يكتب إلى نور الدين الذي كان بدوره ينتظر الوقت المناسب لتحقيق ذلك، وجاء هذا الوقت بهجوم الصليبيين على مصر بقصد الاستيلاء عليها، فكان ما ذكرنا من وزارة أسد الدين ثم صلاح الدين للعاضد الفاطمي.

وفي سنة 564 هـ/ 1169 م، توجّه الواعظ الدمشقي زين الدين إلى بغداد التي يَعْرفها جيداً، والتي يسكن فيها عائلة زوجته. فَهَل كانت هذه الزيارة شخصيّة أم أنه كانَ مكلّفاً بمهمة خاصّة غير رسميّة كَلفهُ بها صلاح الدين (بموافقة نور الدين) لإطلاع الخليفة المستنجد والوزير الجديد على ما حَصَل في مصر حقيقة ودون ضجّة تثير انتباه العام والخاص من الناس كما وقع في المَرّة

---

(1) يوسف الأول: النبي يوسف، والثاني: الخليفة المستنجد، فهل كان صلاح الدين منذ ذلك الوقت مرشحاً لحكم مصر؟.

(2) إشارة إلى استيلاء الفاطميين على مصر من العباسيين الهاشميين ٣٥٨ هـ/ 969 م.

الأولى. ولذلك لا نجد ذكراً في المصادر المعاصرة في العراق والشام لبشارة بالفتح. أما مصادر زيارة ابن نجيّة فنجدها في كتب الطبقات، إذ يذكر ابن النجار ابن رجب أنه:

«قَدِم بغداد مَرَة ثانية رَسُول من نور الدين محمود ملك الشام. . . (في هذه السنة)»[1].

فاستقبل في ديوان الخلافة، وخَلَع الخليفة عليه «أهبة سوداء، فكانت عنده يلبسها في الأعياد» كما ذكرنا[2]. ومنذئذٍ بدأ المستنجد يُلِحّ على نور الدين في العمل على إقامة الخطبة العبّاسيّة في مصر، لكنّ نور الدين كان يَعرف الظروف التي كان يواجهها صلاح الدين.

وجاءت الفرصة المناسبة للخلافة سنة 566 هـ/ 1170 - 1171 م لتجديد الضغط على نور الدين وصلاح الدين، خاصة وأنّ نجم الدين وَصَل إلى القاهرة وساعد ابنه في التغلب التدريجيّ على المشكلات الكثيرة التي واجهها، وبدأ ببعض الإجراءات التي تمهد لإلغاء الخلافة الفاطميّة. ففي هذه السنة، في 9 ربيع الآخر / 20 كانون الأول 1170 م، بويع للمستضيئ بالخلافة وعين عَضُد الدين ابن رئيس الرؤساء وزيراً له. في هذا الوقت كان نور الدين في منطقة الجزيرة الفراتيّة قرب مدينة الموصل يُرَتب الأمُور في هذه المناطق التي يتولّاها أبناء أخيه نيابة عنه، ثُمّ وَصَل إلى تلّ توبة قرب المدينة فخيّم عليه. وفي هذا المكان وَصَلت رُسُل دَار الخلافة إلى نور الدين لإبلاغه بتولي الخليفة الجديد وتجديد ولايته على بلاده ومطالبته بإقامة الخطبة العباسيّة في مصر. يذكر العماد، الذي كان يرافق نور الدين:

«. . . مبشَرين بخلافة الإمام المستضيء بأمر الله. . . . واجتاب نور الدين تشريف الاجتباء، وركب يوم النزول على التَلّ بالأهبة السوداء. . . وذلك بمرأى ومنظر من أهل الموصل الحَدْباء.

---

(1) ابن النجار، **ذيل تاريخ بغداد**، 3 تحقيق قيصر فرح، ص 13: ابن رجب، **ذيل طبقات الحنابلة**، 1 ص 437.

(2) ابن رجب، **ذيل طبقات الحنابلة**، 1 ص 438.

وأمرني بإصدار خدمة (مكاتبة) إلى الوزير بشكر الآلاء، والامتثال بالأوامر الشريفة بإقامة الدعوة الهادية في جميع الأقطار والأمصار، والخطبة على منابرها، ونقش سِكّة الدرهم والدينار» [1] .

وأرسل نور الدين الجواب مع القاضي شرف الدين أبي عصرون الموصلي الشافعي فانطلق إلى بغداد [2] ثم رجع إلى نور الدين.

وفي فترة الأشهر الخمسة التي تَلَت ولاية المستضيء، كان صلاح الدين لا يزال يصدر القرار تِلوَ القرار بِقَصْد تقليص نفوذ رجال الدولة الفاطمية وتجريدهم من صلاحياتهم. ومن القرارات الهامة التي وقعها كان قرار تعيين القاضي صدر الدين عبد الله بن درباس الموصلي الشافعي على القضاء والحِكم في مدينة مصر ومدينة القاهرة وسائر أعمالها [3] وبذلك نزع السلطة القضائية من أيدي قضاة الإسماعيلية الفاطميين. وصَدْر القرار في 22 جمادي الآخرة 566/ آذار 1171 م.

قبل هذا القرار الخطير، أو بَعْدَه بقليل، كتب نور الدين كتاباً بخط يده إلى القاضي شرف الدين ابن أبي عصرون في حلب، يَعْرِضُ عليه ولاية قضاء مصر. ونظراً لأهميّة هذا الكتاب، لما فيه من تفكير نور الدين وثقافته آنذاك وأسلوبه وعلاقته مع صلاح الدين، أجد مناسباً نقله كاملاً:

«حسبي الله وكفى. وَفّق الشيخ الإمام لطاعته، وخَتم له بخير:

غير خافٍ على الشيخ ما أنا فيه وعليه، ومقصُودي في مصالح المسلمين، وما يقرّبني إلى الله، والله وليّ التوفيق، والمطّلع على نيّتِي، كما قال عز من قائل (ومن عنده علم الكتاب) [4] .

أنت تَعْلَم أنّ مصر اليوم قَدْ لزمنا النَّظَر فيها، وهي من الفتوحات

---

(1) سنا، 1 ص 101 - 102.

(2) سير أعلام النبلاء، 21 ص 126 - 127؛ وفيات الأعيان، 3 ص 54.

(3) انظر ما تقدم؛ وسنا، 1 ص 107 - 108. وكان فقيهاً مُحَارِباً مثل الفقيه عيسى الهكاري.

(4) اقتباس غير دقيق.

الكبار التي جَعَلَها الله تعالى دار إسلام بعدما كانت دار كفرٍ ونفاق، فلله المنّة والحمد: إلاّ أنّ المُقَدّم على كل شيء أمور الدين، وبها النجاة.

وأنت تعلم أنّ مصر وإقليمها ما هي قليلة، وهي خالية من أمور الشَّرْع، وما تُدَّخَر الدموع إلاّ للشدائد..

وأنا ما كنت أضَحّي، ولا أشتهي مفارقتك. والآن: فقد تَعَيّن عليك وعَلَيّ أيضاً، أن ننظر إلى مصالحها، وما لنا أحَدٌ لها إلاّ أنت، ولا أقْدَر أولي أمورها ولا أقلّدها إلاّ لك، حتى تبرأ ذمتي عند الله. فيجب عليك، وفَقك الله، أن تُشَمّر عن ساق الاجتهاد، وتَتَوَلّى قضاءها وتَعْمل ما تعلم أنه يُقَربك إلى الله وقَدْ برئت ذمتي.

وقد كتبت هذا بخطّي، حتى لا يبقى عليّ حجّة. تَصِل أنت وولدك عندي، أسَيركم والسلام، بموافقة صاحبي واتفاق منه صلاح الدين وفّقه الله، فأنا منه شاكر كثير كثير، وجزاه الله خيراً وأبقاه، ففي بقاء الصالحين والأخيار صلاح عظيم، ومنفعة لأهل الإسلام: الله تعالى يكثر من الأخيار وأعوان الخير، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً» [1].

ولا نعرف إن أجاب ابن أبي عصرون على هذا الكتاب أم لا، ولاالسبب في أنّه لم يَتَولَّ ما عُرض عليه. ولكن رواية ابن واصل، المدقق بما يورد، تذكر أنّ نور الدين عاد من بلاد المُوصل إلى حلب في شعبان، وأثناء مكوثه فيها «فَوّض القضاء بسنجار ونصّبين والخابور إلى الشيخ شرف الدين... فَوَلّى فيها (الأخير) نوّابه» [2].

وتوَجّه نور الدين من حلب إلى دمشق، فوصلها قبل رمضان (8 أيار -

---

(1) أبو شامة، الروضتين، 1 ص 174.

(2) مُفَرّج، 1 ص 196. ويذكر هنا أنه رغم العلاقة الطيبة بين نور الدين وابن أبي عصرون، فإنه يبدو أنّه لم يدخل دمشق منذ هذا الكتاب إلاّ سنة 570 هـ، أي بعد وفاة نور الدين وبعد وصول صلاح الدين إليها.

مايو ـ 6 حزيران 1171 م)، فَصار بها وعيّد ثم خرج إلى المخيم وسار إلى عشترا في حوران وعسكر هناك [1].

وفي شَوّال / حزيران 1171 م، كتب نور الدين إلى صلاح الدين «بتغيير الخطبة، وتذليل أمورها الصعبة، وافتراع بكر هذه القضيّة وفرع الرتبة. . .».

ثمّ يعلق العماد: «وأيقن أن أمره متبوع، وقوله مسموع، وحكمه مشروع، ونطقت بذلك قبل التمام ألسن الخواص والعوام» [2].

ووصَل كتاب نور الدين إلى صلاح الدين في الوقت الذي كاد فيه أن ينتهي من قلب الدولة الفاطمية ومحو آثارها، فَسَارع الإجراءات التي كان قد بدأ بها، ثم أعلنت الخطبة العباسيّة في القاهرة ومصر في أوائل المحرم من سنة 567 / أوائل أيلول 1171 م، وكتب إلى الأقاليم في جهات مصر كلها فتَمّ ذلك دون مقاومة تذكر.

وانتقلت الكتب في البريد مسرعة للبشارة بذلك الفتح إلى دمشق، فأمر العماد كتابة كتاب البشارة إلى بغداد وأنفذه مع شهاب الدين المطهر ابن شرف الدين ابن أبي عصرون، ومعه نسخة بشارة أخرى «تُقْرأ بكل مدينة يَمُرّ بها» [3]، فوصل إلى بغداد يوم السبت 22 محرم 567 هـ/ 25 أيلول 1171 م، فجلس الوزير عضد الدولة ابن رئيس الرؤساء في الديوان في نفس اليوم، واستدعى أرباب المناصب في الدولة وخَوَاص الخليفة وأمراء الجيش. ولمّا تكامل المجلس طلب من كاتب الإنشاء قراءة مكتوب نور الدين، وكتاب بعثه الخليفة بخطّه «يتَضّمن الشكر لله على ما أباحه من عودة الحق إلى مستقره» [4].

---

(1) المصدر ذاته.
(2) العماد (البرق الشامي) في الروضتين، 1 ص 198، سنا، 1 ص 114 - 115.
(3) انظر ملحق رقم (1).
(4) انظر مثلاً الروضتين، 1 ص 197 - 198؛ مفرج، 1 ص 218.

واحتفل عامة الناس بهذا الخبر، «وأغلقت أسواق بغداد، وعملت القباب[1]، وخُلِع على الرسول. . .»[2].

وفي ربيع الأول (2تشرين الثاني ـ 1 كانون الأول 1171) خرج من بغداد الخادم عماد الدين صَنْدل «أستاذ دار الخليفة»[3] ومعه رَسُول نور الدين، متوجهاً إلى دمشق ومعه التشريف لنور الدين وصلاح الدين100). واستقبل نور الدين الرَّسُول، ثم عقد مجلساً لكبار رجال دولته، وقرأ وزيره كتاب الخليفة، ثم لبس التشريف وتقلد السيفين للإشعار «بتقليده الإقليمين: الشام والديار المصريّة»، وركب من القلعة إلى خارج دمشق حتى الميدان الأخضر، ثم عاد[4]. وأرسل تشريف صلاح الدين، الأقل فخامة من تشريف نور الدين، إلى القاهرة، وخلعاً من عند نور الدين إلى الأمراء بمصر، وأَعْلَام ورايات سود، وأُهَبٍ سودٍ للخطباء والعلماء في مصر لتفريقها في المساجد والجوامع. ولبس صلاح الدين التشريف، وسار في موكب مهيب في القاهرة في 21 رجب 567 هـ/ 19 آذار 1172 م[5].

وأثناء الفترة التي أعلنت فيها الخطبة العباسية، والاحتفالات بذلك في بغداد ودمشق والقاهرة، وقعت ـ كما يبدو ـ أزمة سياسيّة ودبلوماسيّة بين نور الدين وصلاح الدين أثَّرت على العلاقات بينهما في الفترة التالية، وكانت سبباً لتكهنات وإشاعات وشكوك واتهامات، احتار أصحاب مصادرنا في تفسيرها بين مؤيد ومعارض لهذا الجانب أو ذاك. وكان سبب هذه الأزمة هو: لمن ستكون السيادة الفعليّة على مصر: نور الدين أم صلاح الدين؟.

وقد نجد الإجابة على ذلك أو بعضها في رسالة للقاضي الفاضل، كاتب

---

(1) القباب: يفهم من النص أنها كانت من الأشياء التي تعمل في الاحتفالات في بغداد في ذلك الوقت.

(2) المنتظم، 10 ص 237.

(3) انظر الملحق (4).

(4) مفرج، 1 ص 218 - 219؛ الروضتين، 1 ص 199.

(5) الروضتين، 1 ص 199.

ديوان صلاح الدين ومستشاره ووزيره الأمين، موجهة من صلاح الدين إلى الوزير في بغداد ابن رئيس الرؤساء، نفس الوزير الذي عقد المجلس في بغداد لقراءة كتاب نور الدين. وربما كان الرجل الذي حمل الرسالة ووصل بعد الوفد الذي بعثه نور الدين مع البشارة بقليل هو الخطيب: «الذي خطب أول شيء بمصر لبني العباس»[1]، وهو شمس الدين محمد بن المُحَسّن بن الحسين بن أبي المضاء البعلبكي، الذي يبدو أنّه اتصل بصلاح الدين والعائلة الأيوبيّة أثناء ولاية نجم الدين أيوب على بعلبك، وكان في نفس عمر صلاح الدين، إذ توفي بدمشق قبل أن يكمل الأربعين سنة[2].

وتَضَمّنت الرسالة[3] فقرة أساسية طلب فيها صلاح الدين تقليده ما فتح من البلاد مباشرة من الخليفة:

«. . . . ولا خفاء عن المَجْلس الصَّاحِبي أنّ من شَدّ عَقْد الخِلافَة، وحَلّ عَقْدَ خِلافٍ، وقام بدولة وقَعَد بأخرى قد عَجز عنه الأَخْلاَف والأَسْلاف، فإنّه مُفتقر إلى أن يشكر ما نَصَح، ويُقَلّد ما فَتَح، ويُبَلّغ ما اقترح، ويُقَدّم حَقّه ولا يُطَّرَح، ويُقَرَّب مكانه وإن نَزَح، وتَأْتِيه التَّشْرِيفات الشَّريفة، وتتواصل إليه إمدادات التَّقْوِيَة الجليلة اللطيفة، وتُلَبّى دَعْوَته بما أقام من دعوة. . . فكل ذلك تعود عوائده، وتبدو فوائده بالدولة التي كشف وجهه لنَصْرها، وجَرَّد سيفه لرفع منارها والقيام بأمرها. وقد أتى البيوت من أبوابها، ووَعَد آماله الواثقة، بجواب كتابها. وأَنْهَضَ لإيصال ملطفاته، وتنجيز تشريفاته، خطيب الخطباء بمصر، وهو الذي اختاره لصعود المنبر، وقام بالأمر قيام من بَرّ، واستفتح بلباس السواد الأعظم الذي جمع عليه السواد الأعظم، آمـلاً أن يعود إليه بما يطوي الرجاء فضل عقبه، ويُخَلّد الشرف في عقبه»[4].

(1) النجوم الزاهرة، 5 ص 343؛ وفيات الأعيان، 4 ص 390، ابن الدبيثي، تاريخه باختصار الذهبي، ج 1 ج 1 تحقيق مصطفى جواد، حاشية 3 في مفرج الكروب، 1 ص 200.

(2) وفيات الأعيان، 4 ص 390.

(3) انظر نصّ الرسالة في الملحق، والتي نقل ابن تغري بردي جزءاً منها في النجوم الزاهرة.

(4) الروضتين، 1 ص 195.

واستجابت الخلافة العباسيّة بداية لطلب صلاح الدين، وأرسلت عهده بالتقليد مع السفير شمس الدين. وقد حُفِظ لنا نُسخة من هذا المعَهْد الفريد كاملاً في كتاب صبح الأعشى للقلقشندي. وحدد العهد البلاد التي تخضع لحكم السلطان مباشرة:

«. . . اقتضت الآراء الشريفة ـ لا زال التوفيق قرينها والتأييد مُظَافرها ومعينها ـ إمضاء تَصَرّفه وإنفاذ حكمه في بلاد مصر وأعمالها، والصعيد الأعلى، والإسكندرية، وما يفتحه من بلاد الغرب والسّاحِل، وبلاد اليمن وما افتتحه منها ويستخلصه من ولايتها، والتعويل في هذه الولايات عليه، واستنقاذ ما استولى عليه الكُفّار من البلاد وإعزاز كُلّ من أذلّوه واضطهدُوه من العباد لتعود البلاد بيمن نقيبته ضاحكة المباسم، وبإصابة رأيه قائمة المواسم» [1].

ويبدو أن هذا القرار المُتَسَرِّع الذي اتخذ دون علم نور الدين قد أدّى إلى أزمة داخل إدارة الخلافة العبّاسيّة بين مؤيدي نور الدين ومؤيدي استقلال صلاح الدين بالبلاد التي فتحها، الذي انتهى بانتصار جماعة نور الدين واضطرار الخليفة إلى الوقوف إلى جانبهم وقام بطرد الوزير ابن رئيس الرؤساء من مركزه.

ويصور عبد الرحمن بن الجوزي المعاصر ما تمّ في بغداد بعد شهرين تقريباً من لبس صلاح الدين لتشريفه. ففي يوم الأحد 11 شوال 567 هـ / 17 حزيران 1176 م:

«دخل نَجَاح الخادم [على الوزير في مكتبه]. . . ومعه خَطٌّ [أمر مكتوب] من الخليفة يذكر [فيه] أنّه قد استغنى عنه، فأُمِر بَطُبْق دَوَاته، وحَلِّ إزاره [ثوب الوزارة]، وقيامه من مُسْنَده [مكتبه] ثم قبض على ولده ونهبت دورهم» [2].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 10 (طبعة دار الكتب المصرية) ص 146. وانظر نص العهد كاملاً في الملحق رقم 3 أ.

(2) المنتظم، 10 ص 238 - 239.

وبقي الوزير معزولاً خائفاً مشرداً يتنقل في بغداد من دار إلى دار حتى توفي نور الدين في شوال 569 هـ/ أيار 1174، وسيطر صلاح الدين على الشام، وكتب إلى الخليفة طالباً تقليده البلاد فأعاد نفس الخليفة ابن رئيس الرؤساء إلى الوزارة [1] في 23 ذي القعدة 570 هـ/ 15 حزيران 1175 م، بعدما هرب قايماز بن عبد الله، مملوك المستنجد التركي الذي كان المتحكِّم بدولة المستضيء. يذكر ابن الجوزي عنه:

«فلما ولي المستضيء . . ./ . . . زاد أمره، وصار مُقَدّماً على الكل، وكانت الجنود كلها تحت أمره، وانبسط كثيراً حتى أن المستضيء أراد تولية وزيرٍ، فمنع من ذلك وأغلَق باب النوبي [2] يومين. . .» [3].

فهل كانت هذه التطورات مصادفات وقعت؟ أم كانت ذات علاقة بطلب صلاح الدين؟ وهل نستغرب بعد ذلك مقتل هذا الوزير على يد الإسماعيلية وهو في طريقه إلى مكة للحج [4]، ومغادرة ابنه بغداد إلى الشام حيث «أحسن إليه صلاح الدين» [5].

لا بُدّ أن نور الدين عَرَف، عن طريق أعوانه من رجال دولة الخلافة وغيرهم، بخبر رِسَالة صلاح الدين إلى الوزير، ومن هُنا يمكن أن نَفْهم «الوحشة» بينه وبين صلاح الدين. ومع كل ما حدث أثناء هذه الفترة المحدودة فإن العلاقة ظاهرياً، بقيت وُدِّيّة، ذلك أنّ القائدين قَدّما مصلحة المسلمين على مصلحتيهما الشخصِيّة، وتابعا كُلٌّ من جهته، مواجهة التحديات الكبيرة التي مثَّلَتْها الإمارات والممالك الفرنجيّة الصليبيّة. ولم يحدث أن قام أي

(1) يذكر ابن الجوزي: «وخلع على الوزير ابن رئيس الرؤساء، وأعيد إلى الوزارة، وجلس في الديوان، واحْضَرَنا للاستفتاء في حق قيماز، وما يجب عليه من مخالفته أمير المؤمنين، فكتب الفقهاء كلهم أنه مارق» المنتظم، 10 ص 254.

(2) الباب الرئيسي لقصر الخليفة ببغداد.

(3) المنتظم، 10 ص 256.

(4) انظر المنتظم، 10 ص 273 - 274؛ البرق الشاميّ 3 ص 86 - 88، تحقيق مصطفى الحياري، عمان.

(5) مرآة الزمان، 8 ص 169.

منهما بعمليات كبيرة ضدّ الصليبيين، وكانت أعمالهما رَدّ فعل إلاّ ما كان من الحملة على بلاد إمارة الكرك التي كانت لا تزال تُهَدّد الطريق بين دمشق والقاهرة، والتي اعتبرها الجانبان في ذلك الوقت الخطر الأهم الذي يجب القضاء عليه أولاً قبل التركيز على الساحل الذي يتركز فيه كل السيطرة الصليبيّة[1].

ومن ناحيّة أخرى ظل صلاح الدين يعتبر نفسه تابعاً لنُور الدين ونائباً له في مصر، يذكر اسمه في الخطبة فيها والسكة على نقودها بعد اسم الخليفة العباسي. فالقضيّة كلها كما لخّصها أبو شامة في تعليقة على تطوراتها:

«... مما تقتضيه الطِّبَاع البَشَرِيَّة، والجِبِلَّة الآدَمِيَّة، وقد أجرى الله سبحانه وتعالى العَادَة بذلك، إلاّ من عَصَم الله. ومن أنْصَفَ أعْذَر. ومن عَرَفَ صَبَر...» [2].

وفي النهاية نجد أنفسنا أمام ثلاث قوى متدرجة في العالم الإسلامي: الخلافة العباسية ذات السيادة العامة على كل دول العالم الإسلامي، ودولة نور الدين التي تستمد شرعيتها من الدولة العباسية التي منحتها الشرعيّة في حكم كل البلاد التي حكمها نور الدين بالتفويض منذ عهد المقتفي، والذي كان يتجدد عند ولاية كل خليفة جديد كما رأينا، أمّا صلاح الدين فقد حاول اكتساب هذه الشرعيّة في المناطق التي تمكن مع عمه من فتحها، لكن مانح السيادة تراجع عن ذلك لأنه يتعارض مع الشرعية التي أعطاها لنور الدين، فسكت صلاح الدين، وقبل ببقاء وضعه السابق كنائب لنور الدين، لكنه كان خائفاً من أن يقوم نور الدين بسلبه سلطته ومن هنا يمكن أن نعرف مغزى قِصَة الاجتماع الذي عقده البيت الأيوبي في القاهرة.

في نفس اليوم الذي كان الوزير العباسيّ يعقد الاجتماع الكبير في الديوان العزيز الخليفتي لقراءة البشارة بالخطبة العباسيّة في مصر (22 محرم / 25 أيلول 1171 م)، وبغداد تحتفل احتفالاً كبيراً بذلك الحدث الخطير، كان صلاح الدين

(1) لا حاجة للدخول في تفاصيل هذه «الوحشة» أو الاختلاف والذي بالغت فيه بعض المصادر كثيراً، وقَللت مصادر أخرى من أهميته كثيراً.

(2) الروضتين، 173.

يَتَحرّك على رأس قسم من قُوّاته المختارة من القاهرة[1] إلى المناطق التي يسيطر عليها الصليبيون. يذكر كاتب نور الدين ووزيره:

«وكان صلاح الدين واعَدَهُ نور الدين أن يجتمعوا على الكرك والشوبك، يتشاوران فيما يعود بالصلاح المشترك، فخرج في الثاني والعشرين من المحرم»[2].

وجمع نور الدين عساكره وأقام ينتظر وصول الخبر إليه من صلاح الدين بخروجه من مصر حتى يتَحَرّك هو للقائه والاجتماع به. ثم وَصَل الخبر المنتظر، فسار نور الدين - في قول ابن الأثير - إلى الكرك ووصل إليه، وأقام ينتظر وصول صلاح الدين حتى أتاه رسول الأخير:

«يَعْتَذِر فيه عن الوُصُول باختلال البلاد، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها، فعاد إليها. فلم يقبل نور الدين عذره»[3].

أما العماد فيذكر: «فاتفق للاجتماع عائق، ولم يقَدّر للاتفاق قَدَر موافق»[4].

فهل هذا ما حدث حقيقة؟، وأنّ صلاح الدين خاف من الاجتماع الذي يمكن أنْ يؤدي إلى فقدان مصر؟ فالمصادر العربيّة المعاصرة، غير ابن الأثير، تسكت عن هذا الموضوع، لكنّ وليم الصوري، المؤرخ المعاصر والمرافق للملك عموري أغلب الأوقات، يزودنا بمعلومات مفصّلَة عن حملة صلاح الدين هذه، ويذكر:

توجّه صلاح الدين في خريف سنة 1171[5] لغزو أراضي مملكة القُدس، وقَطَع الصحراء، وَوَصَل إلى مكان يُدعى Cannes (أو عَيْنُون أو عُيون القَصَب في

(1) انظر العماد، سنا، 1 ص 118؛ الروضتين، 1 ص 203.
(2) الروضتين (العماد) 1 ص 203.
(3) الكامل، 11 ص 371 - 372. وتـرد قصّة عودته والاجتماع الذي عقده في الملحق رقم 4.
(4) سنا، 1 ص 118.
(5) ذلك يتفق مع خروج صلاح الدين من القاهرة.

النقب)[1]، وأقام بعسكره في المخيم هناك. وكان الملك عموري يتوقّع مثل هذا الهجوم، فجمع قُوّاته استعداداً لمواجهته - ربّما في عسقلان - ثم سار إلى قُرْب بئر السبع شمالي النقب حتى يتمكن من مراقبة حركة قوات صلاح الدين ومراقبتها[2]. وكانت المسافة بين المعسكرين، في تقدير المؤرخ، لا تزيد عن سبعة وعشرين كيلو متراً[3]. ولمّا كان عموري لا يعرف بدقة هدف حملة صلاح الدين أو الجهة التي سيهاجمها أو يتجه إليها، وحتى يتجنب المواجهة المباشرة معه في ظروف غير مؤاتية، فقد قَرّر العودة إلى عسقلان لمتابعة الموقف منها عن طريق المراقبين الذين يُزَوّدونه بالأخبار؛ ولمّا لم يصله شيء توجّه إلى الدّارُوم، فلم يجد أثراً أو خبراً للحملة الصلاحيّة، فتوجّه منها إلى بئر السبع من جديد[4].

وفي هذه الأثناء تَوَجّه صلاح الدين مباشرة من عيون القَصَب إلى الشرق نحو وادي عربة ثُمّ إلى الشّوبك وقلعتها الحصينة جداً. ذلك في الوقت الذي كان نور الدين يُحَاصِرُ الكرك أو ينتظر وصول الخبر من صلاح الدين[5]. وكانت هذه المَرّة الأولى التي يختبر فيها الناصر يوسف تحصينات الشوبك القويّة، والتي لم يرجع إليها بعد هذه التجربة لمعرفته بصعوبة الاستيلاء عليها بالقُوّة مهما كثرت. يصف الصوري القلعة:

«... كانت القلعة الرئيسيّة في المنطقة وأهمها.. لأنها تقع على تَلّة عالية ومُحَصّنة بصورة ممتازة بالأسوار والأبراج. أمّا القرية خارجها فتقع على أعلى منحدر التَلّة في مكان شديد الانحدار والعُلُوّ بحيث لا تخشى هجوم القوات ولا هجمات آلات الرمي أو السهام»[6].

---

(1) في ياقوت عينون من قرى بيت المقدس... من دون البحر الأحمر. ويذكر عن البكري أنها: قرية يَمُر بها طريق الحاج المصري. معجم، 4 ص 180.

(2) وليم، تاريخ، 2 ص 389.

(3) انظر: Saladin, p. 124.

(4) وليم، تاريخ، 2 ص 388.

(5) الكامل، 11، ص 392 - 393.

(6) المصدر (5)، ص 389.

وشَدّد صلاح الدين الحصار عليها عِدّة أيام دون طائل، ولم تؤثر الهجمات فيها، كما أنّ سكان القريّة كانوا من النصارى المحليين الذين يثق بهم الصليبيون، إضافة إلى أن القلعة كانت مزَودة بحامية مناسبة للدفاع عنها، وبالمؤمن والسلاح الذي يكفيهم مُدّة طويلة[1]، فقرر صلاح الدين الرّحيل بقُوّاته إلى مصر.

وفي آخر يوم صفر من السنة التالية [20 تشرين الثاني 1172 م] أغار الصليبيون على زُرَع وقرية سمكين من حوران، فوصل الخبر بذلك إلى نور الدين وهو مخيم بالكسوة خارج دمشق، فَسار نحوهم؛ فلمّا عرفوا بتقدّمه رحلوا (الأول من ربيع الأول) من حوران باتجاه السواد - المنطقة جنوبي اليرموك - ونزلوا في منطقة وادي الشلّالة. ووصل نور الدين إلى معسكر عَشْتَرا في حوران، وبعث سريّة إلى أعمال طبرية، فخَرّبت هناك وعادت، ولحقها بعض قُوّات الصليبيين إلى نهر الأردن لكنّها عبرت النهر بسلام، وعادت قوات نور الدين محملة بالغنائم، فرحل إلى دمشق عائداً[2].

وأثناء إقامة نور الدين في دمشق، توجّه صلاح الدين في شعبان (نيسان أيار 1173 م) من القاهرة على رأس قوة مختارة من عسكره للإغارة على بلاد الكرك والشوبك (وليس القلاع) ولإيصال هديّة إلى مناطق آمنة في طريقها لدمشق ودار الخلافة ببغداد. ويذكر ابن شداد أنّ الهدف الأساسي لهذه الحملة كان بلاد الكرك والشوبك:

«وإنما بدأ بها لأنها أقرب إليه، وكانت في الطريق تمنع من يَقْصد الديار المصرية، وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه حَتّى يُعَبِّرها بلاد العدو، فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض، وتسهل على السابلة، فخرج قاصداً إليها...»[3].

---

(1) المصدر نفسه.

(2) سنا، 1 ص 127 - 128؛ الروضتين، 1 ص 226 - 227؛ مفرج، 1 ص 207.

(3) النوادر، ص 45.

أما ابن الأثير فذكر أن صلاح الدين خرج بقواته إلى بلاد الصليبيين، «يريد حصر الكرك، والاجتماع مع نور الدين، والاتفاق على قصد الفرنج من جهتين كل واحد منهما في جهة بعسكره»[1]، لكن الحقيقة أنّ مثل هذا الاجتماع لم يتم وأنّ الهدية وصلت إلى دمشق، وأن صلاح الدين شَنّ الغارات على بلاد الكرك والشوبك[2].

ومَرّة أخرى يزودنا وليم الصوري بتفاصيل أدق عن هذه الحملة وردة فعل الملك عليها:

«وفي السنة التالية [1173]... قام [صلاح الدين] بالتجهّز ثانية لغزو بلاد المملكة: ذلك أنّه تحقق لديه أنّ ما أنجزه في السنة السابقة من مهاجمة قواتنا كان قليلاً، فرغب في تعويض هذا الفشل.... فجمع عسكراً قوياً من كل أنحاء مصر... وتَقدم عبر الصحراء حتى لا تُعرف تحركاته وبالتالي يتمكن من إيقاع أكثر الضرر بالسكان»[3].

وفي شهر تموز (شوال ـ ذو القعدة) من السنة وصل صلاح الدين إلى بلاد الكرك والشوبك. وعندما عرف الملك عموري بهذه الحملة وتقدمها، سار على رأس نخبة من عسكره إلى النقب، حيث عرف بتوجّه صلاح الدين إلى بلاد الكرك. وخشي الملك اللحاق به مباشرة «حتى لا يقوم صلاح الدين بهجوم في منطقة أخرى عندما يعلم بتوجه الملك إليه»[4].

وحتى يتمكن الملك من متابعة تحركات صلاح الدين قَرّر التوجه إلى جبال الخليل واختيار مكان يشرف على المنطقة وراء البحر الميت ووادي عربة، فسار وعسكر قرب كرمل الخليل[5] حيث يتوافر مياه عذبة تكفي قواته بكل

---

(1) سنا، 1 ص 124 - 126؛ الروضتين (عن البرق الشامي) ص 206.

(2) الكامل، 11 ص 392.

(3) وليم، تاريخ، 2 ص 389.

(4) المصدر نفسه.

(5) خربة الكرمول في الوقت الحاضر التي تقع إلى الشمال الشرقي من قرية السَمُوع. انظر: =

حاجاتها [1]. في ذات الوقت كان صلاح الدين قد فَرق قُواته إلى مجموعات ووزعَها على أعمال هاتين القلعتين الحصينتين لتنهب كل ما تجده فيها إضافة إلى قطع الكروم والأشجار وإحراق المزروعات وتخريب القرى؛ كل ذلك لإضعاف قُوّة الصليبيين القتاليّة. وفي نهاية شهر أيول (صفر 568 هـ) عاد إلى القاهرة بعد أن دَمّر المنطقة كلياً كما يريد [2].

ومن أهم الأعمال الموثَقة التي قام بها صلاح الدين خلال هذه الحملة هو ترحيل بعض قبائل عربان هذه البلاد منها إلى بلاد حوران وصَلْخَد، لأنهم كانوا يقومون بإرشاد قوات الصليبيين على الطرق التي تسلكها قواته والقوافل بين الشام ومصر. وما بقي لدينا من كتاب «مَنْشُور» ترحيلهم، والموجه من صلاح الدين إلى نور الدين، بقلم القاضي الفاضل ما يؤكد ذلك بدقة:

«سبب هذه الخدمة إلى مولانا الملك العادل [نور الدين] أعز الله سلطانه، ومَدّ أبداً إحسانه، ومكّن إمكانه، وشيّد بالتأييد مكانه، عِلْم المملوك [صلاح الدين] بما يؤثره المولى [نور الدين]، بأن يقصد الكُفَار بما يَقُصّ أجنحتهم، ويَفْلُل أسلحتهم، ويقطع موادّهم، ويُخرّب بلادهم. **وأكبر الأسباب المعينة على ما يرومه من هذه المصلحة أن لا يُبقي في بلادهم أحد من العُربان**، وأن ينتقلوا من ذل الكفر إلى عِزّ الإيمان. ومما اجتهد فيه غاية الاجتهاد، وعَدّه من أعظم أسباب الجهاد، **ترحيل كثير من أنفارهم والحرص على تبديل ديارهم، إلى أن صَار العدو اليوم إذا نهض لا يجد بين يديه دليلاً، ولا يستطيع حيلة، ولا يهتدي سبيلاً** [3].

ولو كان هؤلاء العربان **يرغبون في الديار المصريّة** لكان يحمل كَلَّهُم

= Benvenisti, Crusaders P. 305 - 306. أما ياقوت فيحددها بصورة عامة بأنها آخر حدود الخليل من فلسطين، معجم، 4 ص 456.

(1) وليم، تاريخ، 2 ص 390.

(2) المصدر نفسه؛ سنا، 1 ص 124 - 125.

(3) الروضتين، 1 ص 206؛ سنا، 1 ص 125 - 126. وهنا ينتهي النص في الروضتين.

ويَسُوق كُلهم، لكنّ هَواهم في الشام ورغبتهم في بلاده دون غيرها من بلاد الإسلام. ولو أنّ المولى خَلّى لهم إقليماً، وأقطعهم إقطاعاً عظيماً ليقْطَعُهُم عن الكفر وبلاده، ويبعدهم عن تكثير سَواده، لكان في ذلك أحسن فعلاً، وحمل عن المسلمين ثقلاً [عبئاً]؛ فكيف وهم يخدمون في البلاد خدمة من عرف موالجها، وخبر طرقها ومناهجها، فما يَدَعُون جهداً في إخرابها، وشَنّ الغارة عليها، ومواصلة الفتك فيها»[1].

وفي الوقت الذي كان صلاح الدين يعيث فيه في بلاد الكرك والشوبك، وصَلَت الهديّة الرمزيّة التي حملها معه إلى دمشق، وأرسل معها مبلغ ستين ألف دينار. وقبل نور الدين الأمتعة والأدوات الثمينة وشكر مرسلها، لكنّه علق على مبلغ المال:

«وقال: ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال، ولا نَسُدّ به خِلّة الإقلال، فهو يَعْلَم أنا ما أنفقنا الذهب في ملك مصر وبنا فقر إلى الذهب... لكنّه يَعْلَم أنّ ثغور الشام مفتقرة إلى السداد، ووفور الأعداد من الأجناد، وقَدْ عَمّ بالفرنج بلاء البلاد، فيجب التعاقد على الإمداد بالمعونة والإمداد، فاستنزره وما استغزره، واستَقَلّ المحمول [من المال] في جَنْب ما حَرَّره [صَرَفه]، وتَرَوّى في ما يُدَبّره، وأفكر فيما يُقَدّمه من هذا المهم ويؤخّره»[2].

ومنذ تَولّي صلاح الدين الوزارة في القاهرة وحتى هذا الوقت لم يُرْسل صلاح الدين شيئاً من المال إلى نور الدين يتقَوى به في تجنيد الأجناد بدل الذين تركوا الشام إلى مصر، لكنّ صلاح الدين ورث خزانة خاوية من المال كان شاور قَد بددَها، كما لم يجد مالاً في دار الخلافة إذ صَرَف الخليفة العاضد الأموال لشاور وصلاح الدين [مليون دينار ذهبيّة في مواجهة الصليبيين في دمياط]،

---

(1) سنا، 1 ص 126.

(2) العماد (البرق الشامي)، في الروضتين، 1 ص 206. وأرسل نور الدين بعض الهديّة إلى بغداد. المنتظم، 10 ص 244؛ مفرجع 1 ص 226.

إضافة إلى بنائه دولة جديدة وجيش جديد، واستمالة قلوب أهل مصر. وإضافة إلى ذلك فإن صلاح الدين، كنائب لنور الدين في مصر، لم يُقَدِّم كَشْفَ الحساب السنوي لميزانيته إلى دمشق، وهو أمر كانت تقتضيه أعراف ذلك الوقت خاصة بالنسبة لبلاد جديدة فتحت وصارت جزءاً من دولة أكبر. لكن ربّما كان صلاح الدين معذوراً في أن الفتن والاضطرابات وعمليّة المَسْح والتقدير وتوزيع الاقطاعات بشكل مناسب على قُوّة عسكريّة تتزايد باستمرار، لَم تمكنه من القِيَام بذلك.

ويبرر العماد الإصفهاني موقف نور الدين المُتَرَدد في المطالبة بمال سنوي من صلاح الدين:

«وكان نور الدين مذ ملكت مصر... **يؤثر أنْ يُقَرر له فيها مال للحمل** يستعين به على كلف الجهاد، وتخفيف ماله من الثقل، والأيام تُماطله والأعوام تماطله، وهو ينتظر أنّ صلاح الدين الذي يبتدىء من نفسه بما يريده، وهو لا يستدعي منه ولا يستزيده؛ فلمّا حَمَل من أخائر الذخائر والمال الحاضر ما حمله، وعرف مجمله ومُفَصّلَه...»[1]، اتخذ القرار الذي كان عليه أن يَتّخذه قبل ذلك بمُدّة حتى يحْسِم الأمر في هذا الجانب من بين جوانب أخرى، خاصة وأن مصلحة الدولة ـ في نظره ـ كانت تتطلب ذلك فكيف يُحَلّ الإشكال إذا كانت الدولة لا تُقَرِّر، والنَّائِب في مصر لا يطلب المزيد من المال ويكتفي بإمكاناته في الظروف الصعبة التي كان يَمُرّ بها؟.

وجاءت مناسبة الهدية والمال القليل الذي أرسله صلاح الدين كجزء من الهدية، فقَرّر نور الدين حسم أمر العلاقة الماليّة بين الجانبين الواقفين على الثغرين في مواجهة الصليبيين، فانتدب صاحب استيفاء (بيت ماله العام)، الذي كان بمثابة وزيره، بهذه المهمة الخطيرة، وهو المُوَفّق خالد بن القيسراني. يذكر ابن واصل بإيجاز:

---

(1) «روضتين»، 1 ص 206.

«فتقدّم حينئذٍ نور الدين إلى موفق الدين. . . أن يمضي إلى الديار المصريّة، ويتقاضى صلاح الدين، ويعمل أَوْرَاقاً [كشفاً] بارتفاع [حاصل الدّخل] الأعمال المصريّة، ولا يترك في النفس حزازة من أمرها»[1].

كان نور الدين في ذلك الوقت في ضواحي دمشق الشمالية في طريقه إلى حلب وبلادها لتفقد أحوالها، فسار هو إلى بعلبك وتوجه ابن القيسراني إلى دمشق مع متولي خزانة نور الدين وناظر ديوانه لاختيار الهدية إلى صلاح الدين ثُمّ التوجه إلى القاهرة. وكان ذلك في ذي القعدة568 هـ/ حزيران ـ تموز 1173 م.

وقبل وصول ابن القيسراني إلى القاهرة، وعودة صلاح الدين بأيام من الغزوة على بلاد الكرك ـ الشوبك، توفي نجم الدين أيوب حكيم البيت الأيوبي ومؤسس مَجْدِه في 27 ذي الحجة[2] [9 آب 1173 م]. ثم عاد صلاح الدين إلى مقر سلطته، ووصل ابن القيسراني بهديته لتنفيذ مهمته في هذه الظروف. ويُقَدّم المقريزي[3] ملخصاً شاملاً لما قام به الموفق في مصر:

«فلما وَصَل إلى القاهرة، أقبل عليه صلاح الدين إقبالاً زائداً وتَلَقّاه أكرم تَلَقٍ وبالغ في تعظيمه[4]، إلى أنْ طلب الحِسَاب، فَشَقّ [على صلاح الدين]. . . ذلك، وقال: إلى هذا الحد وصلنا؟».

ثم «وأوقفه على ما تَحَصّل له، وعَرَضَ عليه الأَجْنَاد، وعَرّفه مبلغ إقطاعاتهم وجامكيّاتهم[5] ورواتب نفقاتهم، ثم قال له:

---

(1) مفرج، 1 ص 232. التفاصيل في سنا، 1 ص 130 - 132.

(2) الروضتين، 1 ص 209 - 210.

(3) يستند المقريزي إلى الترجمة في الوافي بالوفيات (ج 13 ص 282 - 283) ويضيف إليها معلومات توضح الصورة بشكل أفضل.

(4) يذكر الصفدي بعد هذا «ثم قال له: السمع والطاعة، والحساب والمال حاصلان، ولكن: توجه إلى الإسكندرية واسترفع حسابها وخراجها وعد، تجد الذي ها هنا حاصلاً» المصدر نفسه، ص 283.

(5) ما يدفع للمقطعين من مخصصات عينية إضافة إلى حاصل إقطاعاتهم.

«وما يُضْبَط هذا الإقليم العظيم إلاّ بالمال الكثير، وأنت تعرف أكابر الدولة وعظماءَها، وأنَّهم مُعْتَادون بالنعمة والسَّعَة، وقد تَصَرّفوا في أماكن لا يمكن انتزاعُها منهم، ولا يسمحون بأن ينقص من ارتفاعها، وأخَذَ يجمع المال».

ثم طلب من الموفق:

«التوجه إلى الإسكندريّة ليسترفع (ليعمل) حسابها وخراجها حتى يتَهَيأ ما يحمل للسلطان [نور الدين]. فمضى إلى الإسكندرية وعاد؛ فجهز صلاح الدين صحبته هدية جليلة [1] . . . »[2]. والمال [3].

وتوفي نور الدين يوم 11 شَوّال 569 هـ / 15 آيار ـ مايو 1174 م والموفق في طريقه إلى دمشق ومعه الفقيه عيسى الهكاري لتسليم الهدية، وسار إلى دمشق عن طريق الساحل الفلسطيني بعد أن حَصَل على الأمان من الملك الصليبي، ووصل إلى دمشق وأهل المدينة ورجال الدولة مشغولين بوفاة نور الدين، «فلزم داره بسكون وعقل، ولم يدخل مع القوم في شُغل» [4].

كانت الدولة والمجتمع في مصر في ذلك الوقت في فترة التحول الكبرى في تاريخها من خلافة ونظم ومؤسسات ورجال حكموا البلاد قرنين من الزمان وأثّرُوا في كل جوانب حياة مجتمعها إلى حكم جديد ودولة جديدة لها نُظُمها ومؤسساتها ورجالها والتي بدأت بإجراء التغيير بالتدريج. وحاول صلاح الدين اكتساب عامة الناس إلى جانبه ونجح إلى درجة كبيرة، لكنّ بعض مفكري الدولة الفاطميّة ورجالها وبعض الجماعات التي فقدت نفوذها وامتيازاتها، ظلّت على ولائها لما كانت تمثله الدّولة السابقة من أفكار وامتيازات، ويتمنون المساعدة

---

(1) المقفى الكبير، 3، ص 741؛ ومختصر عن ابن أبي طيء والعماد في الروضتين، 1 ص 219.
(2) انظر الملحق رقم 5، عن كتاب بخط ابن القيسراني نفسه وَقَف عليه ابن أبي طيء ويذكر المقريزي أن بلغ المال كان 25 ألف دينار، المقفى الكبير، 3 ص 742.
(3) ابن أبي طيء في الروضتين، 1 ص 219.
(4) سنا، 1 ص 167.

في عودتها، لكنّ قُوّة هؤلاء الرجال والجماعات لم تكن كافية لتحقيق ذلك مع وجود القُوّة العسكريّة الكبيرة لدى صلاح الدين في مصر (في رجب 569 هـ/ شباط ـ آذار 1174 م) حتى بعد بَعْثِ أخيه الأكبر تورانشاه الذي كان سنده الأكبر منذ البداية، في حملة على اليمن، فكان لا بدّ من الاتصال بالجار الذي كان دائماً على استعدادٍ للمساعدة في كَسْرِ الطوق الذي أحاط به: مملكة الصليبيين في فلسطين، وملك الرومان في صقلِيّة: الأول يتقَدّم بقواته من البرّ والثاني بأسطوله من البحر.

وفي كتاب نادرٍ بقلم القاضي الفاضل من صلاح الدين إلى نور الدين، كتبه بعد التحقيقات التي أجراها وغيره مع المشاركين في المؤامرة، يُلَخص **الكاتب بتركيز وشمول**: بدايات المؤامرة، وتطوراتها، وكيفيّة كشفها، وصلب رءوس المتآمرين أمام بيوتهم.

1 ـ أنّ صلاح الدين كان لا يزال، بعد قضائه على الخلافة الفاطميّة، يعتبر «جند مصر . . . وأهل القَصْر» الفاطمي أَعْداء لدولته وضِدّ وجوده، ويتوقع منهم القيام بعمل ضِدّه، ولذلك فقد كان متحرزاً منهم، ووضع عليهم من عيونه ورجاله الموثوقين من يراقبهم باستمرار. ومع ذلك فقد استمر عملهم سرياً بمختلف الوسائل التي كانت متاحة لهم.

2 ـ وأنهم كانوا، من إعلان الخطبة العبّاسيّة وحتى القبض عليهم، لا يمر عليهم شهر ولا سَنَة إلاّ وهم يُدَبِّرون المكائد ويعقدون الاجتماعات ويبعثون الرُّسل إلى الصليبيين لموافقتهم على ما يريدون:

«وكان أكثر ما يتعللون به، ويستريحون إليه، **المكاتبات المُتَواترة، والمراسلات المتقاطرة إلى الفرنج يوسعون لهم فيها سُبُل المطامع . . . ويزينون لهم الإقدام والقدوم. . .**»[1] . لكن الفرنج لم يستجيبوا بداية لخوفهم من صلاح الدين، وفي ذات الوقت يؤمِّلُونهم بالمساعدة في الوقت المناسب.

(1) الروضتين، 1 ص 220. وقد أعدتُ ترتيب المعلومات لتكون في تسلسلها الزمني والمنطقي.

3 ـ ووصل الأمر إلى أنّهم كاتبوا ملك الصليبيين عندما قام صلاح الدين بحملته الثانية على بلاد الكرك والشوبك في قسم كبير من قُوّاته، يطلبون منه القيام بالدور المتفق عليه، وقالوا في كتبهم:

«إنه بعيد، والفرصة قد أمكنت، فإذا تَقَدّم عموري بقواته إلى صَدْر أو إلى أيلة، فإنه سيقطع الطريق على صلاح الدين ويمنعه من العودة، وعند ذلك تثور في القاهرة:

«حاشية القصر، وكافة الجند [الفاطمي السابق في مصر]، وطائفة السودان، وجموع الأرْمن وعامة الإسماعيلية».

وتفتك بأهل صلاح الدين ومعاونيه ورجال دولته في العاصمة [1]. لكنّ يقظة صلاح الدين والتكتيكات والمناورات التي قام بها أربكت عموري الذي كان يحاول جاهداً معرفة حَرَكات صلاح الدين في النقب وجنوبي الأردن، وجمدته عند مياه الكرمل في جبال الخليل لخوفه من أن يستغل صلاح الدين فرصة حركة الملك الخاطئة، فيتوجه إلى المناطق غربي نهر الأردن والبحر الميت.

4 ـ ولم ييأس المتآمرون: فعندما وصل المدعو جِرْج (جورج أو جورجيوس)، كاتب الملك عموري، الى القاهرة في مراسلة إلى صلاح الدين (ويبدو أنّ الرسائل كانت متصِلَة في أوقات السلم)، اتصلوا به، وأرسلوا معه كتاباً إلى الملك عموري «**أنّ العساكر متباعدة في نواحي إقطاعاتهم، وعلى قرب من موسم غلّاتهم**، وأنّه لم يبق في القاهرة إلّا بعضهم، وإذا بعثت أسطولاً إلى بعض الثغور، أَنْهَضَ فلاناً من عنده، وبقي [صلاح الدين] في البلد وحده، ففعلنا ما تقدم ذكره من الثورة» [2].

وهذا دليل آخر على محاولة استغلالهم لكل الظروف المناسبة، ذلك أن وقت جمع الغلّات من الحقول هو الوقت الذي يذهب فيه الأمراء المقطعين

---

(1) المصدر نفسه، ص 221.
(2) الروضتين، 1 ص 221.

وأجنادهم إلى إقطاعاتهم لأخذ حِصَّتِهم من الناتج وتوزيعه، وهذه كانت حالة عادية معروفة في تاريخ المنطقة في العصور الوسطى.

5 ـ أنّ الملك عموري كان كُلّما أراد التعرف على الأوضاع في مصر والاتصال بالمتآمرين والتفاوض معهم، كان يبعث بـ «جِرْج» رسولاً إلى صلاح الدين «**ظاهراً إلينا، وباطناً إليهم، عارضاً علينا الجميل الذي ما قبلته قط أنفسنا، وعاقداً معهم القبيح الذي يشتمل عليه علمنا. ولأهل القصر والمصريين [الجند] في أثناء هذه المُدَد رُسل تتردد، وكُتُب إلى الفرنج تتجدّد**».

6 ـ كانت سياسة صلاح أثناء هذه الفترة أنه إذا شَك أعوانه بأحدٍ من الجماعات المذكورة وقام باعتقاله،ولم يتمكنوا من إثبات التهمة ضده، أطلق سراحهم، وخَلّى سبيلهم، فلا يزيدهم العفو إلاّ ضَراوة، ولا الرقة عليهم إلا قساوة» [1].

7 ـ واتصل المتآمرون في ذات الوقت «بشيخ الجبل» سنان [2]، زعيم الإسماعيليّة النزارية في بلاد الشام، طالبين مساعدته، مُحْتَجّين «**بأن الدعوة واحدة، والكلمة جامعة، وأنّ ما بين أهلها خلاف إلا فيما يفترق به كلمه، ولا يجب به قُعُود عن نُصْرَة**» [1]. وطلبوا منه بصورة خاصة اغتيال «الملوك» كما كانت عادتهم أو نصب المكائد لهم. وكان الرسول إليهم خال ابن قرجلة [3]، أحد رجال الدولة الفاطميّة السابقين. ويبدو أن الاثنين كانوا عند صاحب الجبل عند اكتشاف المؤامرة، فالتجأوا إلى الصليبيين [1].

8 ـ ولا نعرف إذا كان المتآمرون اتصلوا بملك صقليّة لإرسال الأسطول مباشرة أم عن طريق ملك الصليبيين، لكنّ الأسطول قَدِم بعدم فشل المؤامرة، إلى الإسكندرية وكان مكوناً من 200 سفينة ويحمل أعداداً كبيرة من الخيالة

---

(1) **الروضتين**، ص 221.

(2) انظر عنه ابن العديم، **بغية الطلب**.

(3) ابن قرجلة: من كبار رجال الدولة الفاطمية.

والرجالة[1] فمُنِي بخسائر كبيرة خاصّة وأن الملك عموري لم يتقَدّم في البرّ كما كان الاتفاق بسبب القضاء على المتآمرين بحزم.

9 ـ وفي المَرّة الأخيرة التي قدم فيها «جِرْج» برسالة إلى ديوان صلاح الدين، وصل كتاب إلى الديوان «ممن لا نرتاب به من قومه (الصليبيّون)، يذكرون أنه رسول مخاتلة (خداع) لا رسول مجاملة»، فاتّخَذَ رجال صلاح الدين الاحتياطات المناسبة لمراقبته دون أن يشعر، ولم يظهروا له أي شَكٍ فيه. وقام «جِرْج» بالاتصال بجماعة القصر الفاطمي، ومدبري المؤامرة، وأمراء الجُند الفاطمي السابقين، وجماعة من النصارى واليهود. عند ذلك توصل رجال دولة صلاح الدين إلى إدخال أحد العيون إليهم من جماعتهم: «فَدَسَسْنا إليهم من طائفتهم من داخلهم[2]، فَصَار ينقل إلينا أخبارهم، ويرفع إلينا أحوالهم»[3].

10 ـ وبدأت تنتشر الإشاعات والأقاويل بين الناس حول المؤامرة، وخاف رجال دولة صلاح الدين من انكشاف الأمر وهرب رؤساء الفتنة، فقرروا اعتقالهم، ثم أَحْضِرُوا واحداً واحداً أمام صلاح الدين: «وقَرَّرَهم على هذه الحالة، فأقروا واعترفوا؛ واعتذروا بكونهم قُطِعت أرْزَاقهم، وأخذت أموالهم»[4].

11 ـ تَبَيّن من التحقيقات والإقرارات أنهم عَيّنوا خليفة ووزيراً، وأنّه وقع خلاف بينهم حول الخليفة وحول الوزير (آل رُزيك أو آل شاور).

12 ـ استفتى صلاح الدين العلماء في أمرهم، فأفتوا بقتلهم، وعندما تَرَدد صلاح الدين في التنفيذ، طالب أهل الفتوى وأهل المشورة بالإسراع في التنفيذ،

---

(1) وليم، تاريخ، 2 ص 399 - 400.

(2) يذكر ابن أبي طيء أن الجاسوس كان ابن مصال صاحب صلاح الدين من وقت حصار الإسكندرية، كما ذكرنا سابقاً. الروضتين، 1 ص 220. وتذكر مصادر أخرى أن ذلك الشخص كان زين الدين ابن نجيّة، الواعظ المشهور الذي ذكرنا دوره في السابق بين دمشق وبغداد والقاهرة.

(3) الروضتين، ص 221.

(4) الروضتين، 1 ص 220؛ وص 221.

فصَدَر الأمر بقتلهم وصلبهم: «وشنقوا على أبواب قصورهم، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم»[1]. وكان المشهورون الذين شنقوا: الشاعر عمارة بن علي اليمني، وعبد الصمد الكاتب، والقاضي العويرس، وداعي الدعاة ابن عبد القوي. وقد حاول القاضي الفاضل صادقاً الشفاعة لدى صلاح الدين في عمارة، على الرغم من العداوة القديمة بينهما، إلاّ أن عمارة اعتقد أنها خدعة فرفض قبولها، فتم صلبه مثل غيره.

13 ـ وأما أهل القصر فقد اعتقلوا بداية، ثُمّ نقلوا إلى أماكن مختلفة، وأعطَى القَصْر إلى أخيه العادل، ذلك أنّ صلاح الدين رأى: «فإنهم مهما بقوا فيه بقيت مادة **لا تنحسم الأطماع عنها**، فإنه [القَصْر] حبالة للضلال منصوب، وبيعة [مقامٌ] للبدع محجوجة»[1].

14 ـ وشُرِّدَت طائفة الإسماعيلية من بلاد مصر ونُفُوا، أما البقية فقد أعلن في القاهرة «بأن يَرْحَل كافّة الأجناد وحاشية القَصْر وراجل السُّودان إلى أقصى بلاد الصعيد»[1].

15 ـ وكشفت التحريات والبحث في هذه القضيّة عن وجود داعية يُسَمّى «قُديد القَفّاص» في الإسكندرية، التي كان غالبيّة أهلها من أهل السنة، وأن دعوته انتشرت في بلاد الشام ومصر، «وأن أرباب المعايش [الحرف والصناعات] فيه [ثغر الإسكندرية] يحملون إليه جزءاً من كسبهم، والنُسوان يبعثن إليه شطراً وافياً من أموالهن»[1]، كما وُجد لديه كتب ورقاع تدل على الكفر الصريح.

وهكذا فقد تمكن صلاح الدين بصبره وقيادته الحازمة من القضاء على هذه المؤامرة الفتنة التي دفعته أخيراً إلى اتخاذ القرار الحاسم بالنسبة لكل بقايا الدولة الفاطمية من بيت الخلافة، وكبار رجالها، والحاشية، والجند، والسودان.

---

(1) الروضتين، 1 ص 221.

تمت عمليّة الصلب يوم السبت لليلتين مضتا من شهر رمضان 569 هـ/ ليلة 6 نيسان 1174 م. ووصل كتاب صلاح الدين بتفاصيل المؤامرة إلى دمشق في اليوم الذي توفي فيه نور الدين. وهكذا نجد أن صلاح الدين الذي ارتاح قليلاً (40 يوماً) من أزمة قَدْ دخل في مشكلة جديدة هي مصير بلاد الشام والجزيرة الفراتية التي كانت تخضع لسيادة نور الدين، والتي صار مستقبلها السياسي بعد موته، في مهبّ الريح. فكيف تَصَدّى صلاح الدين لمواجهة هذه المشكلة؟ وكيف تمكن من توحيد القسم الأكبر منها مع مصر، وإخضاع الباقي لنفوذه.

8 توحيد المسلمين من أجل الجهاد

«إن أكبر خوفي هو أن يتمكن أمير مُسْلم واحد من إعادة توحيد المملكتين القويتين، القاهرة [مصر] ودمشق [الشام]، ويَقْضِي على اسم المسيحيين [اللاتين أو الفرنج الصليبيين] [في الشرق]».

من رسالة لبرناد دي بلانكفورت، مُقَدّم جماعة فرسان الداوية الدينيّة المُكَرسين لحرب المسلمين في الأراضي المقدسة والشام، الذي تولى منصبه بين 1156 - 1169 م أي النصف الثاني من فترة حكم نور الدين.

«وهكذا فإنّ كُلّ الممالك التي تحيط بنا [الصليبيون] تخضع لحاكم واحد، ويعملون حسب إرادة رجل واحد وقيادته وحده فقط؛ وهم مُسْتَعِدّون، ولو بتَرَدُّدٍ، لحمل السلاح كقوة واحدة من أجل إيقاع الأَذى بنا: فليس لأي واحدٍ منهم (الحق) في أنْ ينشغل بأي أهداف خاصة به أو أن يخالف (الجماعة) دون أن يقع عليه عقاب بأمرٍ من قائده الأعلى» هذا الرجل هو صلاح الدين، رجل ذو أسبقيات متواضعة في أحواله ـ، الذي يمتلك الآن تحت نفوذه كل هذه الممالك (ذات الإمكانات الكبيرة) فمن مصر والبلاد التابعة لها تأتيه الأموال الكثيرة. . . أما الولايات والممالك الأخرى فتزوده بكتائب لا محدودة (العَددِ) من الخيّالة والمحاربين (الآخرين). . . » وليم الصوري، **الأعمال**، [E]، ص 208.

قائدان من قادة الصليبيين الذين عاصروا النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي، أحدهما ـ الأول ـ المُقَدّم الأكبر لجماعة فرسان الداوية الدينيّة، المُكَرّسة كلياً لحرب المسلمين في الشام دفاعاً عن المملكة والإمارات الصليبيّة

الأخرى التي أُنشئت بقُوّة السلاح في قلب العالم الإسلامي، الذي كان معاصراً للنصف الثاني من فترة حكم نور الدين محمود التي ابتدأت بضَمّ دمشق وبلاد الشام الجنوبيّة إلى مملكته ووحّد بالتالي كل بلاد الشام والمناطق الغربية من بلاد الجزيرة بين نهري الخابور والفرات تحت سيادته وقيادته. والثاني قائد فكري واسع الثقافة بمعايير وقته، كان يَعْرف اللغة العربية معرفة جيدة، وبحكم منصبه كأسقف ومؤرخ شبه رسمي للمملكة الصليبيّة وتوابعها، ومراقب مشارك بصورة فعّالة في التطورات أحياناً، عَاصَر النصف الثاني من فترة حكم نور الدين والقسم الأكبر من فترة حكم صلاح الدين إلى ما قبل حطين بسنة أو سنتين. هذان القائدان أكدا على ناحية واحدة هي أثر وحدة أكبر بلدين من بلاد العالم الإسلامي أو ممالكه آنذاك، مصر والشام، على الوجود الصليبي الأوروبي في سواحل بلاد الشام؛ هذه الوحدة التي وضَع أُسُسَها نور الدين محمود وأكملها صلاح الدين يوسف بن أيوب قبل حطين بأشهر قليلة، وحَقّقا ما كان الصليبيون يخشَونه من نهاية ليست كاملة للوجود اللاتيني الأوروبي في الشرق، فسيطرة جماعات بشريّة غريبة على بلاد أخرى مدة تقارب القرن في جانبها الأهم وقرنين من الزمان في جانبها التاريخي العام تترك مخلفات، مهما كانت قليلة، لها أثرها في حياة منطقة كانت طول تاريخها المعروف عُرْضة للسيطرة الخارجيّة المتكررة. ومع ذلك فقد كانت دائماً تلفظ من أحشائها كُلّ من لا يستطيع التكيُّف مع جذورها وتراثها الأقْدَم والأعرق والأعمق من كل تطورات تقع على السطح تأتي بحكم القُوّة المادية المجرّدَة. فهناك، في الجذور، تكمن القوة الرّوحيّة والمعنوية التي استوعبت كل الصَدَمات على القشرة الخارجيّة. هذا هو تاريخها، وهو قدرها الذي لا يستطيع أهلها الهروب منه، ولا يستطيع المُسَيطرون الغرباء الهروب منه أيضاً.

وقد عَلّق القائد الفكري الصليبي قبل التعليق السابق، على تمكّن نور الدين من ضَمّ دمشق (1152 م) وكل بلاد الشام الجنوبية التي كانت بيد المسلمين وتوحيدها مع بلاد الشام الشمالية وامتدادها في شرق الفرات تحت قيادته، بقوله:

«. . . وكان هذا التغيّر [في السلطة في دمشق وبلادها] **كارثةً** مؤكدة لمصالح المملكة [الصليبيّة في بيت المقدس]، ففي مكان رَجْل لا سلطة [فعليّة] له ـ رجل ضعيف لا ضَرَر منه على [الفرنجة] الصليبيين، كان يدفع لنا إتاوة وكأنّه أحد رَعَايانا ـ حَلّ خَصْم شديد. لأنّه [كما يقول الرب في الإنجيل]، كل مملكة تنقسم على نفسها [تنهار] وتتفكك. ولذلك فإن كثيراً من الممالك تحصل بالضرورة، عندما تتحدد، على القُوّة من بعضها البعض وتنهض بقوة أعظم ضِدّ العدوّ المشترك».

فهل كان هذان القائدان يتنبآن أم كانا يقرآن التاريخ؟.

أقام الصليبيون الذين استقروا في المنطقة بعد الحملة الأولى (1099 م) والذين قدموا فيما بعد، مملكة وإمارات إقطاعيّة على غرار الممالك والإمارات التي جاءوا منها، وتأثرت بما كان لدى الممالك والإمارات الإسلاميّة التي استولت على أجزاء من بلادها، ونشأ فيها نُظُم ومؤسسات مختلفة شَمَلت كل جوانب الحياة، تأثر بعض منها بما كان موجوداً في المنطقة التي كانت أكثر تطوراً وتقدماً في هذه الجوانب مِمّا كان لديهم: نُظم ومؤسسات سياسيّة وعسكرية واجتماعية واقتصادية، من ملك أو أمير، وكونت، ونائب للكونت يوازي «الشحنة» في التراتيب عند المسلمين آنذاك، ومحاكم لكل فئة من فئات المجتمع، وطبقات اجتماعية من نبلاء وفرسان وفئات أخرى تكاد تكون منفصلة تماماً عن بعضها البعض وعن الفئات الأخرى من غير اللاتين الأوروبيين، ونظم اقتصادية ومؤسسات مالية مختلفة بما في ذلك «الأوقاف» على الكنائس والأديرة والمؤسسات الخيرية الأخرى التي تطلبتها حياة المجتمع آنذاك.

وكان أبرز المؤسسات في المملكة والإمارات الصليبيّة الفرسان أصحاب الإقطاعيات الصغيرة التابعين للملك أو الأمراء والبارونات الذين كان يحكمهم نظام قانوني دقيق وصارم أحياناً، الذي كان يحدد العلاقة بين المتبوع والتابع حتى أدق التفاصيل، ويدعمهم هيئات (أو جماعات) الفرسان من الداويّة

والإسبتارية المرتبطة بالبابا في روما مباشرة ولا تخضع لحكم الملك أو الأمير أو البارون (الكونت) وإنما لقوانينها الصَارِمة الخاصة بها، وتتعاون مع من تَقَدّم في الحدود التي تخدم الهدف المشترك: المحافظة على الو جود الصليبي في الأماكن المقدّسة وبلاد الشام وتوسيعه والدفاع عنه. وينضاف إلى ما تَقَدّم ما عرف بالمصادر العربيّة بـ« السَّرْجَنْدية» من رجّالة المدن من الطبقات الاجتما بّة الأخرى بما في ذلك رجال الدين، و «التيـركُبول » من الخيالة خفيفي التَسَدِ من عناصر مختلطة الدماء الذين كانوا أشبه بالمرتزقة أو «الجند المتعطلين» في الإمارات الإسلاميّة المجاورة، الذين يقدمون خدماتهم العسكرية بصورة مؤقتة ولمدة محددة مقابل المال. ويدعم جميع هذه الفئات، أو بعضها أحياناً، الحجّاج الزوّار الذين يفدون في أوقات معينة ثُمّ يعودُون، وبَحّارة السفن التجاريّة ـ الحربيّة للمدن الإيطاليّة التي كان لها «كنتونات» مُحَدّدة في كل المدن الساحلية التي خَضَعت للصليبيين (وربما بعض المدن الداخليّة) التي شَـكَّل سكانها فئة متميزة لها «امتيازاتها» المُحَدّدَة بمواثيق وعهود ملزمة، وترتبط مباشرة بالمدينة الأم في إيطاليا.

هكذا كان إحساس الصليبيين المُبَرّر، على الأقل من بعض قادتهم، من فكرة وحدة الإمارات والممالك الإسلاميّة التي كانت تجاورهم، وأثر هذه الوحدة على الوجود الصليبي في المنطقة العربيّة وقد أثَرَ هذا الموقف على استراتيجيتهم تجاه الإمارات والممالك الإسلاميّة ليس في الفترة التي ذكرنا بداية، وإنما من بداية وصولهم إلى المنطقة وحصارهم لأنطاكيّة ومن ثم تأسيس المملكة والإمارات الأخرى. والمتتبع المدقق لتاريخ الصليبيين في المنطقة التي سيطروا عليها، والتي امتدت من ديار بكر [بلاد الأكراد] وحتى حدود مصر والجزيرة العربيّة، يجد أن الاستراتيجيّة الأساسية لها كان منع قيام مثل هذه الوحدة ـ الخطر، إضافة إلى تغذية الخلافات الكثيرة بين هذه الإمارات، وعقد التحالفات برغبة الجانبين ضِدّ البعض الآخر.

وفي ضوء ما تقدم يمكن أن نسأل: هل كان هنالك موقف موازٍ في العالم

الإسلامي آنذاك، بخلافَتِه العباسيّة وممالكه وإماراته الكثيرة، بالنسبة لفكرة الوحدة وأهميتها وأثرها في عملية المواجهة مع الإمارات الصليبيّة؟ إنّ الإجابة عن هذا التساؤل عمليّة شديدة التعقيد وتتطلب دراسة مدققة تدفع الباحث إلى العودة على الأقل إلى التطورات السياسيّة منذ فترة التسلط البويهي على الخلافة العباسيّة وقيام الخلافة الفاطميّة المعارضة في مغرب العالم الإسلامي، كما تتطلب النظر في الفكر السياسي السائد آنذاك، وَبُنْيَة مجتمع دار الخلافة (أو الخلافتان) والمؤسسات المختلفة التي كانت تحكمه، خاصة فهم السلاجقة الأتراك، الذين صارت إليهم السلطة الفعليّة، للسلطة والحكم، وأثر كل ذلك في الوحدة السياسية (وبالتالي العسكرية) أو العكس، وموقف عامة الناس بمختلف فئاتهم من أصحاب السلطة الجُدُد، ودور هذا الموقف وأثره على الحياة الاقتصاديّة التي شَكّل **الإقطاع العسكري** الجزء الأهمّ فيها، فهو المورد المالي الأساسي للسلطة العليا والإدارة وللمؤسسة العسكرية والمؤسسات الأخرى ذات العلاقة.

وما دُمْنا قد قَدّمنا الملامح العامة للمجتمع الاقطاعي للإمارات الصليبيّة (والمملكة منها)، فلا بُدّ من رسم الخطوط العامة للمجتمع الاقطاعي الخاص في ممالك وإمارات العالم الإسلامي حتى نتمكن من توضيح الجذور التي استند إليها صلاح الدين في توحيد إلقوى السياسية والجهد العسكري لمواجهة التحدي الكبير.

1 ـ منذ كتب الماوردي (ت 450 هـ/ 1055 م) **الأحكام السلطانية**، تَحَدّدت في الفكر السياسي عند المسلمين فكرة **إمارة الاستبداد أو إمارة الاستيلاء**. وصارت هذه الفكرة، التي كانَ الهدف الأساسي منها وحدة الأمة، قاعدة نَظَرِيّة سياسيّة استندت إليها التطورات الفكريّة التالية زَمن السلاجقة وخلفائهم وحتى نهاية دولة المماليك. وكانت فكرة إمارة الاستيلاء **أساساً** محاولة لتبرير واقع تاريخي قائم منذ مدّة وحَلّ لتناقضٍ بين خليفة له السلطة الشرعيّة الأولى وسلطان (أو ملك أو أميرٍ) استبد في منطقة أو ولاية من بلاد الخلافة أصلاً وأُعْطِي شرعيّةً لهذا الاستبداد من الخليفة العبّاسي. وتَمثل ذلك

المنح الشرعي بمرسوم تفويض من الخليفة لصلاحياته الدنيوية «المدنية» إلى السلطان السلجوقي الذي كان يحق له أن يفوّضها بدوره إلى ملوك خاضعين لسلطته، والملوك إلى الأمراء الكبار التابعين لهم وهكذا. و. كذا فقد كان كُلّ واحدٍ من السلطان الكبير (الأول) إلى الجندي الصغير الذي يتولى مسؤولية ما يتمتع بتفويض شبه كامل للحكم في منطقته في غير الأمور الشرعيّة المحدد. فحقيقة فكرة **المحافظة على وحدة الأمة الإسلاميّة** (أهل السنّة والجماعة) هي التي ساعدت على إعطاء أساس نظري للتمزق السياسي الواقعي قبل نور الدين محمود صلاح الدين وبعدهما. فالقُوّة العسكريّة المسيطرة، وموافقة دولة الخلافة، غَلَبَةً أو رِضًى، هي التي كانت تكسب الشرعيّة للمتغلب أمام عامة الناس.

2 ـ في ضوء هذه القاعدة التي تركزت قبل ظهور دولة السلاجقة، يمكن أن نعالج موقف الأسر التركية التي حكمت على أساس هذه القاعدة من فكرة السلطة والحكم. فأساس نظرة الأتراك المسلمين إلى السلطة والحكم أساسٌ قبلي مُسْتَمَدٌ من التقاليد التركية القديمة التي حملوها معهم إلى العالم الإسلامي الذي حكموه، وتَسْتَنِد هذه النظرة إلى أسْرَة بِيَدها السلطة العليا ممثلة بمن يكون رأس الأسرة في وقت ما، وكل شيء يستند إلى صاحب السلطة (الأب الأكبر) ومستمد منه. **ولكبير العائلة** في هذا التراث **مكانة خاصة**. وشَكّلَت فكرة كبير العائلة تاريخ الجزء الأكبر من فترة حكم السلاجقة وخلفائهم، كما أبرزت دور «الأتابك» ـ مربي أو مربو أولاد السلاطين ـ الذي كان على الأغلب «يستبد» بالمنطقة التي يتولى حكمها عادة باسم الأمير السلجوقي الصغير، ويتخذ من حَقّ هذا الأمير حُجّة للاستبداد بمنطقته خاصة بعد وفاة والد الأمير. وقد أوجد مثل هذا الوضع سلسلة من الانقسامات المتصلة في الكيان السياسي الذي أقامه السلاطين الثلاثة الأول، وأفضل صورة لهذا الوضع من الانقسام والتشتت السياسي ما نجده في بلاد الشام وشرق الفرات عند وصول الحملة الأولى الصليبيّة.

3 ـ وكان السلطان رأس المؤسسة العسكريّة (مماليكه ومماليك تابعيه

وأحرار) المكونة من الأتراك (مماليك وأحرار) وقبائل تركمانية (متنقلة أو شبه مستقرة فيما بعد) وعناصر بشرية أخرى من أكراد وأرمن وكُرْج (جورجيون) وقبائل عربية (ربطت رسمياً زمن صلاح الدين وخلفائه بصورة ما مع الدولة) في المناطق العربيّة التي دخلت ضمن حدود دولة السلاجقة واتباعها. وفي بداية الدولة كانت المؤسسة العسكرية تستند إلى القبائل التركمانية غير المضمونة الولاء الدائم، فصار التحول إلى نظام المماليك كأساس للمؤسسة العسكرية، وصار دور أمراء التركمان وقبائلهم دوراً مساعداً، وكذلك القبائل العربيّة.

وتساعد دراسة المؤسسة العسكرية في البلاد الإسلاميّة التي كانت تحيط بالإمارات الصليبيّة كثيراً في فهم قضيّة الوحدة ودور صلاح الدين في تحقيق الحَدّ الأدنى منها حَتّى يتمكن من مواصلة مواجهة التحدي بنجاح.

4 ـ واستندت المؤسسة العسكرية في تمويلها وتوفير ما تحتاج إليه إلى **نظام الإقطاع**. فالأرض، في الفترة التي نَدْرُس، كانت المصدر الأساسي للثروة. وجُزءٌ أساسي من واردات الدولة، وهو الجزء الأكبر، كان حق الدولة من ناتج الأرض التي اعتبرت من بداية قيام الدولة الإسلامية «**وقفاً على الأمة**». وهذا الحق كان يقطع كاملاً، أو جزء كبير منه، للأمراء وأجنادهم مقابل الخدمات العسكرية والإدارية التي يقدمونها للدولة: حِصَة من الناتج تقسم على أساس نظام المقاسمة الذي حَلّ مَحَلّ خراج «الوظيفة». فالاقطاع، كما قال الفقهاء، كان إقطاع استغلالٍ وليس تمليك رقبة الأرض. والسلطان أو الملك أو الأمير الكبير هو المقطع الأول وله حِصّة خاصة به من حق الدولة في الأراضي والبلاد التي تشكل دولته.

5 ـ وسُكّان مجتمعات هذه «الدول» و «الإمارات»، هم المنتجون الحقيقيون الذين يمولون الدولة بالضرائب الشرعيّة (ومنها حصة الإنتاج للمقطع) وغير الشرعيّة أحياناً، وأصحاب السلطة بكل شيء؛ وجُهْدهم هو الذي يمكن الدولة من مواجهة التحديات الداخليّة والخارجيّة. أمّا دورهم الفعلي في السلطة والحكم فلا وجود له. وكان لبعضهم من الشباب (وأحياناً الشيوخ) المتحمسين دور «المتطوعة» المساند والمؤثر أحياناً في بعض العمليات العسكريّة.

6 ـ ومن فئات مجتمعات هذه الممالك والإمارات من نُسمِّيهم في الوقت الحاضِر بالمثقفين سياسياً؛ بعض هؤلاء كانوا جزءاً من المؤسسة السياسية، ومنهم من كان له دور فعّال في الحياة العامة، لكنهم كانوا قِلّة. أمّا الأغلبية منهم فكانوا بعيدين عن السلطة، ودورهم الكتابة والوعظ، وكان لبعض الأخيرين ـ كما رأينا ـ دَوْرٌ فعّال في بعض الظروف، لكنهم على الأغلب غير مسموعين أو محدودي التأثير.

بعد هذه المقَدَمة الضرورية نصل إلى دور صلاح الدين في تحقيق الحد الأدنى من الوحدة الذي تَسَلّم رايته من نور الدين محمود. فماذا حدث للصورة السياسية لدولة نور الدين بعد وفاته؟ وماذا كان موقف صلاح الدين في مصر من هذا الذي حدث؟.

عندما توفي نور الدين في أيار 1174 م لم يكن له من الذكور خَلَفٌ إلاّ وَلَدٌ صغير، لم يتجاوز الحادية عشرة من العمر، هو الملك الصالح إسماعيل؛ فحدث عند ذلك ما يحدث دائماً في البيوت التركيّة الحاكمة من صِرَاع على السلطة والنفوذ بين الاخوة والأقرباء وحتى كبار أمراء السلطان أو الملك المتوفّى. فالابن، الوريث الموصى له بالسلطة، صغير، وكبير العائلة وأخوته لهم طموح بالإرث لكنهم بعيدين نسبياً في الموصل وسنجار والبلاد الشرقيّة. أما الأُمراء الكِبَارُ فلم يكن لهم طموح بالمُلْك، لكن لهم رغبة بالمحافظة على النفس وعلى الامتيازات التي يَتَمتّعون بها وأخذ المزيد منها، خاصة وأن الوريث صغير ويحتاج إلى من يدبِّر شؤون دولته حتى يصل السِنّ التي تؤهله لاستلام سلطاته كاملة بنفسه. فهم يريدون الإبقاء على السلطة في بيت نور الدين وولاؤهم للبيت الزنكي في الشام كبير بسبب المكانة التي اكتسبها نور الدين بأعماله والهيبة والمحبّة التي أحرزها بإلغائه الضرائب والمكوس غير الشرعيّة، وبناء المدارس والمساجد والخانقاوات والمستشفيات. لكنّ كل أمير كبير يُريد أن يكون الأول بين الأمراء، والمتنفذ الوحيد في الدولة والوصاية عليها.

وفي صِرَاع الأمراء هذا، بدأ يبرز موقع صلاح الدين، النائب في أكبر

الولايات وأغناها التي صارت جزءاً من مملكة نور الدين، في جمع كلمة المسلمين والمحافظة على ما حقّقه نور الدين من توحيد للجهد ومن استعادة الكثير من المواقع من الصليبيين ورَدّهم إلى حَدّ حفرة الانهدام. ومن الغريب أنّه سمع بإشاعة خبر وفاة نور الدين عن طريق المناطق التي يسيطر عليها الصليبيون قبل وُصُول الكتاب بذلك من دمشق.

ووجَد الأُمَراء الذين حضروا وفاة نور الدين، أنّ قاعدة نفوذهم الرئيسيّة ليس في دمشق، حيث أعوان صلاح الدين، والقريبة من قوّة الصليبيين الرئيسيّة ومن قُوّة الأمير الكبير المتفرّد في مصر، وإنّما في حلب وبلادها حيث كانت اقطاعاتهم ومركز قوتهم وبلادهم القريبة من البلاد شرق الفرات حيث الأعوان من أعمام الملك الصغير وبقية عائلته. ولذلك فقد حملوا الملك الصالح ورحلوا مسرعين إلى حلب، وتركوا قوّة دمشق الصغيرة بقيادة الأمير شمس الدين ابن المُقَدّم لحمايتها والدفاع عن الحدود الطويلة مع الصليبيين، الذين استغلوا بدورهم ظروف وفاة الملك الكبير، فتقدموا بقُوّاتهم إلى مدينة بانياس وقلعتها الحصينة الصُبَيْبَة ذات الموقع الاستراتيجيّ الحصين على الحدود، بقَصْد السيطرة عليها وبلادها والاقتراب من دمشق وتهديدها، وربّما التمكن من السيطرة عليها وقطع طريق الاتصال بين حلب والبلاد الشرقيّة ومصر.

وأَحَسّ ابن المقدم بخطورة موقفه في دمشق التي خَلَت تقريباً من الجند، فَهَدّد ملك الصليبيين وقواته بأن عملهم الذي قاموا به سيؤدي إلى تدخل صلاح الدين من مصر وملوك حلب والبلاد الشرقية من الشمال لحربهم، وأنّه مستعدٌ لدفع مبلغ من المال «قطيعة»، فرضوا بذلك ودفعها لهم وعادوا إلى ما وراء حدودهم[1]. وعندما عرف صلاح الدين بهذه الهدنة «والقطيعة» ـ وكان قد خرج من القاهرة أربعة مراحل في طريقه إلى دمشق ـ كتب إلى القاضي ابن أبي عصرون في دمشق:

(1) ابن أبي طيء في الروضتين، 1 ص 233.

«ورد الخبر بصُلْح بين الفرنج والدمشقيين، وبَقِيَّةُ بلاد المسلمين ما دَخَلتْ في العَقْد... والعدوّ لهما واحد، وصَرْف مال الله الذي أُعِدّ لمغنم الطاعة ومصلحة الجماعة في هذه المعصية... وكان مذخوراً لكشف الغُمّة، فَصَار عوناً، وإن أسارى من طبرية وفرسانها... دُفِعُوا في القطيعة، وجُعِلُوا الى السلم السبب والذريعة. فلما بلّغَنا هذا الخبر، وقفنا به بين الورود والصدر، وإن أتممنا ظنّ بنا غير ما نريد، وإن قَعَدنا فالعَدُوّ من بقية الثغور التي لم تدخل في الهدنة غير بعيد، وإن فرقنا العساكر لدينا فاجتماعها بعد افتراقها شديد، فَرَأينا أن سيرنا الى حضرة الأمير شمس الدين أبي الحسن علي [بن الداية] وأخوته نُعَـرِّفهـم قَدْر خطر هذا الارتباك، وأنّه ربما عجز فيه عن الاستدراك... فإن كانت الجماعة ساخطين فيظهر أمارات السخط والتغيير، ولا يُمْسِك في الأول فيعجز عن الأخير، لا سيما ونحن نَغَار لله ونغير، ونَقْصُد للمسلمين ما نجمع به صلاح الرأي وصواب التدبير. وقد منعنا عساكرنا أن تفترق خوفاً أنْ يقصد العدو ناحية حَارِم بالمال الذي قويت به قوته.. فما دام يَعْلمُ أنّا مجتمعون، وعلى طلبه مُجْمِعُون، لا يمكنه أنْ يُزايل مَراكِزه ولا يبادر مناهزه»[1].

وقام الأمراء بحلب بالقبض على أولاد الداية الذين كان يعتمد عليهم صلاح الدين في الإشراف على دولة الصالح لأنهم كانوا من أكابر أمراء دولة والده. وأدى ذلك إلى تفرق كلمة رجال دولة نور الدين، وكَتب صلاح الدين إلى ابن المقدم يحذّره من ذلك ومن رغبته في القُدُوم إلى الشام، فكتب إليه ابن المُقَدّم جواباً يقول فيه:

«لا يؤثر عنك أنّك طَمعتَ في بيت غَرْسِك... (ومن) أَجْلَى سُكونك لملك مصر وفي دسْتِه أَجْلَسَك، فما يليق بحالك ومحاسن أخلاقك وخلالك غير فضلك وأفضالك».

---

(1) الروضتين، 1 ص 233.

فَرَدّ صلاح الدين:

«إنّا لا نؤثر للإسلام وأهله إلاّ ما جمع شَمْلَهم، وألَّفَ كلمتهم، وللبيت الأتابكي... إلاّ ما حفظ أصله وفرعه.... فالوَفَاءُ إنما يكون بعد الوفاة، والمحبّة إنما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العُداة، وبالجملة أنا في وادٍ، والظانون بنا ظَنّ السوء في واد؛ ولنا في الصلاح مراد، ولمن يبعدنا عنه مراد؛ ولا يُقال لمن طلب الصُلْح أنّك قادح، ولمن ألقى السلاح أنّك جارح» [1].

فهل بعد هذه الصراحة في الموقف المبدَئي مِنْ تَساؤل عن حقيقة موقف صلاح الدين؛ لكن إذا كانت الأمور ستؤثر على الوحدة التي حققها الملك العادل بالجهد الكبير، فإن عليه الإسراع في اتخاذ القرار المصيري الحاسم بالحركة إلى الشام. ومع ذلك فإن التطورات في مصر أعطت مهلة لأمراء حلب لإظهار حقيقة موقفهم، ذلك أنّ الأسطول الصقلي وصل إلى الإسكندرية وحاصرها وهزم، وثار الكنز في صعيد مصر وقضي عليه. ووجد صلاح الدين أن لا بُدّ من التوجه إلى الشام، خاصة وأن رسل صديق بن جاولي صاحب بصرى وابن المقدم صاحب دمشق وصلت إليه تستحثه على الإسراع. ووصل إلى بُصْرى فانضم إليه صاحبها وصاحب صرخد.

ولم تكن القُوّة التي قادها صلاح الدين تكفي لتحدي أية مقاومة يمكن أن تواجهه فيها، لكن وقوف صاحبي بصرى وصرخد معه، ودعم ابن المُقَدّم المتوقع، ووقوف عامة الناس المؤيدين لجمع كلمة المسلمين إلى جانبه، مكنه من دخول دمشق دخول الفاتحين دون قتال، وتمكن بسرعة مذهلة من السيطرة على البلاد الشاميّة حتى حمص وحماة دون قتال، وبذلك ابتدأ مسيرة التوحيد والجهاد ضِدّ الصليبيين معاً التي امتدت حتى الأيام الأخيرة من حياته.

واستندت استراتيجيّة صلاح الدين في الفترة التالية لدخول دمشق إلى قاعدتين أساسيتين ومتكاملتين، هما:

---

(1) ابن أبي طيء، الروضتين، 1 ص 234.

1 ـ توحيد مصر وبلاد الشام وشرق الفرات تحت قيادة سياسيّة وعسكريّة واحدة، إمّا عن طريق خضوع بقية المناطق مباشرة لسلطته وإدارته، أو عن طريق وضع الإمكانات العسكرية والاقتصادية لبقية الامارات لقيادته في الميدان.

2 ـ التحول التدريجي من سياسة المهادنة المُتجدِّدة مع الصليبيين (أي الدفاع) التي كانت نتيجة ضعف القدرة السياسيّة والعسكرية في السابق، إلى سياسة الهجوم في العمق داخل المناطق التي كان الصليبيون يسيطرون عليها. فقبل قيادة صلاح الدين لعمليات المواجهة، كانت معظم العمليات العسكريّة بين الجانبين تقع داخل حدود المناطق التي تخضع للامارات الإسلاميّة أو في مناطق المقاسمة، أما في فترة قيادته فكانت أغلب العمليات تجري داخل الأرض المحتلة.

وحتى يتمكّن صلاح الدين من تحقيق هذين الهدفين، كان لا بُدّ له من اتباع سياسَةٍ اتَّسَمت بالمرونة والصبر وما رافقها من دبلوماسيّة نشطة مع الخلافة العبّاسية والامارات الأخرى. وقد مكنته هذه السياسة من تحقيق الوحدة الضروريّة التي أرادها، ومن الاستمرار في العمليات العسكريّة ضد الصليبيين دفاعاً من ناحية وهجوماً من نواحي أخرى. وقد تطَلّب تطبيق هذه السياسة توقف العمليات العسكريّة ضد المملكة والامارات الصليبيّة مؤقتاً، وعَقْد هدن مؤقتة معهم كانت تُجَدّد عند الضرورة القُصْوى التي تتطلبها مصلحة المسلمين عامة. وهكذا فإننا نجد أنّه عندما كانت ضرورات عمليّة التوحيد، في تَصَورِه ومستشاريه العكسريين والمدنيين، تحتاج إلى القيام بعمليات تهديد وترهيب للامارات المعارضة له أو المترددة في الانضمام إليه والوقوف تحت لوائه، كان يجد الوقت المناسب لذلك بوسيلة مناسبة تمكنه من عقد هدنة مع الصليبيين. ولذلك لم يضطرّ طول الفترة المذكورة إلى القتال أو الانشغال على جبهتين في ذات الوقت إلاّ نادراً. وقد استغرب المؤرخ وليم الصوري المَرّة الوحيدة التي توجه فيها صلاح الدين إلى شرق الفرات دون عقد هدنة معهم، فاستغلوا ذلك للقيام بعمليات النهب والتخريب وإحراق المزروعات في حوران وقريباً من

دمشق. وفي هذه المرة توفي نتيجة المرض أحد كبار أمرائه وأعوانه هو عز الدين فَرّخْشَاه، ابن أخيه شاهنشاه.

وعندما تَسَلّم صلاح الدين دمشق ورتّب أمورها، أسقط في أيدي الأمراء الذين مع الملك الصالح في حَلَب، فراسلوا صاحب الموصل لمساعدتهم، وأرسلوا وفداً إلى صلاح الدين يهددونه بالعودة إلى مصر وإلاّ فإن «السيوف التي ملكتك مصر بأيدينا. . . هي تَرُدّك، وعَمّا تَصَدّيت له تَصُدّك، وأنت فقد تعديت طورك، وتجاوزت حَدّك، وأنْت أحد غلمان نور الدين وممن يجب عليه حفظه في ولده» [1]. ومع ذلك فقد استقبل السلطان رئيس الوفد، واستمع إلى رسالة التهديد بصبر، وبيّن سبب مجيئه، كما ورد سابقاً [2]. وعاد الرسول إلى حلب، وأخذ صلاح الدين في الاستعداد للتوجه إلى الشمال، وسار باتجاه حلب لمصالحة من فيها خدمة للبيت الزنكي وولاءً لذكرى نور الدين. وكان رَد كبير الأمراء الذي استولى على السلطة هناك باسم الملك الصغير، الاتفاق مع الاسماعيليّة على اغتيال صلاح الدين، ومراسلة صاحب طرابلس الصليبي الذي أخرج من سجن نور الدين قبل وفاته بقليل، طالبين منه مهاجمة حمص التي سَلّمَتْ لصلاح الدين [3].

ومن حمص أرسل صلاح الدين كتاباً جامعاً بقلم القاضي الفاضل إلى الخليفة العبّاسي المستضيء بنور الله، مع الخطيب شمس الدين بن الوزير أبي المضاء البعلبكي، لتوضيح الموقف الحرج في بلاد الشام، ويطلب منحه **التقليد الشرعي** بحكم ما بيده من مصر وبلاد الشام[*]. وعلى الرغم من أهمية هذه الرسالة في تحديد سياسة صلاح الدين السابقة وتخطيطه المستقبلي، فإننا سنكتفي بذكر أبرز بنودها [4]:

---

(1) أبي أبي طيء في الروضتين، 1 ص 237.

(2) انظر أيضاً العماد في الروضتين، 2 ص 238.

(3) الروضتين، 9 ص 239 - 240.

(*) يؤكد هذه السفارة مدح الشاعر سبط بن التعاويذي لشمس الدين في بغداد في هذه السنة، ديوانه.

(4) انظر الرسالة كاملة في الملحق رقم 7.

«. . . وما كان العائق إلاّ أنا كُنّا ابتداءً من الجانب الشريف بالنعمة يُضاهي ابتداءَنا بالخدمة، وإنجاباً للحق يشاكل إنجابنا للسبق».

«. . . ثُمّ عدنا إلى البلاد، وتوافرت إلينا الأخبار بما المملكة النّوريّة عليه من تشعّب الآراء وتوزّعِها، وتشتت الأُمور وتَقَطّعها، وأن كُلّ قلعة قد حَصَل فيها صاحب، وكل جانب قد طمع إليه طالب. . . وأمراء الدولة النورِيّة قد سُجِن كبارُهُم وعُوقِبُوا وصُودِرُوا، والمماليك الأغْماد الذين خُلقوا للأطراف لا الصدُور، وجُعِلوا للقيام لا القُعُود في المجلس المحضور، قَدْ مَدّوا الأيدي والأعين والسيوف، وسارت سيرتهم بالأمر بالمُنكر والنهي عن المعروف، وكل يَتّخذ عند الفرنج يداً ويجعلهم لظهره سنداً. . .».

ثم يتطَرّق إلى القدس وتحريرها المرتقب وضرورة تقليد الشام له:

«وإنّا لا نتمكن منه [القدس الشريف] مع بُعْدِ المسافة، وانقطاع العمارة، وكَلاَلِ الدَّوَاب التي بها على الجهاد القُوّة؛ وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية، والمنفعة جامعة، واليد قادرة، والبلاد قريبة، والغزوة ممكنة، والميرة [التموين وامداده] متسعة، والخيل مستريحة، والعساكر كثيرة الجموع، والأوقات مساعدة؛ وأصلحنا ما في الشام من عقائد معتلّة، وأمور مختلّة، وآراء فاسدة، وأمراء متحاسدة، وأطماع غالبة وعقول غائبة.

وحفظنا الولد بعد أبيه، فأنا أولى به من قوم يأكلون الدنيا باسمه، ويُظهرون الوفاء في خدمته وهم عاملون بظلمه. . .».

«والمُراد الآن هو: كُلّ ما يُقَوّي الدولة، ويؤكد الدعوة [العباسيّة]، ويجمع الأُمة، ويحفظ الأُلْفة. . . ويفتح بقيّة البلاد، وأن يطبق الاسم العباسي كل ما تطبقه العهاد، وهو:

تقليد جامع بمصر واليمن والشام، وكُلّما تشتمل عليه الولاية النّورية، وكل ما يفتحه الله للدولة العبّاسيّة بسيوفنا وسيوف عساكرنا،

ولمن نقيمه من أخ أو ولدٍ من بعدنا، تقليداً يضمن للنعمة تخليداً وللدعوة تجديداً مما ينعم به من السمات التي فيها الملك»[1] .

وشَكّلَت هذه الرسالة سياسة صلاح الدين، وأساساً للعملية التي قام بها في السنوات التالية لتوحيد الجهد العسكري في مهاجمة الصليبيين. ووصل إلى صلاح الدين جَواب الخليفة المستضيء الذي قَلّده كل ما طلب: «. . . . التقليد والتمليك والتحكيم والتفويض»[2]، ومع الرُسل «التشريفات الجليلة والأعلام السُّود وتوقيع من الديوان **بالسلطنة** ببلاد مصر والشام»[3] .

وبهذا التقليد اكتسب حكم صلاح الدين الشرعيّة التي تضفيها الخلافة على الممنوح، والذي صَار **حُجّة قَوِيّة** في يد السلطان لتنفيذ سياسته وتشكيل علاقته مع بقايا آل زنكي ومَنْ تَحَالَف معهم في بلاد حلب وشرق الفرات، وغيرهم من المتغلبين. وبدأت، منذ ذلك التقليد، عمليّة التوحيد التدريجية بالسياسة ودون اللجوء إلى القُوّة العسكريّة إلاّ عند الضرورة الملحة تجنباً لتأليب الناس ضِدّه، والذين كانوا لا يزالون على ولائهم للبيت الزنكي ونور الدين خاصة.

وقَبْل تَسَلّم التقليد، كان صلاح الدين قد سيطر على حمص وحماة. ومن هنا بعث رسولاً إلى أمراء حلب:

«يَدْعُوهم إلى اجتماع الكلمة في طاعة الملك الصالح. . .».

ثم اقترب من مدينة حلب للتخويف ثم انسحب. وهنا وقعت محاولة اغتياله من قبل إسماعيليّة صاحب الجبل التي فشلت، لكنّها دَلّت عن نيّة الأمراء بقيادة كمشتكين ضِدّه، عند ذلك كتب صلاح الدين إلى **كبير البيت الزنكي** آنذك وصاحب سنجار:

«وأطمعه في الملك [الزنكي] لأنّه كبير البيت» .

---

(1) الروضتين، 1 ص 240 - 243.
(2) سنا، 1 ص 191.
(3) العماد في الروضتين، 1 ص 250.

وحتى هذا الوقت كان صلاح الدين لا يزال ملتزماً بالولاء والطاعة للبيت الزنكي، يخطب للصالح إسماعيل ويكتب اسمه على السكة (النقود). لكن في الوقت الذي راسل فيه صاحب سنجار اتصل الأمراء بحلب بصاحب الموصل من آل زنكي طالبين منه القدوم لمساعدتهم في حرب صلاح الدين وطرده من الشام، فاستجاب وأرسل عسكراً بقيادة أخ آخر له، وتمكّن صلاح الدين من هزيمة عسكر الموصل وحلفائهم، ثُمّ كان رَدّه الحاسم على هذا التحدي:

«وحينئذٍ قطع خطبة الملك الصالح. . . وأزال اسمه عن السِكّة في بلاده».

حدث كل ذلك قبل وصول موافقة الخليفة على مطالبه بالتقليد، فالأمْرُ لا يحتاج إلى انتظار.

وفي شَوّال سنة 570 هـ/ أيار 1175 م، تَمّ عقد صُلح بين صلاح الدين والملك الصالح وأمرائه الذين وجَدوا أنفسهم غير قادرين على المواجهة العسكرية أو تَحَمل الحصار. وكان مجمل الاتفاق:

«على أن يكون له [صلاح الدين] ما بيده من بلاد الشام، ولهم ما بأيديهم منها، فأجابهم إلى ذلك، واستزاد المَعَرة وكفرطاب [من بلاد حلب]، وانتظم الصُلْح ووقعت الأيمان. . .».

فرحل صلاح الدين عن حلب نحو حمص وحماة، واستولى في طريقه على قلعة بارين من توابع حماه في أوائل 571 هـ/ تموز ـ آب 1175 م. وهنا وصلته رُسل ملك الصليبيين طالبين الهدنة:

«فأجابهم السلطان بعد أن اشترط عليهم أموراً التزموها».

ولم يُعْجِب الاتفاق بين السلطان والملك الصالح صاحب الموصل. فأرسل إلى حلب طالباً منهم نقض الاتفاق مع صلاح الدين، كما أرسل إلى السلطان طالباً منه تَرْك بلاد آل زنكي السابقة كلها. وعرف صلاح الدين بنقض صاحب حلب وأمرائه للاتفاق، فقال:

«. . . إن من شرط أيمانهم أنّهم لا يعتمدون أمراً إلاّ بمراجعتهم لنا واستئذانهم».

واعتبر نفسه بحلٍ من الاتفاق والصُلْح، وتجهّز للمسير إلى حلب لحربهم. ثم كانت موقعة تَلّ السلطان التي أسفرت عن هزيمة «الحلفاء»، ومنهم الذين نقضوا العهد والاتفاق. أمّا صلاح الدين فقد تَرَكَ مدينة حلب بعد الموقعة وتوجّه إلى بلادها الشماليّة، فضَمّ بُزَاعة ومنبج وقَلْعة عزاز. وجرى أثناء حصاره للموقع الأخير محاولة اغتياله الثانية بتحريض من كبير الأمراء بحلب.

ووجد الملك الصالح ومن معه أنهم سيفقدون سريعاً كُلّ شيء، فأرسلوا إلى صلاح الدين في طلب الصُلْح مَرّة أخرى، ووافق على إبقاء حلب في مُلْك الصالح وما بقي لها من البلاد حقناً للدماء، كما أعاد إعزاز لهم بطلب خاص:

«وحلف لهم وحلفوا له، ودخل في الصُلْح المواصلة وأهل ديار بكر [من بني أرْتُق]».

لكنّ السلطان وضع شرطاً في نسخة اليمين الجديد:

«أنّه إذا غَدَر واحد منهم، وخرج عن مقتضى اليمين، كان الباقون يداً واحدة عليه»(1).

وفي هذه المرّة التزم آل زنكي وحلفائهم بشروط الصُلْح، واعتبر السلطان تخَلّيه عن بلاد حلب وشرق الفرات بادرة حسن نيّة منه تجاه البيت الزنكي بالرغم من حَقه الشرعي فيها بتفويض الخليفة العباسي وتقليده.

وعاد صلاح الدين إلى مصر، وتَفرغ للأعمال الداخليّة فيها وبعض العمليات العسكريّة ضِد الصليبيين في فلسطين. ثُمّ وقع اختلاف بين الأمراء في حلب وقُتِل اثنان من كبار الأمراء، وهاجم الصليبيون حماة ثُمّ حاصروا قلعة حَارِم المشهورة، فَقَرّر العود إلى الشام، وسار إليها، فكانت العمليات التي سنتحدث عنها في الفصل التالي والمتعلقة بحصن بيت الأحزان وهدمه، وواقعة هنفري صاحب تبنين، ومرج عيون، وعاد إلى مصر مَرّة أخرى.

---

(1) الروضتين، 1 ص 252.

وفي شَوّال سنة 575 هـ [آذار 1180 م] توفي الخليفة المستضيء وتَوَلى مكانه ابنه الناصر لدين الله. وحدث ذلك أثناء وجود سفير صلاح الدين في بعض المهمات في بلاط الخلافة العبّاسيّة:

«فحضَر [السفير] الديوان، وبايع [الخليفة الجديد]، وكاتب السلطان بالخبر، فبادر إلى الخطبة [للناصر] في جميع بلاده»(1).

وفي 3 صفر 576 هـ/ 30 حزيران، توفي صاحب الموصل الذي كان وراء نقض الملك الصالح وأمراء حلب للصلح الأول بينهم وبين صلاح الدين. وقبل وفاته رغب أن يُعْهَد بالملك إلى ولده الصغير، لكنّ خوفه من صلاح الدين دفَعَه إلى تولية كبير البيت الزنكي وصاحب سنجار ـ أخوه عزالدين مسعود ـ مكانه للإبقاء على المُلك الزنكي قوياً. فكتب عز الدين إلى صلاح الدين يطلب منه:

«أن يكون معه كما كان مع أخيه مع إبقاء سروج والرَها والرقة وحَرّان والخابور ونِصّبين في يده»، أي بقيّة البلاد شرق الفرات التي كانت سابقاً في ملك نور الدين. لكن السلطان لم يوافق: **«إذ هي له بتوقيع الخليفة، وإنما جعلها بيد سيف الدين** [المتوفى] **بالشفاعة بشرط أن يُقَوّي السلطان بالعساكر»**(2).

واستند صلاح الدين في رفض طلب مسعود إلى إجراءات سريعة كان اتخذها لتأكيد شرعية حكمه لهذه البلاد وذلك بتجديد التفويض من الخليفة. فقد بعثت إلى الخليفة الجديد رَسُولاً للتهنئة كالعادة بالولاية والسؤال بالتجديد:

«... واحتجنا في حفظ بلاد الشام وثغور الإسلام الى استصحاب العسكر المصري اليها، وله مُدّة خمس سنين في بيكارها، منتقماً من كفّارها، متحملاً لمشاقها وغلاء أسعارها؛ وإنما أحوج إلى ذلك أنّ بلاد هذا الثغر [شرق الفرات] قد اقتطعت عنه، وعساكرها أخذت منه، وكانت في تولي نور الدين... ففوضت إليه [صلاح الدين]»(3).

(1) الروضتين، 2 ص 15.

(2) المصدر نفسه، 2 ص 17.

(3) العماد في المصدر نفسه. من رسالة إلى الديوان.

وفي رجب من السنة (تشرين ثاني ـ كانون أول 1180 م) وصلت رُسل دار الخلافة إلى السلطان:

«. . . بالتفويض والتقليد الجديد. . .» [1].

واطمأن صلاح الدين إلى تجديد الخلافة لشرعيّة حكمه حسب التقليد السابق وإلى ما آلت إليه الأوضاع في بلاد الشام، فعاد إلى مصر لتفقد أوضاعها، وفكّر بالحجّ في تلك السنة مع سفير دار الخلافة إذا سمحت الظروف والتطورات:

«وقد توجه الخادم [السلطان] إلى الديار المصريّة لتجديد النظر فيها، ثُمّ يستخير الله في الحجّ وأدائه، ويَعُود إلى مجاهدة أعدائه» [2].

لكنّه لم يتمكن من ذلك بسبب التطورات في بلاد الأرمن على حدود بلاده الشماليّة.

وفي رجب سنة 577 هـ/ كانون أول 1181 م، توفي الملك الصالح في حلب. وأثناء مرضه أوصى كبار الأمراء واستحلفهم على تولية حلب وبلادها لكبير البيت الزنكي خوفاً من استيلاء صلاح الدين عليها. وجاء في الوصيّة:

«. . . لكن قد علمتم تَغَلّب صلاح الدين على عامة بلاد الشام سوى ما بيدي ومعي، فإن سَلّمت حلب إلى عماد الدين [الملك الثاني من آل زنكي شرق الفرات] يَعْجز عن حفظها منه، فإن ملكها صلاح الدين لا يبقى لأهلنا معه مقام، وإذا سلمتها إلى عز الدين أمكنه أن يحفظها لكثرة عساكره وبلاده وأمواله» [3].

وافق الأمراء على الاقتراح، وكتبوا إلى عز الدين الذي أسرع بالتوجه إلى حلب لتسلّمها، وهرب ولاة صلاح الدين غرب الفرات أمامه، فبدأ عز الدين يفكر بالسيطرة على كل بلاد الشام وإعادة ملك آل زنكي كما كان زمن

(1) المصدر نفسه، 2 ص 19.

(2) من رسالة إلى الديوان بقلم العماد، الروضتين، 2 ص 19.

(3) الكامل، 11 ص 473.

نور الدين. وأثارت هذه التطورات المتسارعة خوف صلاح الدين من عودة التفكك السياسي والعسكري إلى ما كان عليه قبل قدومه إلى الشام قبل سبع سنوات، فكتب إلى ديوان الخلافة، كما بدأ الاستعداد للعودة إلى الشام وتجميع قُوّاته فيها وقُوّات حلفائه. وكان ممّا جاء في كتابه إلى ديوان الخليفة:

«. . . وشاع الخبر بغارة إفرنج أنطاكية على حَارم. . . وشاع أيضاً أنّ عسكر حلب أغاروا على الراوندان [شمال حلب] وهي في عَمَلِنا، ورُسُلُهم إلى الفرنج يستنجدونهم، وراسلوا الحشيشيَة [إسماعيلية الشام]. . . . والمذكور [يعني صاحب الموصل] يُنازع في وِلاَيَةٍ هي لَنَا، ليأخذها بيد ظُلْمه. . . **ولا غنى عن بُروز الأوامر الشريفة أنْ يُوعِز للمذكور بأن يَلْزَم حَدّه، ولا يتجاوز حَقّه**».

ثُم يدعو الخليفة إلى حسم الأمر:

«فإنّ دخول الأيدي المختلفة عن الأعداء المتفقة شاغل، ويحتاج فيه إلى مَغْرَمٍ ينفق فيه العُمْر بغير طائل. . . وبَقَاؤنا في هذه الدار القليل اللّبْث القصيرِ المَكْث نُؤثر أن نغتنمه في مجاهدة العَدُوّ الكافر الذي صار به البيت المقدس محلاً للأرجاس، **ومضت عليه دُهُور ومُلوك** لم يحصلوا من رجاء تطهيره إلاّ على اليأس.

فإن اقتضت الأوامر الشريفة أن يُوعز للمذكور بحلب بتقليد، فالأولى أن يُقَلّد الكُلّ فلا رغبة فيما لا يؤمن معه شَرّ الشريك، ولما لك الأمْرُ الحكم في مَمَالك المماليك».

ومع ذلك، يَعُودُ فيُذَكِّر بتقليد الخليفة السابق، والد الخليفة القائم، بما معناه:

«إن حلب من جملة البلاد التي اشتمل عليها تقليد أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله، وإنّما تركها في يد نور الدين لأجل أبيه، والآن فليرجع كل إلى حَقه وليَقْنَع برِقِّه»[1].

---

(1) من رسالة العماد إلى الديوان، الروضتين، 2 ص 23.

ويبدو أن سياسة الخليفة النّاصر، الذي كان يحلم بعودة أمجاد الخلافة العبّاسيّة دون توفر الامكانات لذلك، كانت تَعْمل على عدم زيادة قُوّة صلاح الدين خوفاً منه، وذلك بالإبقاء على دولة آل زنكي الضعيفة في شرق الفرات منافساً لقُوّة صلاح الدين في الشام. وفي ذات الوقت كانت الخلافة تعرف أن قُوّة هؤلاء لا تكفي وحدها للوقوف في وجه الخطر الصليبي، ولا تريد التخلي عن الالتزام بالتعهدات والتقليد الذي منحه المستضيء لصلاح الدين. وهذا هو الذي دفع صلاح الدين إلى التخيير بينه وبين آل زنكي في مواجهة الصليبيين. ونجد في بعض كتب صلاح الدين، بقلم القاضي الفاضل، ما يؤكد ذلك الموقف:

«... ولاستيجاب الولاية طُرق: أمّا السَّبْق إلى التقليد فللخادم السبق، وأمّا العدالة والعدل فلو وقع الفرق لوقَع الحق، وأمّا بالآثار بالطاعة فله فيها ما لولا معونة الخالق لقَصّرت عنه أيدي الخلق. ومتى استمرت المشاركة في الشام أفضت إلى ضَعْف التوحيد وقُوّة الإشراك، وترامت إلى أخطار يعجز عنها خواطر الاستدراك... , **طريق الصلاح والمصالحات والأيْمان، والمشار إليهم لا يلتزمون ربقته، ولا يوجبون صَفْقَتها، وكفي بالتجريب ناهياً عن الغِرَة، ولا يلدغ المؤمن إلاّ مَرّة. وإذا اجتمعت في الشام أيد ثلاث: يد عادية، [آل زنكي]، ويَد ملحدة [الإسماعيلية]، ويد كافرة [الصليبيون] نهض الكفر... وقَصرت عن الإسلام يد مُغِيثه، ولا ينفع الخادم حينئذٍ تصحيح حسابه وتصديق حديثه، وما يريد الخادم إلاّ من تكون عليه يد الله وهي الجماعة، ولا يؤثر إلاّ ما يتقَرَب به إليه وهو الطاعة...»**(1).

ويذكر في رسالة أخرى تَركَةُ الصالح إسماعيل بحلب رغبة في حسم الفتنة آنذاك:

«فأقَرَّه على الولاية فرعاً لا أصلاً، ونائباً لا مستقلاً، وسَلَّم إليه

---

(1) الروضتين، 2 ص 24.

البلاد ويده الغالبة لا المغلوبة... (ثم بعد وفاته) فبدأ من المَواصِلَة نقص الأيمان والابتداء بالعدوان، والتعرض للبلاد والتصَرف فيها بغير حُجّة يكون عليها الاعتماد، فطَالَعَ الديوان بالقضيّة، واستشهد بدلالات قوانينه الجليّة في هذا التقليد الذي تهادته المحاضر، وسُيّرت إلى الشرق والغرب نُسَخُه... [تقليد المستضيء]»[1].

لكنّ الخلافة لم تتخذ إجراءً حاسماً وتركت عملياً للجانبين الزنكي والأيوبي، حَلّ قضيّة الشام.

واستغل الصليبيّون حالة الانقسام هذه، فنقضوا الهدنة مع صلاح الدين ممّا دفعه إلى العودة إلى الشام. وقام بعدد من العمليات ضِدّهم[2]، ثُمّ قَرّر المسير إلى حلب وشرق الفرات، وتوجّه إلى الشمال ووصَل حماة، ووصله هناك رسول صاحب حَرّان، الأمير كوكبوري، الذي أعلن دخوله في طاعته، وأشار عليه بترك حلب والإسراع بالقدوم إلى معقل آل زنكي في الجزيرة، فوافق، وتوجه إلى مدينة البيرة التي كانت بيد بني ارتق، ثُمّ كتب إلى ملوك الأطراف:

«من جاء مستسلماً سلمت بلاده، على أن يكون من أجناد السلطان واتباعه ومساعديه على جهاد الكفرة».

وكان أوّل المستجيبين إلى القبول بذلك صاحب حصن كيفا الأرتقي. وسار السلطان إلى الرُّها فسلمها صاحبها إليه، ثُمّ حَرّان فرتّب أمورها، ثم الرقة على الفرات حيث خضع صاحبها له، ثم عَرَبَان فاستلمها، ثم الخابور ورأس عين ودُورِين وماكسين، ثم بقيّة ديار مُضر بما في ذلك نصّيبين. وبهذا استعاد كل المناطق التي كانت بيد نور الدين سابقاً شرق الفرات، وأطاعه أمراء بني أرتق أصحاب ديار بكر وغيرها، ولم يبق خارجاً عن نفوذه المباشر أو غير المباشر إلاّ البلاد التي بأيدي أمراء آل زنكي: الموصل وسنجار وجزيرة ابن عمر؛ فقرر

---

(1) المصدر نفسه.

(2) انظر الفصل التالي.

التوجه إلى الموصل وحصارها، فأرسل صاحبها إلى جيرانه طالباً المساعدة كما بعث القاضي ابن شدّاد رسولاً إلى دار الخلافة طالباً النجدة والمساعدة، لكنّه لم يحصل من الخلافة إلاّ على:

«سوى الإنفاذ إلى شيخ الشيوخ [السفير المعتمد] ـ وكان في صحبة السلطان، **يأمرونه بالحديث معه في الصُلْح**».

لم يكن صلاح الدين يرغب بحرب آل زنكي أو غيرهم من حُكّام المسلمين إلاّ إذا اضطر لذلك. ولهذا لقد وافق على تدخل الخلافة بينه وبين صاحب الموصل. وقام شيخ الشيوخ ومساعده بالتفاوض بين الجانبين في محاولة التوصل إلى صلح بينهما، إلاّ أن المفاوضات فشلت بسبب تعَنّت صاحب الموصل الذي يبدو أنه كان يعرف سياسة الخليفة الناصر. عند ذلك قَرّرَ صلاح الدين رَفع الحصار عن الموصل والتوجه إلى سنجار (ومعه رُسل دار الخلافة، في شعبان 578 هـ/ كانون الأول 1182 م)، وحاصرها حتى استسلمت له، فدخلها وقلعتها، «ورتبها، وأمَرَ بعمارتها وولاها...» لأمير من أمرائه، وألغَى ضرائبها غير الشرعيّة، ثُمّ توجّه منها إلى نصّيبين فغَيَّر واليها، ثُمّ إلى دَارَا ـ التي كانت بيد أحد أمراء الأراتقة ـ، ثم حَرّان فاستراح بها وفَرّق العساكر التي اجتمعت إليه من الأطراف.

واستغل صاحب الموصل تفرق عساكر صلاح الدين، فاتفق مع صاحب ماردين وصاحب خلاط على توحيد جهودهم لحرب صلاح الدين. فجمع السلطان قُوّاته القريبة وتوجه نحوهم فتفرقوا، لكنّه تابع سيره إلى مدينة آمد الحصينة «بَعْد أن استأذن الخليفة في... ذلك فأذن له...»، فوصل إليها وحاصرها وفتحها، ووهبها إلى صاحب حصن كيفا، «واستحلفه السلطان أن يظهر العَدْل ويقمع الجُور، ويكون سامعاً مطيعاً للسلطان على معاداة أعدائه ومصافاة أوليائه، **وأنّه متى استمده لقتال الفرنج سارع إليه**».

ومن آمد توجه صلاح الدين إلى بلاد حلب، واستولى في طريقه على تل خالد وعينتاب. وفي مُحَرّم سنة 579 هـ (أيار 1183 م)، نزل على حلب

وحاصرها حِصَار تخويف لا حصار قتال. وجَرَت أثناء الحصار مفاوضات مع صاحبها الزنكي لتسليمها، **وتم الاتفاق على مبادلتها بسنجار**، ثُمّ زاده السلطان «الخابور ونصّيبين والرقة وسروج، **واشترط** عليه [كالعادة] **إرسال العساكر في خدمته إلى الغُزاة**». وفي 17 صفر/ 11 حزيران تسَلّم حارم. فالمهم عنده أن تكون البلاد المجاورة للصليبيين بيده حتى يتمكن من التحكم بالتطورات على الجبهة كما يريد. وبذلك تَمّ لصلاح الدين السيطرة المباشرة على كل بلاد الشام إضافة إلى الاتفاق مع أصحاب ديار بكر وديار مُضر وسنجار على تقديم المساعدة العسكريّة عند الحاجة إليها في العمليات ضد الصليبيين، ولم يبق خارجاً عن طاعته أو الاتفاق الملزم بمساعدته غير إمارات آل زنكي في الموصل وسنجار وجزيرة ابن عمر وإربل، التي تركت حتى الجولة الأخيرة في عمليّة التوحيد.

في جُمادى الأولى سنة 579 هـ (آب 1184 م) اعتقـل عز الدين مسعود، صاحب الموصل وكبير البيت الزنكي، مُجَاهد الدين قايماز، مُدَبِّر دولته والذي ساعده بحسن تدبيره حتى ذلك الوقت في المحافظة على دولته وبلاده. وأدى هذا العمل إلى تَمَرّد أحد أمراء البيت الزنكي هو صاحب جزيرة ابن عمر. كما تَمَرّد عليه صاحب إربل وامتنع بها. وراسل المتمردان صلاح الدين معلنين: «**بالطاعة والركوب في خدمته، فأجابهما إلى ذلك**»[1] وفي ذات الفترة استولى الخليفة على مدينة دقُوقا، الواقعة بين بغداد وإربل، من آل زنكي.

وأثار التجاء آل زنكي في إربل وجزيرة ابن عمر كبير البيت الزنكي، فبعث رسولاً إلى الخليفة المتعاطف معه طالباً منه التوسط بينه وبين صلاح الدين، والطلب من الأخير رفْضَ قبول طاعة الأميرين التابعين لصاحب الموصل. واستجاب الخليفة الناصر، الذي كان يُخَوَّفُ من صلاح الدين والذي كانت له أهدافه الخاصة في فرض هيبته على إمارات المسلمين القريبة منه، فسَيّر سفيره المعتمد ومساعده إلى الموصل أولاً، فانْضَمّ إليهما القاضي محيي الدين

---

(1) مفرّج، 2 ص 153 - 154.

الشهرزوري ـ زميل عماد الدين الإصفهاني في الدراسة في النظاميّة ـ والقاضي بهاء الدين ابن شداد. وتوجّه الوفد إلى دمشق فاستقبل صلاح الدين الجميع بكل حفاوة وتكريم.

ومكث الوفد عِدّة أيام في مفاوضات مع ممثلي صلاح الدين والسلطان نفسه، وكاد الجانبان أنْ يتوصلا إلى اتفاق، بحيث لم يبق إلاّ كتابة عهد الصلح:

«. . . ولم يبق إلاّ عُقْدَة للتأليف تُحَرّر ونُسْخَة للتحليف تُقَرّر».

وهنا طلب السلطان العماد الإصفهاني، كاتبه، واجتمع به على انفراد، وقال له:

«اكتب شرطاً يكون لنا في الوفاق قُدْوة».

فقال له: **فكيف تستثني بأولئك الذين تَوَثّقُوا بعهدك، وسَكَنُوا إلى وعْدِك** [صاحبا أربيل وجزيرة ابن عمر]. **وهؤلاء** [سفراء الموصل] **لا يرضون بالاستثناء، ولا يأتون إلاّ الإِباء؟ وكيف تُنسَب إلى تَرْك الوفاء؟ وكيف تُشِيع هذا بين الأولياء والأعداء؟.**

فقال: **اكتب ما تنزهني عن الخُلْف، وتنبهني به على صِدْق الحَلْف.**

فقلت: **تَحْلِف لصاحب المُوصل على مَوْصِله. . . وتَجْعَل أمْرَ أصحاب تلك البلاد إلى اختيارهم، وتجريهم على إيثارهم، فمن اختارنا تَمّ لنا منه مناله، ومن اختاره فله عنده سؤله وسؤاله.**

فقال: **امضِ الآن إلى شيخ الشيوخ وعَرّفه القضيّة. . . وألْمِم أيضاً بمحي الدين، وإنّا قد أجبناه على هذه الشّرِيطة باليمين»**[1] .

ووافق السفير شيخ الشيوخ على هذا الاقتراح المنْصِف، أما ضياء الدين

---

(1) البرق، ج 5 ص 167.

الشهرزوري فَقَد رفَض ذلك رفضاً قاطعاً ، وأصَرّ على موقفه بعودتهما إلى طاعة صاحب الموصل دون شروط وإن كان ذلك يؤثر على مكانة صلاح الدين وهيبته بين ملوك المسلمين وغير المسلمين.

وتوقفت المفاوضات، إذ لم يعد هنالك من مجال لمزيد نقاش ، وغادر الرّسل دمشق عائدين إلى بلادهم في أواخر ذي الحجة 579 هـ/ العشر الثاني من نيسان 1984 م دون التوصُل إلى نتيجة مما أحرج ممثل الخليفة والسلطان صلاح الدين[1] . ووَصَل بعد ذلك رُسُل صاحب جزيرة ابن عُمَر وصاحب إربل، فحلفوا للسلطان باسم صاحبيهما وحلف السلطان لهم لما فيه مصلحة الجانبين وخدمة قضيّة الجهاد[2] .

وفي أواسط سنة 580 هـ (آب ـ أيلول 1184 م) بعث الخليفة العباسِيّ الرُسُل المذكورين إلى دمشق للتفاوض من جديد بشأن الصلح مع صاحب الموصل. كان صلاح الدين آنذاك يُحاصر الكرك ويرسل قُوات إلى بلاد نابلس وجنين في قلب المنطقة التي يُسَيْطر عليها الصليبيون. وعندما عاد إلى دمشق اجتمع بالرُّسل. ويبدو أنّ الخليفة طلب من السلطان تغيير موقفه والحنث بيمينه التي حلفها لصاحبي جزيرة ابن عمر وإربل، لكنّ السلطان الذي عرف عنه التمسك بأيمانه حتى النهاية رفَض ذلك:

«. . . فلم يتَقَرّر أمْرٌ، فاستأذنوا في العود الى بغداد قبل الشتاء، فأذن لهم، فعادوا. . . . »

ويبدو أن قرار السلطان أثار حفيظة الخليفة أو كبار رجال دولته، خاصة بعد وفاة شيخ الشيوخ والخادم بشير وبعد ما حدث من تغَيّر في الإدارة العباسية. وقَدْ ظهر أثر ذلك فيما بَعْد مِمّا سنذكره في مكانه.

وبعد فشل هذه المفاوضات، أكَّدَ صلاح الدين دعمه لصاحب إربل الذي صارت بلاده جزءاً من دولته، فكتب منشوراً إلى زين الدين يوسف بولاية «إربل

(2) المصدر نفسه، ص 168.

(3) مفرج، 2 ص 156.

وقلعتها وأعمالها وجميع ما قطعه الزاب الكبير: شهرزور وأعمالها، ومعايش بني قفجاق، ومعايش بيت القَرَابِلي: الدّشت والزرزاريّة»[1]. أما صاحب جزيرة ابن عُمَر الزنكي فقد بقي حليفاً حسب الشرط المتقدم. ثم وصلت إلى دمشق رُسل صاحب إربل مَرّة أخرى، وأخبروا السلطان أن صاحب الموصل اتفق مع صاحب بلاد العجم، واجتمعت جيوشهما للهجوم على بلاد إربل، «وأنّه نُصِر عليهم وكسرهم». ودفع هذا التطور صلاح الدين إلى التوجه إلى بلاد الجزيرة شرق الخابور مَرّة أخرى، فسار إليها في أوائل سنة 581 هـ (نيسان 1185 م).

وأثناء حركته نحو شرق الفرات، جمع صلاح الدين القُوّات التابعة له في الشام والمتحالفة معه، وسار حتى وصل إلى موقع الإسماعيليات قُرْب المُوصِل فخيَّم هناك، ثم أرسل من المخيم رسولاً إلى الخليفة «الفتى» يخبره بما عزم عليه من حصار الموصل، وذكر في الكتاب:

«إنّ أهلها يخطبون لصاحب العجم وينقشون السكة باسمه، وأنهم يُراسلون الفرنج ويغْرُونَهم على قَصْدِ بلاد المسلمين، وأنه **لم يأت لأجل الازدياد في الملك وقلع البيت القديم [آل زنكي] وقطع أصله**، وإنَّما مقصوده ردّهم إلى طاعة الخليفة ونُصْرَة الإسلام، وردّهم عَمّا اعتادوه من الظُلْم... وقطعهم عن مُوَاصَلَةِ العَجَمْ»[2].

وحاصر صلاح الدين الموصل، لكنّه اضطر إلى رفع الحصار والتوجه إلى بلاد خَلاَط بسبب موت صاحبها دون وارث، ولأنه «وردت كتب أهل بَدْلِيس وغيرها إلى السلطان يخطبونه لها، **وهم خائفون من العجم أن يملكوها**». كما كاتبه الوزير والأمراء هناك. وفي الطريق وصَلَه الخبر أنّهم غيروا رأيهم وصالحوا صاحب بلاد العجم. عند ذلك توجه صلاح الدين إلى ميّافَارِقين واستولى عليها، ورتّبَ الأمور في ديار بكر، ثم عاد إلى الموصل لحصارها، فوصل إلى كفْر زمّار على دجلة، وعَزَم على «أن يشتي في ذلك المكان»[3].

(1) الروضتين، 2 ص 64؛ مفرج، 2 ص 164.
(2) مفرج، 2 ص 166 - 167 عن الروضتين باختصار، 2 ص 62.
(3) المصدر نفسه، 2 ص 170.

وخرج من المدينة ابنة الملك العَادل نور الدين وبعض النساء من البيت الأتابكي «**يشفعن إليه في الكَفّ عن الموصل والرحيل عنها**». فاستشار صلاح الدين أصحابه «**فأشار أكثرهم بإجابتهن إلى ما طلبن**». وعارض الفقيه عيسى الهكاري وأخوه عليّ ذلك، وقالا:

«مِثل الموصل لا تُتْرَك لامرأة، فإنّ عز الدين ما انْفَذهن إلاّ وقد عجز عن حفظ البلد»[1].

ووافق الرأي المعارض هواه لأن فيه مصلحة عامة المسلمين، وردّ عليهن:

«**قد قبلت شفاعتكن، لكن لا بُدّ أن نعمل ما تقتضيه المصلحة**»[1].

ومرض السلطان في رمضان (كانون أول 1185 م) مرضاً أقلقه، وربما كان لعدم قبول شفاعة الزنكيات أثر في ذلك، فطلب من صاحب سنجار الزنكي التوسط بينه وبين صاحب الموصل في الصُلْح، رغبة في الانتهاء من قضيّة الموصل. كما أن صاحبها ومستشاريه استغلوا فرصة المرض: «وعلموا أن رِقّة قلبه وسرعة انقياده في هذا الوقت» العصيب ستدفعه إلى الإبقاء على ما بأيديهم خاصّة وأنّ الخليفة رفَض الاستجابة لطلبهم بالتدخل وكذلك صاحب بلاد العجم. وأُرْسِل القاضي بهاء الدين بن شدّاد وشخص آخر إلى مخيّم السلطان. وفي هذه المَرّة تمّ الاتفاق:

«أنّ السلطان يَتَسَلّم بلاد شهرزور وقلاعها وحصونها وضياعها، وكذلك ما وراء الزابين من البوازيج والرستاق وبلد القرابليّة وبلد قفجان. . . **وأخذنا منه بين النهرين**»[2].

---

(1) المصدر نفسه، 2 ص 171.

(2) المصدر نفسه.

وتَمّ الصُلْح، وحُلِفَ اليمين يَوْم عرفة 581 هـ/ 4 آذار 1183 م، في حَرَّان:

«وخُطِب في جميع بلاد الموصل للسلطان، وقُطِعَت خطبة السلاطين السلجوقيّة بها، وخُطِب له في ديار بكر وجميع البلاد الأرتُقية، وضُرِبت السكة باسمه»[1].

وعاد صلاح الدين، بعد تعافيه من المرض، إلى الشام، ودخل دمشق يوم، ربيع الأول سنة 582 هـ/ 23 أيار سنة 1186 م.

وهكذا تمكن السلطان صلاح الدين بالدبلوماسيّة أحياناً، وبالتهديد والترهيب أحياناً أخرى، وبالعمل العسكري المحدود في بعض الأوقات، من تحقيق وحدة مصر وبلاد الشام والقسم الأكبر من بلاد شرق الفرات تحت سيادته وقيادته، وإلزام بقيّة القوى حتى حدود بلاد العجم بالمشاركة في الجهاد ضِدّ الصليبيين، وأتَمّ ذلك دون تعطيل الجهاد، إذ استمرت العمليات العسكرية الهجوميّة بقيادته هو بنفسه أو بقيادة أمرائه من القاعدة الرئيسيّة في دمشق.

(1) المصدر نفسه، ص 172.

9 من الدفاع إلى الهجوم

في الوقت الذي كان يقوم به صلاح الدين بإعادة بناء الوحدة السياسيّة التي انفرطت بعد وفاة نور الدين مباشرة، ويعقد المهادنات المؤقتة بين الحين والآخر مع الصليبيين لإنجاز مهمته الأساسيّة، كان ـ في الفترات التي تنتهي بها الهدن ـ يقوم بالعمليات الهجوميّة داخل المناطق التي يسيطر الفرنج عليها سيطرة تامة والتي لم تتعرض للهجوم في السابق إلاّ بصورة غارات محدودة.

وبدأت محاولات صلاح الدين الأولى قبل وفاة نور الدين، كما ذكرنا في السابق. فقد قام بحملة على الدّاروم وغَزّة كان من أهدافها الاستكشاف والتخريب. ثم كانت حملتاه على الشوبك وعلى بلادها وبلاد الكرك في المرة الثانية دون التعرض للقلعتين الحصينتين. وكان من أهدافه أيضاً الاستكشاف والتخريب لإضعاف القدرة العسكرية لهذه المناطق ولو لمدة قليلة من الزمن. وجاءت فترة الفوضى السياسيّة في بلاد الشام والجزيرة الفراتية والتي انشغل أثناءها صلاح الدين بالأوْضَاع الداخلية مدة. واستغَلّ الصليبيون هذه الفترة الحَرِجة بالقيام بعمليات عسكرية من حصار وغارات ونهب في بعض المناطق الخاضعة لسيطرته.

وخلال فترة انشغال صلاح الدين في أواخر سنة 1174 م في بلاد الشام الشماليّة، استغل ملك الصليبيين الجديد غياب القوات الرئيسيّة عن دمشق للإغارة على بلادها في حزيران 1175 م (شَوّال 570 هـ)، وهاجم المنطقة حول مدينة بانياس، فنهبت قُوّاته المنطقة وأحرقت المحاصيل الزراعيّة التي هرب أصحابها إلى الأماكن الحصينة القريبة، ووصلت فرق الصليبيين التي انتشرت في

مختلف الاتجاهات إلى دَارَيّا[1] قرب مدينة دمشق فقام الصفي بن القابض، وزير السلطان بدمشق، بجمع العامة في المدينة وخرج إلى ظاهر البلد، فظنوهم عسكراً فرحلوا»[1]، ثمّ سيطروا على موقع على سفح جبل الشيخ، وعادوا بعد ذلك إلى غرب النهر مُحَمَّلين بالغنائم التي جمعوها[2]. كان يتولى دمشق في هذه الفترة تورانشاه، الأخ الأكبر لصلاح الدين، الذي أخضع في السابق الصعيد في مصر لسيطرة أخيه وفتح اليمن بعد ذلك. أما في هذه الغارة التي وصلت قريب أسوار دمشق، فإنه لم يُحَرّك ساكناً، فكان ما قام به الوزير.

ونظراً لعدم تصدي النائب بدمشق للغارة الأولى، جَازف الملك بلدوين الرابع بغارة أخرى في الشهر التالي، وفي هذه المَرّة تَقَدّم عن طريق بلاد صيدا إلى وادي البقاع الخصيب وقاموا بمثل ما قاموا به في الغارة السابقة من تخريب وإحراق للمحاصيل، وتوجهوا نحو بعلبك حيث التقوا قربها مع أمير طرابلس الذي قدم، حسب الاتفاق المسبق بين الجانبين، عن طريق جَبَلَة وحِصْن المنيطرة. وفي هذه المَرّة خرج شمس الدولة تورانشاه عند معرفته بحركة القوات الصليبيّة في منطقة تابعة لإدارته، والمدينة التي كان يطمع في الحصول عليها كإقطاع له كما كانت لوالده من قبله، على رأس القوات المتوافرة لديه لملاقاتهم. والتقى الطرفان، وتعبأوا للقتال، فكانت معركة وقع فيها قتلى وجرحى وأسرى من الجانبين، وفي النهاية هُزِم تُورانشاه، وتراجع مع من بقي معه. أما الصليبيون فقد رحل كل واحد من قادتهم محملاً بالغنائم إلى مَقرّه[3].

وعاد صلاح الدين من بلاد حلب إلى دمشق في آخر سنة 570 هـ/ آب 1175 م، فاستراح فيها بعض الوقت، ثُمّ غادرها في محرم من السنة التالية (أيلول 1175 م) بقصد الرّدِّ على غارات ملك القدس ونهب البلاد التي يسيطر عليها[4]، وأقام مخيّمه في مرج الصُفّر المشهور حيث مكثَ بقيّة مُحَرّم وبعضاً

---

(1) داريا: غرب دمشق في طرف الغوطة. مرآة الزمان، 8 ص 314 - 315.

(2) وليم، تاريخ، 2 ص 411 - 412.

(3) المصدر نفسه، ص 413 - 414.

(4) الكامل، 11 ص 435.

من الشهر التالي. وأثناء هذه المدة، وَصَل إلى المعسكر رُسُل الملك بلدوين طالبين عقد هدنة بين الجانبين. وبعد مفاوضات تَرَدّد أثناءها الرُسل بين القائدين، تَـمّ في النهاية التوصل إلى عقد هدنة لا نعرف مدتها ولا شروطها[1]، وإن كنا نرجح أنها كانت لسنتين وأكثر. وبذلك توقفت العمليات العسكرية بين دمشق وبلادها ومملكة القدس والبلاد التي دخلت في عقد اتفاقها. واستغل صلاح الدين هذه الفترة في ترتيب علاقاته مع آل زنكي وغيرهم من أمراء الجزيرة الفراتية، ثَمّ غادر بلاد الشام عائداً إلى القاهرة في ربيع الأول 572 هـ/ تشرين الأول 1176 م.

ومع اقتراب نهايَة مُدّة الهُدْنَة، حسب تقديرنا، كان صلاح الدين في القاهرة يستعد للقيام بحملة كبيرة إلى بلاد فلسطين التي انتهت بما شُهر بعد ذلك بمعركة الرّملة، المدينة التي جرى على أرض بلادها معظم القتال.

1 ـ معركة الرملة:

عاد صلاح الدين الى القاهرة ومعه «التقليد الجامع» الرسمي من الخليفة العباسي، الذي يضفي الشرعيّة على حكمه للبلاد التي حَدّدها في كتابه إلى الخليفة العبّاسي وهي مصر واليمن والمغرب والشام «وكُلّما تشتمل عليه الولاية النورية، وكل ما يفتحه الله للدولة العبّاسيّة بسيوفنا وسيوف عساكرنا»، بما في ذلك بالطبع البلاد التي يسيطر عليها الصليبيون؛ ومن ناحية أخرى، فقد ترك في بلاد الشام عدداً من كبار الأمراء الذين كان يعتمد عليهم في عملياته العسكريّة حتى ذلك الوقت مثل: محمد بن شيركوه الذي أقطعه حمص وبلادها ـ والتي كانت سابقاً لوالده ـ وأخوه تورانشاه الذي أقامه نائباً عنه في دمشق، وخاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي الذي ولّاه حماه؛ ومع كل واحدٍ جنده الذي شكل قُوّات هذه المناطق لحفظ ثغورها. ولم يكن معه من الأمراء الكبار، في معركة الرملة، غير اثنين منهم هما: تقي الدين عُمر بن شاهنشاه (ابن أخيه)

---

(1) سنا، 1 ص 194 - 195؛ الروضتين، 1 ص 252؛ الكامل، 11 ص 435.

والأمير عز الدين جاولي الأسدي، من كبار أمراء عمه أسد الدين شيركوه.

كانت معركة الرملة المعركة الأولى التي يقودها صلاح الدين إلى داخل فلسطين. وقد هدف من هذه الحملة تحقيق واحدٍ من أمرين: أن يدفع الصليبيين الذين كانوا يُحاصِرُون قلعة حَارم الحدوديّة على الطريق بين حلب وأنطاكيّة إلى التخلي عن حصارها، ذلك أن قسماً مُخْتاراً من قُوّات ملك القُدْس كان مشاركاً في الحصار، أو أن يحقق نصراً على من بقي من قوات الملك بلدوين في داخل حدود مملكته وقريباً من عاصمته، ويُحْدِثَ أكبر قَدْرٍ من الأضرار في ساحل فلسطين مقابل غارات الملك قبل سنتين على بلاد دمشق.

في يوم الجمعة 3 جمادى الأولى 573 (28 تشرين الأول 1177 م)، خرج السلطان صلاح الدين بقواته إلى قرب بلبيس التي تردد ذكرها كثيراً في ما تقدم نظراً لموقعها الاستراتيجي. وفي يوم 5 من الشهر تَقدم إلى مستنقع وغيضة السَّدِير قرب العباسية (أو العباسة)؛ وتوجه منها إلى محطة المَبْرَز على الطريق إلى فلسطين حيث خيّم للاستعداد والتجهز الأخير. وهنا قرر صلاح الدين القيام بحملة محدودة الأهداف: «فاستصحب من الخيم الخفيف وردّ الثقيل، ثم نُودِي [في المخيّم]: خُذُوا زَاد عشرة أيامٍ أخرى للاستظهار [الاحتياط]، ولإعواز ذلك في ديار الكفّار»[1]. فرَحل العسكر بعد ذلك إلى العريش على الحدود حيث ترك «الأثقال» الأخرى التي تُحمل إلى الميدان في العمليات الكبيرة. وبالتالي فلم يكن مع الحملة الآلات العسكرية المناسبة لعمليات الحصار[2].

وعرف الملك بلدوين الرابع بوصول الحملة الى الحدود بين مصر وفلسطين، فجمع قواته المتوافرة في عسقلان التي صارت مركز التجمع للعمليات العسكرية على الساحل باتجاه مصر منذ السيطرة عليها سنة 1154 م. أمّا فُرسان الدّاوِيّة فقد جمعوا أيضاً فرسانهم من حصونهم وتوجّهوا إلى غَزّة

---

(1) البرق الشامي، ج 3 ، تحقيق مصطفى الحياري، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، 1987، ص 32.

(2) وليم، تاريخ، 2 ص 426 - 427.

والدَّاروم قرب الحدود لتعزيز حامياتها من الدَّاوِيّة. لكنّ صلاح الدين تخطى هذه الحصون ووصل فجأة أمام أسْوار عسقلان وذلك يوم الأربعاء 29 جمادى الأولى/ 23 تشرين الثاني[1]. ووقف العسكران بقيَّة اليوم أمام بعضهما: أحدهما عند أسوار المدينة الحصينة نظراً لقلّة عدد قُوّاته، والثاني خارج الأسوار بعيداً عن مرمى الأسلحة المختلفة في المدينة. وجَرَت مناوشات بين الجانبين حتى المساء فدخل الملك المدينة. ولما رأى صلاح الدين عَدَم تقدّم الملك وقُوّاته، قَتَل الأسرى الذين جمعهم في الطريق ثم «تَفَرقت الفرق في الأعمال مغيرين ومُبِيدين ومُبِيرين»[2].

وبعد الغُرُوب تَحَرّك صلاح الدين بقواته إلى الشمال الشرقي باتجاه الرّمْلَة وخيّم بقيّة الليلة قربها. وفي صباح اليوم التالي (الخميس) وجد الملك وعسكره أن قُوّات المسلمين قد رحلت عن المدينة بينما كانوا يتوقعون اقترابهم منها لحصارها وحصارهم في الداخل. في هذه الأثناء بدأت قُوات صلاح الدين تتوزع في فرق في مختلف مناطق السّاحل. ويصف الصوري، الذي كان يرافق الملك كما يبدو، الدَّمار والخراب الذي أوقعته هذه الفرق في مختلف المناطق السهلية خاصة جماعة جاولي الأسدي:

«وتَقَدّم هذا المحارب الشجاع المدعو بجاولي والقوات التي يَقُودها إلى الرملة... فوجدها مهجورة، فأحرقها، ذلك أن دفاعات المدينة لم تكن قويّة وحصينة، فهجرها سكانها اليائسون، وترك بعضهم المدينة مع الملك إلى عسقلان، أما البقية... فرحلوا إلى يافا... وحصن مجدل يَابا القريب. وبعد إحراق الرملة، توجّه جاولي بقواته إلى مدينة اللد القريبة. وهنا قسم العسكر وأحاط بالمكان، وهاجم من كان فيها بوابل من السهام ومختلف أنواع الأسلحة دون توقف حتى أنهكهم، فهربوا إلى كنيسة القديس جورج»[3].

---

(1) البرق الشامي، 3 ص 37؛ وليم، تاريخ، 2 ص 427.

(2) البرق الشامي، 3 ص 37.

(3) وليم، تاريخ، 2 ص 428.

أما بقيّة فرق قوات صلاح الدين فقد أثارت الخوف والهلع في كل مناطق الساحل الفلسطيني بحيث لم يكن أمامهم من سبيل إلاّ الهروب إلى الأماكن الآمنة الحصينة. ووَصَل الخوف إلى سكان الجبال وأهل مدينة القُدْس، التي لم تعرف هذه الحالة منذ مُدّة طويلة، الذين فكروا بترك المدينة أولاً ثم قرر ا اللجوء إلى قلعتها الحصينة بسبب عدم ثقتهم بتحصيناتها الأخرى التي أهملت وَوَصَلت فرق المغيرين من عسكر صلاح الدين إلى موقع يدعى قلقيلية (Calcalia) في الشمال، وانتشرت في كل مكان[1]. ووَصَلَت أخبار الغارات الى الملك المتحصن وراء أسوار عسقلان وأنّها قد عاثت فساداً وتخريباً في كل بلاد مملكته وسيطروا عليها تقريباً. عند ذلك قَرّر الخروج بقواته وملاقاة قوّات صلاح الدين مَهْمَا كلّف الثمن، وتوجه على طريق الساحل حتى وصل إلى المفترق الذي يتجه إلى الرملة، فسار نحوها. وكان قبل ذلك قد استدعى مُقَدّم الداويّة الكبير أُود (Eudes de Saint - Amandt) وفرسانه من غَزَّة، وسار معه نحو الرملة[1]. كان ذلك صباح يوم الجمعة الأول من جمادى الآخرة/ 25 تشرين الثاني 1177 م[2].

أمّا صلاح الدين فقد كان صَباح ذلك اليوم يتجهّز للرحيل من الرملة «ليقصد بعض المعاقل، فاعترضه نَهْرٌ عليه تل الصافية[3]، فازدحمت على العبور أَثْقَال العساكر المتوافية، فما شَعَرُوا إلاّ بالفرنج طالبة بأطلابها... وقد تفرق الجمع وسرايانا في الضياع مغيرة»[4].

وعبأ صلاح الدين قواته المتوافرة حسب الامكان في مثل هذه الظروف، وتقدم الملك على تعبئته وهاجم قوات المسلمين فتصدى لها تقي الدين

---

(1) المصدر نفسه، ص 428 - 429.
(2) البرق الشامي، 3، ص 37.
(3) تقع إلى الجنوب الشرقي من الرملة والشمال الغربي من الخليل، على الطريق من غَزّة الى جُولس إلى القدس معجم بلدان فلسطين، ص 231. وانظر ياقوت، معجم البلدان، 2 ص 42. وسيتردد ذكره كثيراً بعد معركة حطين.
(4) البرق الشامي، 3 ص 38.

عمر[1]، الأمير الكبير الوحيد الذي بقي معه، لكنّ قوات الملك المندفعة بسرعة وقُوّة تمكنت من هزيمة تقي الدين ومن معه ــ وقُتل ابنه ــ وتشتيهم، ثُمّ لاحقت المنهزمين في كل الاتجاهات فأسرت الكثير واستولت على كل الأسلحة، ووصلت في الملاحقة حتى عيون القصب[2] التي مَرّ ذكرها في السابق. أما صلاح الدين فكاد أن يصل إليه حيث يقف ثلاثة من الفرسان الصليبيين عندما تَصَدّى لهم ثلاثة من «أصحابه» هم إبراهيم بن قنابر «الفارس الباسل»، وفضل الفيضي «الشيخ... الجريء»، وسويد بن غشم المصري[3]، فأبعدوهم وثَبَتُوا مع السلطان والقاضي الفاضل[4]. وفي المساء عاد الملك وعسكره ومن معه إلى عسقلان، وأسروا الفقيه عيسى المشهور وأخوه[4].

وقد وصف القاضي الفاضل الحملة بأسلوبه المعروف، فقال:

«وقد كانت هذه العساكر [الصلاحيّة] قد جاست خلال ديارِ الكفار، وقاتلت البلاد وأهلها... واستباحت لهم معاقل... وشَغَلَت العساكر كُسُوبَها.. وكان العَدُوّ رَامَها مستيقضة فلم يطقها، وبادرها على باب عسقلان فلم يثنـها عن غاية ولم يعقها، بل ولّاها ظهره عَجِلاً... ثم طال طَرْقُها في حال إنبثات وانتشار، وشُغْلٍ بالنهب والاغْتِرَار، وتَبَاعُدٍ في الأطْلَاب، وخِفَةٍ من رجالها، وخُلوٍ من الأسلحة التي احتاجت في لباسها الى لحاق أثقالها...»[5].

وتَفَرّق من سلم من قوات صلاح الدين في مختلف الاتجاهات طالبة النجاة، ولم يبق إلاّ القليل من الجُند والقاضي الفاضل ومن معه من العرب الكنانيّة والأَدِلّاء؛ وتمكن الجميع بواسطة الأدلاء من الخروج بسلام من فلسطين

---

(1) المصدر نفسه، ص 38 - 39.
(2) انظر عن المعركة: البرق الشامي، 3 ص 37 - 46؛ وليم، تاريخ، 2 ص 429 - 434؛ الكامل، 12 ص 255 - 256.
(3) لا نعرف عنهم شيئاً غير أسمائهم.
(4) البرق الشامي، 3 ص 40 - 41.
(5) البرق الشامي، 3 ص 42-43.

إلى سيناء في طرق غير مسلوكة في النقب، ووصلوا إلى القاهرة بعد أسبوعين (الخميس 9 كانون الأول 1177 م) سالمين بعد مشقّات وصعوبات من قلّة الماء والغذاء والسير في الصحراء[1].

كانت معركة الرَملة تجربة قاسية لصلاح الدين تَعَلّم منها الكثير في مواجهاته التالية، كما كانت أَوّل هزيمة كُبرى له ولقواته وآخرها أمام قُوّاد الصليبيين. فعلى الرغم من كثرة العسَاكِر التي قادها فإنه اغترّ بكثرتها وسمح بتشتتها في مجموعات في مختلف الاتجاهات لتقوم بالنهب والسلب والكسب دون خِطّة مُحَدّدَةٍ؛ إضافة إلى ذلك كان هنالك ضَعْف في استخباراته في مراقبة الملك بلدوين في عسقلان وتحركاته. من ناحية أخرى كانت القُوّات متعبة من السير الطويل والمتواصل من خروجه من آخر منزل وحتى وصوله إلى أسوار عسقلان. وكانت العمليات متواصلة خلال الثلاثة أيام التي مكثت فيها في سهل فلسطين بما في ذلك يوم المعركة. ومع ذلك فقد تمكن من استعادة قواته العسكرية بسرعة بتفريق خزائن الأموال والسِّلاح والخيول على الذين سلموا من القتل والأسر.

من ناحية أخرى فقد تحقق صلاح الدين من حقيقة أخرى تتعلق بهذه الجبهة مع الصليبيين، وهي طُول خطوط الإمدادات والتموين بين مركزه في القاهرة وبين سهول فلسطين وصعوبتها وقِلّة الماء والعشب فيها. وهذه الحقيقة كانت معروفة لديه وأمرائه والقاضي الفاضل، إذ ضُمّنت في الكتاب الذي وجّهَه إلى دار الخلافة قبل هذه المعركة بثلاث سنوات طالباً التقليد على كل الشام إضافة إلى مصر:

«. . . وإنّا لا نتمكن بمصر منه [العدو] مع بعد المسافة، وانقطاع العمارة، وكَلَالِ الدّوَاب التي بها على الجهاد القُوّة. وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية، والمنفعة جامعة، واليدُ قادرة، والبلاد قريبة، والغزوة

---

(1) البرق الشامي، 3 ص 41 - 42.

ممكنة، والميرة [التموين] متسعاً، والخيل مستريحة، والعساكر كثيرة الجموع، والأوقات مساعدة»[1].

فجاءت معركة الرملة لتثبت صحة هذا التفكير؛ فقرر صلاح الدين تَرك هذه الجبهة معطلة كُلِّياً مع إبقاء حامية كبيرة في مصر بقيادة أخيه الملك العادل (أو من يوليه مصر نيابة عنه) لحمايتها الدائمة ولتقديم المساعدة لعساكر الشام عند الحاجة القصوى إليها. من ناحية أخرى فإن مدينة عسقلان الحصينة شكّلت عقبة كبرى على طريق هذه الجبهة، فقد كانت من الحصانة بحيث لم تتمكن أية قوة عسكرية من الاستيلاء عليها بقوة السلاح قبل ذلك أو فيما بعد.

ومنذ ذلك الوقت قَرّر صلاح الدين نقل مركزه الدائم، بعد إعادة بناء قوته العسكرية والسياسية، إلى دمشق التي كان لقوتها العسكريّة، التي ورث بعضها عن نور الدين، وأمرائها وأمرائه، خِبْرة أطْوَل في مواجهة قوات الصليبيين ومعرفة أفضل بجغرافيتها، إضافة إلى قِصَر خطوط مواصلاتها وتموينها، وطول هذه الخطوط بالنسبة للعدو. ومن ناحية أخرى كانت دمشق قريبة من الإمارات التي تخضع له أو التي يرغب في إخضاعها حسب التقليد الذي فَوّضَه الخليفة بذلك، خاصة بقايا إمارات آل زنكي، كما رأينا في الفصل السابق.

وإذا كان الهدف الأساسي من عملياته العسكرية في المستقبل هو تحرير القدس واستعادة الأراضي التي سيطر الصليبيون عليها، فإنّ دمشق هي القاعدة الأساسية الأكثر مناسبة لمثل هذه العمليات، ولذلك فقد جعلها صلاح الدين مركزه الدائم، ولا يغادرها إلى مصر إلّا لتفقد أحوالها.

2 ـ بناء حصن بيت الأحزان (Chastelet) ومقتل هنفري صاحب تبنين:

في الثاني آب من 1177 م، وصل كونت فلاندر (Count of Flander) من أوروبا إلى ميناء عكّا، فاستقبله الملك بلدوين المريض استقبالاً حاراً، إذ كانت

(1) الروضتين، 1 ص 213.

المملكة تَمُرّ في ظروف صعبة، وتتوقع وصوله بتوق عَلَّه يَقْبَلُ بالوصاية على الملك وإدارة شؤون المملكة. وكان هذا الموقف بموافقة البارونات وكبار رجال الدولة. كان هذا الحدث في الوقت الذي بدأ فيه صلاح الدين السيطرة على كل بلاد الشام وتثبيت نفوذه فيها. وكان الملك الصليبي يحضّر للقيام بحملة مشتركة مع أمبراطور القسطنطينية للقيام بهجوم على مصر. لكنّ الكونت رفض العرض، ورفض حتى قيادة مثل هذه الحملة أو المشاركة فيها[1]. ووقع خلاف بينه وبين الملك وباروناته، فَقَرّر كونت فلانـدر التوجه مع كونت أنطاكية وكونت طرابلس إلى شمال الشام ومساعدة هؤلاء الأمراء في عمليات عسكرية تقوم بها قوات الامارتين هناك. في هذه الأثناء وَصَل رُسُل القسطنطينية إلى القدس طالبين تنفيذ المعاهدة بين الجانبين والتخطيط للقيام بالحملة المشتركة على مصر، لكن موقف الكونت أَوْقَفَ تنفيذ شروط الاتفاقية وكذلك الحملة[2].

وتوّجه كونت فلاندرز برفقة مائة فارس من فرسان الملك، ومعه كونت طرابلس وكونت أنطاكية ومُقدّم الإستباريّة الكبير وبعض فرسانه، إلى الشمال للقيام بالعمليات العسكرية ضِدّ بلاد حمص وحماه التابعة لصلاح الدين وضدّ قلعة حارم التابعة لابن نور الدين. في هذا الوقت كان صلاح الدين في مرج الفاقوس[3] في مصر لتدريب قواته والصَّيْد. ويبدو أنه عرف في هذا المكان بحركة قوات الصليبيين نحو بلاد الشام الشماليّة، فعاد إلى القاهرة وأخذ يستعِدّ للقيام بحملته على الرَّمْلَة التي منيت بالهزيمة التي ذكرنا.

وعند وصول كونت فلانـدر ومن يرافقه إلى طرابلس، توجه صاحب أنطاكية إلى امارته للاستعداد والتجهز ثم العودة، بينما تقَدّم الكونت وصاحب طرابلس إلى منطقة حمص وحماة. وفي يوم الأحد 14 تشرين الثاني - بينما كان

(1) عن هذه التطورات، انظر وليم، تاريخ، 2 ص 417 - 420.
(2) المصدر ذاته، ص 420 - 425.
(3) البرق الشامي، 3 ص 23. ومرج الفاقوس بادة صغيرة في حوف مصر الشرقي، وكانت تعتبر آخر بلاد مصر المعمورة من جهة الشام. ياقوت، معجم، ج 4 ص 232.

صلاح الدين في طريقه إلى ساحل فلسطين ـ قام الأميران بحصار حماة. وكان شهاب الدين محمود الحارمي، خال السلطان ومتولي حماة، مريضاً وغير قادر على قيادة قواته لمواجهتهم، فكادوا أن يُسَيْطِروا عليها لولا أن الأمير سيف الدين المشطوب كان قريباً من المدينة فَدَخلها وقاتل المهاجمين حتى أنه أخرج بعضهم من شوارعها، فرحلوا بعد حصار دام أربعة أيام، وقَدِم صاحب أنطاكية لمساعدتهم لكن الوقت كان قد فَات[1].

وقرر صاحبا طرابلس وأنطاكية والكونت الكبير، بعد فشلهما في حصار حماة وتحقيق أول أهدافهم، حصار قلعة حارم الحصينة بقَصْد الاستيلاء عليها. وكانت حارم في ذلك الوقت من أحصن القلاع في منطقة الحدود بين المسلمين والصليبيين في المنطقة الاستراتيجيّة بين حلب وأنطاكية، وتقع على مسافة عشرين كيلومتراً من أنطاكية وضِعْف هذه المسافة من حلب على الطريق الرئيسي الذي يصِل بين المدينتين، وبسبب هذه الأهميّة فقد كانت منذ قدوم الحملة الصليبيّة الأولى في قلب الصراع الدائم بين الجانبين بحيث سيطر عليها كل جانب أو حاصرها أكثر من مَرّة خلال فترة الثمانين سنة التالية.

وعند وصول قوات الكونتات إلى حارم أحاطوا بقلعتها، التي تقع على رأس تلة عالية[2]، إحاطة تامة وبنوا آلات الحصار كما أقاموا مخيماً مؤقتاً نظراً لقرب فصل الشتاء، وهاجموا القلعة عِدَة مَرّات دون طائل. في ذلك الوقت كان صلاح الدين يعيث فساداً في سهول فلسطين. وفي النهاية انسحب المحاصرُون عن حارم وعادوا إلى أنطاكية[3].

ودفعت هذه التطورات صلاح الدين، الذي رجع إلى القاهرة وأعاد تجميع قُوّاته في مدة تزيد أياماً معدودة عن شهرين، إلى التوَجّه بسرعة إلى بلاد الشام؛

---

(1) **البرق الشامي**، 3 ص 52 - 53؛ وليم، **تاريخ**، 2 ص 425.

(2) انظر وصف الدقيق في ابن شدّاد، **الأعلاق الخطيرة**، القسم الثاني الخاص بحلب.

(3) وليم، **تاريخ**، 2 ص 427 - 428، 434 -435. وانظر: **زبدة الحلب**، 3 ص 34 - 38؛ **الكامل**، 11 ص 445 - 446.

وفي 16 شباط 1178 م غادر القاهرة، وخيّم في بركة الجُبّ لتجتمع القوات هناك. وفي يوم الخميس 23 آذار (يوم عيد الفطر الموافق الأول من شوال 573 هـ) رَحَل السلطان إلى بلاد الشام عن طريق أيلة التي وصلها يوم 2 نيسان. وبعد أسبوعين [16 منه]، وَصَل إلى دمشق واستَقَرّ بها بينما كان الصليبيون لا يزالون يُحاصرون قلعة حارم[1].

ووصل صلاح الدين إلى دمشق في ظروف اقتصادية وسياسيّة وعسكرية غير مؤاتية له ولا للعمليات العسكرية. كانت بلاد الشام تعاني من قحط شديد نظراً لقلّة نُزول الأمطار، ولذلك فإن إنتاجها ومراعيها لا تحتمل وجود قوات عسكرية كثيفة فيها. وقد أثر هذا الوضع على العمليات العسكريّة فاكتفى السلطان بالحد الأدنى منها. من ناحية أخرى، عاود الصليبيون غاراتهم على حدود مصر فوصلوا إلى صَدْر وعادوا إلى فلسطين على نية لجمع المزيد من الحشد[2]، وأغار كونت طرابلس على حمص لكنّ صاحبها تمكّن من ردّهم. وكان الحصار على حارم لا يزال مستمراً. ورغب تورانشاه، أخو السلطان الأكبر، بأن يأخذ بعلبك إقطاعاً ويتخلّى عن ولاية دمشق التي لم يهتم منذ عودته من اليمن بالمحافظة على ثُغُورِها، مما أدى إلى عصيان الأمير الكبير ابن المُقَدّم صاحب بعلبك فيها فلم يأت إلى دمشق للقاء السلطان كما كانت العادة في ذلك الوقت. ولذلك توجّه صلاح الدين من دمشق إلى بلاد حمص والشمال أولاً، وعيّن عِزّ الدين فرخشاه ابن أخيه شاهنشاه، والياً على ثغور بلاد دمشق. أمّا العصيان وطلب تورانشاه فقد أجلهما حتى تستقر الأمور[3].

واستغل الملك بلدوين الرابع ورجال دولته هذه الظروف الصعبة التي واجهت صلاح الدين في الشام فابتدأ ببناء حصن في موقع متقدم على الحدود مع بلاد دمشق قريباً من بانياس وقلعتها الصبيبة، لكي يُعَوّض عن استيلاء

---

(1) البرق الشامي، 3 ص 56 وما بعدها؛ زبدة الحلب، 3 ص 35 - 36.
(2) مفرج، 2 ص 65.
(3) البرق الشامي 35 ص.

نور الدين قبل أكثر من عقدٍ من الزمان على بانياس وبلادها ذات الموقع الاستراتيجي الهام الذي يتحكّم بطرق المواصلات بين دمشق والجليل وساحل صور وصيدا والبقاع الجنوبي[1]. واختار الملك لبناء الحصن موقعاً جيداً هو تلّة مناسبة تقع إلى الغرب من مخاضة بيت الأحزان (جسر بنات يعقوب فيما بعد).

وفي تشرين الأول 1178 م (جمادى الآخرة سنة 574 هـ) توجّه الملك على رأس قُوّاته إلى الموقع المذكور، وبدأ يجمع كل القوى البشرية القادرة على العمل إضافة إلى الأسرى المسلمين لديه حتى يتم البناء بأقل ما يمكن من الوقت. وبعد عمل متواصل، بحماية قوات المملكة، استمر ما يقرب من ستة شهور (امتد حتى أوائل آذار 1179 م) تَمّ بناء الحصن الصغير الحصين من الحجارة الصلبة، فجاء مربع الشكل، سميك الجدران مرتفعها[2]. ومنح الملك الحصن لفرسان الداويّة الذين زوّدُوه بحامية كبيرة وتموين وآلات وعُدد تكفي من فيه مُدّة طويلة[3]. وجاء بناء هذا الحصن مخالفاً لاتفاقيات الهدن وأعرافها التي تمنع الجانبين إقامة حصون جديدة في مناطق قريبة جداً من الحدود التي كانت تخضع لحكم المقاسمة. وصار هذا الحصن بعد محوراً للعلاقات العسكريّة بين الجانبين مُدّة سنة تقريباً وقع فيها معركتان وتَمّ لصلاح الدين الاستيلاء عليه وهدمه وتعفية آثاره بحيث لم يبق منه إلاّ حجارة متناثرة على التّلّة. فماذا كان يعمل صلاح الدين أثناء فترة بناء الحصن.

عرف السلطان منذ البداية بعمليّة البناء، لكنّه تَريث في القيام بعمل

---

(1) انظر عن بانياس وقلعتها خلال هذه الفترة: مصطفى الحياري، «مدينة بانياس في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي»، مجلة دراسات، الجامعة الأدنية، م 13 عدد 12، (عمان، 1986: ص 161 - 188. وعن أهمية منطقة الجولان عامة والطرق التي تمر بها باتجاه الغرب والجنوب: مصطفى الحياري، «حصن بيت الأحزان: جانب من العلاقات بين المسلمين والفرنجة الصليبيين في زمن صلاح الدين»، مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، م 13 عدد 4 (عمان، 1986) ص 40 وما بعدها.

(2) وليم، تاريخ، 2 ص 436 - 437.

(3) انظر، الحياري، حصن بيت الأحزان، ص 42 وما بعدها.

عسكري يوقف البناء بالرغم من إصرار مستشاريه عليه بذلك خشية أن يستفحل الأمر بعد ذلك ويشكل خطراً على قاعدته دمشق. فقد كان عليه أولاً أن يحل المشاكل الداخليّة واختيار الوقت المناسب للقوات العسكرية والتموين والخيول وغير ذلك مما له علاقة بالعمليات العسكرية. فقد وصلت هذه الأخبار إلى السلطان في الوقت الذي كان يحاصِرُ فيه الوالي العاصي في بعلبك التي يكن لها ذكريات خاصة لأنها كانت مَقَرّ طفولته مُدّة تقرب من عقدٍ ونصف من الزمان (1138 - 1153 م). كان ذلك أثناء برد شتاء سنة 1179 م؛ لكنّ الأمير الكبير الذي ساعده في السيطرة على دمشق قبل خمس سنوات لم يَلِنْ، فقَرَر صلاح الدين العودة إلى دمشق في رجب سنة 574 هـ (كانون الثاني 1179 م) وأقام بها فصل الشتاء. ثم بدأ يفكر في طريقة يتوصل بها إلى حَلّ مشكلة الحصن دون قتال، وقَرَر مفاوضة الملك بلدوين في ذلك. وكان هدفه حل المشكلة سلماً فعَرض هدم الحصن الجديد وتعويض الملك كل الأموال التي تكلفها في عمليّة البناء[1].

وفي بداية المفاوضات قبل الملك فكرة التعويض المالي فطالب بمبلغ محددٍ وافق عليه صلاح الدين، لكن الملك تشدّد ورفع المبلغ فقبل صلاح الدين ذلك رغم معارضة بعض مستشاريه الذين قالوا بصرف المبلغ على الجند وحرب الصليبيين. وفي هذه المَرّة رفَضَ الملك بلدوين قبول أي مبلغ من المال، قائلاً: «ما أنفقنا فيه الأموال ونحن إليها مفتقرون»[2]. عندئذٍ قَرّر السلطان في نيسان 1179 م (أواخر شوال 574 هـ) الاستعداد للقتال، بالرغم من معارضة بعض الأمراء الذين رغبوا في زيادة المبلغ وتجنب القتال، خاصة وأنّ تقي الدين عُمر قال له في رسالته ـ عندما استشاره في دفع المال ـ:

«ما أرى هذا الرأي صالحاً[3]... إن هذا الرأي الذي أزمعت عليه

(1) الحياري، حصن بيت الأحزان، ص 46 - 47.
(2) البرق الشامي، 3 ص 180.
(3) مضمار الحقائق، 3 ص 25.

ليس بشيء، والله تعالى يسألك في إعطائهم هذا المال... والرأي أن تصرف هذا المال إلى الأجناد، وترغبهم في الجهاد، وتَسِير بعساكرك وتنزل عليه، والله تعالى في معونتك ونُصْرَتك»[1].

ثمّ وصلت أخبار إلى صلاح الدين، من عيونه على الحدود، أن الصليبيين تَجَمّعُوا بين طبرية وحصن بيت الأحزان غرب النهر بقصد القيام بحملة على بلاد دمشق القريبة منهم. أمّا الحقيقة فكانت أنّ قوات الصليبيين هدفت من عملها الاستيلاء على الماشية والخيول التي تُرْسل إلى منطقة غابات بانياس كل سنة «للتربيع» فيها حسب العادة المتعارف عليها بين الجانبين. فسكوت صلاح الدين عن خرق عرفٍ في منطقة المقاسمة شجع الملك إلى القيام بخرق آخر والاستيلاء على مواد «عسكرية» أساسية لقُوّاته[2]. فأرسل صلاح الدين الأمير عز الدين فرخشاه ـ المسؤول عن هذه الحدود ـ على رأس قُوّة من عسكر دمشق لاستطلاع الموقف، ومراقبة تحركات القوات الصليبيّة عن كثب، وأخبار السلطان أولاً بأول بكل ما يستجد في المنطقة حتى يتوجه إليه عند الضرورة بكامل القوات «بأسرع وقت لمساعدته، وأمره أن لا يشتبك معهم في معركة قبل إعلامه إلاّ عندما يَرى ذلك ضرورياً»[2].

وتوجّه فرخشاه إلى جهة حوران والجولان، وانتظر هناك. ولم يَصله أي أخبار عن حركات جديدة للصليبيين. وفي ليلة 10 نيسان 1179 (أول ذي القعدة سنة 574 هـ) دخلت قُوات الملك بلدوين، ومعه صاحب الناصرة وصاحب حصني تبنين وهونين من منطقة الحصن الجديد وبانياس إلى حوران. وفي صباح اليوم التالي انتشرت القوات في مختلف الاتجاهات طلباً للماشية والغنائم. أما الملك والبارونات الذين معه فكانوا يتجولون دون حماية كافية

(1) المصدر نفسه؛ ابن أبي طيء في الروضتين، ج 2 ص 8. وانظر عن تفاصيل المفاوضات، الحياري، المرجع السابق، ص 46 - 48.

(2) للتفاصيل انظر: وليم، تاريخ، 2 ص 438 - 440؛ البرق الشامي، 149 (154؛ سنا، 1 ص 317 - 319؛ مفرج الكروب، 2 ص 72 - 73؛ الكامل، 11 ص 452 - 453؛ الروضتين (عن العماد) 2 ص 6.

قرب تَلّ الجارة في شمالي حوران، ففاجأهم عز الدين فَرُّخشاه وكمائنه المنصوبة بعناية اشتهر بها الأتراك في ذلك الوقت، فَتصَدَّت قوات الملك القريبة لهم حتى يتمكّن الملك من الهَرَب إلى غرب النهر حيث الأمان، فقتل في الاشتباك برهان (Abraham) صاحب الناصرة، وجُرِحَ هنفري صاحب تبنين وهونين جرحاً مميتاً توفي على أثره في حصنه الرئيس يوم 22 نيسان، وقتل وأسر الكثير من بقية القوات الصليبيّة التي انتشرت في المنطقة(1).

وأرسل عز الدين البطائق التي يحملها الحمائم الزاجل، منذ الساعات الأولى للاشتباك إلى صلاح الدين في دمشق، فخرج السلطان المتجهز للطوارىء على رأس قُواته لنجدته، وسار حتى وصل الكسوة، المحطة الأولى على الطريق إلى حوران. وفي هذا المكان وصلت جماعات أسْرى الصليبيين الذين أسرهم فرخشاه والأخبار الكاملة عن المعركة التي حصلت. وقَرَر صلاح الدين عند ذلك التوجه مُبَاشرة إلى الحصن الجديد الذي بناه الصليبيون لمعاينته، فوصل إلى هناك وقام بالمهمة وعاد إلى دمشق حيث بدأ الاستعداد لحملة جديدة وحصاره والاستيلاء عليه.

في أوائل أيار 1179 م، طلب صلاح الدين من أخيه الملك العادل ـ نائبه في مصر ـ إرسال قُوّة مختارة من عساكرها تُقَدّر بـ 1500 فارس لمساعدته في العمليّة العسكريّة التي ينوي القيام بها، ثُمّ خرج مع قُواته لوداع أخيه الكبير، الذي أرهقه بدَلاَله منذ عودته من اليمن، والذي سيتوجه إلى مصر للإقامة فيها. وفي 9 أيار تَمّ الوداع في مرج الصفر، فسار توران شاه إلى الجنوب على طريق الحاج المعروفة. أمّا السلطان فقد توجّه مباشرة إلى حصن بيت الأحزان. وأغارت بعض قواته على المناطق القريبة منه غرب النهر طلباً للغنائم وللتخريب وإثارة القلق والخوف لدى العدو، وعادت دون مقاومة إلى المعسكر. وفي 17 أيار خيّم صلاح الدين قرب مدينة بانياس، فوجد الموقع غير مناسب لأغراضه فانتقل إلى موقع جديد ونَصَب مخيّمه على تل القاضي الذي يُشرف على كل

(1) المصدر السابق.

المنطقة الممتدة بين بانياس وحصن بيت الأحزان والجليل وبلاد صور [1].

وأقام صلاح الدين في المخيم الجديد قريب شهر (من أوائل ذي الحجة 574 - محرم 575 هـ/ أيار ـ 12 حزيران 1179 م)، واستغل هذه الفترة للقيام بغارات متتالية على بلاد الصليبيين غرب نهر الأردن وفي مختلف الاتجاهات: الجليل وصيدا وصور. وكان الهدف من هذه الغارات الاستيلاء على المحاصيل التي كانت في أوان حصادها قبل تخزينها إضافة إلى استكشاف تحصينات بيت الأحزان ومعاينتها حتى يُحَضّر ما سيحتاج إليه من الآلات والمعدات والصُنّاع للحصار. ولذلك كان السلطان يركب كل يوم من المخيم بتل القاضي ومعه خواص جنده، ويُظهر للبقية أنه يريد الصَيْد، ثم يسير إلى النهر ويبث رجاله في المناطق غرب النهر [2].

وأثناء إقامة صلاح الدين في تل القاضي، وَصَل إليه قبائل العرب القريبة من حوران والبثنيّة [3] الذين كان من عادتهم السنوية المجيء إلى منطقة بانياس وغاباتها للرعي والتزود بما يحتاجون إليه وانضموا إلى قوات صلاح الدين بحيث كبر المُخيّم ووَصَل إلى حدود المناطق التي يسيطر عليها الصليبيون، فاستفاد السلطان منهم في الإغارة على بلاد صيدا وبيروت بحماية فرق من قواته ليحصدوا الغلاّت ويحموا الأقوات، ويقف هو قرب الحدود بانتظارهم:

«حتى يعودوا محملين بجمالهم، وأحمالهم موثقة بأثقالها، حتى خَفّ من زرع الكفار ما بالقرب، ولم يحصل منه كفاية العرب والعجم. . .» [4].

كل ذلك من أجل تخفيف العبء على حَواصِل الشام القليلة بسبب القحط الذي توالت سنواته حَتّى خشي صلاح الدين أن يقضي العرب والتركمان على ما بقي من غلاّت:

(1) انظر الحياري، حصن بيت الأحزان، ص 50 - 51.
(2) البرق الشامي، 3 ص 158؛ مفرج، 2 ص 440.
(3) البثنية.
(4) البرق الشامي، 3 ص 158؛ مفرج، 2 ص 74.

«قال: إنهم إذا اكتالوا السنة من الشام بُلِي العَامُ بالمَحْل العَامّ»[1].

وفي يوم السبت الأول من محرم 575 هـ/ 8 حزيران 1179 م، حضر الأمير عز الدين فَرُخشاه إلى خيمة عمه السلطان، وعَرَض عليه رأيَه ورأي بقيّة الأمراء، في الانتقال من موقع المخيم بتَلّ القاضي لأنّ الأعشاب والزروع في المنطقة قد أكلَت من قبل العسكر وخيلهم والعرب معاشيتهم، وحرارة الجو قد اشتدّت؛ ولأن الصليبيين ـ بالرغم من كل ما حَلّ ببلادهم من خراب ـ لا يحركون ساكناً ولا يتقدّمون للدفاع عن زروعهم وأقواتهم[2]. فَوافق السلطان على هذا الرأي، لكنه طلب الانتظار إلى الصباح التالي حتى تقوم فرقُه بحملة أخيرة لجمع ما تبقى من الغلات غرب، النهر في منطقة صيدا وصور، وبعد عودتها يرحل وإياهم إلى البقاع[3]. وأدى انتظار هذه الليلة إلى وقوع معركة مرج عيون القصيرة بمدتها الكبيرة بأثرها السلبي على الصليبيين.

وأما الحالة في المعسكر الصليبي في أيام الغارات المذكورة فقد تمثلت بقرار الملك بلدوين ومستشاريه، عندما وصلته الأخبار بالخراب الذي حَلّ في الجليل الأعلى وبلاد صور وصيدا، جمع كل القوات التي استطاع جمعها في مملكته، وأرسل الرُّسُل إلى ريموند صاحب طرابلس طالباً مساعدته، وتوجه إلى طبرية، ثم تَقَدّم إلى صَفَد، ووصل إلى حصن تبنين مقابل المخيم السلطاني فوق تل القاضي. يذكر الصوري:

«وهنا استلم الملك معلومات دقيقة، من الرسل الذين ينتقلون جيئة وذهاباً باستمرار، أن صلاح الدين وعسكره كان لايزال في نفس المكان، وأنه أرسل فرق الخيالة الخفيفة التسليح أمامه لتخريب حقول صيدا، والذين كانوا يقومون بالقتل وإشعال النيران والنهب هناك. وبعد التشاور، تَقَرّر بالإجماع التقدّم لمواجهة العَدُو»[4].

---

(1) المصدر السابق.

(2) البرق الشامي، 3 ص 161 - 162.

(3) البرق الشامي، 3 ص 161 - 162؛ وليم، تاريخ، 2 ص 441.

(4) وليم، تاريخ، 2 ص 440 - 441.

كان ذلك صباح يوم الأحد 9 أو 10 حزيران 1179. وفيه ركب صلاح الدين ومعه والي بانياس إلى الطريق المؤدية إلى السّاحل لينتظر عودة الفرق التي أغارت في الليلة السابقة على بلاد صيدا. وأثناء سيره شاهد أبقاراً جافلة، ثم جاء بعض الرّعاة الذين أخبروه أن عساكر الصليبيين قد عبرت النهر من منطقة قريبة وأنّهم قصدوا العَساكر المتفرقة في المنطقة، فعاد صلاح الدين إلى المخيّم، وجمع كل من فيه من العساكر، وجَهَّزَهم وزودهم بالخيول، وتوجه نحو قوات العدو[1].

أمّا الملك بلدوين ومن معه من البارونات أصحاب الاقطاعيات، فإنه توقف عند قرية مسفر التي تقع على رأس جبل حَتّى يُشرف على كل المنطقة، ثُمّ طلب من قواته النزول لقتال الفرق المغيرة، فتقَدّم الفرسان وتأخر الرجالة في النزول، ووَصَل الخيالة وقسم من الرجّالة إلى مرج عيون التي تقع في السهل تحت جبل القرية مباشرة[2].

وبدأ القتال بين الجانبين عندما عبرت الفرق المغيرة في بلاد صيدا النهر (الليطاني) للوصول إلى معسكر السلطان ففوجئت بقوات الصليبيين المعسكرة في مرج عيون فهربت باتجاه معسكر صلاح الدين الذي كان في طريقه إلى المكان، فاستقبلهم ثم ضمهم إلى قواته وتوجه إلى مرج عيون. في هذه الأثناء كان فرسان الداويّة بقيادة مُقدّمهم أود وكونت طرابلس وقواته قد صعدوا إلى تلة مشرفة تقع بين نهر الليطاني ومعسكر صلاح الدين. أما الرجالة والفرسان فكانوا في السهل: الرجالة يستريحون بعد استيلائهم على الغنائم من المغيرين، والفرسان لم يعيدوا تنظيم صفوفهم بعد. في هذه اللحظة هجمت قوات صلاح الدين وشتتهم قتلاً وأسراً، والتجأ القسم الأكبر منهم إلى وادٍ ضيق في الجبل لا مخرج له، والتجأ البعض إلى قلعة الشقيف والبعض الآخر واصل سيره إلى صيدا. وحققت قُوّات صلاح الدين انتصاراً كبيراً، وأَسَرَت عدداً من كبار

---

(1) البرق الشامي، 3 ص 162 - 164؛ الحياري، حصن بيت الأحزان، ص 52.
(2) وليم، تاريخ، 2 ص 441.

بارونات مملكة الملك بلدوين. أما الملك فقد تمكن من الافلات، وكذلك كونت طرابلس[1].

وأسرت قوات صلاح الدين عدداً من كبار رجال الصليبيين والذين أُحْضِروا إلى خيمة السلطان على تل القاضي: بلدوين صاحب نابلس، وأود مُقَدّم الداويّة، وهيو ابن سيدة طبريّة، وأخو صاحب جبيل، وحوالي 270 أسيراً آخر:

«ثم نُقل الأسرى إلى دمشق فاعتقلوا، وبالحديد ثقلوا، فأما ابن بارزان (بلدوين) فإنه بعد سنة بذل في نفسه مائة وخمسين ألف دينار وإطلاق ألف أسير من المسلمين. وكان الفقيه ضياء الدين عيسى من نوبة الرملة عندهم من المأسورين، فالتزم إدراكه، وأن يؤدي (منه)... فكاكه. وأما مقدم الداوية (فإنه مات في السجن)...»[2].

وعقد صلاح الدين، بعد هذا النصر الذي أُسِر فيه عددٌ كبير من كبار قادة قوات المملكة الصليبيّة، مجلس مَشُورة ـ كالعادة عند اتخاذ قرار هام ـ، ضَمّ كبار أمراء الجند وأهل الرأي من حاشيته، وتبادلوا الآراء حول مختلف الجوانب المتعلقة بقضيّة حصن بيت الأحزان الذي كان السبب الأول للمعارك السابقة، والقحط والغلاء في بلاد الشام وأثره على التموين في حالة القيام بعملية الحصار مباشرة، وأوضاع الجانب الصليبي بعد ما لحق به من هزائم ونكسات وقتل القادة المجربين وأسرهم؛ واستقر الرأي في نهاية النقاش على إبقاء قطعة من الجيش بقيادة الأمير المجرّب عز الدين فرخشاه ـ المسؤول الأول عن الثغور في هذه المنطقة المجاورة لمملكة العدو ـ في بانياس للحراسة، وعاد صلاح الدين والأمراء والجند إلى دمشق، وبدأ مباشرة الاستعداد للقيام بحملة كاملة التجهيز تمكنه من تحقيق هدفه الأساسي: الاستيلاء على حصن بيت الأحزان وتعفية آثاره.

---

(1) المصدر نفسه، 441 - 443؛ البرق الشامي، 3 ص 162 - 165.
(2) البرق الشامي، 3 ص 165 - 166، 168 - 170.

وأمضى صلاح الدين الفترة من أوائل محرم 575 هـ إلى أوائل ربيع الأول (حزيران ـ آب 1179 م) في دمشق في الاستعداد للحصار الذي سيقوم به للحصن من تجميع للمؤن والذخائر واستدعاء للمقاتلة من الجند والقبائل، خاصة القبائل التركمانية التي كانت تقطن في حوض نهر الفرات؛ فَجُهِّزَت الكتب لكل زعيم من زعماء هذه القبائل، وأحضرت الأموال والخلع والتشريفات التي حملها الرسل إلى أصحابها المُحَدَّدِين. وسارع الأمراء التركمان إلى تلبية طلب السلطان، وقَدِمُوا «فاجتمع عنده من الأمراء والأجناد والتركمان أُلوف كثيرة»[1]. كما أمر صلاح الدين أمراءَه بجمع كميات كبيرة من المؤن، من الحنطة والدقيق والأعلاف وغيرها مما يحتاج إليه حتى يكون جاهزاً للتوزيع على القادمين عند وصولهم[2]. ووصل الجميع، ولم يبقَ إلاّ الأمير الكبير، تقي الدين عمر صاحب حماه، ثم وصل آخر الوافدين إلى دمشق أوّل يوم من شهر ربيع الأول من السنة (الموافق 5 آب 1179 م).

وأتَمّ الجميع الاستعداد. وفي يوم الخميس الخامس من ربيع الأول خرج صلاح الدين على رأس هذه القوات جميعاً باتجاه الحصن على مَخّاضة بيت الأحزان. وسار الجيش سيراً بطيئاً حتى يتمكن من تأخر في الوصول أو في الخروج من دمشق من اللحاق بالقوة الرئيسية، وحتى تصل الآلات والمعدات الضروريّة لعمليّة الحصار. وسارت القوات المسافة من دمشق إلى نهر الأردن في ثلاثة أيام بينما لا تحتاج هذه المسافة عادة لأكثر من يوم واحد، وعبر الجيش النهر وتوجه مباشرة إلى جهة الحصن، فوصل قريباً منه يوم الثلاثاء 11 ربيع الأول (16 آب 1179 م). وخيّم السلطان ومن معه حول الحصن بحيث صار «مركز دوائر المخيم»[3].

وفي الفترة من 16 آب وحتى 25 منه قامت العساكر بنصب المنجنيقات في مواقع مناسبة، كما قامت فرق صغيرة منها بشن الغارات على منطقة صَفَد من

(1) مضمار الحقائق، ص 25 - 26.

(2) البرق الشامي، 3 ص 175 - 176؛ مضمار الحقائق، ص 26.

(3) المصادر نفسها؛ الكامل، 11 ص 456؛ مفرج، 2 ص 80.

أجل جلب المواد الضروريّة لعمل الستائر[1] لحماية النقابين والحجارين الذين سيقومون بحفر الأنفاق الواسعة تحت جدران أسوار الحصن، وإحضار أشجار الكروم والأشجار الأخرى وغيرها من المواد التي تستعمل لحشو النقوب بعد الانتهاء من حفر الأنفاق، ثم حَرْقها[2].

في 27 آب، جمع السلطان أمراء الجند وعقد مجلس مشورة لاتخاذ القرار النهائي في الهجوم قبل اكتمال نصب آلات الحصار، واستطلع آراءهم في الهجوم على الحصن. وكان رأي عز الدين جاولي الأسدي صاحب الخبرة الطويلة في الحروب:

«تأذن لنا بالزحف قبل الاشتغال بنَصْبِ المنجنيق، والانتصاب لهذا الخطب جليله والدقيق، حتى نذوق قتالهم، ونَسْتَضّ نِصَالهم... فربما تلوح فيهم فرصته...» وإلاّ «فنصب المجانيق لا يفوت»[3].

وافق السلطان على هذا الرأي، وأمر مباشرة بالمناداة في العسكر بالتقدم والزحف نحو جدار التحصينات الخارجيّة، فتقدّم العسكر والمتطوعة وتمكنوا من الاستيلاء عليها وهرب المدافعون عنها إلى داخل الحصن. وانتقل القسم الأكبر من المقاتلة في عسكر السلطان إلى هذا الموقع المتقَدّم، وباتوا ليلتهم تلك كلها يَقِظين يحرسون المكان خوفاً من هجوم معاكس من داخل الحصن على غِرَّةٍ منهم، خاصة وأن المُدافعين شاغلوهم طول الليل بالرماية بالسهام والنيران[4]. أما الحامية فقد باتت ساهرة وتجمع قسم منها خلف الباب الكبير للحصن. يذكر صاحب **مضمار الحقائق**، ابن تقي الدين عمر، الذي كان مشاركاً في الحملة:

(1) الستائر، حِبَاكٌ كبيرة تعمل على شكل نفق واسع يحتمي فيه الحجارون والنقابون (المهندسون والفنيون) أثناء عملية حفر الأنفاق تحت الأسوار.
(2) الحياري، **حصن بيت الأحزان**، ص 53 - 54.
(3) **الكامل** 11 ص 456؛ **مفرج الكروب**، 2 ص 81.
(4) **البرق الشامي**، 3 ص 147 وما بعدها؛ **مضمار** 26 - 27؛ **الكامل**، 11 ص 456؛ **الروضتين** (من رسالة للقاضي الفاضل) ص 13؛ **مفر**، 2 ص 81.

«قد سُمع من وراء الباب صوت الحجارة، فعُلم أن الفرنج يبيتون خلف الباب، وأنهم قد أوقدوا خلف كل باب ناراً ليحموا أنفسهم، فعلم حينئذٍ ضَعْفَهم، فجاء المملوك وأعلم والدي»[1]، فأرسل هذا إلى السلطان يخبره بهذه المعلومات الهامة.

ويضيف العماد الذي كان في خيمة صلاح الدين: «... وقلنا: هان الحصن ولانَ صَعْبُه ولم يبق إلاّ نَقْبُه»[2].

وجمع صلاح الدين الأمراء، وحَدَد لكل واحد وجنده المكان الذي سيقومون بنقبه، واختار السلطان لنفسه وخاصته الجهة الشمالية من الأسوار وفي الصباح بدأت عمليّة حفر الأَنْفَاق بسرعة وفي عدة مواضع، مع التركيز على نفق السلطان وجماعته من أجل تفريق المدافعين عن الأسوار في مختلف الجهات، حتى يتمكن النقابون في النفق الرئيسي من تحقيق هدفهم بسهولة، خاصة وأنّ صلاح الدين وَفَّر لهم حماية جيدة بوضع الرُّمَاة في تلك الجهة بكثافة لمشاغلة حُماةِ السور وعدم تمكينهم من إيقاف العمل أو حرق الستائر التي تحميهم. واستطاعت كثافة الرِّمَاية بالسهام من الرماة من منع المدافعين من القيام بأي دَوّر. وتمكن النُّقَّابُ في الموقع الرئيسي من تحقيق هدفهم، وحشوا النقب بالمواد اللازمة وأحرقوها لكنّ السُّور لم يَسْقُط لأن البناء كان حديثاً ولا تؤثر فيه النيران في المَرّة الأولى، وهنا اضطر صلاح الدين ومن معه إلى إطفاء النيران بكل الوسائل الممكنة خاصة جلب المياه بكثرة من النهر بالإغراءات الماليّة. وتَمّت السيطرة على الحريق. وقام النَقّابُون بتعميق النَفَق وحَشْوِه من جديد وإشعال النيران فيه، ونجح النُقّاب في هذه المَرّة في تحقيق هدفهم، فاشتعلت النيران بشدّة وسقطت قطعَة من السور كان لسقوطها دَوِيّ كبير، فأسرع المهاجمون إلى الدخول منها وبدأوا يقتلون ويأسرون كل من وجدوه في طريقهم إلى داخل الحصن وفي داخله. وبلغ عدد القتلى، بعد

---

(1) مضمار، ص 27.

(2) البرق الشامي، 3 ص 178.

الإحصاء، سبعمائة رجل وعدد الأسرى مثل ذلك. وخَلّص العسكر الصلاحي من أسرى المسلمين في داخل الحصن أكثر من مائة أسير ممن أحضرهم الصليبيون للعمل في البناء وفي الأعمال داخله بعد ذلك. وحُمل الأسرى إلى المخيم السلطاني فاستجوبهم صلاح الدين ومن كان معه، وقُتِل من كانِ رامياً أو مُرْتَداً (التركبولية؟)، وحمل البقية الى دمشق، فقتل قسم منهم من قبل المتطوعة والعامة. أما الحصن فقد بقيت النار مشتعلة فيه بقيّة يوم الخميس (29 آب) وكل ليلة الجمعة[1].

ولم يغادر صلاح الدين المعسكر إلى دمشق بعد تحقيق هذا النصر الكبير، وإنما انتظر حتى يفي بوعده في هدمه وتعفية آثاره، ويذكر العماد قوله:

«لا أبرح حتى أهدم الموضع من أساسه»[2].

فبقي في الموقع بالرغم من حرارة الصيف الشديدة في المنطقة وروائح أشْلاَءِ القتلى التي ملأت المكان[1]، وأقام خمسة أيام حتى انتهى الأُمراء وجندهم من هدم الأسْوَار والأبنية الداخلية من أساسها، كما أمر بطَمّ حوض الماء الكبير المحكم البناء في الداخل. ثم رحل مع عسكره عائداً إلى دمشق[1].

ماذا كان الموقف في المعسكر الصليبي في الوقت الذي حاصر فيه صلاح الدين وهدمه وأحرقه؟.

عندما علم الملك بحصار صلاح الدين الحصن، جمع كل القُوّات المتوافرة لديه وبعض النبلاء الذين حضروا إلى فلسطين حديثاً، وتوجه إلى طبرية[3]. وعندما عرف صلاح الدين بهذا التحرك شَدَّدّ الحصار وأسْرَع في حفر الأنفاق وإحراقها[4]. وتأخر الملك في طبريّة يوماً واحداً حتى تَصِلَه بقية القوات

(1) انظر تفاصيل الحصار في الحياري، حصن بيت الأحزان، ص 54 - 60.
(2) البرق الشامي، 3 ص 181.
(3) وليم، تاريخ، 2 ص 443 - 444.
(4) البرق الشامي، 3 ص 179؛ مضمار، ص 28 - 29؛ الكامل، 11 ص 457.

التي استدعاها. وفي هذا اليوم الحاسم وصل إلى الملك تقرير من كشافته بأنّ صلاح الدين قد سيطر على الحصن وأحرقه وسَوّاه بالأرض[1]، ففرق من تجمع لديه وأعادهم إلى إقطاعياتهم ثم عاد هو بقواته الخاصة إلى عاصمة ملكه.

وأدت هذه الانتصارات المتتالية التي حَققها صلاح الدين، ثم الخلافات التي وقعت بين ملك القدس وأميري طرابلس وأنطاكية، وتَرَدّي الأوضاع في المملكة الصليبيّة، إلى أن أرسل الملك بلدوين مبعوثين إلى صلاح الدين في دمشق طلباً للهدنة. يذكر العماد:

«وكان الفرنج قد جنحوا للسِّلْم، ودخلوا له في الحكم، فَهَادَنَهم، وفَدَى ابن بارزان نفسه من الأسر بمبلغ مائة وخمسين ألف دينار صوريّة، وإطلاق ألف أسير من المسلمين، وأحضر ما تهيأ له من المال والأَسَارى، وأحضر رهائن على الباقي والباقين. وقَرَّر على هُوك (Hugh) ابن القومصيّة [صاحبة طبرية] قطيعة مبلغها خمسة وخمسون ألف دينار، وخُلّص الأسارى المُقَدّمين كل واحدٍ بقرار»[2].

وعلق وليم الصوري على هذه المهادنة تعليقاً له دلالته العميقة بالنسبة لأوضاع الجانبين الإسلامي والصليبي بعد انتهاء هذه الفترة الحاسمة في العلاقات بين الجانِبين بتوقيع الهدنة المذكورة في أوائل سنة 576 هـ/ أواسط 1180 م:

«. . . ولذلك بعث الملك رُسله إلى صلاح الدين للتوصل إلى هدنة معه. ووافق صلاح الدين عن طيب خاطر على هذا الاقتراح. ولم تكن هذه الموافقة السريعة، كما يدعى البعض، لأنه لم يكن يثق بقدراته أو نتيجة لخوفه من قوتنا العسكريّة التي انتصر عليها أكثر من مَرّة خلال السنة الماضية؛ ولكن الموافقة السريعة كانت بسبب خمس سنوات متتابعة

(1) وليم، تاريخ، 3 ص 444.
(2) سنا، 1 ص 345 - 346؛ الروضتين، 2 ص 16.

من القحط وقلّة الأمَطار في المنطقة حول دمشق والتي سببت قلّة الأقوات من كل نوع مما يحتاج إليه الإنسان والحيوان.

وتَمّ ترتيب هدنة في البر والبحر للصليبيين المقيمين (في الشرق) والغُرباء (الذين يأتون من أوروبا) وللمسلمين أيضاً. وتمت المصادقة عليها من قبل الجانبين بحلف الأيمان (Oaths) الموثقة. **وكانت الشروط مُذِلّة لنا (الصليبيون) إلى حد ما لأن الهدنة عقدت على أساس المُسَاواةِ في الشُّرُوط، دون تَحَفّظَات مهمة من جانبنا، وهو أمر لم يحدث، كما يقال، على الإطلاق من قبل»**[1] .

(1) وليم، تاريخ، 2 ص 447. ولا نعرف مُدّة هذه الهدنة التي عُقِدت في أيار 1180 م، لكنّ التطورات التالية تشير إلى أنها امتدت لسنتين كسابقتها.

10 الطّريق الى حِطّين

كيف كانت الخارطة السياسيّة للعالم الإسلامي بعد توقيع اتفاقيّة الهدنة الأخيرة بين صلاح الدين وملك الصليبيين؟ .

السياسة في العالم الإسلامي في ذلك الوقت كانت تعتمد على أشخاص أصحاب السلطة وليس على الدولة ومؤسساتها المختلفة التي تتبع استراتيجيّة واضحة، لا تتغيّر بتغير الأشخاص ولا بتقلّب الأزمان والأحداث. فإذا تغيّر شخص صاحب السلطة، مهما كان موقعه في السُلّم الهَرمي الذي تحدثنا عنه في السابق عند الحديث عن عملية توحيد الجهد، تتغيّر الكثير من المعادلات السِيَاسيّة التي كانت قائمة حتى ذلك الوقت؛ وحتى المواثيق والعهود والتقاليد والهُدَن والاتفاقيات تعتبر مُلْغاة إلاّ إذا وافق عليها صاحب السلطة الجديد بالنسبة لأولئك الذين يقعون في الترتيب تحت مرتبته السياسيّة، ولذلك كان كُل يُسارِع إلى طلب تَجْدِيد الشَرْعِيَّة من الأعلى منه لأنّ بقاءه واستمراره يَعْتمد على هذا التجديد الذي يكسبه الشرعيّة السياسية في الحكم بمفهومها الأساسي؛ وهذه الشرعيّة هي التي تُحَدّد سلطته العامة. وكان المصدر الأعلى لهذه الشرعيّة كما بيّنا أيضاً، هو الخليفة العباسي في بغداد، الذي ازدادت مكانته المعنوية بَعْدَ القضاء على الخلافة الفاطمية، وصار يُخْطبُ له في كُلّ أنحاء العالم الإسلامي ـ عَدا المغرب البعيد ـ ويكتب اسمه على النقود التي تَصْدُر عن دور الضرب فيها.

في اليوم الأول من ذي القعدة 575 هـ/ 22 آذار 1180 م، توفي الخليفة المُستضيء وتولى الخلافة بعده ابنه الناصر لدين الله. وكان سفير صلاح الدين في بغداد في ذلك الوقت، فذهب الى ديوان دار الخلافة، وبايع الخليفة الجديد

نيابة عن صلاح الدين، ثم كَتَب إلى السُلطان بالشام بالخبر فبادر الأخير «إلى الخطبة في جميع البلاد»[1]. لكن تجديد شرعيّة السلطان في البلاد التي يحكمها ـ والتي أخذها من الخليفة المستضيء ـ تحتاج إلى تقليد وتشريف جَدِيدَيْن. وتأخّر وصول الرَّسُول من دار الخلافة بسبب الأوضاع الداخليّة للخلافة العباسيّة، وانشغال الرُّسل لديها في المناطق الشرقية. ثُمّ جاءت الفُرْصة عندما توفي سيف الدين غازي، صاحب الموصل والجزيرة، وتولى أخُوه عز الدين مسعود مكانه، فقام المُدبِّر لدولته بمراسلة صلاح الدين طالباً منه «أن يكون [السلطان] معه [مسعود] كما كان مع أخيه [غازي] من إبقاء سروج والرقة وحَرّان والخابور ونصّيبين في يده»، لكنّ صلاح الدين رَفَض الطلب لأن هذه البلاد «كانت» له [صلاح الدين] بإطلاق الخليفة» السابق، وأنه إنما تركها بيد الأمير الزنكي المتوفى «بالشَّفاعة [طَلَب من الخليفة المتوفى] على شرط أنّه يُقَوي السلطان بالعساكر...»، وكتب صلاح الدين إلى الخليفة الناصر يعلمه بهذا الحال «وأن هذه البلاد لم تزل تتقَوّى بها ثغور الشام فَفُوّضت إليه [صلاح الدين] على ما أراد»[2]. ومما ورد في كتاب صلاح الدين إلى دار الخلافة العبّاسية حول الموضوع بالذات:

«فمن حقها [أي مصر] أن يتوفّر عسكرها [عليها]... واحتجنا إلى حفظ بلاد الشام وثُغُور الإسلام إلى استصحاب العسكر المصري إليها، وله مُدّة خمس سنين في بيكارها [ميدان القتال فيها] منتقماً من كُفّارها، متحملاً لمشاقّها على غلاء أسعارها. وإنّما أحوج إلى ذلك، أنّ بلاد هذا الثغر قد اقْتُطِعَتْ عنه، وعَسَاكِرُها أُخِذَتْ منه...»[3].

وفي رجب 576 هـ (10 تشرين الثاني ـ 9 كانون الأول 1180 م) وصلت رُسُل الخليفة الناصر إلى صلاح الدين «بالتّفْوِيض والتّقْلِيد والتّشْرِيف

---

(1) سنا، 1 ص 343، مفرج، 2 ص 92؛ الروضتين، 2 ص 15.
(2) العماد في الروضتين، 2 ص 17.
(3) المصدر نفسه، 2 ص 17.

الجديد. . .»[1] وركب السلطان [صلاح الدين] بالخلْعَة، وزينت له دمشق، وكان يوماً عظيماً»[2] وبهذا التفويض والتقليد الجديدين صارت كل البلاد في الجزيرة الفراتية ـ عدا الموصل ذات الوضع الخاص ـ تتبع لصلاح الدين، وأُلْغِي الامتياز الزنكي الذي قبل به صلاح الدين في زمن الخليفة المستضيء. أمّا بالنسبة لحلب والبلاد التابعة لها فقد بقيت تُحكَم بالاتفاقيّة التي عقدها صلاح الدين مع صاحبها في السابق، كما ذكرنا.

وعندما اطمأن صلاح الدين إلى موقف الخلافة الإيجابي من «شَرْعِيّتِهِ»، وأوْدَعَ التقليد في ديوانه المتنقل معه، وأجرى التراتيب الإداريّة المناسبة في بلاد الشام لدَعْمِ الثغور التي لم تهادنه الإمارات الصليبيّة المجاورة لها، توجّه إلى القاهرة عاصِمته الأولى للرّاحة وتفقد أَحوالها، وأخذ معه سفير دار الخلافة، وعزم على الحج معه، وبدأ باتخاذ التراتيب المناسبة لذلك، فكتب القاضي الفاضل عن العادل في القاهرة إلى نائب السلطان باليمن وإلى الشريفين أمراء مكة وينبع[3]. ووصل السلطان إلى القاهرة في شعبان 576 هـ/ 19 كانون الأول ـ 18 كانون الثاني 1180 - 81.

ووقَع حادثان في بلاد الشام في سنة 577 هـ/ 1181 - 1182 م أدّيا إلى عودة صلاح الدين إليها: الأول عند طرفها الجنوبي، والثاني عند طرفها الشمالي.

في أول السنة كتب عز الدين فَرُّخشاه، نائب السلطان بدمشق إلى صلاح الدين بأن القَحْطَ الذي دام عدة سنين قد وَلَّى وأَن موسم هذه السنة سيكون جيداً[4]، لكنّ مثل هذا الحدث لم يكن من الأهميّة التي تدفع السلطان إلى العودة مسرعاً إلى الشام. ثم وصلت الأخبار بوقوع الحَدَثِ الثّاني الذي

---

(1) العماد في الروضتين، 2 ص 19.
(2) ابن أبي طيء في الروضتين، 2 ص 19. انظر ملحق التشريف.
(3) الروضتين، 2 ص 19. لم يقم السلطان بالحج لسبب لا نعرفه بصورة محددة.
(4) مفرج، 2 ص 101 - 102؛ الكامل، 11 ص 470.

شَكّل بدايات تحدٍ كانت نتيجته التراكمية الحرب الشّامِلَة التي وقعت في قُرُون حطين. كان أرناط، الأمير الصليبي الجسور، قَدْ تولى إمارة الكرك ـ الشوبك كنائب للملك الصليبي المجذوم. وربّما كانت هذه الولاية نتيجة اتفاق «الحزب الملكي» الصليبيّ على انتهاج سياسة جديدة للانتقام من الهزائم الكبيرة التي مني بها الملك وباروناته في السنة السابقة؛ وربّما أعطاه الملك أيضاً صلاحيّات واستقلالاً أكبر بكثير مِمَّا كان يَتَمتّع به سابقوه من البارونات، حتى يستطيع التصرف بحريّة دون أن يقع اللوم على الملك، ودون أن يُشَكّل ذلك خرقاً «للهدنة» المعقودة بين الجانبين.

ووصلت الأخبار إلى فَرُّخْشَاه بدمشق أن أرناط بدأ يجمع العساكر في بلاد الكرك والشوبك، وأن في نِيّتِهِ التوجه إلى تَيْماء والاستيلاء عليها ثُمّ التوجه إلى المدينة المنوّرة «ليستولي عليها وعلى تلك النَّوَاحي الشريفة»[1]، وأنّه «أعَدّ لذلك الأزواد والرَّوَايا مع السَّرايا السَّرِية»[2]، فأسرع النائب بدمشق بجمع عساكره وتَوَجّه إلى بلاد الكرك فنَهَبَها وخَرَّبها، ثُمّ عاد إلى أطراف البَلْقَاء الجنوبية ليقف وينتظر تحركات أرناط الذي بقي متَحَصِّنا داخل الأسوار بانتظار ابتعاد عساكر فرخشاه حتى يُتِمّ تنفيذ المهمة. وطال الانتظار، ففرق أرناط العساكر، وعاد فرخشاه إلى دمشق[3].

وأثناء مرابطة فرخشاه في جنوب بلاد الشام، وقعت الحادثة الثانية[4]، إذ توفي الملك الصالح إسماعيل في 25 رجب 577 هـ؛/ 4 كانون الأول 1181 م، وبدأت سلسة التطورات التي تقع عَادَة في مثل هذه الظروف. فمسعود، صاحب الموصل من آل زنكي، اعتبر نَفْسَه الوريث الشَّرْعي لبلاد حلب لأنّه كان كبير **العائلة**، وصلاح الدين اعتبر نفسه صاحب الحق فيها لأنها من بين البلاد التي تضمنها كتاب تَقْلِيده من مانح الشرعيّة الأول: الخليفة العباسي. وسار الأول

(1) المصدر السابق.
(2) سنا (ق) ص 185؛ ص 186 (من كتاب العماد)، 188.
(3) الكامل، 11 ص 470، وعنه مفرج، 2 ص 102.
(4) سنا، (ق) ص 185.

إلى بلاد حلب فاستولى عليها ورَتَّب أمورها. أمّا صلاح الدين، البعيد في مصر، فقد كتب إلى كل من تقي الدين عمر الذي كان يتولى «المَعرة وحماه»، وإلى ابن صاحب رَاوَنْدَان، ثم كتب إلى الخليفة العباسي في بغداد[1].

وكَتَب صلاح الدين إلى تقي الدين عمر طالباً منه الاستعداد والتجهز خاصّة وأن أخاه فَرُّخشاه كان مشغولاً في الجنوب لكل طارىء، وكتب الى ابن صاحب راوندان بالاستعداد للمساعدة ضِدّ حلب في حالة قيام السلطان بإجراء نحوها. أما ما كُتب إلى ديوان الخليفة فقد رَكّزَ على ما يلي:

1 ـ أنّ مسعوداً استولى على حلب وبلادها وخزائنها، وإنه بذلك «**نكث الأَيْمان المُبْرَمة، ونقضها...**» وأنه «**يُنازع في ولاية هي لنا**»[2].

2 ـ «**أنّ حلب وأعمالها داخلة في ولايتنا التي يشهد بها شريف المثال** [كتاب التقليد]، **وينطق بحقِّه المنشور العالي** [كتاب إقطاع صلاح الدين هذه البلاد] الموقع له من به العظمة والجلال [الخليفة]»[2].

3 ـ أنّ صاحب حلب الجديد قد راسل الصليبيين والإسماعيليّة في الشام من أجل التحرك ضد بلاد السلطان.

4 ـ طلب صلاح الدين من الخليفة: «**فإن اقتضت الأوامر الشريفة أن يُوعز للمذكور في حلب بتقليد، فالأولى أَنْ يُقلّد الجميع، فلا رغبة فيما لا يُؤمن معه شَرّ الشَّريك، ولمالك الأمر الحكم في ممالك المماليك**»[3]. وفي هذه الفقرة تهديد مُبَطّن برغبة صلاح الدين، في حال عدم تقليده جميع الشام وما يتبعه، بالتخلي عنه ليقوم المُعْتَدي صاحب حلب بالدفاع عنه.

5 ـ يُذَكِّر صلاح الدين في رسالته بأنّ «**حلب من جملة البلاد التي اشتمل عليها تقليد أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله**، وإنما تركها في يد ابن نور الدين لأجل أبيه، والآن فليرجع كل إلى حقه، وليقنع برقه»[4].

(1) سنا (ق) ص 185 - 186.
(2) سنا (ق) ص 186 - 187؛ الروضتين، 2 ص 23.
(3) العماد في الروضتين، 2 ص 23.
(4) المصدر نفسه.

كما نستخلص من مقتطفات رسائل القاضي الفاضل إلى ديوان الخليفة ما يؤكد هذه الأفكار، ويزيد:

1 - «. . . وعقود الخلفاء لا تُحَلّ، والسُّيُوف في أوجه أوليائهم [صلاح الدين] لا تُسلّ. . . وليس الاستيلاء بحجة في الولايات لطالبها، ولا الدّخول إلى الدار بمُوجِبٍ مُلكِ غَاصِبها. إلاّ أنْ تكون البلاد كالديار المصرية حين فتحها الخادم وأهله، حيث الجمعة مُسْتَرِيبَة والخلافة في غير أهلها غريبة[1] . . . فتلك الولاية أولى من مُنِحها من فتحها»[2].

2 ـ أن حال حلب يختلف عن حال مصر عندما فتحها أسد الدين وصلاح الدين، وأقام الثاني الخطبة العباسيّة فيها:

«وأما حلب فإنَّ الكلمة فيها عالية، والمنابر فيها بالاسم الشريف حالية، **فإنما تكون لمن قُلِّدَها لا لمن تَوَرَّدَها، ولمن بالحق تَسَلَّمها لا لمن بالباطل تَسَنَّمها. ولو كانت حلب كما كانت دمشق لدخلها الخادم** [كناية عن صلاح الدين] **ولم يُشَاوِرْ، ولوَلَجَها ولم يُنَاظِرْ، ولكنّه أتى البيوت من أبوابها، واستَمْطَر القِطَار من سحابها»[2].**

3 ـ ثم يتطرّق إلى موضوع المشاركة في حكم الشام، الذي أورده العماد في كتبه[3]، فيذكر الأخطار التي تحدق بالشام كله، وأن المشاركة ستؤدي إلى ضعف المسلمين في مواجهة الصليبيين:

«. . . وكفى بالتجريب ناهياً [أ ص: ناهباً] عن الغِرَّة، ولا يُلْدَغ المؤمن إلاّ مَرّة. وإذا اجتمعت في الشام أيد ثلاث: يد عادية [مسعود آل زنكي]، ويد ملحدة [إسماعيلية الشام: شيخ الجبل]، ويد كافرة [الصليبيون]، نَهض الكُفْر بتثليثه، وقَصُرت عن الإسلام يد مُغِيثه، ولم

(1) إشارة واضحة إلى كتاب صلاح الدين المذكور فميا تَقَدّم إلى مطالبته بملك مصر.
(2) الروضتين، 2 ص 24.
(3) حجج القاضي الفاضل أدق وأقوى من حجج العماد.

ينفع الخادم حينئذٍ تصحيح حسابه، وتصديق حديثه. وما يريد الخادم إلاّ من تكون عليه يد الله وهي الجماعة، ولا يؤثر إلاّ ما يتَقَرّب به إليه وهو الطاعة، ولا يتَوَخّى إلاّ ما يقوم به الحُجّة اليوم ويوم تقوم السّاعة»[1].

4 ـ ويذكر في كتاب آخر تقليد المستضيء لصلاح الدين، ثُمّ يحدد الهدف الأساسي من المكاتبة:

«. . . وقَصْدُ القَصْدِ الذي ما أوجبت المحافظة أن يُتَلَقّى بالرَدّ، فأَقَر على الولاية فَرْعاً لا أَصْلاً، ونائِباً لا مُسْتَقِلاً، وسَلّم إليه البلاد ويده الغالبة لا المغلوبة، وسيوفه السالبة لا المَسْلُوبة، ومَشى الأمر معه مستقيماً ومائلاً وجائراً وعادلاً **إلى أن قضى نحبه** [الصالح إسماعيل]، ولقي ربّه. **فبدأ من المواصلة نقض الأيمان، والابتداء بالعدوان، والتعَرّض للبلاد، والتصرف فيها بغير حُجّة يكون عليها الاعتماد. فطَالعْ** [أي وزير الخليفة أو مدبر دولته] **الديوان بالقضيّة، واستشهد بدلالات قوانينه الجليّة في هذا التقليد الذي تهادته المحاضر**، وإشاعته المنابر، **وسُيّرت إلى الشرق والغرب نُسَخُهُ، وغُلّت الأيدي التي تُحَدّث أنفسها أنها نَسْخُه**»[1].

وهكذا فقد وضَع صلاح الدين القضيّة بيد الخليفة، بعدما أوضح حُجَجَه بالتفصيل، لكنّه لم يبق في القاهرة انتظاراً للجواب، وإنّما توجّه بعد انقضاء شهر الصيام والعيد (بعد 7 شباط 1182 م) إلى الاسكندرية، لتفَقُّد الأسطول بنفسه، والإشراف على تجهيزه واستعداده، «وخيّم عند السواري، وشاهد الأسوار التي جَدَّدَها، والعمارات التي مَهّدَها، وأمَر بالإتمام والاهتمام،» وزار الشيخ أبي طاهر بن عوف، أحد أكبر مؤيديه أثناء حصاره فيها[2]. وعاد صلاح الدين في ذي القعدة (آذار 1182 م) إلى القاهرة[3].

---

(1) الروضتين، 2 ص 24.

(2) العماد (ق) سنا، ص 188، الروضتين 2 ص 24؛ القاضي الفاضل، الروضتين، 2 ص 25 - 24.

(3) العما، الروضتين، 2 ص 27.

ووقع حَادث ثالث في سنة 577 هـ/ 1181 - 1882 م، هو نقض الصَّليبيين لعهدهم وهُدْنتهم مع السلطان، فقد استولوا على تجارة تجار مسلمين في البحر دون موجب لذلك. ثمّ حدث أنّ مركباً كبيراً من مراكب الفرنج الأوروبيين القادمين من بلد «بوليه» (Apolia)، يحمل 2700 رجلاً، واجهته عَاصِفَة فألْقَتْه إلى شاطىء دمياط، فغرق منهم قِسم، وأسر الباقي فكان عددهم 1670 شخصاً[1]. كان ذلك في الوقت الذي بدأ فيه صلاح الدين بالاستعداد للمسير إلى الشام لمتابعة الأمور ومواجهة ما يتجدّد هناك. وأرسل أيضاً إلى الملك الصليبي:

«وطلب من الملك مطالب كان من المستحيل الموافقة عليها. وأضاف إلى ذلك إنذاراً بأنّه إذا لم تتم الاستجابة لهذه المطالب حسب رَغْبَتِه، فإنه سيحتفظ بالسفينة المذكورة دون تعويض... وينقض العهد الذي عقد بينهما»[2].

ورَفَضَ الملك الاستجابة لمطالب السلطان، فاستَعَدّ الأخير للمسير إلى الشام. وبالرغم من أنّ وليم الصوري حاول وضع اللوم على صلاح الدين بنقض الاتفاقية، إلاّ أنه يذكر:

«ويقال أن هدفه [صلاح الدين] الخاص من تصرفه هذا هو الرغبة في الانتقام من الأمير أرناط، حاكم هذه المنطقة (البلاد) [الكرك والشوبك]، لأن الأمير كان قد قبض، كما قيل، على بعض العرب في فترة الهدنة، ورفض إطلاق سراحهم عندما طلب منه ذلك»[3].

ونتيجة لذلك، فقد اعتبر كل من صلاح الدين والملك نَفْسَه في حِلٍّ من الهدنة والصلح الذي تَمّ بعد تدمير حصن بيت الأحزان، وبدأ كل منهما

---

(1) العماد، سنا (ق) ص 194؛ الروضتين، 2 ص 27؛ وانظر وليم، تاريخ، 2 ص 466 - 467. على الأغلب في نيسان 1182 م (ذو الحجة 577 هـ).

(2) وليم، تاريخ، 2 ص 468.

(3) المصدر نفسه، ص 468 - 469.

الاستعداد لمواجهة محتملة. فطريق صلاح الدين إلى الشام تَمُرّ قرب حدود إمارة الكرك والشوبك، والملك سيتوجه إلى الإمارة لحمايتها. وسار كل واحدٍ إلى المكان الذي يريد.

قَسَمَ صلاح الدين الجيش الذي تجمع لديه في مصر إلى قسيمن متساويين: قسم أبقاه في مصر لحمايتها، والقسم الثاني سار به إلى الشام في مُحَرّم سنة 578 هـ/ 7 أيار ـ 5 حزيران 1182 م. وسار في الطريق التالي الذي حَدَّدَه العماد الذي كان مرافقاً له: بركة الجُبّ، البُوَيْب، الجِسْر، وادِي مُوسى (في سيناء)، حَثَا، صَدْر، فوصل إلى عقبة أيلة في خمس ليال بعد البويب(1). وفي هذا المكان سمع باجتماع قوات الصليبيين في الكرك لقطع الطريق عليه. والحقيقة أنّ الملك بعد عودة الرسول الذي أرسله إلى صلاح الدين، علم عن طريق كشافته بمسير صلاح الدين من القاهرة، فأسرع إلى عقد مجلس مشورة عام في القدس لإعادة دراسة شروط صلاح الدين، وتَقَرّر في النهاية أن تجمع قوات المملكة والتوجه بها إلى الكرك ـ الشوبك. وقاد الملك قواته وسار حتى وَصَل وادي موسى في الأردن، ثم توجّه إلى الشرق «فوصل إلى المكان الذي اقْتُرِحَ أن يُواجِه صلاح الدين فيه... ومنعه من الإفساد والتخريب في المنطقة»، إذ كان صلاح الدين قد وَصَل إلى مكان يبعد حوالي 20 كم عن الشوبك في الأرض المأهولة التابعة لها، وحوالي 70 كيلومتراً عن معسكر الملك(2). وفعلاً فإنّ صلاح الدين سار من أيلة بداية إلى حِسْمَى في الشرق ثم توجّه نحو الشمال الشرقي باتجاه عقبة النقب (شتار؟) ثم القريتين(*). ومن هذا الموقع الأخير أغار «على أطراف بلاد العدو». وهنا أيضاً فَصَل السلطان العسكر عن الأثقال

(1) العماد في الروضتين، 2 ص 28.

(2) وليم، تاريخ، 2 ص 469. ويذكر أن المكان الذي توقف فيه الملك هو البتراء، كما يذكر أن كونت طرابلس كان معه رغماً منه، وأن الأغلبية كانت مع رأي أرناط الذي قال بالقيام بالحملة. وفي فصل من رسالة للقاضي الفاضل (غير منشورة) ما يشير الى هذه الحملة، «... وحضور مشايخ القرى [التي تُخضَع للصليبيين] لأخذ الأمان، والتوسل إلينا بذمة الإسلام والإيمان». مخطوط مكتبة ميونيخ رقم 402 (عربي). ورقة 6 م ـ ب.

(*) ربما تكون، من السياق، معان أو قربها، التي يبدو أنها كانت غير معمورة.

والناس، وأمَرَ أخاه بوري بأن يقود القسم الثاني في البادية إلى اليمين إلى واحة الأزْرَق حيث حُدِّد مكان اللقاء. أما صلاح الدين فقد عَبَّأ قواته وسار إلى الحَسَى ثم توجه شمالاً على أطراف بلاد الكرك والتحق بالأثقال والناس بالأزرق بعد أسبوع[1]. وعندما وصل السلطان إلى هذا المكان، وصل خبر غارة عز الدين فرخشاه على بلاد طبرية وعَكّا «وفتح دبورية» ثم سيره إلى حَبِيس جَلْدك «فَفَتَحه وأسْكَنَه المسلمين»، وعاد ومعه ألف أسير و 20 ألف رأس من الأنعام إلى دمشق[1]. ثم وصل السلطان يوم 17 صفر 578 (23 آيار 1182 م). يذكر الصوري، بعد أن يضع اللوم على نبلاء المملكة لانسياقهم:

«وأظهرت الوقائع التالية بسرعة كم كان هذا العمل بعيداً عن الحكمة، لأنه عندما وَجَد ولاة [السلطان] في بلاد دمشق وبصرى، وبعلبك وحمص أن نخبة قُوّات المملكة كانت غائبة عنها، وأن المنطقة بأسرها خالية من الجند، جمعوا قواتهم بهدوء وسريّة تامة، وعبروا نهر الأردن قرب بحيرة طبرية... وبعدما اجتاحوا قسماً من بلاد الجليل توجهوا إلى مكان عند سفح جبل الطُّور يُدعى دَبُّوريّة... ولم يكن السُكّان هناك قد عرفوا بعد بخرق الهُدْنَة...، فلم يتخذوا أيّة إجراءات لحماية أنفسهم... وهجم العَدُوّ عليهم خِلْسَة في الليل وأحاطوا بالمكان بحيث لم يتمكن الناس من الهرب إلى الجبال المرتفعة فوقهم.

وفي الصباح وجد السُكّان أنفسهم مطوقين من قبل العدو من كل الجهات فتراجعوا إلى برج قرب القرية...»[2].

وحاصرت قوات عز الدين البُرْج، واستولت عليه بعد أربع ساعات، وهدمته واستسلم من كان فيه، ثم جمعت القوات الغنائم من هذا المكان وغيره دون مقاومة، وعادت فعبرت النهر الى حيث جاءت[2]، واستولت في طريقها

(1) العماد في الروضتين، 2 ص 28. وانظر استيلاء فرخشاه على حصن حبيس جلدك: مصطفى الحياري، «حصن حبيس جلدك...»، مجلة دراسات، م 13، الجامعة الأردنية (عمان، 1986)، ص 150 وما بعدها: الصوري، تاريخ، 2 ص 470 - 472.

(2) وليم، تاريخ، 2 ص 469 - 470.

على حبيس جلدك. ويعلق ابن الأثير أنّ الاستيلاء على الحصن:

«فَتَ في عَضُد الفرنج وانكسرت شوكتهم»[1].

أما العماد: «فبقي عيناً على الكُفّارِ بَعْدَما كان لَهُم»[2].

أمضى صلاح الدين عشرين يوماً في دمشق. ولم يستلم خلال هذه المدة أي ردٍ من الخليفة العباسي الناصر الذي كان مجد الدين ابن الصاحب يتحكم في دولته من بداية خلافته، وكان مجد الدين هذا متهماً بالتشيع. ولذلك فقد بقي الوضع في حلب وبلادها والجزيرة الفراتيّة والموصل كما استقر عليه بعد وفاة الملك الصالح. عند ذلك قَرّر صلاح الدين القيام بحملة غرب النهر في نفس المنطقة التي أغار عليها في الشهرين السابقين.

وأمّا ملك القدس فإنّه عندما عرف بابتعاد صلاح الدين عن بلاد الكرك والشوبك، وبما قام به فرخشاه في الجليل الأدنى. رجع مع جيشه مُسْرعاً إلى القُدْس خوفاً من استغلال السلطان خُلوّ المملكة من الجند فيَغْزُوها. وعندما وصل إلى مَقَرّه، أصْدَر أمراً إلى كُلّ قوات المملكة بالاجتماع على مِياه صفوريّة التي تقع بين عكا الحصينة على السّاحل وطبرية على البحيرة والقريبة من الطرق التي تؤدي من شرق النهر إلى غربه، وصار هذا الموقع منذئذٍ مركز التجمع السنوي الدائم لتوسطها في بلاد المملكة وقربها من الحدود مع بلاد دمشق تحسباً لكل ما يمكن أن يَقُوم به صلاح الدين من غزوات،وانتظاراً لما يمكن أن يقوم به من أعمال ضِدّ المملكة[3].

وتحقق ما توقعه الملك؛ ففي يوم الاثنين 7 ربيع الأول 578 هـ (11 تموز 1182 م)، خرج السلطان من دمشق وسار فخيّم عند رأس الماء، وأمضى هناك بضعة أيام. وفي ليلة الثلاثاء 19 من الشهر نفسه (23 تموز) خَيَّم قريباً من

---

(1) الكامل، 11 ص 479.

(2) العماد في الروضتين، 2 ص 28.

(3) وليم، تاريخ، 2 ص 472.

طبرية[1]. ونقل الكشّافة الخبر إلى الملك، فتَقَرّر شَنّ الهجوم على قوات صلاح الدين ، وأرسلت قوة إلى طبريّة لتساند حاميتها وتدعم الفرق التي أرسلت إلى كوكب وصفد[2]. وفي صباح يوم الثلاثاء نفسه، تَدَّم فرخشاه إلى طبريّة فلم يخرج أحد ممن كان فيها فعاد إلى المعسكر؛ ثم رّر صلاح الدين التوجه إلى الجنوب الغربي باتجاه بيسان على تعبئة:

«. . . شوهدوا [القوات الصليبيّة] نازلين من حصنهم الذي كانو إليه آوين، وطالبي التباعد عنه إلى حصن الطور الذي كانوا إليه نَاوِين. فسارت إليهم أطلاب الميرة صحبة. . فرخشاه. . . وساق [أخوه]. . عمر من الميمنة. . .»[3].

وهاجم الأخوان بيسان، ووقف صلاح الدين ومن معه على الطريق بينها وبين طبرية لمنع وصول الإمدادات إليها. لكن مقاومة أهل البلدة ومن كان فيها من جند دفع فرخشاه وأخوه إلى التخلي عن الحصار، خاصة عندما عرف بتقدم قوات الصليبيين من الجنوب من طريق محاذٍ لنهر الأردن نحوهم، فتوجها بقواتهما إلى حيث صلاح الدين، وسار الجميع نحو الجبل الذي تقع عليه قلعة كوكب حيث توقفوا هناك لقضاء الليلة. وفي صباحِ اليوم التالي وجد صلاح الدين نفسه أمام قُوّات الملك التي تمركزت عند سفح الجبل. يذكر الصوري:

«وأمضوا [قوات الملك] الليل بحالة يقظة دائمة لأنّهم أحَسّوا بأن العدو في الجوار. وعندما طلع الصبح، رجعوا إلى السهل بين القلعة المذكورة وقرية عَفر بلا. وهنا وجدوا أنّ قوات صلاح الدين تحيط بهم بأعداد أكبر بكثير ممّا عرفوه في السابق. . .»[4].

ووقعت مناوشات بين الجانبين، ثم انسحبت قوات الملك إلى قلعة عَفَر

---

(1) يقول الصوري أنه خيّم بين نهرين، على الفَوّار، ويفهم من قوله أنه بين الأردن واليرموك.
(2) وليم، تاريخ، ص 476 - 474؛ من رسالة الفاضل في الروضتين، 2 ص 28.
(3) الفاضل في الروضتين، 2 ص 29.
(4) وليم، تاريخ، 2 ص 474.

بلا (Forbelet)، فلحقتهم قوات صلاح الدين وحَصَرَتْهُم لليلة واحدة. وفي اليوم التالي، ولأنّ الجَوّ كان حاراً، والصليبيين لم يُجَازِفُوا بالهجوم، قرر السلطان الرّحيل والعودة إلى معسكر الفَوّار شرقي النهر، وعاد الملك وقُوّاته إلى عيون صفوريّة[1].

وعاد صلاح الدين إلى دمشق، فتوقف فيها أياماً: ولمّا لم يصله رُسُل من الخليفة بعث كتاباً إلى «الديوان العزيز» يخبر بالأعمال التي أنجزها في الحرب منذ خرج من مصر وحَتّى نهاية هذه الغزوة»[2].

ومضى أكثر من شهرٍ على عودة صلاح الدين إلى قاعدته دمشق. وبدا له أنّ الخليفة ورجال دولته يَتَرَيّثُون قبل اتخاذ قرار حاسم تجاه علاقته بآل زنكي أو أنهم ينتظرون انتصار أحد الجانبين أو حدوث صراع بينهما يجعل مجالاً للتوسط وتحقيق مكاسب جديدة لدولة الخلافة؛ فسياسة الخليفة الجديد، الذي بدأ في هذا الوقت بتبني حركة الفُتُوّة، كانت تهدف الى تقوية مؤسسة الخلافة ودولتها على حساب أمراء الأطراف المتغلبين. ولهذا بدأ الخليفة في التردد في تجديد الشرعيّة إلاّ في حالات الضرورة القُصْوى. ولم يبق أمام صلاح الدين سوى استعمال القُوّة العسكرية، أو التهديد الجِدّي باستعمالها، لإخضاع بلاد حلب والجزيرة الفراتية لنفوذه المباشر أو غير مباشر. ومن هنا سنجد أنّ حملته التالية كانت، حسب الأولويات المشروعة في كتاب التقليد القديم، تقتضي التوجه إلى بلاد الجزيرة التي حددها الكتاب والتي استولى عليها مسعود بالقُوّة، وبلاد الموصل أصل التحديات، وحلب وبلادها.

وتجهّز السلطان، وعَزَم على تنفيذ الخِطّة للحملة الجديدة. وفي أوائل جُمادى الأولى 578 هـ (أيلول) توجّه من دمشق إلى حلب دون توقيع هدنة مع

---

(1) للتفاصيل، انظر: المصدر نفسه، ص 472 - 475؛ الفاضل في الروضتين، 2 ص 29؛ Saladin, PP. 167) 69 حيث يعتمد المؤلفان على رسائل للفاضل مخطوطة وغير منشورة؛ سنا (ق)، ص 197 - 198؛ الكامل، 11 ص 481. وأثّر تقاعس الملك في الهجوم على التطورات التالية، خاصة في ضوء انقسام رجال دولته الى حزبين متنافسين.

(2) الروضتين، 2 ص 28 - 29.

الصليبيين كما جرت العادة مما أثار استغراب وليم الصوري[1]، وترك في دمشق فرخشاه نائباً عنه مع حامية مناسبة؛ وفي البقاع خيّم السلطان وقُواته بعض الوقت. وكان سبب هذا الانتظار قرب موعد تنفيذ خطّة اتفق عليها مع أخيه العادل في مصر وهي: إرسال أسطول إلى بيروت لحصارها من البحر فيقوم صلاح الدين بحصارها من البرّ في ذات الوقت، كما كان على العادل أن يقوم بغارة على جنوب فلسطين لإرباك قوات الملك الصليبي الذي كان لا يزال مخيم على عيون صَفُّوريّة. ووصل الأسطول إلى سواحل بيروت، وتقدم صلاح الدين عبر الجبال من البر إلى السهل حول المدينة وحاصَرُوا المدينة من الجهتين، ونفّذ العادل دوره حسب الاتفاق[2].

وأربكت حركة صلاح الدين هذه الملك الصليبي وباروناته في صَفّورية، وتَعَدّدت الإشاعات حول سبب خروجه من دمشق إلى البقاع:

«وبدأت إشاعات مُتَضَارِبَة تصل إلى قواتنا المعسكرة في صفوريّة حول نوايا صلاح الدين. فقال البعض أنه ينوي حصار مدينة بيروت ـ والذي ثبتت فيما بعد صحته ـ واعتقد آخرون أن كل هدفه هو السيطرة على حلب، بينما أكد غيرهم أن هدفه حرب صاحب الموصل... الذي كان يحاصر بعض مدن صلاح الدين في منطقة الفرات»[3].

وكانت كل الإشاعات صحيحة، لكنّ أولويات التنفيذ لم تكن مؤكدة.

وعندما وَصَل صلاح الدين إلى سهل بيروت وجَدَ أن الأسطول قد وصل، وقام ببعض أعمال السبي والتخريب والإحراق، فحاصر المدينة ثلاثة أيام ووجد أن ليس من الممكن الاستيلاء عليها إلاّ بالحصار الطويل، فقرر العودة إلى البقاع[4]. أما الملك في صَفّورية فعقد اجتماعاً لمستشاريه وتَقَرر التوجه إلى

---

(1) وليم، تاريخ، 2 ص 481 - 482.

(2) وليم، تاريخ، 2 ص 476؛ الروضتين، 2 ص 29؛ سنا (ق) ص 200 - 201.

(3) وليم، تاريخ، 2 ص 476.

(4) سنا (ق) ص 200 - 201؛ وليم، تاريخ، ص 477.

صُور والطلب من الأسطول الصليبي في عكا وصور المسير إلى بيروت لفَكّ الحصار عنها؛ وعندما وصلت قواته إلى صور كان صلاح الدين لا يزال يحاصرها بشدّة[1]، وعندما عرفوا برفع الحصار عاد الأسطول إلى قواعده. وأقام الملك عدة أيام في صور، ثم عاد مع كل قواته إلى صفورية للراحة والتفكير بما يمكن القيام به أثناء فَتْرة غياب صلاح الدين التي لا تحكمها هدنة بين الجانبين.

ويمكن اعتبار نهاية حصار بيروت بداية تطورات على جبهتين: صلاح الدين في بلاد حلب والجزيرة الفراتية والموصل، وملك القدس وغاراته على بلاد دمشق. وتنتهي هذه التطورات بعودة صلاح الدين إلى دمشق.

سار صلاح الدين من البقاع إلى حماة، فطلب من تقي الدين عمر أن يُرَتِّب أمُورها ويلحق به. وعندما اقترب من حلب وَصَلَهُ رسول كوكبوري ثم صاحب حران كوكبوري نفسه طالباً منه ترك حَلَب وعُبُور الفرات إلى الجزيرة وترتيب أمورها، واستعداده لتقديم المساعدة. يذكر العماد قول كوكبوري:

«فإذا ملكت تلك الممالك... فحلب تبقى من ورائك، وأنت بعد ذلك على إيثار عزمك ورأيك، وإلّا فحلب تشغلك عن الأمور ومهماتها، والجزيرة وولاياتها»[2].

ووافق صلاح الدين على هذه الخطّة، وعبر الفرات إلى البيرة فتسلمها، وكاتب منها الأمراء في البلاد عارضاً عليهم التسليم والخضوع لطاعته فاستجاب صاحب حصن كيفا الأرتقي إلى ذلك. وتوجه السلطان بعد ذلك إلى الرها فحاصرها عدة أيام فسلمها صاحبها إلى السلطان وخرج منها وأضيفت إلى بلاد صاحب حَرّان[3]. وسار منها إلى الرقة التي كانت بيد صاحب منبج، وسلمها أيضاً إلى صلاح الدين فرتب أمورها وتوجه إلى عَرَابان فتسلمها، ثم الخابور

---

(1) يصف الصوري الحصار وصفاً مفصلاً. تاريخ، 2 ص 477 - 479.

(2) سنا (ق) ص 201.

(3) المصدر نفسه، ص 201 - 202؛ البرق الشامي.

ففتحها ورأس عين أيضاً، ودورين وماكسين وكل ديار مضر وبلاد الخابور. ثُمّ قطع نهر اخلابور إلى نصِّبين فحاصرها حتى استسلمت فولاها أبو الهيجاء السمين. وهنا وصَلَتْه الأخبار بغارات الملك الصليبي على بلاد دمشق، فأشار عليه بعض رجال دولته بالعود إلى دمشق، فكان ردّه الذي يتفق مع خطّته:

«يُخَرِّبُون قُرىً، ونَمْلِكُ عِوضَها بلاداً، ثم نَعُود فَنُعَمِّرها، ونقوى على قَصْد بلادهم»(1) .

وبعدما أمضى صلاح الدين عدة أيام، عقد مجلس مشورة حضره كبار الأمراء والمستشارين لتحديد الهدف التالي لعملياته: الموصل أو سنجار أو جزيرة ابن عمر، وتقرر في النهاية التوجه إلى الموصل.

كانت الموصل وبلادها أساس ملك آل زنكي مثلما كانت القاهرة ومصر أساس ملك الأيوبيين. وإذا تمكن صلاح الدين من السيطرة عليها لم يَعُد له بعد ذلك من منافس له بعض الشرعيّة في كل المنطقة الممتدة من جبال زاغروس إلى بلاد المغرب. وقد بينّا في السابق كيف حاصرها ثم رفع الحصار وتوجّه إلى سنجار فاستولى عليها بالقُوّة ثم عاد إلى الشام فحاصر حلب وقايضها بسنجار وغيرها من المدن على أساس دعمه في المواجهة مع الصليبيين(2). وبذلك تَمّ لصلاح الدين السيطرة المباشرة على كل بلاد الشام، وتبعيّة مناطق من الجزيرة الفراتيّة له. عند ذلك توجّه إلى دمشق فوصلها في 3 جمادى الأولى سنة 579 هـ/ 24 آب 1183 م.

وأثناء فترة غياب صلاح الدين هذه المدّة الطويلة عن بلاد الشام، فقد ركناً مهماً من أركان قيادته العسكرية الذي حَمَى طويلاً حدود مملكة دمشق الممتدة من حدود بلاد حمص في الشمال وحتى حدود الحجاز جنوباً، وهو الأمير عز الدين فرخشاه، مُقْطَع بعلبك والنائب في مملكة دمشق، الذي «كان السلطان

(1) مفرج، 2 ص 118.
(2) إرجع إلى الفصل السابق.

كثير الاعتماد...»[1] عليه كأخيه تقي الدين عُمر، وهو الذي افتتح العمليات العسكرية في عمق البلاد التي يسيطر عليها الصليبيون. وكانت وفاته قبل سنة من عودة صلاح الدين (أيلول 1182 م) بعد عودته من إحدى الحملات التي قادها إلى حوران للتصدي لغارات قوات مملكة القدس.

ووصل الخبر المحزن إلى صلاح الدين بعد عبوره الفرات إلى الشرق بقليل، لكنّ ذلك لم يَفُتّ من تصميم السلطان على إنجاز المهمة التي توجه من أجلها إلى شرق الفرات وإماراته. يذكر العماد:

«لمّا وَصَل (إلينا) بوفاة معز الدين النعي فَتَر مِنّا إلى البلاد الشرقيّة السَّعْي، وكُنّا عبرنا الفرات على قَصْد الرها، وقد دنت مِنّا دَارُها ودُرُّها...»[2].

وقرر السلطان بسرعة من سيأخذ إقطاعه، ومن سيتولى النيابة بدمشق مكانه، فاقطع بهرامشاه ابن الفقيد بعلبك، وعين القائد المجرب محمد بن عبد الملك بن المُقَدّم ولاية دمشق، «وهو أكبر الأمراء المُقَدّمين... (وله) عسكر على البأساء والضراء يُطيعه»[3]، فكُتِبَ منْشُور الولاية، وتوجه الوالي الجديد إلى مكان ولايته ليحمي الثغر الكبير[4].

هذا ما كان على الجبهة الأولى، فماذا حدث على الجبهة الثانية التي ذكرنا؟.

استغل الملك بلدوين وبارونات مملكته، الذين عادوا من صور بعد رفع صلاح الدين الحصار عنها إلى صفورية، الظروف المواتية ببُعْد صلاح الدين وأكثر قُوّاته عن دمشق وبلادها، وعدم وجود هدنة يجب التقيد بشروطها، فقاموا

---

(1) أبو شامة، الروضتين، 2 ص 34.
(2) البرق الشامي، 5 ص 75.
(3) المصدر نفسه.
(4) منشور ولاية ابن المُقَدّم من النماذج النادرة على الولاية في الفترة المدروسة، وسيرفق مع الملاحق.

بعدد من العمليات على بلاد دمشق بقصد الانتقام ممّا أوقعه السلطان في المناطق غرب النهر من التخريب والاستيلاء على الغلّات فيها.

توجه الملك وقُوّاته، بصحبة بطريرك القدس وصليب الصلبوت، إلى بلاد حوران فوصلوا إلى أذرعات (درعا) فدَمّروا وأحرقوا الغلات في طريقهم، وهرب السُكّان مع ماشيتهم وما استطاعوا حمله قبل وصولهم، إلى أماكن آمنة لأنهم عرفوا بحركة قوات الصليبيين. ولم تَحْصَل القُوّات المغيرة إلاّ على القليل من الغنائم. فالموسم قد انتهى، والغلات قَدْ خُبِّئَت في حَفَائر مُعَدّة تحت الأرض لم يكن من السهل الاهتداء إليها، فالتجربة علّمت الفلاّحين القدرة على المحافظة على مصادر رزق حياتهم الأساسيّة في كل الظروف. ومع ذلك فقد تَقَدّم الملك وقُوّاته، بالرغم من قلة المواد والمؤن إلى بلاد بصرى، وقاموا بمثل ما قاموا به في منطقة أذرعات(1). ولم يواجهوا أثناء ذلك أيّة مقاومة تذكر خاصة وأن ولاية دمشق كانت شاغرة بوفاة فرخشاه،ولمّا يصل بعد الوالي الجديد لإعادة ترتيب الأمور.

وعادت قوات الملك من بلاد بُصْرى إلى سواد الأردن؛ وهنا انتهزت الفرصة المؤاتية للسيطرة على حصن حبيس جلدك الذي استولى عليه فرخشاه قبل ذلك بأشهر، فسارت من درعا إلى وادي الشلاّلة ثم إلى الهضبة جنوبي نهر اليرموك حتى وصلت إلى الكهف المنيع ذي الطبقات الثلاث، فقاموا بمحاصرته بشِدّة؛ وقَرّرت الحاميّة عدم الاستسلام كما تقتضي الأعراف في أنّه بعد عشرة أيام من الحصار إذا لم تَصل نجدات للمساعدة يُسَلّم الحصن. واستمر الحصار ثلاثة أسابيع متواصلة. عند ذلك طلبت الحامية تسليم الحصن وكل ما فيه من آلات وسلاح مقابل السّماح لها بالرحيل إلى بُصرى بسلام، فوافق الملك وتسلم الحصن، ووَفّى بالشرط، ثُمّ وَضَع فيه حامية من ثقات رجاله ورحل إلى غرب النهر في تشرين الأول من سنة 1182 م(2).

(1) وليم، تاريخ، 2 ص 481 - 482.

(2) انظر الحياري، حصن حبيس جلدك، ص 158 - 160؛ وتفاصيل الحصار، وليم، تاريخ، 2 ص 482 - 485.

وفي كانون الأول 1182 م قرّر الملك بلدوين القيام بحملة أخرى على بلاد دمشق، خاصة وأن صلاح الدين كان لا يزال في الجزيرة على غير المتوقع، بقصد التخريب والاستيلاء على المواشي والغنائم. وكانت الحملة في هذه المَرّة باتجاهين: الأول نحو حوران وقام به أمير طرابلس وزوج صاحبة طبرية والمكلّف بالانتقام بما حَلّ في بلاد طبرية في السابق. وشارك في هذه الحملة الصغيرة الفرسان فقط، فأغاروا على الأماكن المُقَرّرة مقدماً وعادوا بالكثير من الغنائم من الماشية وقطعان الأغنام وبعض الأسرى[1]. أما حملة الملك، التي استغرق الإعداد لها خمسة عشر يوماً، فكانت مؤلفة من الخيالة والرجّالة الذين تجمعوا عند القسطل قرب طبرية؛ وساروا عبر الجليل حتى وصلوا إلى مخاضة بيت الأحزان، فعبروا النهر وساروا في السهل حتى وصلوا إلى قرية بيت جن فدمروها مع القرى المجاورة حولها، وأحرقوا كل ما وجدوه في طريقهم حتى وصلوا إلى داريا القريبة من دمشق، فعاثوا فساداً في منطقتها والقرى المحيطة بها لكنْ سُكانّها كانوا قد هربوا إلى الجبال.. وجَرَت مناوشات محدودة بين الغُزاة وبين بعض فرسان حامية دمشق، كما خَرَج بعض أهل مدينة دمشق للدفاع عن الغُوطة. ولم يقع قتال جاد بين الجانبين[2]. ويروى أن خبر الغارة وَصَل إلى صلاح الدين وهو بنصّيبين، وأنّ الصليبيين وصلوا إلى دَارَيّا:

«وأرادوا تخريب جامعها، فأرسل النائب [الصفي بن القابض] بدمشق إليهم جماعة من النصارى [المحليين]، يقول لهم: إذا أخربتم جامع دارَيّا جَدّدنا عمارته، ونخرب كل بيعة [كنيسة] لكم في بلادنا، ولا نمكن أحداً من عمارتها، فتركوه...»[3].

لكنّ ذلك الخراب والدمار الذي لحق بحوران وجوار دمشق لم يدفع السلطان إلى تغيير خططه، أمّا الملك فقد اكتفى بما قام به، وقَرّر العودة إلى صور للاحتفال بعيد الميلاد (25 كانون الأول 1182 م)[2].

(1) وليم، تاريخ، 2 ص 485.
(2) المصدر نفسه، ص 485 - 486.
(3) مفرج، 2 ص 118.

ونتيجة لهذه الغارات والغارات المضادة التي قام بها صلاح الدين في بلاد الجليل والتطورات المتسارعة على الجبهة الإسلاميّة التي حقق فيها صلاح الدين نجاحات دعمت قُدْرَته العسكريّة والماديّة، بدأ يظهر في مملكة الصليبيين تحول جذري في الموقف من دولة صلاح الدين وقُوّتها، وسياستها الهجوميّة، وموقفها العام من الوجود الصليبيّ في الأراضي المُقَدّسة بصورة خاصة وبقيّة المناطق بصورة عامة. وتمثل هذا التحول بخوف وقلق متزايد من قُوّة هذا الأمير الذي ركّز كل جهودِه العسكرية، منذ توليه الوزارة في مصر ثم نيابتها، ضِدّ المملكة وقوتها، والتركيز في حملاته الهجوميّة على أغنى المناطق التي سيطرون عليها؛ إضافة إلى تمكنه خلال فترة قصيرة من الزمن من توحيد القسم الأكبر من بلاد الشام مع مصر (ثم كل بلاد الشام) في جبهة متماسكة تحت قيادة واحدة لها هدف رئيسي واحد هو استعادة الأراضي المقدسة وقلبها القدس من أيديهم، محققاً بذلك نبوءة برنار دي بلابكفورت (Bernard de Blanguefort) مُقَدّم الداوية الكبيرة، الذي رأس هذه الهيئة في الفترة بين 1156 - 1169 م، في رسالة بعث بها إلى البابا في روما قبل تولي صلاح الدين وزارة مصر، قال فيها أن أعظم هَمٍّ يشغله هو:

«أن يتمكن أمير مُسْلم واحد من توحيد الإقليمين العظيمين، القاهرة [مصر] ودمشق [الشام]، وبذلك سَيُقْضى على اسم المسحيين [اللاتين] في الشرق كُلياً»[1].

هذا القول الذي ردّده من بعد بأسلوب آخر المؤرخ الصليبيّ وليم الصوري، الخبير بأوضاع المنطقة لأنه ولد بها وعاش فيها طول حياته، وتولّى فيها مناصب دينيّة ومدنية قريبة من مراكز صنع القرار في المملكة إضافة إلى اطلاعه على أسرارها، كما كان يعرف العربيّة معرفة جيدة. وقد ذكرنا بعض أقواله في السابق والتي كان منها ما يتعلق بصلاح الدين:

«وهكذا فإن كل الممالك حولنا تخضع لحاكم واحد، ويعملون

.J. Howorth, The Knights Templer, P. 127 (1)

بحسب إرادة رجل واحد وقيادته، وهم مستعدون ـ ولو بتردد أحياناً ـ لحمل السلاح لإيقاع الأذى بالصليبيين. . . وهذا [الرجل] هو صلاح الدين الذي يحكم (يملك) الآن تحت سيطرته كل هذه الممالك»[1].

وكان من أول النتائج التي ترتبت على هذا التحول الاستراتيجيّ في موقف مملكة القُدس من صلاح الدين ودولته، إقامة المعسكر السَّنَوي في صَفّورية تحسباً لما يمكن أن يقوم به السلطان أو قُوّاته من هجمات كبيرة أو غارات محدودة مفاجئة على المناطق غرب النهر؛ هذا المعسكر الذي صار يُقام سنوياً حتى السنة التي وقعت فيها معركة حطين. فعين صفوريّة مركز تخييم مناسب في ما يتعلق بالمياه الوفيرة والعلف للماشية والتموين وخطوط الامدادات والقرب من شبكة الطرق الرئيسيّة التي تربط شمال المملكة وجنوبها وتربط أيضاً السّاحل مع الداخل والمناطق شرقي النهر من ناحية أخرى. فتمكّن صلاح الدين من السيطرة على هذه المنطقة الاستراتيجيّة الغنيّة (الجليل الأدنى، مرج بن عامر وبيسان) سيعزل المناطق الشماليّة من المملكة عن السّاحل والهضبة في الجنوب وبالتالي يَسْهُل القضاء على الدولة الاستيطانية التي أقاموها في قلب العالم الإسلامي.

أمّا النتيجة الثانية لهذه الاستراتيجيّة فقد تمثّلَت بجمع مبلغ كبير من المال والتموين والمواد المنقولة الأخرى تحسباً لطارىء كبير يهدد المملكة فيصرف بسرعة لتجميع كل القدرات لمواجهة هذا الطارىء الخطير. ومن أجل ذلك فقط أُجْرِيَ إحصاء عام وشامل لكل شيء في المملكة. يذكر الصوري تبريراً لعمل هذا الإحصاء:

«انتشرت شائعات غير محددة حول نشاط صلاح الدين. وقد دَلّت بعض الروايات على أنّه كان يواجه نجاحات كبيرة في الجزيرة وبلاد

---

(1) وليم، تاريخ، 2 ص 408.

الموصل، حيث أخضع المنطقة كلها تحت سيطرته. . . وسَبَّبَتْ نجاحاته الكثير من الارتباك للمسيحيين [اللاتين]، وأصابهم الذُّعْر لازدياد سلطانه هناك حتى لا يعود إلى حَرْبهم بتعزيزات كبيرة.

وبناءً على ذلك عقد في شباط [1183] اجتماع عام لجميع نبلاء المملكة للتداول في الوضع، وكان هنالك خوف شديد من ذلك. . فتقرر استخدام كل وسيلة ممكنة لمقاومته. . . وتَقَرّر بالإجماع. . . أن يُجري إحْصَاءٌ لجميع مناطق المملكة، فإذا توفر بيان كهذا، فسيكون ممكناً الحصول على قوات من الفرسان والمشاة لظرف طارىء. وسيجدنا العدو [صلاح الدين]، عند عودته، مستعدين للمقاومة»[1].

وازدادت الحاجة الى هذا الإجراء بسبب سنوات الجفاف وتكاليف العمليات العسكرية الكثيرة بحيث صارت أوضاع الملك وباروناته المادية سيئة، ولم تعد تكفي ضروريات الإنفاق.

وتَقَرّر أن تفرض ضريبة على كل موجودات المملكة، ويجمع المال بطريقة محددة، ويحفظ في مكانين هما: كنيسة القيامة في القدس ليبقى في رعاية بطريرك اللاتين بها، وفي عكا. كل ذلك لتمويل العمليات العسكرية عند الضرورة القصوى التي يمكن أن تبرز في حال المواجهة الشاملة مع المسلمين. وتَمّ إجراء الإحصاء الشامل، وشمل جميع السكان والمساكن التي يقيمون فيها وكل الأموال المنقولة وغير المنقولة، وحُدّدت ضريبة على الجميع: الأغنياء والفقراء، والفرنج اللاتين وأهل البلاد الأصليين، تتناسب ودخولهم الفرديّة وإمكاناتهم الماديّة الأخرى، ولم يُعْفَ منها أحد من الناس وكل ما يملك»[2].

بَعْد كل هذه الإجراءات الاستثنائية والانتصارات التي حَقّقَها صلاح الدين في الجزيرة الفراتية وبلاد الشام الشمالية، لم يبق إلاّ المواجهة في حرب أو

---

(1) وليم، تاريخ، 2 ص 486-487.

(2) المصدر نفسه، 2 ص 486 - 489.

معركة شاملة بين السلطان والملك تُحْسَم فيها الأمور بصورة نهائية أو شبه نهائية. والمواجهة الشاملة تحتاج إلى مُقَدّمات تسبقها، وتطورات تدفع العلاقات بين الجانبين إلى الحَدِّ الذي يجعل التراجع عن لحظةِ الحَسْمِ غير ممكنة.

جاءَت المقدمة الأولى في شتاء سنة 1183 (كانون الثاني ـ آذار) أي في الوقت الذي تَقَرّر فيه إجراء الإحصاء، وربما كانت مرتبطة بالاجتماع الذي عقده الملك بلدوين ونبلائه. ففي شوال 578 هـ (28 كانون الثاني ـ 25 شباط 1183 م) قام أَرْنَاط بحملة جريئة في البحر الأحمر وسواحل الحجاز لا نعرف بصورة مناسبة الهدف منها: هل كانت للنهب والسلب والغنائم في موسم الحج في الطرق التي يسير فيها الحاج المغربي والمصري والشامي في هذا الوقت في البر والبحر إلى المدينة، ممّا سيؤثر على سمعة صلاح الدين أمام العالم الإسلامي كُلّه والخليفة العبّاسي الذي منحه الشرعية، لعدم تمكنه من حماية هذه الطرق بصورة مناسبة وانشغاله بمضايقة أمراء المسلمين في شمالي بلاد الشام والجزيرة الفراتية والموصل، أم لدوافع أخرى تبقى قيد التكهنات؟ وهل كان لأعداء صلاح الدين من أمراء المسلمين آنذاك والمعارضين له يد في ذلك؟ وإذا كان الهدف إحراج صلاح الدين فإنّ النتيجة الحاسمة كانت تدعيم موقفه السياسي والمعنوي، فتتابعت الكتب من القاضي الفاضل عن السلطان إلى الخليفة بتفاصيل الحملة، وكيف تمكن نائب السلطان بمصر من القضاء عليها بطريقة حاسمة بحيث لم يَعُد أحد من رجالها إلى فلسطين حتى لا يُعْرَف شيء مما اطلعوا عليه في البلاد المقدسة من بعيد.

كان أرناط قد بنى أسطولاً من المراكب المتوسطة الحجم في البحر الميت[1]، ثم نقلها على ظهور الجمال على شكل قطع، مستفيداً في ذلك من طريقة رجال البحر في مصر التي نفذوها عند استعادة أيلة. ونقل هذه السفن إلى خليج العقبة، حيث أعاد «تسميرها» وتركيبها وتجهيزها بالمقاتلة المختارين. ثم

---

(1) يذكر رنسيمان هذه الواقعة عن أرنو، الكاتب اللاتيني الوحيد الذي ذكرها، وقال عنها أنها كانت حملة علميّة، انظر: **تاريخ الحروب الصليبية**، ص 437 حاشية 1.

سارت المراكب باتجاه البحر الأحمر، فتوقف عند جزيرة فرعون التي تتحكم بمدخل الخليج، فبقي هو واثنان من المراكب بمن فيها من الرجال لحصار القلعة التي تتمركز فيها الحامية التابعة للأسطول المصري لمنع وصول الماء والإمدادات إليها، أما بقيّة المراكب فقد سارت جنوباً مع السّاحل الغربي للبحر الأحمر باتجاه عَيْذَاب التي كانت آنذاك مدينة تجارية مزدهرة والمحطة الأخيرة التي يتجمّع فيها الحاج المغربي والمصري والسوداني قبل عبور البحر إلى الساحل المقابل حيث موانىء المدينة المُنَوّرة ومكّة المُشَرّفَة. وقد وصفها ابن جُبَير الذي دخلها يوم السبت 25 حزيران 1183 م، أي بعد حوالي أربعة أشهر من القضاء على الحملة، بأنّها «أَحْفَل مَراسِي الدُّنيا»، وأنها:

«مدينة على ساحل بحر جُدّة [الأحمر]، غَيْر مُسَوّرة، أكثر بيوتها الأخصاص، وفيها الآن بناء مستجد بالجص. وهي من أحفل مراسي الدنيا بسبب أنّ مراكب اليمن والهند تحط فيها وتقلع منها زائداً إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة، وهي في صحراء لا نَبات فيها، ولا يؤكل فيها شيء إلاّ مجلوب...»[1].

وصلت المراكب الصليبيّة إلى عَيْذاب، واستولوا على أموال بعض التجار، ثم توجهت إلى رَابغ على الساحل الشرقي وإلى الحوراء بقصد القيام بمثل ما قامت به في السابق. وفي هذه الأثناء جهز العادل، نائب صلاح الدين في مصر، المراكب ونقلها إلى خليج السويس وعين عليها حُسَام الدين لؤلؤ قائداً، فقسم هذا الأمير مراكبه إلى قسمين: قسم توجّه إلى جزيرة فرعون، وقسم سار وراء المراكب الصليبيّة التي توجهت جنوباً. واستولى القسم الأول على المركبين وأسر من فيهما وحتى من حاول الهرب، ثم لحقت بالقسم الثاني إلى عيذاب، وهنا عرفوا قَصَد مراكب الصليبيين ساحل الحجاز، فلحق بهم لؤلؤ إلى هناك، واستولى على المراكب، ولاحق من هرب إلى البَرّ في الداخل فقتل البعض وأَسَر البعض الآخر. وكان عدد المأسورين 170 رجلاً، فَصَدَر الأمر

---

(1) رحلة، ص 45.

السلطاني إلى العادل بقتلهم جميعاً لأنهم، كما يقول القاضي الفاضل:

«وهؤلاء الأسارى فقد ظهروا على عورة الإسلام وكَشَفُوها، وتطرقوا بلاد القبلة وتَطَوّفُوها، ولو جرى في ذلك سبب لضَاقَت الإعْذَار إلى الله والخلق، وانطلقت الألْسُن بالمَذَمَّةِ في الشرق والغرب، ولا بُدّ من تطهير الأرض من أرجاسهم، والهواء من أنفاسهم، بحيث لا يعود منهم مخبر يدل الكُفار على عورات المسلمين. . .»[1].

وقد شاهد ابن جبير عند وصوله إلى الإسكندرية بعض هؤلاء الأسرى وهم يُعْرَضُون في شوارعها: «أولاً عاينا مجتمعاً من الناس عظيماً، بَرَزُوا لمعاينة أسْرى الروم [الصليبيون]، ادخلوا البلد راكبين على الجمال، ووجوههم إلى أذنابها، وحَوْلَهُم الطُّبُول والأَبْواق. . .»[2].

وتلي هذه المقدمة الأولى مقدمة أخرى، وذلك بعد عودة صلاح الدين من الجزيرة الفراتية وحلب إلى دمشق في 3 جمادى الأولى سنة 579/ 25 آب 1183. فبعد فترة من الراحة والاستعداد التي امتدت حَتّى 17 أيلول خرج من دمشق إلى منزلة معسكر جسر الخشب حيث توقف سبعة أيام حتى تلحق به بقيّة القوات[3]، ثم توجه إلى بَيْسَان للإغارة عليها. وربّما كانت هذه الحملة رداً على حملات الملك على بلاد دمشق، وحملة أرناط في البحر الأحمر وسواحل الحجاز.

واحتار قادة الصليبيين مرة أخرى عند عودة صلاح الدين في الجهة التي سيوجه إليها حملته التالية فقاموا بتحصين المدن والقلاع والحصون القريبة من الحدود خاصة مدينة بيروت؛ كما اختلفت آراؤهم في الجهة التي سيتوجه إليها من جسر الخشب خارج دمشق. واعتقد البعض أنّه سيحاصر بيروت، وقال

(1) الروضتين، 2 ص 36.

(2) حاشية 2 في مفرج، 2 ص 128. ويقدم ابن جبير وصفاً أشمل وأدق للحملة وما قامت به في سواحل عيذاب وينبع وفي البحر. انظر أيضاً. البرق الشامي، 5 ص 69 - 75؛ الروضتين، 2 ص 35 - 37؛ مفرج، 2 ص 127 - 132؛ حيث يعتمد على مخطوطات رسائل القاضي الفاضل .Saladin, p 185 - 187

(3) النوادر، ص 61.

آخرون أنه سيهاجم حِصْني هونين وتبنين، واعتقد فريق ثالث بأنّه سيتوجه إلى الكرك والشوبك، أو سيعود إلى القاهرة[1]. أمَّا صلاح الدين فقد كان يَعْرف إلى أين سيتجه لأن المبادرة في التخطيط والقتال صارت بيده منذ توجه من القاهرة آخر مَرّة.

وتقدّم صلاح الدين على رأس قُوّاته إلى موقع الفَوَّار القريب من نهر الأردن. وهناك عبأ قواته ورتّبها ليعرف كل مكانه أثناء وقوع القتال، فالأمر الأساسي في القتال، بالنسبة له، ليس رهن الظرف نفسه أثناء القتال وإنما تخطيط مسبق قابل للتعديل إذا اقتضى الحال. ثم تَوَجّه إلى القُصَيْر [الشونة الشمالية] أو قربها. وفي الصباح توجّه إلى مَخّاضة الحسينية [جسر الشيخ حسين فيما بعد] وعَبَر النهر وتوجه مباشرة إلى بيسان التي وجدها مهجورة، فنهبها العسكر، وأحرقوا وأخربوا، ثم سار منها إلى قرية الجالوت ـ نفس الموقع الذي شهد المعركة المشهورة بين المماليك والتتار بعد ذلك بحوالي ثمانية عقود ـ وخيّم السلطان قرب الماء[2].

وكان صلاح الدين، قبل الوصول إلى بيسان قَد قَدّم قُوة من مماليك نور الدين في السابق، بقيادة الأمير عز الدين جَرْدَيك والأمير جاولي مملوك عمه، لاستكشاف أخبار القوات الصليبيّة، فالتقوا بعسكر الكرك والشوبك الذي كان قادماً من طريق نابلس بقيادة هنفري نجدة أو استجابة لدعوة الملك. وهجم الأميران بقوتهما على قوات الكرك ـ الشوبك وقتلوا منهم وأسروا حوالي مائة وعادوا إلى عسكر السلطان، ولم يفقدوا غير شخص واحد[3].

وفي يوم السبت (12 تشرين الأول 1183 م) وصلت الأخبار إلى صلاح الدين أن الملك ومن معه من القوات مجتمعين على عيون صفوريّة، وأنهم رحلوا منها باتجاه قرية الفُولة وحصن الداويّة قُرْبها، فتعبأ للقتال وتوجه

(1) وليم، تاريخ، 2 ص 490 - 491.
(2) النوادر، ص 61.
(3) النوادر، ص 61؛ وليم، تاريخ، 2 ص 494.

لملاقاتهم. وعندما التقى العسكران حاول صلاح الدين التحرش بهم لدفعهم إلى الهجوم، وجرى قتال[1]، ثم قَرّر الملك المسير بقواته، بالأسلوب المألوف عندهم: صفوف مضمومة إلى بعضها ومتراصة «يحمي راجلهم فارسهم». عند ذلك قَرّر السلطان الابتعاد عنهم قليلاً حتى يخرجوا للقتال، لكنهم ظلوا سائرين إلى الماء وخيّموا هناك. عند ذلك توجّه صلاح الدين بعساكره إلى سفح جبل الطور «مترقباً رحيلهم ليأخذ منهم فُرْصَة»[1]. وبات الجانبان تلك الليلة كل في موقعه الذي انتهى إليه.

وفي صباح اليوم التالي، أفاق العسكر الصلاحي فوجد أن الملك وقوا؛ قد عادوا راجعين إلى الفولة وصفوريّة، فأرسل صلاح الدين وراءهم الرماة من كل جانب. ويصف العماد تلك الليلة:

«... فخندقوا حولهم [أ ص: أحوالهم] وأسندوا ظهورهم إلى الجبل، وأقاموا كذلك خمسة أيام»[2].

وعندما تأكد السلطان من عدم نيّتهم في المنازلة والقتال، أرسل فرقاً من قُوّاته في مختلف الاتجاهات لجمع الغنائم. ووصلت إحدى الـ رق إلى حصن الفولة واستولت عليه وجميع ما فيه[3]، وأخرى إلى زَرْعِين وا قُرَى المجاورة لها[4]، **وهي أماكن لم تصل إليها قوات المسلمين منذ قيام المملكة الصليبيّة.** يذكر القاضي الفاضل:

«وهذه البلاد مدن ما كان عَزْم قَبْلُ منها مُدْنِياً، وعَمَارات ما كان أَملٌ إليها مُفْضِياً، بل طال ما كان عنها مغضياً، مثل: بيسان، وعَفَربلا [أ ص: كفربلا]، وزَرْعِين، وجينين؛ كلها بلاد مشاهير لها قُرى مُغِلّة، وبساتين مُظِلّة، وأنهار مُقِلّة، وقلاع مُطِلّة، وأسوار قد ضُرِبَت على

(1) النوادر، ص 61 - 62. وكانت الموقعة يوم الخميس 10 جمادى الآخرة 1 تشرين الأول.
(2) العماد في الروضتين، 2 ص 50.
(3) النوادر، 62؛ وليم، تاريخ، 2 ص 495.
(4) النوادر، ص 62.

جِهَاتها، وأحاطت بجنباتها، واتخذتها المدن سياجاً على قصباتها. فغنم المسلمون ما فيها من أقوات مختزنة، وشفوا منها حَزازات القلوب المضطغنة...»[1].

كما قامت فرق أخرى بقطع الطرقات بين المدن الساحليّة والداخلية وبين مكان الجيش الصليبي، وبذلك تمكنت من منع وصول الامدادات الضروريّة والمؤمن إلى الجيش المعزول الذي لم يتزود بداية بكل ما يحتاج إليه بسبب دخول صلاح الدين المفاجىء أو نتيجة الإهمال في التخطيط. وأدى ذلك إلى المجاعة بين قوات الملك[2] مِمّا أدى إلى تراجعهم إلى المعسكر الدائم في صفورّية. يُضَاف إلى ذلك تردد الملك مستشار (غي دي لوريخبان) في اتخاذ القرار بالهجوم بالرغم من القُوّة الكبيرة التي تجمعت لَدَيْه[3].

وعندما تراجعت قوات الملك إلى صَفوريّة، جمع صلاح الدين قُوّاته، واجتمع مع كبار أمراء العسكر فأشاروا عليه بالعودة لأنّ الأزواد والمواد التي حَمَلُوها قد نفدت، وسار شرقاً إلى النهر الذي اعتبره القاضي الفاضل آنذاك: «النهر الفاصل بين الإسلام والكفر، والمَخّاضة المضروب منها بسور على ذلك القطر...»[4]. وعبر النهر يوم 19 جمادى الآخرة سنة 579هـ/ 9 تشرين الأول 1183 م إلى الشرق.

والدارس لهذه الحملة السريعة تبدو وكأنّها تدريب لمعركة حطين الحاسمة فيما بعد، خاصّة وأن تَرَدّدَ الملك في اتخاذ قرار حاسم كان له أثر كبير في القرار الذي اتخذ بالهجوم في حطين بعد أربع سنوات، نظراً للّوم الكثير الذي تَعَرّض له في المُدّة بينهما.

وتلي هذه التطورات مباشرة المقدّمة الثالثة لحطين والتي تمثّلت بالحملة

(1) الروضتين، 2 ص 51.

(2) وليم، تاريخ، 2 ص 496 - 497.

(3) مصادر هذه الحملة كثيرة وقد فصّلها كل من وليم الصوري، وابن شداد والقاضي الفاضل في الروضتين.

(4) البرق الشامي، 5 ص 153؛ النوادر، ص 63.

التي قادها صلاح الدين إلى الكرك. وكان هدف السلطان من هذه الحملة مزدوجاً: تجربة حصار قلعة الكرك الحصينة، ولقاء أخيه العادل الذي رغب بتولي حلب بَعْد سيطرة صلاح الدين عليها، فطلب السلطان منه القدوم إلى الشام ولقائه على الكرك، وحماية القافلة الكبيرة التي قدمت من مصر «من تاجر وغير تاجر ليَفُوز من بغيته بالدّرَك [حراسة القافلة]» (1).

غادر صلاح الدين دمشق في 3 رجب 579 هـ/ 23 تشرين الأول، وسار على الطريق المعروف إلى البلقاء حتى وصل إلى الرَبَّة فخيّم هناك، ثم بدأ بعمليّة الحصار، فاستولى على البلدة (الربّض خارج القلعة)، وشدّد الحصا على القلعة. وكالعادة، عندما عرف الملك الصليبيّ بذلك توجه مع قواته مى القدس وغيرها من الإقطاعات إلى وادي الأردن شمالي البحر الميت، وخيّموا بعد ذلك على مياه وادي الوالة، أحد روافد وادي الموجب (أوائل شعبان/ أواخر تشرين الثاني)، فتخلى صلاح الدين عن الحصار الذي لم ينتج شيئاً. ووصل العادل أثناء الحصار (4 شعبان/ 22 تشرين الثاني)، فسار مع أخيه، وعين السلطان تقي الدين عُمَر والياً على مصر فسار إليها ، وعاد مع أخيه والعساكر إلى دمشق فوصلها في 24 شعبان من السنة (12 كانون الأول ؛118 م) (2).

وأمضى صلاح الدين فصل الشتاء في دمشق، وقام خلال ذلك ببعض التراتيب الإدارية في حلب وحماه، فأعطى ولاية حلب لأخيه العادل الذي كان يعتمد عليه «ويعمل برأيه ويتيمن بمشورته»(3). ومما يروى عن حسن إدارة صلاح الدين وقيادته أن العادل طلب منه أن يعطيه حلب وبلادها مُلْكَ بَيْع وشِرَاء، فرفض صلاح الدين ذلك لأنه في غير مصلحة عامة المسلمين:

«وسأل العادل أن يكتب [صلاح الدين] له بمدينة حلب كتاباً ويجعله ككتاب البيع والشراء، فامتنع السلطان، وقال: **إنما تكون اقطاعاً**

---

(1) المصدر السابق.

(2) النوادر، ص 63 - 64؛ البرق الشامي، ص 153 - 154؛ وليم، تاريخ، 2 ص 498 - 499 وما بعدها الروضتين، 2 ص 51 (العماد)؛ الكامل، 11 ص 502.

(3) ابن أبي طيء في الروضتين، ص 52.

والمال عَليّ له، فاعتذر العادل. . . ولمّا اجتمعا، قال له السلطان: **أَظَنَنْتَ أَنَّ البلاد تُبَاع، أوَ مَا عَلِمْتَ أنّ البلاد لأَهْلِها المُرَابِطين بها، ونحن خَزَنَةٌ للمسلمين، ورعاة للدين، و حُرّاس لأموالهم، أوَ** ما علمت أن السلطان ملكشاه السلجوقي لما وقف طبرية على جمع خراسان، لم يحكم به أحد من القضاة ولا من الفقهاء»[1].

وفي 5 آب 1184 م خرج صلاح الدين مَرّة أخرى لحصار الكرك فوصل إليه في 23 من الشهر نفسه، ومَرّة أخرى أسرع الملك وباروناته إلى الكرك فنزل على الوالة مَرّة أخرى، فرفع السلطان الحصار، وانتقل إلى حسبان ثم إلى ماعين لمراقبتهم من الخلف والاشتباك معهم، لكنّ الملك ومن معه ساروا إلى قلعة الكرك وتحصنوا فيها[2]. عند ذلك قَرّر صلاح الدين العودة إلى دمشق. وفي الطريق توجه بفرقة من عسكره إلى الهضبة غربي النهر التي كانت خالية من الجند لإخراب بلادها:

«ولّما رأى السلطان أنّ الفُرصَة من الفئتين فاتت [الكرك وجيش الملك] **مَرّ على نابلس**، فأغار وغنم. وفي طريق عَوْدِهِ نَزَل على سبسطية، وفيها **شهد زكريا**. . . وقد اتخذه الفرنج كنيسة، وأودعوها أمتعة نفيسة، وبها من الفرنج أسقف وقُسس ورهبان، **ففدُوها بأَسَارى** مسلمين ولاذوا بالأمان معتصمين، ثُمّ أناخ على جينين فأهبط أوجها وهدم برجها، وآب بالنهاب والسبايا. . . واجتمع بأصحابه على الفَوّار. . »[3].

وعاد إلى دمشق فوصلها يوم السبت 7 جمادي الآخرة/ 15 أيلول 1184 م.

---

(1) المصدر نفسه.

(2) النوادر، 66 - 67؛ العماد والقاضي الفاضل الروضتين، 2 ص 54 - 55؛ وليم، تاريخ، 2 ص 500 وما بعدها.

(3) من رسالة للعماد في الروضتين، 2 ص 56، مفرج 2 ص 158 - 159؛ وانظر النوادر، ص 67 الذي يذكر أنّ السلطان لم يشارك في الحملة وإنما أرسل فرقة من جنده.

وجاءت المَقَدّمة الأخيرة في استكمال صلاح الدين إخضاع الجزيرة الفراتية والموصل وبلادها لنفوذه حتى يضمن اكتمال وحدة الجهد العسكري والجبهة الداخليّة قبل القيام بالعمل الكبير الذي مَهَّد له بجهده المتواصل. ففي أواخر شوال أو أوائل ذي القعدة سنة 580 [آذار 1185] توجّه صلاح الدين إلى الجزيرة الفراتية بسبب أوضاع سياسية طرأت هناك[1]. وفي هذه المَرّة وَقَّعَ هُدْنة مؤقتة مع مملكة القُدْس حتى يطمئن الى جبهة دمشق فلا يحدث فيها ما وقع في المَرّة السابقة. وتختلف المصادر حول هذه الهدنة ومع من عُقِدَت وذلك بسبب الأوضاع الداخلية للمملكة الصليبيّة التي كانت تعصف بها الصراعات حول الوصاية على صاحب عرش المملكة، والتي انقسمت إلى مجموعتين متنافستين. وكانت الهدنة عادة تُعْقد بين السلطان من جانب المسلمين والملك من جانب الصليبيين[2]. وتذكر المصادر اللاتينيّة هدنة مدتها أربع سنوات عقدت في بداية سنة 1185 م بين الملك بلدوين وصلاح الدين. ويبدو أن الكونت ريموند صاحب طرابلس وطبريا (نيابة عن زوجته والوصي على الملك المريض) هو الذي وَقّع نيابة عن الملك[3] الذي توفي في آذار من السنة، فتولى العرش بلدوين الخامس، الذي كان لا يزال طفلاً، فتولى ريمود الوصاية عليه (وتوفي الملك الجديد في آب 1186 م)[4]. أمّا المصادر العربية فتذكر هدنتين: إحداهما مع أرناط الذي أظهر:

«أنه إلى الهدنة والهدوء شديد الفاقة... وأخذ الأمان لبلده وأهله، وبقي الأمن شاملاً والقفل من مصر في طريق بلده متواصلاً، وهو يمكس [يأخذ الضرائب] الجاري والذاهب، ويجبي من الضروب والضرائب...»[5].

---

(1) انظر ما تقدم الفصل ص.

(2) هانز ماير، الحروب الصليبية [الترجمة الانجليزية]، مطبعة أكسفورد، 1972، ص 126.

(3) المرجع نفسه، ص 130 ورنسيمان، تاريخ [E] 2 ص 444، 446.

(4) المرجع نفسه.

(5) سنا (ق) ص 289.

وأما الهدنة الثانية فقد تمت مع ريموند صاحب طرابلس وطبرية[1]. ويبدو أنّ الهدنة الأولى كانت أثناء فترة الصراع على وصاية العرش، والثانية بعد حسم هذا الصراع مؤقتاً بتولي غي العرش وهزيمة ريموند وحزب البارونات الكبار. أما حزب الملك الذي كان أرناط من أبرز رجاله فقد صار له القُوّة والنفوذ في المملكة.

وأثناء غياب صلاح الدين في الجزيرة الفراتية، استولى أرناط على قافلة كبيرة كانت قادمة من مصر إلى الشام، وأَسَرَ الجند الذين يحرسونها. وطلب السلطان من أرناط (عن طريق ريموند في المصادر اللاتينيّة) إعادة كُلّ ما استولى عليه من مال ومتاع وإطلاق سراح الأسرى، فرفض صاحب الكرك والشوبك ذلك بشدّة، فَقَرّر صلاح الدين قبل عودته إلى دمشق حرب الصليبيين في داخل مملكتهم. وبَعْدَ أن أتَمّ بسط نفوذه على كل منطقة الجزيرة الفراتية، وصالح صاحب الموصل من آل زنكي، عاد إلى دمشق وأخذ يستعد للمواجهة الكبرى، فكانت معركة حطين الحاسمة.

(1) العماد، سنا (ق) ص 288 - 289؛ الكامل، 11 ص 526 - 527.

11 حِطّين

«وسَلاَطِين الإسلام ما صَدَقُوا أن يُسَلّموا إلينا ويُسَالِمُونا، ويَبذِلُوا لنا القَطَائع ويُقَاطِعُونا. وطالما نَاصَفُونا وما صَافُونا، وهَادُونا وما هَادَنُونا. وفي جَمْعِنا تَفْرِيقَهم، وفي وَقْعَتِنا تَعْوِيقَهم.

فقال القُومص [ريموند]: . . . هذا صلاح الدين لا يُقَاس بأحَدٍ من السّلاَطين لتَسَلّطه. . . . وإن كَسَركُم مَرَّة فلا يَصِحُّ لكم الجَبْرُ، وليْسَ إلا المُـرَاوَغَـة والمغَـاوَرَة والصَّبْـر. والصَّـواب ألاّ نُخَـالِطـه ولا نُبَـاسِطـه، ولا نُخَالِفُه ونَقْبَل شَرائِطه، فَرَفَض الملكُ هذا الرأْيَ، وقبل القُومص على مَضَض» [العماد حول اجتماع صَفُّوريّة ليلة حطين: الفتح، ص 66 - 65].

عَاد صلاح الدين من شرق الفرات إلى دمشق يوم 2 ربيع الأول 582 هـ / 23 أيار 186، فاستقبل استقبالاً كبيراً من عامة النّاس وخاصتهم، العامّة احتفالاً بشفائه من المرض الذي كثرت حوله الأراجيف واشتد القلق، والخاصة احتفاءً بمثل ذلك وبتحقيقه الهدف الذي جمع كلمة المسلمين بتوحيد البلاد التي تُشَكّل قلب العالم الإسلامي بقيادة الخليفة العباسي في العراق وقيادة السلطان بتفويض الخليفة وعلاماته على كتبه في كل الجزيرة الفراتية والشام ومصر واليمن وغيرها. وكان أول من اجتمع به، بعد أهله، وزِيرَه الكبير ومستشاره الخطير وعَقْلَ دَوْلَتِه المُدَبّر، القاضي الفَاضِل. يذكر العماد:

«. . واجتمع السلطان في القلْعَة بأهله، وأقلع المرجف عن جَهْله،

وحَسُنَت الأَحْوال. . وشاهدنا الفضل والكرم بالمشاهد الفاضِليَّة. . . **واجتمع السلطان به فَبَثَّه أسراره، واستزال بصفو رأيه أكْدَاره، ودخل جَنّتَه وجنى ثمـاره، وزاره مَرَّةً واستزاره، وراجَعَه في مصالح دولته واستشاره. . .»** [1] .

فما الذي حقّقه صلاح الدين في حملته على البلاد الموصليّة؟ وما الإجراءات الإداريّة والعسكريّة التي قام بها بعد عودته إلى دمشق لترتيب دولته والاستعداد للمواجهة الكبرى؟.

1تَـمّ الصلح مع صاحب الموصل من آل زنكي، وقُطِعَت الخطبة السلجوقية فيها وخُطب للسلطان صلاح الدين بَعْد الخليفة العباسي؛ وتنازل للسلطان عن كل ما وراء نهر الزاب «من البلاد والحصون والقلاع والضياع وشهرزور ومعاقلها وأعمالها، وولاية بني قفجاق وولاية القرابلي والبوازيج وعانة»، مقابل إبقاء الموصل وأعمالها بيده: «على أن يكون بحُكْمِنا، ويُنْفِذَ عسكره إلى خِدْمَتِنا، وتكون الخُطْبَة والسِّكة باسمنا. . .» [2] .

2 ـ تمت الخطبة والسكة والطاعة لصلاح الدين في بلاد الجزيرة الأخرى، وديار بكر خاصة التي كانت بيد بني أرتق، وتقديم العساكر لمساعدة السلطان في الجهاد عند الطلب، لأن «العزائم إلى الجهاد في سبيل الله نوازع، وقد زالت العوائق وارتفعت الموانع» [3] .

3 ـ أضاف صَلاَح الدين الرّها وقلعتها وولايتها إلى إقطاع كُوكْبُري بن زين الدين علي كوجك الذي كان أول من سانده في عمليات شرق الفرات منذ البداية، وذلك «لتوفره في الخدمة [السلطانية] على حفظ القوانين، وظَهَر منه ما حَقّق به الاستظهار، وأوجب لأمره الإمرار» [4]. وكان هو الأمير الذي عهد إليه قيادة كُلّ القوات الشرقية في معركة حطين.

---

(1) الروضتين، 2 ص 69.

(2) العماد في الروضتين، 2 ص 64.

(3) المصدر نفسه.

(4) العماد في الروضتين.

4 ـ ألْغَى السلطان المكوس [الضرائب غير الشرعيّة] في كل البلاد التي خضعت لسلطته المباشرة أو التي خضعت له بصورة غير مباشرة، فهذا هو «دأب السلطان في جميع البلاد، اقتصر منها على الرسوم التي يبيحها الشرع، وهي: الخراج والأُجُور والزَّرْع»[1].

وأمّا أمور بيته الخاصة وبيت عَمّه فقد اتَّخَذ إجراءات أولى في حلب، وصحب معه العادل إلى دمشق حَتّى يتقرر الأمر في التراتيب النهائية بعد التشاور مع القاضي الفاضِل وغيره. وفي الطريق رَتَّب أمور حمص التي توفي صاحبها ابن شيركوه، فعين ابنه مكانه وألْزَمه بحفظ الثغر الحدودي هناك، كما ألزمه بالتقيد بالضرائب الشرعيّة.

وأمضى صلاح الدين بقية سنة 582 هـ/ حزيران 1187 ـ آذار 1187 م في استكمال التراتيب الإداريّة والاستعدادات العسكريّة في مصر وبلاد الشام:

1 ـ عَيّن صلاح الدين ابنه الظاهر غازي على حلب مكان أخيه الملك العادل، والد زوجة الظاهر، باتفاق بين الأخوين، وولّى قلعة حلب الأمير حُسَام الدين بشارة، والمدينة الأمير شجاع الدين عيسى بن بلاشو[2].

2 ـ استدعى الملك الأفضل، ابنه الأكبر، من مصر إلى دمشق ليعينه نَائِباً فيها، وعين ابنه العزيز عثمان نائباً في مصر، ورتّب معه أخاه الملك العادل لإدارة مصر، وأقطعه إقطاعاً مناسباً فيها رضي به العادل عن طيب خاطر.

3 ـ وأثار هذا الإجراء الأخير تقي الدين عمر ابن أخيه، الذي قَرّر التوجه إلى المغرب والسيطرة عليه وإقامة مُلْكٍ فيه، لكن ذلك سيؤثر حتماً على مخططات صلاح الدين العسكرية، إذ كان تقي الدين من أبرز رجال دولته وقَادة عسكره ومشورته. فأرسل صلاح الدين إليه يسترضيه. ومما يؤثر عن السلطان قوله:

---

(1) الروضتين، 2 ص 69.

(2) الروضتين، 2 ص 69، 70، 71.

«لعمري إن فتح المغرب مُهِم، لكن فتح بيت المَقْدِس أَهم، والفائدة به أتَمّ، والمصلحة منه أخَصُّ وأعَم. وإذا تَوَجّه تقي الدين واستصحب معه رجالنا المعروفة، ذهب العمر في اقتناء [أ ص: انتفاء] الرِّجال، وإذا فتحنا القُدْس السّاحل طوينا إلى تلك الممالك المراحل»[1].

ثُمّ كتب إلى تقي الدين يأمره بالقدوم إلى الشام، كما كتب القاضي الفاضل إليه أيضاً وقول القاضي مسموع:

«سبب هذه الخدمة [الكتاب] ما اتّصل بالمملوك [القاضي الفاضل] من تَرَدُّدِ رسائل مولانا في التماس السّفر إلى المغرب... يا مولانا، ما هذا الواقع الذي وَقَع، وما هذا الغَرِيم من الهَمّ الذي ما انْدَفَع، بالأمس ما كان لكم في الدنيا إلاّ البُلْغَة، واليوم قَدْ وهَبَ الله هذه النِّعمة، وقد كان الشَّمْل مجموعاً والهَمّ مقْطُوعاً ممنوعاً، أفتُصْبِح الآن الدنيا ضَيِّقَة علينا وقد وسِعَت، والأسباب بنا مَقْطُوعة ولا والله ما انقطعت. يا مولانا إلى أين؟ وما الغاية؟ وهل نحن في ضائقة عَيْش أو في قِلّة من عَدَد؟ أو في عدم من بلاد؟ أو في شكوى من عدم؟.

كيف نَخْتَارُ على الله وقد اختار لنا؟، وكيف نُدَبّر لأنفسنا وهو قَدْ دبّر لنا؟، وكيف ننتجع الجَدْب ونحن في دار الخِصْب؟ **وكيف نَعْدِل إلى حرب الإسلام المنهيّ عنها ونحن في المَدْعُو إليها من حَرْب أهل الحَرْب؟.**

معاشر الخُدّام والجيش وأرباب العُقُول والآراء، أليس فيكم رجل رَشِيد:

تَعَقَّب الرأي وانظر في أواخِره فطالما اتهمت قدماً أوائله

لا زال مولانا يمضي الآراء الصائبة، ويلحظها بادِيَة وعاقبة، ولا خلت

---

(1) المصدر نفسه، ص 70.

منه دارٌ إن خلت، ولا عَدِمته أيام إن لم تطلع فيها شمس وجهه دَخَلَت في عداد الليالي فلم تذكر»[1].

فكيف يستطيع الأمير الكبير بعد هذه الحجج ألا يستجيب للأمر السلطاني فيتوجّه بجميع أهله وعساكره إلى دمشق، فتلقاه السلطان في مرج الصُفّر في 23 شعبان 582 ـ [10 تشرين الثاني 1186 م]، ودخلا معاً إلى دمشق، وأقطعه السلطان حماة وبلادها، وأمره بحماية ثغورها فتوَجه إليها حتى تأتيه أوامر السلطان.

وبهذه التراتيب المحكمة تمكّن صلاح الدين والقاضي الفاضل من ترتيب أمور الدولة من أقصى شرقها إلى أقْصَى غربها، وتَفَرَّغ للاستعداد والتجهيز لحملته الكبرى التي كان ينتظر قدوم وقتها. وفي ذات الوقت كانت الأوضاع السياسية في مملكة الصليبيين تزداد سوءاً، والخلاف بين حزب البارونات النبلاء وحزب الملك ومؤيديه يبلغ أوجه، مِمّا دفع الكونت ريموند الثالث، الذي أُبْعِد عن وصاية العرش بتتويج غي دي لوزيجنيان زوج الملكة الوارثة للعرش، إلى مهادنة صلاح الدين عن بلاده (طرابلس) وبلاد زوجته (طبريّة) بحيث قيل عنه: [في المصادر العربيّة]:

«. . . . فالتجأ إلى ظلّ السلطان، فصار له من جملة الأتباع، فقَبِلَه السلطان وقَوَّاه، وشَدّ عَضُدَه بإطلاق من كان في الأَسْر من أصحابه، فقويت مُنَاصحته للمسلمين. . . »[2].

وكان السبب الذي دفع ريموند إلى ذلك الاتفاق هو أن مقدّم الداوية نصح الملك غي بجمع القوات ومحاصرة ريموند وإجباره على الاستسلام، فنفذ الملك عملية جمع القوات، لكن باليان بن بارزان ـ صاحب نابلس ـ أقنعه بخطأ هذه الحركة ـ ففرق القوات وعاد إلى القدس[3].

(1) المصدر نفسه.

(2) الروضتين، 2 ص 74. .

(3 م) بلدوين، 1 ص 605 - 606.

وأقام صلاح الدين في دمشق ينتظر الفُرْصة المناسبة لجمع العساكر والتوجّه إلى ميدان القتال، فكان الاستيلاء على القافلة القادمة من مصر إلى الشام، وفشل المفاوضات بين السلطان وأرناط والملك في حَلِّ المشكلة. وبدأ الجانبان الاستعداد والتجهز. وكتب السلطان إلى العساكر في الموصل والجزيرة الفراتيّة وحلب وحماة ومصر طالباً منها القدوم: الشرقية والحلبية إلى الاجتماع برأس الماء(*)، المخيّم المعتاد لدى صلاح الدين ومركز الاجتماع للانطلاق؛ والمصرية بقيادة أخيه العادل إلى بلاد الكرك والشوبك. أمّا السلطان فخرج إلى جِسْر الخشب، وأقام هناك حتى يتكامل تجمع قُوّات دمشق لديه. كتب القاضي الفاضل:

«كتبت هذه المكاتبة من جسر الخشب، وقد ورَدَ أعَزّ الله أنصاره للغزاة إلى بلاد الكفر في عسكر فيه عساكر.. وقد نهضت به هِمّة لا يُرْجى غير الله لإنهاضها ومَجَجت به عزمة الله المَسْؤول في حَسْم عَوَارِض اعتِرَاضِها، وباع الله نَفْساً يستمتع أهل الإسلام بصَفْقَتِها، ويُذْهِبَ الله الشِّرك بهَيْبَتِها؛ وأرجو أن يتمَحص عن زبدة، وتستريح الأَيْدي بعدها عن المَخْض؛ وأن يكون لله قد بعث سَفْتَجَة[1] نُصْرَةِ الإسلام وسُلْطَانة قد نَهَض للقَبْض»[2].

فهَل بعد هذا من شكٍ بنية السلطان في المواجهة الشاملة والحسم، متوكلاً على الله في تحقيق النصر «وتستريح الأيدي بعدها عن المَخْض».

وفي اليوم الأول من المُحَرّم 583/ 14 آذار (بداية فصل الربيع) سار

(*) حَدّد سهيل زكار في نشرته لتاريخ دمشق لابن القلانسي المكان المذكور بأنه يُعرف الآن بنبع الثريا قرب فقيع بحوران بين جاسم ونوى، ويبعد عن دمشق مسافة سبعين كيلومتراً. تاريخ دمشق، حاشية 1 ص 278. وفي ذلك الوقت كانت المنطقة بين الجولان (غرب وادي الرقاد) وحوران (شرق أذرعات ـ درعا) تُعْرَف بالبثنيّة وقَلْبها النّقرة التي كانت من أخصب بلاد المنطقة، ويسكنها آنذاك العرب من آل مِرا بن ربيعة من طيء الذين كان لهم مشاركة فعّالة في حروب صلاح الدين.

(1) كمبيالة أو شيك بلغة العصر الحاضر.

(2) الفاضل من رسالة إلى أحد إخوانه في الروضتين، 2 ص 75.

السلطان وقُوّات دمِشق إلى معسكر رأس الماء، الذي تَرَدّدَ ذكره كثيراً في ما تَقَدّم. وكان الجُزْء الأول من خطَته ينكون من قسمين: الأول أن يترك ابنه الأفضل وأمير قوات دمشق في المعسكر حتى تجتمع إليه العساكر التي ستأتي من الشرق وبلاد حلب وحماه، والثاني أن يتَحَرك هو إلى بُصرى قصبة حوران، أو جوارها مع مماليكه وحَرَسه الخاص لينتظر وُصُول الخبر بمسير الحاج عائداً من مكة إلى دمشق حتى يتوجه إلى بلاد الكرك والشوبك للإسراع لمرافقتها وتأمين مرورها من المنطقة الخَطِرة، والالتقاء بعد ذلك (أو في ذات الوقت) مع قُوّات مصر التي طلبها. وخيم الأفضل في رأس الماء بانتظار العساكر وما يَصِل إليه من تعليمات أخرى من والده. أما صلاح الدين (ومعه القاضي الفاضل) فسار إلى بُصْرى وخيّم بموقع قَصْر السلامة(4) الذي رُبّما سمي بذلك الاسم منذ قيام إمارة الكرك الصليبيّة وتحول طريق الحاج إلى الشرق من أذرعات التي كانت مُهَدّدة دائماً من غارات الصليبيين في طبريا وكذلك الطريق الذي يمتدّ منها إلى الرمثا فالمفرق (الفدين) فالزرقاء فعمّان وزيزاء واللجون والحسا والنقب.

وفي الوقت المناسب تَوجّه صلاح الدين إلى الجنوب حتى حدود الخطر في تلك المنطقة، فوصَل الحاج في آخر صفر ـ أواسط أيار 1187 م، ولم يخرج أرناط وحامياته في الكرك والشوبك من حصونهم، ورافق الحاج إلى حيث الأمن (ربّما قرب الأزرق)، ثم توجّه إلى بلاد الكرك والشوبك وبَثّ سَرَاياه فيها للإغارة، فأعملت فيها إحراقاً وتخريباً ونهباً في وقت نضوج الغلال مُدّة شهرين وَصَل أثناءها عسكر مصر «فتلَقّاه بالقريتين» قرب معان، فقام بتوزيعه على بلاد الكرك والشوبك للمرابطة هناك[1] ومتابعة التخريب طول المدة التي ستستمر بها العمليات العسكريّة.

وفي ذات الوقت الذي خرج فيه صلاح الدين، كتب إلى تقي الدين عمر بالتوجه من حماه إلى حلب ومراقبة تحركات الأرمن وحدود إمارة أنطاكية دون طرابلس لأن بلاده كانت بأمان بموجب الاتفاقية مع ريموند صاحب طرابلس،

(1) الروضتين، 2 ص 75؛ الفتح، 58 - 59.

فتوجّه تقي الدين إليها ورتّب أمورها، وعقد هُدْنَة مع صاحب أنطاكية (العشر الآخر من ربيع الأول/ أوائل حزيران 1187 م)، ثم عاد مع قُوّاته ومن اجتمع إليه من قوات المشرق: عسكر الموصل وقائدهم مسعود بن الزعفراني، وعسكر ديار بكر، وتوجّه إلى مكان اللقاء فوصلوا ووجدوا أنّ السلطان قد عاد ونقل المعسكر إلى عَشْتَرا، فساروا إليه «فلَقِيَهم. . . واحترمهم وأكرمهم»[1].

مُنْذ وصوله إلى رأس الماء كان الأفضل، الشاب ذو السبعة عشر ربيعاً من العُمر،الذي يُكلف بمهمة ميدانية كبيرة لأول مَرّة، يتحَفّز لإرسال قوة كبيرة غرب النهر حسب الخِطّة، خاصّة وأنّ قوات صاحب الرها وحَرّان وقوات حلب قد وصلت إلى المعسكر، لكنه ظل ينتظر رسالة من والده بتنفيذ المهمة. وفي ليلة 27/26 نيسان، كتب الفاضل رسالة من معسكر صلاح الدين في منطقة الكرك بأن رسولاً وصل في ذلك اليوم من جهة مصر بأن قواتها وصَلَت إلى منزلة صَدْر المعروفة يوم الاثنين السابق (22 نيسان)، وأنه يتوقع أن تصل إلى أيلة بعد أربعة أيام، وأن هذه الرِّسَالة أبهجت قوات السلطان في بلاد الكرك: «وانقطع دابر الإشاعات[2]. . . ». وأنهى القاضي الفاضل كلامه بنصيحة إلى الأفضل في « . . . الحركة إن لاحت فرصة ومن تأخر مولانا في الخيام فإنه أولى من حيث الحوطة، وعلم المملوك أنّ مولانا ربما يُسْرِع، واتباع إلى نصيحة وصِيّة السلطان أنفع وطاعته للمصالح أجمع»[3]. واتبع الفاضل هذه الرسالة بأخرى خاطب الأفضل فيها بأنه كان قد طلب إليه اغتنام الفُرصة في مهاجمة الصليبيين من ذلك الجانب من الجبهة إذا تأكد لديه أن القيام بذلك العمل لا يعرّض القوات للخطر، لكن السلطان غيّر رأيه الآن ويطلب منه والقُوّات الأخرى التي معه البقاء حيث هو في رأس الماء على أهبة الاستعداد، وأن السلطان سيعود إليه في أسرع وقت[4].

---

(1) النوادر، ص 75.

(2) ربّما ترددت إشاعات بأن العادل لن يُرسل القوات إلى الشام.

(3) من رسالة للفاضل في مخطوط ميونيخ، ورقة 82.

(4) من رسالة للفاضل في مخطوط ميونيخ ورقة 71 م ـ ب. لم يكن الحاج قد وصل بعد.

وطال انتظار الأفضل في ترقب وصول والده. ويبدو أنّ موعد الاتفاق مع ريموند من أجل إرسال القُوّة قد اقترب ولم يَصِل الأمر بالتحرك في هذه العمليّة التي يبدو أنّ الهدف منها كان استطلاع الموقف العسكري في مسرح العمليات أو قُرْبه في مناطق الجليل الأدنى، واختبار الهدنة المعقودة بين السلطان وريموند صاحب طرابلس أصالة، وطبريّة نيابة عن زوجته أشيڤا صاحبتها وراثة. عند ذلك ادعى الأفضل بأنّ أَوامر والده بالبقاء قد تأخرت وقام بالمسير مع القوة المختارة إلى الأقحوانة عند الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية بين نهري الأردن واليرموك[1]؛ ومن هذا المكان جَدَّد الطلب من ريموند بالسماح للقُوّة بالمرور في بلاد طبرية[2]. وقد أحرج الطلب المذكور ريموند الذي كان لا يزال على خِلافِهِ مع الملك غي وحزبه، لكنّه في الوقت نفسه ـ كما يذكر أحد الدارسين المحدثين ـ «لم يكن راغباً بالتخلي عن تأييد صلاح الدين له ومساعدته ضِدّ منافسيه»[3]، فأعطى الإذن بالعبور ليوم واحد بشرط أن تدخل القوة غرب النهر بعد شرق الشمس وتغادرها قبل الغروب دون إيقاع أي ضرر ببلاده والساكنين فيها. فوافق الأفضل، وأرسل ريموند (يوم 30 نيسان) إلى مدينة الناصرة وكل القُرى والحصون المجاورة يعلمهم بدخول القُوّة، ويَحَذّرهم من الخروج من مدنهم وقُراهم وحُصُونهم؛ أما الكونت نفسه فأغلق أبواب طبرية[4]، كما بعث رسالة إلى المبعوثين تحمل ذات التحذير وانتظر مرور اليوم بسلام. وفي نفس اليوم (30 نيسان) كان بعض أعضاء بعثة ملك الصليبيين قد وَصَلُوا إلى حصن الفُولة التابع للدّاوية في طريقهم إلى طبرية لمفاوضة ريموند من أجل المصالحة بين الفريقين المتنازعين وتوحيد الجهد ضد العدو المشترك[5].

---

(1) من رسالة في مخطوط ميونيخ ورقة 84.

(2) جان ريشار، المملكة اللاتينية (الترجمة الانجليزية) م: أ ص 175 وفرسان الداوية (E) ص 146.

(3) بلدوين، «اضمحلال وسقوط. . .» في تاريخ الحروب الصليبيّة [E] م 1 ص 605.

(4) المراجع السابقة.

(5) المراجع ذاتها.

بعد عيد الفصح المجيد بقليل تَقرّر إرسال بعثة إلى ريموند، كانت مكونة من: جيرار، مقدم الداوية الكبير، وروجر مقدم الاستبارية الكبير، وجوسيوس أسْقُف صُور، وبَاليَان صاحب نابلس، وريناالد صاحب صيدا وآخرون. وعند وصولهم إلى نابلس تأخر باليان عن الركب لتسيير بعض أمور إقطاعيته واللحاق بهم بسرعة. وعندما وصلوا إلى الفولة، كانت رسالة تحذير ريموند عن الحملة في انتظارهم. واختلفت آراء مقدمي الداويّة والاسبتارية في التقيد بالتحذير أم إهماله والاستعداد لمواجهة القوة التي ستدخل المنطقة في اليوم المذكور ما دامت هيئتا الفرسان غير مُلْزَمَتَيْن بالاتفاق بين ريموند وصلاح الدين. كان الأسقف ومُقَدّم الاسبتارية على استعدادٍ للتقيّد بتحذير ريموند وإنجاز المهمة التي جاءا من أجلها، أما مقدم الداوية فلم يُبْدِ أي استعداد لذلك، وقَرّر الاستعداد لمواجهة الفرقة، فاستدعى «مارشال الداوية»، الذي كان في قرية قريبة، لِيَنْضمّ إليه مع كل من لديه من فرسان الداويّة، فجاء مسرعاً ووصل إلى الحصن ومعه 90 فارساً. وفي صباح اليوم التالي (أيار ـ مايو) تابع مقدما الداويّة والاسبتارية والفرسان والأسقف إلى الناصرة، فبقي الأسقف فيها، وتابع المقدم والمارشال ومقدم الاسبتاريّة والفرسان وعدد من الفرسان المدنيين من أهل الناصرة المسير[1].

وبعد ساعات من توقفه في نابلس، توجه باليان ومعه المؤرخ أرنو إلى الشمال ليلحقا بالوفد فوصلا في الصباح إلى الفولة فلم يجدا أحداً من الوفد كما كانت خيام الداوية الدائرية الشكل والبيضاء اللون خالية تماماً[1].

في صباح الأول من أيار، بعد شروق الشمس حسب الاتفاق، دخلت السَّرايا المتفق عليها إلى الغرب بقيادة ثلاثة أمراء: الأمير كوكبوري على رأس قواته المنتخبة وقوات من قوات الشرق، والأمير دَلْدَرِم الباروقي على سرية جند حلب، والأمير قايماز النجمي ـ مملوك نجم الدين أيوب ـ على رأس قوات دمشق، وبذلك تمثلت كل القُوّات التي وصلت إلى معسكر رأس الماء. وتجولت هذه السرايا كقطعة واحدة في المنطقة التي تقع حول الطريق من جسر

(1) فرسان الداوية، ص 146 - 147.

الصنَّبْرة وطبريا إلى صفوريّة، فوصلت قريباً من الموقع المذكور الذي كان خالياً من القُوّات على غير العادة، كما ذكرنا. وكان جميع الناس قد تَقَيّدوا بتحذير ريموند، والتجأوا إلى المدن والقرى والحصون إلاّ فرسان الداويّة ومقدمهم ومُقدم الاسبتـارية ومن معه وفرسان الناصرة الذين قَرّروا مهاجمة سرايا المسلمين. والتقى الجانبان عند نبع القَسْطَل قرب الناصرة، فوقعت المعركة غير المتكافئة بين الجمعين التي قُتِل فيها مُقَدّم الاسبتارية الكبير ومعظم فرسان الداويّة من حامية الفولة، وهرب مقدم الداوية الكبير وأفلَت ثلاثة آخرون وأسر أربعون فارساً من أهل الناصرة(1).

وعادت القوة الصلاحية إلى شرق النهر دون أن تفقد جندياً واحداً من أفرادها، ودون أن تتعرض لأحدٍ من الناس أو الغلاّت. وشاهد ريموند وأهل طَبَرية عودتهم مع اقتراب غروب الشمس إلى الجسر الذي سيمرون عليه إلى الشرق ورءُوس القتلى مرفوعة على رءوس الرماح، وتابعت القوة سيرها حتى وصلت إلى المعسكر في رأس الماء(2).

وأرسل الأفضل كتاباً بخَبَرِ السرايا وما حققته من نصر إلى والده الذي كان ما يزال في بلاد الكرك، فأجابه بأنه قَرّر العودة، وطلب منه أن يتَحَرّى عن المرعى في رأس الماء وكفايته حتى يُقَرِّر عند عودته البقاء فيه أو الانتقال إلى موقع آخر، ووصل السّلْطان في أثـر الرسول، وأمَرَ بنقل المعسكر إلى موقع عشترا قرب دير أيوب بين نوى ونهر اليرموك إلى الجنوب الغربي من الشيخ مسكين حيث العشب والماء الوفير في المنطقة إلى الشرق من وادي علاّن على منابع وادي الحـرير(3) والموقع الأقرب إلى النهر. وهنا (يوم 15 ربيع الآخر/ 2 حزيران 1187 م) عَرَض صلاح الدين العسكر عند **تل تَسِيل**(3) إلى الشمال

(1) الفتح، ص 61 - 62؛ الروضتين، 2 ص 75 - 6؛ الكامل، 11 ص 530 - 531؛ زبدة الحلب، 3 ص 193 المرجع نفسه، ص 148؛ جان ريتشارد، المملكة اللاتينة، ص 175؛ صلاح الدين، ص 250.

(2) زار الأب W. Ewing المنطقة في آب سنة 1892 ووصف المكان والمنطقة حوله. انظر .PEFQ, 1895 PP. 181 ff.

(3) وصفه الأب المذكور بأنه تل يرتفع قليلاً عن المنطقة المحيطة وينحدر تدريجياً نحو سحم=

الغربي من عشترا عند أطراف المعسكر على الطريق إلى الجسر على وادي الرُقّاد الذي يؤدي إلى الجولان الجنوبي وعقبة فيق والنهر. وبلغ عدد القوات 12,000 فارس ممن له إقطاع وجامكيّة. ثم رتب السلطان الأطلاب و عبأها إلى قلب وميمنة وميسرة وجناحين وجاليشية (المقدمة) وساقة، وحَدَّد لكل أمير وطلب، من الخيالة والرّجّالة والعرب والتركمان مكانه المحدد في المسير والوقوف والتخييم. يذكر العماد:

«وقَرّ لكل أمير أَمْراً، ولكل مقْدَام مقاماً... ولكل كمينٍ مكاناً... وعَيّن لكل أمير موقعاً في الميمنة والميسرة لا ينتقل عنه ولا يبرح أحد منه، وأخرج الجالشية الرماة الكماة من كل طُلْب، وقال: إذا دخلنا بَلَد العَدُوّ فهذه هَيْئة عَساكِرنا، وصُورَة مَوارِدِنا ومَصَادِرنا، ومواضع أطلابنا... وقَوّى الآمال بما بذله من الأَمْوال... وجمع العَدَد وفَرّق العُدَد، ووهَبَ الجِيَاد... وقَسَمَ أحْمَال النَشّاب [فرّق 400 حمل]، فتفرق الناس منه بأكثر من ملء الجِعَاب... / ... وعاد إلى المخيّم مسروراً محبوراً...»[1].

وعرف صلاح الدين عند عودته من بلاد الكرك بالوفاق بين ريموند والملك غي. ويظهر ذلك من رسالة الفاضل إلى الملك العادل في مصر وأخرى إلى الامبراطور البيزنطي. ويرد في الأولى خبر المصالحة التي تمت. «وأن الإسلام لا ينزعج بمن يَتْرُك صفوفه، ولا يبتهج بمن يتحالف معه»، ذلك أنّ السلطان قَرّر أنه عندما يكتمل جمع القوات فإنه سيقوم بالهجوم، وربّما التقت راياته مع رايات العادل استجابة لدعوة الجهاد[2]. أمّا الثانية فكانت جواباً على طلب الامبراطور في تخليص أَخِيه الذي كان معتقلاً عند ريموند، وفيها أنّ السلطان توسط عند كونت طرابلس فوافق على إخلاء سبيله مقابل فدية من

= الجولان المرجع نفسه، ص 171.

(1) الفتح، ص 69 - 71؛ الكمل، 11 ص 532؛ الروضتين، 2 ص 76. وكان القاضي الفاضل غائباً عن حطين وتجهيزاتها، فحَرمنا من وصفه الشامل والدقيق للتطورات.

(2) صلاح الدين، ص !25 (من رسالة).

المال، وأن الكونت قد رجع إلى صفوف الملك، وأن السلطان جمع قواته، وهاجم قسم منها بلاد العدو، وإذا رغب الأمبراطور بحرب الصليبيين فإنه سيجد الدعم المناسب من المسلمين[1].

وفي يوم الجمعة (17 ربيع الآخر/ 26 حزيران 1187 م)، **تَيَمّناً بدعاء الخطباء في المساجد له والمسلمين في صلاتهم**، تحَرّك صلاح الدين مع كامل قواته على التعبئة المذكورة من عشترا باتجاه النَهْر، وتوقف بعد مسير مسافة 13 كيلومتراً في خُسْفِين، المحطة سابقاً على الطريق المؤدي من دمشق إلى عقبة فيق ونهر الأردن ومرج بن عامر وساحل فلسطين، حيث بات ليلته. وفي الصباح نزل مع القوات عقبة فيق إلى الأُقْحُوَانَة حيث خيم: «وأحاط ببحيرة طبريّة بحره المحيط، وضاق ببسَائِط خِيَامه ذلك البَسِيط». وأقام صلاح الدين هناك يومي الأحد والاثنين. وهنا ترك الأثقال وتوجه إلى كَفْر سَبَت على طرف «صحراء لُوبيَة» على بعد 13 كيلومتراً من مخيمه لارتياد موقع جديد لمخيّم القتال الأقرب، وقَطْع الاتصال بين طبرية ومعسكر قوات الملك التي تجمعت مَرّة أخرى استعداداً لقتاله[2].

وأمّا بالنسبة لاستعدادات الجانب الصليبي، فإنّه بعد اشتباك الأول من أيار 1187 م، تمت المصالحة بين الملك وحِزْبه والكونت ريموند صاحب طرابلس وطبرية بالنيابة، فقد غَلَّبَ الكونت مصلَحَة الوجود الصليبي، حسب قناعته، على مصالحه الخاصة وألْغَى الاتفاق بينه وبين صلاح الدين. بعد ذلك، أصدر الملك أَمراً بالتعبئة العامة لجميع قُوّات المملكة، وحَدّدَ عيون صفوريّة مكاناً للاجتماع لكل القوات كالعادة من جنده وجند كل البارونات في مملكته وغيرهم من القادرين على حمل السلاح من مشاة المدن، واستأجر خدمات بعض الفرسان والرجّالة بالمال لدعم قواته، ـــ وهو أمْرٌ مألوف في ذلك الوقت ـــ، وأرسلت إمارة أنطاكية وإمارة طرابلس بعض قواتها، وكذلك فعل

(1) المرجع نفسه، ص 251 (عن رسالة فاضلية).
(2)) الفتح، ص 73 - 74.

الداوية والاسبتارية. وبلغ مجموع القُوّة العسكرية التي تجمعت لدى غي في فترة قصيرة ما يقَارب 20 ألف مقاتل منهم: 1200 فارس كامل التسليح، وحوالي 4000 من السِّرجَنْديّة من رجّالة المدن، وعِدّة آلاف من الرجّالة لآخرين، وعِدّة آلاف أخرى من المرتزقة المحليين والفرسان التركبوليّة خفيفي التسليح، وكان العدد الكلي يُقارب عدد قوات صلاح الدين التي جمعها من كل المناطق الخاضعة لسلطته المباشرة والتابعة لنفوذه[1] عدا القُوّات من مصر التي بقيت مرابطة في منطقة الكرك والشوبك مدة ثم عادت بعد قليل إلى الجبهة الجنوبيّة من فلسطين لتكون جاهزة للتقدم من هناك حسب تطورات الحرب.

وفي اليوم الذي وَصَل فيه السلطان إلى الأقحوانه جمع أمراءه ومستشاريه في مجلس لتداول الرأي وتقرير أسلوب القتال، فأشار أكثر الأمراء:

«بترك اللقاء، وأن يُضْعِف الفرنج بشَنّ الغارات، وإخراب الولايات مَرّة بعد مَرّة، فقال له بعض أمرائه: الرأي عندي أن نجوس بلادهم وننهب ونحرق... **فإن الناس بالمشرق يلعنوننا ويقولون: تَرَكَ قتال الكفار وأقبل يريد قتال المسلمين. والرأي أن نفعل فعلاً نُعْذر فيه، ونكُفّ الألسنة عنا.** فقال صلاح الدين:

الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكُفّار، فإنّ الأمور لا تجري بحكم الإنسان... ولا ينبغي أنّ نفرق هذا الجمع إلاّ بعد الجَدّ والجهاد»[2].

ووافق الأمراء بعد تردد، ثم قَرّر استكشاف موقع الصليبيين في صَفّورية. يقول العماد:

«وكُنّا عزمنا قبل قَصد طبريّة، أن نلاقي الفرنج على صَفّوريّة في مركزهم ومجتمعهم، ونلابسهم في مُخيّمهم. فحين نزلنا من الثغر

---

(1) بلدوين، **انحلال وسقوط**، ص 609؛ **فرسان الداوية**، ص 148 - 149؛ براڤر، «حطين» في **المؤسسات الصليبية**» (بالانجليزية) ص 481 - 487.

(2) **الكامل**، 11 ص 532 - 533.

بالأقحوانه، وتمكَنّا من الله بالاستنجاد والاستعانة، رَكِبنا قبل قصد طبريّة إلى الفرنج في مجمعهم، وأشرفنا عليهم في موضعهم، فما برحوا مكاناً، ولا تحركوا برجالهم وفرسانهم... [عند ذلك]: **فارْتَدْنا في صحراء لوبية موضعاً للمصاف واسعاً، وفضاءً لمأزق الجمعين جامعاً، وبِتْنَا هناك بأطْلاَب الأبطال ميمنة وميسرة... وجئنا في خَوَاصِّنا والجانْدَارِيَّة، ونزلنا في العدة المُجَرّدة على طبرية»** [1] .

وفي صباح يوم الخميس 23 ربيع الثاني/ الأول من تموز سنة 1187، كان الوضع العام للجيشين كالتالي:

كانت قوات صلاح الدين في معسكرها في كفرسبت على طرف الأرض المستوية تقريباً التي اختيرت للمصاف، على تعبئة حسب أوامر السلطان، وقوات الصليبيين في معسكرها في صفورية حيث الماء الوفير. وكان يَفْصل بين الجيشين مسافة تزيد على ثلاثين كيلومتراً قليلاً ـ حَسَبَ الطريق الذي يُسْلك ـ فيها هضاب قليلة الارتفاع، وأودية فيها عيون وينابيع قليلة المياه خاصة في فصل الصيف. وكان الموقف في جبهة صلاح الدين مُشَجِّعاً، إذ كان أولاً في موقف هجوم نظراً لتقدمه إلى الجهة الغربيّة من النهر، إضافة إلى وفرة المياه في منطقته وقربها من معسكره، وتوفر التموين الغذائي والعسكري، وعدم وجود فرصة بقطع خطوط مواصلاته مع مخيّم الأثقال في الأقحوانه وخطوط تموينه من قبل العدو. أما الموقف في المعسكر الصليبي فقد كان مختلفاً بالرغم من تجميع أكبر قُوّة يمكن تجميعها في أي وقت نظراً لانقسام صفوفهم داخلياً، وتشتت آرائهم. وفي رأي أحد الباحثين كان على الملك غي تأجيل المواجهة الشاملة كما حدث سنة 1183 م في عين جالوت والفُولَة، وتجَنّب معركة حاسمة على أمل أن لا يتمكّن صلاح الدين، عن طريق المطاولة والتأجيل، من إبقاء جيشه المكون من فرق متعددة جاءت من أماكن متباعدة، مدة طويلة في ميدان الحرب، فيضطر إلى الانسحاب كما حصل في مرات سابقة. وهذا الرأي يستند

---

(1) من رسالة تعلم العماد الإصفهاني من السلطان إلى أخيه طغتكين باليمن: فتح، ص 194.

إلى الأقوال المنسُوبة إلى ريموند صاحب الخبرة الطويلة في قتال المسلمين، لكنه لا يأخذ بالحِسَاب تصميم صلاح الدين على المواجهة بأي ثمن كما ذكرنا. ومن ناحية أخرى فإنّ حَرارة فَصل الصيف الشديدة في هذه المنطقة شبه الجرداء التي تخلو من الأشجار، عدا الأعشاب، كان في صالح الصليبيين. لكنّ نجاح مثل هذه الخطّة كان يعتمد على قرار السلطان الذي كانوا يتوقعونه بعَدَم المجازفة في القتال الميداني والاكتفاء بالغارات التي تُخَرّب وتدمر وتحرق دون السيطرة والبقاء، مما سيؤدي إلى الانسحاب وتفريق الجند، وسيؤدي أيضاً إلى نهايته السياسية والعسكرية ومكانته في العالم الاسلامي في حال فشله في كسب معركة ضِدّ الصليبيين. أما الخيار الثاني أمام قادة جيش الملك فكان خيار المواجهة خاصّة بعد البلبلة السياسيّة وتبادل التهم التي انتشرت في المملكة بعد الفشل في المواجهة مع صلاح الدين قبل أربع سنوات. وهذا الخيار هو الذي تَبَنّاه الملك وحزبه والتزم به جميع القادة[1].

وهكذا فقد كانت قُوّة الجانبين متساوية، والنّصْر سيكون ـ نظرياً ـ إلى جانب الجيش الذي سيدفع الجيش الآخر إلى القتال في ظروف ميدانية مناسبة له، وفي إنهاكه قبل الوصول إلى ساحة المعركة بدفعه إلى التوجه نحوه قاطعاً المسافة في ظروف غير مناسبة وفي بيئة المنطقة المعروفة في الصيف.

وبادر صلاح الدين إلى تحريك الجمود الذي ساد الجبهة بداية، فأمر أُمراءه بالوقوف في مواجهة القوات الصليبيّة على تعبئة وأن يضايقوهم بالهجمات الخاطفة من قبل الرماة من على ظهور الخيل. وقامت فرق قليلة العدد بمناوشة المعسكر الصليبي في صَفّوريّة، لكن قواتهم نجحت بصدها وردها، ومع ذلك لم يتخذوا قراراً بالتقدم للمواجهة. أما هو فقد سار مع مماليكه إلى طبرية، وأخذ معه الفنيين المختصين من الجانداريّة والنقابين والخراسانيّة[2] والحجارين لحصار طبرية. يذكر العماد:

(1) انظر: بلدوين، انحلال وسقوط، ص 609 - 610؛ براڤر حطين، ص 487 - 488.

(2) الرجال المختصون بحفر الأنفاق تحت الأسوار تمهيداً لإحداث فجوة فيها للدخول منها.

«وعَلِمَ أنّهم إذا علموا بنزوله عليها، بَادَروا للوُصُول إليها، فحينئذٍ يتمكن من قتالهم، ويجهد في استئصالهم»[1].

ووصل صلاح الدين إلى أسوار المدينة، وبدأ الفنيون بحفر النقب تحت أحد الأبراج «فَهَدّوه وهدموه، وتسلقوا فيه وتسلموه»، واستولوا على المدينة، فالتجأت «القمصيّة (Countess)» وأبناؤها إلى القلعة على ساحل البحيرة التي تقع على تَلّة قليلة الارتفاع[2]، وأرسلت رسولاً إلى المعسكر في صَفّورية لإعلامهم بما وقع وتطلب النجدة[3]. ويقال أنّ ريموند جهّز لها قوارب في البحيرة للإبحار بها عند الضرورة القصوى إلى مكان أكثر أمناً في الشمال[4].

وأدّت مبادرة صلاح الدين المحسوبة إلى نزاع بين قادة قوات الملك ومن معه في كيفيّة التصرف، واختلاف كبير في الرأي بينهم في أسلوب مواجهة الوضع الذي استجد. وفي النهاية اتخذ الملك قراره الحاسم (صباح يوم الثالث من تموز) بالتقدم نحو طبريّة في طريق تَمُرّ عبر هضبة قليلة الارتفاع نسبياً فيها نتوءات صخرية وأودية ومجاري سيول قليلة العمق. وكان يحيط بالهضبة الجرداء من الشمال والشرق سلسلة من التلال على شكل قوس، سفوحها الشمالية الشرقية تنحدر مباشرة، وبصورة مفاجئة، من مستوى الهضبة (سهل البطوف حالياً) إلى بحيرة طبرية. وهكذا فإن هذه التلال التي تبدو من الغرب والجنوب قليلة الارتفاع كانت تنحدر فجأة قُرْب مدينة طبرية. وكان واضحاً من البداية أن أية مواجهة ستقع بين الجانبين ستكون في المنطقة بين صفوريّة إلى الجنوب والغرب من هذه التلال أو بين جسر الصِنبرة والناصرة. فهذه المناطق هي التي تمر فيها شبكة الطرق المسلوكة بين الساحل ونهر الأردن في هذا الجزء من الجليل الأدنى وبلاد عكا[5].

(1) الروضتين، 2 ص 76.
(2) الفتح، ص 76.
(3) إرجع إلى كتاب حطين.
(4) أيضاً.
(5) بلدوين، انحلال وسقوط، ص 610؛ برافر، حطين، ص 481 - 487؛ صلاح الدين، ص 290.

وعقد الملك في (يوم 2 تموز وليلة 3 منه) مجلس حرب لمناقشة التطورات في طبرية وخطّة القتال إنْ تَقَرّر. وتختلف الروايات حول النقاش الذي دار في الاجتماع حول «مساعدة طبرية» وسيدتها، خاصة آراء ريموند التي كانت موضع شك كبير من حزب الملك خاصة مُقَدّم الدَّاوِيّة الكبير وأرناط:

كان رأي ريموند معارضاً للهجوم، واستند في ذلك إلى خبرته الطويلة في حرب المسلمين في بلاد الشام، وكانت حُجّته: أن من يستطيع تأمين المياه لجنده وخيله في شهر تموز شديد الحرارة في منطقة شبه غوريّة تكون له الأولوية في القتال، وإن وضع كل من المعسكرين الإسلامي والصليبي كان مناسباً من حيث توفر الماء والتموين، أمّا إذا تحرك الصليبيون نحو الشرق فسوف تنقطع عنهم موارد المياه المناسبة والقريبة، لأن السير باتجاه قوات صلاح الدين سيكون في منطقة قليلة الينابيع جافة الأعشاب. أما حُجّته الثانية فتعلقت بتركيبة جيش صلاح الدين وأسلوب تمويله الذي يعتمد البعض منه على إقطاعات بعيدة في الموصل وديار بكر وشمال الشام، مما لا يُساعد على بقاء كل القُوّات مُدّة طويلة في ميدان القتال. وبدا في الاجتماع أنّ قادة الصليبيين وافقوا على هذا الرأي، لكن عندما وصلت أخبار سقوط طبرية بيد صلاح الدين، ومحاصرة السلطان لصاحبتها في القلعة (2 تموز)، حدث تغيّر في الرأي واختلاف[1]. واستَقَرّ رأي الملك في النهاية (ليلة 3 تموز) على إعلان التقدم نحو طبرية لتخليصها، وقتال قوات صلاح الدين التي تَعْتَرِض الطريق، إذ نَجَح أعداء ريموند ومؤيدوه في تغيير موقف الملك في تلك الليلة[2]. وفي فجر يوم الثالث من تموز صدر أمر الملك إلى القوات بالاستعداد والتقدم[3]. ووصل الخبر بذلك إلى صلاح الدين في طبريّة، فقال:

«قَدْ حَصَل المَطْلُوب، وكمل المَخْطُوب، وجَاءَنا ما نريد. وإذا

(1) تركز الخلاف حول مساعدة صاحبة طبرية أم لا، وتَغيّر موقف ريموند العام أم لا.

(2) مُقدّم الداوية جيرار وأرناط صاحب الكرك ـ الشوبك.

(3) فرسان الداوية، ص 149؛ بلدوين، **انحلال وسقوط**، ص 610 - 611، براقر، 487 - 488.

صَحّت كسرتهم، وقُتِلَت وأُسِرَت أسرتهم فطبريّة وجميع السّاحل ما دونها مانع، ولا عن فتحها وازع»[1].

وفي فجر يوم الجمعة 3 تموز 1187 م (24 ربيع الآخر 584 هـ) صَدَر أمر الملك غي إلى الفرسان بالتقدم. وأثار هذا القرار دَهْشَتَهم وبقية الجند، وتوسلوا إليه أن يعيد النظر في قراره. لكنّ الملك، الذي لم يُقَدّم تفسيراً مقبولاً لقراره، أصَرَّ على أوامره، فأطاع الفرسان وبقيّة الجيش الأمر، وبدأوا الاستعداد للمسير. وقبل طلوع الشمس، تَحَركت القوات الصليبيّة في ثلاث مجموعات على تعبئة: الطليعة وكان يُقُودها ريموند لأن طريق سير الجيش كان في المناطق الخاضعة لزوجة إشيڤا (Echiva) المُحَاصَرة، والقلب بقيادة الملك، والمؤخرة بقيادة باليان بن بارزان ومعه مقدما الدَّاوِية والاسبتاريّة الكبار[2].

وأمّا الموقف في معسكر صلاح الدين تلك الليلة. فقد باتت القُوّات على تعبئة، «فَرَتّب السلطان (بعد عودته من طبريّة) في مقابلتهم أطلابه، وحصل بعسكره قُدّامهم، ورقب في الحملة إقدامهم، وحجز بينهم وبين الماء. . .»[3]. وفي الصباح وقَفَت القوات مستعدة على تعبئة: السلطان بقوّاته في القلب، وتقي الدين عمر في الميمنة وكوكبوري على الميسرة، وبقية العساكر في الجناحين[4]، وتقدموا من كفر سبت على هذا الترتيب إلى قُرُون حطين وانتشروا على شكل قوس كبير بين التلتين وحولهما على جانبي الطريق المؤدية إلى قرية حطين. ووزّع على الرماة النشاب، «ووقف سبعين جمازة (ناقة حمل) في حومة الوغى يأخذ منها من خلت جعابه، وفرغ نشابه»[5].

وكان من عادة قوات الصليبيين في سيرها أن تجعل الفرسان الكاملي

---

(1) الفتح، ص 77.

(2) بلدوين، انحلال وسقوط، ص 612؛ براڤر، حطين، ص 491 - 492.

(3) الفتح، ص 78؛ الروضتين، 2 ص 76.

(4) من تقرير بعث به عبد الله بن أحمد المقدسي الذي كان حاضراً المعركة إلى المؤرخ القادسي البغدادي، الذي ألف ذيلاً على المنتظم لابن الجوزي، الروضتين، 2 ص 81 - 82.

(5) الروضتين، 2 ص 76 - 77.

التسليح في الوسط لحمايتهم من الرّماة الأتراك، ويحيط بهم الرجّالة من الرّماة ووحدة (أو وحدات حسب الظروف) من فرسان التركُبُولية - وهم رماة يُحاربون مثل الأتراك من على ظهور خيولهم -، لأنّ الفرسان المدرعين كانوا عُرْضَة أثناء الحركة أو القتال لرماة المسلمين الراكبين والمتحركين الذين كانوا يستطيعون الرماية من بعيد دون التعرض لسهام رماة الصليبيين وحراب الرجّالة[1]. وأدى هذا الترتيب بالضرورة إلى بطء حركة الجيش لأن الفرسان اضطروا إلى مواكبة حركة المشاة البطيئة. يضاف إلى ذلك أن بطء الحركة في الحَرّ في الصيف يدفع إلى استهلاك الماء المحمول بسرعة.

وفي الوقت الذي تَقدّمت فيه قوات الصليبيين على التعبئة المذكورة، بدأت طلائع الرّماة من قوات صلاح الدين، وفرق أخرى، بمناوشتهم باستمرار بهجمات سريعة من الرماة الراكبين. وأثناء تقدم الجيش نحو الشرق هُوجِم من التلال الشرقيّة والشمالية، لكنه حافظ على تعبئته واستمرار حركته البطيئة. ومع ذلك فقد أصيب الكثير من خيل فرسان الصليبيين في المقدمة والقلب (التركبوليّة) والمؤخرة نتيجة تكرار الهجمات السريعة وعن قرب لكن بعيداً عن مدى الأسلحة الصليبيّة المؤثرة، ثم التراجع والعودة للهجوم من جديد بعد التزود بالنبال. ومع مرور ساعات ذلك اليوم البطيء كانت تزداد حرارة شمس شهر تموز، «طَبّاخ العنب والتين» كما يقول المثل في بلاد الشام الجنوبيّة، فيزداد عطش القوات ويستهلك العسكر ما بقي لديهم من ماء على أمل التزود بسرعة من جديد.

سار الجيش الصليبي الكبير من صَفورية عن طريق وادي الرُمَّان، حيث كان يحميهم من الشمال جبل طُرْعَان الذي يرتفع بين 200 - 300 م عن مستوى بطن الوادي. وبعد سَيْر بطيء لمدة خمس أو ست ساعات [أي حوالي الساعة العاشرة صباحاً] مَرّ الجيش قريباً من قرية (كفر) طُرْعَان الحالية، التي تقع إلى الشمال الشرقي من الناصرة على بعد 13 كم بين تلال السهل والجبل المذكور

---

(1) صلاح الدين، ص 255 - 256.

حيث كان يوجد فيها نبع ماء مناسب. لكنّ وصول القُوّات إلى الماء مع إحاطة قوات صلاح الدين بهم كان مستحيلاً: فإلى الجنوب الشرقي منها كفر سبت، وإلى الأمام لوبية حيث الموقع الذي اختاره السلطان ميداناً للمعركة، وإلى الشمال الشرقي نِمْرِين وحِطِّين، وكلها مواقِع كانت تحتلها القوات الصلاحيّة المستعدة. فلم يكن أمام الجيش الصليبي إلاّ متابعة سيره دون توقف في الطريق المؤدية إلى نمرين وحطين. وكان ما قطعه الجيش الصليبي من مسافة حتى ذلك الوقت حوالي 12 كيلومتراً.

وحوالي ظهر ذلك اليوم، الجمعة 3 تموز، أمر ريموند، قائد الطليعة قُوّاته بالتوقف، لأن هجوم رُماة المسلمين المستمر أعاق تَقَدّم القلب والمؤخرة، فتوقفوا حتى وصلت بقيّة القُوّات. وكان المكان الذي توقف فيه الجيش عند مفترق الطرق المؤدية إلى لوبية في الشرق ومسكنة في الشمال الشرقي والأقرب إلى المفترق المذكور، أي أكثر من منتصف المسافة بين صفورية وطبريّة[1].

كان قد بقي مسافة قصيرة قبل الوصول إلى طبرية حيث الماء العذب الكثير. لكن لما رأى قائد الطليعة، الخبير بالمنطقة أكثر من غيره، أن لا أمل بقطع المسافة المتبقية إلى الماء على الطريق العادي في ظروف ذلك اليوم من تعب القوات وعطشها وخلو المنطقة من المياه المناسبة وإحاطة قوات صلاح الدين بها من ثلاث جهات، اتخذ قراراً بتعديل خط السير المتفق عليه: فبدلاً من متابعة السير إلى كفر سبت والدوران حول قرون حطين ثم التوجه إلى طبرية، توجّه مع بقيّة القوات في الطريق التي تؤدي إلى مَسْكَنة ثم قرية حطين ذات النبع الغزير. وقد وصف المؤرخ اللاتيني هرقل (Eracles) وضع الجيش الصليبي في تلك الساعة:

«لم يكن هناك ماء على الإطلاق حيث توقف الجيش، ولذلك فإنّ نَصْبَ الخيام في هذه البقعة (من الأرض) كان مستحيلاً. لكن كان هناك وراء الجبل [قرون حطين]، إلى الشمال منه وليس بعيداً عنه، قرية تدعى

(1) براڤر، حطين، ص 492 - 493.

حِطّين حيث يوجد الكثير من الماء من الينابيع فيها. هناك كان يمكن تمضية الليلة، ثم متابعة السير في اليوم التالي»[1].

ورفض بقيّة القادة والجيش العطشان رأي ريموند بالتوقف، وطالبوا الملك بمهاجمة قُوّات صلاح الدين في معسكرهم الميداني حيث اعتقدوا أنّ بإمكانهم التغلب عليهم وخرق صفوفهم ومتابعة السير إلى طبريّة، لكنّ الملك ـ على غير المتوقع ـ أخذ برأي ريموند، وبدأ الجيش حركته البطيئة نحن جبل طرعان حيث تقع تلال جبل نمرين وقرية نمرين إلى يَسارهم وقرية حطين إلى الشمال الشرقي من القرون في واد صغير على منحدر قرون حطين الشمالية الشرقيّة.

وعندما بدأ الجيش الصليبي بالسير نحو قرون حطين، أخذت تشكيلاته بالتفكك، إذ اندفع الفرسان بخيولهم للوصول إلى الماء بسرعة، تاركين دِرعَهم من الرّماة وراءهم[2].

وكانت قوات صلاح الدين في ذات الوقت، تقوم بهجمات متكررة، وتراقب حركة الجيش الصليبي باستمرار ودقة ليتخذ القادة القرارات التي يجدونها مناسبة لمواجهة كل طارىء. فعند توقف الجيش المعادي عند مفترق الطرق طلب صلاح الدين من قيادة الميمنة ـ تقي الدين عمر ـ بالمسير وسَدّ الطريق الذي يؤدي إلى المياه الغزيرة الوحيدة في حطين، فقام تقي الدين بما طلب منه، ورتب أطلابه على التلال المشرفة على الينابيع. يذكر العماد:

«فَرَتّبَ السلطان في مقابلتهم أطلابه، وحَصَل عسكره قُدّامهم، ورَقَبَ في الحملة إقدامهم، وَحَجز بينهم وبين الماء... واليوم قَيْض، وللقوم [الجيش المقابل] غَيْض، وقد وقَدَت الهاجرة فَوقْدَتها غير هاجرة؛ وشَرِبَتْ [قوات الصليبيين] ما في أدَواتها [مطرات الماء] فهي على الظمأ غير صابرة»[3].

---

(1) في براڤر، المرجع نفسه، ص 493.

(2) المرجع نفسه، ص 493 - 495.

(3) الفتح، ص 78، الروضتين (العماد)، ص 76؛ الكامل، 11 ص 534.

وفي هذا الظرف الذي كان يواجه جيش غي، تَعَرّضت مؤخرته لهجوم شديد من رُماة صلاح الدين الخيالة، وقاوم فرسان الداوية والاستبارية الهجوم وردوا المهاجمين، ثم حاولوا القيام بهجوم معاكس فلم يحالفهم النجاح. عند ذلك اندفع الجيش الصليبي نحو التلال القريبة إلى يساره، وأمرهم الملك بنصب الخيم حيث وصلوا. وهاجمت قوات صلاح الدين الصليبيين أثناء إقامة المخيّم دون توقف حتى حَلّ الظلام فتراجعوا إلى مواقعهم القريبة (1).

وبقي الجيشان ليلة السبت الرابع من تموز 1187 م في حالة قلق وتَرَقّب. فجيش الصليبيين كان مُرْهَقاً ومنهكاً من السير البطيء المتواصل والحر الشَّدِيد وقلّة الماء وهجمات الرُّماة من جيش السلطان. أما جيش صلاح الدين فقد أعاد السلطان ترتيب صفوفه: فالميمنة بقيادة تقي الدين بقيت في موقعها عند قرون حطين وسَدّت المَمرّ المؤدي إلى القرية وانتشرت على التلال بين حطين وقرية نمرين. أما بقية الجيش الصلاحي: القلب بقيادة السلطان والميسرة بقيادة كوكبري، فقد أكمل تطويق الجيش من جهة الشرق والجنوب. وكان الجيشان في هذا الموقع أثناء الليل قريبين من بعضهما جداً إلى درجة قال فيها أحد مؤرخي اللاتين في المعسكر، أنّه كان يمكن للجُنْد من الجانبين التحدّث مع بعضهما البعض (2).

وأمضى القائد صلاح الدين الليلة ساهراً. يذكر العماد أيضاً:

«سَهِر السلطان تلك الليلة حتى عَيّن الجاليشيّة من كُلّ طلب، وملأ جعابها وكنَائِنَها بالنُّبّال وكان ما فَرّقه من النشّاب أربعمائة حمل، ووقف سبعين جمازة (3) في حومة الوغى، يأخذ منها من خَلَت جعابه وفَرَغ نشابه... والسلطان يمضي بنفسه على الصفوف ويحضهم ويعدهم من الله بنصره المألوف» (4).

(1) الفتح، ص 196 من رسالة للعماد، انظر أيضاً الروضتين، 2 ص 77؛ الكمل، 11 ص 535 - 534.

(2) في براڤر، حطين، ص 496.

(3) الجَمّـازة الناقة السريعة المحملة بالنشاب.

(4) البرق الشامي في الروضتين، 2 ص 76 - 77.

وأما ابن الأثير فيلخص معنويات المعسكر الصلاحي:

«وأمّا المسلمون فقد طمعوا فيهم وكانوا قبل يخافونهم، فباتوا يحرضون بعضهم بعضاً، فأكثروا من التهليل والتكبير»[1].

وفي بكرة صباح يوم السبت الحاسم 4 تموز كان جيش صلاح الدين على تعبئته المتقدمة الذكر، وبَدَأ رمي النشاب على الجيش الصليبي المُتْعَب الذي بدأ التحرك بتشكيل متماسك نحو المياه في قرية حطين. وهنا بدأ هجوم صلاح الدين على مؤخرتهم المكونة من فرسان الداوية والاسبتاريّة، ولم تتمكن بقية القوات في المقدمة والقلب من مساعدتهم، ذلك أنهم توجهوا نحو الأرض المرتفعة بين قرية نمرين وقرون حطين (حوالي التاسعة صباحاً) بعدما كثرت الإصابات بينهم. واستمر هجوم قلب قوات صلاح الدين وميسرته على القوة الصليبيّة الرئيسيّة فأدى إلى إضعاف تماسكها فانفصلت قوة الفرسان عن قُوّة الرجّالة، وصارت قُوّة الفرسان المُدَرَّعَة عُرضَة لنِبَال الرماة الماهرين في جيش صلاح الدين الذين ركزوا سهامهم نحو خيول الفُرسان. ويعلق العماد على هذه الحال:

«ومن عجائب هذه الوقعة... أنّ فَارِسَهم ما دام فرسه سالماً لم يذل للصرعة، فإنه من لبسه الزَّرَدِيّ من قَرْنه إلى قَدَم كان كأنه قَطْعَةٌ من حديد، ودِرَاك الضَّرب إليه غير مُفِيد، لكنّ فرسه إذا هلك فُرِس ومُلِك، فلم يُغْنَم من خيلهم ودوابهم، وكانت ألوفاً، ما هو سالم، وما تَرَجّل إلاّ والطعن لركوبه كالم، وغُنم ما لا يُحْصَر من بيض مكنوز وزغف موضون...»[2].

في هذا الوقت، أمَر الملك غي بإعادة نصب الخيم على أمل إعادة تجميع القوات المتفرقة، وإعادة تنظيم صفوفه من جديد، لكنّ العمليّة لم تتم، ولم يُنصب إلاّ خَيْمة الملك، وتَحَوّل المُعَسْكر الصليبي إلى حالة

(1) الكامل، 11 ص 534، ويبدو أنه يلخص البرق الشامي: أنظر الروضتين، 2 ص 77.
(2) الروضتين (عن البرق الشامي) ص 78.

من الفوضى تفرق فيها الفرسان والرجّالة على التلال القريبة من الخيمة. وعند ذلك اشتد هجوم القُوّات الصلاحيّة لكنها كانت تُصَد في كل مَرّة. ثم بدأ المتطوعة في الجيش الصلاحي بحرق الأعشاب الجافة القريبة من تجمعات الصليبيين، وكانت الريح مؤاتية، فأحاطت النيران والدخان بهم من كل جانب مما زاد في عطشهم واضطراب صفوفهم حتى تمكنت قوات صلاح الدين من حصر هذا القسم الرئيسي من القوات في منطقة ضيقة، وصاروا هدفاً سهلاً للرُّماة[1].

وعندما شاهد ريموند ـ وكان معه باليان ـ، صاحب الخبرة الطويلة في الحرب ما آل إليه وضع الجيش، أدرك أن كل شيء على وشك الانهيار، فقام بمحاولة جريئة لزعزعة تقي الدين وقواته المتمركزة عند مدخل الممر المؤدي إلى قرية حطين وبالتالي مدينة طبرية لفتح الطريق أمَام بقيّة قوات الملك التي كانت على وشك الانهيار التام؛ فاندفع مع باليان وقواتهما باتجاه قوات تقي الدين كتلةً متراصّة ومُسْرعَة من الخيل والفرسان المدرعين. لكنّ تقي الدين كان متيقظاً، فلجأ إلى تكتيك كان معروفاً في الحرب لدى المسلمين، إذ أمر قُوّاته بفتح فجوة بين الصفوف تسمح لريموند وباليان ومن معهما بالاندفاع دون مقاومة والمرور بسلام. فاندفعت قوات الكونتين دون أن يتصدى لها أحد بين الصفوف، ثم التأمت صفوف الميمنة من جديد بحيث لم يعد بالإمكان عودتهما[2]. ومن هنا كان اتهام ريموند بالخيانة والهرب بقُوّاته سالماً، وكذلك باليان. وفقد الجيش الصليبي طليعته التي تابعت سيرها باتجاه صفد ثُمّ طرابلس (ريموند) وصُور (باليان).

وأدى هذا التطور إلى انهيار المعنويات لدى بقيّة قوات الملك وفرسان

---

(1) الفتح، 79 - 80؛ الروضتين، 2 ص 77 - 78؛ الكامل، 11 ص 535 - 536؛ براقر، حطين، ص 495 - 496.

(2) الفتح، ص 79؛ براقر، حطين، ص 498.

الداوية والاسبتارية. وبدأت الساعات الحاسمة الأخيرة، وأخذ بعض الرجّالة والفرسان بالاستسلام، ثم انهارت تشكيلات الرجالة كلياً وبدأت بتسلق التلال القريبة طلباً للنجاة. أمّا بقية القوات فاستمرت في القتال، وقُتل منهم أعداد كبيرة، وثبت الباقي على التل الذي ترتفع فوقه خيمة الملك. ثم قاموا من هذا الموقع بصَدّ هجومين متتالين لقوات صلاح الدين ويذكر ابن الأثير هذه اللحظات الأخيرة من المعركة عَمَّن حكى له عن الأمير الشاب الأفضل ابن صلاح الدين الذي كان إلى جانب والده يرقب التطورات:

«قال: كنت إلى جانب أبي في ذلك المصَافّ، وهو أول مصاف شاهدته، فلمّا صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة، حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى الحقوهم بوالِدي.

قال: فنظرت إليه وقد عَلَتْهُ كآبة وارْبَدّ لونه، وأمْسَك لحيته، وتَقَدّم وهو يصيح: كذب الشيطان.

قال: فعاد المسلمون على الفرنج، فرجعوا فصعدوا التل. فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم، صحت من فرحي: هزمناهم. فعاد الفرنج، فحملوا حملة ثانية مثل الأولى حتى ألحقوا المسلمين بوالدي، وفعل مثل ما فعلوا أولاً، وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتَلّ، فصحت أنا أيضاً: هزمناهم.

فالتفت إليّ والدي، وقال: أسْكُت. ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة.

قال: فهو يقول لي، إذ سقطت الخيمة، فنزلَ السلطان، وسجد شكراً لله تعالى، وبكى من فرحه»[1].

لقد حُسِمَت المعركة، واستولى المسلمون على خيمة الملك وصليب الصلبوت، وأسروا الملك والأمراء وكبار رجال دولته ومُقَدّم الداوية وغيرهم عدد كبير[2].

---

(1) الكامل، 11 ص 536.

(2) للتفاصيل: انظر الروضتين، 2 ص 77 - 82؛ فرسان الداوية، ص 151، سميل، الحروب=

وكانت خسائر الصليبيين في معركة حطين الحاسمة من قتلى كبيرة بكل المعايير في ذلك الوقت. وبالرغم من عدم توفر أرقام دقيقة عن القتلى والأسرى، فإن المصادر تتفق أنها كانت بالآلاف خاصة بين الرجّالة والفرسان. ويتضح من الروايات المعاصرة أنّ قِلّة من الجيش، إضافة إلى من كان مع ريموند وباليان، نجوا من الأسر.

ماذا كان مصير الأسرى؟.

سجن الملك غي في دمشق حتى يمكن الاستفادة منه في مستقبل العمليات التي قادها صلاح الدين كما سنرى، خاصة في استسلام مدينة عسقلان الحصينة. وكان معه من كبار الأسرى أخوه وهنفري وصاحب جبيل ومُقَدّم الداوية الكبير. وربما أفتُدِيَ هؤلاء فيما بعد بالمال أو بأسرى كبار لدى الصليبيين في المناطق التي بقيت في أيديهم. أمّا أرناط، صاحب الكرك والشوبك فقد قَتَلَه السلطان بعد يومين من المعركة وفاءً بنذرٍ كان قد قطعه على نفسه بعد مرضه في حَرّان أثناء حملته الأخيرة على الجزيرة الفراتية، لنكثه وغدره وتعرضه للشريان الحيوي للحاج والتجارة وغزوته إلى جهات المدينة المنورة. ويروي العماد، الذي تَحَرّى عن هذه القضيّة، أن القاضي الفاضل قال له «ما معناه» أثناء فترة النقاهة: «قد أيقظك الله وما يعيذك من هذا السوء سواه، فانذر أنّك إذا أبللت من هذا المرض، **تقوم بكل ما لله من المفترض، وأنّك لا تقاتل من المسلمين أحداً أبداً**. وتكون في أعداء الله مجتهداً، وأنّه إذا نَصَرك الله في المعترك، وظفرت بالقُمص وابرنس الكرك، تتقرب إلى الله بإراقة دَمِهِما، فما يتم وجود النّصْر إلاّ بعدهما، **فأعطاه يده على هذا النذر**...»، وأنه بعدما عرض السلطان عسكره في عشترا، «ركب يوماً في عسكره وعزم على... دخول السَّاحل... فبدأ بلقاء الطلعة المباركة من الأجل الفاضِل، فقال له: **ليكن نذرك على ذكرك**...»[1].

= الصليبية [E] ص 196 - 197؛ براڤر، حطين، 499 - 500؛ بلدوين، انحلال وسقوط، ص 613 - 614؛ صلاح الدين، ص 263 - 264.

(1) الروضتين، 2 ص 80. ومات ريموند، حسب الرواية، فجأة فيما بعد في طرابلس. وقد توفي=

وأمّا مقدما الدّاوية والاسبتاريّة الكبار فقد قتلا كما ذكر ابن شَدّاد[1] لكن الحقيقة أن السلطان أبقى على مُقَدّم الداوية للاستفادة منه في تسليم حصون الهيئة في المستقبل. وقُتِل أيضاً كُلّ من أُسِر من هاتين الجماعتين. فالذين أسروا من قبل رجال السلطان قتلوا في حطين، كما أرسل صلاح الدين إلى دمشق يأمر بقتلهم جميعاً. وأعلن «لكل من يأتيه بأسير منهما من الدنانير الحُمْر خمسين، فأتوه في الحال بمئين. . .»، فقتلوا، بعد عرض الإسلام عليهم أولاً ورفضهم، وكان الدافع إلى ذلك المعاملة بالمثل طوال الفترة السابقة ومنذ تأسيس هاتين الجماعتين. يذكر العماد:

«فما جرت عادتهما بالمُفَاوَاةِ، ولا يقلعان عن المعاداة، ولا يخدمان في الأسر. . .»[2].

وأمّا بقيّة الأسرى فأخذوا غنيمة كل لمن أسره، ويروي عبد الله بن أحمد المقدسي في كُتبٍ كان يبعثها من الميدان إلى المؤرخ القادسي في بغداد، أنّ الأسرى بيعوا في دمشق، ووصل ثمن الأسير لكثرتهم إلى ثلاثة دنانير، وأنه «. . . بيعَ بحضوري رجل وامرأته وخمسة أولاد: ثلاث بنين وابنتان، بثمانين ديناراً»، وأنّ عسكر صلاح الدين ومن معه قد «استغنى. . . من الأسْرَى والأموال والغنائم»[3].

وهكذا فقد قُضي في هذه المعركة على معظم القوة العسكرية الأساسيّة لمملكة القدس اللاتينية. وتمكن صلاح الدين بعد أقل من سنة من وقوعها من استعادة كل فلسطين الحالية وبلاد الكرك والشوبك. وبقيت صور التي كانت تحصيناتها من المناعة بحيث لم يتمكن من الاستيلاء عليها، وصارت بعد المعركة مركز التجمع الجديد للصليبيين الذين خرجوا من البلاد والمعاقل التي

= أواخر سنة 1187 م. رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، 2 ص 469 وهامش 2 ص 470 لمصادر وفاته.

(1) النوادر، ص 77.

(2) البرق الشامي في الروضتين، 2 ص 79.

(3) الروضتين، 2 ص 82.

استولى عليها المسلمون، وصارت نقطة انطلاق الهجوم المضاد، خاصّة وأن الغرب الأوروبي سارع إلى تعويض الخسائر المادية والبشرية، بإرسال حملات جديدة إلى فلسطين بأعداد كبيرة، وأعادت الداويّة والاسبتاريّة أيضاً بعض القوة التي كانت لديها، نظراً لتنظيمها الدقيق وانتشار بيوتها في كل أنحاء أوروبا وكثرة الإقطاعات الممنوحة لها هناك. وسنعالج مما سبق ذكره بعض ما له علاقة بصلاح الدين فيما بعد، أما الآن فنعود إلى كيفيّة تحقيق صلاح الدين للهدف الأكبر الذي كانت حِطّين مفتاحه: القُدس الشريف والطريق السريع الموصل إليه.

12 الطريق إلى القدس

«والصخرة المُقَدّسة الآن بنا تَصْرَخ وتَسْتَغِيث، وعَبادُ الله الصالحين قد وَصَلت إليهم بوعد الله الصادق المواريث، والبشَارَة بفتح القُدس لا تتَأخَّر، والهِمَم بعد هذا الفتح السني على ذلك تَتَوفّر» من كتاب بشارة بعد حطين. الروضتين، 2 ص 87.

كانت معركة حطين حاسمة لكن بنوع من الحسم المتفرّد الذي ناسبَ الظروف السياسيّة والعسكريّة في المنطقة في ذلك الوقت. فالمعارك الحاسمة، في تقديري، تكون نهاية لسلسلة عمليات عسكرية وخاتمة لها؛ وما يبقى بعد ذلك يكون استكمالاً سهلاً لها. لكنّ حطين كانت حاسمة بنوع خاص من الحسم:

فالعمليات العسكريّة بين المسلمين والصليبيين، منذ قيام الإمارات الصليبيّة في المنطقة، كانت في أغلبها غارات، ومعارك أقرب إلى الغارات، أملتها الظروف الآنية الميدانية؛ أمّا حِطّين فقد كان لها تخطيط مسبق من قبل صلاح الدين، وتَوَقُّع لذلك الحدث من قبل الصليبيين، واجتماع لكل القُوّة العسكرية المتوافرة لكل منهما، فكانت معركة شاملة لكل قوى الجانبين، وما وراء هذه القوى من أوضاع داخلية ونظم ومؤسسات وموارد ماديّة وبشرية وتقنِيّة في كل المجالات.

والمعركة «الشاملة» لكل الموارد لدى الجانبين، أمْرٌ كان طَرَفا الصراع يتَجَنَّبَانِه في الفترات السابقة خَاصة مملكة القدس اللاتينية، كبرى الإمارات التي

أقامها الصليبيون في المنطقة وأكثرها قُوّة وتنظيماً. ويرجع الخوف من المواجهة الشاملة في معركة واحدة إلى السبب الذي يُنسب إلى ريموند الثالث حين قال ليلة اتخاذ القرار بالتقدم من صَفُّوريّة أن الخَسَارة فيها ستكون النهاية التدريجيّة لكل ما بناه الصليبيون في بلاد الشام:

«. . . وإن كَسَرَكم [صلاح الدين] مَرَّةً فلا يَصِحُّ لكم الجَبْرُ».

كانت حطين حاسمة بهذا المعنى الذي وضَعَه العماد الإصفهاني ـ سواءً أكان حقيقة أم تصوراً ـ في فم ريموند الثالث الفارس المُجَرّب والسياسي الخبير بشؤون المملكة اللاّتينية، ذلك أنها كانت كَسْراً كبيراً، وشكّلت شرخاً كبيراً في الوجود الاستيطاني في ساحل الشام وبعض داخله لم يَلْتَئِم ولم يَنْجَبِرْ، بل ظَلّ نازِفاً بالرغم من كل الجهود التي بذلتها أوروبا والأموال الكثيرة التي جُمِعَت وصُرِفت من أجل إحيائه واستمراره.

ومثلت حطين بنتيجتها بداية حرب استنزاف بين الجانبين الصليبي ـ الأوروبي من جهة والإسلامي من جهة أخرى؛ حرب امتدت أكثر من قرن بسنوات على السّاحل الشامي حتى حُسِمَت نهائياً هناك، وأطول من ذلك بكثير بعد ذلك. وقد مَرَّت هذه الحرب بعدّة مراحل في تطورها تراوحت بين الشِدّةِ التي امتدت سنوات وبين التراجع الذي امتد أيضاً سنوات وسنوات، جاءت فيها حملات كبيرة أو صغيرة، تبعاً لظروف المنطقة التي قامت فيها الدولة الأيوبية ووريثتها دولة المماليك ودول أوروبا وعلاقاتها مع دول المنطقة هنا، وعلاقة دول المنطقة مع بعضها ودول أوروبا مع بعضها أيضاً.

ويهمنا من حرب الاستنزاف الطويلة هذه، المرحلة الأولى منها، وهي التي لها علاقة بصلاح الدين. وتمثلت هذه المرحلة بفترتين: فترة استفاد فيها صلاح الدين من قضائه على القوة العسكريّة للمملكة الصليبيّة، بقيامة باستعادة أكثر ما يمكن استعادته من بلاد كانت تخضع لسيطرة المملكة والإمارات الأخرى غَرْب حفرة الانهدام، قبل وصول الإمدادات والعون الكثيف والحملات من أوروبا التي فُجِعَت بالقضاء على القسم الأكبر من قوة «مستوطنتها» يوم حطين؛

وأمّا الفترة الثانية فكانت الحرب الطويلة التي جَمَّدت صلاح الدين وقُوّاته ـ وأحياناً قُوات حلفائه ـ مُدّة ثلاث سنوات في الميدان، وفي العراء على الأغلب، صَيْفاً وشِتَاءً، وربيعاً وخريفاً، واختبرت حقيقة معدن الرجل القائد وصَبْرِه على التعب والمرض وقوة تحمل أعصابه في ظروف صعبة متقلّبة باستمرار. ولم تكن قُوَّاته أو قوّات حلفائه وقادتها قد تعوّدوا على مثل هذه الظروف. كما استنزفت هذه الحرب قدراته المالية وبلاد الشام كلها طول فترة الحرب وما رافقها من مصاريف وخَرَاب، بحيث كانت خزائنه عندما توفي خاوية تماماً.

في بداية الفترة الأولى من هذه المرحلة كانت الطريق أمام صلاح الدين سهلة نسبياً. فقد كان لديه ورقة رابحة استثمرها بصورة مناسبة وإلى الدرجة الممكنة. وتمثلت هذه الورقة بناحيتين: الناحية الأولى ضعف القدرة العسكرية لبقايا الصليبيين؛ والناحية الثانية، عَدَدٌ من كبار الأسرى الذين وقعوا بيده نتيجة لحطين. وتمكن عن طريق هذه الورقة استعادة عدد من المدن الحصينة على السّاحل بأقَلّ الجهود، وكذلك القلاع والحصون والأَبْرَاج والمدن الداخليّة. وكان الحصار الطويل كافياً بالنسبة للبقية للاستسلام. وبذلك تمكن من استعادة الساحل الشامي، غرب حفرة الانهدام، حتى حدود إمارة طرابلس شمالاً، وبعض المعاقل والمدن على حدود بلاد حمص وحماة وحلب (وحتى بعض مدن السّاحل) في الشّمال مثل جبيلة واللاذقية. وبقي معقل واحد على السّاحل قريباً من دمشق، أَجَّل الاستيلاء عليه وأهمله بسبب الإرهاق المُسْتَمر لقواته هو مدينة صُور التي صارت مركز تجمّع معظم من خرجوا من المدن والحصون والمعاقل التي استولى عليها «بأمان» منحه للناس فيها.

وفي بداية هذه الفترة أيضاً كانَ التوتر في العلاقات بينه وبين الخلافة العباسيّة، إذ لم يُقَدِّر الخليفة الانجازات التي حَقّقَها صلاح الدين من القضاء على الخلافة الفاطميّة وإعلان الخطبة العباسيّة إلى حطين إلى استعادة القُدْس. وقد أوجد هذا التوتر فجوَة بين الرجلين الملقبين «بالناصر»: الناصر لدين الله في بغداد والناصر في دمشق أو ميدان القتال؛ الأول منهما مانح الشرعيّة للسلاطين والأمراء في العالم الإسلامي والثاني أكبر هؤلاء السلاطين وأكثرهم طاعة له،

وحامي الثغور؛ الأول أراد إعادة هيبة الخلافة العباسيّة على كل العالم الإسلامي بأساليب أثارت عليه شرق بلاد هذا العالم دون أن يكون لديه القُوة الكافية لتحقيق ذلك، والثاني يُكرّس نفسه لحرب الإمارات الصليبيّة وما وراءها من دعم أوروبي مستمر.

وكان أساس التوتر بين مانح الشرعيّة وبين صلاح الدين عوامل شكليّة ظاهرياً سنتحدث عنها فيما بعد بشيء من التفصيل، أما حقيقتها فترتبط برغبة الخليفة بخضوع دولة صلاح الدين الكلي له التي كانت مهتّمة بأكثر من الشكليات والمراسيم الدبلوماسيّة التي ولّدت فجوة بينهما كان لها أثرها على هيبة السلطان في نظر حلفائه الذين عمل كثيراً على اكتسابهم خاصة في المناطق الشرقيّة من حدوده ومناطق نفوذه. وسنأتي على ذكر بعض ذلك في ما يلي. أما الآن فقد حان وقت استكمال مشوار صلاح الدين في الطريق إلى القُدس الشريف الذي حان وقت انتزاعه من أيدي المسيطرين عليه بعد ثمانية وثمانين من السنين.

رجع صلاح الدين يوم الرابع من تموز 1187 م إلى معسكره الميداني في كفر سبت، وبدأ كما ذكرنا في اتخاذ الإجراءات المناسبة فيما يتعلق بالأسرى، فأتَمّ ذلك بسرعة، ثم بدأ يفكر وكبار مستشاريه في الإجراءات والعمليات التي يجب القيام بها لاستعادة المناطق في فلسطين التي تمهد الطريق إلى القُدس دون أن يَتْرُكَ جُيُوباً قد تؤثر على عملياته أو تُؤَخِّرها. والطريق إلى القدس من كفر سبت إلى القدس طريقان: طريق مباشر يَمُرّ من سفوح جبال نابلس الشمالية إلى نابلس فالقدس. وكان يمكن أنْ يُسْرِع من هذا الطريق إلى هدفه الأول المنشود؛ لكن ذلك سيترك ظَهْرَه مكشوفاً من البحر حيث المدن الحصينة والموانىء التي تستقبل الإمدادات عن طريق البحر من أوروبا والإمارات الأخرى، وقد يتأخر الحصار عند الأسوار المنيعة فيضيع الهدف مع وصول الحملات والإمدادات. أما الطريق الثاني فكان الأصعب لكنّه الأضمن في تحقيق الهدف باستعادة القدس وإبقائها بيد المسلمين بصورة دائمة، وهو السيطرة على كل السّاحل الذي يخضع للمملكة من جبيل شمالاً (جسر

المعاملتين في لبنان) وحتى حدود مصر في الجنوب، خاصة وأنه يمكن الاستفادة من بعض كبار الأسرى لديه في هذا العمل، وبدأ في اليوم التالي (الأحد 5 تموز) بالمدن الأقرب إليه: طبرية وعَكّا.

أرسل السلطان قُوّة إلى طبريّة، التي احْتُلّت مدينتها في اليوم السابق لحطين، ولم يبق غير قلعتها التي التجأت إليها صاحبتها وأولادها وحاميتها المتبقية فيها وسكانها من الإفرنج. وحاصرت القُوّة القلعة، فطلبت أشيڤا الأمان لنفسها وأبنائها وأصحابها وأموالها مقابل التسليم، فأجاب السلطان (أو ممثله) إلى ذلك، فخرجت ومن معها من القلعة، فتسلمها رجال صلاح الدين، ثم سارت ومن معها إلى طرابلس حيث كان زوجها ريموند. وعين السلطان الأمير صارم الدين قايماز النجمي، مملوك والده، والياً عليها، فأقام فيها مع مماليكه[1]. وفي اليوم نفسه (أو يوم المعركة) بدأ بتنفيذ خطته، فأرسل إلى أخيه العادل، نائبه في مصر، كتاباً بالبِشَارَة بالفتح ويأمره بالتقدّم بما لديه من قوات مصر نحو ساحل فلسطين الجنوبي والاستيلاء على ما يمكن الاستيلاء عليه. كان العادل ينتظر على الحدود بين مصر وفلسطين، ربّما منذ تَحَرك صلاح الدين من عشترا باتجاه نهر الأردن حتى ينفذ ما يطلب منه في حال تحقيق النَّصْر. وتوجه الملك العادل مسرعاً نحو الهدف متخطياً في طريقه المدن والمواقع الحصينة في الدَّارُوم وغَزّة وعسقلان، فوصل إلى قُرب الرملة واستولى على حصن مَجْدَلَ يابا[2] القريب منها واتخذه قاعدة لعملياته، فالحصن لا يبعد أكثر من 21 كيلومتراً عن مدينة يافا السّاحليّة وميناء القُدس الرئيسي[3]. ومن هذه القاعدة انتشرت قُوّاته فاستولت على القُرى والضياع (المزارع) والأبراج الحصينة في المنطقة المحيطة، والتي اعتبرها العماد الإصفهاني أنها جارية مَجْرَى القلاع والحصون[4]. وبعد أن انتهى من ذلك جمع العادل قُواته وتوجه

(1) الفتح، ص 58؛ الكامل، 11 ص 538.

(2) انظر ياقوت، معجم، 5 ص 57. تحولت إلى مستعمرة يهودية بعد 1948 تعرف بـ «مجدال أفك».

(3) انظر: صلاح الدين [E]، ص 268 - 269.

(4) الفتح، ص 91 - 92؛ الروضتين، 2 ص 87؛ الكامل، 11 ص 540.

إلى مدينة يافا، التي سنصف بتفصيل أكثر فيما بعد، فَحَاصَرَها واستولى عليها بالقُوّة وأسر من فيها من الرجال وسبى النساء، وأمر قواته بنهبها [1]، وأرسل إلى السلطان الذي كان مقيماً عند عكا في ذلك الوقت يخبره بفتحها، فأمره السلطان «بأن يُقيم في ذلك الجانب جامعاً للكتائب ليجتمع به الواصلون من مصر الآهلون معه بالنصر» [2].

أقام صلاح الدين في معسكره قرب طبرية حتى يوم الثلاثاء 7 تموز 1187. وعند الظهيرة توجه على رأس كل قواته، ومعه الأمير عز الدين القاسم بن مهنا ابن فُليتة ـ أمير المدينة المنوّرة ـ الذي قدم مع الحاج في هذه السنة والتحق بالسلطان وشهد معه معركة حطين ومشاهد أخرى تالية [3]، إلى عَكّا فوصلها يوم الأربعاء.

قبل ثلاث سنوات تقريباً من اقتراب صلاح الدين من أسوار عَكا كان الرحّالة ابن جبير يقترب من هذه المدينة الحصينة، ونزل مع قافلة من المسلمين في ضيعة أو قرية من قراها عند رئيس القرية:

«ورئيسها الناظر فيها من المسلمين مُقَدّم من جهة الإفرنج على من فيها من عُمّارها [أهلها] من المسلمين، فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة حَفيلة، وأحضرهم صغيراً وكبيراً في غرفة مُتَّسِعَة بمنزله، وأنالهم ألواناً من الطعام قَدّمها لهم، فعَمَّهم بتكرمته، وكُنّا فيمن حَضَر هذه الدَّعْوة» [4].

وفي صباح اليوم التالي (8 أيلول ـ شتنبر) دخلت القافلة:

«مدينة عكا. . . وحُمِلْنا إلى الديوان، وهو خَان مُعَدٌّ لنزول القافلة، وأمَامَه مَصَاطِب مفروشَة فيها كُتّاب الديوان من النصارى (العرب). . .

(1) المصادر نفسها.
(2) الروضتين، 2 ص 87.
(3) الروضتين، 2 ص 86.
(4) الرحلة، ص 275 - 276.

وهم يكتبون بالعربيّة ويتكَلّمُون بها، ورئيسهم صاحب الديوان والضامن له يُعْرَف بالصاحب، لقب وقع عليه لمكانه في الخُطّة، **وهُمْ يَعْرِفون به كُلّ مُحْتَشم مُتَعَيّنٍ عندهم من غير الجند.**

وكل ما يجبى عندهم راجع إلى **الضّمَان**، وضَمَان هذا الديوان بمال عظيم. فأنْزَل التُجّار رِحَالَهُم به ونزلوا أعلاه [الطابق الثاني]، وطُلِبَ رَحْلُ من لا سِلْعَة له لئلا يحتوي على سلعة مخبوءة فيه، وأطلق سبيله فنزل حيث شاء، وكل ذلك برفق وتؤدَة دون تَعْنِيف ولا حمل. فنزلنا بها في بيت اكتريناه من نصرانيّة [عربيّة] بإزاء البحر...»[1].

ثُمّ يَصِفُ المدينة:

«هي قاعدة مدن الإفرنج بالشام... مرفأ كل سفينة.. مجتمع السفن والرِّفاق، وملتقى تُجّار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق، سِكَكُها (طرقها) وشَوَارِعُها تَغصّ بالزّحام، وتضيق فيها مواطىء الأقْدام... زَفِرَة قَذِرَة... **وطَهَّر الله من مسجدها الجامع بقعة بقيت بأيدي المسلمين، يجتمع الغرباء منهم فيه لإقامة فريضة الصلاة... فكان مقامنا فيها يومين....**»[2].

هذا ما كانت عليه بعض ملامح عَكّا عند اقتراب صلاح الدين على رأس قُوّاته من أسوارها. لكنّ جَوّ الحرب غيرجَوّ السلام والاطمئنان؛ ذلك أنه عندما اقترب منها قام أهلها بالتجمع على الأسوار:

«وظَهَر على السّور أهلها لأجل الممانعة، والثبات على المُدَافَعَة...»[3].

ولكنّ صلاح الدين، الذي يراها لأول مَرَّة، كان يَعْرِف حقيقة قوتهم،

---

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر نفسه، 276 - 277. وكان القسم الأكبر من الجامع الكبير قد حول عند سيطرة الصليبيين عليها إلى كنيسة.

(3) الفتح، ص 88 - 89؛ الروضتين، 2 ص 86.

وحال أَسْوار مدينتهم، التي لم تتعرض لحصار قرابة ثمانية عقود من الزمن، فأُهْمل ترميمها وصيانتها، فأقام معسكره في المرج أمامها. وفي اليوم التالي قَرّر الزّحف عليها بتعبئة القتال وحصارها، وبدأ يرتاد ما حولها من أجل التَعَرُّف على الأماكن المناسبة التي سيركز عليها الحصار؛ في هذا الوقت خَرَج وَفْدٌ من أعيانها إليه وطلبوا الأمان لمن فيها أنفسهم وأموالهم التي يستطيعون حملها، فأجابهم السلطان إلى ذلك الشرط، وخيّرهم بين البقاء فيها أو الخروج منها «وأمهلهم أياماً حتى ينتقل من يختار النّقْلة، واغتنموا تلك المُهْلَة»[1]، فاختاروا الانتقال.

وفي يوم الجمعة، الأول من جمادى الأولى 583 هـ/ 10 تموز 1187 م، دَخَل السلطان والأمراء ـ بداية ـ المدينة، وتوجهوا إلى الكنيسة الكبرى (التي منها بقعة الجامع الصغير المذكور قبل قليل):

حتى لا يُفْزِع أهلها الذين أمهلهم عدة أيام ليرحلوا عنها:

«.... وكان في ظَنّهم أنّه يَسْتَبِيح دماءَهم، ويَسْبي ذُرِّيَتهم ونِسَاءهم... وفُتح الباب للخَاصّة، واستغنى بالدخول إلى البلد جماعة ذوي الخصاصة، فإن القوم ما صَدّقوا من الخوف المزعج... كيف يتركون دورهم بما فيها ويَسْلَمُون، وعندهم أنّهم إذا نجوا بأنفسهم أنهم يغنمون»[2].

وصَلّوا في الكنيسة العظمى الجمعة الأولى بالساحل الفلسطيني في المسجد القديم بعد أن قام القاضي الفاضل:

«فَرَتّبَ المِنْبَر والقِبْلَة... وكان الخطيب والإمام الفقيه جمال الدين عبد اللطيف بن الشيخ أبي النجيب السهروردي[3]، [الذي] ولاّه السلطان

---

(1) المصادر نفسها؛ الكامل، ص 540.

(2) البرق في الروضتين، 2 ص 86.

(3) «حدث بالشام والساحل، وكان كثير التنقل في البلاد... ولي قضاء عكا. توفي 610 هـ. الدبيثي، المختصر المحتاج إليه، ج 15 من ذيول تاريخ بغداد، بيروت 1985، =

مناصب الشريعة بعَكّا: تَوَلّى الخطابة والقضاء والحسبة والوقف»[1].

فالسلطان لا يؤجل الأمور، والتراتيب الإدارية الأساسيّة ضروريّة حتى تسير حياة مجتمع المدينة الجديد أو المختلط بانتظام وأَمْن.

ثم دخل الجُند المدينة بعد خروج الفرنج وغيرهم ممن رغب من أهلها:

«فلمّا دخل الجُنْد رَكَزَ كل واحد منهم على دَارٍ رُمْحَة. . . فحصلوا على دور أخلاها أربابها، وأموال خلاّها أصحابها، وكُنّا لأجل الأمان نَهَابُها، فَطَاب لأولئك [الجند] نَهَابُها»[2].

فهذا هو قانون الحرب الدولي في العصور الوسطى، ويذكرنا بجانب من تصرف جند الحملة الصليبيّة الأولى عند استيلائهم على القدس، فالجانب الآخر كان قتل كل من وجدوه فيها[3].

وقام صلاح الدين باستكمال تراتيب عَكّا الإداريّة، فسَلّم البلد وضياعها وقلاعها ومعاقلها إلى ابنه الأكبر الأفضل علي، ومَنَح كل ما كان لجماعة فرسان الداويّة فيها للفقيه عيسى الهكاري، ولذلك دلالته فهو الفارس الفقيه الذي يوازي كبير الداوية، «وتَصَرّف المظفّر تقي الدين في دار السُكّر. . . [فا] ستوعب موجودها، ونَقَل قدورها وأنقاضها، وحوى جواهرها وأعراضها»[4]، «وافتقر من الفرنج أغنياء، واستغنى من أجنادنا فقراء»[5]. ثم يعلق العماد:

«ولو ذُخِرَت تلك الحواصل، وحُصِّلَت تلك الحواصل، وجمع

= ص 266؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، الطبقة 61، ص 321 - 322. ويضيف «ولاّه [صلاح الدين] كل بلد افتتحه في السواحل وغيرها».

(1) الروضتين (البرق)، ص 87.

(2) الروضتين، 2 ص 86؛ وبكلمات أخرى الفتح، ص 89.

(3) انظر فولشر، تاريخ الحملة [E]، ص 123.

(4) الروضتين، (البرق) ص 86.

(5) الفتح، ص 90.

لبَيْت المال ذلك المال المجموع الوافر، لكان عِدّة ليوم الشدائد، وعمدة لنجح المقاصد. . . »[1].

لكنّه قانون الحرب والغنيمة، الذي يدفع الجند إلى المصابرة والجد في القتال.

وقد فَصَلّنا قليلاً في أحوال عكا ومصيرها بعد التسليم بالأمان، لأن ذلك قد يكون نموذجاً لكل المدن التي استسلمت بهذه الطريقة. أمّا الاستيلاء بالقوة والحرب فكان، حسب قانون الحرب السائد آنذاك، يعطي المنتصر كل من في المدينة وما فيها.

يبقى أخيراً وصْف حال عكا العام بعد استعادة صلاح الدين لها بقليل:

«. . . فإنها كانت مدينة متَخرّقة، وبيوتها مُتَفَرّقَة، وسُورها غير مَعْمُور، ومعظمها بلا سُور»[2].

وهذه أمور علينا تذكرها بحرص لأننا سنعود إلى عكا وحصارها فيما بعد، وسنرى الجهد الكبير والمال الذي بذله صلاح الدين ورجاله في إعادة عمارة سورها.

وأقام صلاح الدين في المخيّم، فَقَد تَعود على ذلك منذ زمن طويل ربّما يرجع إلى حصار الإسكندريّة الطويل، ووضع مع مستشاريه خطّة يتمكن، في حال تنفيذها، من السيطرة على كل فلسطين بأسرع وقت وقبل أن يتمكّن الصليبيون من تجميع فُلُولهم وإعادة ترتيب أمورهم، فقسم قُوّاته إلى فِرق، ووجّه كل فرقة بقيادة أحد الأمراء الكبار إلى جهة من البلاد القريبة والبعيدة. وكان عَدَدُ الفرق التي جُهِّزَت أربع:

كان أوّلُ من جَهّز لقيادة الفرق أوثق أمرائه، تقي الدين عمر ابن أخيه، الذي وجهه إلى حصن تبنين في الجليل الأعلى، وأقرب الحصون المنيعة إلى دمشق،

(1) المصدر نفسه.

(2) الفتح، ص 208.

ليُحَاصره ويقطع طرق التموين عنه وعن مدينة صُور التي صارت مركز التجمع الرئيسي للصليبيين بعد حطين. ووجد تقي الدين، كما سنرى فيما بعد، أن القُوّة التي رافقته لم تكن كافية للقيام بالمهمة التي أوكلت إليها على أكمل وجه، فطلب من السلطان نفسه القدوم لنجدته [1].

وأرسل السلطان قوة ثانية بقيادة مُظفر الدين كوكبوري، صاحب المَيْسَرَة في حطين، إلى النّاصرة في الجليل الأدنى، فاستولى عليها بالقُوّة واسْتَبَاحَها وأسَر وسبى من فيها. وفي طريق عودته إلى المعسكر، استولى على صَفّورية [2] وحصن الفُولة المشهور الذي كان قد التحق من فيه من الداويّة بالجيش في حطين «ولم يبق فيها [القرية] إلاّ رعايا وغلمان وأتباع فأُمِنُوا واستسلموا إلى السلطان» [3]. وكذلك استسلم أمثال هؤلاء في بقيّة الحصون والقرى والولايات التابعة لطبرية وعكا وفي المنطقة بينهما وبين الناصرة مثل «دَبُّورِيّة، وزَرْعِين، وجنين، والطُّور، واللجُون وبَيْسَانِ؛ وكذلك الحصون في بلاد عَكّا مِثل القَيْمُون ومعليا والبَعْنَة ومنوات والزِّيب واسْكَنْدَرُون [4]. ويذكر ابن جُبَير الزِّيبَ واسكندرون (الأصل: الزاب)، فيقول: «واجتزنا في طريقنا على حصن كبير يعرف بالزاب، وهي مطلة على قرى وعمائر متصلة، وعلى قرية مُسَوّرة تعرف باسكندرونة... فحللناها... فنزلنا بها في خان معدٍ لنزول المسلمين» [5] فالطريق السّاحلي من صور لا بُدّ أن يمر من رأس الناقورة هناك.

وسيّر صلاح الدين فرقة ثالثة بقيادة الأميرين بدر الدين دَلْدَرِم الياروقي، قائد قوات حلب، وعز الدين قليج من سلاجقة الروم، إلى قيسارية فاستولوا عليها بالقُوّة واستباحوها وأسروا وسبوا من كان فيها؛ وقد ابتدأوا بها لأنها كانت أكثر حصانة من حيفا وأرسوف التي تقع بينهما، اللتين استسلمتا بَعْدَها [6].

(1) الكامل، 11 ص 540.
(2) الفتح، ص 93؛ الروضتين، 2 ص 87.
(3) الفتح، ص 97 الكمل، 11 ص 539؛ الروضتين، 2 ص 87.
(4) الفتح، ص 97 - 98.
(5) الرحلة، ص 277.
(6) الفتح، ص 94.

وكانت قيسارية مركز مقاطعة كبيرة تابعة لملك القدس، وفيها وفي المقاطعة ممتلكات كنسيّة ولجماعات الفرسان من الداوية والاسبتارية، فاستولى المسلمون على الجميع[1]. ووصل الفتح في هذه المنطقة الساحليّة إلى حيث كانت تتمركز قوات الملك العادل في مجدل يابا حيث كانت أوامر السلطان قد وصلت إلى أخيه بالبقاء حيث هو حتى تصله أوامر جديدة.

وأمّا الفرقة الرابعة التي سيّرها صلاح الدين من معسكره خارج أَسْوار عكا في ذات الوقت الذي وجِّهت فيه بقية الفرق فقد كانت بقيادة ابن أخته الأمير حسام الدين عُمر بن لاَجِين والتي سارت نحو نابلس وبلادها. وقبل وُصُول هذه الفرقة إلى هدفها كان المسلمون في منطقة نابلس قد قاموا بالاستيلاء على الضياع والقرى والحصون في كل المنطقة، وتوجهوا إلى المدينة:

«وأمّا نابلس فإنّ أهل ضِياعها ومعظم أهلها كانوا مسلمين، وفي سلك الرعيّة مع الفرنج منتظمين، وهم يجبون كل عام منهم فِرَار[2]، ولا يُغَيِّرُون لهم شرعاً ولا شعاراً؛ فلمّا عرفوا كسرهم وأنهم لا يرجون جَبْرَهم، خافوا من مساكنة المسلمين فتفرقوا، وكبسهم أهل الضياع في الدور والرباع، وغنموا ما وجدوه من الذخائر والمتاع، وأوقعوا بضعفائهم، وضايقوا أهل الحصون على أقويائهم»[3].

وقَدِم حسام الدين بقُوّاته، فاستولى في طريقه على سبسطية، وحَوّل مشهد زكريا فيها إلى مسجد بعدما حَوّله الصليبيون من قبل إلى كنيسة:

«وقد اتخذه الأقساء كنيسة... وهو مَتَعَبَّدُهُم المُعظم... وقد حجبوه بالأستار وحَلّوه بالفضة والنُّضَار، وعينوا له مَواسِمَ الزوّار، وقَوَمَتُه من الرَّهَابِين فيه مقيمة، ولا يُؤْذَن بالزِّيَارَة إلاّ لمن معه هَدِيّة لها قيمة، فدخله وحَوَى ما فِيه، وأبقى ما لا يَحْسُنُ أنْ يخلو من مِثْلِه مَسْجِد، وفتح

---

(1) انظر رتپل. والخارطة وصورة المُجَسّم في الأطلس.

(2) لعلّ المقصود بذلك الفرنكات الفضيّة التي كانت مستعملة في ذلك الوقت.

(3) الروضتين، 2 (البرق) ص 88.

للمسلمين أبوابه، وأظهر للمصلين محرابه»[1].

ثم توجه منها إلى نابلس، فحاصَرَ القلعة واستسلمت له بأمان «واستمال من سكانها من ضرب عليه الجزية بعد زمان، وأجراهم على ما لهم من العمارة والبنيان...»، ثم طلبها من السلطان فأقطعه إياها وكل بلادها وبقي فيها حتى وفاته[2].

وهكذا فقد تمكن خلال عشرة أيام عن طريق الفرق التي أرسلها في وقت واحد، ودَعَم قوّات بقيادة أخيه التي قدمت من الجبهة الجنوبيّة من عزل مدينة القُدْس ومنطقَتها عن باقي مناطق فلسطين التي كانت لا تزال بيد الصليبيين والتي يمكن أن يأتي منها دعم وإمدادات، ومع ذلك فإنّه لم يستكمل الخطّة الأساسية بالاستيلاء على الساحل الجنوبي، خَاصَّة مدينة عسقلان الأكثر حصانة، بسبب أوضاع طارئة على جبهة الجليل الأعلى بقيادة أكبر أمرائه تقي الدين الذي أرسل إليه طالباً المساعدة في حصار الحصن المنيع الذي يتحكّم في الطريق بين دمشق ـ بانياس ـ صور وصيدا، والجليل الأعلى. ويبدو أنّ تقي الدين كان يفتقر إلى آلات الحصار المناسبة لمثل هذا الحصن الجبلي.

بني حصنا تبنين وهونين في منطقة استراتيجيّة تتحكم بالطريق الذي يصل بين بانياس والساحل والجليل الأعلى، في فترة محاولات الصليبيين المتكررة للسيطرة على صور. وقد وصَفَ ابن جبير الطريق من بانياس إلى السّاحل بقوله أن هونين يشرف على سهل بانياس ووادي الأردن في تلك الجهة، ثمّ:

«اجتزنا في طريقنا بين هونين وتبنين بوادٍ مُلتَفّ الشجر... بعيد العمق، كأنه الخندق السحيق المهوى، تلتقي حافتاه ويتعلّق بالسماء أعلاه... لو وَلَجَتْه العساكر لغابت فيه، ولا مَنْحَى ولا مجال لسالكه على يد الطالب فيه، والمهبط إليه والمطلع منه عقبتان كؤودان... فأجزناه ومشينا عنه يسيراً وانتهينا إلى حصن كبير من حصون الإفرنج

(1) المصدر ذاته.

(2) المصدر ذاته؛ مرآة الزمان، 8 ص. توفي سنة 587 هـ/ 1191 م.

يُعْرف بتبنين، وهو موضع تمكيس القوافل.. فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن...»[1].

وأسرع السلطان من عكا لنجدة تقي الدين، وتحرك بقواته يوم 8 جمادي الأولى (17 تموز) نحو الجليل الأعلى فقطع الطريق في ثلاث مراحل (أيام)، ووصل إلى تِبْنِين يوم الأحد 11 من الشهر (19 تموز)، وبدأ صلاح الدين حصارها فنصب المنجنيقات حولها واستعد للهجوم، ثم بدأ ضَرْبَها بالمنجنيقات وشدّد الحصار عليها. عند ذلك راسل من فيها السلطان طالبين الأَمَان واسْتِمْهَالهم خمسة أيّام لينزلوا بأموالهم، فوافق السلطان على هذا الشرط مقابل تَسْليم الحصن وما فيه من «العُدَد والدواب والخزائن [السلاح]». ومن أجل التأكد من حسن نيّتهم وعدم إخلالهم بالشروط المذكورة:

«بذلوا رهائن من مُقدّميهم، ووَفُوا بما بَذَلُوا، وتقرّبوا بإطلاق الأسارى المسلمين، فخرج الأسارى مسرورين، فَسُرّ بهم السلطان وسَرَّبَهم، وأقَرّهم وقَرَّبَهم، وكسَاهم وحَبَاهم...»[2].

وفي الوقت المُحَدّد (الأحد 26 تموز) نزل من كان من صليبيين في الحصن، وتوجهوا إلى صور، وسيّر صلاح الدين معهم من عسكره من أوصلهم إلى حدود بَلَد صور؛ ثم دَخله قوات صلاح الدين، وعين مملوكه سُنْقُر والياً عليه ورَتّب معه حامِيَة مناسبة، وأوصاه بمعاملة من فيه من المسلمين [من غير أهل السُنّة] باللين حيناً وبالشدة أحياناً، كما أوصاه العناية بالحصن وترميمه: «تَبْنِي بِتبنين ما هَدَم المنجنيق، وتُجِدّ لسُورها وخندقها كل ما يمكن من التعميق والتوثيق»[3].

---

(1) الرحلة، ص 273 - 274. وانظر وصف هذين الحصنين ومخططهما العام في قسم الجليل من كتاب مسح فلسطين الغربية (بالانجليزية) ص 123 - 125، 133 - 135. وانظر أيضاً شيئاً من تاريخهما في ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، 2/2 ص 152 - 153.

(2) الروضتين (البرق)، ص 89. وانظر الكامل، 11 ص 541 - 542؛ الفتح، 99 - 100.

(3) الفتح، ص 101.

وكان من المنطقي أن يتوجّه السلطان وقوات الجبهة الشمالية بعد السيطرة على تبنين إلى مدينة صُور التي أخذت تَزْدَحِم تدريجياً باللاجئين إليها من سُكّان عكّا والجليل والساحل. لكنّ من يَعْرِف تاريخ المدينة وحصانتها الطبيعيّة يتردّد كثيراً في الإقدام على هذا العمل إلاّ بعد إعداد التجهيزات الكثيرة المناسبة، خاصّة الأسطول الحربي البحري الكبير الذي يحتاج إليه في مثل هذا العمل. فالصليبيون أنفسهم احتاجوا في البداية إلى حصارها أكثر من مَرّة، وبناء القلاع والحصون حولها لقطع الإمدادات عنها، لكن دون طائل، حتى حضرت أساطيل المدن الإيطاليّة الكثيفة فتمكنوا بعد أكثر من رُبع قرن من قيام إماراتهم ومملكتهم من تَسَلّمها بالأمان. فهل يتوجّه صلاح الدين وتقي الدين إليها بالقوة المحدودة لديهما ودون الآلات العسكريّة الثقيلة المناسبة والأسطول الكبير في البحر ليمنع اتصال البحر بها أو وصول القُوّات إليها؟ نرجع هنا إلى ابن جبير الذي زارها قبل ثلاث سنوات من حطين للمغادرة إلى بلاده عائداً:

«مَدِينة يُضْرَب بها المَثَل في الحصانة، لا تُلْقى لطالبها بيد طاعة ولا اسْتِكَانة، **قد أَعَدّها الإفرنج مَفْزَعاً لحادثة زَمَانِهم، وجعلوها مثابة لأمانهم** [لاحظ دقة ملاحظة ابن جبير] هي أنظف من عكّة سِكَكاً وشَوارِع، وأهلها أَلْيَنُ في الكُفْرِ طبائع، وأَجْرَى إلى بِرّ غرباء المسلمين شمائل ومَنَازع، فخلائقهم أَسْجَع، ومنازلهم أوسع وأَفْسح، وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن.

وأمّا حصانتها ومناعتها فأعجب ما يُحَدّث به، وذلك أنّها راجعة إلى بابين: أحدهما في البَرّ، والآخر في البحر، وهو يحيط بها إلاّ من جهة واحدة؛ فالذي في البَرّ يُفْضَى إليه بعد وُلُوج ثلاثة أبواب أو أربعة، كلها في ستائر [أسوار أو جدران] مشيّدة محيطة بالباب، وأمّا الذي في البحر فهو مَدْخل بين بُرْجَين مُشَيَّدين إلى ميناء ليس في البلاد البحرية أعجب وضعاً منه، يحيط به سُور المدينة من ثلاثة جوانب، ويُحْدِق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص. فالسفن تدخل تحت السُّور وترسو فيها، وتعترض بين البُرْجين المذكورين سِلْسِلَة عظيمة تَمْنَعُ عند اعتراضها الدّاخل والخارج، فلا مجال للمراكب إلاّ عند

إزالتها. وعلى ذلك الباب حُرّاس وأُمناء، لا يَدْخُل الداخل ولا يخرج الخارج إلاّ على أعينهم.

فشأن هذا الميناء شأن عجيب في حُسْنِ الوَضْع، ولعَكّا مثلها في الوضع والصفة لكنها لا تحمل السفن الكبار حِملَ تلك، وإنما ترسو خارجها والمراكب الصغار تدخل إليها فالصُّورية أكْمَل وأجمل وأحْفَل»[1].

وذكر العماد، بعد فتح بيروت وعود السلطان إلى عَكّا:

«... وجاء إلى صور ناضراً إليها وعابراً عليها، غير مكترث بأمرها، ولا متحدث في حصرها. ودَلّتْه الفراسة أن محاولتها تصعب، ومزاولتها تتعب، وليس بالساحل بلد أحصن، فعَطف الأعِنّة إلى ما هو منها أهون»[2].

ومع ذلك فإن صلاح الدين حاول، بَعْدَ استعادة القدس وترتيب أمورها، حِصَارَها، لكنّه فشل في تحقيق شيء كما سنرى فيما بعد.

وتوجّه صلاح الدين من تبنين إلى صيدا ماراً قُرب صُور دون التعرض لها. وفي الطريق إليها، بعد نزول الجبال إلى السهل الساحلي، وَصَل إلى صَرَفَنْد على السّاحِل قبل نهر الزهراني، فاستولى عليها؛ ويصفها العماد الذي كان مرافقاً للسلطان بأنها: «... مدينة لطيفة على السّاحل، مورودة المناهل، ذات بساتين وأشجار ورَيَاحِين وأزهار»[3]. ثُمّ توجه منها إلى صيدا فخيّم عليها؛ وكان ذلك يوم الأربعاء 21 جمادى الأولى/ 29 تموز):

«و... جَاءَت رُسُل صاحبها بمفاتيحها، وطَلَعَتْ الراية الصَّفْرَاء [راية صلاح الدين] على سُورها، وأقِيمَتْ بها الجُمْعَةُ والجَمَاعة، واستُدِيمَت بها بعد العصيان لله الطاعة»[4].

---

(1) الرحلة، ص 277 - 278.

(2) الروضتين، (البرق)، ص 91.

(3) الروضتين، (البرق)، ص 90، الفتح، ص 102 - 103؛ النوادر، ص 80.

(4) الروضتين، 2 ص 90.

وسار صلاح الدين في نفس اليوم إلى بيروت فوصلها وبدأ حصارها. وقاتل أهل بيروت من فوق الأسوار عِدّة أيام (8 أيام) ثقة منهم بتحصيناتها، وقاتلها خلال هذه المُدّة بحملات عِدّة، ثُمّ عَمّت الفوضى بين السكان من الخوف من الاستيلاء عليها بالقُوّة وسبي من فيها، مِمّا دفع الحامية إلى طلب الأمان على الأنفس والأموال والتسليم، فوافق السلطان، وأمْلَى العماد كتاب التسليم، فخرج اللاتين منها ومن القلعة وتوجهوا إلى صور ومعهم كتاب الأمان، وتسلمها يوم الخميس 29 جمادى الأولى / 6 آب [1] 1187، بعْدَ شهر من وصوله إلى أسوار عَكّا، ولم يبق من مُدن الساحل التابعة للمملكة اللاتينيّة في هذه الجهة إلاّ واحدة هي جبيل التي سُلّمت بالأمان قبل تسليم بيروت بيومين.

كان أود (Eudes Ebriaco)، صاحب جبيل، من بين الأسرى في حِطّين، وقد نقل إلى سجن القلعة في دمشق مع غيره من السجناء الكبار. وأثناء حصار صلاح الدين لبيروت، أرسل إلى دمشق من أحضر صاحبها، ذلك أنّ أود ـ كما يقول العماد ـ «ضاق ذرعاً بسجنه. . . فَتَحَدّث مع الصفي بن القابض [2] ـ نائب صلاح الدين بدمشق ـ في أمره، وباح إليه بِسِرِّه، وقال: ما لكم بأسري فائدة، ولا غنيمة على فتح جبيل زائدة، وأنا أُسَلِّمها بشرط سلامتي. . . فأنهى الصفي ما قاله [إلى السلطان] فأمَرَ بإحضاره في قيده. . . فوصل به ونحن على بَيْرُوت، فسَلّم جبيل. . . » فَسَيّر السلطان إليها من استلمها وتَوَلاّها [3].

عندما كان صلاح الدين يُحَاصر بيروت، وَصَلَه كتاب من أخيه الملك العادل، الذي كان لا يزال مخيماً في مجدل يابا ويافا حسب أوامر السلطان، «يستحثه على انتهاز الفُرص في فتح بيت المقدس وقَصْدِ، والاشتغال بما عداه من بعده، **فإنّ أوقات الإمكان مُغتنمة. . . .**» [4]، فتوجه في نفس اليوم الذي

(1) **الفتح**، ص 104 - 107؛ **الروضتين**، 2 ص 90، **الكامل**، 11 ص 542 - 543.
(2) كان له معرفة قديمة بصلاح الدين منذ أيام شحنكية الأخير دمشق، وكان النائب والوزير في عاصمة الشام.
(3) **الروضتين**، (البرق)، ص 90؛ **الفتح**، ص 108؛ سنا، (ق) 305 - 306. وانظر **الكامل**، 11 ص 108.
(4) سنا (ق) ص 307. كما يروى عن العادل أنه خاطب السلطان مشافهة عند اجتماعه به وخوفه =

انتهى فيه من تسَلّم بيروت عائداً إلى الجنوب إلى حيث كان العادل. وفي ذات الوقت أرسل إلى دمشق ليحضر من سجنها الملك غي وكبير مقدمي الداوية للاستفادة منهما في فتح القُدس والمعاقل في ساحل فلسطين الجنوبي التي لم تزل بيد حامياتها، وملاقاته في مخيّم العادل. وعاد صلاح الدين على الطريق السّاحلي فَمَرّ بصَيْدا وصَرَفَنْد، وعَبَر قرب صُور «غير مكترث بأمرها، ولا متحَدّث في حصرها...»[1]، والتي تَقَوّت قُدْرتها العسكريّة بوصول أمير كبير من الغرب هو المركيز كونراد صاحب (بعرين ـ البارة) مونتفرات Montferrat الذي دخل أولاً في مركبه خطأً إلى ميناء عَكّا على ظن أنها كانت لا تزال بيد الصليبيين، فأعطاه الأفضل الأمان كما تقتضي أخلاق الفروسيّة ولم يحتجزه، فسار إلى صور فتولى قيادة من فيها، ونظم الجموع التي تجمعت فيها[2].

وتابع السلطان سيره حتى اجتمع بالملك العادل وعساكره، وتشاوروا في أمر القُدس وفَتْحِها، وقَرّرا التوجه إلى عسقلان، آخر المعاقل على ساحل فلسطين الجنوبي وأكثرها حصانه، لأنّها كانت ـ كما يقول ابن الأثير ـ «على طريق مصر يقطع بينها وبين الشام، وكان [صلاح الدين] يختار أنّ تَتّصِل الولايات له ليسهل خروج العسكر منها وإليها»[3].

وعلى الرغم من السبب الذي يذكره ابن الأثير في الدافع إلى التوجه إلى عسقلان أولاً، فإن الدارس للتطورات السابقة، خاصة ما حصل في صُور، وحصانة عسقلان وصعوبة السيطرة عليها في حال عَدَم استغلال ورقة الملك المأسور وعدم إمكانية وصول نجدات صليبيّة إليها بسرعة في ظروف ذلك الوقت بالتحديد، هو الذي دفع السلطان وأخاه إلى التوجه إليها، فسقوطها في

= من عارض الموت من المرض الذي كان به (القولنج) مبالغة في القَوْل لدفعه إلى فتح القدس. المصدر نفسه.

(1) الروضتين (البرق)، 2ص 91.

(2) المصدر نفسه، ص 90؛ سنا، (ق)ص 306؛ مفرج، 2ص 207-209.

(3) الكامل، 11 ص 545.

يده يَـعْني سقوط القُـدْس وكُـلّ جنوب فلسطين بسهـولة. وعسقلان مفتاح القُدْس، وإذا تمكّن قائد فرنجي كبير من الوصول إليها قبل الاستيلاء عليها، فإنّ ذلك سيؤدي إلى حال أسوأ من حال صور نظراً لقربها من القُدس.

كُنّا قد ذكرنا فيما تَقَدّم شيئاً من تاريخ عسقلان منذ البدايات الأولى لدخول بني أيوب إلى مصر، وأنّها كانت آخر المدن الحصينة في ساحل فلسطين كله والساحل الشامي التي سقطت بيد الصليبيين قبل حوالي ثلاث وثلاثين سنة من حطين، وكان ذلك عن طريق التسليم وليس القتال، لكننا لم نذكر شيئاً عن حصانتها ومنعتها التي مكّنتها من الصمود هذه المدة الطويلة[1]. وإذا لم يَزُر صاحبنا ابن جُبَير المدينة ليعطينا وصفاً لأوضاعها وحصانتها، فإن وليم الصوري، الذي توفي قبل ثلاث سنوات من حطين، قَدَّم وصفاً دقيقاً لها ولتحصيناتها، عند حصارها أو عندما كتب عنها:

«. . . تقع عسقلان على ساحل البحر على شكل نصف دائرة يمتد قطرها على طول الشاطىء، بينما يقع محيطها أو قوس الدائرة في البَرّ على الأرض المُطِلّة نحو الشرق. وتقوم المدينة كلها في قاع ينحدر باتجاه البحر، ويحيط بها تحصينات دفاعية عالية من كل الجهات، يرتفع فوقها الأسوار التي يتخلّلها الأبراج الكثيرة على مسافات (متباينة) من السور، والسور والأبراج كلها مشيّدة بالحجارة الصلدة التي رُصّت إلى بعضها البعض بالملاط الذي هو أشد قَسَاوَةً من الحجارة.

والأسوار واسعة وكبيرة العَرْضِ أو السمك وذات ارتفاع مناسب. ويضاف إلى ذلك أن المدينة محاطة بتحصينات خارجيّة مبنيّة بالمتانة ذاتها ومُحَصّنَة بعناية شديدة.

ولا يوجد أية ينابيع داخل أسوار المدينة ولا في جوارها، إلاّ أن الآبار داخلها وخارج أسوارها تُقّدم زاداً وفيراً من الماء العذب الصالح

---

(1) أقوم حالياً بإعداد بحث مطول للنشر عن عسقلان في القرن الثاني عشر الميلادي.

للشرب. وزيادة في الاحتياط بَنَى السكان داخل المدينة صهاريج لجمع ماء الأمطار.

وللمدينة أربعة أبواب في السور المحيط بها، مُحَصّنة تحصيناً شديداً بأبراج ضخمة وعالية. ويدعى الباب الأولى الذي يواجه الشرق بالباب الأكبر (الأعظم) وأحياناً باب القدس لأنه يتجه نحو المدينة المقدسة، ويعلوه برجان مرتفعان (فوق السور) يوفران حماية جيدة للمدينة تحتهما. ويوجد في خط الدفاع الخارجي أمام هذا الباب، ثلاث أو أربع بوابات أصغر يمر المَرْءُ خلالها إلى المدخل الرئيسي بطرق عدة متعرجة [1]. [قارن مع وصف ابن جبير لبوابة مدينة صور الرئيسيّة المتقدم].

ويواجه الباب الثاني جهة الغرب، ويدعى باب البحر لأنه يوفر لأهل المدينة مخرجاً إلى البحر.

ويقع الباب الثالث في الجهة الجنوبية ويتجه منه (الطريق) إلى غَزّة... ومنه اتخذ (الباب) اسمه أحياناً.

والباب الرابع يدعى باب يافا لأن مخرجه يؤدي إلى الطريق الموصلة إلى هذه المدينة السّاحليّة،.

ولكن موقع عسقلان غير مناسب من ناحية واحدة، وهي أنه لا يسمح بإقامة ميناء مناسب ولا أي مكان صالح وآمن لرسُوّ السفن، فالشاطىء رملي، والرياح الشديدة تجعل البحر في موقعها عاصفاً إلى الدرجة التي يخاف المبحرون إليها الاقتراب منها إلاّ في الأجواء الهادئة جداً.

وأما الحقول التي تحيط بالمدينة فمغطاة بالرمل ولذلك تصبح في بعض الفترات غير صالحة للزراعة، ومع ذلك فيمكن استصلاحها لزراعة الكروم والأشجار المثمرة. وهنالك أيضاً بضعة أودية تقع إلى الشمال

---

(1) انظر المخطط في بنغستي، الصليبيون في الأرض المقدسة [الترجمة الإنجليزية].

منها، والتي يمكن بعد تسميدها وريها من الآبار أن تزود سكان المدينة بكميات محددة من الفواكه والخضروات[1].

وكان في المدينة عدد كبير من السكان. . (الوصف في آخر الفترة الفاطميّة، وكذلك كانت في الفترة الصليبيّة]»[2].

وعلى الرغم من الحصانة التي كانت تتمتع عسقلان بها إلاّ أنه قرّر التوجه إليها وحصارها والسيطرة عليها لأنّها مفتاح البوابة الرئيسيّة لاستعادة القُدس، الهدف الذي طالما تغنّى الشعراء وأعلن الخطباء والفقهاء في مجالسهم ومنابرهم بوجوب تحقيقه من قبل صلاح الدين.

وصل صلاح الدين وأخوه الملك العادل، ومعهما الملك غي دي لوزجنان ومقدم الداوية الكبير، إلى قرب أسوار عسقلان يوم الأحد 23 آب 1187 م (16 جمادي الثاني 583 هـ)، أي بعد ستة وأربعين يوماً من معركة حطين، كان السلطان أثناءها في حركة دائمة على رأس قُواته المختارة ينتقل من مدينة إلى حصن إلى بلدة ثم إلى مدينة أخرى؛ ويستولي عليها ويُرَتب أمورها ويزودها بالإدارة والحاميات، ويعود مسرعاً أيضاً إلى موقع جديد.

وكان هدف السلطان من إحضار الملك إلى الميدان معه هو إقناع حامية المدينة الباقية ومن كان يسكنها من الصليبيين بتسليمها مقابل إطلاق سراح الملك من الأسر؛ لأنّ عسقلان وبلادها كانت ضمن مقاطعة يافا وعسقلان المزدوجة حيث ضُمّت بعد السيطرة عليها (1153) إلى يافا وبلادها مكونه بذلك مقاطعة واحدة. وكانت هذه المقاطعة جزءاً من الخاص الملكي ومن يتولاّها يخضع لحكم الملك مباشرة على عكس المقاطعات الأخرى التي يحكمها

(1) الوصف كان في الفترة التي كانت فيها منطقة عسقلان والمناطق المجاورة لها ميداناً دائماً للغارات والعمليات العسكرية المستمرة بين الجانبين: الفاطمي والإسلامي والصليبي قبل وبعد سيطرة الصليبيين عليها.

(2) وليم، **تاريخ**، 2 ص 219 - 220.

عائلات مستقلة (نابلس، صيدا، بيروت، جبيل، يبنى وغيرها)، ينظم «القانون» الإقطاعي السائد علاقتهم مع الملك بصورة مناسبة.

وحاول غي بداية إقناع سكان المدينة والحامية تسليمها مقابل إعطائهم الأمان كالعادة. وانضَم إليه مُقَدّم الداوية في الطلب والمناشدة، لكن رَدَّهمْ كان الرفض بشدة، وإهانة الملك ومُقَدّم الداويّة. وهنا بدأ صلاح الدين الاستعداد لبدء الحصار، وقام جنده بنصب المنجنيقات وتحضير النقابين والحجارين وتجهيزهم استعداداً للهجوم. وامتدت المفاوضات بين الملك والمُقَدّم من جانب ووفد من سكان المدينة من جانب آخر خمسة أيام دون طائل. عند ذلك أمَرَ صلاح الدين ببدء القتال:

«. . . فتَجلّد من بها على الحصار، وتَرَبّصُوا وتَصَبّروا، فَنَصَب السلطان عليها مجانيق، ورماهم بها، وحَسَر النُقّاب فحُسِر النّقاب، وباشر الباشورة [1]، فرفع الحجاب، واشتدّ القتال، واحتدَم المصال. . . .» [2].

وعندما تمكن النقابون من الوصول إلى الباشورة ونَقْبِها ثم استيلاء الجند عليها، جَدّد الملك الاتصال بأهل المدينة:

«وراسلهم عند ذلك الملك المأسور، وقال: قد بان عذركم حين نُقِبَ السُور. وجَرَت حالات، وتكَرَّرت حَوالات، وترَدَّدت رِسَالات، وقال لهم الملك الأسير: لا تخالفوا ما به أشير، واحفظوا رأسي فهو رأس مالكم، ولا تخطروا غيري ببالكم، فإني إذا تخلّصت خَلَّصت، وإذا استُنقِذْت استَنْقَذت. وخرج المقدمون وشاوروا الملك، وسلكوا في التسليم نَهْجَهُ الذي سُلِك» [2].

فكان لتشديد صلاح الدين الحصار، الذي قتل فيه الأمير حسام الدين

---

(1) التحصينات الخارجيّه أمام الباب أو الـ Barbican في اللاتينية.

(2) الروضتين، 2 ص 91. وانظر الفتح، ص 112 - 113؛ سنا، (ف) ص 307 - 308.

إبراهيم بن الحسين المهراني الكردي، ومواصلة القتال أن اضطر المدافعين عن عسقلان إلى التسليم:

«وراسلوا في طلب الأمان بشروط اقترحوها، والعفو عن جرائم اجترحوها [مقتل الأمير وطلب الثأر له]. . . فاشتطوا واشترطوا وسروا إلى ما أجيبوا إليه واعتصموا، فسَلّمُوا البلد بأنفهسم وأموالهم، وخرجوا منها برجالهم ونسائهم»[1]. تاركين وراءهم الذخائر والسلاح. كان ذلك يوم السبت 5 أيلول 1187 م، بعد أسبوعين متواصلين من قدوم صلاح الدين إليها. وسَيّر السلطان خفراء من عساكره مع من خَرَجَ من عسقلان من الفرنج وغيرهم من سكانها، لضمان أمنهم حتى الوصول إلى حدود بلاد القدس[2]، آخر المعاقل في فلسطين التي بقيت بيد الصليبيين. أمّا الملك غي فقد تأخر إطلاقه، ربّما بسبب عدم استجابة سكان عسقلان من المستوطنين الصليبيين للمبادرة من البادية، حتى السنة التالية[3].

وكان صلاح الدين، عند التقائه بأخيه العادل على مَجْدَل يابا، قد أرسل فرقاً من قواته إلى الرملة ويُبنى وبيت لحم والخليل[4]. وكانت يبنى خاصة مستوطنة حصينة بناها الصليبيون بَعْد بيت جبرين لتشديد الحصار على عسقلان سنة 1143 م إذ كانت لا تبعد أكثر من 16 كليومتراً عن المدينة الحصينة، وكانت بداية قلعة مربعة الشكل مبنيّة من الحجارة الصلبة من مخلفات المدينة الخربة القديمة، بسور قوي وأبراج في زواياه الأربع، تتوافر المياه فيها وحولها من الآبار، ومنحها الملك إلى أحد كبار نبلاء المملكة هو باليان الكبير بن بارزان، والدبلدوين وباليان الصغير، ومؤسِّس إقطاعية الأسرة التي نسبت إلى المكان الذي بُنيت فيه، والتي نَما

(1) سنا (ق)، ص 308؛ الفتح، ص 113؛ الروضتين، 2 ص 91.
(2) سنا (ق) ص 307 - 308؛ الكامل، 11 ص 545 - 546.
(3) رنسمان، تاريخ الحروب الصليبيّة، 2 ص 462 - 463 هامش 4.
(4) الفتح، ص 114.

حولها مستوطنة كبيرة فيما بعد[1]، وكان لها دور كبير في تاريخ المملكة الصليبية.

وبَعْد الاستيلاء على عسقلان وتَرْتيب أمورها من إدارة مدنية ودينيّة وحامية عسكريّة، إذ وهبها والبلاد التابعة لها لأخيه الملك العادل، وعين على القضاء والحكم والخطابة والحسبة وجميع الأمور الدينيّة فيها وأعمالها القاضي عبد الله بن عُمَر الدمشقي المعروف بقاضي اليمن[2]؛ وإضافة إلى ذلك فقد أرسل صلاح الدين إلى مُقَدّم الأسطول المصري - حسام الدين لؤلؤ - يأمره بالخروج من مصر والتوجه إلى قبالة السّاحل الفلسطيني والشامي لتأمينه من جهة البحر وقطع الطريق على سفن الفرنج المتوجهة نحوه، فسار لؤلؤ إلى الجهة المُحَدّدة فكان «كلّما رأوا لهم مركباً غنموه»[3]؛ بعد كل ذلك أقام خارج أسوار المدينة مُدّة حتى يُصَفّي بقيّة المعاقل والحصون جنوب عسقلان حتى حدود مصر وعلىَ الطرق بين عسقلان والقدس. وهنا ساعد مُقَدّم الدَّاوية في تَسليم عدد كبير من المدن والحصون التي كانت في عهدة جماعة الفرسان التي يرئسها إلى فرق صغيرة أرسلها صلاح الدين إليها للتمركز فيها وحمايتها: غَزّة والداروم على الطريق إلى مصر، وبيت جبرين على الطريق من غزة إلى الخليل وبيت لحم والقُدس، وحصن اللطرون قرب عمواس [باب الواد] الذي يتحكم في الطريق بين يافا والرَّمْلَة واللُد في السّاحل والسهل والقُدس في وسط الهضبة. وبعد ما تَمّ ذلك أطلق مُقَدّم الداويّة[4] الذي توجه مع البقيّة إلى القُدس حيث كان مَقَرّه في المسجد الأقصى الذي حوّلوه إلى المقرّ الرئيسي الذي يتحكم بكل فروعها في بلاد الشام.

---

(1) وليم، تاريخ، 2 ص 130 - 131.

(2) السلوك، 1 ص 101.

(3) سنا (ق) ص 309؛ الكامل، 11 ص 546.

(4) سنا (ق) ص 308؛ الكامل، 11 ص 546؛ الروضتين، 2 ص 91؛ النوادر، ص 80.

ويهمنا هنا أنّ نصف مكانين من هذه المواقع التي سَلّمها الداوية لصلاح الدين: بيت جبرين واللطرون، نظراً لموقعهما الاستراتيجيّ وللدور الذي كان لهما في التطورات التالية حتى نهاية الحملة الثالثة: في أواسط العقد الرابع من القرن الثاني عشر، فكّر الملك فولك (1131 ـ 1143 م) بخطة لإحكام الحصار حول عسقلان لإنهاء الغارات المستمرّة التي كانت تنطلق منها نحو البلاد الساحلية والهضبة والتي وصلت إلى مستوطنة البيرة شمال القدس. وبدأ تنفيذ الخطّة ببناء حصن في بيت جبرين التي تقع بين السهل والجبل (بلاد الخليل) على الطريق على بعد 20 كيلومتراً تقريباً من عسقلان. فحشد الملك القوة البشرية المتوافرة لديه، واختار الموقع، وبدأ البناء. وبعد الانتهاء من بناء الحصن الذي يحيط به سُور منيع وأبراج وتحصينات إضافية وخندق، سلّمه إلى جماعة فرسان الاسبتارية، ثم نشأ حوله مستوطنة كبرت بالتدريج [1] .

وأمّا اللطرون فكان حصناً صغيراً لكن أهميته الاستراتيجية كبيرة، فالطريق الذي سيسير فيه صلاح الدين إلى القدس سَيَمُرّ به أو بقربه، ويقع أيضاً في الجبال قريباً من الحَدّ بين السهل والهضبة.

وهكذا فقد أَصَبْح الطريق إلى القدس، الهدف الأول لكل أعمال صلاح الدين وفتوحاته في فلسطين، خالياً من أية مقاومة في البر أو إمدادات من البحر. وعندما اطمأن السلطان إلى التراتيب التي اتخذها توجّه على رأس قُواته إلى القدس. أما الملك الأسير فأرْسِل محفوظاً إلى نابلس ليُسجن في قلعتها عند عمر، ابن أخت السلطان، صاحبها [2] .

---

(1)ا وليم تاريخ، ص 81 - 82 انظر أيضاً بنفنستي، الصليبيون، ص 185 - 189.
(2)ا الروضتين، 2 ص 96؛ الكامل، 11 ص 550.

13 استعادة القُدس

«وكان فُتوحاً عظيماً، شَهِدَه مِنْ أَهْلِ العِلْم خَلْقٌ عظيم، ومن أرْبَابِ الخِرَقِ والطُّرق [الصوفيّة]، وذلك أَنَّ النَّاسَ لمّا بَلَغَهم ما يَسَّر الله على يَدِه من فُتُوح السَّاحِل، وشَاع قَصْدَه القُدْس، قَصَدَه العُلماء من مِصْرَ والشَّام، بحيث لم يَتَخلّف مَعْرُوف من الحُضُور». النوادر، ص 82.

«وقال [صلاح الدين]: إن أسْعَدَنا الله على إخراج أَعْدَائِه من بَيْتِ المُقَدّس فما أَسْعَدَنا، وأيّ يَدٍ له عندنا إذا أَيّدَنَا، وأنَّه مَكَث في أَيْدِي الكُفْر إحْدَى وتِسْعين سنة [قمريّة]، لم يَتَقَبّل الله فيه من عابد حَسَنة، ودَامت هِمَم المُلُوك دُونَه مُتَوَسِّنَة، وخَلَت القُرُون عَنْه مُتَخلِّيَـة، وخَلَت الفِرنجُ به مُتَوَلّية، فَما إدَّخَر الله فَضِيلَة فَتْح إلاّ لآل أيُّوب، ليَجْمَع الله لَهُم بالقَبُول القُلُوب؛ وكَيْفَ لا يَهْتَمُّ بفتح البَيْت المُقَدْس الأَقْوَى، والمَسْجد الأقْصَى المُؤَسَّسِ على التقوى، وهُوَ مَقَامُ الأنبياء، ومَوْقفُ الأوْلِيَاء، ومَعْبَدُ الأتْقِيَاء، ومَزَار أبْدال الأَرْض ومَلائِكَة السَّماء...». العماد في **الروضتين**، 2 ص 94.

في اليوم الذي دَخل فيه صلاح الدين وقُوّاته عسقلان (السبت 27 جمادى الآخرة/ 5 أيلول 1187 م)، استقبل وفداً من سُكّان مدينة القُدْس الذين كان قد طَلَبهم، أثناء وُجُوده عند عسقلان، لمفاوضته بشأن شروط تسليم مدينة القُدس

بالأمان. وفي ذلك اليوم كانت الشمس في حالة كُسُوف [1]. لكنّ الوَفْد رفَضَ بَحْثَ الأمر، كما تذكر المصادر اللاتينيّة، وتسليم المدينة التي مات فيها السيد المسيح من أَجْلِهم، وعادوا إلى القدس [2]. عند ذلك أقْسَم السُلْطَان على الاستيلاء عليها بِقُوّة السلاح [2]. ويؤكد ذلك العماد الذي يذكر بعد ذلك خروج وفدٍ من المدينة أثناء الحصار لطلب الأمان:

«فأبى السلطان إلاّ قتالَهم وتَدْمِيرَهم واستئصالهم، وقال: لا آخُذَ القُدْسَ إلاّ كما أخذوه من المسلمين.... فإنّهم استباحوا القتل، ولم يتركوا يَسْتَزِير مسنة، فأنا أفني رجالهم قتلاً وأحوي نساءهم سبياً» [3].

ويبدو أن سبب تَعَنُّت الوفد كان الأمل بقدوم إمدادات، أو أن يتمكن مُقَدّم الداويّة وفرسانه ورجاله وغيرهم بعد إطلاق سراحهم من أنْ يصلوا إليها والدفاع عنها.

وفي هذه الأثناء قدِم إلى القُدس باليان بن بارزان، صاحب نابلس قبل استعادة المسلمين لها. ويذكر أحد المصادر اللاتينيّة المعاصرة قِصّة مؤثرة عن كيفية إعطاء صلاح الدين الإذن له بالوصول إلى المدينة بالرغم من سيطرة قوات صلاح الدين عليها من كل الجهات، مما يَدُل على مدى انضباط قوات القائد الأعلى وإطاعتها لأَوَامِره:

شهد باليان، كما بيّنا، معركة حطين، وكان مع جُنْدِه في المُقَدّمة التي قادها ريموند الثالث، التي حاولت اختراق صفوف ميمنة صلاح الدين التي كان يَقُودها تقي الدين عمر، الذي فتح صفوفها، فمرّ ريموند وباليان وتعديا الميمنة نحو قرية حطين ولم يرجعا ويعاودا الكَرّة. وتَوجه باليان مباشرة من ميدان المعركة إلى صور حيث التجأ إلى حماية أسوارها الحصينة. أمّا زوجته،

---

(1) ينقل رنسمان ذلك عن المؤرخ اللاتيني المعاصر إرنو. تاريخ، 2 ص 463. ويؤكد ذلك ما ذكره المقريزي من حدوث اقتران للكواكب الثلاثاء 27 جمادى الآخرة ـ الأربعاء 28 منه سنة 583 هـ. السلوك، 1 ص 98.

(2) رنسمان، تاريخ، 2 ص 463 استناداً إلى إرنو وتاريخ هرقل (Eracles).

(3) الروضتين، 2 (البرق) ص 95.

الملكة ماريا سابقاً، فقد كانت وقت معركة حطين في نابلس مَقَرّ مقاطعة زوجها. وعندما هاجم الفلاّحون الأرياف، وتَقَدّمت قوات حسام الدين إلى نابلس، غادرت المدينة واتجهت هي وأولادها إلى القُدْس، حيث كانت المنطقة بينهما آمنة ولم تصلها القوات الصلاحية بعد، فالتحقت بمن كان في القدس من الهاربين من مختلف المناطق، والتي صارت الملجأ الآمن مؤقتاً لكل الذين هربوا أو استسلموا بالأمان من المدن والقلاع والحصون والأرياف في منطقة السّاحل وغيرها. وأرسل باليان إلى صلاح الدين يطلب أماناً لنفسه للوصول إلى القُدْس ليأخذ زوجته وأولاده ويعود إلى صور. ومنحه السلطان التصريح بذلك، بشرط أن يبقى في المدينة المُقَدّسة ليلة واحدة وأن لا يحمل معهُ أي سلاح. وعندما وَصَل إلى القدس وجَدَ البطريرك ومُقَدّم الداويّة ورجاله وكذلك فرسان الاسبتاريّة يعملون مع أهل المدينة على تقوية دفاعات المدينة وليس بينهم أحد من النبلاء أو القادة الذين يمكن أن يثق الناس بهم لقيادة الجموع المتباينة المستعدة للدفاع، فَطَلَبُوا من باليان، صاحب الخبرة العسكرية والسياسيّة الطويلة في إقطاعيته والمملكة، البقاء معهم وتولي قيادة الجموع، فوافق على ذلك لكنّه كتب إلى صلاح الدين يُوضح دوافع نقضه شرط الأمان. فهل كا ، هذا حقيقة أم خدعة؟ لن نستطيع التأكد من ذلك؛ لكن السلطان قبل عُذْره، و رسل خفراء من جُنده لمرافقة ماريا وأولادها وحاشيتهم وأموالهم عَبر المناطق التي تسيطر عليها قُوّاته إلى صُور[1].

وجمع صلاح الدين قُوّاته، وتوجّه على رأسها ومعه الملك العادل وابنه العزيز عثمان الذي قدم من مصر وانضم إليه بعد فتح عسقلان، نحو القُدْس. في هذه الأثناء كان الصليبيون في القدس يُواصلون تجهيز الدِّفاعات:

«. . . ونصبوا المجانيق على الأسوار، وسَتَرُوا بظلمات الستائر وُجُوه الأنوار، وشاطت شياطينهم، وسرحت سراحينهم. . . وحظتهم قُسُوسُهم، وحَرّضتهم رُؤوسُهم. . . وجاءتهم بنجوى السُّوء جواسيسهم.

(1) رنسمان، تاريخ، 2 ص 463 (عن إرنو).

ونصبوا على كل نيق منجنيقاً، وحَفَروا في الخندق حفراً عميقاً، وشادوا في كل جانب رُكناً وثيقاً، وفرّقوا على كل بُرْج فريقاً. . . وأعادوا على كل نهج واسع بما وَعَّرُوه وعَوّرُوه مضيقاً، وتَحَمّل كل منهم ما لم يكن له من قبل مطيقاً» (1).

وسار صلاح الدين بقُوّاتِهِ من عَسْقَلان على طريق الرّمْلَة واللطرون إلى القُدْس. وقَدّم كَشّافَةَ مُقَدّمة جيشه لاستكشاف الطريق بقيادة الأمير جمال الدين شَرْوِين بن الحسن الزرزاري الكردي، لكنْ هذا الأمير لم يتخذ الاحتياطات اللازمة لمثل مهمته، فسار دون احتراز ووقع وبعض رجاله في كمين لقوات الصليبيين التي أرسلت للاستكشاف، فقتل وبعض من معه عند قرية القُبَيْبات(2) التي تقع على بعد 11 كيلومتراً إلى الشَّمَال الغربي من القُدس (3).

وفي يوم الأحد 15 رجب سنة 583 (20 أيلول 1187 م) وَصَل نور الدين وقُوَّاته إلى الجهة الشماليّة الغربيّة من القدس، وأقام مخيّمه في مواجهة الأسوار من هذه الجهة، كما طلب من العادل ومن معه من القُوّات محاصرتها من الجهة الجنوبية الغربية، فخيّم عند كنيسة جبل صهيون قرب القلعة (برج داود) والبوابة في هذه الجهة، تماماً كما حصل سنة 1099 م عندما قَدِمَت الحملة الأولى وخيّم ريموند الصنجيلي وجماعته ومن معه من الأُمَراء.

وقبل أن نعالج عمليات الحصار والتطورات التالية لها، لا بدّ لنا كما درجنا في الصفحات السابقة من وصف عامٍ لحالة المدينة المُقَدّسة عندما وصل إليها صلاح الدين (4):

تقع مدينة القُدس على تَلّة في وسط الهضبة، وتحيط بها الأودية العميقة

(1) الروضتين (عن البرق)، ص 93.

(2) المصدر نفسه.

(3) صلاح الدين [E]، ص 272.

(4) لن أستطيع تقديم وصف كامل لحالة المدينة في آخر فترة المملكة اللاتينية، ولذلك سأكتفي بخلاصة لبحث كتبته في السابق باللغة الإنجليزية في كتاب: **القدس في التاريخ**، ص 130 - 176. والترجمة العربيّة: ص 165 - 202.

من الجهتين الشرقيّة والجنوبية، أمّا الجهة الغربيّة فالأرض خارج السور أكثر سهولة وإن كان فيها بعض الانحدار قُرب الأسوار. أما الجهة الشماليّة فهي أكثر جهاتها سهولة خاصّة في المنطقة بين باب العمود وباب الساهرة وحتى زاوية السور في تلك الجهة. وكانت هذه الجهة أضعف مناطق المدينة، بالرغم من تحصينها، لأنّها تُيَسِّر حركة الجيوش فيها نظراً لسهولتها. ومن هذه الجهة دَخَل الصليبيُّون المدينة سنة 1099 م، ومنها أيضاً حَاصَرها صلاح الدين بداية ثم دخلها بالأمان.

وكان يُحيط بالمدينة سُور جَيّد التحصين عادة ولا يمكن اختراقه بسهول ، ويحتاج إلى استعمال آلات الحصار المناسبة، وحفر الأنفاق من الجهة الشماليّة أو الجنوبية حيث جبل صهيون الذي هو امتداد للتلة، ويُوَفّر مجالاً للمناورة للقوات، لكنّ التحصينات في هذه الجهة جيدة أيضاً حيث القلعة المنيعة.

وفي سور المدينة عَدَد من الأبراج الحصينة، خاصة عند الأبواب وفي زواياه. ويوجد خارج السُّور في بعض المناطق تحصينات إضَافِيّة مثل البواشير والخنادق المحفورة في الصخر خاصة في الجهة الشماليّة الضعيفة نسبياً. وقد أضاف الصليبيّون بعض التحصينات التي لم تكن قبلهم مثل برج تنكرد، نسبة إلى أحد الأمراء الذين شاركوا في الحملة الأولى، في الزاوية الجنوبيّة الغربيّة، ومثل الجدران خارج المنطقة التي أعطيت للنصارى السوريين في الجهة الشمالية الشرقيّة والتي كانت تعرف بجدران أو تحصينات مريم المجدليّة؛ وكانت تمتد من برج الزاوية (اللقلق) نحو الشرق حتى المنحدر الذي يؤدي إلى وادي شوفاط [مقابل المدرسة الرشيديّة والمتحف]، ثم يتجه جنوباً حتى باب الأسباط الحالي الذي يفصل الشارع الذي يدخل منه بين سور الحرم الشمالي وبين حيّ النصارى السوريين آنذاك الذي كان يمتد حتى باب العمود.

وأبرز المعالم في المدينة المقدسة في الربع الأخير من القرن الثاني عشر كانت منطقة الحرم الشريف ومنطقة كنيسة القيامة. وتحتل منطقة الحرم معظم الجهة الشرقية وحوالي خمس المدينة المُسَوَّرة، وقد حَوَّل الصليبيون مسجد قُبَّة

الصخرة إلى كنيسة رَفَعُوا فوقها صليباً ضخماً، كما حَوّلوا المسجد الأقصى بداية إلى قصر للملك، ثم عندما بنى الملك قَصْره شرقي القلعة، أُعْطِي لفرسان الداوية حيث اتخذوه مقراً رئيسياً لجماعة فُرسانهم التي انتشرت فروعها وحصونها وأحياؤها الصغيرة في كل بلاد الشام، مدناً وأريافاً. وقد أدخلوا في المسجد بعض الإضافات لتيسير أعمالهم الكثيرة، كما جعلوا من الأقبية الواسعة تحتهُ أسطبلاً لخيولهم، حيث يُذكر أنّه كان يتَسع لألف من الخيول.

وكان حي النصارى في الفترة الفاطميّة، حيث كنيسة القيامة في وسطه، يحتل القسم الأكبر من الجهة الغربيّة من المدينة غرب الطريق الممتد من باب العمود إلى منطقة الأسواق (خان الزيت) المتوسطة وامتداد ذلك إلى باب داود أو باب الخليل الحالي. وقد استولى الصليبيون اللاتين على هذا الحيّ واستوطنوه مدة بقائهم في القدس، وصار يُعرْف بحي (أو رُبْع) البطريرك أو اللاتين.

وكان في هذا الحي، مقابل كنيسة القيامة في الجنوب، مجمع الاسبتاريّة المشهور، ولا يفصل بين المجمعين سوى شارع. وصار هذا المجمع، المكون من مشفى وبيت ضيافة وكنيسة ودير وبنايات أخرى، مَقَر فرسان الاسبتارية الرئيسي لكن خيولهم كانت خارج الأسوار في بناية خاصة خارج باب العمود.

وبين هذا الحي والحرم الشريف كانت تقع أحياء أخرى نشأت خلال هذه الفترة مثل حي الأرمن وحيّ الألمان والمنطقة التجارية.

وأجرى الصليبيون تعديلات على استخدام بعض الأبنية، كما رأينا، فحولوا أيضاً مدرسة الشافعية شمال سور الحرم إلى كنيسة، كما بنوا عدداً من الكنائس لاستخدام الطوائف المختلفة التي سكنت المدينة بصورة دائمة، وربّما بعض الأبنية الجديدة مثل بيوت الضيافة للحجاج والأسواق، لكن الصورة العامة للمدينة بقيت كما كانت في السابق.

بعد الاحتلال الصليبي للمدينة تَغَيّر سكان المدينة كلياً، وحَلّ مكان المسلمين والنصارى السوريين واليهود القليلين، اللاتين بداية إذ لم يسمح

للجميع خاصة المسلمين واليهود بسكنى المدينة، كما أن النصارى السوريين السابقين لم يعودوا وجاء الملك بلدوين بنصارى من شرقي الأردن وأسكنهم في الحيّ الذي ذكرنا نظراً لمهارتهم في أعمال الخدمات المختلفة التي يحتاجها اللاتين الذين كان أغلبهم من أصول فلاّحيّة لا يتقنون الخدمات أو أية مهارات يحتاجها سكان المدن والسائحين والحجاج الذين يفدون سنوياً إلى المدينة.

وخلال القرن الثاني عشر ازدهرت مدينة القُدس وزاد عدد سُكّانها من اللاتين والأوروبيين والنصارى الشرقيين من أرمن وجورجيين ويونان، بحيث ذكر أحد الرحالة الذين زاروا المدينة قبل استعادة صلاح الدين لها بقليل، أن المتجول في أسواق المدينة كان يستطيع التمييز بين مذاهب الجماعات المختلفة التي تسكنها وبلادهم من المظهر الخارجي للناس من لباس أو قبعات أو لحىً وكيفيّة تشذيبها أو حلقها أو من اللغة والعادات التي تتميز بها كل مجموعة.

بعد هذه اللمحة السريعة لمدينة القدس، كما كانت عليه عند وصول صلاح الدين إلى أسوارها، ننتقل إلى معسكر السلطان لمتابعة التطورات من حيث توقفنا.

مكث صلاح الدين في مُخيّمه غرب القُدْس مُدّة خمسة أيام أمضاها في استكشاف التحصينات حول المدينة التي يشَاهدها لأول مَرّة والتي كان يَتَرَدّد اسمها دائماً على مسامعه منذ أيام طفولته، فهي مركز الأحداث والصراع بين المسلمين والصليبيين. كان «يدور على البلد، ويُقْسِم حِصَاره على أهل الجَلَد» من جيشه دون أن يتخذ قراراً بالهجوم وتقديم آلات الحصار. ووجَدَ بعد هذه المُدَّة، كما وَجَد غيره من القادة الكبار في العصور السابقة، المكان المناسب للحركة الميدانية، وكذلك تحريك المنجنيقات والآلات الأخرى. كانت الجهة الشمالية من الأسوار دائماً نقطة الضعف الرئيسيّة التي يستغلها المحاصِرُون عند رفض أهل المدينة وحاميتها الاستلام بأمان، فقرر الانتقال إلى تلك الجهة، وأقام فيها المعسكر الميداني، أمّا المعسكر الدائم الذي تحفظ فيه الأثقال وتقام الأسواق المرافقة دائماً للجيوش التي تقوم بحملات تَطُول مُدّتها ـ والتي سنَصِفُ فيما بَعْد ـ فقد أقُيم على جبل الزيتون إلى الشرق من المدينة ويُشْرف إشرافاً تاماً

على المدينة المُسَوَّرة وعلى المعسكر الميداني. أما الملك العادل وقُوّاته فقد بقيت في موقعها على جبل صهيون حتى تقوم بعمليات الحصار في تلك المنطقة وتشتيتُ جُهود المدافعين في أكثر من موقع. وكان الانتقال إلى الموقع الجديد يوم الجمعة 20 رجب/ 25 أيلول[1]. وبدأت الفرق المتخصصة من منجنيقيين ونَقّابين وصُنّاع الستائر والرماة بالتجهز والاستعداد للأعمال التي سيبدأون تنفيذها في اليوم التالي، كما قام بقيّة الجيش بالتجهز للأعمال المحددة حسب التعبئة المحددة التي يعرفها قادتهم.

وفي صباح اليوم التالي (السبت 21 رجب) كانت المنجنيقات جاهزة للعمل، وكذلك النَقّابون والرّماة، وبدأ الهجوم، فَقُرِّبَت المنجنيقات إلى المدى الذي سيوقع أكبر تأثير في السور، وتَقَدّم النَقّابون والحَجَّارون إلى المواقع المُحَدّدة لحفر الأنفاق في ذات الموقع تقريباً الذي دخل منه الصليبيون سنة 1099: الزاوية الشماليّة الشرقية من الأسوار حيث برج اللقلق المشهور أو الزاوية كما يعرف أحياناً:

«ونَصَب عليه المنجنيقات، وضايَقه بالزحف والقتال وكثرة الرُّماة، حَتّى أخذ النَّقْب في السور مما يلي وادي جهنم في قُرْنة شمالية»[2].

أمّا في المدينة المحاصرة، فقد ذكرنا فيما تَقَدّم بعض الاستعدادات المناسبة، لكننا لم نذكر شيئاً واحداً: الكثافة السكانيّة فيها. كانت المدينة في الوقت الذي وَصَل فيه صلاح الدين وأمراؤه ومن معهم إليها تَغُصُّ بعشرات الآلاف من الناس من سكانها في الأحوال العادية ـ الذين يقارب عددهم 10 آلاف ـ، وجُنْد الحاميات من اللاتين والفرنج والنصارى الذين لجأوا إليها من نابلس والخليل وبيت لحم وغَزّة والداروم والرملة واللد ويبنى وأرسوف وحيفا وعسقلان، أي كل مدن وقلاع وحصون وأبراج وأرياف المنطقة الوسطى والجنوبيّة من فلسطين التي سيطرت قوات السلطان على أغلبها بالأمان. وصَار في

---

(1) سنا، (ق) ص 310؛ الروضتين، 2 ص 93.
(2) النوادر، ص 81.

داخل أسوار القدس عشرة أضعاف سكانها في الأحوال العاديّة في أكثر التقديرات وستة أضعاف في أقلها، وامتلأت المساكن والكنائس والأديرة وبيوت الضيافة والساحات العامة والأزقة في الأحياء، حتى كان السائر يجد صعوبة كبيرة في المشي والحركة فيها[1]. يذكر ابن الأثير:

«. . . فإنه كان فيه [القدس] **على الضبط** ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل سوى من يتبعهم من النساء والولدان، ولا يعجب السامع من ذلك، فإن البَلَد كبير، واجتمع إليه من تلك النواحي من عسقلان وغيرها. . . [و] من القرى، بحيث امتلأت الطرق والكنائس، وكان الإنسان لا يقدر أن يمشي»[2].

وزحفت فرق صلاح الدين نحو أهدافها بحماس واندفاع، كل في الجهة التي حُدِّدت له، وقابَلَهُم المدافعون المتحمسون الذين خرج بعضهم لقتال المتقدّمين، الأولى نحو التحصينات الخارجيّة والخندق، والثانية لصدهم عن هدفهم. ووقع قتال ونزال فردي وقتل في الأخير من المسلمين الأمير عز الدين عيسى بن مالك العقيلي، الأمير العربي الذي كان أبوه صاحب قلعة جعبر المنيعة على الفرات التي قتل عماد الدين زنكي اغتيالاً وهو يحاصرها، ثم سلّمها الأب لنور الدين، فكان أول شهداء استعادة القدس الكبار[3].

وتمكن المهاجمون من اختراق التحصينات الخارجيّة (الباشورة)، والوصول إلى الخندق وطَمّه وعُبُوره، وبَدّدوا المدافعين الذين كانوا خارج الأسوار، «والتصقوا بالسور، فنقبوه وعَلّقوه وحَشُوه وأَحْرَقُوه. . .» فوقعت قطعة منه وتمكن بعض المهاجمين من الدّخُول من الثَّغْرَة التي نتجت عن السُّقُوط

---

(1) انظر: مصطفى الحياري، «القُدس تحت حكم الصليبيين: 1099 - 1187 م» في كتاب القدس في التاريخ، ترجمة وتحرير كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، 1992، ص 165 - 202، خاصة ص 191 - 192.

(2) الكامل، 11 ص 549 - 550.

(3) سنا، (ق) ص 310؛ الروضتين، 2 ص 94؛ الكامل، 11 ص 548.

المذكور، وتَسَلَّقُوا السُّور ورفعوا فوقه الرايات الصلاحيّة الصفراء [1]، لكنّ المدافعين في ذلك المكان أعادوا تجميع صُفُوفِهم، وأجبروا المهاجمين الذين تمكنوا من الوصول إلى الأسوار على الانسحاب. ويَصِف الفَاضِل عمليّة النقب في الأسوار:

«فأخلى السور من السَيّارة [الحُرّاس]، والحرب من النظارة، وأمكن النَقّاب أنْ يُسْفِر للحرب النقاب، وأن يُعِيدَ الحَجَر إلى سيرته من التراب، فتَقَدّم إلى الصَخْر فمضغَ سرده بأنياب معوله، وحَلّ عقده بضربه الإحراق الدّال على لطافة أنمله، وأسمع الصخرة الشريفة حنينه... وأَخَذَ الخراب عليها [الحجارة] موثقاً فلن تبرح الأرض، وثمّ استقرت على الأعلى أقدامهم وخفقت على الأقصى أعلامهم...»[2].

كان هذا الاختراق يوم 29 أيلول 1187 م.

وكان لهذا الاختراق السريع للتحصينات والسور الذي أنجزه المهاجمون المتمرسون أثر كبير على معنويات المدافعين بقيادة باليان والبطريرك، ووجدوا أن استمرار العمليات العسكريّة سيؤدي إلى قتل وأسر وسبي كل الفرنج الذين كانوا في المدينة، ولا مجال على الإطلاق لوُصُول إمدادات لتعزيز قوتهم من أي جهة مما قد يُسَاعد في تخفيف الحصار. فدعا القائدان إلى عقد مجلس مشورة لبحث الوضع واستغلال الوقت قبل فوات الأوان، وأَصَرَّ البعض على القيام بهجوم مضاد أخير، لكنّ القادة الكبار رفضوا الاقتراح، وتَقَرّر في النهاية مفاوضة السلطان لتسليم المدينة مقابل عهد أمان بشروط مناسبة. وخرج وفد من الكبراء والوجهاء للتفاوض مع صلاح الدين على فكرة الأمان بداية. لكنّ السلطان، الذي أقسم على أخذها بالقُوّة، رفض العرض بشدة، وقال:

«لا آخذ القُدْس إلاّ كما أخذوه من المسلمين منذ إحدى وتسعين سنة [هجريّة]، فإنهم استباحوا القتل...»[3].

(1) الكامل، 11 ص 547 - 548؛ سنا، ص 310.

(2) الروضتين، 2 ص 100.

(3) الروضتين، 2 ص 95 (البرق الشامي).

وعاد الوفد إلى المدينة دون الحصول على الأمان. عند ذلك أرسل باليان بن بارِزَان إلى صلاح الدين يطلب الأمان لنفسه للحضور عند السلطان لبحث الأمر وتقريره. ويلخص ابن الأثير الاجتماع بكلمات موجزه:

«فأجيب إلى ذلك، وحضر عنده [أي صلاح الدين]، ورغب في الأمان، وسأل فيه، فلم يجبه إلى ذلك؛ واستعطفه فلم يعطف عليه، واسترحمه فلم يرحمه» [(1)].

وترددت الرسل في المفاوضات بين الجانبين مُدّة خمسة أيام، أصَرّ السلطان في بداياتها على موقفه الحازم من البر بقسمه، وفي النهاية هَدَّد باليان، القائد السياسي والعسكري المجرب، بلسان جميع أهل المدينة:

«. . . إذا أيِسْنَا من أمانكم، وخِفْنَا من سُلْطانكم، وخِبْنَا من إحسانكم، وأيقنا أن لا نَجَاة ولا نَجَاح، ولا صُلْح ولا صَلَاح، ولا سِلْم وَلا سلامة. . . فإنّا نستقل فنُقَاتل قتال الدَّم والندَم، ونقابل الوجود بالعَدَم، ونلقي أنفسنا على النّار ولا نُلْقي بأيدينا إلى التهلكة والعَار، ولا يُجْرح مِنّا واحِدٌ حتى يَجْرَح عشرة. وإنا نحرق الدور، ونُخَرّب القُبّة، ونترك عليكم في سبينا السُبّة، ونقلع الصَّخْرة ونوجدكم عليها الحَسْرَة، وقُبّة الصَّخْرة نرميها، وعين سُلْوان نُعمِّيها، والمصانع [خزانات المياه] نخسفها. . . وعندنا من المسلمين خمسة آلاف أسير [للمبالغة] [(2)] . . . فنبدأ بقتلهم وشَتّ شملهم. أمّا الأموال فإنا نعطبها ولا نعطيها، وأما الذراري فإنا نسارع إلى إعدامها. . . فلا يحصل لكم سبي، ولا يقبل لكم سعي، ولا يسلم عُمْر ولا عمارة. . ولا يُصْلح السوء سوى الصُلْح. . » [(3)].

---

(1) الكامل، 11 ص 548. أما العماد فيفصل ذلك بأسلوبه الخاص، الروضتين، 2 ص 95.

(2) عدد الأسرى المسلمين في القدس كان بين 3000 - 5000، ويبدو أن الرقم 5000 ذكر للمبالغة من أجل الوصول إلى اتفاق. انظر: النوادر، ص 82؛ سنا (ق) ص 311 والروضتين، 2 ص 95. وسنرى فيما بعد العدد الأقرب لكل سكان المدينة ومن لجأ إليها حسب الإحصاءات التي توردها المصادر.

(3) الروضتين، 2 ص 95.

هذا كلام رجل في الحروب مُجَرّب، وفي نفسيّة المقاتل العادي عارف، الذي يُفَضّل حصته من الغنيمة على كل شيء؛ كما يعرف صلاح الدين وعَدَم رغبته بسفك الدماء، وكذلك بقيّة الأمراء، فالتسامح والحقد لا يجتمعان في إنسان مثله، وقِيَم الإسلام التي يتمسك بها لا تسمح له بقتل من يطلب الأمان؛ فماذا فَعَل السلطان عندما سمع هذا الكلام، سواء صَدّقَه أم عَرَف ما وراءه.

وكعادة صلاح الدين دائماً، كما رأينا وسنرى في ما يلي، طلب مجلس مشورته المكون من كبار الأمراء والقضاة - ولم يكن القاضي الفاضل أو العماد حاضراً - إلى الاجتماع والتداول:

«وشاورهم في الأمر، وحَاوَرَهم في السِّر والجهر، واستطلع خبايا ضمائرهم، واستكشف خفايا سرائرهم... واستعلم ما عندَهم، ورَاوَضَهم على المصلحة المترجِحَة، وفاوَضَهم في المصالح المربحة...»[1] «... فقيل له: الصواب أن نحسبَهم أسارى فنبيَعَهم نفوسهم، ونُعَمّم لصَغّار الجزية رُءوسهم، ويَدْخل في القطيعة مرؤسهم ورئيسهم. **واستقر الحال** بعد مراودات ومعاودات، ومفاوضات وتفويضات، وضراعات من القَوْم وشفاعات، على قطيعة تكمل بها الغبطة، ويحصل منها الحوطة، واشتروا منّا أنفسهم وأموالهم وخَلَّصُوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم...»[2].

مال الجميع في مجلس المشورة، كما يبدو، إلى قبول تَسْليم المدينة بالأمان حسب الشروط التي سيحددها الجانب الإسلامي، فبالإضافة إلى ما تَقَدّم من عوامل تدعو إلى القبول كان الجُنْد في عسكر صلاح الدين قد أرهقهم البقاء الطويل في ميدان القتال. ولولا الغنائم الكثيرة التي حصلوا عليها في العمليات السابقة واستمرار وصول التموين والإمدادات لما استطاعوا البقاء كل هذه المدة

---

(1) في الفتح، ص 127، أن صلاح الدين هو الذي قال بمنح الأمان، أما في البرق، فقيل، دلالة على المجلس.

(2) الروضتين (البرق)، ص 95؛ سنا، (ق) ص 311.

(ثلاثة أشهر) بصورة متواصلة في الميدان، فحالة الحرب تكلفتها عالية في حال العمليات أو توقفها مؤقتاً. فما دام الهدف الأساسي للحرب، وهو استعادة القدس، سيتحقق دون إراقة مزيد من الدماء فليكن. من ناحية أخرى فإن القائد المسلم الذي أقْسَم يميناً يمكن أن يتحَرّر من قسمه أو يفي به بطرق أخرى شرعيّة أجمع عليها الفقهاء، إضافة إلى الفرق الكبير بين حضارة من قدموا في الحملة الصليبيّة الأولى الذين كانوا يقتلون أولاً ثم يذهبون إلى الكنائس للصلاة لتبرئة نفوسهم من الدماء التي سفحوها من أجل الرب بحقد ليس له مثيل في ذلك الوقت، وبين حضارة المسلمين في هذه المنطقة حَتّى مع الفهم غير الدقيق أحياناً للأتراك المسيطرين في مجتمعاته بالتغلب لقيم الدين ومبادئه السمحة.

كان الأمان الذي تَمّ الاتفاق عليه لاستسلام مدينة القُدس يختلف بعض الشيء عن أنواع الأمان التي تمت في السابق. فالعادة في عقد الأمان، خُروج المحَاصَرين الذين أُمِّنوا بأنفسهم وأموالهم الشخصيّة وترك كُلّ شيء آخر في المدينة من مواد منقولة سواء أكانت عسكرية أم مدنيّة، وتُصْبح هذه غنيمة لمن يستلمها. أمّا أمان القُدْس فقد تَضَمّن شرطاً جديداً هو دفع «القطيعة» الماليّة المحددة على رءوس كل من كان داخل المدينة من السكان الأصليين الدائمين أو اللاجئين الطارئين إليها، وأنّ كُلّ من لا يستطيع دَفْع هذه القطيعة يعتبر سبياً يحق للمنتصر التصرف بهم حسب ما يريد. وتتوافر لدينا معلومات محددة عن المبالغ التي حُدّدت على كل فئة من الرجال والنساء والأطفال (بغض النظر عن الجنس)، وعن كيفيّة تنفيذ هذا الشرط وغيره من الشروط التي وقّع عليها كل من باليان والبطريرك ومقدم الداوية لضمان الالتزام والتنفيذ.

القطيعة: عشرة دنانير عن كُلّ رجل، وخمسة عن كل امرأة، وديناران عن كل طفل أو طفلة.

مُدّة التنفيذ: أربعون يوماً من تاريخ الاتفاق، وكل من يمتنع عن الدَّفْع أو لا يستطيع أعتبر سبياً وينفذ فيه حكم السبي[1].

---

(1) الفتح، ص 127؛ سنا، (ق) ص 311؛ الكامل، 11 ص 549.

ولتنفيذ الاتفاق أغلقت أبواب المدينة، وُوكّل بكل باب من الأبواب «أمير ومقدم كبير يُحْصي الخارجين ويُحصي الوالجين، فمن استخرج منه خرج، ومن لم يقم بما عليه قَعَد في الحبس وعدم الفرج»[1].

ورَتّب السلطان «عِدّة دواوين، في كل ديوان منها عدة من النواب من المصريين ومنهم من الشاميين»[2]، لتسجيل الخارجين بأموالهم وأنفسهم، ودفع المال المحدد، وإعطاء كل واحدٍ تصريح يَسْمح له بالخروج دون اعتراض. كما رَتّب على كل باب من أبواب المدينة «**أمناء ووكلاء**» «فمن أَخَذَ خَطاً (تصريحاً) بالأداء، إنطلق مع الطلقاء، بعد عرض خطّه على من بالباب من الأُمَنَاء والوكلاء»[2]. وأخذ الناس بالخروج والتجمع في مكان مُحَدّد خارج الأسوار حتى ينطلق الجميع إلى الجهة التي يريدون بخفارة أمراء وجند صلاح الدين.

واستمرت عملية خروج سكان القُدس من اللاتين الفرنج حوالي أسبوعين، وأثناء هذه المدة لم يَتَعَرّض شخص منهم أو أي بيت من البيوت التي لم تخل من أهلها للنهب والسلب؛ ولم يدخل المدينة من جند صلاح الدين أَحَد وإنما اقْتُصِر على الموظفين الذين سيشرفون على عمليات التنفيذ والأمراء والمقدّمين الذين سيراقبون العمليّة، إلاّ اليوم الذي أقيمت فيه الجمعة الأولى في المسجد الأقصى.

وكان من أوائل الخارجين البطريرك الكبير الذي دفع العشرة دنانير وخَرج حاملاً الذهب على ظهره وتتبعه العربات المحملة بالسجاجيد والأواني الخاصة بكنيسة القيامة، ومعه رجال كنيسته. ودفع باليان ثلاثين ألف دينار من خزينة المملكة فَكّ بها 18000 رجل، وبقي 15 أو 16 ألف «رجل وامرأة وصبي» دون فكاك فأخذوا أسرى، منهم 7000 من الرجال و 8000 من النساء، ودفع 20000

---

(1) المصدر نفسه، ص 128؛ الروضتين، 2 ص 95.
(2) الفتح، ص 129.

من السكان اللاتين القطيعة المُقرّرة وخرجوا، وبذلك يكون عدد الفرنج الذين أحصوا حوالي 53 ألفاً[1].

وكان في المدينة حي كبير للأرمن يسكنه أناس قدم بعضهم إلى القُدس من بلاد صارت تتبع أمراء صلاح الدين، فتوسط هؤلاء الأمراء لدى السلطان بإعفائهم من الدفع على اعتبار أنّهم من رعايا بلادهم: «وطلب مظفر الدين [كوكبري] بن علي كوجك زهاء ألف أرمني ادّعى أنهم من الرها، فأجراه السلطان من إطلاقهم على ما اشتهى»، كما طلب صاحب مدينة البيرة إطلاق خمسمائة من الأرمن «ذكر أنهم من بلده، وأن الواصل منهم إلى القُدْس من أجل متعبده»[2].

وكان من بين المغادرين ثلاث شخصيّات نسائية: الأولى ملكة روميّة أرثوذكسيّة مترهبة كان تقيم في المدينة المقدسة، وقد سمح السلطان لها ولحاشيتها:

«ومَنّ عليها وعلى من معها بالإفراج، وأذن في إخراج كل مالها في الأكياس والأخراج [مفردها: خُرْج]، وأبقى عليها من مصوغات صلبانها الذهبيّة المجوهرة ونفائسها وكرائم خزائنها، فخرجت بجميع مالها وحالها ونسائها ورجالها وأسفاطها وأعدالها والصناديق بأقفالها، وتبعها من لم يكن من أتباعها...»[3].

والثانية الملكة، ابنة الملك السابق عموري، وزوجة غي المسجون في نابلس، التي سمح السلطان لها وحاشيتها باللحاق بزوجها في محبسه، وأمّا الثالثة فكانت الأميرة زَوْجة أرناط وشريكته في حكم الكرك والشوبك، ابنة فيليب الذي كان من بين الأسرى في دمشق. وقد طلبت من السلطان إطلاق ابنها فوعَدَها ذلك إذا سَلّمت الكرك والشوبك إليه. فقبلت الأميرة الشرط، فأُحْضر الابن من دمشق، ثم:

(1) رنسمان، تاريخ، 2 ص 466؛ الكامل، 11.
(2) الفتح، ص 128 - 129.
(3) الروضتين، 2 ص 96.

«وسار معها من الأمراء الأمناء من يتَسَلّم تلك المعاقل، فخرجت فمضت إلى حصونها لتسلمها فمانَعَها أهلها، ودافعوها وردّوها ذليلة خائبة، فسكنت صُور. **فأعيد الابن المأسور إلى السلطان، أما هي** فقد أطلقها السلطان ووعَد بإطلاق ابنها «إذا تسَلّم تلك الحصون» [1].

تسَلّم صلاح الدين مدينة القدس يوم الجمعة 27 رجب 583 هـ (2 تشرين الأول 1187 م)، ولم يبق فيها أَحَدٌ من سكانها اللاتين والأرمن وغيرهم من الجنسيات المختلفة من بلاد أوروبا وغيرهم. وتجَمّع الجميع خارجِ أسوار المدينة، وساروا في ثلاث قَوَافل يقودها الكونت باليان والبَطرِيَرْك وكبار رجال الداوية والاسبتاريّة[2]. وزود السلطان القوافل بخفراء يحرسُونها حتى خروجها من البلاد التي صارت تتبع دولته. واتجهت القوافل إلى السّاحل أولاً ثم توجهت إلى صور، مركز التجمع، التي كانت تكتظّ باللاجئين إليها من كل الجهات لكن لم يكن فيها متسع لمزيد خاصة وأن المركيز بدأ بتحصينها تقدمة للاستقلال فيها وفي بقايا المملكة الصليبيّة. وعندما وصلت القوافل إلى البترون، حيث الممر الجبلي الضيّق على الحَدّ بين المملكة اللاتينية وكونتية طرابلس، والتي كانت لا تزال خارج سلطة صلاح الدين، عاد الخفراء المرافقين إلى القُدس، وهاجم صاحب البترون الصليبي القوافل واستولى على بعض ما كان يحملونه، فتَوَجَّهَت بعدها إلى طرابلس الحصينة فمنع ريموند الدخول إليها وأغلق أبوابها في وجوههم، فتوجهوا جميعاً إلى أنطاكية [3].

ولم يبق في بيت المَقْدس من السكان أحد غير النصارى العرب السوريين، الذين قَرّروا البقاء في المدينة بَعْدَما تخلّصت من السكان

---

(1) **الروضتين**، 2 ص 96.
(2) انظر صلاح الدين [E]، ص 273 - 277.
(3) **الكامل**، 11 ص 552.

الصليبيين الذين كانوا يعاملونهم كمواطنين من الدّرَجَة الثانية ويستفزونهم دائماً لاختلاف المذاهب الدينيّة بينهم. وطلب النصارى من السلطان السماح لهم بواسطة الفقيه عيسى الهكاري، البقاء، في مساكنهم والعَيْش مع المسلمين الذين سيعودون إليها، كذمة لهم، ويتابعون حياتهم وأعمالهم كما كانوا، فوافق السلطان [1].

وهكذا فقد شهدت القُدْسُ وللمرة الثانية وخلال أقل من قرن من الزمان، تغيرات أساسيّة في بعض جوانب عمرانها وبنية سكانها البشرية، وإدارتها، ونمط حياتها، وقد تَمّ بعض هذا التغير بعد الفتح الصلاحي للمدينة مباشرة لضرورات مُلِحّة لإعادة الطابع الإسلامي للمدينة بعد عودتها لسيادة الخلافة العباسيّة، الممثل الشرعي لأهل السنّة والجماعة. فما التغيرات في الجوانب المذكورة التي أحدثها القائد صلاح الدين:

كانت أكثر الأمور إلحَاحاً بالنسبة للتغييرات التي يرغب صلاح الدين في عملها في مدينة القُدس هو إعادة الطابع الإسلامي إليها وخاصة منطقة الحرم الشريف التي أُحْدِثَتْ فيها الأشياء التي ذكرنا في السابق. وسبب الإلحاح إقامة الخطبة العباسيّة من جديد من منبر المسجد الأقصى يوم الجمعة التالية التي يجب أن تتم دون تأخير. ولذلك طلب من أمرائه ورجاله المُقَرّبين إزالة كل الإضافات العمرانية وغيرها من الإضافات التي أدخلها فرسان الداوية في المسجد الأقصى ورُهبان كنيسة القديس أوغسطين في قبة الصخرة خلال فترة السيطرة الصليبيّة، مثل الكنيسة وقاعة الطعام وأماكن السكن والعمل التي اقتطعها الداوية أو عمروها داخل المسجد الأقصى أو قربه، والرسوم والصور وغيرها من الإضافات داخل قبة الصخرة وحولها [1].

وبعد أن تم ما تَقَدّم، رفعت الأنقاض والحجارة والتراب، ونُظّفت منطقة الحرم كلها بالماء عِدّة مَرّات، أمّا منطقة الصخرة المشرفة فقد تَبَرّع

(1) الفتح، ص 140 - 144، حاصته 143؛ الروضتين، ص 115.

تقي الدين عُمَر بتنظيفها، وكان قد جَلَب ماء الورد من بلاد الشام أحمالاً لهذه الغاية.

«.... حَضَر يوماً في قُبّة الصَّخْرة... معَ جماعة من السُّرَاة... ومعه من ماء الورد أحمال، ولأجل الصّدَقَة والرفد مال، فانتهز فرصة هذه الفضيلة.. وتَوَلى بيده كَنْسَ تلك السّاحات والعِراص، ثم غسَلها بالماء مراراً حتى تَطَهّرت، ثم أتبع الماء بماء الورد صباً حتى تعطرت. وكذلك طَهّر حيطانها وغَسَل جُدْرانها. ثم جاء بمجامر الطيب فتبخّرَت...»[1].

وكُشِف عن المحراب القديم للمسجد الأقْصى وهُدِم ما أقامه الداوية من الأبنية ونُظِّف حتى «يجتمع الناس في الجمعة في العَرَصَة المتسِعة». وأحضر المحراب المشهور الذي كان نور الدين محمود قد أمر بعمله في حلب في حياته خصيصاً للمسجد الأقصى من حيث كان في الحفظ والصون أكثر من عقدين من الزمان[2]، ونُصِب في مكانه المحَدّد. ثم فرشت الأرضية بالبُسَط، وعُلِّقَت القناديل، وانتهى الاستعداد للصلاة التي ستقام يوم الجمعة الرابع من شعبان[3].

وفي صَبَاح يوم الجمعة المذكور توافد الناس إلى المسجد والحرم جماعات:

«فإنه حين تسامع الناس به [حطين] في سائر الأطراف، وكسر العدو، والقَصْد إلى فتح بيت المقدس، توافى الناس من كل صقع،

(1) المصدر السابق.

(2) يذكر العماد أن نور الدين كَلّف أحَدَ الصُنّاع المهرة بحلب الذي ينتسب إلى ضيعة «الأخْتَرِين» بعمل هذا المنبر، فاختار الصناع المهرة وبدأ العمل فانتهى منه في سنين، لكن الناس كانوا يتساءلون، «ويقولون هذا أمرٌ مستحيل وحكم ما له دليل... وهيهات أن يعود القدس إلى الإسلام... فإن الفرنج عليه مستولون مستعلون، وهم يكثرون على الأيام ولا يقلّون، أمّا نَاصَفوَنا على أكثر أعمال حوران... وقد أعجزوا ملوك الإسلام إلى اليوم...» ثُمّ: «وتولى حينئذٍ النجار عمل المحراب على الرقم، وشابه المحراب المنبر في النّضر، ومن رأى حلب الآن شاهد منه على مثال المنبر المقدسي...»، الروضتين، (البرق)، ص 112.

(3) المصدر نفسه، ص 112؛ الفتح، ص 138 - 139.

وجاءوا من كل فجّ، ليفوزوا بالزيارة، ويحظوا بالمشاهدة للفتح، فاجتمع من أهل الإسلام عدد عظيم لا يقع عليه الإحصاء. فلمّا أذّن الظهر في هذه الجمعة المباركة حضر السلطان بقبّة الصخرة وهو في غاية السرور والفرح، إذ جعله الله تعالى في هذا الفتح ثانياً لعمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ الفاتح الأول، ومَيّزه بهذه المنقبة دون سائر الملوك [من دون سائر ملوك المسلمين]»[1].

وامتلأت السّاحات وكثرت الشائعات في من سيكون أول خطيب بعد هذا الوقت الطويل:

«وكان جماعة من الأكابر والعلماء قد رَشّحُوا أنفسهم للخطبة في هذا المسجد المُعَظّم، وأخذوا لذلك أهْبَتَه وألّفوا ما يخطبون به، ومنهم من عَرَض على السلطان يطلب ذلك، ومِنْهُم من صَرَّح، والسلطان ساكت لا يبدي سِرَّه، فلمّا حان وقت الخطبة نَصّ على القاضي محيـي الدين بن زكي الدين، وقَدّمَه لهذا الأمر الجليل، فَرقى المنبر بالأُهْبَة السوداء العباسيّة، وخطب. . .»[2].

كان محيـي الدين هذا الذي كان صلاح الدين يعزه ويحترمه، والذي اختاره للخطبة في هذا اليوم التاريخي الذي خلدته الأسفار في تراثنا لذاكرة الأجيال القادمة، ابن قاضي دمشق زمن نور الدين، وهو الذي مدحه سنة 579 هـ/ 1183 م عندما ضَمّ حلب إلى بلاد دولته بقصيدة، كان منها ذلك البيت المشهور أيضاً الذي بشره فيه بفتح القدس[3]:

(1) مفرج، 2 ص 218 وهو تلخيص شامل ودقيق لما ذكر العماد في كتابيه.

(2) المصدر نفسه، ص 218 - 219.

(3) يروي أبو شامة في سبب عمل نور الدين للمنبر، والسبب الذي أوحى لمحيـي الدين بعمل هذا البيت، أنّ أبو الحكم ابن برجان الأندلسي (ت 536 هـ/ 1142 م)، وشيخ الصوفية، الذي عمل تفسيراً للقرآن الكريم ولم يكمله، فَسّر سُورة الروم فقال في أوّل تفسيره لها (سنة 522 هـ)، عندما كان عمـر نور الدين عشر سنوات، أن الصليبيين سيبقون فيها إلى سنة 583 هـ/ وقد رأى أبو شامة الكتاب والتفسير؛ وأن ذلك ربما كان متداولاً بين العلماء فمنهم من أخذ به ومنهم من أنكره، وأن نور الدين وصلاح الدين عرفا بهذا التفسير. **الروضتين**، 2 ص 113. =

وفَتْحُكَ القلعة الشَّهْبَاء في صَفَرٍ   مُبَشِّراً بفتوح القُدْس في رَجَبِ

وألقى محيي الدين خطبته المشهورة والمعروفة [1]. ويهمنا هنا بعض الدعاء الذي ذكره في الخطبة الثانية. فقد دَعَا أولاً، كالعادة، لخليفة العباسي الناصر لدين الله، ثم قال:

«اللهم وأَدم سلطان عبدك الخاضع لهيبتك، الشاكر لنعمتك... والمحامي عن دينك الدافع والذابّ عن حرمك وحَرَم رسولك المُمانع، السَيِّد الأجل الملك الناصر، جَامِع كلمة الإيمان... صلاح الدنيا والدين، سُلطان الإسلام والمسلمين، مُطهِّر البيت المقدس... (و) محيي دولة أمير المؤمنين».

اللهم عمَّ بدولته البسيطة، واجْعَل ملائكتك براياته محيطة، وأحسن عن الدين الحنيفي جزاءه، واشكر عن المِلّة المحمديّة عزمه ومضاءه.

اللهم أبق للإسلام مهجته، ووق للإيمان حوزته، وانشر في المشارق والمغارب دعوته.

اللهم فكما فتحت على يديه البيت المُقَدّس، بعد أن ظنت به الظنون وابتلى المؤمنون، فافتح على يديه داني الأرض وقواصيها، وملكه صياصي الكفر ونواصيها، فلا يلقى منهم كتيبة إلاّ مَزَقَها، ولا جماعة إلاّ فرقها، ولا طائفة بعد طائفة إلاّ ألحقها بمن سبقها.

اللهم أشكر عن محمد ـ ﷺ ـ سعيه، وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونهيه...» [2].

ولمّا قُضيت الصلاة، جاء دور دَرْس الوعظ، فطَلَب السلطان من رفيق صباه في بعلبك زين الدين علي بن نجا، الذي بينا علاقته بصلاح الدين ودوره

= وعنه سير أعلام النبلاء، 20 ص 360 - 361، ومصادر الحاشية ص 360.

(1) انظر الملحق.

(2) الروضتين، 2 ص 111 - 112؛ مفرج، 2 ص 226 - 227.

في تمهيد الطريق لدولته في مصر، بالتقدم لإلقاء الدَّرْس، فجلس على السَّرير الذي نُصِبَ في الحال:

«وذكر الفتح، وفضائل الأرض المقدّسة، والصخرة وما ورد فيها من الأخبار، فجلب بعبارته العبرات، وشار العَسَل بمعْسُول الإشارات»[1].

وجَدّد السلطان محراب المسجد الأقصى وغَطّاه بالرخام فيما بعد، وعيّن النُظّار والأئمة والخطباء وغيرهم من العاملين الذين يحتاج إليهم للإشراف على المسجد الأقصى والمساجد الأخرى التي أعيد تجديدها بعد مُدّ طويلة من الإهمال.

وأثناء إقامة صلاح الدين في مخيمه على جبل الزيتون هذه المرة، قام بترتيب إدارة المدينة، فعَيّن الفقيه ضياء الدين عيسى الهَكّاري والياً عليها، فأناب عنه أخاه ظهير الدين، ثم تولّاها بعدهما الأمير حسام الدين سياروخ الذي كان يتولّى نَظَر الحرم الشريف، وكتب العماد «منشور» الولاية والتقليد[2]، الذي جاء فيه:

«... وعولنا عليه في ولاية مدينة القُدْس وأعمالها، وعَذَقْنا [اختصصنا] برأيه الراجح وسعيه الناجح مهام أشغالها، وحكمناه في تحصيل مصالحها، وتَسْهِيل مناجحها، وسداد ثغرها، وسداد أمرها، ورعاية أمورها، وعمارة حَرَمها [أ ص: حريمها] وسُورِها، وتأهيل رباع أماكنها، وإسكان مواطنها وتوطين مساكنها... وتعميرها بالعُدّة والعِدَّة...»[3].

وشَحَن صلاح الدين البرج المشهور [القلعة] بحامية مناسبة لحماية المدينة، إضافة إلى إمام ومؤذن للمسجد الذي فيها، وحَوّل كنيسة القديسة حنّة

---

(1) مفرج، 2 ص 228؛ الفتح، ص 140.
(2) الفتح، ص 579.
(3) المصدر ذاته، ص 580.

(St. Anne) إلى مدرسة للشافعيّة، كما كانت في الفترة السابقة لاستيلاء الصليبيين على المدينة، وعين الفقيه مجد الدين طاهر بن نَصر بن جهْبَل الكلابي الحلبي أوّل مدرس لها[1]، والتي عرفت بعد بالمدرسة الصلاحية.

ومن الإجراءات الأخرى التي قام بها صلاح الدين أيضاً أثناء فترة إقامته القصيرة بعد الفتح، وقف بعض عمائر حي البطريرك على وجوه الخير والمصالح العامة، فقد صار هذا الحي كله - الذي كان مركز الحياة الدينية والمدنية في فترة سيطرة الصليبيين خالياً من السُكّان، وبالتالي ملكاً للدولة تستطيع التصرف به كما تريد ما عدا كنيسة القيامة. وأوقف، بعد استشارة العلماء والفقهاء والصوفية، قَصْر بَطْرِيَرك الصليبيين القريب من الكنيسة، رباطاً للصوفية ووقف عليه وقفاً كبيراً للقيام بمصالحه الكثيرة، كما يدل على ذلك وثيقة وقفه التي حفظت عبر القرون[2]. كما وقف كنيسة في مجمع الاسبتارية الكبير مارستاناً جَهّزه بكل ما يحتاج إليه ووقف عليه أوقافاً تفي بمصاريفه، وأحضر له الأدوية والعقاقير النادرة من مختلف حواضر بلاده[3].

واقتصر سكان المدينة في البداية بعد الفتح مباشرة على رجال الإدارة الدينية والمدنية الضروريين لتسيير شؤون المدينة الملحة، والحامية العسكرية وأفراد عائلات المتأهلين منهم، والنصارى السوريين الذين يقومون بأعمالهم العاديّة من تجارة وحرف ومهن ضرورية لهم ولغيرهم من السُّكّان الجدد. ويلاحظ قِلّة السكان من منشور تقليد الوالي سِيَارُوخ الذين حُدِّدت فيه مهام الوالي بصورة دقيقة بما فيها إعادة توطين المسلمين فيها، فنشأ فيما بعد حي المغاربة الذي وقف عليهم وحيّ الشَّرَف وراءه وحي اليهود (مكان حي الألمان) الذين سمح لهم صلاح الدين بالسكنى في المدينة.

وأقام صلاح الدين في مخيمه على جبل الزيتون، المشرف على المدينة

---

1) ذيل الروضتين 2 ص 17؛ البداية والنهاية، الدارس في تاريخ المدارس، 1 ص 230.
2) وثائق مقدسيّة تاريخية، نشر كامل العسلي، ج 1 ص 91 وما بعدها.
3) الفتح، ص 612.

المقدسة التي كان فتحها قِمّة إنجاز حياته كقائد وصاحب سلطة على مصر وبلاد الشام وأجزاء من بلاد الجزيرة غرب الفرات، مدة تقل عن الشهر حتى قام بالتراتيب المتقدمة، وتسَلّم بقيّة الحصون في بلاد القدس؛ ثُمّ توجه يوم الجمعة 25 شعبان 583 هـ/ 30 تشرين الأول 1187 م متوجهاً إلى مدينة صور، آخر المعاقل الكبيرة التي كانت لا تزال بيد الصليبيين من مملكة الصليبيين اللاتينيّة[1]، وذلك بناءً على طلب من الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب الهكاري، نائبه في صيدا وبيروت. ووصل السلطان إلى ضواحي المدينة يوم الجمعة 9 رمضان[2]/ 13 تشرين الأول.

كان القاضي الفاضل، طوال المُدّة من قبل حطين بأيام وحتى ما بعد فتح القدس واستعادته لحوزة الإسلام مريضاً في دمشق، فحرَمنا من أوصافه الدقيقة تاريخياً، ومع ذلك فقدكان يَسْمَعُ الأخبار، ويطلع على المكاتبات، وعندما كتب إلى الديوان العباسي بالفتح، صَوّر لنا جانباً من شخصيّة صلاح الدين في ذلك الوقت، وإصرار السلطان الذي تتوج باستعادة القدس رغم كل الصعوبات التي واجهها، والاتهامات المُغْرِضَة التي تحملها بصَبْر:

«. . . وكان الخادم [صلاح الدين] لا يَسْعَى سَعْيَهُ إلاّ لهذه المَنْقَبة العُظمى، ولا يُقاسِي تلك البُؤسى إلاّ رَجَاء هذه النُّعْمَى، ولا يُحارب من يَسْتَظْلِمه إلاّ لتكون الكَلِمَةُ مَجْمُوعَة فتكون كَلِمَة الله هي العُلْيا، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا: وكانت الألْسِنَة رُبّما سلقته فأَصَحّ قُلُوبها بالاكتفاء والاقتصار، وكانت الخواطر ربّما غَلَتْ عليه مَراجِلها فأطْفَأها بالاحْتِمال والإصْطِبَار؛ ومن طلب خَطِيراً خَاطَر، ومن رَامَ صَفْقَة رَابِحةً [أ ص: رائجة] جَاسَر، ومن سَما لأن تُجْلَى غَمْرة غَامَر»[3].

---

(1) الفتح، 150؛ سنا (ق) ص 317؛ النوادر، ص 82.
(2) الروضتين، 2 ص 119.
(3) الروضتين، 2 ص 101.

14 الحَمْلة الشماليّة

تَوّج فتح القُدس جُهُود صلاح الدين الطويلة، وشَكّل قِمّة إنجازاته، وخَتَام جهود طويلة لتحقيق الهدف الأساسي لأعماله وأعمال سابقيه من آل زنكي، أصحاب السلطة الفعليّة في قلب العالم الإسلامي في الجزيرة الفراتية والشام ومصر ـ المناطق التي وضَعَت كل إمكاناتها وثَرَواتها بيد هؤلاء السلاطين والملوك من أجل استعادة القُدْس وإعادة الأمن والاستقرار إلى المنطقة التي نُكِبَت بالحملات الصليبيّة وتأسيس إماراتها ومملكتها في فلسطين ولبنان وكل السّاحل الشامي.

وخَلّد هذا الإنجاز الفريد الذي حَقّقَه صلاح الدين، بُعد جهود متواصلة لمدة طويلة، اسمه عَبر العُصُور وظَلّ المسلمون يتذكرونه دائماً في أوقات الأزمات. وسُطّرت سيرته في الأسفار والتراث، الذي يشكل الذاكرة الحيّة للجماعات البشرية، في كل العالم الإسلامي وخارجه. فمن لم يسمع باسم صلاح الدين؟ وغَطَّت إعادة القُدس على إنجازات الكثيرين من ملوك وقيادات العالم الإسلامي في عصره والذين لا تَقِلّ إنجازاتهم كثيراً عن إنجازاته في التمهيد للعمل الكبير، خاصة نور الدين محمود بن زنكي، وصار اسمه يقترن فقط بعُمر بن الخطّاب الفاتح الأول للقُدْس الشريف.

لكنّ تحقيق الهدف الكبير من قِبَل القائد الكبير، وإعادة بيت المقدس إلى الإسلام والمسلمين، لم يُقَاعس من تصميم القائد وعزمه على متابعة مسيرة الجهاد لاستكمال المهمة واستعادة بقيّة المناطق في السّاحل الشامي التي كانت لا تزال بيد الصليبيين. فليس المهم هو استعادة القُدس وتخليصها من أيدي

«أهل الحرب» فقط، وإنما المحافظة عليها لتبقى دائماً بيد المسلمين مهما كلف الأمر، ولا يَتِمّ ذلك إلّا بالقضاء على ما تبقى من وجود صليبي في ساحل الشام. وسنرى في الفصول التالية كيف أَن تهديدها من قبل الصليبيين خلال الحملة الثالثة كان يبعث القشعريرة في جسده المريض، مما دفَعَه إلى البقاء في ميدان القتال مقابل عَكّا أو على طول ساحل فلسطين الجنوبي طوال الوقت، متحملاً المرض والبَرْد والحَرّ مُدّة سنتين أو أكثر من ذلك بقليل، وَوَصَل الأمر به، في لحظة تهديدحَرِجَةٍ لم يتأكد من نتيجتها إلى التضحية بمدينة عسقلان الحصينة ـ بوابة مصر الشماليّة ـ وهدمها من أجل المحافظة على القدس، كما سنرى. وقد هدمها وهو يبكي حزناً على خراب المدينة ذات التاريخ العريق، لأن إمكاناته العسكرية وقُدْراته الماديّة لم تكن كافية للمحافظة على المدينتين في ذات الوقت، ولأنّ موقف بعض أمرائه الميدانيين تطلب ذلك، وقالوا أن الحسابات العسكرية تؤكد أن المغامرة بالحفاظ عليها قد تؤدي إلى خسارة المدينتين.

بقيت هِمّة السلطان عالية بعد النصر الكبير، وزاد تصميمه وعزمه على إنجاز المهمة، خاصّة وأنّ ما حَقَّقَه جعل المسلمين في كل بلادهم يتوقعون منه المزيد، ولا يستطيع القائد الكبير التوقف عند القِمّة إذا كانت بعض أطرافها لا تزال مَسْلُوبة، وهناك من يأمل منه أن يستعيدها. لكنّ الوصول إلى القِمّة استند إلى جهود القادة الميدانيين، الكبار منهم والصغار؛ وبعض هؤلاء بدأت هِمَمهم تضعف بعد الانجاز الكبير. فما دام الهدف الأساسي قد تحقق، فإن ما بقي يمكن استدراكه في أي وقت، خَاصَّة وأنهم مكثوا في ميدان القتال طويلاً دون العودة إلى أهاليهم وإقطاعاتهم وحياتهم العاديّة، كما أن المرحلة التالية تَطَلّبت ـ لعوامل كثيرة ـ جهوداً أكبر في بعض الأحيان، وهو أمر لم يتعودوا عليه في حرب المناوشات والحصار والاستسلام بأَمَان، والحصول على المكاسب السريعة من غنائم وأموال وغيرها.

وهنالك عامل جديد بدأ يظهر مع مرور السنين والقائد الكبير مشغول بالتوحيد والقتال ضد الصليبيين. فمع تَقَدُّم سِنّ صلاح الدين، وتكرار مرضه

والخوف على حياته، وتولية أبنائه الشباب للولايات الكبار لتأمين مستقبلهم، ظهرت قضيّة كبير العائلة، التي عالجنا بصورة عامة فيما تَقَدّم، والتي كانت القَضيّة الأساسية في التراث السياسي في ذلك الوقت فكراً وعملاً، فَعَدَم وضوح ولاية العهد في التراث التركي (والكردي) القبلي كان يؤدي دائماً، عند وفاة صاحب السلطة العليا، إلى أزمة سياسيّة تُهَدّد بالقضاء على كل ما حَقّقَه البُناة الأول من القيادات الكبيرة. وبتعيين الشباب الصغار في الولايات الكبيرة، زادَ طَمَع الكبار في العائلة باطناً وبدأ يظهر ذلك في تصرفاتهم وأعمالهم. فالطموحات، بعد التمكن، تزداد وتبقى كامنة حتى اللحظة المناسبة.

ويضاف إلى ما تَقَدّم أن الحرب المتصلة ومرور الزّمن، أفقد صلاح الدين عدداً من القادة الميدانيين المتمرسين أصحاب الخبرة الطويلة بفنون القتال ومواجهة الصليبيين. وكان أبناءُ هؤلاء القادة، الذين حَلُّوا مكانهم أكثر حماساً لإثبات قدرتهم لكنهم أقل خبرة ومعاناة وتحملاً وصبراً في ميدان القتال. فالذي لا يُسْتَطاع تحقيقه بسرعة يترك لأوقات أخرى قد لا تأتي بَعْدُ فرصتها المناسبة أبداً. وحصار صُور الذي سيذكر في ما يلي خير مثال على ذلك.

وفقد السلطان أيضاً، بموت بعض هؤلاء الكبار أو تغيّر موقفهم لسبب أو آخر، مستشارين مُجَرّبين لا يستطيع تعويضهم، بالرغم من انضمام مستشارين جُدُد إلى حاشيته. ثُمّ ظهرت الأزمة المفتعلة مع الخلافة العبّاسيّة والتي أثارها مثل هؤلاء المستشارين الجدد في ديوان دار الخلافة.

وبالرغم من كل هذه الظروف التي بدأ بعضها يظهر بالتدريج، صَمَّمَ السلطان على متابعة المهمة التي ينتظر الناس في كل البلاد إنجازها.

كان نائب صلاح الدين في صيدا وبيروت هو الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، الذي تركه السلطان هناك مع حامية مناسبة لحماية الولايتين من هجمات محتملة من صور والقلاع الجبليّة الحصينة التي لا تزال بيد الصليبيين، ومراقبة ما يجري في مدينة صور الحصينة بصورة خاصة. وأثناء الفترة التي انشغل بها صلاح الدين ومعظم قواته بالاستيلاء على عسقلان

والقُدس، كان المركيز (*) الذي تَوَلّى الأمور في صور يَقُوم بتحصينات جديدة تزيد المنيع مناعة، وتجعل من عملية الاستيلاء عليها تكاد تكون مستحيلة: فقد «حفر خندقاً من البحر إلى البحر، وبنى السُّور والبواشير [التحصينات الخارجية خاصة عند الأبواب] واحكم أمرها، واستظهر بالعَدَد والعُدَد» [1].

وكتب إلى أوروبا مبيناً ما حَلّ بالمملكة وطالباً النجدة بسرعة قبل أن يتمكن صلاح الدين من الاستيلاء على ما تبقى من الساحل الشامي، فأرسل ملك صقليّة قوّة بحريّة بقيادة الأمير مارغريتا الذي كان له دور في حماية سواحل طرابلس وإنطاكية، كما سنرى.

عند ذلك أرسل المشطوب إلى السلطان طالباً منه القدوم لتلافي الأمر قبل استكماله، فأسرع السلطان بالحركة وسار يوم الجمعة ـ وأغلب حركته كانت يوم الجمعة ـ 25 شعبان 583 هـ/ 1 تشرين الثاني، أي بعد أقل من شهرٍ من يوم استسلام القدس.

حصـار صـور:

أرسل صلاح الدين ابنه الأفضل إلى صور، ثم توجّه هو مع العادل وتقي الدين أولاً من القدس إلى عكا للاطمئنان على أحوالها وتراتيبها، فَوصَل إليها في اليوم الأول من رمضان/ 4 تشرين الثاني، وتوقف خارجها حتى تكامل وُصُول القوات والأثقال والآلات، ثم سار منها إلى صُور فوصل إلى بلادها يوم التاسع منه، وخيّم عند النهر بعيداً عن السُّور حتى تصل بقية القوات والآلات.

(*) كونراد ابن وليم صاحب بارين (بعرين) التي تقع غرب نهر العاصي بين حمص وحماه، والتي تَرَدّد ذكرها كثيراً في فترة نور الدين الذي استعادها. وكان كونراد قد قَدِم إلى الشرق من أوروبا سنة 1085 م، والتحق بخدمة الأمبراطور البيزنطي. وعندما علم بالتطورات في حطين قدِم مع من يرافقه من الجند إلى سواحل الشام، ودخل ميناء عكا بالخطأ بعد استيلاء صلاح الدين عليه لكنّه لم ينزل إلى البَرّ ثُمّ أَخَذَ الأمان من السلطان وخرج مسرعاً إلى صور فَتَسَلّم القيادة فيها. انظر، **تاريخ الحروب الصليبيّة** (سيتون) 552.

(1) **الروضتين**، 2 ص 119.

وبقي مخيماً هناك مُدّة ثلاثة عشر يوماً قام رجاله بنصب المنجنيقات في أماكنها، ثم قرّب المخيّم الميداني إلى تَلّة قريبة من الأسوار. وهنا وصل الظاهر من حلب مع قواته وبدأ بحصار المدينة ومضايقتها. ويلاحظ أن أغلب قادة قُوّاته كانوا من عائلته (أبناؤه وأخوه وابن أخيه تقي الدين). وطلب من عشر قطع حربيّة من الأسطول المصري التي كانت في عكا القدوم وإحكام الحصار على المدينة من البحر، فقدمت؛ وشُدّد الحصار من البر والبحر حتى المساء. وفي القتال كانت الغلبة لقُوّات صلاح الدين. وفي فجرِ اليوم التالي تمكنت سفن الفرنج الصغيرة من الاستيلاء على خمس من سفن الأسطول المصري، فطلب السلطان من السفن الباقية التوجه إلى بيروت خوفاً عليها، لكن واحدة منها توجهت أما البقيّة فإن بَحّارَتها تخلّوا عنها وتركوها حيث كانت ولجأوا إلى السّاحل حيث قُوات السلطان. وفي اليوم التالي وقعت معركة خارج الأسوار لأن الصليبيين تشجعوا بما حل بالأسطول، فخرجوا بقُوّة إلى القتال، لكنّ قوات صلاح الدين هزمتهم وقتلت مقدّماً كبيراً منهم ظُنَّ أنّه المركيز، فأرسله السلطان إلى ابنه الظاهر للاحتفاظ به في الأسر، لكن الشاب قليل الخبرة في الحرب قام بقتله حال تَسَلُّمه. ولم يكن مثل هذا التصرف من شيم صلاح الدين أو أمرائه من المماليك الذين يطيعونه طاعة عمياء [(1)].

وبدلاً من أنْ يشجع النصر الذي تحقق في اليوم السابق أمراء السلطان (من عائلته) على الاستمرار في القتال في اليوم التالي، بدأوا التذمر من تأخر النَصْر، وطالبوا بالانسحاب. ويعلق العماد بطريقته الخاصة على ذلك:

«. . . ضَجِر كثير من أمراء المسلمين [من طول الحصار؟]، لأنهم رأوا ما لم يألَفُوه من تَعَسّر الفتح، فأشاروا على السلطان بالرحيل لئلا تَفْنَى الرجال، وتَقِلّ الأموال. وكان البَرْدُ قد اشتد عليهم».

فماذا كان موقف السلطان صلاح الدين من هذا الموقف المحرج؛ يتابع العماد:

---

(1) الروضتين، 2 ص 119-120؛ مُفَرّج، 2 ص 242-246 (مختصر له)؛ الفتح، 153-176 انظر المرفق (رأي ابن الأثير).

«وكان رأي السلطان والأتقياء من الأمراء كالفقيه عيسى، وحُسَام الدين طمان وعز الدين جرديك. . الثبات إلى الفتح لئلا يضيع ما تَقَدّم من الأعمال وإنفاق الأموال. وقال السلطان: قَدْ هَدَمْنا السُّور وقاربنا الأمور فاصبروا تفلحوا، وصابروا تفتحوا، ولا تعجلوا، فاظهروا الموافقة وفي أنفسهم ما فيها. فلم يَصْدُقُوا القِتال، وتعَلّلوا بأن الرجال جَرْحى، والعلوفات قد قَلّت».

عند ذلك وجَدَ السلطان أن لا بُدّ من التراجع عن الحصار بَعْد أن كاد يُحقق النَصْر:

«فلم يَسَع السُّلْطان بعد ذلك إلاّ الرَّحِيل، فأمَر بنقل الأثقال فحمل بعضها إلى صيدا وبيروت وأَحْرَق الباقي لئلا يناله العدو، ورحل في آخر شوال، وهو أول يوم من كانون الثاني (1188 م)» [1].

وهكذا كان، فبعد أقل من ثلاثة أشهر من النصر المُؤَزّر في القدس، كانت أول عملية كبيرة يقودها وضَمّت معظم أفراد عائلته البالغين، كارثة وخيبة كبيرة لصلاح الدين. وعاد السلطان إلى عَكّا.

وأسرع المتخاذلون بالعودة إلى بلادهم: سار تقي الدين عمر من صور ومعه عساكر الشرق كلها: ديار بكر، الموصل والجزيرة (ابن عمر) وسنجار وماردين، أي كل قُوات شرق الفرات عدا حَرَّان والرها. وعند وصول السلطان إلى عكا وتخييمه على التل القريب منها سار الملك العادل، قليل الخبرة بالحرب الميدانية إلى مصر، والملك الظاهر إلى حلب، والأمير وَلْدَرم ـ أحَدُ أبطال حِطين ـ التركماني إلى بلاده في حوض الفرات. ولم يبق مع السلطان غير أمراء حلقته (حرسه الخاص) وابنه الأفضل صاحب دمشق والفقيه المقاتل أبداً عيسى الهَكّارِيّ. أمّا القوات الأخرى فكانت موزعة كحاميات للمحافظة على البلاد أو مُحَاصِرةً للحصون المنيعة التي لا تزال بيد فرسان الداويّة والاسبتاريّة.

وفي هذا الوقت الذي كان يمر فيه القائد، حصلت له خيبة أَمَلٍ أخرى:

---

(1) المصدر السابق.

وجاءت هذه المرة من ديوان الخلافة العباسيّة في بغداد. فقد استَغَلّ أعداء السلطان في عاصمة الخلافة التي تمنح الشرعيّة خطأً دبلوماسياً وقع فيه وهو إرسال الرشيد بن البوشنجي، أحد الأجناد، بالبشارة بنصر حطين تعجيلاً بالخبر، ولم يُرْسل سواه بعد ذلك: «**وشَغَلَتْ عن سِوَاه الفُتُوح والحروب**»، فجعلوا «من الحبّة قُبّة» كما يقول المثل الشعبي.

كان الخليفة العبّاسي، الناصر لدين، في ذلك الوقت، قَدْ أجرى تعديلاً أساسياً في دولته وسياستها العامة، فبعدما كان يتقرّب من الشِّيعة بسبب تَحَكم ابن الصاحب في دولته، قَام بالقضاء على ابن الصاحب، وعَيّن وزيراً جديداً هو عبيد الله بن يونس، كما عين أستاذاً جديداً لداره أيضاً هو الكاتب المنشىء يحيى بن سعيد بن زيادة الشيباني. ويبدو أن الوزير والكاتب الأستاذ، وأعداء صلاح الدين في العراق، قد استغلّوا هذه الهَفْوَة، فبعثوا أخا العماد الكاتب في إجابة البشارة، ومعه كِتَاب شديد اللهجَة إلى صلاح الدين عَدَّدوا فيه الكثير من الأمور، منها الرسول المبعد عن العراق، وكثرة الخوض في المذاهب، «وإحياء بدع القرامطة» من قبل أخيه في اليمن، ومراسلته التركمان والأكراد الذين «لا يعرفون إلاّ أنهم رعيّة العراق»، وتهديد مبطن بإفقاده الشرعيّة التي منحه إياها الخليفة[1]. وأضيف إلى ذلك أمور هدفت إيجاد النَّفْرَة والتباعد بين الخليفة والسلطان، ذلك أن أعداء صلاح الدين قالوا في بغداد:

«**إنه أساء الأدب لإبقاء** اسمه الملك النّاصر مضافاً للاسم الأشرف الذي هو الإمام النّاصر، وأن مقصوده قَلْب الدولة [العبّاسية] والاستبدال بها، كما فعل بالمصريين، فإنه يُدِلُّ بما له من القُوَّة والعساكر وكثرة الممالك. وقالوا من ذلك ما كثر وأحنق الديوان»[2].

وعندما قرأ العماد الكتاب على السلطان على إنفراد مع أخيه حامد «امتعض» السلطان من الكلام الوارد فيه لكن العماد تمكّن من تهدئة خاطره،

---

(1) الروضتين (أبو شامة ينقل عن الكتاب)، 2 ص 122.

(2) مفرج، 2 ص 249؛ الفتح، ص 184.

وأجاب الخليفة جواباً مناسباً، لكن بقي في النفس ما فيها. ويُفَسّر ذلك لنا بعض ما يورده المؤرخ ابن الأثير في أخبار السنة التالية، عندما قاد الوزير العباسي حملة فاشلة ضِدّ آخر سلاطين السلاجقة:

«وكنت [أي ابن الأثير] في عسكر صلاح الدين يريد الغزاة، فأتاه الخبر مع النَجّابين بمسير العسكر البغدادي، فقال [صلاح الدين]: **كأنّكم وقد وَصَل الخبر بانهزامهم**. فقال له بعض الحاضرين: وكيف ذلك؟ فقال: لا شَكّ أنّ أصحابي وأهلي أعرف بالحرب من الوزير، وأطوع في العسكر منه؛ ومع هذا، **فما أُرْسِل أحداً منهم في سريّة للحرب إلاّ وأَخَافُ عليه، وهذا الوزير غير عارف بالحرب، وقريب العهد بالولاية، ولا يراه الأُمَراء أهلاً أنْ يُطاع**، وفي مقابله سلطان شجاع قد باشر الحرب بنفسه، ومن معه يُطِيعه، **وكان الأمر كذلك**. ووَصل الخبر إليه بانهزامهم، فقال لأصحابه: كنت أخبرتكم بكذا وكذا، وقد وَصَل الخبر بذلك»[1].

لكنّ خيبة السلطان بالأُمراء الذين كانوا معه، ومن كتاب الخليفة العبّاسي الشديد اللهجة، الذي كان الهدف منه زعزعة الثقة بين الجانبين وقتل أمير حاجّة في مكة على أيدي حاج العراق[2]، لم يُغَيّر من تصميم صلاح الدين على إنجاز المهمة التي تَصَدَّى لها في القضاء على بقايا الوجود الصليبيّ قدر الإمكان.

حَاصَر صلاح الدين مدينة صُور مُدّة تقارب شهراً ونصف (22 رمضان ـ 2 ذي القعدة 583 هـ)، واضطر كما رأينا إلى الانسحاب إلى عَكّا. وأثناء مدة الحصار هذه وصلته الأخبار من الفرقة العسكرية التي كان قد تركها على حصن هونين الذي يتحكّم بالطريق بين بانياس وصور بعد الاستيلاء على تبنين (انظر ما تقدم) لأنه اضطر إلى التوجه إلى عسقلان قبل أن يتمكن الصليبيون من إمدادها، بأنّ من في الحصن طلبوا الأمان «على الوفاء بما يشترطون...»؛ وكان شرطهم: «أمهلونا حتى نعلم ما يكون من صور، ونكشف هذه الأمور، فإن

---

(1) **الكامل**، 12 ص.

(2) **الروضتين**، 2 ص 123 وغيره من المصادر.

أخذتموها (صور) أخذتم هذه، وشفعنا أمر السلطان بنفاذه. . . ونحن نجعل على هذا عدّة من الأصحاب مَرْهُونين»، فأرسل السلطان الأمير بدر الدين دَلْدَرم لتشديد الحصار عليها لتسلمها بالأمان أو الحرب. وراسل دَلْدَرِم من بها من الصليبيين على شروط أمان عادية لهم ولنسائهم وتأمين وصولهم إلى مأمنهم. وبعد مداولات ومراسلات، تمّ الاتفاق على التسليم حسب شروط الأمير. وسُلّمت هونين إلى «بيرم» أخو صاحب بانياس التي كانت تقع ضمن حدود ولايته في الأصل، وخرج من فيها إلى صور، وخَلّفُوا فيها العُدّة والذخيرة والميرة والآلات الكثيرة [1].

وبَعْدَ تَسَلُّم هذا الحصن لم يبق في المناطق الواقعة جنوب صور والقريبة من عكا سوى كوكب وصَفد: الأولى صارت معقل الاسبتارية والثانية معقل بقايا الداوية في المنطقة الجنوبيّة كلها.

ووصل السلطان إلى عكا، وأقام ظاهرها حتى رَحَل من رَحَل ممن كان معه من القُوَّات والأمراء، ثُمّ دخل المدينة وسَكَن بالقلعة، وسكن ابنه الأفَضْل ببرج الداويّة، وعَيّن والياً جديداً عليها هو الأمير عز الدين جُرْديك، الذي وقف إلى جانبه في قَضِيّة الحصار، وقام ببعض التراتيب الجديدة فوقف نصف دار الاسبتاريّة على الفقهاء والنصف الثاني على الصُّوفِية، ووقف دار الأَسْقُف بيمارستاناً، «ووقف على كل ذلك كفايته. . . » من الأوقاف، وسَلّم الأوقاف جميعاً إلى القاضي ليكون الناظر فيها [2]. وأمضى بقيّة السنة في عكا. ولم يكتف صلاح الدين بهذه التراتيب، إذ كان لا بدّ أنْ يتأكد من إحكام الحصار على القلاع الأربعة الباقية في بلاد الشام الجنوبيّة وهي كوكب وصَفَد والكرك والشوبك، نظراً لمناعتها وحصانتها وأنّ الاستيلاء عليها يحتاج إلى طول «مصابرة ومرابطة»؛ فأرسل قايماز النجمي في خمسمائة من الجند إلى كوكب، كما سنرى، ووَكّل بحصار صَفَد طُغْرِل الجَانْدَار مع خمسمائة أخرى من الجند

(1) الفتح، 170؛ الكامل، ص 557.
(2) الروضتين، 2 ص 120.

المجربين، وسَيّر الأمير سعد الدين كَمْشْبَه الأسدي مع عدد مناسب من الأجناد إلى الكرك والشوبك لمنع من فيها من الخروج منها أو السماح لأحدٍ بالدخول إليها[1]. وفي أواسط شهر مُحَرّم سنة 584 هـ/ أواسط آذار 1188 م، سار على رأس قواته إلى قلعة كوكب:

تقع هذه القلعة الحصينة على رأس جبل منفرد إلى الجنوب من بيسان، وتَرتفع 500 متر عن مستوى الأرض عند السفح، وقد بنى الصليبيون في أواخر العقد الرابع من القرن الثاني عشر الميلادي حصناً صغيراً، على قمة الجبل، ثم باع الملك هذا الحصن إلى فرسان الاسبتارية سنة 1168 م، فأعادوا بناءه كليّة بحيث صار الحصن الجديد من أحصن المواقع الاستراتيجيّة في المنطقة إذ كان يُشْرف على كل ما حوله، ويتحكم بالطرق الكثيرة التي تَمُرّ عَبْر المنطقة تحته إلى مختلف الاتجاهات [2].

وعندما فَرّق صلاح الدين قواته في السنة السابقة بعد حِطّين، كما أوضحنا فيما تقدم، لم تتمكن الفِرْقَة التي توجهت إلى بَيْسَان وعَفَربَلا والغور من الاقتراب من كوكب لحصانتها، فوضع عليها قوة تُحاصرها، «ويحفظ الطريق للمجتازين لئلا ينزل من به من الفرنج فَيَقْطَعُونه» [3]. وكان الأمير الذي أوكل السلطان إليه قيادة هذه القُوّة هو سيف الدين محمود، أخو الأمير عز الدين جاولي الأسدي المشهور. واتخذ محمود من حصن عفربلا، الذي عرفناه سابقاً، القريب من سفح الجبل، مقراً له [4]، فَرَتب من معه من الجند مجموعات تتناوب الحراسة على كوكب ليلاً نهاراً [5].

ومكث الأمير محمود ومن معه مُدّة ستة أشهر تقريباً في موقعهم يقومون

---

(1) الروضتين، (البرق) 2 ص 124.

(2) انظر: برافر، المملكة اللاتينية، [E] ص 300 - 312 حيث يقدم وصفاً دقيقاً له؛ وكذلك بنفنستي، الصليبيون، ص 294 - 300.

(3) الكامل، 11 ص 577.

(4) الفتح، ص 177 - 178؛ الروضتين، 2 ص 120.

(5) الكامل، 11 ص 588.

بواجبهم خير قيام، ولم يتعرض لهم خلالها من في القلعة أو غيرهم بالهجوم حتى كان آخر يوم من شهر شَوّال سنة 583 هـ (أول كانون الثاني 1187 م)، بينما كان السلطان في ذلك الوقت على حصار صور ويحاول إقناع أمرائه بالاستمرار في ذلك حتى النهاية دون فائدة. في تلك الليلة كان الأمير محمود يتولى الحراسة بنفسه، وكانت ليلة شديدة المطر والريح كثيرة الرعد والبرق، وغَفل الأمير عن أخذ الاحتياطات المناسبة أو أنه لم يتوقع نزول أحدٍ من القلعة في مثل هذا الجو العاصف. لكنّ الاسبتارية، الذين يبدو أن احتياطيهم من المواد الغذائية قد أخذ ينفد، استغلوا الفرصة ونزلوا من قلعتهم، وتسللوا إلى عفربلا حيث الحامية التي تراقبهم وتحاصرهم، وهجموا على من كان في الحصن وقتلوه الأمير وجميع من كان فيه من جند، واستولوا على جميع ما كان عند الحامية من سلاح وطعام، وبذلك قَوُّوا أنفسهم بإمدادات مكنتهم من المحافظة على القلعة التي يصعب السيطرة عليها بعد ذلك مدّة [1].

وعندما وصلت إلى صلاح الدين أخبار هذه الحادثة المؤلمة، أسرع إلى إرسال قُوّة جديدة، فَقَدّم الأمير صارم الدين قايماز، من مماليك والده المجربين، مع خمسمائة من الفرسان المختارين ليتولى حصار كوكب، وتوجه هو بنفسه من صور إلى عكا [2].

وفي محرم 584 هـ (نيسان 1188 م) توجه السلطان بنفسه من عَكّا على رأس ما تبقى لديه من قوات إلى كوكب لحصارها بنفسه، وأقام عليها حتى أواخر شهر صفر (أواخر نيسان) فوجد أنه لا يستطيع الاستيلاء عليها بالقُوّة، فَتَرك على حصارها قايماز النجمي وقطعة من العسكر، وتوجه إلى دمشق، فوصلها في 6 ربيع الأول (5 أيار 1188 م)، بعد غياب دام أكثر من سنة وشهرين عنها، أمضاها في الميدان:

«ما يَصْنَع بالدّار من يَتَوَقّع الموت؟ وما خلق العبد إلاّ للعبادة

(1) الكامل، 11 ص 588.

(2) الكامل، 11 ص 558؛ الفتح، ص 177 - 178؛ الروضتين، 2 ص 120.

والسعي في تحصيل السعادة الأبدية، وما جئنا إلى دمشق بنيّة الإقامة»[1].

كان هذا ردّ صلاح الدين على ما عمله صديقه ونائبه أو وزيره في دمشق الصَّفِي بن القَابِض الذي استقبله عند دخولها وأرَاه الدَّار الحسنة المشرفة التي بناها لأجل إقامته. فكان أن صَرَفه عن ولاية ديوان الأموال وعين مكانه صاحب منصبه القديم في دمشق ـ الشحنة، بدر الدين مودوداً، أخو عِزّ الدين فرخشاه لأُمّه.

عندما أعاد السلطان العساكر إلى بلادها بَعْدَ حصار صور الفاشل، كان الاتفاق معها على الاجتماع في الربيع في وقت مُحَدّد ومكان محدد لاستئناف الجهاد. وكان المكان الذي تَحَدَّد هو شواطىء بحيرة قَدَس قرب حمص: «وكان العسكر الغائب على مُواعَدَة المعاودة في الربيع، وأنّه يجتمع على حمص بالجميع»[2]. أما الموعد فيحتاج إلى الكتابة إلى الأمراء المعنيين حتى يكون الالتزام. ولذلك، ما أن دخل صلاح الدين دمشق حتى أمَر كُتّاب الإنشاء بكتابة الكتب «لاستدعاء الأجناد من الجهات للجهاد في سائر البلاد»[2].

وأقام صلاح الدين بدمشق خمسة أيام فقط حتى انتهى من بعض التراتيب الإداريّة والأعمال الأخرى التي تحتاج إلى إنجاز. وفي اليوم الخامس وصَلَتْهُ الأَخبار بأنّ الصليبيين قد تَعَرّضُوا من البحر لمدينة جبيل، فَقَرّر التوجه إلى مكان اللقاء، وعندما عرف المهاجمون بمسيره تركوا جبيل. وعندما استعد وبدأت القوات بالخروج، كان لا بدّ له من زيارة مستشاره الكبير المريض: القاضي الفاضل الذي كان ينزل بقصر ابن الفراش القاضي:

«ولما عزم السلطان على الخروج للغُزَاة بدأ بزيارة القاضي الفاضل... فاستضاء برأيه فيما يريد أن يفعله، وكان لا يأتي أمراً إلاّ من بابه، وأقام عنده إلى الظهر، ثم ودّعه ورحل...»[3].

(1) مفرج، 2 ص 254؛ العماد، الروضتين، 2 ص 124.
(2) العماد، الروضتين، 2 ص 125؛ مفرج، 2 ص 254.
(3) مفرج، 2 ص 255.

الحملة [1] التي خَطّط لها صلاح الدين كانت موجهة إلى البلاد الباقية بيد الصليبيين في طرابلس وأنطاكية والتي تَوَقَفَت العمليات العسكرية فيهما منذ ما قبل حطين بقليل. وكان تقي الدين قد عقد هدنة مع إمارة أنطاكية في ذلك الوقت، أما إمارة طرابلس فقد مات ريموند بعد عودته هارباً من حطين، وارتبطت إمارته مع إمارة أنطاكية. وكان السلطان يَعْرف من خبرته وعيونه داخل البلاد التي يُسَيْطر عليها بقايا الصليبيين أنّهم أرسلوا الوُفُود إلى الغرب الأوروبي طالبين سرعة الإنجاد بالأساطيل والقُوات، وأنّ بداية الربيع هو الوقت المناسب عادة لإبحار الأساطيل الكبيرة إلى السَّوَاحل الشاميّة. يذكر ابن الأثير:

«ولقد حدثني [سنة 590 هـ] بعض المسلمين المقيمين بحصن الأكراد، وهو من أجناد أصحابه الذين سلّموه إلى الفرنج قديماً، ـ وكان هذا الرجل قد نَدِم على ما كان منه في الغارة على بلاد الإسلام، والقتال معهم... **قال لي هذا الرجل**: أنّه دخل مع جماعة من الفرنج من حصن الأكراد إلى البلاد البحرية [أوروبا] التي للفرنج والروم في أربع شُوَن [بوارج حربيّة] يستنجدون؛ **قال**: فانتهى بنا التطواف إلى روميّة الكبرى [روما]، فخرجنا منها وقد ملأنا الشواني نقرة [عملة فضية]».

«**وحدثني بعض الأَسْرَى** أنه له والدة ليس لها ولدٌ سِواه، ولا يملكون من الدنيا غير بيت باعته وجَهَّزَتْهُ بثمنه، وسَيَّرته لاستنقاذ بيت واحدٍ فأُخِذَ أسِيراً».

ثم يخلص إلى:

«**وكان عند الفرنج من الباعث الديني والنفساني ما هذا حَدّه، فخَرَجُوا على الصَّعْب والذَّلُول، براً وبحراً، من كُلّ فج عميق**» [2].

---

(1) انضم إلى هذه الحملة في حمص على الأغلب المؤرخ ابن الأثير، وبذلك حصلنا على معلومات شاهد عيان جديد محايد وموضوعي، بالرغم من عواطفه السابقة مع آل زنكي وبعض التحليلات التي أوردها في كتابه عندما كان بعيداً عن مصادر المعلومات.

(2) الكامل، 12 ص 32 - 33.

وكانَ أول المستجيبين للدعوة ملك صقلية الذي أرْسَل أُسطولاً مكوناً من ستين سفينة بقيادة الأمير مَرْغَرِيتا (المرغريط عند ابن واصل) : ومائتي فارس بكامل عُدَّتِهم وحاشيتهم، الذي وصل إلى طرابلس فنظم دفاعاتها بصورة مناسبة حتى لا يتشَجّع صلاح الدين ويقوم بحصارها [1].

وبعد وداع صلاح الدين للقاضي الفاضل في دمشق قاد قُوَّاته إلى حمص، وسار على الطريق الرئيسي عبر وادي البقاع الخصيب. وعندما وَصَل قريباً من بعلبك جاءَته الأخبار بوصول عماد الدين بن مودود، أمير آل زنكي الباقين ـ، وصاحب سنجار ونصّيبين والخابور، الذي لم يشارك قَبْلُ بفتوح صلاح الدين، فَسُرّ السلطان بهذه الأخبار وأسرع إلى ملاقاته في مركز التجمع على شواطىء بحيرة قدس على نهر العاصي. ويصف العماد اجتماع التَّصَافِي:

«ولما تراءى موكبه لموكب السلطان، تقابل القمران. . . واجتمع السَّعْدَان، وسعد الجمعان، **فخيّم السلطان عند مخيمه، وسأله أنّ يزوره السلطان بموكبه، فأجاب دعوته، ثُمّ رتّب السلطان يوماً لحضوره عنده، وتهاديا وتَصَافَيا. . .**» [2].

ثم وصلت بقيّة القوات من الموصل وديار الجزيرة، .

ومكث السلطان وعماد الدين في المعسكر حتى «اجتمعت الجموع ووصلت قبائل العربان» **إلى نهاية شهر ربيع الأول** (9 أيار 1188 م). وقرّرا أثناء هذه الفترة، بعد التشاور، المسير إلى عرقة لأنَّه «إذا ملكت ملكت طرابلس» [3] وانتقل المعسكر إلى تَل قبالة حصن الأكراد الذي يتحكم في الطريق الوحيد بين الداخل والساحل في هذه المنطقة، كما وَصَل إليهما في المعسكر المذكور القاضي منصور بن نبيل، قاضي المسلمين بجبلة على السّاحل التي كانت لا تزال

---

(1) تاريخ الحروب الصليبيّة (سيتون) 2 ص 38؛ وانظر الكامل، 12 ص 7.

(2) الروضتين، 2 ص 126. في هذا العسكر الجَزري كان المؤرخ ابن الأثير في رفقة عماد الدين وحضور المصافاة، والتغير في موقفه من صلاح الدين، إذ صار يحضر مجالسه. الكامل، 12 ص 6، وما تقدم.

(3) الروضتين، 2 ص 126؛ مفرج، 2 ص 255 - 265.

بيد الصليبيين، وأشار على صلاح الدين بالتوجه إليها:

«وتكَفّلَ بفتحها وفتح اللاذقيّة وتلك الحصون والمعاقل الشماليّة. وكانت تلك البلاد قد سَلّمها إليه إبرنس أنطاكية وعَوّل عليه فيها، وقال: إن الاشتغال بطرابلس مع احتراسها يُذْهِبُ الزَّمَان، ويُفَوّت الإمكان، والمسلمون بجَبَلَة مجبولون على التسليم، مؤملون أن يتبَدّل شقاؤهم منك بالنعيم» [1].

ولو كان السلطان مُعْتَداً برأيه وحكمته فقط، لما قبل بهذا الرأي السديد، لكنّه عندما سمع رأي القاضي الحكيم، تَخلّى عن ما اتفق عليه الرأي مع عماد الدين، وغير خطّته، وتَقَرّر الأخذ بما قال به القاضي.

وقَدِم إلى السلطان في المعسكر في ذات الفترة «مُقَدّمو [العشير في] جبل بهراء [النصيريّة]، فَوفَّر لهم الرَّوَاتب وأجرى، فنُدِبُوا إلى أتْبَاعِهم، وكَتَبُوا إلى أشْيَاعِهِم» [2]، وبذلك ضمِن تأييد أهل الأرياف في الطريق إلى السّاحل وأهْلَ المدن السّاحليّة من المسلمين، ولم يبق عليه سوى التوجه إلى الهدف المَقْصُود حسب الخِطّة الجديدة.

وحتى يُحكم الخطة، بعث السلطان إلى ابنه الظاهر وابن أخيه تقي الدين عمر أن يجمعا عساكرهما «وينزلا بتيزين قبالة أنطاكية لحفظ ذلك الجانب»، وأن يصلا إلى الموقع في نفس الوقت الذي يصل هو فيه إلى التل مقابل حصن الأكراد، فقاما بما أمرا به، ووصلا في الوقت المُحَدّد.

وفي يوم الجمعة [كالعادة منذ حطين] 4 جمادى الأولى (23 حزيران) سارت القوات نحو الساحل ونادى المنادي في المعسكر قبل ذلك بحمل الزاد والمؤن ما يكفي لشهر: «إنّا داخلون إلى السّاحل، وهو قليل الأزواد، والعدو يحيط بنا في بلاده من سائر الجوانب». تحرّكت القوات نحو السّاحل على

---

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر نفسه. وقام خلال شهر ربيع الثاني بغارات على نواحي حصن الأكراد المنيع وصافيتا والعريمة وتلك الحصون، وتلك الحصون، وفتح حصن يحمور.

تعبئة، «وسارت المقدّمة أولاً، ومقدمها عماد الدين زنكي، والقلب في الوسط. والميسرَة في الآخر ومقدمها مظفّر الدين بن زين الدين؛ وسار الثقل في وسط العساكر حتى أتى المنزل، فبِتْنَا تلك اللّيْلة في بلد العَدُوّ، ثُمّ رَحَل في صبيحة السبت، ونزل على [حصن] العَرِيمة[1]، فلم يقاتله ولم يتعَرّض له، ولكن أقام عليه بقيّة السبت ورحل عنه الأحد» فوصل إليه في ثلاث مراحل (6 جمادى الأولى) وتوقف عند طرطوس [انطرطوس] والتي تقع في طريق جبلة. وكان صلاح الدين ينوي تجاوزها، لأنها لم تكن ضمن الخطة الجديدة التي اتفق عليها وهو جبلة واللاذقيّة، ولذلك سارت الميمنة فاجتازتها وتَقَدّمت، لكن عندما توقف أمامها وجَدَ بنظره العسكري الثاقب أنّ الفرصة مناسبة للاستيلاء عليها، فأرسل إلى الميمنة فَرَدّها، وأمرها بالنزول على جانب البحر من جهة المدينة الشماليّة، وأَمَرَ الميسرة بالنزول من الجهة الجنوبيّة، وملأ القَلْبُ بقيادته المنطقة بينهما، وبذلك أحاطت العساكر بها من البحر إلى البحر.

ويصف ابن شداد المدينة:

«وهي مدينة راكبة على البحر ولها بَرْزَخان كالقلعتين حصينان»[2].

وصَدَر الأمر بالهجوم، فاقترب السلطان بالقلب، وزحفت بقية القوات مباغِتَةً للمدينة ومن فيها «فما استتب نصب الخيم حتى صعد الناس السُّور، وأخذوها بالسيف، وغنم العسكر جميع من بها وما بها، وخرج الناس والأسرى

---

(1) العريمة: حصن قريب من ساحل طرابلس.

(2) النوادر، ص 86-87. وعند التَلّ مقابل حصن الأكراد، وَصَل المؤرخ الشاهد للأحداث والمدقق لها، القاضي ابن شدّاد، فانضمّ إلى معسكر السلطان. وهكذا اجتمع العماد وابن الأثير وابن شدّاد، فدونوا أخبار التطورات التالية. وقَدّم إليه هنا ابن شدّاد كتاباً جمعه في الجهاد أثناء مقام القاضي في دمشق، فكان السلطان «يلازم مطالعته». وطلب القاضي الإذن بالعودة، لكن السلطان أصَرّ على بقائه: «ثم سيّر إليّ مع الفقيه عيسى [الجاهز أبداً في خدمة السلطان في الحرب والسلم]، وكشف إليّ أنه ليس في عزمه أن يمكنني من العود إلى بلادي... فأجبته إلى ذلك، وخدمته من تاريخ مُسْتهل جمادى الأولى سنة أربع وثمانين» [584 هـ/ 28 حزيران 1188 م، ولازمه بعد ذلك، فقَدّم لنا خدمة كبيرة بتدوينه النوادر السلطانيّة. المصدر نفسه، ص 86 - 87.

وأموالهم بأيديهم، وتَرَكَ الغلمان نَصْبَ الخِيَم، واشتغلوا بالنهب والكسب» وبذلك وفّى صلاح الدين بقوله، عندما عُرِض عليه الغداء قبل الهجوم، فقال: «نتغدى بطرسوس إن شاء الله»[1]، ثم عاد إلى خيمته مسروراً وتَغَدّى مع من حضر للتهنئة. وتَحَصّن بعض الصليبيين بالأبراج.

«واجتمعوا في برجين عظيمين هما لانطرطوس كالقلعتين، ونقلوا إليهما من الأموال ما قدروا عليه، فَحَصر مظفر الدين كوكبوري أحد البُرجين حتى أنزلهم بالأمان، ثُمّ نَقَبَه من أساسه، وألقاه على أم رأسه، وعَجّل دَمَارَه، ورمى في البحر أحجاره، وملَك جميع ما فيه»[2].

وأما البُرج الثاني فكان للداويّة، وقد اجتمع فيه من فرسانهم كل من في المنطقة ومعهم الأسلحة التي تصيب من بعيد، وكانوا بقيادة مُقَدّم الداويّة الكبير الذي أطلق سراحه بعد السيطرة على الحصون في الجبهة الجنوبية، إضافة إلى مناعة الحصن المبني «بالحَجر النحيت» وحوله خندق مملوء بالماء، فقرر السلطان تأخيره والإعراض عنه لأنه «ليس له قدر يُجْرَح عليه مُسْلم»، لكنّه أَمَرَ بهدم أسوار المدينة كُلّها، كما خُرّبت الكنيسة العظيمة، وأَمَرَ أيضاً بإحراق المدينة:

«فأحرق جميعه، حتى كانت تَعجّ النار في أدره [دوره] وبيوته، والأصوات مرتفعة، بالتهليل والتكبير، وأقام عليها يُخَرِّبها إلى رابع عشر جمادى الأولى» (3 تموز)[3].

وفي اليوم المذكور، سار السلطان والقوات معه، وقد انضم إليه ابنه الظاهر بعساكره، إلى جَبلَة وخَرّب في طريقه كل ولاية طرطوس، واقْتَرب من مَرَقْيَة، ووصلها فوجَدَ أن أهلها قد أخلوها ورحلوا إلى حصن المرقب الحصين جداً للاحتماء بأسواره فخيّم هناك. ويصف ابن الأثير الطريق من مرقية إلى جبلة حيث ستتوجه القُوّات، فيقول:

---

(1) النوادر، ص 81.

(2) الروضتين، 2 ص 126؛ الكامل، 12 ص 7.

(3) النوادر، ص 88؛ الكامل، 12 ص 7؛ الروضتين، 2 ص 127.

«وهو [المرقب] من حصونهم التي لا تُرام، ولا يُحدث أحَدٌ نفسه بملكه لعُلُوّه وامتناعه، وهو للاسبتار، والطريق تحته، فيكون الحصن عن يمين المُجْتَاز، والبحر عن يساره، والطريق مضيق لا يَسْلُكه إلاّ الواحد بعد الواحد»[1].

في هذا الوقت الذي كان السلطان صلاح الدين مخيماً عند مرقية، وَصَل مرغريتا بأسْطُوله إلى السّاحل مقابلهم تحت المرقب «ليمنعوا من يجتاز [الممر الضيق] بالسهام»، عند ذلك أمر صلاح الدين بصف الستائر التي يحملها الجُند: «فصُفَّت على الطريق مما يلي البحر من أول المضيق إلى آخره، وجَعَل وراءها الرُّماة، فمنعوا الفرنج من الدنو إليهم، فاجتاز المسلمون عن آخرهم حتى عَبَرُوا المضيق، ووصلوا إلى جبلة. . .» يوم 18 جمادى الأولى / 7 تموز، فتسلمها وقت وصوله[2].

وكان القاضي منصور بن نبيل، حسب الاتفاق مع صلاح الدين، قد أتَمّ الاستعداد في جبلة لرفع أعلام صلاح الدين معلناً التسليم. وعند تَمَامّ وصول العساكر، رَفَع الأعْلام، وسَلم المدينة للسلطان. أما من كان في المدينة من الصليبيين فقد التجأوا إلى الحصن واحتموا به، فقاتلهم عسكر صلاح الدين **«قتالاً يُقيم عذراً لمن كان فيه»**[3]، ثم فاوضهم القاضي على التسليم بالأمان وخَوّفَهم العاقبة، فوافقوا على التسليم بالأمان بشرط أخذ رهائن منهم «يكونون عنده إلى أن يُطلق الفرنج رهائن المسلمين من أهل جبلة» الذين كانوا محتجزين عند بوهمند صاحبها، فتمّ ذلك بَعدُ[4]. وأُعْطِي القاضي كل ما في القلعة مِن ذخائر وسلاح. ثم وَصَل إليه مقدمو الجبل «سامعين مُطيعين» وسلّموه حصن بكسرائيل الذي يشرف على طريق حماه إلى السّاحل. وسَلّم صلاح الدين جبلة وولايتها إلى سابق الدين عثمان ابن الداية، صاحب قَلْعَة شيزر وبلادها. أمّا

(1) الكامل، 12 ص 7.
(2) الكامل، 12 ص 7 - 8؛ وانظر العماد في الروضتين، 2 ص 127.
(3) النوادر، ص 89.
(4) الكامل، 12 ص 8.

قاضي جبلة الجريء فقد منحه «مُلكاً نفيساً ووَقَفَه، وصَرَّفَه في أملاك آبائه، وحَكَّمه في ولاية حكمه وقضائه» (1).

وسار السلطان من جبلة دون أن يعترِضَه عائق حتى وَصَل إلى اللاذقيّة، الهدف الثاني من الحملة، يوم الخميس 24 جمادى الأولى/ 13 تموز. وفي ذات الوقت وَصَل الأسطول الذي يقوده مارغريتا إلى قبالتها في البحر لتَجشيع من فيها على الصمود. ويصف ابن شدّاد المدينة وحصارها:

«وهي بلد مليح خفيف على القلب، غَيْر مُسَوّر، وله ميناء مشهور، وله قلعَتَان مُتّصِلتان على تل مشرف على البلد».

وأما العماد فقد وصف المدينة والقلعتين، وصفاً دقيقاً، فقال:

«ورأيتها بلدة واسعة الأفنية، جامعة الأبنية، متناسقة المغاني... في كل دار بستان، وفي كل قُطْر بنيان، أمكنتها مُخَرّمة، وأروقتها مرخمة، وعقودها محكمة، ومساكنها مهندسة مهندمة، وسقوفها عالية... وأسواقها قَصِيّة... وأرجاؤها فسيحة وأهواؤها صحيحة، لكنّ العسكر شَعّث عمارتها وأذهب نظارتها، ووقع من عِدّة من الأمراء الزحام على الرّخام، ونقلوا منه أحمالاً إلى منازلهم بالشام، فشوّهوا وجوه الأماكن ومَحُوا سَنا المحاسن».

وأما القلاع:

«وهي ثلاث قلاع متلاصقات، على طول التلّ متناسقات، كأنّهُن على رأس جبل راسخ... وشرعنا نستأصل أصلها وفرعها، فطلبوا السنجق الناصري ونصبوه على السُّور» (2).

«فنزل [صلاح الدين].... محدقاً بالبَلَد، وأخذ العسكر منازلهم مستديرين على القلعتين من جميع نواحيهما إلاّ من ناحية البلد. واشتدّ

(1) الروضتين، 2 ص 127.
(2) العماد في الروضتين (البرق) 2 ص 128.

القتال، وعظم الزحف، وارتفعت الأصوات، وقوي الضجيج إلى آخر النهار. وأخذ البلد دون القلعتين. وغنم الناس منه غنيمة عظيمة، فإنه كان بَلَد تُجّار، ففرق بين الناس الليلُ وهجومه»[1].

وبدأ في صباح اليوم التالي (الجمعة) عمل النقوب في الجهة الشماليّة فحفر نفق طوله ستون ذراعاً وعَرْضه أربعة أذرع، وفي ذات الوقت اشتد الهجوم على السور، «وتواصل القتال حتى صاروا يتقاذفون بحجارة باليد»، عند ذلك طلب المحاصَرْون الأمان مساء اليوم نفسه، وسألوا أن يدخل إليهم قاضي جَبَلَة حتى يُقَرّر لهم قاعدة الأمان وشرطه، فوافق السلطان. وعاد العسكر إلى خيامهم. وفي صباح اليوم التالي دخل القاضي منصور إليهم واتفق معهم على:

«أنّهم يُطْلَقُون بنفوسهم وذَرَاريهم ونسائهم وأموالهم ـ خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والحرب ـ، وأطلق لهم دَوَابّ يركبونها إلى مأْمَنِهم».

وأجاب السلطان بالموافقة على شروط الأمان، ورفعت الأعلام الصلاحيّة على القلعتين[2]، وخرج بعض من فيهما إلى أنطاكية، أمّا الباقي فقد آثر البقاء ودفع الجزية خوفاً من مرغريتا وأسطوله الذي هدد باعتراض مراكبهم وأسرهم.

كان مرغريتا يشاهد العمليات العسكرية من أسطوله في البحر، وهَدّد بالاستيلاء على المراكب التي تحمل الخارجين من المدينة لأنهم سَلّموا دون إبداء المقاومة مدة طويلة، فقرر بعض الصليبيين البقاء. ثم طلب مرغريتا من صلاح الدين الأمان للوصول إلى حضرته، فمنح ذلك ونزل إلى الشاطىء وحضر مجلس السلطان:

«وقال [مرغريتا] ما معناه: إنك سلطان رحيم وكريم، وقد فعلت بالفرنج ما فعلت فذلوا، فاتركهم يكونون مماليكك وجُندك تفتح بهم البلاد والممالك، وتَرُدّ عليهم بلادهم، وإلاّ جاءك من البحر ما لا طاقة لك به، فيعظم عليك الأمر ويَشْتَدّ الحال.

(1، 2) النوادر، ص 89 - 90. وانظر: العماد في الروضتين، 2 ص 128؛ الكامل، 12 ص 9.

فأجابه صلاح الدين بنحو من كلامه من إظهار القُوّة، والاستهانة بكُلّ من يجيء من البحر، وأنهم إن خرجوا أذاقَهم ما أذاق أصحابهم من القَتل والأسر؛ فَصَلَّب ورجع إلى أصحابه»[1].

ولمّا أراد صلاح الدين الرّحيل عن اللاذقية يوم الأحد 27 جمادى الأولى (16 تموز):

«دخل المدينة، ورَدّ إلى سُكّانها السكينة، ودار خلال ديارها، وخَرَق أسْوَاقها في سائر أقطارها، ووقف على البحر للنظر إلى موانيها وشوانيها [مراكبها]. . . وشكر الله على تمكينه من ملكها وتخصيصه بملكها»[2].

وسَلّم صلاح الدين إعادة عمارة السور والتحصينات والمرافق العامة في اللاذقيّة إلى تقي الدين، الذي كان «عظيم الهمة في تحصين القلاع والغرامة [صرف الأموال] الوافرة عليها. . .»[3]، أما ولايتها فقد أُعطيت لمملوكه سنقر الخلاطي[4]، لكنّه لم يعين فيها أحداً للولايات الدينيّة، إذ لم يكن يسكنها أحد من المسلمين.

وكانت المنطقة الجبليّة بين اللاذقيّة وأنطاكية وغرب العاصي مَزْرُوعة بعددٍ

---

(1) الكامل، 12 ص 10. وقد نقل العماد ترجمة المترجم بأسلوبه: «وقال ما معناه: أنت سلطان عظيم، وملك رحيم، وقد شاع عَدْلُك، وذاع فضلك، وقَهْر سلطانك، وظهر إحسانك، فلو مَنَنْتَ على هذه الطائفة الساحليّة الخائفة لملكت قيادها إذا أعدت إليها بلادها، وصاروا لك عبيداً، وأطاعوك قريباً وبعيداً، وإلاّ جاءك من وراء البحار في عدد الأمواج أفواج بعد أفواج، وسار إليك ملوك ذوي الأقانيم من سائر الأقاليم، وهؤلاء أهون منهم فاتركهم واصفح عنهم، فقال له السلطان: قد أمرنا الله بتمهيد الأرض، ونحن قائمون في طاعته بالفَرْض، وعلينا الاجتهاد في الجهاد، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد. ولو اجتمع علينا أهل الأرض ذات الطول والعرض، لتوكلنا على الله في اللقاء، ولم نبال بأعداد الأعداء. فصَلّب على وجهه، وركب بكربه، ولم يُغْنِ خطابه عن خطبه.

(2) الروضتين، 2 ص 128.

(3) الكامل، 12 ص 9.

(4) الروضتين، 2 ص 128.

من الحصون المنيعة التي بناها الصليبيون للتحكم بالمنطقة ولتكون ملجأً عند الحاجة إليها في الأوقات العاديّة من الحرب، فوجّه السلطان قُوّاته إليها معدلاً بذلك خِطّته الأساسيّة، إذ وجَدَ الواقع والظرف مناسباً للسيطرة عليها. ولم أجد وصفاً لفتحها أدق مما دَوّنه القاضي ابن شدّاد، فآثرت أن أنقله بتمامه، لأنه يُعْطِي صورة حيّة لكل العمليات:

فتـوح صهيـون:

«ورحل عن اللاذقية ظهيرة الأحد المذكور طالباً صهيون المحروسة، وكان نزوله عليها يوم الثلاثاء تاسع عشرين جمادى المذكورة، واستدار العسكر بها من سائر نواحيها بكرة الأربعاء، ونصب عليها ستة مناجيق، وهي قلعة حصينة منيعة في طرف جبل، خنادقها أودية هائلة واسعة عظيمة، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد، مقدار طوله ستون ذراعاً ولا يبلغ وهو نَقْرٌ في حجر، ولها ثلاثة أسْوَار، سور دون رَبَضِها، وسور دون القَلَّة، وسور القُلّة، وكان على قلتها عَلَمٌ طويل منصوب، فحين أقبل العسكر الإسلامي شاهدته وقد وقع، فاستبشر المسلمون بذلك، وعلم أنه النصر والفتح، واشتد القتال عليها من سائر الجوانب، فضربها ولده الملك الظاهر ـ صاحب حلب وكان قد لحقه قبيل جَبَلة بجحفله وعسكره وحضر فتوحها، وكان نصب على صهيون منجنيقاً قبالة قَرْنَيه من سورها قاطع الوادي، وكان صائب الحجر، فلم يزل يضربها حتى هدم من السور قطعة عظيمة يمكن الصاعد في السور الترقي إليه منها.

ولما كان بكرة الجمعة ثاني جمادى الآخرة عزم السلطان ـ رحمة الله عليه ـ على الزحف، وركب وتقدم، وأمر المنجنيقات أن تتواتر بالضرب، وارتفعت الأصوات، وعظم الضجيج بالتكبير والتهليل، وما كان إلا ساعة حتى رقي المسلمون على أسوار الرَبَض، واشتد الزحف، وعظم الأمر، وهجم المسلمون الرَبَض.

ولقد كنتُ أشاهد الناس وهم يأخذون القدور، وقد استوى فيها الطعام فيأكلونها وهم يقاتلون القلعة، وانضم مَنْ كان في الربض إلى القلعة وحملوا ما

أمكنهم أن يحملوا من أموالهم، ونُهب الباقي، واستدارت المقاتلة حول أسوار القلعة، ولما عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الأمان، ووصل خبرهم إلى السلطان، فبذل لهم الأمان، وأنعم عليهم، على أن يسلموا بأنفسهم وأموالهم، ويؤخذ من الرجل منهم عشرة دنانير، وعن المرأة خمسة، وعن الصغير ديناران، وسلمت القلعة ـ لله الحمد ـ وأقام السلطان عليها حتى تسلم عدة قلاع، كالعَيْذَو، وبَلاطُنُس وغيرها من القلاع والحصون وتسلمها النواب، فإنها كانت تتعلق بصهيون».

فتـوح بكّـاس:

«ثم رحل ـ رحمة الله عليه ـ وسرنا حتى أتينا سادس جمادى الأخرى بكَّاس، وهي قلعة حصينة على جانب العاصي، ولها نهر يخرج من تحتها، وكان النزول بذلك المنزل على شاطئ العاصي، وصعد السلطان جريدة إلى القلعة، وهي على جبل يطل على العاصي، فأحدق بها من كل جانب، وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات والزحف المضايق إلى يوم الجمعة تاسع الشهر، ويسَّر الله فتحها عنوة، وأسر من فيها بعد قتل من قُتل منهم، وغنم جميع ما كان فيها، وكان لها قلعة تسمى الشُّغْر قريبة منها يعبر إليها منها بجسر، وهي في غاية المنعة ليس إليها طريق، فسلطت عليها المنجنيقات من الجوانب، ورأوا أنهم لا ناصر لهم، فطلبوا الأمان، وذلك في يوم الثلاثاء ثالث عشر، وسألوا أن يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان مَنْ بأنطاكية، فأذن في ذلك.

وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطاني على قُلَّتها يوم الجمعة سادس عشر.

ثم عاد السلطان إلى الثقل، وسيَّر ولده الملك الظاهر إلى قلعة سرمانية يوم السبت سابع عشرة، فقاتلها قتالاً شديداً، وضايقها مضايقة عظيمة، وتسلمها يوم الجمعة الثالث والعشرين من الشهر، **فاتفقت فتوحات الساحل من جَبَلة إلى سرمانية في أيام الجمع**، وهي علامة قبول دعاء الخطباء المسلمين وسعادة السلطان حيث يسَّر لنا الله الفتوح في اليوم الذي يضاعف فيه ثواب الحسنات،

وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتوالية، ولم يتفق مثلها في التاريخ».

فتـوح بَرْزُيَـة:

ثم سَيَّر السلطان جريدة إلى قلعة برزية، وهي قلعة حصينة في غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق يُضرب بها المثل في جميع بلاد الإفرنج والمسلمين، يحيط بها أودية من سائر جوانبها، وذرع علوها كان خمسمائة ذراع ونيفاً وسبعين ذراعاً، ثم جدَّد عزمه على حصارها بعد رؤيتها، واستدعى الثقل، وكان وصول الثقل وبقية العسكر تحت جبلها يوم السبت الرابع والعشرين من الشهر.

وفي بكرة الأحد الخامس والعشرين منه صعد السلطان جريدة مع المقاتلة والمنجنيقات وآلات الحصار إلى الجبل، فأحدق بالقلعة من سائر نواحيها، وركب القتال من كل جانب، وضرب أسوارها بالمنجنيقات المتواترة الضرب ليلاً ونهاراً، وقاتلها حتى كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين، فقسم العساكر ثلاثة أقسام، ورتب كل قسم يقاتل شطراً من النهار، ثم يستريح ويسلِّم القتال للقسم الآخر بحيث لا يفتر القتال عنها أصلاً.

وكان صاحب النوبة الأولى عماد الدين ـ صاحب سنجار ـ فقاتلها قتالاً شديداً حتى استوفى نوبته، وضرس الناس من القتال، وتراجعوا عنه.

واستلم النوبة الثانية السلطان بنفسه، وركب وتحرك خطوات عدة، وصاح في الناس، فحملوا عليها حملة الرجل الواحد، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وقصدوا السور من كل جانب، فلم يكن إلا بعض ساعة حتى رقي الناس على الأسوار، وهجموا القلعة، وأخذت القلعة عنوة، فاستغاثوا الأمان، وقد تمكنت الأيدي منهم «فلم يكُ ينفعهم إيمانهم لما رأوْا بأسنا» ونهب جميع ما فيها، وأُسر جميع من كان فيها، وكان قد آوى إليها خلق عظيم، وكانت من قلاعهم المذكورة، وكان يوماً عظيماً.

وعاد الناسُ إلى خيامهم غانمين بحمد الله تعالى، وعاد السلطان إلى الثقل

فرحاً مسروراً، وأحضر بين يديه صاحب القلعة، وكان رجلاً كبيراً منهم، وكان هو من أُخذ من أهله سبعة عشر نفساً، فمنَّ عليهم السلطان ورقَّ لهم، وأنفذهم إلى صاحب أنطاكية، استمالةً له، فإنهم كانوا يتعلقون به ومن أهله».

فتـوح دَرْبَسَـاك:

«ثم سار حتى أتى جسر الحديد، وأقام عليه أياماً، وسار حتى نزل على دَرْبَسَاك يوم الجمعة ثامن شهر رجب، وهي قلعة منيعة قريبة من أنطاكية ـ يُسَّر الله فتحها ـ فنزل عليها وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات، وضايقها مضايقة عظيمة، وأخذ النقب تحت برج منها. وتمكن النقب منها حتى وقع وحموه بالرجال والمقاتلة، ووقف في الثغرة رجال يحمونها ممن يصعد فيها، ولقد شاهدتُهم وكلما قُتل منهم رجلٌ قام غيره مقامه، وهم قيام عوض الجدار مكشفين، فاشتد بهم الأمر حتى طلبوا الأمان، واشترطوا مراجعة أنطاكية، وكانت القاعدة أن ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لا غير، ورقي عليها العلم الإسلامي يوم الجمعة أيضاً ثاني عشرين رجب وأعطاها عَلَم الدين سليمان بن جندر، وسار عنها بكرة السبت الثالث والعشرين منه».

فتـوح بغَـراس:

«وهي قلعة منيعة أقرب إلى أنطاكية من دَرْبَسَاك، وكانت كثيرة العدة والرجال، فنزل العسكر في مرج لها، وأحدق العسكر بها جريدة مع أنا احتجنا إلى يَزَك في تلك المنزلة يحفظ جانب أنطاكية، لئلا يخرج منها من يهاجم العسكر، فضرب يزَك الإسلام على باب أنطاكية بحيث لا يشذ عنه مَنْ يخرج منها، وأنا ممن كان في اليزك في بعض الأيام لرؤية البلد وزيارة حبيب النجار المدفون فيها، ولم يزل يقاتل بغراس مقاتلة شديدة حتى طلبوا الأمان على استئذان أنطاكية، ورقي العلم السلطاني عليها في ثاني شعبان من شهور سنة أربع وثمانين.

وفي بقية ذلك اليوم عاد ـ رحمه الله ـ إلى المخيم الأكبر، وراسله أهل

أنطاكية في طلب الصلح، فصالحهم لشدة ضجر العساكر وقوة قلق عماد الدين ـ صاحب سنجار ـ في طلب الدستور، وعُقد الصلح بيننا وبين أنطاكية من بلاد الإفرنج لا غير على أن يطلقوا جميع أسارى المسلمين الذين عندهم، وكان إلى سبعة أشهر، فإن جاءهم مَنْ ينصرهم وإلا سلّموا البلد إلى السلطان.

ورحل يطلب دمشق، فسأله ولده الملك الظاهر ـ صاحب حلب ـ أن يجتاز به، فأجابه، وسار حتى أتى حلب حادي عشر شعبان، وأقام بقلعتها ثلاثة أيام، وولدُه يقوم بالضيافة حق القيام، ولم يبق من العسكر إلا مَنْ ناله من نعمته منال وأكثر حتى أشفق عليه والده.

وسار من حلب رابع عشر شعبان يريد دمشق، فاعترضه ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين، وأصعده إلى قلعة حماه، واصطنع له طعاماً حسناً، وأحضر له سماع الصوفية، وبات فيها ليلة واحدة، وأعطاه جَبَلة واللاذقية.

وسار ـ رحمة الله عليه ـ على طريق بعلبكِ حتى أتاها، وأقام بمرجها يوماً، ودخل إلى حمامها، وسار فيها حتى أتى محروسة دمشق قبل دخول رمضان بأيام يسيرة فأقام بها حتى دخل رمضان، وما كان يرى تبطيل وقته عن الجهاد مهما أمكنه. وكان قد بقي له من القلاع القريبة من حوران التي يخاف عليها من جانبها كصَفَد وكوكب، فرأى أن يشغل الزمان بفتح المكانين في الصوم»[1].

عندما سَار صلاح الدين إلى الشمال كان لا بُدّ له من وَضع قوة في مكان مناسب لمنع صُور ومن تجمع فيها من الصليبيين من التعرض للمناطق التي استردها في فلسطين أو بلاد دمشق. وعين أخاه الملك العادل مع قُواته في بلاد تبنين، فأقام العادل في المنطقة «مُقَوياً للأمراء المُرَتَّبين في الحصون. . . »[2]. وفي الوقت الذي عاد فيه صلاح الدين إلى دمشق، كانت المراسلات قد بدأت بين الملك العادل من جانب وبين المحاصرين في قلعتي الكرك والشوبك اللتين

---

(1) النوادر، 90 - 94.

(2) : العماد في الروضتين، 2 ص 134؛ الكامل، 12 ص 20 - 21.

ذكرنا أن صلاح الدين وجّه إليهما الأمير سعد الدين كمشبه مع قوة مناسبة لحصارهما ومنع وصول الأقوات والمؤن إليهما. وكان كمشبه هذا صهراً للملك العادل، ولذلك كانت المراسلات مع الملك العادل.

وشدّد كمشبه الحصار على القلعتين كما طُلِب منه «حتى فنيت أزوادهم، ونفدت مَوَادُّهم، ويئسوا من نجدة تأتيهم. . .»، عند ذلك طلبوا مراسلة العادل للتسليم بالأمان، فأجابهم، الأمير إلى ذلك:

«فما زالت الرسالات تَتَرَدّ والاقتراحات تَتَجدّد، والقوم يَلِينُون والعَادل يَتَشَدّد. .»[1].

حتى تَـمّ الاتفاق على التسليم بالأمان العادي، إذ لا تذكر المصادر شروطاً جديدة، فخرجوا منها بأنفسهم وأموالهم وتركوا الذخائر فيهما، ورحلوا على الأغلب إلى بلاد صور، وتَسَلّم كمشبة الحِصْنَيْن، وخُلّص من كان فيهما من الأسرى، كما تَسَلّم الحصون الأخرى في جنوبي الأردن التي كانت لا تزال بأيديهم مثل هرمز والوعيرة وسلع. وعندما تَمّ ذلك أطلق صلاح الدين أميرهما المأسور لديه[2]، وهو هنفري ابن صاحب تبنين سابقاً والذي سيتردد اسمه في التطورات أثناء الحملة الثالثة. وبذلك تَمّ تصفية كل المناطق التي كانَت تشكل إمارة الكرك الصليبيّة. ومع ذلك فإن ذكر هاتين القلعتين سيتردد كثيراً أثناء المفاوضات بين صلاح الدين وريتشارد ملك انجلترا حيث أَصَرَّ الأخير حتى النهاية على إعادتهما إلى حكم الصليبيين، لكن دون فائدة.

عاد صلاح الدين إلى دمشق في أواخر شعبان 584 هـ/ أواسط تشرين الثاني 1188 م. فأقام بها حَتَى أوائل رَمَضان، وقَرّر التوجه إلى القلعتين الكبيرتين اللتين كانتا لا تزلان بيد الدَّاوِيّة والاسبتارية: صفد وكولب، لأنه كان، كما يقول ابن شدّاد، لا يرى:

«تبطيل وقته عن الجهاد مهما أمْكَنَه. وكان قد بقي له من القلاع

(1، 2) المصدر السابق.

القريبة من حوران التي يخاف عليها من جانبها، كصفد وكوكب، **فرأى أن يشغل الزمان بفتح المكانين في الصوم»** [1].

وسار صلاح الدين، ومعه القاضي الفاضل الذي أبَلّ من مرضه، نحو صفد أولاً عن طريق مَخّاضة بيت الأحزان والمنطقة التي شهدت أولى انتصاراته الكبيرة في هذه الجبهة، والتي كان يرابط فيها الملك العادل مع قُوّاته نظراً لأهميتها الاستراتيجيّة وتحكمها في الطرق بين الداخل والسّاحل في هذه المنطقة، فوصَل إليها في العشر الأوْسَط من رمضان، وبدأ بحصارها في بداية فصل الأمْطار (أواخر تشرين الثاني) [2].

كانت قلعة صفد المنيعة تقع على تَلّة عالية من تلال الجليل على ارتفاع يقرب من 840 متراً عن سطح البحر، وتُشرف على كل المنطقة المجاورة بما في ذلك بحيرة طبريّة، ووصفها ابن شداد بالمنعة: «وقد تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها». أما البلدة الصغيرة فكانت على السفوح التي تطل القلعة عليها. وقد بنيت هذه القلعة في بداية الاحتلال الصليبي لفلسطين والسّاحل الشامي لتُسَهّل حركة العمليات العسكرية التي كانت توجّه إلى مدينة صور الحصينة التي كانت آنذاك بيد ولاة الفاطميين، ولحماية حدود المناطق التي سيطروا عليها في الجليل. وتبعت القلعة أولاً لأمراء الجليل الذين كان مركزهم في طبريّة، ووسعها الملك فولك الأنجوي في أربعينات القرن الثاني عشر الميلادي، ثم باعها الملك عموري في أواخر عقد الستينات إلى جماعة فرسان الداويّة التي كان جيرار ـ صاحب القول المشهور عن مصير المملكة ـ مقدمها الكبير آنذاك. وتَمّ ذلك قبل سنة واحدة من تولي صلاح الدين لأمور مصر.

وعندما قَدِم صلاح الدين إلى صَفَد، كان الأمير مَسْعود الصلتي الذي بعثه السلطان بعد حطين مع فرقة من المماليك الناصرية (جنده الخاص)، لا يزال مرابطاً هناك محاصراً لها ومانعاً لحاميتها الاتصال بالخارج أو وصُول أحد من

---

(1) النوادر، 94.

(2) المصدر نفسه، ص 95؛ الروضتين، 2 ص 135؛ الفتح، 268؛ الكامل، 12 ص 21.

الخارج إليها. ولم تكن مهمة مسعود تتعَدّى ذلك، لأن الاستيلاء على القلعة الحصينة يحتاج إلى قوّة أكبر بكثير من قُوّته وآلات حرب كبيرة لم تكن متوافرة لديه، ومهندسين وفنيين كانوا آنذاك مع صلاح الدين الذي كان يحتاج إليهم في عملياته التي تَلَت حطين، ولذلك كان عليه أن ينتظر حتى يتمكن السلطان من إمداده بقوة كبيرة مُجهَّزة بكل ما يحتاج إليه حصار مثل هذا الحصن أو وُصُول السلطان بنفسه[1]، خاصة وأن تشديد مسعود للمراقبة هذه المُدّة الطويلة قد أفنى أو كاد المؤن المخَزّنة في القلعة.

ووصل صلاح الدين إلى صفد، وبدأ بحصارها، ونَصَب المجانيق عليها في الليل في المطر والريح والبرد. يذكر ابن شدّاد:

«ولقد كنت عنده في خِدمته ليلة، وقَد عيّن مواضع خمسة مجانيق حَتّى تُنْصَب، فقال في تلك الليلة؛ ما نَنَام حَتّى ننصب الخمسة؛ وسَلّم كل منجنيق إلى قوم، ورُسُله تتواتر إليهم يُعَرِّفونهم كيف يصنعون ذلك، حَتّى أطَلّنا الصُبْح ونحن في خدمته... وقد فرغت المنجنيقات، ولم يبق إلا تركيب جنازيرها فيها»[2].

أما حامية الداوية فقد أوشكت ذخائرها ومؤنها أن تفنى من طول الحصار. وعندما شدّد صلاح الدين الحصار عليها وبدأت المنجنيقات الرمي ولم يتمكن أحد من القُوّات الصلاحيّة الاقتراب منها لنقب الأسوار، قَرّرت الحامية التَسْليم مقابل الأمان كالعادة، فوافق السلطان على ذلك، وخرجت الحامية وتوجهت إلى صور، وتَسَلّم صلاح الدين القلعة يوم 8 شَوّال (28 تشرين الثاني)، بعد ما يقرب من ثلاثة أسابيع من بداية الحصار[3].

ويصف العماد عمليّة الحصار بأسلوبه المنمق:

---

(1) النوادر، ص 95.

(2) النوادر، ص 95.

(3) العماد في الروضتين، 2 ص 135؛ الكامل، 12 ص 21 - 22. أما ابن شداد فيذكر أن تسليمها كان يوم 14 شوال. النوادر، ص 95.

«وشَرَعنا في مراومة (حصار) القَلْعة، وجَثَت المجانيق لاجْتِثَاثها. . . ورمتها عن قسِيِّها بالقاسِيات، وسَمَتْ إلى هضاب تلك الأبراج الراسيات، وأمْطَرَت عليها الحِجَارة. . . فما رفع الحصن الراسي بها رأساً، ولا الحجارة مَسّت منه ركناً، ولا النُّقُوب باشَرَت أَسَاساً. . . ودامت المجانيق منصوبة. . . ولنقب لم يكشف نَقْب السُّور عن وجو، فرنجها»[1].

وعين صلاح الدين الأمير شجاع الدين طُغْرل الجاندار نائباً فيها، ورتّب فيها حامية مناسبة، ثُمّ توجّه إلى قلعة كوكب، التي حاول الصليبيون ـ أثناء حصاره لصفد ـ إمدادها.

وكان صَارم الدين قايماز، الذي رتّبَه صلاح الدين مع قُوّة تتألف من خمسمائة فارس بدلاً من الحامية التي قتلت عن آخرها كما ذكرنا، لا يزال في موقعه في عفربلا، وقد أوقع بالإمدادات التي أرسلت من صور إليها:

عندما شدّدَ صلاح الدين الحصار على صَفَد، أحَسّ من بصور بأنّ كوكب ستكون الهدف التالي للسلطان، فقرروا إرسال نجدة إليها محَمّلَة بالسلاح والذخائر والمؤن بصورة خاصة حتى تتحمل الحصار مدة أطول تكون فيها الإمدادات العسكرية من أوروبا قد وصلت، وبذلك يمكن المحافظة عليها. وكانت النجدة مكونة من مائتي فارس مختارين، فساروا بحَذَرٍ شديد إذ كانوا يمشون في الليل ويتوقفون أثناء النهار في أماكن متوارية بعيداً عن طرق المواصلات المعروفة، حتى تتمكّن من الوصول إلى هدفها بسلام. لكنّ أحد الجند التابعين لقايماز النجمي اكتشف أمرها وأسر أحد أفرادها الذي كان، كما يبدو، يستكشف الطريق؛ فقام الجندي بأسره وأخذه إلى قايماز الذي قام باستجوابه حتى عَرّفه خبر النجدة والمكان الذي كانت تكمن فيه، وسار قايماز مباشرة على رأس قسم من قُوّاته إلى المكان المحدد، وهاجمها فجأة، فقضى

(1) الفتح، ص 268.

عليها، وأسر اثنين من مُقَدّمي الاسبتارية، وبعث بهما إلى صلاح الدين في صَفَد[1].

ووَصَل صلاح الدين إلى سفح الجبل الذي تقع عليه قَلْعة كوكب في عِزّ الشتاء والبرد (كوانين)، فأرسل إلى حاميتها عَارضاً الاستسلام مقابل الأمان، لكنّ حاميتها من الاسبتاريّة رفضت التسليم. عند ذلك تَقَدّم السلطان نحو سطح الجبل، حيث كانت تجثم القلعة المهيبة، تاركاً أثقاله عند السفح، واتخذ له موقعاً قريباً منها لكن لا تصل إليه رماية الحامية؛ وبنى في الموقع حائطاً للحماية من الحجر والطين بالرغم من غزارة المطر وكثرة الوُحُول وشِدّة الرِّيَاح[2]. ثم نَصَبَت القوات المجانيق وبدأ الرمي منها، وزحف الفرسان إليها مَرّة بعد مَرّة دون نتيجة، وقتل من قواته عدد من الجند، لكن صَلاَح الدين أصَرَّ على متابعة الحصار مهما تكن الخسائر، إلى أن تمكنت القُوّات من الوصول إلى الباشورة، فتَقَدَّم النَقّابون للقيام بحفر النفق «والرماة يحمونَهم بالنَشّاب. . .»، حتى تمكنوا من تحقيق مهمتهم، وسقطت الباشورة، وتَقَدم المهاجمون بسرعة إلى السُّور الذي يدور حول القلعة حتى يتابعوا الحصار والنقب. عند ذلك طلب الاسبتاريّة الأمان مقابل التسليم كالعادة، فوافق صلاح الدين كما فَعَل مع الداويّة في صَفَد، على الرغم من أنّ سياسته السابقة مع الجماعتين كانتَ أن لا يؤمن أحداً منهما. وتَسَلّم القلعة الكبيرة في منتصف ذي القَعْدَة 584 هـ/ كانون الثاني 1189 م، وسيّر مع المغادرين خفراء حتى يوصلونهـم إلى مدينة صور[2].

ونجح صلاح الدين في السيطرة على أخطر موقعين من المواقع الباقية بيد الصليبيين. وعندما جاء دور ترتيب والٍ وحامية فيها عَرَضَ السلطان المركز على عددٍ من الأمراء فلم يقبلها أحد منهم، ثم قبلها الأمير الكبير قايماز النجمي، الذي كان على حصارها من زمن طويل، على كراهية منه لذلك[3].

وكانت فرحة السلطان ورجال الدولة والجند كبيرة بفتح كوكب، وكتب العماد إلى ديوان الخليفة رسالة كان مِمّا قاله فيها:

---

(1) المصدر نفسه، 2 ص 270 - 271؛ الكامل، 12 ص 22 - 23.

(2) الكامل، 12 ص 127؛ العماد (البرق) في الروضتين، 2 ص 136؛ النوادر، ص 96.

(3) العماد في الروضتين، 2 ص 136؛ الفتح، ص 274.

«والآن فقَدْ خَلُص لنا جميع مملكة القُدس، وحَدُّها من سمت مِصْر من العريش وعلى صوب [جهة] الحجاز من الكرك والشوبك، وتشتمل على البلاد الساحلية إلى منتهى أعمال بيروت، ولم يبق من هذه المملكة إلاّ صُور»[1]، وشقيف أرنون، «وبقيت أنطاكية بمفردها والقصير من حصونها، ولم يبق من البلاد التي لم تُفْتَح أعمالها. . . سوى طرابلس، فإنه لم يُفْتَح منها إلاّ مدينة جبيل. . . . ومعاقلها باقية. . . . » [1].

وبعد هذا الفتح، رغب القاضي الفاضل بالعودة إلى مصر، فَوَدّعه صلاح الدين بَعْض الطريق، ثم عاد وأقام في غور بيسان قريباً من ذكريات قرون حِطّين إلى أول ذي الحجّة (23 شباط 1189 م)، فتوجه مع أخيه العادل عن طريق الغور إلى القُدْس فوصلها يوم الجمعة 8 منه (2 آذار)، وصَلّى الجمعة في مسجد قبة الصخرة، وبقي فيها إلى أن عيّد الأضحى، ثم تَوَجّه إلى عسقلان «للنظر في مهامها، ونظم أسباب إحكامها، واستعادها من العادل وعوضه الكرك عنها، ورحل العادل إلى مصر لمساعدة الملك العزيز في إدارة شؤونها [2].

وعاد السلطان من عسقلان عن طريق السّاحل إلى دمشق، وفي طريقه تفَقّد المدن والحصون التي مَرّ بها: «ويَمُرّ على البلاد يتفقد أحوالها، ويُودِعها الرجال والعُدد حتى أتى عكا» [3].

وأقام صلاح الدين في عَكّا حتى أواخر مُحَرّم سنة 585 هـ/ أواسط آذار 1189 م، وعين بهاء الدين قراقوش، باني سور القاهرة وقلعتها، والياً عليها، وأمره بإعادة بناء السُّور وإحكام تحصيناته، وعَيّن معه الأمير حسام الدين بشارة مساعداً، ووصلت قطعة من عسكر مصر إلى عَكّا لدعم حاميتها، فقَـرّرَ أمْرَها وأحوالها، ثم سار إلى دمشق عن طريق طبرية فدخلها في اليوم الأول من صفر (4 نيسان) من السنة [4].

---

(1) العماد في الروضتين، 2 ص 137. ويلاحظ أنّ القاضي الفاضل لم يكتب الرسائل إلى الديوان العزيز منذ حطين.

(2) المصدر ذاته، 2 ص 137.

(3) النوادر، ص 96.

(4) المصدر نفسه.

15 حِصَارُ عَكّا

بعد فتح كوكب، كتب مستشار دولة صلاح الدين الأول ، القاضي الفاضل، رسالة عن السلطان، إلى أخيه سيف الإسلام طغتكين باليمن، الأخ الثاني الباقي من إخوة السلطان، يُبَشّر بالفتح ويشرح الوضع في بلاد السلطان، ويُحَلّل وَضْع الصليبيين في بلاد السّاحل، والدّعم الكبير الذي تَوَاصلت الأخبار به من جهات عِدّة إلى السلطان، من كل ممالك أوروبا الذي بدأ يتجهّز للمسير إلى الشام في البَرّ والبحر، وأنّ القُدْرة العسكريّة الصلاحيّة الموثوقة الثَّبَات غيْرُ كافية للمواجهة القادمة، ويسأله القُدُوم بالعون بالمال والرجال حتى يتمكن صلاح الدين من المحافظة على المكاسب التي حَقّقَها للإسلام والمسلمين وللبيت الأيوبي، فهو الوحيد الذي يستطيع تقديم مثل هذا العَوْنَ، وأنّ الملك العادل لا يستطيع أنْ يوزّع نفسه بين مصر والشام، فمِصْرُ هدف للحملة المرتقبة كالشام:

«... والآن فالمجلس السّامي يَعْلَم أنّ الفرنْج لا يَسْلُونَ عَمّا فَتَحْنا، ولا يَصْبِرُون على ما جَرَحْنا، وأنّهم... أمم لا تُحْصَى، وجُيُوش لا تُسْتَقْصَى.... وإن لم يُقْذَفوا من كُلّ جانب استَأْسَدُوا واسْتكْلَبُوا، **وكانوا لبَاطِلهم الدّاحِض أنْصَرُ مِنّا لحقّنَا النّاهِض**.

وقَدْ كَتَب المستخدمون بالاسكندريّة، وصاحب القسطنطينية، والثُّغُور المغربيّة يُنْذِرون بأنّ العَدُوّ قَدْ أجمَع أمْراً، وحَاوَل نُكراً، وغَضِبُوا... وأوْقَدُوا ناراً للحَرْب... وسَلُّوا سُيُوفاً للبغي... وتَواعَدَت جُمُوع ظَلاَلَتِهِم...

وأمّا نحن فبالله نَدْفع ما نُطِيقُ وما لا نُطِيق، وإليه نَرْغَبُ في أنْ يثبِّت قلوبنا إذا كانت تَزِيغُ قُلُوب فريق. ونحن الآن نستنجد أَخانا، ونَدْعُوه إلى مَا لَهُ دُعِينا، ونُؤَمل من الله أن يَنْصُرَنا دِيناً ودنيا، ونرجو أن يَمُدّنا بنَفْسه سَرِيعاً وبعَسْكَره جميعاً، وبذُخْره الذي كان لمثله مجموعاً، وأنْ يُلَبِّيهَا دَعْوة: إمّا أنْ يُطِيع بها رَبّه لأنها دَعْوَتُه، وإمّا أن يَنْصُر بها نبيّه ﷺ فإنها شريعته، وإمّا أن يُعِينَ بها أخاه فإنّها شِدّة الإسلام لا شِدَّتَهُ.

هذا وإن كان المَجْلِس قَدْ قَعَد عَنّا ولم يَعُدْنا في مرض الأجسام، فلا يَقْعُدُ عنا في مَرَض الإسلام، فالبِدَار البِدَار، فإن لم يكن الشّام له بدارٍ فاليمنُ ليس له بدار، والجَنّة الجنّة فإنها لا تُنَال إلاّ بإيقاد الحرب على أهل النار، والهِمّة الهمّة فإنَّ البِحَار لا تُلْقَى إلاّ بالبِحَار، والملوك الكِبَار لا يقف في وجوهها إلاّ الملوك الكبار.

وفي هذه السّنَة ننزل إلى أنطاكية، وينزل وَلَدنا المُظَفّر تقي الدين على طرابلس، ويَسْتَقرّ الركابُ الملكي العادلي بمصر لأنها مذكُورَة عِنْدَ العَدُوّ وأنَّها تُطْرَق، وأنّ الطلب منه [العدو] على مصر والشام لا يُفَرِّق، ولا غِنَى عن أن يكون المجلس السيفي [طُغْتكين] بَحْراً في بلاد السّاحل، يزخر سلاحاً، ويُجَرّد سيفاً يكُون على ما فَتَحْنا قِفْلاً، ولِمَا لم يُفْتَح مفتاحاً، وما يُدْعى للعظيم إلاّ العظيم، ولا يُرْجَى لموقف الصَّبْر الكريم إلاَّ الكريم.

هذا والأقْدَار جارية، ومشيئة الله ماضية، فإن يشأ يَنْصُرُنا على العَدَدِ المُضَعَّف بالعَدَدِ الأضْعَف، فإنا لا نَرْتَابُ بأنّ الله تَعَالى ما فَتَح علينا هذه الفُتُوح ليُغْلِقَها، ولا جمع علينا هذه الأمة ليُفَرِّقَها، وإنما يُؤثر أن يَتَسَاهَم آل أيوبَ في مِيراثهم منه مواقف الصبر ومطالع النّصْر، ولا يَسُرّنا أن ينقضي عمره في قتال غير الكافر ونِزَال غير الكُفْرِ المناظر، فإنما هي سفرة قاصِدَة وزجرة واحدة فإذا هو قَدْ بَيّض الصحيفة والوجه والذكر، فليحضُر. . . »[1].

(1) الروضتين، 2 ص 136 - 137.

فهل بعد هذا التحليل من شكٍ في معرفة السلطان والمستشار بحقيقة الوضع السياسي والعسكري ومتطلباته، وتقدير الإمكانات المتاحة والحاجة الملحة إلى دَعْمِها بما يكفي من العَدَد والعُدّة الموثوقة التي لا يحتاج في طلب مشاركتها الاستجداء، والتذلل أو التخاذل في أوقات الشِدّة كما جَرّب. وهل من بُعْدِ نظرٍ لمستقبل التطورات مثل هذا البعد؟ فالإحساس عميق بخطورة القادِم من الغرب الأوروبي وشرقه والحاجة ماسّة للاستعداد وليس التخاذل. لكن سيف الإسلام اعتذر عن الحضور بما لديه من أعباء وآثر ملكه باليمن دون الجهاد، فكان ردّ السلطان عليه، بقلم القاضي الفاضل، فيه عِتَاب وحُزْن وبعض خيبة أمَل:

«المولى على حسب اختياره، إنْ سار فمِثْلُه من سَارَ وسَرّ، وقَادَ الجيش وجَرّ، ونفع الوَلِيّ وضَرّ العَدُوّ الذي أَضَرّ، وإن أقام فالعُذْر الذي أقْعَدَه، وإشفاق السلطان عن نَصْره الذي رَدّه عن وجْهِه والرأي الذي رَدَّدَه، فلا يكن في صدره من الأمرين حرج، ولا يخف عن استقصار عزمه إن ركد أو خرج. . .» [1].

وهكذا فقد تُرِكَ السلطان صلاح الدين وموارده المتاحة المحدودة في الشّام، والموارد الأخرى التي يمكن أن يستعين بها والتي تشارك مُتَرَدّدة بقصد الغنيمة السريعة وتَنْسَحِب أو تجبر السلطان على الخضوع لإرادتها عند الحاجة إلى صمودها وثباتها؛ كل هذا في وجه الحملة التي حشدت أوروبا لها كل إمكاناتها العسكريّة والماديّة، فَفَرَضَت ضريبة العشر الصلاحيّة التي كانت نسخة عن ضريبة عُشر المملكة اللاتينية في الشام قبل معركة حطين لكن بمشاركة كُلّ أوروبا الغربيّة وقُوّة الامبراطوريّة الرّومانيّة المُقَدّسة.

وبالرّغم من كُلّ هذه الحسابات الدقيقة للموقف السياسي والعسكري، فإنّ عزيمة القائد المجاهد لم تَلِن، وقَرّر بالمتاح المتوافر لديه أنْ يخوض المعركة حتى النهاية، وبدأ بالحملة على شقيف أرنون، الحصن الباقي في المملكة الصليبيّة الذي يعتبر خَطّ الدفاع الأول عن صُور.

(1) الروضتين، 2 ص 137.

عِنْدَما عاد صلاح الدين إلى دمشق في أول صفر 585 هـ/ 4 نيسان 1189 م، كان قد بلغ الخمسين من عمره، وبلَغ أوج قُوّته وامتداد حدود دولته ونفوذه وسلطته؛ كما تميّزت العمليات العسكرية التي قام، بعد حطين خاصة، بالسرعة في تحقيق النتائج والحصول على الغنائم، وقِلّة الخسائر الماديّة والبشريّة، نتيجة القضاء على القُوّة العسكرية الأساسيّة للمملكة الصليبيّة وإضعاف قوة الإمارات الأخرى. وقد سَيْطر، كما بينا، على كل البلاد التي تسيطر عليها المملكة ولم يبق إلاّ بعض الجيوب البعيدة مثل الشوبك التي تأخر فتحها عن الكرك حتى استنفد من فيها كل مؤنها ثم وصله الخبر بتسلمها، والقريبة مثل حصن شقيف أرْنُون الذي صار بيد صاحب صيدا السابق بعد تسليمها، ومدينة صور التي صارت ملجأ معظم من سَلِم بالأمان في معظم بلاد المملكة من الداروم جنوباً والكرك شرقاً وحدود طرابلس شمالاً، من المدن والحصون والأبراج والأرياف التي كان يتمركز فيها أو يستوطنها الصليبيون. وقد اعتبر ابن الأثير الإبقاء على صُور والسماح للصليبيين باللجوء إليها من قبل السلطان من الأخطاء الكبيرة التي وَقَع فيها لأنها صارت قاعدة الإنطلاق لحصار عكا والاستيلاء عليها وعلى جزءٍ من السّاحل الفلسطيني مما مَدّ في عمر المملكة الصليبيّة، ولو بصورة ضعيفة ومكلفة جداً لأوروبا، مُدّة طويلة فيما بعد:

«ولم يكن لأحدٍ ذنب في أمرها غير صلاح الدين، فإنه هو جَهّز إليها جنود الفرنج، وأمَدّها بالرجال والأموال من أهل عَكّا وعسقلان وغير ذلك... كان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور، فصار فيها مَنْ سَلِم من فرسان الفرنج بالسّاحل، بأموالهم وأموال التجار وغيرهم، فحفظوا المدينة، وراسلوا الفرنج داخل البحر يَسْتَمِدُّونَهم، فأجابوهم في التلبية لدعوتهم...»[1].

وقد يبدو هذ التحليل الذي قَدّمه ابن الأثير مُحِقاً إذا عَزَلْت ذلك الحادث عن كل الظروف السياسِيّة والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية في بلاد الشام في

(1) الكامل، 11 ص 555 - 556.

ذلك الوقت، ورِدّة الفعل الأوروبيّة الكبيرة التي أحدثتها استعادة القُدس آنذاك، والتي دفَعَتْه إلى التصرف كقائد يَعْرف ما يؤدي إليه الاختلاف في تجمع عسكري ينقصه الانسجام التام. ومع كل ذلك، ورغم معرفته بالاستعدادات الأوروبيّة الكبيرة إلاّ أنه وقع، نتيجة حسن نيَّته وبُعْد مشورة القاضي الفاضل واستجابته لرأي غالبيّة الأمراء، في خطأين كان لهما أثرهما في حصار عَكّا من قِبَل الصليبيين، كما سنرى.

بعد أقل من شهرين من عودة السلطان إلى دمشق خرج منها من جديد، وخَيّم خارج أسوارها حتى يتكامل خروج العساكر. وقبل ذلك كان قد أرسل إلى صاحب آمد طالباً الحضور بعسكره لإمداده. ولم يَطْلُب من تقي الدين أو ابنه الظاهر القدوم. فالأول كان مرابطاً في مواجهة طرابلس إضافة إلى ضَمّ اللاذقيّة وبلادها إلى ولايته، والثاني كان عليه البقاء في مواقعه في مواجهة أنطاكية لأن وقت نهاية الهدنة (7 أشهر) قد اقتربت. وقد طلب من الاثنين التعاون فيما بينهما عند تَعَرّض أحدهما للهجوم، وأرسل السلطان الفقيه عيسى إلى تقي الدين من أجل ذلك، ففقد مشيراً خبيراً كان عليه الاعتماد. أمّا مصر فإن قُواتها، خاصة وأنّها هدف كالشام، فقد كانت تكفي للدفاع عنها فقط.

وسار صلاح الدين بقَصْدِ حصار شقيف أرنون الحصين جداً، والذي شُبّه في الحصانة بقلعة الكرك [1] في الأردن. وكان طريقه على بانياس ثُمّ مرج عيون التي وصلها يوم 17 ربيع الأول 585 هـ/ 4 حزيران 1189 م، فخيّم هناك قريباً من الشقيف الذي يقع على قِمّة جبل كالبرزخ بين النهر والسَّاحِل، ويرتفع حوالي 720 متراً عن سطح البحر، ولا طريق للوصول إليه إلاّ من الشمال والغرب بصعوبة نسبيّة. أمّا حصاره فيحتاج إلى قُوّة تحمي المؤخرة بسبب دفاعاته القَوِية.

وأقام صلاح الدين عِدّة أيام وهو يركب ويشرف على الحصن ويُخَطط لحصاره، في ذات الفترة كان رينولد في الحصن يفكر بطريقة يَخْدَع بها

---

(1) العماد في الروضتين، 2 ص 140، الفتح، ص 185 - 186؛ النوادر، ص 98.

السلطان، ربّما باتفاق مع الملك غي الذي عاد إلى صُور واتفق مع المركيز على توحيد قوتيهما وجهودها ضِدّ صلاح الدين[1]. وبذلك نكث غي شرط إطلاق سراحه بأن لا يحمل سيفاً ضد السلطان. ففي يوم من أواخر ربيع الأول (ربّما 28 ربيع الأول) وصل رينولد فجأة إلى باب خيمة السلطان في مرج عيون:

«وما أحسسنا به إلاّ وهو قائم على باب خيمة السلطان، فأذن له، فدَخَل، فاحترمه وأكْرَمه، ـ وكان من كبار الإفرنجيّة وعقلائها، وكان يَعْرف العربيّة... فحَضر بين يدي السلطان، وأكل معه، ثُمّ خلا به، وذكر له أنّه مملوك، وأنّه تحت طاعته، وأنّه يُسَلّم المكان إليه من غير تعَب، واشترط أن يُعْطَى موضعاً يسكنه بدمشق، فإنه بَعْدُ لا يَقْدِر على مساكنة الإفرنج، وإقطاعاً بدمشق يَقُوم به وبأهله، وأن يُمَكّنُ من الإقامة بموضعه وهو يتردد إلى الخدمة [السلطانية] ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي كان فيه حتى يتمكّن من تخليص أهله وجماعته من صُور، ويأخذ مغل هذه السنة»[2]

واقتنع السلطان بكلامه، واقتنع من كان عنده من رجال الدولة والأمراء بداية، إذ يقول العماد:

«واقتنع بقوله ولم يأخذ رهينة، ووجد إليه سكوناً وسكينة... ونحن في غِرَّة من تحفظه وفي سِنَة من تيقّظه...»[3].

وأمضى رينولد معظم المدة يتَردد على السلطان يومياً، وسُمِحَ له بالشراء من العسكر ما يحتاج إليه من المؤن والذخائر التي كان أصحابه في الحصن يقومون بتخزينها وفي ترميم الحصن وزيادة منعته. وفي البداية لم يُصَدّق السلطان الأخبار التي صارت تتردد عن خيانته وما يقوم به حَتّى اقتربت نهاية المُدَّة:

---

(1) المصدر السابق.

(2) النوادر، ص 97.

(3) الروضتين، 2 ص 140.

«. . . أحضره السلطان، فتضَرّع، وقال: إنّ قومي إلى الآن لم يخلصوا من صُور، وقَد أنْعَمَت فأتمم، وسأل أن تكون المهلة سَنَة، فَعَرف السلطان من فحوى حاله أمارات الارتياب، فكلمه باياناس. . .»[1].

وأمر السلطان بنقل المخيّم (أواخر جمادي الثاني / آب) إلى قرب الشقيف، وتحفظ على رينولد، ثم طالبه بالوفاء بالتسليم، فرفض من فيه الاستماع إليه نتيجة الاتفاق المسبق بينهما. عند ذلك أرسله السلطان إلى بانياس ثُمّ نقله إلى دمشق[2].

وأثناء فترة الخداع التي امتدت ثلاثة أشهر كان الملك غي والمركيز يستكملون الاستعدادات للقيام بأعمال إلهاء لقوات المسلمين تمهيداً للخطوة التالية خاصة بالنسبة للملك الذي كان يخطط للتوجه إلى عَكّا وحصارها. ووقعت عدّة اشتباكات بين قوات صلاح الدين وبين القوات التي تجمعت في صور وضواحيها. وفي الاشتباك الأول، الذي وقع عند الجسْر على نهر الليطاني [جسر القاسميّة] الذي يقع تحت القلعة عند الحد بين بلاد صور وبلاد صيدا (17 جمادى الأولى/ 3 تموز 1189 م) حاول الصليبيون عبور الجسر بقوة للوصول إلى بلاد صيدا فَتَصَدّت لهم قوات اليَزَك (الكشّافة والمراقبة) الذين رتّبهم السلطان هناك فقتلوا منهم جماعة وغرق في النهر جماعة أخرى ولم يقتل من القوات الصلاحيّة سِوى أحد المماليك الشجعان[3]. وكانت الوقعة الثانية بعد ذلك بيومين بين قُوّة من الصليبيين وبين رجّالة المسلمين والمتطوعة عند الجسر أيضاً، فقد خرج السلطان مع عدد قليل من حرسه لاستطلاع الموقف. فخرج بعض الرجالة والمتطوعة الذين لا يعرفون المنطقة، فحاول السلطان إعادتهم إلاّ

(1) المصدر نفسه، ص 140.

(2) الفتح، 285 - 288؛ الروضتين، 2 ص 139 - 140؛ النوادر، ص 97 - 98، 102 - 103؛ الكامل، 12 ص 27 - 28.

(3) النوادر، ص 98 - 99؛ الفتح، ص 289 - 292؛ الروضتين، 2 ص 140؛ الكامل، 12 ص 29.

أنهم رفضوا؛ وعندما ابتعد السلطان عنهم اصطدموا بقوة من الصليبيين، وجرى قتال قتل فيه جماعة من الجانبين. وكان عدد القتلى من رجالة المسلمين يزيد على ثمانين رجلاً وأحد الأمراء أيضاً، وقتل من المسلمين أكثر مِمّا قُتل خلال العمليات منذ مدة[1]. وهنا جمع السلطان الأمراء وشاورهم في القيام بحملة على صور، لكن جاء من أخبره أنّ الصليبيين رجعوا عائدين إلى صور. عند ذلك قَرّر السلطان التوجه بقُوّة صغيرة من حرسه إلى عَكّا لتفقّد أحوالها وأعمال التحصينات التي أمَرَ بعملها وليَحُثّ قراقوش على استكمالها تحسباً للتطورات؛ ومَرّ في طريقه على قلعة تبنين فتفقد أحوالها، ووَصَل إلى عكا «ورتّب أحوالها، وأمَرَ بتَتِمّة عمارة السّور واتقانه وإحكامه، وأمَرَهم بالاحتياط والاحتراز، وعاد إلى العسكر المنصور في مرج عيون منتظراً (انتهاء) مهلة صاحب الشقيف. . . »[2].

وفي 6 جمادى الآخرة/ (22 تموز)، وصلت الأخبار إلى المعسكر بتوجه جماعات كبيرة من الصليبيين بقيادة الملك إلى جهة تبنين بقصد العيث والإخراب والنهب في منطقة تبنين، فرتّب السلطان كميناً للإيقاع بهم، وأرسل إلى عسكر كل من تبنين وعَكّا للمشاركة في العمليّة والإحاطة بهم، لكنّ أصحاب الكمين لم يلتزموا بما أمروا واشتبكوا مع القوات الصليبيّة فقُتِل منهم عدد كبير كان من بينهم أربعة من أمراء العرب من آل مِرّا بن ربيعة الطائيين أصحاب النقرة من بلاد البَثَنِيَّة الذين كانوا في طاعة السلطان منذ مُدّة ويشاركون في عملياته في حوران والبلاد المحيطة بها. وسارع السلطان لإمدادهم إلّا أن قوات الصليبيين انسحبت إلى صور[3].

وبدا واضحاً أنّ استعدادات الصليبيين في صور كانت قد اكتملت، وأن

---

(1) النوادر، ص 99؛ الروضتين، 2 ص 140 - 141؛ الكامل، 12 ص 29 - 30.
(2) الفتح، ص 292؛ النوادر، ص 100.
(3) الفتح، 293 - 295؛ النوادر، 100 - 101؛ الروضتين، 2 ص 141 - 142؛ الكامل، 12، ص 30 - 31.

الملك كان يريد التوجه إلى عَكّا ومحاصرتها، ووصلت الأخبار إلى معسكر السلطان بتَحَرّك قوات الصليبيين باتجاه الجنوب بقيادة الملك، وكان عدد القُوّة البرية مكوناً من 400 فارس و 7000 راجل إضافة إلى من كان في مراكب البَيَازِنة التي سارت في البحر مع القُوّة البرية [1]. ويذكر ابن شدّاد، الذي كان حاضراً في المعسكر، أن السلطان أحَسّ بالخطر الكبير، لكنّه لم يَتَسَرّع في اتخاذ القرار «خوفاً من أن يكون قَصْدَهم ترحيله عن الشقيف لا قَصْد المكان، فأقام مستكشفاً للحال إلى يوم الأَحَد 12 رجب (26 آب)»، حيث وصله الخبر بنزولهم على البَصَّة وأن أوائل القوات الصليبيّة وصلت إلى الزِّيب، فأدرك حقيقة قَصْدِهم، فأمر بكتابة الرسائل إلى عساكر حلفائه والتابعين له بالحضور إليه بسرعة [2].

وكان على السلطان أن يَتّخذ قراراً عاجلاً دون انتظار الإمدادات بالهجوم أو المسير بموازاتهم حتى عكا. وفي صباح يوم الاثنين 13 رجب 27 آب سار السلطان على رأس قُوّاته حتى قاربهم، وقَدّم الثقل في الليل وهنا عقد السلطان مجلس مشورة لأمرائه لاتخاذ القرار الحاسم:

«ثُمّ جمع أمراءه واستشارهم: هل يكون المَسير محاذاة الفرنج ومقاتلتهم وهم سائرون، أو يكون في غير الطريق التي سلكوها؟ فقالوا: لا حاجة بنا إلى احتمال المَشَقَّة في مسايرتهم، فإن الطريق وَعْر ضيق، ولا يتهيأ لنا ما نريده منهم، والرأي أنْ نسير في الطريق المهيع [الواسع] ونجتمع عليهم عند عَكّا، فنفرقهم ونمزقهم.

فعلم [صلاح الدين] مَيْلَهُم إلى الرَّاحة المُعَجّلة، فوافقهم، وكان رأيه مسايرتهم ومقاتلتهم وهم سائرون، وقال: أنّ الفرنج إذا نزلوا لصقوا بالأرض، فلا يتهيأ لنا إزعاجهم ولا نيل الغَرَض منهم، والرأي قتالهم قبل الوصول إلى عكا، فَخَالفوه، فتبعهم» [3].

---

(1) بينتر، «الحملة الثالثة» في تاريخ الحروب الصليبية، [E]، ص 51: الكامل، 12 ص 33.

(2) النوادر، ص 104 - 105.

(3) الكامل، 12 ص 34. ويفصل العماد ذلك بأسلوبه، الفتح، ص 297 - 298.

ويعلق العماد على إجماع الأمراء على تجنّب المشقة العاجلة والتعب المتأخر بقوله:

«وتبين لنا بالعاقبة أن رأي السلطان كان أصوب، فإنّ نزالهم عند نزولهم صار أصْعَب»[1].

وتَرَتّب على هذا القرار، الذي أجمع عليه الأمراء فاضطر السلطان الذي لا يَسْتَبِدّ برأيه إلى الأخذ به، أن تمكن الملك غي في الوصول أولاً إلى عَكّا وحصارها والثبات في مواقعه مُدّة كافية، لأنهم كما قال السلطان في الكلمات التي ذكرها العماد بطريقته:

«. . . . فإنّهم إذا نزلوا صعب نزالهم، وأتعب قتالهم. وإذا نَبَتُوا [زادوا بالإمدادات] تَعَذّر حصدهم، وإذا ثَبَتُوا تَعَسَّر قَصْدهم، وإذا لَصَقُوا ببطن الأرض صاروا كالقَرَار، وإذا حَلّقوا في جَوّ الدَوّ [البرّية] طاروا كالجراد، فعند الإنتشار يمكن التقاطهم، وعند الانحصار يَتَمكّنُ احتياطُهُم»[2].

وهكذا كان. فقد وصل الملك وقُواته، وحَاصَر عكا وبدأت الإمدادات الكبيرة المتوالية تصل إليه، فكان الحصار الطويل الذي اضطر صلاح الدين إلى البقاء في الميدان أكثر من سنتين متواصلتين وما ترتب عن العمليات من تطورات.

كان القَرَار الذي اتخذه الأمراء، ووافق السلطان عليه، هو السّير على الطريق الأسهل الذي يُمُرّ قرب طبرية في الداخل، وهو الطريق الذي سلكته الأثقال قبل القوات. واتفق أيضاً أن يكون الاجتماع للأثقال وعسكر تبنين الذي توجه إليها تحسباً من مهاجمة العدو لها، على صفوريّة التي كانت سابقاً مركز تجمع القُوّات الصليبيّة. أما صلاح الدين فسار في اليوم المذكور إلى الحُولَة

---

(1) الفتح، ص 298.

(2) المصدر نفسه، ص 297.

فوصلها منتصف النهار فتوقف فيها ساعة، ثم تابع سيره حتى وَصَل ليلاً إلى المِنْيَة صباح يوم الثلاثاء 14 رجب/ 28 آب؛ وهنا وصلته الأخبار بوصول الصليبيين إلى عَكّا (27 آب) وتمركزهم على تلّة (تل المصلوبيّة) قريبة منها، بينما قام أسطول البيازنة بحصار الميناء [1]. أما صلاح الدين فقد أسرع، عند وصول الخبر بذلك، جريدة إلى صفورية فاجتمع بعسكر تبنين، ثم توجه إلى الخَرُّوبَة وأشرف على معسكر الملك ومن معه، ومن هنا:

«دَخل عكا على غِرّة من العدو تقوية لمن فيها. . .» ثم عاد وأخذ «يبعث إليها بعثاً بعد بَعْث حتى حصل فيها خلق كثير وعدد وافر»[2].

وتَرَكَ الأثقال في صفوريّة، وسار مع قُوّاته على تعبئة إلى تَلّ كيسان في أول مرج عَكّا وخَيّم هناك على تعبئة [3]. ثم تَوَاصل قدوم القُوّات إليه من شمال بلاد الشام والجزيرة الفراتية، فرتب «اليزك الدائم والجاليش في كل يوم، وحَصَر العَدُوّ في خيامه من كل جانب، بحيث لا يقدر أن يخرج منها واحد إلاّ ويجرح أو يُقْتَل» [4].

وصار الوضع العسكري العام في الميدان كالتالي: الحامية وأهل المدينة والمَدَد الذي أدخله صلاح الدين يُرابطون داخل أسوار المدينة، وقُوّات الملك غي الذين تزايد عددهم لكنّهم لم يحكموا بعد الحصار على المدينة من البر والأسطول البيزاني يُحَاصر الميناء، وصلاح الدين وقُوّاته يحيطون بالصليبيين على تعبئة دائمة.

وبدأ الصليبيون عَمَلِيّة إحكام الحصار على المدينة من جهة البَرّ من البحر إلى البَحر والأسطول على الميناء، وَجَرت عدة عمليات محدودة بين كشّافة صلاح الدين وبين قُوّات الملك، ثم أحكم الصليبيون الحصار بحيث لم تَعُد قوات صلاح الدين قادرة على الوصول إلى المدينة المحاصرة مُدّة تقارب

(1) بينتر، الحملة الثالثة، ص 50.
(2) النوادر، 104.
(3) النوادر، 104 - 105؛ الفتح، 299 - 300؛ الروضتين، 2 ص 143؛ الكامل، 12 ص 35.
(4) النوادر، ص 104.

أسبوعين (الخميس آخر رجب/ 13 أيلول)[1]. وفي اليوم الأول من شعبان بدأت محاولات القُوّات الصلاحيّة فتح فجوة في الحصار للاتصال بالمحاصرين في المدينة لإمدادهم. وفي اليوم الثاني تمكّنت الميمنة بقيادة تقي الدين عُمَر ـ صاحب الميمنة يوم حِطّين ـ من فتح ثغرة في الحصار من الجهة الشماليّة الشرقيّة في المنطقة بين باب القلعة الوسطى وباب قَراقوش. ودَخَل الأمير أبو الهيجاء السمين إلى المدينة وزَوَّدها بالرجال والغلال. يذكر ابن شَدّاد أنّ صلاح الدين تَقَدّم على تعبئة نحو معسكر الملك صباح يوم الجمعة؛ وبعد صلاة الظهر «اغتناماً لدعاء خطباء المسلمين على منابرهم»، وبدأ القتال بهجمات متعددة استمرت حتى حجز الليل بين الجانبين، «وبات الناس على حالهم من الجانبين شاكين في السلاح، تَحْرُس كل طائفة نفسها من الطائفة الأخرى إلى أن أصبح صباح السبت ثاني شعبان»[2]. وفي هذا اليوم أُرْسل طائفة من الفرسان إلى الجهة المذكورة، «ولم يكن هناك للعدو خيم، لكن عسكره امتدّ جريدة شمالي عكا إلى البحر»، فحملت قوات صلاح الدين عليهم حتى رَدّتهم إلى المعسكر، ووقف اليزك بينهم وبين قوات صلاح الدين التي فتحت الطريق، ودخل السلطان المدينة وخرج ومعه العسكر الخاص به الذي كان ضمن حاميتها وعاد إلى المعسكر[3].

وفي صباح الأحد 3 شعبان (16 أيلول) تعبأت قوات صلاح الدين للقتال وتَقَرّر أن يترجل الأمراء ومعظم العسكر «ويقاتلوا العدو في خيامه». فلمّا تم الاستعداد غيّر بعض الأمراء الذين لم يألفوا القتال راجلين، رأيهم، وطلبوا تأجيل ذلك إلى اليوم التالي وتغيير الخِطّة بحيث يدخل الرجّالة إلى المدينة فيخرجوا مع حاميتها من جهتهم ويهاجم الفرسان من جهة المعسكر «ويحملوا حملة الرجل الواحد». ويصف ابن شَدّاد حال السلطان الذي لم يَعُدْ قادراً على فرض إرادته على الأمراء المتخاذلين:

(1) النوادر، ص 105.
(2) النوادر، ص 105 - 107؛ الروضتين، 2 ص 144، الفتح، ص 292 - 301؛ الكامل، ص 35.
(3) النوادر، ص 106.

«والسلطان يُعاني هذه الأُمُور بِنَفْسه ويصافحها [أو يكافحها] بذاته، لا يتخلّف عن مقام من هذه المقامات، وهو من شِدّة حرصه ووفور هِمّتِه كالوالدة الثكلى» [1] ثم يقول:

«ولقد أخبرني بعض أطبائه أنّه بقي يوم الجمعة إلى يوم الأحد المذكور لم يتناول من الغذاء شيئاً يسيراً ـ لفَرط اهتمامه ـ، وفعلوا [في النهاية] ما كان عزموا عليه؛ واشتدت منعة العدو، وحمى نفسه في خيامه، ولم تزل سوق الحرب قائمة، تباع فيها النفوس بالنفائس، وتُمْطِر سماء حَرْبها الرؤوس من كل رئيس ومُتَرائِس، حتى كان يوم الجمعة 8 شعبان» [2] [20 أيلول].

وهل هنالك أبلغ دلالة من هذه الكلمات على موقف السلطان الذي يريد اغتنام الفُرْصة والهجوم، وبين موقف الأمراء الأتراك وجُندهم الذين لم يتعودوا على الحرب الميدانية الطويلة والتضحية من أجل النصر، بل الغارات المحدودة التي تجلب النفائس من الغنائم أو التسليم المؤكد للمُحاصَر، والعودة بسرعة إلى حيث الأمان. وسيواجه السلطان القائد الكثير من المواقف المماثلة في المستقبل التي سَتُؤثر على عملياته تأثيراً كبيراً.

ولو أردنا تتبع يوميات القاضي ابن شَدّاد لعمليات القتال والحصار لطال الحديث، إذ كانت ملحمة عانى السلطان أثناءها كثيراً. ومنذ ذلك الوقت بدأت تظهر على السلطان أعراض اضطرابات القولون المرضيّة التي استمرت حتى وفاته. ومع ذلك صَمَد بإصرار في ظل ظروف معسكره، وازدياد قوة المعسكر المضاد، ولذلك سنكتفي من هذه النقطة بعرض الخطوط العامة للتطورات مع الإشارة إلى بعض المواقف التفصيليّة الإيجابية أو السلبيّة عندما يساعد ذلك في إعطاء مزيد من العمق للصورة العامة.

واستغلّ الملك غي وقُواته الفترة الممتدة من أواسط رجب (أوائل أيلول)

---

(1) المصدر نفسه، ص 107.
(2) المصدر نفسه.

وظروف تردد المعسكر الصلاحي في الهجوم، بحفر خندق عميق حول التحصينات الخارجيّة للمدينة ليتمكنوا من حماية قُوّاتِهم من ناحية وتشديد الحصار حولها دون عوائق. وفي يوم الجمعة 8 شعبان (21 أيلول)، خرجت قوات الملك من معسكرها كتلة مُتَرَاصَّة «والرجالة [حول الفرسان] كالسُّور المبني، يتلو بعضهم بعضاً، حتى قاربوا خيام اليزك»، فاجتمعت القوات الصلاحيّة وهاجمتهم وهزمتهم وردتهم، بعد قتل وجرح الكثير منهم، إلى معسكرهم[1].

وتوقفت الحملات الكبيرة بين الجانبين واستمرت المناوشات المتقطعة، وبقي الطريق إلى عَكّا مفتوحاً، واقترب صلاح الدين بمعسكره الميداني إلى تل العَيَّاضِيَّة المقابل لتل المُصَلِّبِية والمشرف على المدينة وعلى مخيم الصليبيين، وبقي الوضع على هذه الحال حتى كانت الوقعة الكبرى (21 شعبان/ 3 تشرين الأول) بين الجانبين.

في هذه المَرّة كان الملك البادىء بالتحرك بتعبئة غير مألوفة لدى الفرنج: قلب وميمنة وميسرة، امتدت من البحر (الميسرة) إلى النهر (الميمنة)، ووقفت مقابل تعبئة المسلمين. ووقع القتال فانتصر الصليبيون في البداية ثم هزمتهم قوات صلاح الدين هزيمة كبيرة قتل فيها الكثير من رَجّالتهم. لكنّ المعركة لم تُؤد إلى تغيير في الموقف العام لكلا الجانبين[2]. وقُتِل من غلمان المسلمين والمجهولين 150 شخصاً والأمير ظهير الدين علي الهكاري، أخو الفقيه عيسى. أمّا الجانب الصليبي:

«فَحُزر قتلاهم بسبعة آلاف نفر، ورأيتهم وقد حملوا إلى شاطىء النهر ليلقوا فيه، فحَزَرتهم بدون (أقل من) سبعة آلاف»[3].

وعاد السلطان مسروراً إلى معسكره وكان يُفَكّر في متابعة القتال

(1) النوادر، ص 107.
(2) النوادر، ص 108 - 114؛ الكامل، 12 ص 36 - 39؛ الروضتين، 2 ص 144 - 148؛ الفتح، ص 308 - 312. وقد وصف ابن شدّاد المعركة بتفصيل دقيق.
(3) النوادر، ص 112.

ليقضي على ما بقي منهم، (11 تشرين الأول) ثم عقد مجلس مشورة، قال فيه:

«ثم قال: بسم الله والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد نزل في بلدنا، وقد وطىء أرض الإسلام، وقد لاحت لوايح النصرة عليه إن شاء الله تعالى، وقد بقي في هذا الجمع اليسير؛ ولا بدّ من الاهتمام بقَلْعه، والله قد أوجب علينا ذلك، وأنتم تعلمون أن هذه عَسَاكِرنا ليس ورَاءَنا نَجْدَة نَنْتَظِرُها سوى الملك العادل، وهو واصل، وهذا العدو إن بقي وطال أمره إلى أن ينفتح البحر جاءه مَدَدٌ عظيم، والرأي كل الرأي عندي مناجزتهم، فليخبرنا كلٌ منكم ما عنده في ذلك. وكان ذلك في ثالث عشر تشرين من الشهور الشمسية، فامتخضت الآراء، وجرى تجاذب في أطراف الكلام، وانفصلت آراؤهم على أن المصلحة تأخير العسكر إلى الخَرّوبَة، وأن يبقى العسكر أياماً حتى يستجم من حمل السلاح، وترجع نفوسهم إليهم، فقد أخذ منهم التعب، واستولى على نفوسهم الضجر وتكليفهم أمراً على خلاف ما تحمله القوى لا تُؤمن غائلتُه، والناس لهم خمسون يوماً تحت السلاح وفوق الخيل، والخيل قد ضجرت من عَرْك اللُجم، وسئمت نفوسها ذلك، وعند أخذ حظّ من الراحة ترجع نفوسها إليها، ويصل الملك العادل، ويشاركنا في الرأي والعمل، ونستعيد من شذَّ من العساكر، وتجمع الرجّالة ليقفوا في مقابلة الرجّالة[1].

وهكذا فقد قَرّر المجلس، ووافق السلطان، على الانتقال إلى الخَرُّوبَة، مِمّا أَدَّى إلى إحكام الصليبيين الحصار حول المدينة وأكملوا حفر الخندق [2] والسور الترابي الذي يحميه من الخارج. قال العماد:

(1) المصدر نفسه، ص 114.

(2) أثناء حفر الخندق وعمل السور الترابي كانت عيون صلاح الدين توصل أخبار العمل أولاً بأول، إلاّ أنّه لم يَقم بأي خطوة لمنعهم لمخالفة الأمراء لرأيه، ومرضه بسبب ذلك (القولنج)، ورفضه إرسال من ينوب عنه، إذ قال، وهو العارف بالرجال: «إذا لم أحضر لا يفعَلُون شيئاً». الكامل، 12 ص 41.

«فوجَدَ الفرنج بذلك الفَرَج، وشَرَعوا في حَفر خَنْدَقٍ على مُعَسكَرِهم حوالي عَكا من البحر إلى البحر، وأخرجوا ما في مراكبهم من آلات الحَصْر، وفي كُلّ يوم يأتينا اليَزَكِيّة بخبرهم. . . (في) الجَدّ في تعميق الخَنْدق وتَتْمِيم مُحْتَفَرِهم، فكان من قَضَاء الله أن أَغْفَلْنَاهُم وأَمْهَلْنَاهُم بَلْ أَهْمَلْناهم، حَتّى عَمّقُوا الحُفُور ووَثّقوا من تُرابها السُّور. . . فعاد **مُخَيَّمهم بَلَداً مَسْتُوراً مَعْمُوراً**. . ورَتّبوا عليه رجالاً، ولم يتركوا إليه لَواغِل مجالاً، وتركوا فيه أبواباً وفروجاً [فتحتات]. . . ولما فَرَغوا من الأمر اشتغلوا بالحَصْرِ، وانقطعت الطريق على المسلمين إلى عَكّا. . .»(1).

ومَرّة أخرى لم يأخذ الأمراء برأي القائد صلاح الدين، وآثروا الرّاحة وانتظار المَدَد العادلي الذي طلبه السلطان، فكان أن تَحَقّق ما توقعه في المجلس من استغلال الصليبيين للوقت الضائع على عسكر المسلمين، وبدأت أيضاً طلائع الإمدادات بالوصول كما توقّع القائد عندما قال في الاجتماع: «وهذا العدو إن بقي وطال أمره إلى أن ينفتح البحر، جاءَه مَدَدٌ عظيم».

وأما الوضع في معسكر الملك غي فقد تواصل قُدوم الإمدادات إليهم من الصليبيين المحليين الذين لم يفدوا إلى صُور في البداية ومن الأوروبيين، بحيث صار جمعهم في أواخر العشر الأول من تشرين، أي بعد اجتماع مجلس مشورة السلطان بأيام، كبيراً إلى الدرجة التي أتموا فيها إنجاز الخندق والسور الترابي، وأحاطوا بالمدينة بصورة تامة: فمن البحر حاصر الجنويون المدينة من الشمال ومن الجنوب البيازنة. أما من جهة البر فقد ترتب الحصار من الشمال إلى الجنوب على شكل قوس أسوار المدينة كالتالي: وقف الاسبتاريّة بعد الجنويين، ثم من بعدهم المركيز كونراد وعدد من الوحدات التي قدمت من فرنسا، وتَلا ذلك وحدات من الإنجليز بقيادة أسقف ـ سالزبُري ثم الفلمنك ويليه الملك غي وأخوه وبقية بارونات المملكة، ثم جماعة فرسان الداويّة،

---

(1) ا روضتين، 2 ص 147.

ويليها جماعات متفرقة قدمت من مختلف دول أوروبا التي ملأت الفراغ بين الداويّة والبيازنة[1]. وكانت كل جماعة من الجماعات المذكورة تأتمر بأمْر أميرها وقائدها، ولم يكن لها قيادة عامة تجمعها وتأتمر بأمرها.

وفي رمضان 585 (تشرين أول ـ تشرين ثاني) وصلت الأخبار من حلب إلى معسكر السلطان تؤكد خروج إمبراطور ألمانيا من بلاده بأعداد كبيرة جداً من الجند، وأنه في طريقه إلى القسطنطينيّة. وبذلك بدأت تتحقق معرفة السلطان والقاضي الفاضل من المعلومات التي ذكرنا في بداية هذا الفصل من ردّة فعل أوروبا لاستعادة القدس. ووجد أنّ القُوى الإسلاميّة التي استجابت لمكاتباته السابقة كانت محدودة، وأنّ ما يتوافر لديه في الميدان لا يكفي لمواجهة القوى الصليبيّة المحاصرة لعَكّا أو تلك القادمة من أوروبا. ولذلك قرّر إرسال سفارة مستعجلة إلى الإمارات المتحالفة معه وإلى الخلافة العباسيّة لشرح خطورة الموقف والحاجة إلى الإمدادات السريعة. واختار لهذه المهمة القاضي ابن شداد الذي صار من المقربين له ويلازمه أغلب الوقت مكان القاضي الفاضل البعيد في مصر، خاصة وأن المستشار الجديد يَعْرِف حكام هذه الإمارات والخليفة العباسي. يذكر ابن شدّاد:

«واشتد ذلك على السلطان... وعظم عليه ورأى استنفار الناس للجهاد، وأمرني بالمسير إلى صاحب سنجار، وصاحب الجزيرة، وصاحب الموصل، وصاحب إربل، واستدعائهم إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم؛ وأمرني بالمسير إلى محروسة بغداد لإعلام خليفة الزمان بذلك...»[2].

وتوجّه ابن شداد يوم 11 رمضان (23 تشرين الأول)، وبلّغ الرسائل، واستجاب الجميع في الموصل وسنجار والجزيرة وإربل، وأعْلَم دار الخلافة بالتطورات، وعاد إلى معسكر السلطان عِند عكا قَبل بدء وصول العساكر من الشرق في 5 ربيع الأول 586 هـ/ 12 نيسان 1190 م.

---

(1) بينتر، الحملة الثالثة، ص 65.
(2) النوادر، ص 115.

وأثناء غياب ابن شَدّاد، وقعت بعض التطورات على الجبهة، ففي مُنتصَف شَوّال 585 هـ/ 26 تشرين الثاني 1189 م، وَصَل الملك العادل بقُوّاته من مصر في البَرّ ورتّبه السلطان في مكانه المناسب في التعبئة في الميمنة، وفي منتصف ذي القِعدة (25 كانون الأول) وَصَل إلى ميناء عَكا الأسطول المصري المكون من 50 قطعة بقيادة الأمير لؤلؤ وفيه عشرة آلاف رجل، فظفر أول وُصُوله بمركبين كبيرين للصليبيين فاستولى عليهما وما فيهما. وتَمَكّن الأسطول من نقل مجموعات من الرجال والمؤن إلى داخل المدينة المحاصرة للمساعدة في الصمود في وجه الحصار المحكم من البَرّ إليها [1].

ودَخَل فَصْل الشتاء، وتوقفت العمليات العسكريّة الكبيرة من الجانبين، لكنّ ذلك لم يمنع المناوشات المحدودة التي كان الهدف منها إحداث الضَرَر والقلق والإزعاج للجانب الآخر. وعاد الأسطول إلى مصر وبدأت القوات الصليبيّة المتمرسة في الخندق الكبير، الذي يحميه الساتر الترابي، والذي صار يشبه المدينة، ببناء الأبراج الكبيرة والعالية لمهاجمة أسوار المدينة. واستغرقت عمليّة البناء سَبعة أشهر حتى تمت في ربيع الأول من سنة 586 (نيسان 1190 م. أما السلطان فقد سمح، كالعادة، بعودة القوات الشرقيّة وبعض القوات الشاميّة إلى بلادها لتمضية الشتاء والراحة على موعد بالعودة في الربيع، ولم يبق مع السلطان في الميدان أحد غير العادل الذي وصل حديثاً، وتقي الدين عمر، وابنه الأفضل [2].

ومع بداية الربيع لسنة 1190 (ربيع الأول 586 هـ) بدأ النشاط بهمة في المعسكرين الصلاحي والصليبيّ. فانتقل السلطان من الخَرُّوبة إلى تَل كيسان الأقرب إلى الخندق الصليبيّ، وبدأ وصول الإمدادات من القوات الشاميّة والشرقيّة. فَوصل الظاهر من حلب وأمراء حمص وشيزر وبلادهما وبعض التركمان والعرب، وتبعهم ملوك: ديار بكر الأرتقيين، وسنجار، وجزيرة ابن

(1) الروضتين، 2 ص 148؛ مفرج، 2 ص 305.
(2) الروضتين، 2 ص 152 - 154 مفرج، 2 ص 315 - 316.

عمر، والموصل وإربل[1]. وكُلّما وَصَل واحد مِنهم رتّبه في موقعه المناسب في تعبئة المُخَيّم الكبير الذي يحيط بالخندق الذي كان يحيط بالمدينة من البحر إلى البحر. أمّا المعسكر الصليبيي المتخندق بحصانة فقد وصلته إمدادات جديدة من البحر وبدأ بتشديد الحصار على المدينة وطَمّ أجزاء من الخندق الواسع لتقديم الأبراج الثلاثة إلى السُّور. وقد وصفت هذه الأبراج، فقيل:

«فَعَلَتْ كأَنها أطواد، ونُصِبت في ثلاثة مواضِع من أقطار البلد، وملئت طبقاتها بالعَدَد والعُدّة، وكُلّ بُرْج في أركانه أربع أسطوانات عاليات غلاظ، طول كل واحدة خمسون ذراعاً لتشرف على ارتفاع سُور البَلد، وبَسَطُوها على دوائر العَجَل، ثم كَسُوها بجلود البَقَر، وسَقُوها بالخَلّ والخَمْر [حتى لا تؤثر فيها النيران]؛ وكانوا يُقَرّبونها كُل يوم من البَلد على حسب ما تَيَسّر لهم، وكشفوا من جوانبها سُور البلد». وكان كُلّ واحدٍ منها «يَحْمِل من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة فارس، ويتسع سَطْحُه لأن ينصب عليه منجنيق، ولم يبق إلاّ ملاصقة الأبراج السُّور...»[2].

وعَلِم السلطان بهذا التطور الخطير، فجمع الصُنّاع من النفاطين الخبراء بمقاومة الأبراج وإحراقها، ووعدهم الأموال الجزيلة إن أحرقوها. وقام صلاح بتقسيم عساكره إلى فرقتين: «فرقة تقاتل، وفرقة تشغل الذين يجرون الأبراج عن جَرِّها، ورميت بكل قارورة نفط فلم يؤثر فيها شيء»[2]. وهُنا تقدم إلى السلطان شاب دمشقي كان «مُولَعاً بجمع آلات الزَرّاقين وتحصيل عقاقيرها»، وهو ابن عريف نقابة النَحّاسين بدمشق، فوَعد السلطان بحرقها؛ فأدخله صلاح الدين إلى المدينة مع الأدوية والمواد التي يحتاج إليها، والمعاونين له، فطبخ المواد وجَهّزها ورماها عليها فأحرقها جميعاً:

«إنه رَمى الأبراج **أولاً** بقدور نفطٍ خالية من النار، حتى عرف أنّه

---

(1) النوادر، 119 - 123.

(2) مفرج، 2 ص 315.

سَقَاها ورَواها، ثُمّ رماها بالقدور المحرقة، فتَسَلّطَت النار على طَبَقات الأَبْراج. وذكر أنّه احترق في البرج الأول سبعون فارساً بعِدّتهم، واشتدّ سرور المسلمين بهذا الفتح»[1].

وقد ذكرت هذه الحادثة للتأكيد على الدور الكبير الذي كان لمثل هذه الأبراج في العمليات العسكرية، خاصّة حصار المدن، طول فترة الحروب الصليبيّة منذ احتلال القدس بواسطتها.

وأحضر السلطان الشاب إلى مَجْلِسِه لمكافأته فلم يقبل المال، وقال:

«هذا عملته لله، فَما أريد من سواه جزاء».

لكنّ السلطان أبى إلاّ أن يُكَرّم الشَّابُ المُبْدِع «فأوقف عليه قرية من خيار قُرى دمشق»[2].

وبدأ وُصُول أساطيل الفرنج المحليين لاتخاذ موقعها في مواجهة عَكّا من البحر ولمنع وصول الإمدادات إليها، ووَصَل الأسطول من مصر بقيادة لؤلؤ في الوقت المحدد له، فتصَدّى له الأسطول الصليبي، وكانت موقعة بينهما حتى الليل، كُسِر فيها الأسطول الصليبي وقُتِل من رجاله عدد كبير، وفي ذات الوقت كان العسكران في البَرّ يتقاتلان[3]. وكانت المعركة يوم 9 جمادى الأولى 586/ 14 حزيران 1190 م.

في هذا الوقت الصعب، من طول الحصار حَوْلَ عَكّا، والمرابطة الطويلة في الميدان، قَرّر السلطان هَدْم كل تحصينات المدن وبعض المدن التي لا تستطيع الصمود على الساحل الشامي، والتي يخشى عليها من السقوط بيد القُوّات المتقدمة في البر (الألمان) والبحر (الإمدادات الأوروبيّة الغربيّة المتوقعة). يذكر العماد:

---

(1) العماد، الروضتين، 2 ص 154.

(2) العماد (البرق) الروضتين، 2 ص 154؛ مفرج، 2 ص 316.

(3) العماد في الروضتين، 2 ص 154؛ النوادر، ص 122 - 123؛ مفرج، 2 ص 317؛ الكامل، 12 ص 45 - 46.

«وتَقَدّم السلطان بِهَدْم سور طبريّة، وهَدْم يافا وأرسوف وقيسارية، وهَدْم سور صيدا وجبيل ونقل أهلهما إلى بيروت»[1].

وبهذا لم يبق على السّاحل من المدن التي استعادها إلاّ الحصينة جداً كعسقلان في الجنوب وبيروت في الوسط واللاذقية في الشمال.

وهدأ القتال في الميدان حول المدينة، وتوجهت أنظار المعسكرين إلى أخبار الحملة التي يقودها الامبراطور فريدريك والتي كانت تتواصل أخبار تقدّمها من القسطنطينيّة عبر هضبة الأناضول باتجاه بلاد الشام. ثم كانت النكبة التي حَلّت بهذه القوات الكبيرة في منطقة كليكيا وغَرق الامبراطور وتفرقها، ثم وصول ما تبقى منها بحالة مزرية إلى أنطاكية بقيادة ابن الملك، مما أَغَمّ المعسكر الصليبي وأفرح المعسكر السلطاني[2]. ومع ذلك فقد اتخذ صلاح الدين الاحتياطات المناسبة في جبهة بلاد الشام الشمالية لمواجهة ما يمكن أن تقوم به بقايا هذه القُوّة الكبيرة، فأعاد عساكر كُل من منبج، وبعرين وفامِية، وبعلبك، وشيزر، والتركمان الياروقيّة، وعسكراً من قوات حماه؛ ولحق بهم بعد ذلك الظاهر إلى حلب، والملك الأفضل المريض إلى دمشق كذلك، وتقي الدين عُمَر. وأدَى ذلك إلى إضعاف ميمنة السلطان فطلب من أخيه العادل أنْ يحْتَل مَكان تقي الدين في قيادة الميمنة وحماية طرفها المواجه لعَكّا من جهة الشمال.

واستغل الملك غي ومن معه من البارونات والقوات الأخرى هذا التطور، فاتفقوا على مهاجمة ميمنة العسكر السلطاني فجأة، فخرجوا من خندقهم ـ المدينة، وهاجموا مُخَيّم الملك العادل ووصلوا قريباً من خيمة العادل، وإلى السوق، واشتغلوا بالنهب والسلب، فركب العادل والأمراء القريبين منه في الميمنة، ووصل الخبر إلى قوات السلطان في القلب. واجتمعت الميمنة وقامت بهجوم مضاد قبل وُصُول قوات القلب، وتمكنت من صَدّهم وكَسْرِهم

(1) الروضتين، 2 ص 157.

(2) عن الحملة الثالثة انظر بيتر، الحملة الثالثة، ص.

وهزيمتهم، فهربوا نحو خيامهم، ووقع فيهم القتل «ولم يَنْجُ من القَوْم إلاّ النادر، وأسر من الفرنج [الذين شاركوا في الحملة] يومئذٍ نفر يسير، لأَنّ السلطان أمر ألاّ يستبقى أحد، وهذا كله كان في الميمنة وبعض القلب»[1]. واختلف في تقدير عدد قتلى الصليبيين في هذه المعركة، فالمكثر حزرهم بعشرة آلاف، والمقل خمسة آلاف[2]، وكانت بعد ظهر يوم الأربعاء 10 بقين من جمادى الآخرة 586 هـ/ 25 تموز 1190 م .وفي اليوم التالي للمعركة وَصَل من كشافة السلطان، قايماز الحَرّاني، وذكر أنّ الصليبيين اتصلوا به وسألوا أن يبعث السلطان من يفاوضهم في الصلح والهدنة، لكن يبدو أن صلاح الدين لم يستجب لهم[3].

وفي النصف الثاني من سنة 586 هـ (أوائل آب ـ 1190 ـ أواخر شباط 1191)، أي حتى بداية فصل الشتاء جَرَت بَعْضُ التطورات في المعسكرين الإسلامي والصليبي في الميدان حول عكا التي تتمركز فيها حامية أخذت مؤنها وذخائرها بالتناقص واقتراب النفاد، والخندق ـ المدينة الذي يتمركز فيه الصليبيون من البحر إلى البحر، والمعسكر الصلاحي الذي يحيط بالخندق على تعبئة دائمة من البحر إلى البحر أيضاً. ولكنّ هذه التطورات لم تختلف كثيراً عن الوضع العام لكلا الجانبين قبل ذلك بسنة وحَتّى ربيع سنة 1191 م عندما وصلت قوات الحملة الثالثة بقيادة ملكي فرنسا وانجلترا. وسنركز فيما يلي على أبرز هذه التطورات.

وفي رجَب (آب 1190 م) وَصَل الكونت هنري، ومعه عدد من الأمراء والقادة من أوروبا، إلى معسكر عَكّا فانتعش من كان يحيط بها من الصليبيين الذين بدأوا يعانون من قِلّة المـؤن مثل معاناة المحصورين داخل المدينة. وقَرّر أنْ يُجَرّب حَظّه في قتال المدينة والهجوم على أسوارها. وكان القادم الجديد،

---

(1) مفرج، 2 ص 326 عن المصادر المعاصرة باختصار؛ النوادر، ص 129 - 131.
(2) العماد في الروضتين، 2 ص 158؛ النوادر، ص 130 - 131.
(3) النوادر، ص 131. وانظر الملحق عن رأي الفاضل في طلب الهدنة.

الذي صار زعيم الصليبيين في الواقع نظراً لعلاقة النسب التي تربطه بملكي فرنسا وانجلترا، يحمل معه من الأموال والآلات ما يمكنه من تجنيد أعداد كبيرة من الجند ونصب الكثير من آلات الحرب، فجنّد عشرة آلاف من الرجالة ونَصَب عدداً من المنجنيقات ووجهها إلى أسوار المدينة، فَرَدّ السلطان على ذلك بتوسيع دائرة التعبئة ـ بعد مشورة الأمراء ـ وشَجّع بواسطة رُسله مَن في المدينة على المصابرة في القتال. وقَامَ المحاصَرون بحرق المنجنيقات الأولى، وقتل عدد من رجال الكونت في العمليّة فَنَصب اثنين آخرين فأحرقا أيضاً. عند ذلك ركن إلى الهدوء كغيره من المتخندقين[1]. وفي ذات الفترة تمكنّ العسكر الصلاحي من إدخال بعض المؤن إلى المدينة، لكنها لم تكن تكفي الأعداد الكبيرة فيها إلاّ مدة محدودة، فأعادوا الاتصال بالسلطان يطلبون المزيد؛ ووصلت ثلاث سفن شحن محملة بالأقوات من مصر في الوقت الذي حدده والي المدينة وقائد الأسطول وقتاً لنفاد ما لديهم، فتصدت سفن الصليبيين لمواجهتها لكنّها نمكنت من الدخول إلى الميناء بسلام:

«وتلقاهم أهل عَكّا تلَقي الأمطار عن جدب، وامتاروا ما فيها، وكانت ليلة بليالٍ، وكان دخولها عصر يوم الاثنين رابع عشر شعبان»[2].

وعندما رأى الصليبيّون نجاح سفن الشحن الحربيّة في دخول الميناء قَرَّروا حِصَار برج الذبان الذي يتحكم بمدخل الميناء والاستيلاء عليه وقطع الإمدادات من البحر إلى المدينة. يصف ابن شَدّاد البرج:

«وهو برج في وسط البحر، مبني على الصخر، على باب ميناء عكا، يحرس به الميناء، ومتى عبره المركب أمن غائلة العَدُوّ، فأراد العَدُو أخذه، ليبقى الميناء بحكمه، ويمنع دخول شيء من البُطَس [السفن] إليه، فتنقطع الميرة عن البلد...»[3].

---

(1) انظر عنق دوم الكونت هنري: النوادر، ص 131 - 137؛ الفتح، ص 413 - 416.

(2) النوادر، ص 138. وانظر: الفتح، ص 419 - 420؛ الروضتين، 2 ص 159؛ مفرج، 2 ص 330 - 331 ٣.

(3) النوادر، ص 138 - 139؛ مفرج/ (عنه)، ص 335 - 337.

ولكنّ العمليّة فشلت، فاحترقت سفينتان، وانقلبت الثالثة وهلك جميع من كان فيها.

ووصلت بقيّة قُوات الألمان إلى عكا بعد معاناة طويلة في الطريق (أوائل رمضان/ أوائل تشرين الأول)، وكان يقودها كونراد أمير سوَابِيَا. وقَرّر مثل سابقه القيام بعمل يُظهر به مقدرته، فهاجم تَل العيّاضية الذي كان يتمركز عليه كشافه السلطان والطلائع، فانجدهم السلطان، ووقع القتال إلى الليل فهزمت الطلائع قُوّاته وقَتَلَت منهم وجَرَحت الكثير، فعادوا إلى مواقعهم منهزمين [1]. عند ذلك قَرّر كونراد مهاجمة أسوار عكا بآلة الكبش الكبيرة التي تَهد الأسوار فأحرقها المدافعون مع غيرها من الآلات.

وفي 19 رمضان/ 20 تشرين الأول قَرّر السلطان نَقْل مقر القيادة إلى شَفَرعَمّ استعداداً للطوارىء التي يمكن أن تستجدّ لدى المعسكر الصليبيّ، ولاقتراب الشِّتَاء وهدوء القتال بعمليات كبيرة لا تساعد ظروف المناخ وطبيعة الأرض على القيام بها، ولإعادة ترتيب تعبئته بعد عودة من يَعُود من العساكر إلى بلادها كالعادة.

واستغَلّ الصليبيون هذه الظروف فقاموا في 11 شَوّال (11 تشرين الثاني) بحملة على قوات صلاح الدين، ورتبوا في نفس الوقت أمير الألمان لحصار المدينة، فنظّم صلاح الدين تعبئته وتصدت لهم قُوّاته لأن السلطان كان مريضاً في خيمته على تَلٍ مشرف قرب الخَرّوبة. وتمكّنت قوات صلاح الدين بعد ثلاثة أيام من القتال من هزيمتهم بعد أن قتلوا وأسروا الجميع «فلم يَنْجُ منهم ناجٍ، ووقع في الأسر مُقَدّمون أكابر، منهم خاز الملك (غي) وجماعة من الإفرنسيسيّة»، ونقل الأسرى إلى دمشق [2].

ورَدّ السلطان يوم الجمعة 22 شَوّال (22 تشرين الثاني 1190) على التحديات المتكررة بعملية عرفت بـ «**وقعة الكمين**» المحكم الذي نَصَبه شمالي

---

(1) المصدر نفسه، ص 140؛ الفتح، ص 324 - 426؛ مفرج، 2 ص 320.

(2) النوادر، ص 147 - 151.

أسوار عكا. ونجح الكمين في استدراج نحو 200 فارس من العسكر الصليبيّ، فوقعوا في الكمين وقُضِي عليهم قتلاً وأسراً [1].

وبدأ فَصل الشتاء، وغادرت السفن الصليبيّة إلى موانىء آمنة، وعاد بعض ملوك الأطراف من المسلمين إلى بلادهم دون رغبة السلطان، واستغل السلطان فترة الهدوء في شهر ذي القعدة (كانون الأول)، بمشورة الأمراء وتكَفُّل الملك العادل، بإبدال الحامية الكبيرة في المدينة بحامية أخرى من جُنْد مصر تحلّ مَحلّها **وأمَر السلطان بأن يَحْمِل كل واحد من الداخلين مؤونة تكفي سنة كاملة**، فنقل العادل المخيم إلى سفح جبل الكرمل الشمالي «وتَقَدّم بجمع السفن للنقل، واجتمع المنتقلون بالسّاحل، فمن أنجز أمره انتقل» [2]. وخرج أبو الهيجاء السمين ومن معه إلى المعسكر الصلاحي ودخل سيف الدين المشطوب مكانه، وبقي لؤلؤ قائد الأسطول في المدينة.

وقد اعتبرت عمليّة البَدَل بداية النهاية لسقوط عَكّا فيما بعد، نظراً لإهمال العادل في إدخال العدد المناسب من ذوي الكفاءة والخبرة، وتوكيل الأمْر إلى نُوابه الذين أهملوا التدقيق في جُنْد البَدل وتَساهلوا في اختيار الداخلين وتسجيلهم. فقد ذكر ابن الأثير أن العادل: «أدْخَل عشرين أميراً بَدَل ستين»، وأنّ نُوّابَه تساهلوا «في تجنيد الرجال وإنفاذهم» إلى المدينة [3]، مستغلين تساهل العادل ومَرَض السلطان الذي لا يستطيع مراقبة الأمر بنفسه وخلصائه من الأعوان ثقة بأخيه. أما العِمَاد فيعتبر هذا التطور نهاية قدرة المدينة الدِّفَاعيّة، إذ قال أنّه كان بالمدينة:

«زهاء عشرين ألف رَجُلٍ من أمير، ومُقَدّم، وجُنْدي، وأسطولي، وبحري، ومُتَعَيّش، وتاجرٍ، وبَطَال، وغلمان، ونُوّاب، وعُمّال، وقَد تعَذّر عليهم الخروج فسكنوا، وإذا عاينوا على المَوْضِع موهناً عاونوا وما

(1) مفرج، 2 ص 345 (ملخص شامل للمصادر).
(2) المصدر نفسه، ص 150 - 151.
(3) الكامل، 12 ص 55. وانظر عن البدل: الفتح، ص 456 - 458؛ النوادر، ص 152 - 153.

هاونوا...». وأن هؤلاء قد جَرّبوا، وصَبَروا، وخبروا الأمور في الدفاع عن المدينة مُدّة طويلة؛ فَحَلّ مكانهم «... من لم يُجَرّب حصارها، ولم يخبر منافعها ومضارها... ودَخَل عشرون مُقَدّماً وأميراً شبه المكرهين عوض ستين.. فإنّ من عُين للدخول كَرِهَه، وصار يتوسّل في أن يُعْفى ويبذل عن نفسه فداء... وضَاع الزمان وتَعَذّر الإمكان بعود مراكب العَدُوّ فلم يستتمّ البَلَد ما كان يحتاج إليه من الرجال والأموال»[1].

وكانت عملية البَدل قد ابتدأت في ذي القعدة، ووصل إلى المعسكر السلطاني القاضي الفاضل من مصر في ذي الحجّة، بعد غياب سنتين فيها، كان خلالها «يُرَتب للسلطان أموره في تجهيز العساكر، وتعمير الأسطول، وحمل المال، ونقل المِيَر (الأقوات) إلى عَكّا، والسلطان يكاتبه في مهماته، وترجع أجوبته بأحسن عباراته، مشيراً وناصحاً ومسلّياً، وباحثاً عن مصالح الإسلام متقصياً»[2]. ويذكر العماد في مَوّضع آخر:

«وكان السلطان متشوقاً لقدومه، وطالت مُدّة البين لغيبته عنه سنتين، على أنّ أمور الممالك بمصر كانت بحضوره مستتبة... وكان السلطان شديد الوثوق بمكانه، دائم الاعتماد والاستناد على إحسانه وإلى إركانه، فإن استقدمه خاف على ما وراءه من المهام، وإن تركه نال وحشة التفرد بالقضايا والأحكام، وكان يُكاتبه بشرح الأحوال يستشيره، والنَجّابون مُتَرَدّدون بالمكاتبات والمخاطبات، والاستشارة في المهمات، فوصل القُدْس واعتاق بتوالي الأمطار، ثم وَصَل.... ورجع الفَضْل، واجتمع الشمل، واستأنس الملك بصاحب تدبيره، وتأَسَّسَ رُكْنَه برأي مُشِيره»[3].

وعاد المستشار إلى معسكر السلطان، وبَعْدَ شَهرين غادر المُعَسْكَر نهائياً (في 3 صفر 587 هـ/ 2 آذار 1191 م) كبير أمراء السلطان ابن أخيه تقي الدين

(1) الفتح، ص 474، 477 - 481؛ وانظر: النوادر، ص 157 - 158؛ الكامل، 12 ص 64.
(2) الروضتين، 2 ص 165.
(3) الروضتين، 2 ص 182.

عُمَر بن شاهنشاه بن أيوب، إلى بلاده الجديدة في الجزيرة الفراتية التي أضيفت إليه. وكان تقي الدين من أقْدَم أصحاب صلاح الدين ومستشاريه وأعوانه في الحرب، وشَهِدَ معظم عملياته العسكرية؛ كما كان ذا رأي سديد يستشيره القائد في معظم الأعمال العسكرية التي قام بها. وكان لعَدَم عودته أثر في معنويات صلاح الدين بحيث قال العماد أن السلطان نَسَب فيما بعد «ما جرى من استيلاء الكفار على عَكّا، بعد قضاء الله تعالى، إلى غيبته»، وذلك ليس فقط بسبب عدم حضوره إلى الميدان ولكن لأنّه «تأخرت عساكر تلك البلاد الشرقيّة لخوف مَضَرّتِه وجُور مجاورته»[1]. فوجود أمير مثله في المنطقة كان يدفع كل واحد من أصحاب تلك البلاد إلى التفكير بملكه أولاً وآخراً قبل الصالح العام المتمثل في المواجهة عند أسوار عَكّا.

هذا هو الوَضع العام الذي كانت عليه الجبهة الصلاحية عند أسوار عكا عندما اقترب ربيع سنة 1191 م، حيث بدأ الاستعداد للعمليات العسكرية من جديد. فقد ضعفت القدرات العسكرية في داخل المدينة بسبب عمليّة البَدَل، وفي المعسكر الميداني بسبب غيبة القُوّات الشرقية وبعض قُوّات بلاد الشام، ممّا أثر على قُدْرة القائد والمدينة على مواجهة تشديد الحصار الكبير والأخير.

أما في المعسكر الصليبي المتمركز حول المدينة، والذي أصابه بعض الضعف نتيجة الهزائم المحدودة وإحراق الأبراج والمنجنيقات وانتشار المرض وقِلّة الأقوات، فقد بدأت تَصِله الإمدادات الكبيرة، بقيادة ملكي فرنسا وإنجلترا، التي طال انتظارها. فقد وَصَل فيليب أغسطس وقُوّاته الفرنسيّة إلى عكا يوم 12 ربيع الأول 587 هـ/ 9 نيسان 1191 م، كما وصل ريتشارد ملك انجلترا على رأس قُوّة أكبر ويحمل أموالاً أكثر في أواخر حزيران[2]. وإذا كُنّا لا نعرف الأعداد التي وصلت بالتدقيق، فإنها كانت تُقَدّر بعشرات الآلاف المُجَهّزة بالآلات والأدوات الحربيّة ومعها من الأموال ما يكفي مُدّة طويلة.

(1) الروضتين، 2 ص 182 - 183. وانظر الفتح، ص 467 - 468؛ الكامل، 12 ص 62 - 63.

(2) الفتح، ص 474 - 481؛ الروضتين، ص 182 - 184؛ النوادر، ص 157 - 158؛ الكامل، 12 ص 64.

وهكذا فقد توفر للمعسكر الصليبي كل الإمكانات التي تُسَاعِدُ على إحكام الحصار عن المدينة ومنع وصول الإمدادات إليها، ومواجهة قُوّات صلاح الدين في حال تدخلها، في ذات الوقت. ويضاف إلى ذلك أنّ وصول الملكين وَحَّد جميع الفئات المحلية والأوروبيّة في المعسكر تحت قيادة أحد الملكين. وعلى الرغم من إزدواجيّة القيادة، وانقسام الصليبيين في الميدان إلى معسكرين بينهما بعض التنافس حول بعض الأمور التي وصلت معهما من أوروبا، إلاّ أنّ الهدف أمامهما وأمام الجميع كان واحداً، وهو إعادة تثبيت المملكة الصليبيّة في الأراضي المُقَدّسة بكل الوسائل المتاحة لديهم.

ونتيجة لهذه التطورات فقد قُطِع اتصال مدينة عَكّا مع المعسكر الصلاحي من البَرّ والبحر، إلاّ من سابح مغامر يحمل كتاباً أو رسالة شفويّة أو من طريق العَلامَة التي اتفق عليها بين الجانبين. وكانت هذه العلامة بين من في المدينة وميمنة العسكر الصلاحي «أنّه متى زحف الفرنج عليهم دَقّوا كُوَسَهم[1] (آلات معدنية تخرج أصواتاً عالية) فتدق كوَس السلطان إجابة لهم»[2] وصارت المهمة الأساسيّة لعسكر السلطان، الذي فَقَد المبادَرَة بالهجوم حَتّى قبل قدوم الملكين، هي: إذا هاجم المعسكر الصليبيّ المدينة، زَحَفَ جيش صلاح الدين أو بعضه إلى خَنْدَق الصليبيين حتى يتراجعوا عن المدينة لمواجهتهم؛ وعند ذلك ينسحبون إلى مواقعهم دون الدخول في اشتباك معهم[3]. وهكذا كان القتال بين الجانبين معظم الوقت إلى ما بَعْدَ قدوم الملكين بقليل.

ومَرِض الملكان أول وصولهما إلى عَكّا، وتَرَك المركيز كونراد المعسكر عائداً إلى صور، إلاّ أن ذلك لم يخفف من شِدّة الحصار على المدينة. كما أن وصول عساكر جديدة إلى معسكر صلاح الدين لم يؤدِ إلى تخفيف الضغط على المدينة المحاصرة. ومع ذلك فقد تمكنت حامية عكا الجديدة بداية، ومن بقي

(1) الكُوس: الطبل مُعَرّب كُوسْت، يدق بها أثناء الحرب.
(2) العماد في الروضتين، 2 ص 184؛ الفتح، ص 488.
(3) المصادر ذاتها.

فيها من السكان، من صَدّ كل الأعمال الهجوميّة التي قام الصليبيون بها بُكُلّ آلات الحصار التي توافرت لديهم[1].

وبعد فَشَل كل أساليب الهجوم السابقة تَوَصل الصليبيون، الذين ركّزوا كل جُهْدهم على عمليات الحصار، من اختراع أسلوب يُمَكّنهم من التَقَدّم إلى الأسوار والاقتراب منها، وتشديد الحصار عليها دون تمكّن المدافعين من إعاقتهم. وكان هذا الاختراع الذي احتاج إلى جهود بشريّة كبيرة، كما يذكر العماد، هو التل الترابي المْتَحَرّك الذي بَنُوه:

«ولمّا أعوزت الفرنج الحِيَل، وأعجزهم تَفاصِيل تَدَابيرهم والجُمَل، وذلك أنّ أبرجتهم الخشبيّة أحرقت، وستائرهم ودبّاباتهم وكباشم وُزِّعَت ومُزعت ومزقت، **أقاموا قُدّام خيامهم صوب عَكّا تلاً من التراب مستطيلاً ورَفَعُوه كثيباً مهيلا، ثُمّ نقلوه وحَوّلوه، وكانوا يقفون وراءه ويُحَوِّلُون إلى قُدّامه تُراباً، ويقربون إلى قُرْب البلد رقاباً، فهم خلفه للنكايات مَحْجُوبون... ويديرون الحرب الزبون، والتلّ المتحول قد أعيا على أهل البلد، لا تعمل فيه النار، ولا يَصِل إلى دفعه الاقتدار، حتى صار من المدينة على نِصف غلوة (رمية) سهم... فما يزيد كل يوم إلاّ** قُرباً، وما يَجُرّ في كل وقت إلاّ خطباً وحرباً...»[2].

وشدّد العسكر الصليبي الحصار على المدينة، وبدأت الآلات التي ترمي السور تؤثر فيه، وأخذت قدرات أهل المدينة وحاميتها تضعف:

«وتخلخل السُّور، وأنهك التعب والسَّهر أهل البلد لقلّة عددهم وكثرة الأعمال لديهم...»[3].

ولم يَعُد بإمكانهم متابعة القتال بالرغم من الحملات المتتالية التي كانت

---

(1) الروضتين (العماد وابن شداد)، ص 184 - 185؛ الفتح، ص 493 - 494.
(2) الروضتين، 2 ص 185.
(3) النوادر، ص 166.

تقوم بها قُوّات صلاح الدين على العسكر الصليبي في الخندق المحصن، والتشجيع المستمر لهم من السلطان على الصمود. عند ذلك اقترح صلاح الدين على الحامية، التي بدأت تفكر بالاستسلام، ومن بقي في المدينة من الناس، الخروج منها، لكنّ المحاولة لتنفيذ ذلك فشلت. يذكر العماد:

«وقال لهم [السلطان]: خذوا من العَدُوّ حذراً، واتفقوا واخرجوا ليلاً من البَلَد يداً واحدة، وسيروا إلى جانب البحر، وصادموا العَدُو بالقهر، وخلّوا البلد بما فيه، واتركوه بما يحويه، فشرعوا في ذلك، واشتغل كل واحد منهم باستصحاب ما يملكه، ولم يعلم أنّ التهاءه به يُهْلِكه، فما تمكنوا من المراد حتى أسفر الصباح، ولم يصح ذلك في الليلة الثانية، لمصير السر إلى العلانية.. (وأن) الفرنج اطلعوا على هذا السر، فحرسوا الجوانب والأبواب...» [1].

وشُدِّدَ الحصار أكثر من قبل على المدينة، وسقط جزء من التحصينات الخارجيّة (الباشورة)، عندئذٍ خرج المشطوب، قائد الحامية، إلى الملكين، واقترح تسليم المدينة مقابل الأمان للحامية ومن في المدينة كما جرت العادة في السابق عند تَسَلّم المدن والحصون [2]. ولكنّ الفرنج رفضوا العَرض [3]، فهَدّد المشطوب بأن يعمل في المدينة وأهلها كما فَعَل باليان بن بارزان مع صلاح الدين عند استعادة المسلمين للقُدْس، لكنّ عَكّا كانت تختلف عن القدس التي تحتوي الأماكن المُقَدّسة، عند ذلك قَرَّر من في المدينة المبايعة على القتال حتى الموت، وَوَصَل كتاب بذلك إلى صلاح الدين يوم الأحد 12 جمادى الآخرة (7 تموز 1191 م) [4].

وهرب في بقيّة ذلك اليوم بعض أمراء الحامية الذين لم يجربوا الحصار

---

(1) البرق في الروضتين، 2 ص 187.
(2) النوادر، ص 168؛ الفتح، ص 505.
(3) يذكر صاحب الحملة الثالثة [E] أن ملك الفرنسيين وافق لكن ريتشارد امتنع عن التسليم بأمان.
(4) النوادر، ص 169 - 170، الفتح، ص 506 - 507.

قبل ذلك، فأضعف ذلك معنويات أهل البلد وبقية الأمراء، وتوصلوا إلى اتفاق على التسليم دون علم صلاح الدين أو موافقته، وتَضَمّن الاتفاق على: تسليم المدينة وما فيها من الآلات والعُدَد والمراكب البحرية و 200 ألف دينار وإطلاق 1500 أسير مجاهيل، ومئة أسير يحددهم الصليبيون، وصليب الصلبوت، مقابل: الأمان لأنفسهم ونسائهم وذراريهم وأموالهم الخاصة (1). وتم هذا الاتفاق يوم الجمعة 17 جمادى الآخرة/ 12 تموز 1191 م.

وفي وقت الظهر من اليوم المذكور دخَل الملكان ومن معهما إلى المدينة، واقتسموا المدينة والأسرى داخلها حتى يأخذ كُلّ واحد حصته من المال. وفي ذات اليوم بدأت المفاوضات مع صلاح الدين لتنفيذ الاتفاق الذي لم يُعْرَض عليه ولم يستشر في شروطه، لكنّها لم تؤد إلى نتيجة لتشَدّد ملك انجلترا خاصة بعد مغادرة ملك فرنسا والمركيز كونراد ومعهما حصتهما من الغنائم والأسرى إلى صُور، وتَفَرّد الملك ريتشارد بالقيادة، الذي لم يتمكن من استعادة الأسرى منهما (2).

وبدأت المفاوضات من جديد بين الملك ريتشارد ومن تبعه من الصليبيين المحليين وبين صلاح الدين حَوْل شروط إطلاق ما تبقى لديه من الأسرى. ومَرّة أخرى تشدّد الملك الذي لم يقتنع بأصول المعاملات بين الصليبيين المحليين والمسلمين في السابق في مثل هذه الأمور، ولم يضمن فرسان الداويّة المال المطلوب من المسلمين، فكانت النتيجة النهائية أنْ أمَر بقتل كل الأسرى لديه صبراً، فاقتيدوا مُكَبَّلِين إلى خارج السُور عند الآبار تحت تل العياضيّة أمام يَزَك صلاح الدين الذي لم يُصَدّق ما يجري، فقتلوا وكان عددهم يزيد على ألفين وسبعمائة إنسان (2):

«وأصبح المسلمون، فوجدوا المسلمين الشهداء في مواضِعهم

(1) النوادر، ص 170 - 171؛ الفتح، 512.

(2) انظر التفاصيل حول المفاوضات والنتائج: النوادر، ص 171 - 175؛ الروضتين (العماد - البرق) 2 ص 187 - 190؛ الفتح، 526 - 530؛ الكامل، 12 ص 67 - 68؛ الحملة الثالثة [E] لمجهول، ص 70 - 77.

صرعى، وعرفوا من عرفوا منهم، ولم يبق العَدُوّ إلاّ رجلاً معروفاً مَقَدّماً، أو قوياً له يد للعمل في عمائرهم، وتَصَرّف السلطان في المال [الذي جمع لفداء الأسرى]، وأعاد الأسارى [الفرنج] إلى أربابها»[1].

ويصف ابن شَدّاد حَال السلطان عندما دخَل الصليبيّون المدينة ورفعوا أعلامهم على القلعة ومئذنة الجامع وبرج الداوية وبرج القتال:

«ومثلت بخدمة السلطان. . . وهو أشَدّ حالة من الوالدة الثكلى، والولهة الحيرى، فسَلّيْته بما تَيَسّر من التسلية، واذكرته الفكر فيما استقبله من الأمر في معنى البلاد السّاحليّة والقُدْس الشريف، وكيفية الحال في ذلك. . . » [2].

وهكذا انتهت مرحلة من الحرب الطويلة، التي امتدت أكثر من سنتين، بقي فيها صلاح الدين صابراً مرابطاً بالرغم من كل ما مَرّ به من ظروف صعبة وما صرفه من أموال ومؤن على العساكر بحيث يذكر أنه اشترى إثنى عشر ألف رأس من الخيل أثناء هذه المدة. فلم يبخل بشيء مما لديه وبَخَل العالم الإسلامي وملوكه عليه بكل شيء. وأقَام في مخيّمه في شَفَرعم منتظراً للخطوة التالية التي سيقوم بها ملك الانجليز. فقد انتهت مرحلة صعبة من الحرب، لكن الحرب لم تنته مراحلها الأخرى. وقد أبدى في المراحل التالية، صَبراً وثباتاً وإصراراً على المرابطة والصمود للمحافظة على القُدْس الشريف بيد المسلمين، فنجح في ذلك حتى وفاته، فالمحافظة على القدس كان مِحْور أعماله التالية التي أعقبت هذه النكبة التي بذل كل ما توافر لديه من أجل تجنبها [3].

---

(1) مفرج، 2 ص 364 (مختصر أمين للنوادر، ص 174 - 175).
(2) النوادر، ص 171.
(3) انظر الملحق رقم 12.

16 تحصين القدس والمحافظة عليها

«. . . وتَوجّهْتُ إلى القدس، فرأيت ملكاً عظيماً، يملأ العين روعة، والقُلُوب محبّة، قريباً بعيداً، سهلاً محبباً، وأصحابه يتشبهون به.

وأول ليلة حضرته، وجدت مَجْلساً حفلاً بأهل العلم، يتذاكرون في أصناف العلوم، وهو يُحْسن الاستماع والمشاركة، ويأخُذُ في كيفيّة بناء الأسوار وحفر الخنادق، ويتفقّه في ذلك، ويأتي بكُلّ معنى بديع، وكان مهتماً في بناء سور القُدْس وحفر خندقه، يَتَوَلّى ذلك بنفسه، وينقل الحجارة على عاتقه، ويتأسى به جميع الناس: الفقراء والأغنياء، والأقوياءوالضعفاء، حتى العماد الكاتب والقاضي الفاضل.

ويركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهر، ويأتي داره، ويَمُدّ الطعام، ثُمّ يستريح. ويركب العَصْر، ويرجع في المساء، ويَصْرِف أكثر الليل في تدبير ما يعمل نهاراً. . .» الموفق البغدادي، **الإفادة والاعتبار**، ص 151.

أثناء الحصار الطويل على عَكّا الذي اختبر صَبْرَ السلطان صلاح الدين، قام القائد بعمل انتقده القاضي الفاضل، الذي كان في القاهرة آنذاك، انتقاداً شديداً. وكان العمل والنقد يمثلان موقفين مختلفين من العمران والحضارة والحرب: موقف العسكري الذي يريد المحافظة على الرجال وإن أدى ذلك إلى خسارة البلاد والعمران، وموقف الرجل المدني المستَقِرّ الذي يريد المحافظة على الأرض والبلاد ولو كَلّف ذلك خَسَارة الرجال عند الضرورة، لكن بعد

تكلفة العَدُوّ خسارة مقابلة، تكثر وتَقِلّ حسب الظروف، في الرجال والمال.

أمّا العمل فكان أمر صلاح الدين، ربّما بناءً على مشورة الأُمَراء الأتراك والتركمان والأكراد في عسكره، بهدم سور طبرية، وهدم يافا وأرسوف وقيساريّة، وهدم سُور صيدا وجُبيل ونقل أهلهما إلى بيروت. وهذا العمل هو نتيجة تفكير عسكري قبلي يخشى الحَصْر وأن لا يكون هنالك مجال للخروج والهرب عند الضرورة، ونتيجة نظرة قبليّة للأرض والعمار. وسنرى فيما بعد كيف أنّ هذا التفكير تَعَمّق بعد ما حصل في عَكّا.

وأما النقد فقد تَمَثّل في كتاب للقاضي الفاضل إلى صلاح الدين عندما علم بهذا الحدث الخطير:

«خَراب البلاد في هذا الوقت الضيّق لا شُبْهَة في تَقْوِيَته لنَفْس العَدُوّ وإضْعَافه لأنْفُس المسلمين، وكُلّ من يَسْمَعه يفجأه من بَدْهَةِ اليأس مَا يَقَع؛ وجَاهُ المَوْلى يَعْلَم أنَّ العَدْوّ أَخَذَها من المصريين [الفاطميين] في تمام ستين سنة، وخَفَضُوها بالإنْحِصَار مَرَّة وبالهُدْنَة مَرّة وبالقِتَال مَرَّات، وبُولاة سُوءٍ لو كان فيهم خَيْرٌ لَمَا عَجزوا عنها. ونحن قد حَمَلْنَا عن العَدُوّ المُؤْنة بتخريب البلاد التي كان العَدُوّ يُريد أنْ يُحَاصِرها ويُنازِلها، ويَنْصب المَنْجَنِيقَ والبُرْج عليها، ونَخَافُ النّجْدَة أن تَصِلَها؛ **وقُوّة الإسلام أنْ يَثُوب إليها، ويَتَوقّع أن يَبدَهَهُ المَصَافّ قَبْل النُّزُول عليها، فَعَرَّفْنَاه أنّه قَادِمٌ على من لا سِلاَح لَهُ إلاّ أنْ يُلْقِي السلاح، ولا حِفْظَ للبِلادِ إلاّ أن يُخَرّبَها. فقد نَكَلْنا عن اللّقَاء وفَرَرْنا قبل المُوَاجَهَة، وزِدْنا زِيَادة عَجِيبَةً: وهو أنّ المُنْهَزِم يَنْهَزِمُ بالرّجَال ونَحْنُ نَنْهَزِمُ بالبِلاد»** [1].

ومن هنا يمكننا فهم موقف صلاح الدين، في ما سيلي من تطورات، من خَرَاب عَسْقَلان، ومن تَحْصِين القُدس تحصيناً شديداً.

وكان العرف المتبع في حصار المدن وتسليمها، من بداية الحروب

(1) الروضتين، 2 ص 176.

الصليبيّة وحتى نهاية حِصَار عكا، هو أن التسليم بأمان كانَ في العادة الأغلب يشمل الأنفس والأموال الخاصة التي يستطيع حملها كل فرد وترك السلاح والذخائر والمؤن، وربما أضيف، كما رأينا، دفع فدية محددة في بعض الحالات. وفي كل الأحوال كان يتم التَسَلُّم والتَسْلِيم والخروج من المدينة والحصن إلى حيث الأمان بخفارة تمنع تعديات أهل الأرياف على الخارجين وتسامح مع الناس كبير. أما من لا يستطيع الدفع فيقع في الأسر حتى يَتِمّ افتداؤه أو حتى يموت موتاً طبيعياً. أمّا البدعة التي ابتدعها الملك ريتشارد قلب الأسد، من قتل العدد الكبير من الأسرى، دون انتظار توفير المال والأسرى من المسلمين، فَقَدْ أَحْدَث خَرْقاً للأعراف والتقاليد السابقة لا يمكن جبره بسهولة، وظَلّ عالقاً في ذاكرة المسلمين قرناً من الزمان. وعندما استعاد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون عَكّا بعد هذه المدة الطويلة انتقم لأجداده القُدَماء بقتل عدد مقارب لكن دون أن يُعْطِيهِم الأمان.

ولكنّ الأثر الأهم لمذبحة ريتشارد للأسرى المكَبَّلِين عند سفح تَلِّ العياضِيّة، كان الأثر النفسي الكبير الذي تركته على القوات المُسْلِمَة في زمن صلاح الدين وخلفائه بالنسبة لإمكانيّة حصار الصليبيين لهم في المدن، مِمَّا كان يدفع إلى تهديم التحصينات، وحرق المدن، وتَشريد الناس المستقرين فيها في كل الاتجاهات. فالمحافظة على النفس في وقت كان الجُند فيه أشبه بالمرتزقة منهم إلى المقاتلين العاديين الذين ينتمون إلى الأرض والمكان، كان أَهَمّ من الأسْوَار والعمران والأثاث التي يمكن تعويضها . وقد أثر هذا الموقف على صلاح الدين عند عسقلان من أجل القُدس، لكنّه لم يؤثر عليه عند تهديد القُدْس نفسها، وإن كان أثر على معظم جُنْدها.

دام حِصَار الصليبيين لمدينة عَكّا، من بداية وُصُول الملك غي ومَنْ تَجَمّع حوله من بقاياهم في بلاد الشام وحتى تسليمها بالطريقة التي ذكرنا، مدة تُقَارب السنتين. وقد اضطر صلاح الدين خلالها إلى البقاء في ميدان الحرب في منطقة واحدة حول قُوْس المدينة الخارجي، ينتقل من موقع أقرب أو أبعد حسب تطورات الموقف العسكري والمناخ، بصُورة متواصلة؛ وكان الجزء الأكبر من

قوات حلفائه يذهب في فصل الشتاء ثم يعود في فصل الربيع، أما قُوّاته وبعض أبنائه وأقربائه فقد بقيت معه طول الوقت ودون راحة حتى النهاية ما عدا بعض الظروف التي كانت تستدعي عَوْدَتهاأو إرسالها إلى بلادها. ويضاف إلى البقاء الطويل في الميدان، كان هنالك المرض الذي يُعاوده بين الحين والحين، والضغط النفسي وكبت ما يعتمل بصدره خوفاً من تفكك موقفه العسكري، وفساد الجَوّ صيفاً والمطر والبرد شتاءً. ومثل هذه الأمور لم يتعَوّد السلطان عليها على الرغم من أنّه أمضى الفترة بعد توليه السلطة في عمليات متواصلة. وقد أثّر كل ذلك على معنوياته بَعْض الأوقات لكنّه كان يَجِد في مكاتبات القاضي الحكيم من القاهرة التشجيع على الصَبْر والثَّبَات وتحمل الصعوبات بالرغم من تخاذل المتخاذلين من الملوك والأمراء وحتى الخلافة العباسيّة من أجل المحافظة على الأمانة التي أوكلتها الأمة إليه. ولذلك فإن كل الصعوبات لم تُؤثر على إصراره في الاستمرار والصمود بعناد في مواجهة التحدي الذي مَثّلَتْه الحملة الثالثة بعد سقوط عكا. ووجد قادة هذه الحملة بعد سيطرتهم على المدينة، وبالرغم من التكلفة الكبيرة في الأرواح والأموال والذخائر التي تكبدوها في تحقيق ذلك، فُرْصة لإعادة بناء مملكة القُدْس من جديد.

وكان الأثر الأكبر في معسكر صلاح الدين، نتيجة استيلاء الصليبيين على المدينة، هو تراجع المعنويات لدى قوات السلطان والذي ظهر بصورة خاصة على حرسه الخاص المعروف بـ «الحلقة السلطانية» والمؤلفة من المماليك وبقايا مماليك عمه أسد الدين شيركوه، الذين مكثوا معه طول المُدّة في الميدان. وقد ظهر هذا التأثير السلبي على المعنويات في فَعَاليّة هذه القُوات المختارة في العمليات العسكريّة في مواجهة الصليبيين بعد ذلك والتي مَكّنت هؤلاء من السيطرة على السّاحل الفلسطيني من عكّا شمالاً وحتى يافا جنوباً. من ناحية أخرى فقد ساعد تهديم صلاح الدين لأسوار المدن وإحراق بعضها في نجاح تَقَدم ريتشارد نحو الجنوب باتجاه عسقلان، فقد صار هَمّ السلطان الوحيد خلال الفترة التالية لسقوط عَكا المحافظة على مدينة القُدس والأماكن المُقَدّسة بكل ما كان لديه من إمكانات عسكرية، والتخلي عَمّا عداها إذا كان ذلك

ضرورياً لتحقيق هذا الهدف. ولذلك فقد كانت خططه تتمثل في منع الصليبيين من التمركز في منطقة قريبة من الساحل القريب من القُدْس بحيث يتمكّنُوا من تحقيق الهدف الأساسي لحملتهم وهو السيطرة من جديد على المدينة المُقَدّسة.

وأمّا ريتشارد الأول ملك انجلترا، الذي صَار بعد مغادرة فيليب أُغُسْطس إلى صُور بداية - وتَرْك القسم الأكبر من قُوّاته في عكا - ثم بلاده نهائياً، قائد كل القُوّات الصليبيّة في الميدان، فقد عمل بعد الاستيلاء على عكا مباشرة وإعادة بناءِ ما تَهَدّم من تحصيناتها، على تَدْعيم مملكة الصليبيين في السّاحل أولاً والسيطرة على الطرق البَرِيَّة المؤدية إلى القُدس والسّاحل ليؤمن مُواصلاته ومواصلات المملكة الضعيفة بعد عودته إلى بلاده. وقد تمكن من تحقيق الهدف الأول في السيطرة على المدن السّاحليّة حتى يافا جنوباً إلاّ أنّ صلاح الدين تمكن مع قُوّاته وبعض قُوّات حلفائه من منعه من تحقيق الهدف الثاني.

واضطر الملك في النهاية إلى العودة إلى بلاده مخلفاً وراءه مملكة صليبيّة صغيرة وضعيفة تمكنت عن طريق الدَّعْم الأوروبي المستمر والحملات المتتابعة من الاستمرار مُدّة قرن من الزمان بعد ذلك، بسبب حصانة قاعدتها عكا وخلافات أُمراء وملوك البيت الأيوبي المستمرّة بعد وفاة صلاح الدين.

فما الأعمال التي قام بها الجانبان الإسلامي والصليبي بعد تسليم عكا لتحقيق أهدافهما؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه قدر الإمكان في الجزء المتبقي من هذا الفصل.

بعد استيلاء الصليبيين على عكا مباشرة وقَع خلاف بين ملك فرنسا وملك انجلترا. وكان سبب هذا الخلاف هو من سيتولى عرش المملكة الصليبيّة التي سَيُعَاد بنائها مِن المناطق التي لا تزال بيدهم (صور) والتي سيطروا عليها (عَكّا) والتي يتوقع السيطرة عليها في العمليات العسكريّة التالية. وقد أيد الملك الفرنسي، كما هو متوقع، المركيز كونراد، بينما وقف الملك ريتشارد وقسمٌ من الصليبيين المحليين مع الملك غي، الملك السابق للمملكة والذي قاد الجموع من صُور وحاصرها حَتّى تَمّ استسلامها. وكان كل واحد منهما يعتبر نَفْسَه صاحب

الحق في عرش المملكة. فالأول هو الذي حافظ على صور آخر معاقل المملكة، ورتّب أمورها، ومكّنَها من السيطرة على عكا، والثاني هو صاحب الحق الشرعي فيها، لكنّ الطريقة التي وَصَل بها غي إلى عرش المملكة، والتي قَسَمَتْها إلى حزبين متناحرين أضعف هذه الشرعيّة إلى الدرجة التي دعت المركيز إلى الإصرار على موقفه. وفي النهاية تَمّ الاتفاق على اقتسام المملكة: فأعطي المركيز صُور وبلادها، وأعطي الملك غي قبرص التي استولى ريتشارد عليها في طريقه إلى فلسطين، وأعطي غودفري ـ أخو غي السّاحل جنوبي الكرمل في حال إعادة السيطرة عليه. أمّا عَكّا المدينة فَقَدْ قُسِمَت الإدارة فيها بين الملكين.

وبعد الاتفاق المذكور أسرع الملك بالعودة مع المركيز إلى صُور ثُمّ أبحر من هناك عائداً إلى بلاده بسرعة، ومنح حِصّته في عَكّا، والأسرى إلى المركيز كونراد[1]، وتَرَكَ قُوّاته مع دوق بيرغندي للمشاركة بالعمليات العسكرية تحت قيادة الملك الانجليزي لاستكمال المهمة التي قدموا من أجلها، والذين شَكّلُوا عنصر ضَعْفٍ في قدرة الملك على اتخاذ القرارات. أمّا الكونت هنري ومن معه من القوات فَقَد انضم إلى معسكر الملك ريتشارد[2].

لم يؤَد استسلام عَكّا إلى نتيجة حاسمة بين المعسكرين الإسلامي والصليبي اللذين بقيا متقابلين، كما لم يؤد إلى توقيع هدنة أو سلام بينهما، وإنّما أدى إلى توقف نسبي في العمليات العسكريّة حتى يراجع كل منهما حساباته وإن كانت المبادرة قَدْ صارت بيد الملك الانجليزي في اتخاذ الخطوة الأولى، الذي قَام أولاً بإعادة ما تَهَدّم من أسوار المدينة وأبراجها وتحصينها وتَعْلِيَتها[3]، ثُمّ قَرّر في يوم الأحد 1 شعبان/ 23 آب 1191 م الإعلان المُبَكّر عن الحركة، وعَرَف العسكر الإسلامي الصلاحي بهذا الاستعداد. ففي يوم الجمعة السابق خرج الملك بكامل قواته، ومعه الأثقال من عكا وخندقهم الذي كانوا يعسكرون به، وساروا:

(1) الحملة الثالثة، ص 72 - 73.
(2) المصدر نفسه، ص 74.
(3) النوادر، ص 175؛ الكامل، 12 ص 169.

«حتى قَطَعُوا النهر [النّعامين] إلى الجانب الغربي، وضَربوا الخيام على طريق عَسْقَلان وأظهروا العَزْم على المسير على شاطىء البحر. . . »[1].

فقام صلاح الدين بتشديد المراقبة عليهم وزيادة عدد اليَزَك، ثمّ في فجر الأحد المذكور:

«. . . اشتعلت نيرانُ العَدُوّ في سحرة ذلك اليوم. **وعادَتهم أنّهم إذا** أَرَادوا الرَّحِيل أشعلوا نِيرانَهم، وأخبر [وأخبروا] اليزك بحركتهم، فأَمر السلطانُ الثقل أنْ يُرْفَع حَتّى يبقى النّاسُ على ظَهْرٍ، ففعل الناس ذلك. . . ».

وأدت هذه الحركة المفاجئة من السلطان إلى ارتباك كبير في السُّوق الكبير الذي كان مع معسكر السلطان في السنتين الطويلتين من الحصار الذي كَانَ أقرب إلى مدينة متنقلة. يذكر عبد اللطيف البغدادي، الذي عاين هذا السوق:

«كَانَ السُّوق الذي على عَكّا عظيماً، ذا مَسَاحَة فسيحة، فيه مائة وأربعون مكان بيطار [للخيل ومعالجتها]، وعَدَدْتُ عند طباخ واحدٍ ثماني وعشرين قِدْراً، كُلّ قِدْرٍ تَسَع رأسَ غنم. **وكنت أحفظ عدد الدكاكين لأنّها كانت محفوظة عند شحنة السوق**، وأظنها سبعة آلاف دُكّان، **وليست مثل دكاكين المدينة**، بل دكان واحدٍ مثل مائة دكان، لأن الحوائج في الأعْدَال والجَوَالِقَات[2]. ويُقَال أن العسكر انتنت منزلتهم لطول المقام، فلمّا ارْتَحَلوا غير بعيدٍ، وزَنَ [دفع] سَمَّان أُجْرَة مَتاعِه سبعين ديناراً. وأمّا سوق البَزّ [القماش والثياب] العتيق والجديد، فشيء يبهر العقل.

وكان في العسكر **أكثر من ألف حَمّام**، وكان أكثر ما يتوَلّاها المغاربة، يجتمع منهم اثنان أو ثلاثة ويحفرون ذِرَاعيْن فيطلع الماء،

(1) النوادر، ص 175؛ الحملة الثالثة، ص 79.

(2) الجوالقات: الأعْدَال، وهي أكياس كبيرة مصنوعة من شعر الغنم والصوف. وكانت مستعملة ومعروفة حتى منتصف هذا القرن (العشرون).

ويأخذون الطين فيعملون منه حوضاً وحائطاً، ويُسَيِّرُونه [يعملون له سوراً] بحطب وحصير، ويقطعون حطباً من البساتين التي حَوْلَهم، ويُحْمُّون الماء في قُدور، وصار حَمّاماً يَغْسِل الرّجل رأسه بدرهم أو أكثر»[1].

وكان سَبَبُ الارتباك أن أهل السُّوق لم يتعَوّدوا الانتقال المفاجىء إلى مكان غير محدد، لأن انتقالهم من موقع إلى موقع في الفترة السابقة كان متقارباً وحَوْل عكا، أمّا الآن فالوضع يختلف:

«. . . وهلك للنّاس قماش كثير، وحوائج كثيرة من السّوَقة، لم يكن معهم ظَهْرٌ [حيوانات نقل] يحمل جميع ما عِنْدَهم، لأن كل إنسان منهم [أهل السوق] كانَ يُحَصِّل ما يحتاج إليه في أشهر، وكل واحدٍ من السُّوقة عنده ما ينقله من منزل إلى منزل في مِرَار مُتَعَدّدة، لكنّ هذا المنزل لم يمكن أنْ يتخَلّف فيه أحد لقُرْبِه من الفرنج الذين بعَكّا، والخوف مِنْهم»[2].

كان الملك ريتشارد، قبل خروجه من عَكّا إلى المعسكر الميداني غرب النهر من أجل التجمع، قد أمر السفن بالتجهز بالمؤن بما يكفي عشرة أيام، وأنْ تسير في البحر قرب الساحل مع حركة القُوّات البَرِيّة حتى تزودها بما تحتاج إليه باستمرار[3]. وعندما أشعلت النيران في المعسكر الصليبي، أمَرَ صلاح الدين أثقاله ورجاله بالاستعداد للتحرك مع ابتداء حركتهم واغتنام كل فُرصة لقتالهم وإيذائهم.

وبدأ سير المعسكرين من عَكّا إلى عسقلان بموازاة بعضهما البعض تقريباً، أحياناً يتَقَدّم هذا المعسكر أو ذاك عن الآخر حسب الظروف، وحسب تقدم سفن التموين في البحر بمحاذاة السّاحل. وأثناء ذلك كانت جماعات

(1) المقريزي، السلوك، 1 ص 94. وهذا وصف معسكر السلطان عند عكا بعد حطين مباشرة.
(2) النوادر، ص 175.
(3) الحملة الثالثة، ص 77؛ الكامل، 12 ص 69.

الطلائع والمراقبة من قوات صلاح الدين تهاجم قوات الملك ريتشارد باستمرار[1]، خاصة المؤخرة والأثقال المرافقة لها، ولم تقع معارك بين الجانبين، كما سنرى، إلاّ معركة واحدة هي تلك التي حدثت في أكثر المناطق مناسبة لمثل ذلك قُرب أرسوف.

وسار الجيشان. وكانت حركة الجيش الصليبي الكبير كالتالي: السفن المحمَلة بالمؤن تسير بمحاذاة الشاطىء ببطء لتتناسب مع حركة قوات الملك ومن معه، الذي سار بدَوْرِه قريباً من السّاحل في ثلاث فرق متماسكة كل فرقة منها تحمل أثقالها. وسارت كُلّ فرقة منها بترتيب متماسك وُضِعَت فيه الخيّالة في الوسط والرجّالة يحيطون بهم من جهة البَرّ ومن جهة البحر لحمايتها كالعادة. وكان قسما الرجالة يتبادلون مواقعهما بين الحين والحين لإرَاحَةِ من يكون من جهة البَرّ الذين كانوا يتعَرّضون للهجوم باستمرار[2].

وفي بداية الحركة سار الملك ريتشارد وقواته الخاصة في المقدمة، والنورمان بقيادة دوق بيرغندي في الوسط للدفاع عن الراية الكبيرة ـ راية الملك ـ المحمولة على عَجَل، والفرنسيون في المؤخرة حتى الوصول إلى حيفا حيث الجبل والممرات الضَيِّقَة فيه. وقَدْ وصَفَ صاحب الحملة الثالثة الراية الكبيرة بدقة كالتالي:

«كان النُورمان يَحْمُون الرّايَة. . . . التي تتكون من عمود طويل يشبه مقلاع سفينة ومصنوع من الخشب الصلب المحمول [على قاعدة] لها أربع عجلات؛ وكانت جميع أجزائه مجموعة بمُفَصّلَات وملفوفة بالحديد بحيث لا يمكن أن يقطعها سيف أو فأس أو تؤثر فيها النيران. وكان يحميها نخبة من الجند المختارين خاصة وقت القتال في المناطق السهليّة حتى لا تكسر أو تسقط من أي هجوم من قبل العَدُوّ، لأنه إذا حدث وقوعها نتيجة أي حادث، فإن الجيش يتفَرّق وتَسوده حالة فوضى.

(1) النوادر، ص 176؛ الفتح، ص 532 - 533؛ الكامل، تقي الدين ٢١ ص 69.
(2) النوادر، ص 179.

وعندما لا تظهر يُصَاب (الجند) بخيبة أمل ويعتقدون أنّ قائدهم قَدْ غَلَب عليه الوهن، وبذلك لا يبقى عند أحدٍ القدرة على مقاومة العدو إذا كان رئيسهم في حالة اضطراب من سقوط رايته؛ أما إذا بقيت مرفوعة، فإنه يبقى لهم دائماً ملجأ أمين» [1].

وأمّا صلاح الدين فقَد قَدّم أثقاله أولاً، ثم سار على تعبئة عبر التلال القريبة المشرفة على السّاحل والعسكر الصليبي، وكانت فرق صغيرة من قُواته تهاجم باستمرار مؤخرة القوات الصليبيّة المتحركة ببطء طول الوقت. وفي ذات الوقت كان السلطان يتقَدّم مع مجموعة من حرسه للبحث عن مكان مناسب في المنطقة السهليّة لضرب مصاف ومعركة كبيرة معهم [2]. لكن السهل الساحلي الضيق عند حيفا، وتخييم الصليبيين بين حيفا والبحر [3] وتماسك تعبئتهم، لم يمكن صلاح الدين من القيام بغير المناوشات التي كان تأثيرها مزعجاً لكنّه محدود النتيجة من ناحية عسكرية.

وعندما تَحَرّك المعسكر الصليبي من حيفا سار الصليبيون على تعبئة جديدة إذ وضعوا الداويّة في المقدمة والاستبارية في المؤخرة، ثُمّ غيّروا ذلك فيما بعد فَصَار الملك في المقدمة والداويّة في المؤخرة حتى وصلوا إلى قيسارية يوم الجمعة 29 آب 1191 م [4]. وأثناء ذلك كان صلاح الدين ينتقل بتنقلهم، ويتوقف بتوقفهم، وقُوّاته تناوشهم باستمرار وتأسر منهم فيسْتَجْوَبُون ثم يقتلون، ويرتاد هو المواضع المناسبة لأجل قتالهم دون أن يجد ذلك [5].

ووَصَل الجيش الصليبي إلى نهر التماسيح [الزرقاء] وخيّم قرب قيسارية التي كان صلاح الدين قد أمر بإخرابها وتهديم أسوارها وأبراجها، فوجدوها

(1) الحملة الثالثة، ص 80. وقد وصف ابن شداد هذه الراية التي أثارت انتباهه أيضاً: انظر النوادر، ص 179.

(2) النوادر، ص 176 - 177؛ الفتح، ص 533 - 536.

(3) الحملة الثالثة، ص 82.

(4) المصدر نفسه، ص 82 - 83؛ النوادر، ص 178؛ الكامل، 12 ص 69 - 70.

(5) النوادر، ص 177 - 178.

خربة إلى درجة كبيرة ومهجورة لكنّ ما بقي منها يدل على مدينة كانت مزدهرة قبل مُدّة قليلة [1].

وفي يوم 2 أيلول 1191 م، وجَدَ صلاح الدين المكان المناسب للمعركة، وهو المنطقة القريبة من أحراج أرسوف. وفي اليوم التالي تجمعت قوات السلطان في الموقع المُحَدّد الذي اختاره؛ وفي 4 أيلول عبأ قواته للقتال. وفي يوم الأحد (7 أيلول) هاجمت القُوّات الصلاحية قُوّات الملك ومن معه أثناء حركتها، فخرج فرسان الصليبيين لأول مَرّة من موقعهم المتوسط بين الرجّالة وهجموا على قوات المسلمين فلم تثبت أمَامَهم وهربت باتجاه الأحراج القريبة. ولم يتابع فرسان الصليبيين المنهزمين خوفاً من الكمائن المحكمة في أسلوب القتال عند الأتراك، فتراجعت إلى مراكزها [2].

لم تكن معركة أرسوف حاسمة بأي صورة، ولم تتأثر قُوات صلاح الدين بما جَرى فيها. فقد أعاد صلاح الدين تجميع قُوّاته بسرعة وعاد إلى المواجهة والسير بموازاة قوات الصليبيين على أمل خروجهم للقتال مَرّة أخرى لكنّهم تابعوا سيرهم بذات الطريقة السابقة. ومع ذلك فَقَدْ شكّلَت المعركة نَصْراً تكتيكياً للقوات التي يقودها الملك ريتشارد أدى إلى تخفيف ضغط قوات صلاح الدين عليهم بقيّة الطريق [3] وحتى الوصول إلى يافا يوم الثلاثاء (17 شعبان/ 9 أيلول) بعد يومين من المعركة. ووجَدَ الملك يافا مُدَمّرة كلياً بحيث لم يجد جيشه أي مكان يصلح للإقامة فيها، فتقرر التخييم في بساتين الزيتون التي تقع إلى الجنوب الشرقي منها، ثم بدأوا بعمارتها للإقامة فيها واتخاذها قاعدة لعملياتهم العسكريّة في المستقبل [4]. أما صلاح الدين فقد سار من أرسوف واقترب بقواته من الصليبيين للتحرش بهم ودفعهم للخروج إلى القتال،

---

(1) الحملة الثالثة، ص 84.

(2) انظر تفاصيل المعركة في النوادر، ص 182 - 185؛ الفتح، ص 543 - 545؛ الحملة الثالثة، ص 85 - 96.

(3) سميل، تاريخ الحروب الصليبية [E] ص 163 - 164؛ صلاح الدين [E] ص 337 - 339.

(4) الحملة الثالثة، ص 97.

لكنّهم لم يفعلوا. وبات العسكران في تلك الليلة قريبين من بعضهما على جانبي نهر العوجا. وفي الصباح سار الصليبيون إلى يافا، أَمَّا صلاح الدين فتوجه أمام قُوّاته إلى الرّملة، ثم نَزَل فيها بكل القوات والأثقال، فالطريق إلى القدس تمرّ من هناك.

كان لقرار الصليبيين إعادة عمران يافا والاستقرار فيها أثر كبير في التطورات التالية على الجانبين. فموقعها المتوسط على السّاحل الفلسطيني يمكّنها من التحكم في الطرق المؤدية إلى الشمال والجنوب والشرق. فهي ميناء القدس الرئيسي كما أنّ الأسطول يتمكن منها وبواسطتها من الاتصال الدائم مع القاعدة الرئيسيّة في عَكّا. يضاف إلى ذلك أن المسافة بينها وبين عسقلان الحصينة ذات الموقع الاستراتيجي الذي يتحّكَم في الطريق المؤديّة إلى مصر وجنوب الهضبة الفلسطينية حيث الخليل والطريق البديل الذي يؤدي إلى القُدس والإمدادات من مصر إليها. وليس هنالك من تحصينات قَوية تفصل بين المدينتين. ومن هنا كان اتخاذ الصليبيين لها قاعدة للعمليات يُشَكّل تهديداً خطيراً للمدينتين الرئيسيتين في فلسطين آنذاك: القُدس وعسقلان. وأَدّى ذلك إلى القرار الذي اتخذه مجلس مشورة صلاح الدين بهدم مدينة عسقلان وتسويتها بالأرض من أجل المحافظة على القُدس وحمايتها. يذكر صاحب الحملة الثالثة أن صلاح الدين استدعى أخاه العادل، وقال له:

«. . . إذْهَب واهدم أسوار عسقلان وغَزّة دون تأخير، ولكن سَلّم دير البلّار والبلح (أو الداروم) إلى أصحابنا للتأكد من الطريق لمن يَمُرّون من تلك الجهات. . . ودَمِّر كل القلاع الجبليّة (والسهلية) ولا توفر مدينة أو قلعة أو حصناً إلاّ الكرك [شرقي الأردن] والقُدس»[1] .

أمّا ابن شَدّاد فيذكر أن صلاح الدين جَمَع، في معسكره قرب الرّمْلَة، مجلس مَشُورة من الأمراء ورجال الدولة، لدراسة مصير عسقلان: هل تخرب أم تبقى؟. وكان الرأي الذي اتفقوا عليه:

---

(1) المصدر نفسه، ص 96.

«أن يتخلّف الملك العادل، ومعه طائفة من العسكر، قريباً من العدو ليعرف أخبارها وإيصالها، وأن يَسير هو. . . يُخَرّب عسقلان خشية من أن يستولي عليها الفرنج وهي عامرة، فيُتْلِفُوا ما بها من المسلمين، ويأخذوا بها القُدْس الشريف. . . ويقطعوا بها طريق مصر. . . وعَلِمَ عَجْزَ المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم من عَكّا وما جرى على من كان مقيماً بها، وتجافي الناس عن الدخول في عسقلان، وادخرت القُوّة في عسكر الإسلام لحفظ القدس المحروس. فتعيّن لذلك كُلّه خراب عسقلان»[1].

ويُوضح العماد المشاورة بصورة أدق تعبيراً، وهو أن الأمير سليمان ن جَنْدَر وضع الخيار الصعب أمام السلطان الذي لا يمكن أن يؤدي إلاّ إلى الموافقة على تخريب عسقلان، ووافقه الأمراء على ذلك فاضطر السلطان إلى الموافقة:

«وَقالوا: قد ضَاقَتْ عن صَوْنِها الاستطاعة. فإن هذه يافا وقد نزلوا بها وسَكَنُوا فيها، مدينة بين القُدْس وعسقلان مُتَوَسِّطَة، ولا سبيل إلى حفظ المدينتين، ولا تفي الحال بحماية البلدين، فإن كُلّ واحد منهما يحتاج في حفظه إلى عشرين ألف مقاتل، وإلى الاستكثار لأجل ذخائره من كل حاصل؛ فانظر إلى أصوب الرأيين فقدمه وأبصر أخطر الدّارَيْن فاحسمه، واعمد إلى أشرف المَوْضِعَين فحَصّنه وأحكمه، وتَيَقّن أنّ عسقلان إذا وصلوا إليها وهي سالمة تَسَلّموها، واستظهروا بها واحكموها، وتقووا بها على سِوَاها، وبلغوا من بغيتهم وبغيهم إلى منتهاها»[2].

ولكنّ العماد، عندما وَصَل إليها مع السلطان وشاهدها، كان له رأيه الخاص:

«وقَد كنت ركبت إليها وطُفْتُها، واستحسنتها واستلطفتها، ورأيت

---

(1) النوادر، ص 186.

(2) الفتح، ص 500.

سُورها قبل فَصْمِ سِواره، ونورها قبل ذبول نَوّاره ، فما رأيت أحسن منها ولا أحصن، ولا أحكم من مكانها ولا أمكن. . . »[1] «ولو وقع الاعْتِنَاء بابْتِنَائها، مُنذ يوم فتحها واقتنائها، لما تَطَرّق إلى أيْدِها خَلَل، ولا إلى يَدِها شَلَل، ولا إلى حَدِّها فَلَل، ولا إلى وُدِّها مَلَل»[2] .

وفي يوم الأربعاء 18 شعبان سنة 587 هـ/ 10 أيلول 1191 م توجّه صلاح الدين إلى عسقلان مع قُوّاتِه، ومَرّ بطريقه على يُبْنَى، فاستراح هناك قليلاً ثم سار حتى وصل بلاد عسقلان بعد صلاة العَصْرِ، فخيَّم بعيداً من المدينة إلى الشمال منها:

«وبات هناك مهموماً بسبب خراب عسقلان، وما نام تلْك الليلة إلاّ قليلاً، ولقد دَعَاني إلى خدمته سَحَراً. . . وبدأ الحديث في معنى خَرَابها، وأحْضَر ولده الأفْضَل وشَاوَرَه في ذلك، وأنا في خدمتهما، وطال الحديث في المعنى، ولقد قال: **والله لأن أفْقِد أولادي كُلّهم أحَبّ إليّ من أن أهدم منها حجراً واحداً**، ولكن إذا قَضَى الله بذلك وعينه **لحفظ مصلحة المسلمين طريقاً، فكيف أصْنَع؟**»[3] .

وكانت هذه المَرّة الثانية أو الأولى التي يدخل فيها السلطان إلى المدينة المنيعة التي كانت قاعدة عمليات الصليبيين في حملاتهم ضدّ مصر قَبْل تولي أمورها وبعدُ، ولمواجهة حملاته المتكررة في بلاد الكرك والشوبك.

عسقلان[4] هي المدينة السّاحلية الوحيدة بين يافا وحدود مِصر التي تقع على البحر مباشرة وكانت عند وصول صلاح الدين إليها قد قاربت ربما نهاية الألف الرابع من عمرها وعمرانها، وقد وصفها المؤرخ الصليبي وليم الصوري عند استيلاء الصليبيين عليها أواخر سنة 1153 م وصفاً دقيقاً، كما وصف خرائبها

---

(1) المصدر نفسه، ص 551.

(2) المصدر نفسه، ص 500.

(3) النوادر، ص 186.

(4) لديّ دراسة قيد الإعداد للنشر عن مدينة عسقلان في أواخر الفترة الفاطمية، وفترة السيطرة الصليبيّة، واستعادة صلاح الدين لها، والتطورات التالية حتى خرابها النهائي.

فيما بعد الكثير من الباحثين الآثاريين كان بنڤنستي أكثرهم تدقيقاً في جمع كل المعلومات عن بقاياها.

وقد ذكرنا شيئاً من ذلك عند فتح صلاح الدين لها سنة 1187 م.

وكان السلطانُ قَدْ فَكَّر، أثناء تَرَدُّدِه في خرابها، في الإبقاء عليها وشحنها قدر الإمكان، لأنَّه كاتب قبل ذلك بقليل أمراء الأطراف حَاثّاً لهم على القُدوم إلى الميدان لمواجهة إصرار الصليبيين على إعادة المملكة وإحيائها من جديد، لكنّ أحداً من الأمراء لم يوافق على الدخول إليها وشحنها خوفاً من تكرار ما حدث من مَلِك الانجليز عند أسوار عَكّا. يذكر العماد مَرّة أخرى:

«لكنه [أي صلاح الدين] وَجَد كُل له متجنباً متجنباً، وقد راعتهم عَكّا وحِفْظها ثلاث سنين، وعادت بعد ذلك بمضرة المسلمين. وقال من تَعَلّل واعتذر عن دُخولها وَحل عَقْد عَزْمه عن حلولها: **تَدْخلها أنت أو أَحَدُ أولادك، فندخلها اتباعاً لمُرَادك**»[1].

لكن لمن يترك القيادة الميدانية إذا شحنها بنفسه وقُوّاته الخاصة، خاصّة وأنّه جَرّب تَصَرّف الأمراء لوحدهم في السابق فلم تكن النتيجة مجدية. وهل يترك ابنه الصغير وصاحب الخبرة المحدودة في مكان مثل هذا المكان الخطير. ولذلك كان القَرَار النهائي الذي اتخذه وهو يبكي بالبدء بعملية التخريب:

في سَحَرِ اليوم التالي لوصوله، استدعى صلاح الدين الأمير علم الدين قَيْصَر، أحد كِبار أمراء مماليكه، الذي كان يتولّى المدينة وبلادها مُنذ استعادتها، وأمره أن يبدأ بهدم الأسْوَار وإخراب المدينة كلها. وقَد قَدّم لنا ابن شَدّاد وصفاً مؤثراً للعملية وحال السُكّان الذين استقروا فيها منذ أربع سنوات فقط:

«ولقد رأيته وقد اجتاز بالسُّوقِ والوِطَاق بنفسه، يستنفر النّاس للخراب، وقَسّم السُّور على النّاس، وجعل لكُلّ أمير وطائفة من العسكر بَدَنَة [قطعة أو جزء] مَعْلُومَة.

---

(1) الفتح، ص 550.

ودخَل النّاس البَلَد ووقَع فيه الضجيج والبُكاء. وكان بلداً نظراً خفيفاً على القِلْب، محكم الأَسْوار، عظيم البناء، مرغوباً في سُكْنَاه، فلحق الناس عليه حُزن عظيم، وعظم عويل أهله وبُكاؤهم على مفارقة أوطانهم، وشرعوا في بيع ما لا يمكن حمله، وبِيعَ ما يُسَاوي عشرة دراهم بدرهم واحد، ورَمَى الناس أقمشتهم بالثمن البخسِ... واختبط البَلَدُ، وخَرج أهله إلى العسكر المنصور بذراريهم ونسائهم، خشية أنْ يهجم الفرنج البلد، وبذلوا في الكري أضْعَاف ما يُسَاوي: قَوم إلى مصر، وقوْم إلى الشام، وقوم يلبثون [في المعسكر] إذ لم يقع لهم كري. وجَرى أمُور عظيمة، وفتنة هائلة،... وكان هو بنفسه وولده الأفْضَل يستعملان النّاس في الخَرَاب...».

«... وأصبح يوم الجمعة (ثاني يوم)... على الإصرار من الخراب... وحَثّهم عليه... وأبَاحَهُم الهُرْي الذي كان ذخيرة في البلد للعجز عن نقله، وضيق الوقت، والخوف من هجوم الفرنج.

وأمر بحريق البَلَد، فأضرمت النار في بيوته وآدره، فاضطرمت النار فيه، ورفض أهله بواقي أقمشتهم للعجز عن نقلها... وأمَرَ بحشو أبراج البلد بالأخشاب، وأن تُحْرَق...»[1].

وقَرّب السلطان ثقله من المدينة حتى يتمكن الغلمان والحَمّالِون وغيرهم من المساعدة:

- «فَخْرّب من السّور معظمه، وكان عِظيم البناء بحيث أنه كان عرضُه في مواضع تِسْعَة أذرع، وفي مواضع عشرة أذرع، وذكر بَعْض الحَجّارين للسلطان... وأنا حاضر، أنّ عَرْض البرج الذي ينقبون فيه مقدار رُمح...»[1].

وهكذا انشغل الجانبان أحدهما بعمارة قاعدة عسكرية والثاني في خراب قاعدة أخرى ولكل هدفه الخاص من العمل الذي يقوم به.

---

(1) النوادر، ص 187 - 188.

واستَمرّ الخراب والحريق بإشراف السلطان حتى وصلت الأخبار إليه بأن الصليبيين في يافا بدأوا بالإغارة على المناطق القريبة منها؛ عند ذلك قرر تَرْك جزءٍ من قُواته لاستكمال بقيّة الخراب والتحريق (ليلة 2 رمضان/ 23 أيلول)، وسار في القسم الأكبر من القُوات مع الأثقال إلى يُبْنَى.

ووَصَلَت أخبار بدء الخراب في عسقلان إلى الملك ريتشارد في يافا، فأرْسَل سفينة فيها أحد أمراء رجاله ومعه جماعة للتأكد من ذلك، فعادت إليه بسرعة وأخبرت بصِحّة المعلومات التي وصَلَت إليه. عند ذلك عقد الملك مجلس مشورة لمناقشة موضوع التوجه إلى عسقلان لإنقاذها قبل استكمال هدمها أو التوجه إلى القُدْس ومحاصرتها. وكان رأي الملك التوجه إلى عسقلان، لكنّه وجد معارضة قَوِيّة من القُوّات الفرنسيّة التي تركها الملك فيليب معه، الذين طلبوا الانتهاء من عمارة يافا أولاً لتصبح قاعدة للحجاج القادمين من أوروبا. وأيَّدَت عَامّة الجماعات المشاركة في الحملة رأي الفرنسيين، فبدأ العمل بإعادة بناء الأبراج المتهدمة وتنظيف الخندق مما أدى إلى إقامة الملك و كل القُوّات الصليبية في يافا مُدّة سبعة أسابيع [1]، ممّا مكّن قوات صلاح الدين من تخريب القسم الأكبر من عسقلان.

وإذا كان السلطان قد ضَحَّى بخراب عسقلان المنيعة، فلم يعد هناك أهمية لديه في الإبقاء على التحصينات الأخرى في السهل الساحلي وحتى في بعض مواقع الهضبة. ففي يوم الأربعاء 3 رمضان (24 أيلول) أمر صلاح الدين بتخريب الرّملة وكنيسة لُد «وأباح فيهما الأهراء السلطانية»، ونَقَل سُكّانهما إلى الأماكن الآمنة في الجبال؛ وفي اليوم التالي سار مع قُوّة صغيرة من حرسه إلى القُدْس لتفقّد أحوال البلد وتحصيناته وعاد مُسْرِعاً إلى المعسكر (9 رمضان/ 30 أيول)، ثم أمر الجميع بالرحيل باتجاه القُدْس، فوصل إلى اللطرون وخَرّب الحصن الصغير، ثُمّ سار وعسكر في بيت نوبا [2]. أمّا الصليبيون في يافا فقد

(1) الحملة الثالثة، ص 97 - 98.

(2) النوادر، ص 189 - 191؛ الفتح، ص 551 - 552؛ الكامل، 12 ص 74.

أرسلوا فرقاً إلى برجين قريبين من يافا على الطريق إلى القدس، فأعادوا بناءهما، ووضعوا حامية مناسبة في يافا، وعاد الباقون إلى عكا [1].

واستمرت الغارات والمناوشات بين العسكرين حَتّى بداية فصل الشتاء [2]، حيث انتقل السلطان إلى القدس وأقام هذه المرة في داخلها في دار الأقساء المجاورة لكنيسة القيامة، ووصل إليه في أواخر ذي الحجة 587 (أواسط كانون الأول 1191 م) من الموصل خمسون رجلاً من المختصين بقطع الحجارة، ذلك أنّ السلطان قَرّر تحصين القُدس حتى يتمكن من الصمود في حال قيام الصليبيين بالتقدم نحوه للحصار. وقد ذكرنا في بداية الفصل كيف كان اهتمام السلطان بهذه الناحية، أما العماد فقد ذكر:

«. . . فإن السلطان شرع في تحصين القُدس وعمارة أبراجه وأسواره، وحَفْرِ خَنَادِقه، وأرسل إلى البلاد في جمع رجال هذه الأعمال، وتَقَبَّل الأمراء فيه العمل، وعمل فيه السلطان بنفسهِ بنقل الحجارة هو وأولاده وأمراؤه وأجناده، ومعهم القُضَاة والعلماء والولاة والأمراء» [3].

وجَرى في ذات الوقت مفاوضات مكثفة بين الجانبين من أجل عَقْد صلح بينهما لكنّها لم تؤد إلى نتيجة. وفي يوم الأحد 3 ذي الحِجّة (22 كانون أول)، قَرّر الملك ريتشارد، في أوج فَصْل الأمطار والبرد والوحول، والذي كان قَدْ وصل إلى منطقة اللطرون ، عقد اجتماع لمناقشة حصار القدس [4].

وعُقِد الاجتماع وبدأ المجلس بمناقشة خطّة الحصار، لكنّ الملك وجَد معارضَة شديدة من جماعات فُرسان الداويّة والاسبتاريّة وفئات أخرى من الصليبيين المحليين بحجّة أنّ تنفيذ عمليّة الحصار في هذا الوقت سيجعل من

---

(1) الحملة الثالثة، ص 100. وانظر النوادر، ص 191.

(2) النوادر، 193، 204 - 205؛ الفتح، ص 561 - 562. الكامل، 12 ص 73 - 74؛ الحملة الثالثة، ص 100 - 104.

(3) الروضتين، 2 ص 194. وانظر أيضاً ص 196.

(4) الحملة الثالثة، ص 104؛ الفتح، 562.

القُوّات الصليبيّة هدفاً سهلاً للمدافعين عن المدينة من داخلها ومن قوات صلاح الدين المنتشرة في المناطق القريبة، وأنّهم حتى لو تمكنوا من الاستيلاء على المدينة فإنهم سيحتاجون للمحافظة عليها إلى حامية كبيرة وهو أمر غير ممكن بسبب قلّة الرجال وأنهم مُرْهَقُون من العمليات العسكرية منذ خروجهم من عَكّا بعد السيطرة عليها، إضافة إلى الحاجة إلى حماية خطوط مواصلاتهم وتموينهم من السّاحل باستمرار[1] . لكنّ الملك لم يَسْتَمع بداية إلى نصيحة الدّاوِية وغيرهم، خاصة وأنّ الهدف الأساسي للحملة كان إعادة المملكة الصليبيّة إلى مقرها، حتى استولى المسلمون على قافلة إمدادات للقوات الصليبيّة من يافا في السهل. عند ذلك عَقَد الملك مجلساً ثانياً للمشورة، وتَقرّر في النهاية التخلي عن حصار القُدس والتوجه إلى عسقلان وإعادة بنائها وتحصينها لتصبح قاعدة جديدة للعمليات العسكرية في السهل الساحلي ومركز مراقبة على طريق إمدادات القُدس من مصر، وتَمّت الموافقة على هذه الخِطّة الجديدة التي قوبلت بنقمة من عامة الجُنْد الذين كانوا يتشَوّقون إلى الوفاء بحَجِّهم[2] .

وفي اليوم الأول من كانون الثاني 1192 رَحَلَت القوات الصليبيّة من اللطرون إلى الرّملة، وفي يوم التاسع عشر منه توجّهوا إلى عسقلان فوصلوها في اليوم التالي. وفي الطريق وقَعَت مناوشات بين القوات وبين الأميرين يازكوج وعلم الدين قيصر اللذين تركهما صلاح الدين في المنطقة لتسهيل نقل الغلال من مصر إلى القدس وغيرها من مُدن الهضبة[3] . ولم تَسْمَح الظروف المناخيّة في ذلك الوقت، ولا طبيعة ميناء عسقلان، على بدءِ عمليات البناء فيها مباشرة، فاضطروا إلى التخييم في تلك الظروف الصعبة حتى أواخر شهر شباط 1192 م[4] .

---

(1) الحملة الثالثة، ص 105 - 106؛ الكامل، 11 ص 74 - 75.
(2) الحملة الثالثة، ص 105 - 107.
(3) الفتح، ص 583؛ الكامل، 12 ص 78.
(4) الحملة الثالثة، ص 108.

في هذه الأثناء وقَعَت مشكلة داخِليّة في معسكر صلاح الدين، كان سَبَبُها وراثة البلاد التي توفي تقي الدين عُمَر وهو والٍ عليها. فقد توفي تقي الدين في 19 رمضان 587 هـ/ 28 أيلول 1191 م، وهو على حصار خلاط، وقد ذكرنا أنّ ذهابه إلى هناك مع قُوّاته أثناء حصار عكا كان له تأثير على قدرات صلاح الدين القتاليّة، كما أنّه منع وصول الإمدادات من الشرق لخوف الملوك والأمراء هناك من وجوده بينهم وأطماعه في السيطرة على بلادهم. وأدت وفاته إلى بروز مشكلة الوراثة كالعادة: فقد طلب ابنه بداية أن يتولى كُلّ البلاد التي يتولاّها والده في الشام وشرق الفرات، وذلك ليس من حَقّه إلاّ إذا أقَرّه السلطان على ذلك. لكنّ الأفْضَل ابن السلطان طلب من والده أن يمنحه كُلّ البلاد الخاضعة له شرق الفرات مقابل التخلي عن كل الولايات التي كانت بيده، فوافق السلطان، ورحل الأفضل من القدس في صَفَر 588 هـ/ شباط ـ آذار 1192 م. وعندما عرف ناصر الدين محمد بن تقي الدين بذلك، أرسل رَسُولاً إلى عَمّه العادل بالقدس راجياً منه التوسط لدى السلطان، واقترح أن يُعْطَى: إمّا حماة ومنبج وسلميّة والمعرة أو الرّها وحَرّان وسميساط، «مع كفالة إخوته». وبعد مراجعات بين العادل والأمراء من جهة والسلطان من جهة أخرى، تَرَدّد فيها القاضي ابن شدّاد بين الجانبين، لأنَ السلطان أولاً ثم غيّر رأيه. ويُعَلّق ابن شَدّاد:

«وأخذ من السلطان الغَيْظ كيف يُخاطب مثل ذلك من جانب بعض أولاد أولاده» (1).

وشغلت هذه القَضِيّة صلاح الدين، والملك العادل مستمرٌ في محاولاته، ثُمّ قَرّر تكليف ابن شداد في مشاورة أُمراء العادل بحضور الأخير في القضيّة، فجمعهم، وذكر المبعوث القضيّة التي أرسله السلطان من أجلها، فاتفق رأيهم، وكلّفوا أبو الهيجاء السمين بالجواب، فقال:

«نحن عبيده ومماليكه، وذاك صبي، وربّما حمله خوفه أن انضاف إلى جانب آخر، ونحن فما نقدر على الجمع بين قتال المسلمين والكُفّار،

---

(1) النوادر، ص 208. وانظر العماد في الروضتين، 2 ص 197.

فإن أَرَادنا نقاتل المسلمين صالح الكُفّار [وكانت المفاوضات مستمرة] وسرنا إلى ذلك الجانب، وقاتلناه بين يديه، وإن أراد منّا ملازمة الغُزَاة صالح المسلمين وسامحهم. وهذا كان جواب الجميع»(1).

ووافق السلطان عند ذلك على إعطاء ابن تقي الدين حَرّان والرها وسميساط «على أنّه إذا عبر الفرات أعطي المواضع التي اقترحها، ويكفل إخوته، ويتخلّى عن تلك المواضع التي تقع شرقي الفرات، ودخل تَحْتَ ضمان ذلك، وكفله الملك العادل»، وحلف السلطان على نسخة اليمين.

ومَرّة أخرى قَدّم صلاح الدين المصلحة العامة على مصلحته الخاصة وأولاده، لكن الأمر لم يقتصر عند هذا الحَدّ. فالملك العادل، الداهية السياسي الصَّبُور، طلب من السلطان أن يعطيه البلاد التي سيتخلى عنها ابن تقي الدين ويتنازل هو عَنْ كُلّ «ما هو شامي الفرات وما قطعها» أي كل المناطق التي لها حدود مع بقايا الصليبيين ما عدا: «الكرك والشوبك والصلت والبلقاء، وخَاصِّه بمصر بعد النزول عن [إقطاعه] خبزه، وعليه في كل سنة ستة آلاف غرارة غَلّة تُحمل إلى السلطان من الصلت والبلقاء إلى القدس. والمغل في السنة المذكورة في مواضعه له، ومغل قاطع الفرات للسلطان في هذه السنة أيضاً»(2).

وتَمّ الاتفاق ووُقِّع عليه، وغَادَر العادل إلى شرق الفرات في 8 جمادى الأولى 588 هـ/ 22 أيار 1192، في بداية تجدّد العمليات العسكريّة في الساحل الجنوبي من فلسطين، وعاد الأفضل ـ بأمر من والده ـ إلى الميدان.

وهكذا فإنّ قَضيّة الوراثة المتجددة باستمرار في التراث التركي ـ الكردي في تلك الفترة، كانت عامل ضَعْف في قدرة القيادة على مواجهة التحديات في الأوقات الحرجة وفي تفكيك الوحدة التي حَقّقَها صلاح الدين تدريجياً. وإضافة إلى ذلك فإن الطموح الشخصي لبعض أفراد الأسرة الأيوبية كان له دوره في هذا التفكك. فهل نستغرب بعد ذلك النكسات التي مني بها السلطان بالرغم من

(1) المصدر نفسه، ص 209.
(2) المصدر نفسه، ص 208 - 209. وانظر العماد في الروضتين، 2 ص 197.

الإِصْرَار والصبْر اللذين كان يتحلى بهما القائد. لكن الزمن يدور والرجال، بعض الرجال، يتغيرون أو يجدون الفرصة لإظهار ما يُضْمِرون.

واستَغَلّ الملك ريتشارد فترة الانشغال بهذه القضيّة الداخليّة، وتباطؤ القوات المساندة من الشرق في العودة، ومسير الأفضل إلى بلاد شرق الفرات، وقام بهجوم على الدّارُوم، آخر المعاقل التي سَلِمت من التخريب على الحدود بين فلسطين ومصر. وتَقَدّم الملك على رأس قُوّاته الخاصة عن طريق البَرّ، بينما حملَت السفن آلات الحصار الجاهزة والمفككة عن طريق البحر حيث أعيد نَصْبها حول الحصن الذي يبعد عدة كيلو مترات عن البحر والذي أعاد نُوّاب صلاح الدين إِحْكَام بنائه وترميمه. وتمكّنت قوات الملك، بمساعدة الحجّارين والنقّابين الحلبيين الذين أسروا في عَكّا، من دخول الحصن بعد أربعة أيام من الحصار، فقتلوا وأسروا بعض من كان فيه، والتجأ قِسْم إلى البُرج الكبير الحصين. وبدأت قُوّات الملك بحصار البرج، ولم يتمكن والي الدّاروم آنذاك، علم الدين قَيْصَر الذي كان غائباً عن مركز ولايته، من تقديم المُسَاعَدة والعون إلى المحاصرين الذين قُدّر عَدَهم بـ 300 رجل، فطلبوا مهلة حتى يشاوروا صلاح الدين، فرفض الملك ذلك، وشَدّد الحصار عليهم، ثم استولى على البرج بالقُوّة فقتل من قُتِل وأسر من أُسر. وفي أثناء ذلك وصل الفرنسيون والكونت هنري إلى الملك فسَلّم الحصن إلى الكونت الذي وضع فيه بعض رجاله حامية للمحافظة عليه وقطع الطريق بين مصر والقُدس[1].

وبعد الانتهاء من هذه التراتيب عاد الملك وكافة القُوّات التي التحقت به باتجاه الشمال، فَمرّوا بمدينة غَزّة الخربة، ثم نزلوا على وادي الحسي على مفترق الطرق المؤدية إلى عسقلان وبيت جبرين والحصون السهليّة الأخرى. في هذه الأثناء وَصَل إلى صلاح الدين دَلْدَرِم التركماني مع التركمان وعز الدين بن المُقَدّم مع عسكره، فأرسلهم السلطان مع بعض قُوّاته إلى الحسي لمقاتلة قوات الملك، لكن الأخير رَحَل مع الجميع إلى عسقلان[2].

---

(1) انظر النوادر، ص 210 - 211؛ الحملة الثالثة، ص 123 - 126 ؛ الفتح، ص 591.
(2) النوادر، ص 111؛ الحملة الثالثة، ص 126؛ الفتح، ص 591 - 592.

وفي أيار سنة 1192 م، وصلت إلى الملك ريتشارد في عسقلان أخبار من بلاده لم يرتح إليها، وتتعلق بما قام به أخوه أثناء غيابه؛ وفكر بالعودة إلى انجلترا، لكن هذه الفكرة لم تجد قبولاً لدى عامة القوات الصليبيّة التي كان يَقُودها، والذين صَمّمُوا التقدم نحوالقدس وحصارها. وقرر الملك، نتيجة هذه المعارضة، أنّه لن يترك الأراضي المُقَدّسة قبل عيد الفِصْح التالي حتى يتمكّن من الاستجابة لطلب القُوّات وطمأنتها. وفي 4 حزيران طلب الملك من جميع القُوّات الصليبيّة الاستعداد للتقَدّم إلى القُدّس وحصارها [1] والتي كان صلاح الدين لا يزال متمركزاً فيها ويقوم بزيادة تحصيناتهاوتجديد الخرب منها. وفي يوم 9 تموز وصلت قوات الملك إلى اللطرون، خيَّم في اليوم التالي في بيت نوبة التي لا تبعد عن القدس أكثر من عشرة كيلو مترات لانتظار وصول الكونت هنري الذي أرسل إلى عَكّا لإحضار مزيد من الإمدادات العسكرية والمؤن من أجل الحصار المتوقع [2].

ولم تتوقف العمليات العسكرية المحدودة بين الجانبين خاصة من جانب قُوّات صلاح الدين منذ حركة قُوات الملك من الدّاروم وحَتّى وصولها إلى بيت نوبة. كما تابع صلاح الدين إرسال الكتب إلى أصحاب المناطق التابعة له لدعمه بالقُوّات لمواجهة الحصار، واستعَدّت القوات حوالي القُدس لمواجهة قوات الملك، وقام رجالها بإفساد كل صهاريج المياه وجِبَابها ومصادر المياه حولها إلى عدة كيلو مترات في محيطها، «بحيث لم يبق حول القُدْس ما يُشْرَب أصلاً» [3].

ومن التطورات التي وقَعَت أثناء فترة تخييم الملك في بيت نوبة استعداداً للتقدم والحصار واستعداد صلاح الدين لمواجهة الهجوم، حادثان أثرا على معنويات الجانبين. ففي 12 حزيران 1192 استولت قوات صلاح الدين على

---

(1) الحملة الثالثة، ص 126 - 128.

(2) النوادر، ص 212؛ الحملة الثالثة، ص 129 - 130.

(3) النوادر، 10 - 215، الفتح، ص 592؛ الحملة الثالثة، ص 140 - 141.

قافلة تموين للصليبيين قادمة من يافا إلى بيت نوبة مِمّا أثار قضيّة حماية طريق الاتصال والتموين والقوافل من السّاحل إلى الجبل. ثُمّ قام الملك ريتشارد بالاستيلاء على قافلة كبيرة قادمة من مصر بعد الحادث الأول بقليل مما أثار الخوف لدى صلاح الدين وأمرائه على مَصِير القُدس في حال الحصار الشديد عليها [1].

وهكذا فقد كان الوَضْع العام في كلا المعسكرين غير مطمئن بصورة كافية للإقدام على عمل عسكري مباشر، فَعَقد كل واحد منهما مجلس مشورته للتداول فيما يجب اتخاذه من موقف نهائي يَضَعُ حداً لحالة الترقب والخوف التي سادت المعسكرين:

كان الصليبيون، قبل غارتهم الناجحة على القافلة القادمة من مصر قُربَ بيت جبرين، قد عقدوا مجلساً للمشورة رأسه الملك ريتشارد بصفته القائد الأعلى لكل القُوات في الميدان، وضَمّ الأمراء وقادة جماعات الفرسان ورجال الدين، للتداول حول فكرة رئيسية واحدة هي: التقدم لحصار القُدْس مهما كانت النتائج أم لا؟ وكان موقف ممثلي القوات الفرنسيّة، كما كان في المرة السابقة، مع الحصار حتى النجاح وإكمال الحجّ الذي جاءوا من أجله. أمّا الملك فقد مال إلى تَرْك الحصار في الظروف الموضوعيّة الميدانية المتوافرة والتوجه بحملة كبيرة إلى مصر أو بيروت أو حَتّى إلى دمشق. وكانت حُجة الملك أنّ صلاح الدين كان يُعْرف معرفة جيدة سوء الأحوال في المعسكر الصليبيّ ومقدار قُوَّتهم بدقة، وبقدرة فرقه الصغيرة المنتشرة على قطع طريق المواصلات بين السّاحل والقُدْس، وما ستؤدي إليه تلك العقبات من زيادة سوء أحوال المعسكر في بيت نوبة، يضاف إلى ذلك حصانَة أسوار القدس التي طلب الملك، كما يذكر ابن الأثير، **إحضار مخطط لها** [2] للتأكد من ذلك، وعدم كفاية القوات

---

(1) للتفاصيل انظر النوادر، ص 212 - 215؛ الفتح، ص 594؛ الحملة الثالثة، ص 131 - 132؛ 135 - 139.

(2) الكامل، 12 ص 75.

المتوافرة لإحكام الحصار حولها بصورة مناسبة، وأنّ الصليبيين البحريين (القادمين من أوروبا) لا يعرفون طبيعة الأرض التي تحيط بالمدينة وتضاريسها بصورة مناسبة. لكنّ كل هذه المبررات لم تقنع عامة الجُنْد الفرنسيين وأصَرّوا على موقفهم المذكور من متابعة التقدّم والحصار. عند ذلك اقترح الملك التوصية باختيار **لجنة** من 20 **شخصيّة تحظى بالثقة** يمثّلُ فيها **كُلٌ من الداويّة والاسبتاريّة والقوات الفرنسيّة** وبقايا الصليبيين المحليين لدراسة القَضِيّة بالتفصيل واتخاذ قرار مناسب فيها يلتزم الجميع به مهما كان هذا القرار. ووافق المجلس على القرار، وتشكلت اللجنة وعَقَدت اجتماعها، وتوصلت إلى القرار التالي: **التخلي عن حصار القُدس والتوجه إلى القاهرة وحصارها**[1] . لكنّ الفرنسيين لم يقبلوا بالقرار الملزم، وأصَرّوا على حصار القدس، مما دَفَع الملك ريتشارد إلى التَمَهّل في تنفيذ قَرَار اللجنة حتى يفتر الحماس، وقام بالحملة التي ذكرنا على القافلة عند بيت جبرين وألهى الجُنْد بالغنائم الوفيرة التي حصلوا عليها والمؤن الكثيرة.

وفي أوائل تموز، قَرّر الملك، المتسلح بقرار اللجنة، الرحيل من بيت نُوبة إلى السّاحل بسبب الظروف التي ذكرت سابقاً، خاصة قلة المياه حول القُدس وزيادة الحَرّ في ذلك الوقت مما أدّى إلى تَذَمُّر شديد بين عامة القُوات الصليبيّة؛ ومع ذلك فقد أخذوا في الرّحيل بمجموعات منفصلة عن بعضها مما جعل منها هدفاً سهلاً لهجمات فرق طليعة صلاح الدين المنتشرة في المنطقة[2] .

هذا ما كان في المعسكر الصليبيّ، فماذا كان الموقف في معسكر الصلاحي في القُدْس؟ .

---

(1) **الحملة الثالثة**، ص 133 - 135. ويذكر ابن شداد تشكيل اللجنة وقرارها، لكنه يختلف عن صاحب الحملة الثالثة في عدد أفراد اللجنة وكيفية الوصول للقرار: للتحكيم يختار 300، ثم يختارون 12 ثم 3 من 12. ويدل ذلك على قُوّة استخبارات قوات صلاح الدين.

(2) **النوادر**، ص 217؛ **الحملة الثالثة**، ص 145 - 142؛ **الفتح**، ص 597. وانظر **الروضتين**، 2 ص 199.

عقد مجلس مشورة صلاح الدين قبل يومين من رحيل الملك ومن معه من قُوّات من بيت نوبة [الخميس 19 جمادى الآخرة 588 هـ/ 2 تموز 1192 م)، وضَمّ جميع أمراء المماليك والأكراد ورجال الدولة خاصة قاضي العسكر ابن شَدّاد الذي حَلّ مَحَلّ القاضي الفاضل كمستشار أول للسلطان (1). وبعد مداولات مطولة تَمَّ الاتفاق على القتال والصّبْر مهما كَلّف الأمر. وبَعْد نهاية الاجتماع الطويل غَيّر أُمَراء المماليك الأتراك رأيهم، وأخبروا السلطان بذلك الموقف الجديد مساءَ نَفْس اليوم. ويذكر ابن شَدّاد أنه عندما اجتمع مساء ذلك اليوم بالسلطان منفرداً، روى له صلاح الدين ما تَجَدّد من موقف الأمراء:

«أنّه اجتمع عنده [أبو الهيجاء السمين]، وجماعة المماليك والأمراء، وانكروا [كبار الأمراء] علينا موافقتنا على الحصار والتأهب له، وقالوا: **لا مصلحة في ذلك، فإنّا نَخَافُ أنْ نَخْسَرَ ويجري علينا ما جرى على أهل عَكّا، [عُقْدَة عَكّا مَرّة أخرى!]، وعند ذلك تُؤخذ بلاد الإسلام أجمع والرأي أنْ نَلْقَى [الصليبيين] مَصَافاً، فإن قَدّر الله أنْ نهزمهم ملكنا بقيّة بلادهم، وإن تكن الأخْرى سلم العسكر، ومَضَى القُدس؛ وقد انخفضت بلاد الإسلام بعساكرها مُدّة بغير القُدْس»** (2).

ولم ينم صلاح الدين تلْك الليلة من شِدّة الهَمّ بسبب ما وصل إليه من خبر رأي مماليكه حتى وصلته الأخبار مساء يوم الجمعة من مُقَدّم الطلائع التي تراقب قوات الملك ريتشارد برحيل الملك ومن معه إلى خيامِهم في المعسكر الرئيسي، ثم رحيلهم في اليوم التالي باتجاه السّاحل (3).

لم تنته العمليات العسكرية بين الجانبين برحيل قوات الصليبيين إلى السّاحل، ذلك أن المفاوضات التي جَرَت قبل الحملة الأخيرة على القُدْس لم

(1) منذ حصار عكا لا نجد إلاّ معلومات نادرة عن القاضي الفاضل المعارض لخراب البلدان، ولذلك اعتمد السلطان على ابن شدّاد، قاضي عسكره الأكثر مرونة وعملية من الفاضل العنيد والقوي الحُجّة.

(2) النوادر، ص 216 - 217.

(3) المصدر نفسه، ص 217 - 218.

تؤد إلى نتيجة كما سنرى في الفصل التالي. ولذلك فقد توجه الملك ريتشارد، بعد عودته إلى السّاحل نحو بيروت، التي كانت إحدى الخيارات المطروحة في مجلس المشورة كما ذكرنا. لكنّ العماد يذكر أنّ هدف هذه الحملة كان دَفْعَ صلاح الدين إلى مغادرة منطقة القدس بقواته لمساعدة بيروت فيقوم بقية الصليبيين في عسقلان ويافا بالتوجه إلى القُدْس والسيطرة عليها [1]. ومهما كان هدف الحملة على بيروت فإنّ رَدّ السلطان على هذه الحملة أظهر ضَعْفَ الموقف الصليبي في كل السّاحل الجنوبي ما عدا عَكّا. فبينما كان ريتشارد في طريقه في البحر إلى بيروت كان صلاح الدين قدم تَقَدّم إلى يافا وحاصرها (27 تموز) واستولى على المدينة، وحاصر القلعة الحصينة، وتوصل إلى اتفاق مع حاميتها على التسليم حسب شروط محددة. وعندما عرف ريتشارد بهذه التطورات عاد مسرعاً إلى يافا فوصَل إليها قبل الانتهاء من عمليّة التسليم، وتمكن من هزيمة قُوّات صلاح الدين وإبعادها عن المدينة، وبدأ مباشرة بإعادة بناء ما خرب من الأسوار وتحصينها من جديد [2]. وهكذا عاد الوضع بين المعسكرين إلى حالته السابقة.

وكان لسلوك مماليك صلاح الدين في مدينة يافا بعد احتلالها القصير واستئثارهم بالغنائم إلى نقمة الفئات الأخرى في جيشه، وإلى تَقَاعُسِها بعد ذلك وعدم قيامها بواجبها المناسب في القتال الذي وقع بينها وبين قوات الملك عنْدَ منزلة العوجاء بعد وقت قصير ممّا وقع في يافا [3]. وعندما يصل الأمر إلى هذا الحَدّ من عدم تمكن القائد من السيطرة على حرسه الخاص، فمعنى ذلك أنّ طول المرابطة في الميدان قد أثر إلى درجة كبيرة على معنويات الجميع بما في ذلك القائد الصبور نفسه.

ومرض ملك الانجليز بعد عودته إلى يافا، فصمم الرجوع إلى عَكّا للراحة

---

(1) الفتح، ص 597؛ النوادر، ص 222؛ الحملة الثالثة، ص 143.

(2) النوادر، ص 222 - 227؛ الحملة الثالثة، ص 143 - 149؛ الفتح، 598 - 599، 601 - 602 (من رسالة له).

(3) النوادر، ص 229؛ الحملة الثالثة، ص 149 - 155.

خاصة بعد رحيل القُوات الفرنسية من الميدان إلى عكا، ثم عودتها إلى بلادها. لكنّ بقيّة القوات في معسكر الملك عارضت الرحيل إلى عَكّا. عند ذلك قَرّر الملك الإسراع في المفاوضات مع صلاح الدين والتوصل إلى عقد هدنة معه، فتجدّدت المفاوضات التي انتهت بتوقيع ما عرف واشتهر بـ «صلح الرملة». والمفاوضات التي جرت من بداية الاتصال بين الجانبين، في ذات الوقت الذي جرَت فيه العمليات العسكرية السابقة، وشروط الهدنة ـ الصلح الذي عقد بين الجانبين هو موضوع الفصل التالي من هذه الدراسة.

17 المفاوضات وصُلح الرملة

«إنَّك إن أرَدْتَنا فتكون مَعَنا [في داخل القُدس] أو بَعْضُ أهلك، حتى نجتمع عنده، وإلاّ فالأكراد لا يدينون للأتراك، والأتراك لا يدينون للأكراد، وكان [صلاح الدين] تحدثه نفسه بالمقام [في داخل القُدْس] ثُمّ منعه رأيه عنه، لما فيه من خَطَر الإسلام». النوادر ص 217 من رسالة الأمراء إلى السلطان عند تهديد الصليبيين بحصار القدس.

«القُدْس لنا كما هو لكم [من حيث القيمة الدينيّة]، وهو عندنا أعظم مِمّا هو عندكم، فإنّه مَسْرى نَبِيّنا ومجتمع الملائكة، فلا يُتَصَوّر أن ننزل عنه، ولا نَقْدِرُ على التّلَفُظ بذلك بين المسلمين؛ وأمّا البلاد فهي لنا أيضاً في الأصل، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها، لضَعْف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت...» النوادر، ص 194 من قولٍ لصلاح الدين في الردّ على أحد اقتراحات الملك ريتشارد أثناء المفاوضات.

في حالة الحرب الدائمة بين الممالك والإمارات الإسلامية والإمارات والمملكة الصليبيّة التي زرعتها أوروبا في بلاد الشامِ، كان لا بدّ منذ بداية إنشاء المملكة والإمارات الغريبة من قيام بعض الأعراف والتقاليد والقواعد التي حَكَمت العلاقات بين الجانبين في حالة الحرب وحالة السّلْم المؤقت الذي كان يُعْقَد بينهما. ومن أبرز تلك الأعراف والتقاليد ما يتعلق بالحرب الميدانيّة، وحالات الحصار الكثيرة، والهُدَن المؤقتة والشروط التي تُضَاف إليها.

كانت الحرب الميدانية تَتَمثل على الأغلب بالغارات والمناوشات التي يَقَع

فيها مَصَافّ أو قتال مواجهة كبير في بعض الأحيان والذي كان الجانبان لا يستطيعان تجنبه، لكنّ أكثر الحالات كانت غارات أو مناوشات محدودة الغاية والنتائج أيضاً.

وفي حالة الغارات والمناوشات، كان يقع القتل والأسر على المدنيين على الأغلب وبعض الجند في حال المناوشات، والخراب والإحراق والاستيلاء على الغلاَت والمواشي والخيول، وكُلّها مواد استراتيجيّة مهمة في الحرب، تفيد من يقوم بها أو يستولي عليها وتضعف الجانب الآخر بحرمانه منها أو بإفساده وإحراقه لها، إضافة لما تُحْدِثه من تأثير في معنويات الناس المنتجين الذين يزودون العساكر بمثل هذه المواد الأساسيّة. لكنّ الناس تكيّفوا مع حالة الحرب المتواصلة وابتدعوا أساليب تؤمن أنفسهم قدر الإمكان، وتؤمن محاصيلهم ومواشيهم أيضاً إلاّ في بعض الحالات المفاجئة أو في الحالات التي لم تكن المحاصيل قد نَضَجت بعد.

أما عندما كان يحدث مصاف ميداني فإن الأحكام التي تَسُود هي أحكام «قانون الحرب»، والذي يعتمد تطبيقه على نتيجة المصاف من تعادل أو هزيمة أو انتصار. وفي حال الانتصار يقع القتل والأسر، خاصة للأمراء والمقدمين الذين لا يُضحّى بقتلهم من أجل تبادل الأسرى أو الفداء بالأموال الكثيرة. والأمثلة على ذلك كثيرة طول فترة الحروب بين الجانبين.

وكانت حالات الحصار من أكثر حالات الحرب انتشاراً في الفترة المدروسة، وكانت تقاليدها وقواعدها أكثر تحديداً من غيرها. فإذا حوصرت مدينة أو قلعة أو حصن أو برج، فإنها تندرج ضمن قاعدتين: الاستيلاء عليها بالقُوّة أوَ الاستسلام بأمان وشروط. فإذا استولى المُحَاصِرُ على أي منها بالقوة، فإنها كانت تستباح للجند فيقتل من يقتل، ويؤسر من يؤسر ويُسْبَى من يُسْبَى من النساء والأطفال، ويُغْنَم كل ما في المدينة من قبل الفاتحين، فهذا هو «قانون الحرب» في العصور الوسطى، قانون القوة. أمّا إذا طال الحِصَار بعض الوقت ولم تصل إمدادات لفَكّ الحصار وقتال المُحاصِرين، فعند ذلك كانت حامية المدينة وأهلها أمام أمرين: إمّا الاستمرار حتى النهاية إلى أن تصل الإمدادات

غير المؤكدة أو اقتحام المدينة والاستيلاء عليها بقُوّة السلاح، أو طلب المهلة المحددة، وهي عشرة أيام في العادة، على أمل وصول الإمدادات، والتسليم بأمان بعد انتهائها. فإذا وصلت الإمدادات العسكرية قبل نهاية المدة فإن على المحاصِرين إما الثبات وقتال من في الحصن والإمدادات أو الانسحاب طلباً لمواجهة ميدانية مع الإمدادات أو التراجع بعيداً إلى حيث الأمان. أمّا إذا لم تصل الإمدادات في الوقت المحدد فإن الحامية وسُكّان المدينة أو القلعة يُسَلّمون المكان بأمان على أنفسهم وأموالهم الشخصيّة ويخرجون ويُوّصلون بخفارة إلى حيث مأمنهم، ويتركون وراءهم كل المواد العسكرية والاستراتيجيّة في المدينة أو القلعة أو الحصن. وقد تَعَرّفنا فيما تَقَدّم على الكثير من الحالات التي جرى فيها التسليم حسب هذه القاعدة.

ولم يكن الجانبان، الإسلامي والصليبي، قادرين بشرياً ومادياً على البقاء في الميدان والحصار والغارات بصورة دائمة. وظهر في البدايات الأولى لتأسيس الإمارات والمملكة الصليبيّة تقاليد إجراء مفاوضات بين الجانبين في حالة عدم قدرة أي منهما على حَسْم الموقف لصالحه، وللخراب والدمار الذي يَحِلّ بالأرض المنتجة التي يعتمد عليها الجانبان في حياتهما. ومن هنا نشأ التقليد وناسب الجانبين الذي كان كل منهما يعتبر الآخر «دار حرب» عليه أن يقضي على قوته ويستولي على بلاده. وتَمثل هذا التقليد **بالهدن المؤقتة المحددة** بزمن معلوم، كان يطلق عليها أحياناً لفظ «الصلح، تتوقف العمليات العسكرية أثناءها بين الجانبين المتعاقدين فقط ومن ينضوي شرعياً تحت سلطتهما، وعند انتهاء المدة المحددة تعود حالة الحرب بينهما، لكن كان يمكن تجديدها حسب الشروط السابقة أو تعديلها إذا وافق الطرفان على ذلك.

وكان شرط أن الهدنة **مؤقتة** من جانب الإمارات والممالك الإسلاميّة، فأوجد الصليبيون شرطاً مقابلاً هو «**تعليق**» الهدنة أثناء فترتها. فالهدن في عرف الفقهاء المسلمين تُعْقَد إذا كانت مصلحة الدولة والأمة الإسلاميّة تقتضي ذلك؛ ولذلك فهي لا تكون دائمة ولكنها محددة بوقت يقرره الإمام أو من ينوب عنه ولمُدّة لا تزيد عن مُدّة صُلْح الحديبية بحال من الأحوال. وحتى هذا لم يطبق

في فترة قُوّة الخلافة إذ كانت الهدن تقتصر على فترة جمع الأسرى وتبادلهم ولا تتعدى الأشهر المحددة الكافية للقيام بذلك. أمّا شرط التعليق الذي وضعه الصليبيون فهو أنّه إذا قَدِم من أوروبا أمير كبير أو ملك مُتَوّج للقيام بعمليات عسكريّة ضِدّ الإمارات الإسلاميّة، فإن الهدنة خلال مُدّة وجوده في المنطقة تعتبر مُعَلّقة إلى حين عودته؛ فإذا عاد تعود شروط الهدنة كما كانت.

وكان يرفق بالهدن أغلب الأحيان شرط (أو شروط) لا تنقض بانتهاء فترة الهدنة، لأن بقاء هذه الشروط كان في مصلحة الجانبين. وأبرز هذه الشروط هو شرط **المقاسمة** الذي يتعلق بمناطق الحدود بين الجانبين والتي لم يستطع أحد منهما أن يثبت سلطته فيه بصورة دائمة وكانت غَلّات هذه المناطق تُقْسَم بين الإمارات الإسلاميّة والإمارات (والمملكة) الصليبيّة وبين الفلّاحين الذين يزرعونها ويستغلونها. وقد تَحَدّث الرحّالة المعاصر ابن جبير عن هذا الشرط، فقال:

«... وعِمَالة تلك البطحاء [بين بانياس وهونين] بين الإفرنج والمسلمين، لهم في ذلك حَدٌ يُعرف بحدِ **المقاسمة**، فهم يتشاطرون الغَلّة على استواء، ومواشيهم مختلطة، ولا حيف يجري بينهما فيها»[1].

وكان آخر الهدن أو «الصلح» التي تَمّت في عهد صلاح الدين هو الهدنة التي وقّعَها مع ريتشارد ملك انجلترا التي أنهت العمليات العسكرية بينهما وبين المسلمين والصليبيين مؤقتاً ولمدة ثلاث سنوات، والتي كانت نتيجة مفاوضات طويلة بين الجانبين ابتدأت بعد تسليم عكا بأيام قليلة واستمرت متقطعة حتى تم الاتفاق النهائي، ومَرّت بتطورات عكست الموقف العسكري الميداني لكل منهما أثناء الفترة التي عالجنا في الفصل السابق.

بدأت الاتصالات الأولى بين الجانبين بعد خروج الصليبيين من عَكّا باتجاه ساحل فلسطين الجنوبي بأسبوعين تقريباً. وتمثل المفاوضات الممتدة بينهما نموذجاً مناسباً للدبلوماسيّة الإسلاميّة والصليبيّة في العصور الوسطى،

(1) الرحلة، ص 273.

وإنّها جَرت في ظروف استمرار العمليات العسكرية والضغوط الداخليّة التي وقع الجانبان فيها والتي كان أثر في سير عملية المفاوضات. ونستطيع من تتبع الاتصالات الأوليّة والمفاوضات التفصيلية تتبع الحالة العسكرية ومعنويات كل من الطرفين، وأثر ظروف كل منهما في معنوياته وموقفه التفاوضي خاصة صَبْر صلاح الدين ومثابرته رغم الظروف غير المؤاتية التي رافقت عملياته الميدانية منذ استسلام عكا ومذبحة الأسرى فيها. ومن ناحية أخرى نستطيع من متابعة تطور المفاوضات من قبل الممثلين تتبع محاولات كل جانب استغلال أوضاع وظروف الجانب الآخر ـ التي كانت معروفة لكل منهما ـ في التصَلّب أو التساهل في الشروط. وكان من أبرز الأمثلة على ذلك محاولة صلاح الدين ومفاوضيه استغلال الخلاف بين المركيز كونراد صاحب صور وملك انجلترا، الذي كان القائد العام للقوات الصليبيّة، إلى الدرجة الممكنة.

تَمّ أول اتصال بين الجانبين في بداية شهر أيلول 1191 بعد معركة أرسوف، عندما كانا مخيّمين عند نهر القَصَب الذي يفصل بين بلاد أرسوف وبلاد يافا. وكان المعسكر الصلاحي عند قرية دير الراهب قرب غابة أرسوف والمعسكر الصليبي قُرب مصب النهر[1]. وأرسل الملك ريتشارد مبعوثاً إلى مُقَدّم نوبة كشّافة السلطان في ذلك اليوم، الأمير سليمان بن جَنْدَر، لتبليغه رغبة الملك في التحدث مع الملك العادل حول الصلح، فأخبر سليمان الملك العادل بسرعة برغبة الملك هذه، واستأذن الأخير بدوره من السلطان في «الحديث» فأذن له. عند ذلك انتقل العادل من موقعه في المخيّم إلى حيث كان موقع مُقَدّم دورية الكشَافة، وبات تلك الليلة هناك حتى يتم الاتصال في الحال مع الرسل الذين أوفدهم الملك للتفاوض.

وجَرَى الحديث الأول بين الجانبين في تلك الليلة (5 أيلول)، وعَرَض رُسل الملك مضمون ما كَلّفهم سيدهم به، فبعث العادل فَحوى الحديث إلى السلطان. وقد لخّص ابن شَدّاد محتوى الحديث بالتالي:

---

(1) النوادر، ص 180 - 181؛ الحملة الثالثة، ص 84.

«إنّا قد طال بيننها القتال، وأنّه قتل من الجانبين الرجال الأبطال، وإنا نحن جئنا لنُصْرَة فرنج السّاحل [المحليين من بقايا المملكة]، فاصطلحوا أنتم وهم، وكُلٌ مِنّا يرجع إلى مكانه»[1] .

كان هدف الملك اختبار النوايا والاستعداد لدى صلاح الدين، لكنّ الأخير حاول الاستفادة من الحديث للمطاولة وتأخير حركة الصليبيين نحو يافا حتى تَصِل بعض الإمدادات العسكرية الموعودة، فأجاب العادل:

«إن قَدِرت أن تطاول الفرنج في الحديث، فلَعَلّهم يقومون اليوم حتى يلحقنا التركمان، فإنهم قد قربوا مِنّا»[2] .

وفي اليوم التالي (الخميس) اجتمع الملك العادل مع الملك ريتشارد اجتماعاً منفرداً لم يحضره أحد من وفديهما وأصحابهما غير المترجم بينهما وهو ابن هنفري الذي كان يَعْرِف اللغة العربيّة جيداً. وكرر الملك الانجليزي في هذا الاجتماع فكرة عقد صُلْح بين الجانبين دون تحديد للشروط. فَرَدّ الملك العادل عليه:

«أنتم تطلبون الصُلْح، ولا تذكرون مطلوبكم فيه، حتى أَتَوَسَط أنا الحال مع السلطان».

فأجابه الملك وحدد الشرط الأساسي الذي يعتبر أساس المفاوضات والصلح:

«القاعدة أنْ تَعُود البلاد كُلّها إلينا [إلى الصليبيين] وتَنْصَرِفون إلى بلادكم».

ولا يذكر ابن شداد رَدّ الملك العادل على هذه الإهانة في أول لقاءٍ رسمي سوى:

---

(1) النوادر، ص 182.

(2) المصدر نفسه، ص 182؛ الفتح، ص 542.

«أخشن له في الجواب، وجَرَت منافرة اقتضت أنّهم [المعسكر الصليبي] رحلوا بَعْد انفصالهما» [1] [أي انتهاء الاجتماع].

وهكذا فإن الملك اعتقد بأن الانتصار التكتيكي الذي أحرزه في أرسوف سوف يدفع صلاح الدين إلى التخلي عن كل فلسطين والمناطق الأخرى بسهولة، كما أنّ محاولة صلاح الدين في تأخير حركة الصليبيين قد فشلت أيضاً، لكنه عرف صَلَف خصمه.

وجَرى الاتصال الثاني بَعْدَما توجه صلاح الدين على رأس القسم الأكبر من القُوّات إلى عسقلان لهدمها وتخريبها كلياً، وترك العادل مع عدد من الأمراء في مواجهة الصليبيين في يافا. فقد بعث العادل رسولاً إلى أخيه في عسقلان يُعلِمه أنّ ابن الهنفري قَدِم إليه في المعسكر، وتَحَدّث معه في عقد صلح بين الجانبين، وأنّ مطالب الصليبيين تنحصر هذه المَرّة بـ «جميع البلاد السّاحليّة»[2] وليس كل البلاد التي كانت تحت سيطرتهم زمن الملك بلدوين قبل معركة حطين.

وَصَل الرسول بالخبر إلى صلاح الدين في أسوأ حالاته النفسيّة التي نتجت عن الأمر بخراب عسقلان، ووضع العسكر الذي كان ضجراً من طول البقاء في ميدان القتال، وتراكم الديون عليهم، وقِلّة المؤن والذخائر، فوافق على الاقتراح لأنّه رأى فيه مصلحة لعامة المسلمين، وكتَبَ إلى العادل بمتابعة المفاوضات:

«وفَوَّضَ أمْر ذلك إلى رأيه» [3] دون مشورة أحد.

ثم وَصَل رَسُول آخر من العادل إلى صلاح الدين يخبره أنّ الصليبيين قد بدأوا بعمارة يافا، وذلك أمر يدل، عادة، على أن النيّة في الصلح لديهم غير متوفرة، وهنالك فرق بين أن تبقى يافا خربة وبين عمارتها واتخاذها قاعدة. فَرَدّ صلاح الدين على أخيه:

(1) النوادر، ص 182.
(2) النوادر، ص 187.
(3) المصدر نفسه، ص 187 - 188.

«سَوّف القوم، وطَوّل الحديث معهم لعلنا نتمكن من خَراب البَلَد [عسقلان]»[1]، لئلا تنتهي حالة الحرب قبل الانتهاء من تسوية عسقلان بالأرض، وبالتالي يتسلمونها عامرة ويتمركزون فيها ويتخذونها قاعدة للعمليات العسكريّة كما كانت في السابق.

ويبدو أنّ إعادة إعمار يافا من جانب، وإخراب عسقلان من قبل الطرف الثاني أدى إلى تَوَقُّف المفاوضات، أو «تجميدها». لكن حَصَل عُنْصر جديد عليها إذ دخل طرف آخر من الجانب الصليبي، يمثّل قسماً من الصليبيين المحليين ومؤيديهم، هو المركيز كونراد صاحب صُور الذي بعث (في أوائل رمضان 587 هـ/ أواخر أيلول 1191 م) رسولاً إلى معسكر السلطان قرب اللد، عارضا عَقْدَ صلح منفرد مع صلاح الدين، واشترط:

«أنْ يُعْطَى صيدا وبيروت، على أن يجاهر [يعلن] **العدو** [الصليبيون الأوروبيون] **العداوة، ويقصد عكا ويُحَاصرها ويأخذها منهم، واشترط أن يبذل له السلطان. . اليمين على ذلك ابتداءً»** [2].

ووافق صلاح الدين مبدئياً إلى الإجابة على المطالب التي اقترحها صاحب صور **«القَصْد فصله عنهم»**، فَسَيّر مع الرسول المعروف بالعدل النجيب مندوباً عنه للتفاوض معه، وتوجه المبعوث مع الرّسُل إلى صُور في 12 رمضان/ 3 تشرين الأول، ومعه تعليمات واضحة من السلطان في الجواب:

«اشترط عليه [المركيز] **أنْ يبدأ بمجاهرة** [أ ص: بمحاصرة] **القوم، وحصار عَكّا وأخذها، وإطلاق من بها وبصور من الأسارى،** وعند ذلك يُسَلّم الموضعان [بيروت وصيدا]» [2].

فاليمين والوفاء يَتِم بعد الإنجاز وليس بالنية فقط.

(1) المصدر نفسه، ص 187-188.

(2) المصدر نفسه، 190.

وبدأ صلاح الدين المفاوضات مع الجانبين كسباً للوقت وفي أسوأ الأحوال الحصول على أفضل الشروط في ضوء المعطيات الميدانية لديه.

وفي نفس اليوم الذي غادَر فيه رُسل صاحب صُور معسكر السلطان مع ممثله، وَصَل رَسُول الملك ريتشارد مساءً إلى الملك العادل طالباً استئناف المُفَاوضات، أو كما ذكر ابن شداد: «تحريك سلسلة الحديث في الصُلْح»[1]، خاصة وأنّ السلطان قَدْ فَوّض إليه أمْر إجراء المفاوضات والصلح كلياً، والرجوع إليه عند الحاجة فقط.

وتَرَدّدت الرُّسُل بين الملك العادل وبين الملك ريتشارد، ثُمّ أرسل الأخير وفداً من عشرة أشخاص إلى العادل «فأخبروه بأخبار طَيِّبة» لا نعرف محتواها، فكتب إلى صلاح الدين الذي نَقَل مخيّمه من ظاهر القُدْس إلى اللطرون كي يكون قريباً من العادل، وذلك يوم 17 رمضان/ 8 تشرين أول. وكان من الأخبار التي حملها الرُّسل موت ملك فرنسا في أنطاكيّة، وأنّ الملك ريتشارد قد عاد إلى عَكّا بسبب ما عَرَضَه المركيز على السلطان في المكاتبات التي جَرَت بينهما، ولمنع تنفيذ ما اتفق صاحب صور عليه مع السلطان[2].

وفي يوم الجمعة 26 رمضان 587 هـ/ 17 تشرين أول 1191 م، بعث الملك ريتشارد إلى الملك العادل، الذي كان يقود قُوّات الكشّافة في ذلك اليوم، يطلب منه إرسال موفد من قبله للبحث في استئناف المفاوضات وتحديد شروطها، فبعث العادل كاتبه الذي اجتمع بالملك، ومشيا معاً مُدّة يتحدثان في مواضيع تتَعلّق بالصُلْح وشروطه. ويذكر ابن شَدّاد على لسان الملك ريتشارد قَوْله للكاتب:

«لا أرجع عن كلام تَحَدّثت به مع أخي وصديقي [العادل]. . .».

وعاد الرسول إلى الملك العادل، ونَقَل إليه فحوى كلام الملك، فكتب

---

(1) النوادر، ص 190.

(2) المصدر نفسه، ص 191.

هذا بدوره «رُقْعَة» إلى صلاح الدين، فوصلت إليه عَصْرَ ذلك اليوم. وتَضَمّن الكتاب أو الرقعة موقف الملك ريتشارد الجديد من الصُلْح:

«إنّك تُسَلّم عليه [صلاح الدين]، وتقول له: إنّ المسلمين والفرنج قَدْ هلكوا، وخربت البلاد، وخرجت من يد الفريقين بالكُلّية، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين، وقد أخذ هذا الأمر حَقّه، **وليس هنالك حديث سِوى القُدْس، والصليب، والبلاد. والقُدْس فمتعبدنا ما ننزل عنه ولو لم يبق مِنّا واحد؛ وأمّا البلاد فيعاد إلينا منها ما هو قاطع الأردن** [أي بلاد الكرك والشوبك من الموجب شمالاً إلى جزيرة فرعون جنوباً]؛ **وأمّا الصليب فهو خشبة لا مقدار لها عندكم، وهو عندنا عظيم فَيَمَنّ به السلطان علينا، ونستريح من هذا العناء الدائم»** [1].

[لاحظ هنا **الأولويات** في آخر الكلام: القدس، البلاد، إضافة إلى الساحل، الصليب].

أمّا صاحب الحملة الثالثة، الذي كان مرافقاً للملك، فيذكر أنّه بعد عودة الملك إلى يافا:

«أرْسل مبعوثين مرموقين إلى صلاح الدين وأخيه سيف الدين [العادل]، يطلب تَسْلِيم مملكة سوريا [اللاتينية] وكل ما كان يتبعها، أي كما كانت عليه زمن الملك المجذوم [بلدوين الرابع: حكم - 1186 1180 م]، إضافة إلى إتاوة (Tribute) عن مصر كتلك التي كانت تُدْفع للملوك [الصليبيين] في السابق، وكل الامتيازات والحقوق التي كانت لمملكة القدس في السابق» [2].

ومعنى ذلك العودة إلى الوضع السياسي والحدود كما كانت عليه قبل معركة حِطين وما تبع ذلك من تطورات.

---

(1) المصدر ذاته، ص 193 - 194.

(2) الحملة الثالثة، ص 101 - 102.

وحال وصول كتاب العادل إلى صلاح الدين جمع مجلس مشورته، لإبداء رأيهم في ما جاء فيه، وبَعْد مداولات تم الاتفاق على الجواب التالي:

«القُدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم ما هو عندكم، فإنّه مسرى نَبِيِّنَا ومجتمع الملائكة، فلا يُتَصَوّر أن ننزل عنه، ولا نَقْدَر على التلفظ بذلك بين المسلمين؛ **وأمّا البلاد فهي لنا في الأصل، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضَعْف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت**، وما أقدركم الله على عمارة حجرٍ منها ما دام الحرب قائماً، وما في أيدينا نحن منها نأكُل بحمد الله مُغلّه وننتفع به؛ **وأما الصليب** فهلاكه عندنا قُرْبة عظيمة، ولا يَجُوز أنْ نُفَرّط فيها **إلاّ لمصلحة راجعة إلى الإسلام** وأهله هي أوفي منها»[1] .

أما صاحب الحملة الثالثة فيذكر أنّ الوفْدَ عرض رسالة الملك على صلاح الدين، فلم يَسْتَجِب لمطالب الملك، وقال:

«ملككم يَعْرض مطالب غير مَعْقُولة، ولا نستطيع الموافقة على ما يحفظ شرف الكُفّار، ولكنني سأُعْطِي ملككم، عن طريق أخي سيف الدين، كل بلاد القُدْس من (نهر) الأردن إلى البحر، بدون (دفع) مال أو تأخير، على شَرْط أَنْ لا يُعاد عمارة مدينة عسقلان من قبل المسيحيين أو المسلمين»[2] .

فَهَلْ يَعْني ذلك تخلّي صلاح الدين عن مدينة القُدس، كما يَدّعي صاحب الحملة الثالثة، التي ضَحّى صلاح الدين بالسّاحل من أجلها، أم أنّه أراد التخلي عن البلاد دون المدينة وما حولها [القُدْس الكبرى؟]. رسالة صلاح الدين لا تشير إلى شيء من ذلك، ولا المفاوضات التالية.

وسَلّم العادل الجواب إلى رُسل الملك ريتشارد، وكَرّر الرغبة في استمرار

---

(1) النوادر، ص 194.

(2) الحملة الثالثة، ص 102.

المفاوضات وعقد الصُلْح ـ الهدنة بين الجانبين، لكن الملك الذي وجد في الجواب إصراراً من صلاح الدين بعدم التخلّي عن أي من المطالب بما في ذلك البلاد قاطع الأردنّ، أوقف المفاوضات (1). وعندما انتشر الخبر في المعسكرين بفشل المفاوضات، بدأت العمليات العسكريّة المحدودة من جديد. لكنّ هذه العمليات لم تُغَيّر شيئاً في الأوضاع على الأرض ولم تحقق مكاسب جديدة لأي منهما.

وفي يوم الاثنين 29 رمضان/ 19 تشرين الأول، وَصَل رسول ملك الانجليز حاملاً الجواب على رسالة صلاح الدين إلى معسكر العادل ومعه رسول العادل، يَحْمِل اقتراحاً جديداً:

«أن يتزوج الملك العادل بأخت الانكتار [ملك الانجليز ـ جوانا]. . وأنْ يكُون مُسْتَقَر ملكهما بالقُدْس الشريف، وأنّ أخاها يُعْطِيها بلاد السّاحل التي في يده من عَكّا إلى يافا وعَسْقَلان وغير ذلك، ويَجْعَلَها ملكة السّاحل؛ وأنّ السلطان. . يُعطي الملك العادل جميع ما في يده من بلاد السّاحل، ويَجْعَلَه ملك الساحل، ويكون ذلك مضافاً إلى ما في يده من البلاد والإقطاع؛ [ومنها قاطع الأردن]؛ وأن يُسَلّم صليب الصلبوت؛ وتكون القرايا للداويّة والاسبتاريّة، والحصون لهما؛ وأسرانا يُفَكّ أسرهم، وكذلك أساراهم، وأن الصُلْح يَسْتَقِرّ على هذه القاعدة، ويَرْحل الانكتار طالباً بلاده، وينفصل الأمر» (2).

وإذا بدا هذا الاقتراح مستغرباً في الشرق الإسلامي أو لبعض الناس، فإنّه ليس غريباً عن عالم أوروبا العصور الوسطى أو المملكة الصليبيّة في ذلك الوقت، وإن كانت قضيّة اختلاف الدين بين الملك والملكة تحتاج إلى حلّ. فَهَلْ كان هذا خداعاً ومماطلة أم عملاً قُصِدَ به أن يُحْرَج السلطان ويتراجع عن موقفه المتشدّد؟ فالاقتراح يُحَقّق حلاً لكرامة الملك الانجليزي الذي يَرْغب في

(1) المصدر ذاته، ص 102 - 103.
(2) النوادر، ص 195.

العودة إلى بلاده، ويُرْضي جماعات الداويّة والاسبتاريّة، القوى المتبقية الوحيدة من قُوى المملكة المؤثرة. أمّا بقايا البارونات فلم يكن لهم رأي مؤثر. من ناحية أخرى، يبدو أنّ الاقتراح استهوى الملك العادل، الذي استدعى كبار أمراء صلاح الدين الميدانيين: سليمان بن جَنْدر، وسابق الدين عثمان، وعز الدين بن المُقَدّم وحسام الدين بشارة، والقاضي ابن شَدّاد، في نفس اليوم، وطلب منهم حَمْل الرسالة إلى صلاح الدين، وأن يكون ابن شَدّاد المتحدث باسم العادل، «**والجماعة يسمعون**»، ويَعْرض الشروط على صلاح الدين، فإن وَجَد السلطان الشروط مناسبة، وأنّ في الموافقة عليها «**مصلحة له وللمسلمين**»، وأعلن موافقته، و «**شَهِدْنا** [كما يقول ابن شداد] **عليه بالإذن في ذلك والرضى به**»، **وإن رَفَض قَبُول العَرْض** «**شَهِدنا عليه أنّ الحال في الصلح قد انتهى إلى هذه الغاية**» [1] .

وهكذا نجد أنّ صلاح الدين تُرِك وحيداً من قِبَل أمرائه وقاضي عسكره، ليتحَمّل المسؤولية وحده في حال القبول أو الرفض. فالعادل، وزير خارجيته، يميل إلى الصُلْح، والأمراء المتبقون في الميدان أيضاً، وحتى القاضي ابن شَدّاد حُيِّدَ في هذه الحالة بحيث لا يستطيع السلطان أخذ رأيه وكذلك العماد[1]، والقاضي الفاضِل اختفى مِن الصُورة منذ عودته إلى معسكر السلطان.

واجتمع الوفد العادلي بالسلطان، وعَرَض ابن شَدّاد الشروط مشافهة، ثم قَرأ عليه الرسالة بحضور جميع أعضاء الوفد. وقبل السلطان، الذي رأى أن مجلس مشورته هو المتوسط في الأمر بينه وبين العادل، الذي يذكر العماد عنه:

«**وتسألونه أن يحكمني في هذه البلاد**، وأنا أبذل فيها ما في وسْعِي في الاجتهاد» [2] .

وقبل اقتناعاً منه أنّ الأمْرَ مُجَرّد مناورة، وأن الملك ريتشارد «لا يوافق على

---

(1) المصدر نفسه.

(2) الفتح، ص 555.

ذلك أصلاً». ولتوكيد الموافقة كَرّر ابن شّداد على السلطان فكرة الموافقة ثلاث مَرّات، وفي كُلّ مَرّة كان صلاح الدين: «يُصَرّح ويشهد على نفسه بالرّضا». عند ذلك عَاد الوَفْد إلى الملك العادل وأخبره بموافقة السلطان على القاعدة المُقَرّرة بصورة مؤكدة[1].

وفي الثاني من شَوال 587 هـ/ 23 أيلول 1191 م، أرسل العادل المدعو ابن النَحّال «رسولاً من جانب السلطان... ومن جانب الملك العادل»، إلى الملك ريتشارد لإعلامه بالموافقة على الخطة المتقدمة. يذكر العماد:

«... واعتقدنا أنّ هذا الأمْرَ قد تَمّ، ونَشْر إنضَمّ، وصلاح عَمّ، وصُلْح أذم، وحكم مَضَى، واستحكم به الرِّضَى... وأنّ التزويج ترويج، وتقويم لما فيه تعويج»[2].

ولم يستقبل الملك الرسول، وإنما أوفد إليه من أخبره أن الملكة جوانا ترفض الزواج، وأنّ الملك سَيُتم الزواج والصلح إذا قبل العادل التنصّر. وبذلك تَرَكَ الملك باب المفاوضات مفتوحاً. وكتب العادل بهذه الأخبار إلى السلطان[3]. ويبدو أن المفاوضات توقفت عند هذا الحَدّ إذ استؤنفت العمليات العسكريّة المحدودة بين الجانبين[4].

وفي 18 شَوّال/ 8 تشرين الثاني تَجَدّد الاتصال بين الملك العادل وبين الملك ريتشارد. ويبدو أن الاجتماع الذي عقد بينهما في موقع اليَزَك الصلاحي كان بسبب قدوم رسول من المركيز إلى السلطان. ففي 3 تشرين الثاني وَصَل صاحب صيدا السابق - رينالد - إلى معسكر السلطان برسالة من المركيز، فاستقبله صلاح الدين بحفاوة مناسبة، ونُصبت له خيمة خاصة ليستريح ثم

---

(1) النوادر، ص 195 - 196.

(2) الفتح، ص 555 - 556.

(3) النوادر، ص 96.

(4) كان ذلك في أيام العيد. ويُعَدّد العماد الكبار الذين عيدوا مع السلطان: صاحب ملطية من سلاجقة الروم، وابن أتابك الموصل وأخو صاحب الموصل، ومقدّم عسكر سنجار، الفتح، ص 557.

يجتمع بالسلطان. وتَمّ الاجتماع الذي لا نعرف ما جرى فيه إلاّ رغبة التعاون ضد ملك الإنجليز «ويتفرّد هو [المركيز] بالملك والتدبير»، وأن السلطان أرسل مبعوثاً منه إلى المركيز «على شرائط قُرّرت، ونُسَخ أيمان حُرِّرت»[1]، مما يشير إلى محاولة إخفاء ما يجري عن العادل ومن معه. أما ابن شَدّاد. فيذكر وصول الرسول، والمراسلات السابقة بين الجانبين وأنّ ذلك كان في مصلحة المسلمين[2].

وفي الاجتماع الذي جرى بين العادل وريتشارد، طلب الملك من العادل ترتيب اجتماع بينه وبين السلطان لمناقشة أمر الصلح مباشرة دون وسطاء، فبعث العادل رسالة إلى أخيه بمضمون رغبة ريتشارد، فجمع مجلس مشورته لكنّ أحداً لم يُبْد رأياً مناسباً، فَرَدّ:

«الملوك إذا اجتمعوا يقبح منهم المخاصمة بعد ذلك، فإذا انتظم أمْرٌ حَسُن الاجتماع، والاجتماع لا يكون إلاّ لمفاوضة في مهم، وأنا لا أفهم بلسانك، وأنت لا تفهم بلساني، ولا بدّ من ترجمان بيننا، تثق به واثق به، فليكن ذلك الترجمان رسولاً حَتّى يستقر أمْر وتستتب قاعدة، وعند ذلك الاجتماع الذي يعقبه الوداد والمحبة»[3].

وأما العماد فيعلق على هذه السفارة:

«وأما مراسلة الملك فلم تسفر عند المَقْصُود، ولم يجر من تلَوّنه إلاّ على المعهود...»[4].

وفي مساء نفس اليوم الذي غادر فيه رسول المركيز، وَصَل إلى معسكر السلطان ابن هنفري، رسول الملك الانجليزي ومعه رجل آخر، ويحملان رسالة جديدة وعرض جديد للشروط العامة:

---

(1) الفتح، ص 560.
(2) النوادر، ص 199.
(3) النوادر، ص 201.
(4) الفتح، ص 560.

«إنني أحبّ صداقتك ومودتك، وأنت قد ذكرت أنّك أعطيت هذه البلاد السّاحِلّية لأخيك، **فأريد أن تكون حكماً بيني وبينه،** ولا بُدّ أنْ تكون لنا علقة بالقدس الشريف، **ومقصودي أن تقسم البلاد** بحيث لا يكون عليه لوم من المسلمين. . . ولا عليّ لوم من الفرنجيّة»[1].

وأجاب السلطان، الذي أخذ زمام الأمور بنفسه، «بوعد جميل»، وأذن لهم بالعودة إلى الملك. ثم أنفذ وراء الرّسل من يستعلم منهم عن مكان الأسرى في الصلح، وهل يبقى منفصلاً عن الصلح كما كان، أم يُدخل فيه؟ فَرَدّ الرسول أنه إذا تَمّ الصلح فسيكون موضوع الأسرى فيه، وإن لم يَتِمّ فلا يتم أمر بالنسبة لهم.

ويبدو أنّ تجديد الاتصال مع المركيز كونراد، وبدء سيطرة صلاح الدين على سير المفاوضات بَعْد تساهل العادل، دفَعَه إلى اتخاذ هذا الموقف الذي هدفَ إلى توقف المفاوضات؛ إذ يذكر ابن شَدّاد **أن موقف السلطان الثابت** من بداية المفاوضات كان الرفض لعقد أي هدنة والاستمرار في الحرب حتى النهاية، وأن الموافقة الأخيرة له بالتوقيع كانت لأنه غُلِب على أمره[2]. ويضيف ابن شَدّاد أن السلطان قال له بعد مغادرة الرسل:

«متى صالحناهم لم تُؤمن غائلتهم، فإني لو حَدَث لي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر، ويقوى الفرنج، والمصلحة ألاّ نزال على الجهاد حتى نخرجهم من السّاحل أو يأتينا الموت»[3].

وبعد عودة رُسل الجانبين الصليبيين إلى مواقعهما، استدعى السلطان مجلس مشورته، وعرض عليهم الشروط المحددة التي عرضها كل جانب. وكانت شروط المركيز لا تختلف عن الشروط السابقة؛ أما شروط الملك فكانت أكثر تحديداً لأول مَرّة:

---

(1) النوادر، ص 202.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه، ص 202 - 203.

1 ـ أن يكون للصليبيين بعض القُرى السّاحليّة إضافة إلى ما بأيديهم.
2 ـ أن تكون القرى الجبلية جميعها للمسلمين. وإذا لم يقبل ذلك:
3 ـ أو أن تكون القُرى كلها مناصفة بين الجانبين.
4 ـ أن يكون للصليبيين أقْسَاء في كنائس القدس وبيعها.

وبعد المداولة، قَرَر المجلس رأيه، الذي كان كما يبدو يمثل موقفاً نهائياً لاتضاح موقف الجانبين المقابلين:

1 ـ أن الوصول إلى حالة سلام مع الصليبيين المحليين مستحيلة من كل الجوانب: **«لأن مصافاة الفرنج للمسلمين بحيث يُخالطونهم بعيدة، صِحّته غير مأمونة الغائلة»**.

2 ـ أن يَتِمّ الصلح مع الملك لأنّه سيعود في النهاية إلى بلاده، وتنتهي مدة الصلح ـ الهدنة معه، ويستطيعون بعدها العودة إلى الجهاد كما يرغب السلطان [1].

ودخل فَصْل الشتاء الذي كانت تتوقف فيه العمليات العسكرية الكبيرة عادة، واستَمَرّ تردد الرسل بين الجانبين وبين السلطان دون التوصل إلى نتيجة، وعاد الحديث إلى قصّة الزواج [2]. وعاد صلاح الدين إلى القدس، وعاد الملك ريتشارد إلى عَكّا، واتفق أن يسير الملك العادل إلى بيسان في الغور قريباً من عَكّا لإجراء الاتصالات عند الضرورة، وأعطي صلاح الدين تعليمات واضحة أن لا يُجَدِّد المفاوضات إذا كان سيتكرر ما قيل في السابق:

«إن الحديث قد جرى بيننا مراراً، وما أسفر عن مصلحة، فإن كانت هذه الدفعة كتلك الدفعات فلا حاجة إلى الحديث، وإن كان الغَرَض بحث حال تقارب الأمر، وأنا لا أجتمع بك إلاّ أن أرى ما يقارب فصل الحال».

وما عدا ذلك فعليه ألاّ يجتمع به ويماطله حتى تَعُود العساكر إلى الميدان

---

(1) المصدر نفسه، ص 203.
(2) المصدر نفسه، ص 204.

مع بداية الربيع. عند ذلك طلب العادل أن يعطيه السلطان مذكرة خطيّة يُحَدّد فيها الشروط الأساسيّة أو الموضوعات الرئسيّة التي لا يتعدّاها في حال تَجَدّد المفاوضات. فكتب له المذكرة التي تضمنت النقاط التالية:

1 ـ المناصفات.

2 ـ إذا أصر الملك على طلب بيروت من السلطان فعلى العادل أن يشترط خرابها وأنْ لا تَعْمر من جديد، وكذلك القابون.

3 ـ «وإن التمسوا عمارة وغر (؟) أجيب.

4 ـ تُعْطى صليب الصلبوت إليهم، ويكون لكنيسة القيامة قس منهم، ويُسمح لهم بزيارتها بشرط عدم حمل السلاح [1].

وفي 4 ربيع الأول 588 هـ/ 21 آذار 1192 توجه العادل إلى بيسان في الغور، وبعث من هناك رسوله إلى الملك، وعاد ومعه ابن هنفري ورسالة بعث بها العادل إلى صلاح الدين، وتضمنت:

«أنّه قد وافقنا على مقاسمة البلاد، وأن كل من في يده شيء فهو له، فإن كان ما في أيدينا زائداً أخذتم في مقابله ما يقابل الزيادة مما يَخُصّنا، وإن كان ما في أيديكم أكثر فعلنا كذلك، ويكون القُدْس لنا، ولكم فيه الصخرة» [2].

وواضح أن هذه الرسالة تبتعد كثيراً عن الشروط التي حددها صلاح الدين، كما أنّ فيها مكسباً كبيراً في الأرض للصليبيين، ومع ذلك فقد وافق مجلس المشورة على ذلك بناءً على رأي السَّمين، وكذلك السلطان، وأرسل جواب الموافقة على العادل.

ثُمّ وصل من العادل كتاب آخر 15 ربيع الأول/ 1 نيسان) فيه بعض تراجع عن الموقف السابق للملك ريتشارد:

«... أن تكون الصخرة لنا [للمسلمين] والقلعة لنا، والباقي

---

(1) النوادر، ص 205.

(2) المصدر نفسه، ص 205، الفتح، ص 509 (إشارة عابرة فقط).

مناصفة، وأن لا يكون في البلد منهم مُقَدّم مذكور، وأن يكون قرايا القدس وباطنه مناصفة»[1] .

وحصلت تطورات في بقيّة شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر 588 هـ/ 2 نيسان ـ 14 أيار 1192) كان لها أثرها في مجرى المفاوضات، كان أبرزها مقتل المركيز في صور (13 ربيع الآخر/ 29 نيسان) وقضيّة تركة تقي الدين عمر شرقي الفرات وإعطائها للأفضل أولاً ثم الملك العادل، وعودة الأفضل ومسير العادل إلى شرق الفرات وتخلّيه عن كل البلاد في فلسطين التي كانت ضمن ولاياته، وبالتالي لم يَعُد باستطاعة الملك التحدث معه على الأسس السابقة.

وبمقتل المركيز كونراد تغيّر الوَضع في المعسكر الصليبي، ذلك أن خليفته ـ الكونت هنري ـ، كان قريب ملك الانجليز وبالتالي فقد صار الأخير المتحدث باسم كل الصليبيين، وفقد صلاح الدين ورقة المناورة التي حاول استغلالها لصالح المسلمين، ومع ذلك فإنّ آخر عرضٍ قَدّمه السلطان إلى المركيز صار جزءاً من مفاوضات المرحلة التالية:

أنّه إذا فوض ريتشارد إلى المركيز أمْرَ البلاد التي بيده «لأمرٍ يجري بينهم، كان الصلح بيننا وبينه [المركيز] على ما استقر بيننا وبين الانكتار، **ما عدا عسقلان** وما بعدها [غَزَة والداروم] فإنه لا يدخل في الصُلْح. **فتكون الساحليات له، وما في أيدينا لنا، وما في الوسط يكون مناصفة**»[2] .

وفي نفس الفترة وصل رسول من امبراطور القسطنطينية يَعْرض التحالف ضِدّ الصليبيين في الشام وقبرص وأن يشرف رجال دين أرثوذكس على كنيسة القيامة وجميع كنائس القُدْس، لكن السلطان رفض الاستجابة إلى طلبه[3].

وأدّت هذه التطورات وغيرها إلى تَغَيّر في موقف الملك ريتشارد الذي قَرّر، بضغط من القوات الفرنسيّة في معسكره، حصار القُدْس التي كان

---

(1) المصدر نفسه، ص 206.
(2) المصدر نفسه، ص 207.
(3) النوادر، ص 209.

صلاح الدين قد أمضى مدة مكوثه فيها في عمارة أسوارها وتحصينها تحسباً لمثل هذه الحال. ووصل الملك إلى بيت نوبة وعسكر هناك (10 حزيران). واستَعَدّ صلاح الدين للمواجهة في حالتي الهجوم والدفاع. وفي نفس اليوم وصل إلى معسكر السلطان مملوك للأمير قراقوش، الأسير في عَكّا، لبحث مسألة مفاداة الأمير الكبير في الظاهر، والتحدث في استئناف المفاوضات في الباطن. لكن السلطان لم يرد على هذه المبادرة، وتوقفت المفاوضات حتى أوائل الشهر التالي [1].

ووقع اختلاف في المعسكر الصليبيّ في بيت نوبة حول التقدم إلى القُدْس وحصارها أو التراجع إلى السّاحل: جماعة الفرنسيين مع الحصار وتحقيق الهدف الذي جاءوا بداية من أجله، والبقيّة مع الملك. وفي النهاية تراجعت القوات الصليبيّة إلى الساحل بالرغم من تذمر الفرنسيين. وأثناء هذه المُدّة وَصَل رسول من صاحب صور الجديد إلى السلطان لاستئناف المفاوضات التي بدأها سلفه، لكن صلاح الدين أخره عنده حتى رحل الملك ومن معه من القُوّات راجعين إلى الساحل، ثم أحضر الرسول لسماع ما يريد الكونت هنري:

«إن الكُنْد هنري يقول: إنّ الانكتار قد أعطاني البلاد السّاحليّة، وهي الآن لي، فأعد علي بلادي حتى أصالحك، وأكون أحد بلادك».

فغضب السلطان من هذا الاقتراح الذي يعيد المفاوضات إلى نقطة البداية، وطرد الرسول، لكنّ الأخير طلب العودة إلى مجلس السلطان لأن لديه شيئاً آخر يقوله، فأذن له، فقال:

«يَقُول [الكندهنري] إن البلاد في يَدك فما الذي تعطيني منها».

ومَرّة أخرى طلب صلاح الدين إخراجه من المجلس، وإبقاءه في المعسكر حتى يُعطى الجواب الذي أكّد على المقترحات السابقة مع المركيز المقتول [2].

---

(1) المصدر نفسه، ص 212. وعن تقدم الملك إلى بيت نوبة. الحملة الثالثة، ص 129 - 130.
(2) النوادر، ص 218 - 219.

وبعد ثلاثة أيام من مغادرة الملك ريتشارد إلى السّاحل قَدِم رُسُله مع غلام المشطوب، وكَرّروا طلب حقن الدماء والوصول إلى اتفاق، وأن يكون الأمير عليّ المشطوب هو المتوسط في الأمر مكان العادل الغائب. لكنّ صلاح الدين عرف حقيقة الوضع في المعسكر الصليبي بعد التراجع إلى الساحل من غلام المشطوب:

«وأنهم [في يافا] في غاية الضّعْف والعجز عن قَصْد مكان».

ومع ذلك فقد قبل صلاح الدين باستمرار الاتصالات بقصْد فصل الصليبيين البحريين عن الصليبيين المحليين عَلّه يتمكن من إضعاف الجانبين في المفاوضات، فبعَث جواباً إلى الكونت هنري حَدَّد فيه الهدنة على ما بيده فقط [1].

وفي 29 جمادى الآخرة (9 تموز 1192 م) وَصَل رُسل الملك من جديد إلى صلاح الدين مؤكدين على ضرورة التوصل على عقد الهدنة، ومعهم رسالة فيها تراجع عن الموقف المتشدد السابق للملك. وكان لظروف الصليبيين من ناحية وتَصَلّب صلاح الدين في موقفه بعد مغادرة الملك العادل بالرغم من صعوبة ظروفه وموقف الأمراء من حصار القدس والمذكور قبل قليل، من ناحية أخرى، أثر في دعم موقفه. وجمع صلاح الدين أرباب المشورة لمناقشة التطورات وإعطاء جواب على الرسالة. وكان من أبرز المواقف التي دفَعت السلطان على الاستمرار في المفاوضات هو الحال العام الذي وصل إليه العسكر من الضجر والتعب والديون. وكتب الجواب الذي مَثّل رأي الأمراء وأرباب المشورة الآخرين، والذي أعطي أكثر مما طلب الملك ريتشارد، وهو كنيسة القيامة، إضافة إلى ما كان قد اقترح في السابق، وإبقاء عسقلان وما بعدها خراباً [2].

وعندما استلم ريتشارد هذا الجواب المتساهل، قام بالتوجه مباشرة إلى عسقلان لإعادة إعمارها حتى يدخلها ضمن البلاد السّاحليّة، ولتحسين موقفه

---

(1) المصدر نفسه، ص 218.
(2) المصدر نفسه، ص 219.

التفاوضي. وفي ذات الوقت بعث رسولاً إلى صلاح الدين أكد فيه الموافقة على الاقتراح المتعلق بالسّاحل والجبل، وطلب أشياء جديدة، وأكد الرسول أن الملك تَخَلّى عن موضوع مقاسمة القدس. فجمع صلاح الدين مجلس المشورة، وأجاب على رسالته:

«إن القدس ليس لكم فيه حديث إلاّ الزيارة»، فقال الرسول: «وليس على الزُوّار شيء يُؤْخَذُ منهم».

«وأما البلاد فعسقلان وما وراءها لا بدّ من خرابه» فقال الرسول: «قد خسر الملك على سورها مالاً جزيلاً».

وهُنا تدخل الوسيط المشطوب وطَلَب من السلطان. «أنْ يَجْعَل مزارعها وقراها [عسقلان] له [للملك] في مقابلة خَسَارته». فوافق [صلاح الدين] «وأن الداروم وغيره يُخَرّب ويكون بلدها مناصفة. وأما باقي البلاد فيكون لهم [الفرنج] من يافا إلى صُور بأعمالها، **ومهما اختلفا في قرية كانت مناصفة**»[1].

في هذه الأثناء بعث الملك ريتشارد فرقة من فرسان الداويّة والاسبتاريّة إلى الداروم لهدمها لمعرفة مدى إمكانية موافقة صلاح الدين ومجلس مشورتة على بقائها عامرة لخطرها على طريق فلسطين ـ مصر[2]. وفي ذات الوقت أرسل إلى صلاح الدين يطلب منه بقاء عسقلان وغَزّة والداروم عامرة[3].

وهنا يُعَلّق ابن شدّاد على مهارة المفاوض الصليبي:

«فانظر إلى هذه الصناعة في استخلاص الغَرَض باللين تارة والخشونة أخرى ـ وكان... مضطراً إلى الرواح [إلى بلاده]، وهذا عمله مع اضطراره»[4].

---

(1) المصدر نفسه، ص 219 - 220.
(2) الحملة الثالثة، ص 142.
(3) النوادر، ص 220.
(4) النوادر، ص 221.

وتَشَدَّد الملك ريتشارد في موضوع عسقلان، وبعث رسولاً يخبر صلاح الدين: «لا يمكننا أن نُخَرّب حجراً واحداً، ولا يسمع عَنّا في البلاد مثل ذلك. وأمّا البلاد فحدودها معروفة لا مناكرة فيها»(1). ونتج عن هذا التشدّد توقف المفاوضات واستئناف العمليات العسكرية التي كان أهمها استيلاء صلاح الدين على مدينة يافا عِدّة أيام مما أظهر هشاشة الموقف العسكري الصليبي في السّاحل الفلسطيني.

وعادت فرق الداويّة والاسبتارية من الداروم إلى معسكر الملك في عسقلان، ثم توجه الملك مع كل قُوّاته إلى يافا فوضع حامية فيها وسار إلى عَكّا حيث تَحَرّك منها بعد قليل نحو بيروت بقَصْد حصارها والاستيلاء عليها. وعندما عرف صلاح الدين بذلك، جمع ما لديه من قُوّات (27 تموز) وسار مسرعاً إلى يافا وحاصرها واستولى على المدينة بالقُوّة، كما ذكرنا، واستأثر حَرَسه الخاص بكل غنائمها مما أثار ردّة فعل بعد قليل من بقيّة القوات وأثر على سير المفاوضات. ثُمّ حاصرت القوات القلعة، ووافقت الحامية على الاستسلام، وبدأت إجراءات التسليم. في ذلك الوقت وَصَل الملك ريتشارد، الذي عرف بالحملة، إلى ميناء يافا، فانهزمت قُوّات السلطان دون قتال يذكر(2).

وكان لما حَصَل في يافا، والسرعة التي تَمّ فيها، أَثَرٌ في تسريع عمليّة المفاوضات. فالملك طلب من صلاح الدين الانتهاء من هذه العمليات التفاوضيّة بالموافقة على طلبه، وإن: «قد هلكت بلادي وراء البحر، وما هذا مصلحة لنا أو لكم»، والسلطان قَدْ تَعَزّز موقفه الشخصي (دون العسكر والمجلس) بالسهولة التي تَمّ بها الاستيلاء على يافا والضعف الذي وَصَل إليه موقف الملك المتردد بين البقاء أو العودة إلى بلاده واستنزاف الأموال لديه، فَرَدّ: «إنك كنت قَدْ طلبت الصلح أولاً على قاعدة، وكان الحديث في يافا وعسقلان، والآن فقد خربت يافا، فيكون لك من قيسارية إلى صور»(3).

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه، ص 222 - 227؛ الحملة الثالثة، ص 143 وما بعدها.

(3) النوادر، ص 227 - 228.

في 11 رجب 588 هـ/ 24 تموز 1192 م) عاد الملك العادل من بلاد شرق الفرات، وعاد إلى دور الوسيط في المفاوضات من حيث وصلت إليه. وأدى ذلك إلى زيادة تسارعها نظراً لعلاقته الخاصة مع الملك ريتشارد، والتي حاول فيها كل جانب التمسك بأقْصَى ما يستطيع الحُصُول عليه. وهَدّد الملك بالبقاء حتى نهاية الشتاء القادم إذا لم يتمّ الموافقة على ما طلب، فكان جواب صلاح الدين:

«أمّا النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه، وأمّا تشتيته في هذه البلاد فلا بُدّ منها، لأنّه قد استولى على هذه البلاد ويَعْلَم أنّه متى غاب عنها أُخِذت بالضرورة، وإذا أقام أيضاً إن شاء الله... (وأنا) ما يَسهل عليّ أنْ أشتي وأصيف وأشتي وأصيف، وأنا في وسط بلادي... وأنا أعتقد أني في أعظم العبادات (الجهاد)، ولا أزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء» [1].

وعند وصُول الجواب إلى ريتشارد توقفت المفاوضات، إذ أخبر رسوله رسول العادل: «ما بقي بيننا حديث» [2].

ومرض الملك ريتشارد، وقَرّرت القوات الفرنسيّة في جيشه العودة إلى بلادها، وتَرَددت المراسلات بين الجانبين حَول بعض التفاصيل لكن ظلّت عسقلان العُقْدَة الأساسيّة التي أصَرّ الملك على الإبقاء عليها ضمن مناطق الساحل التي ستعطى للصليبيين، وأصَرّ صلاح الدين على خرابها حتى لا تشكل خطراً على مصر أو القُدس وبلادها. وفي النهاية تَمّ الاتفاق، واضطر صلاح الدين إلى الموافقة بالرغم من تحول الموقف العام لصالحه وصالح المسلمين، لعوامل عديدة يُحَدِّدها العماد الإصفهاني، مثل: موقف مجلس المشورة، وموقف بقيّة العساكر بعد ما قام به حرسه في يافا، وخراب البلاد وقِلّة الأقوات والعلوفة للخيل (خاصة بعد الاستيلاء على قافلة مصر)، والتعب الذي

(1) المصدر نفسه، ص 228 - 229.

(2) المصدر نفسه، ص 230.

لحق بالعساكر، والغلاء، والديون التي تراكمت على الجند[1].

عند ذلك أمَرَ السلطان بإحضار سجلات أراضي بلاد فلسطين، لتحديد البلاد حسب الاتفاق:

«وذكر يافا وعملها [بلادها]، وأخرج الرّملة منها ولُدّاً ويُبنى وَمَجْدَل يابا؛ ثم ذكر قيسارية وعملها؛ وأرسوف وعملها؛ وعكّا وعملها، وأخرج منها الناصرة وصَفّوريّة. وأثبت الجميع في ورقة، وكتب جواب الكتاب».

ثُمّ أخبر الرُّسل الذين سيحملون الورقة إلى الملك:

«هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم، فإن صالحتم على ذلك فمبارك قد أعطيتكم يدي، فينفذ الملك من يحلف ويكون ذلك في بكرة غدٍ، وإلاّ فليعلم أن هذا تدفيع وممانعة، ويكون الأمر قد انفصل بيننا»[2].

وفي يوم الأحد 28 آب 1192 م، وصل رسول السلطان ورسل الملك إلى ريتشارد، فوافق لكنه طلب زيادة، فعاد الرسل إلى السلطان (20 شعبان/ 31 آب)، وأخبروا بما جرى، فعقد السلطان مجلس المشورة لبحث الاتفاق والزيادة التي طلبها الملك. ووافق المجلس على النقاط الأساسيّة، وزيادة الرملة ولُدّ إلى بلاد يافا (مشافهة) أو إحداهما، أو مناصفتهما. وكتب العماد مُسَوّدة النسخة للهدنة:

«وعينت مُدّتها وبينت قَضِيَّتها، وذلك يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، الموافق الأول من أيلول [1192] لمُدّة ثلاث سنين وثمانية أشهر»[3].

(1) الفتح، ص 604.
(2) النوادر، ص 231 - 233.
(3) الفتح، ص 605. وانظر النوادر، ص 233، الحملة الثالثة، ص 157. ويقول أن البداية من الفصح القادم (1193) ولمدة ثلاث سنوات.

وتَمّ الاتفاق أن يكون حلف اليمين صباح يوم الأربعاء 22 شعبان 588 هـ الموافق 2أيلول 1192 م. وفي صباح اليوم المذكور حضر ممثلو صلاح الدين عند الملك ريتشارد «وأخذوا يده وعاهدوه» دون أن يحلف لأنه اعتذر «بأنّ الملوك لا يحلفون»، فحلف نيابة عنه كل من: الكونت هنري، وباليان بن بارزان، ابن صاحبة طبرية، «ورضي الاسبتار والداويّة وسائر مُقَدّمي الإفرنجيّة بذلك». ثم انتقل الرُّسل والشهود من المعسكر الملكي إلى المعسكر السلطاني فوصلوه مساءً؛ وفي صبَاح الخميس عقد صلاح الدين المجلس، وحضر الرسل والشهود: «وأخذوا يده، وعاهدوه على الصلح على القاعدة المستقرة»، ثُمّ حلف نيابة عنه: الملك العادل، والملك الأفضل، والملك الظاهر، وعليّ المشطوب، وبدر الدين دَلْدَرِم، والملك المنصور «وكل مجاور لبلادهم» التي يسيطرون عليها مقابل حلف صاحبي أنطاكية وطرابلس، حتى يدخل الجميع في الصُلْح - الهدنة(1).

وبعد الانتهاء من مراسيم التوقيع النهائي:

«أُمر المُنَادِي أن يُنادي في الوطاقات [المعسكر] والأسواق: ألا أنّ الصُلْح قَد انتظم، فمن شاء من بلادهم يدخل إلى بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا يَدْخل بلادهم فليفعل. وكان يوماً مشهوداً، غشي النّاس من الطائفتين من الفرَح والسرور ما لا يَعْلَمه إلاّ الله تعالى»(2).

ثُمّ نُفّذ إخراب ما بناه الملك ريتشارد من عسقلان، فأرْسل السلطان الحجّارين والنَقّابين إليها، ومعهم شهود من الجانب الصليبيّ، وبدأ الهدم يوم الاثنين 7 أيلول 1192 م؛ كما سمح لكل من الطرفين السفر دون عوائق في المناطق التي تخضع للجانب الآخر؛ وسُمح للحجاج من المعسكر الصليبي

(1) النوادر، ص 233 - 235.
(2) النوادر، ص 235.

بزيارة كنيسة القيامة دون دفع رسوم على ذلك؛ وسُمِح بالتجارة بين الفريقين دون عوائق أيضاً[1].

وعاد صلاح الدين إلى القُدْس (الأحد 4 رمضان 588 هـ/ 13 أيلول 1192 م)، وأعطى الإذن للقُوّات من الإمارات الإسلاميّة بالعودة إلى بلادها، وأقام في المدينة حتى تَتِمّ زيارة بقايا المشاركين في الحملة الصليبيّة الثالثة بزيارة كنيسة القيامة والأماكن المُقَدّسة الأخرى وعودتهم إلى السّاحل ورحيلهم نهائياً، والذي بدأ في أول أيام العيد من ميناء عكا.

وهكذا فقد أنهى صُلْح الرملة ـ الهدنة، مرحلة أخرى من مراحل الصراع بين المسلمين وبين الصليبيين المحليين والقادمين بحملات من أوروبا. ومَثّلَت هذه المرحلة القِمّة التي بدأت بعدها عمليّة التراجع التدريجي لبقايا الوجود الصليبيّ في سواحل الشام، بالرغم من الحملات الكبيرة التي جُهِّزت فيما بعد والتكاليف الكثيرة التي أرهقت معظم بلاد أوروبا التي استمرت على تصميمها في السيطرة على القُدْس دون طائل، بالرغم من تَرَدّي الأوضاع في مصر وبلاد الشام أحياناً بسبب الصراع الدائم بين أبناء البيت الأيوبي.

وجهاد صلاح الدين الدائم وتصميمه وبَعْضُ رجال دولته من العسكريين والمدنيين، خاصّة القاضي الفاضل، هو الذي قَصَم ظَهْر الوجود الصليبيّ في المنطقة العربيّة المُسْلِمة الذي لم يَكُن له جُبرٌ بَعْدُ. وفَشِلَت كل محاولات الجبر بعد ذلك، بظهور قيادات جديدة تمكّنت من توحيد المناطق التي وحّدها صلاح الدين من قبله، وهو الظاهر بيبرس الذي قَلّص الوجود الصليبي في السّاحل الشامي من طوروس شمالاً إلى مصر جنوباً في جيبين صغيرين هما طَرابُلس وعَكّا، فتمكن خليفتاه: المنصور قلاوون، والأشرف خليل من إنهائهما كلياً، وبذلك تمت استعادة كُلّ السّاحل الشامي، ولم يبق للصليبيين في المنطقة إلاّ الآثار العمرانية الكثيرة التي خَلّفوها وبَعْض القُسُسُ والرهبان والتجار والزوار الذين يؤمونها بين الحين والآخر.

---

(1) المصدر نفسه، ص 235 - 236، الحملة الثالثة، ص 150.

ولنعد الآن إلى القائد الكبير المقيم في القُدْس لنتابع مسيرته القصيرة الباقية قَبْل وفاته. فالأمر بالنسبة له لم ينته، لأنّه يعرف حقيقة الوضع السياسي للمنطقة التي شارك بدور كبير في أحداثها مُدّة تزيد على أربعة عُقُود، والذي لم يكن راغباً في الصلح أصلاً بسب بهذه المعرفة بالدرجة الأولى. فموقفه المبدئي من المفاوضات والهدنة ـ الصلح، معروف من بداية الاتصالات بين الجانبين، وشارك بحكم موقعه القيادي الأول فيها لأن رجال مشورته ـ ما عدا القاضي الفاضل [1] ـ وأمرائه وقُوّاته وكُلّ الظروف الأخرى كانت تدفعه دفعاً إلى القبول. يُعَلّق ابن شدّاد على موقف صلاح الدين أثناء المفاوضات، بلسان السلطان الذي قال في إحدى الاجتماعات بينه وبين قاضي عسكره:

«أخاف أنْ أصالح، وما أدري أي شيء يكون مني، فيقوى هذا العدو، وقد بقي لهم هذه البلاد [أي التي تبقى تحت سيطرتهم بعد الصلح]، **فيخرجوا لاستعادة بقيّة بلادهم** [التي استعادها صلاح الدين منهم]، **وترى كل واحدٍ منٍ هؤلاء الجماعة** [أي الملوك والأمراء المسلمين] **قد قَعَد على رأس تَلِّهِ ـ يعني حصنه، وقال: لا أنْزِل، ويهلك المسلمون» «وهذا كلامه، وكان كما قال»** [2].

فهل هنالك تعبير أدق من هذا عن حال المنطقة (العربيّة) آنذاك عند فقدان القيادة الحكيمة القادرة على التوحيد بحده الأدنى في مواجهة التحديات؟.

(1) يختفي القاضي الفاضِل من الصورة العامة للتطورات، وكذلك رسائله للسلطان في المصادر المتوافرة ـ مع بداية المفاوضات. وقد استقر، منذ عودته في المرحلة الأخيرة من حصار عكا إلى معسكر السلطان، في دمشق، ليقوم بذات المهمة التي كان يقوم بها في مصر كما بيّنا في السابق: الإمدادات والتموين والإشراف على الأموال وتزويد السلطان بما يجمع منها. ويعود للظهور فجأة بعد توقيع الهدنة، كما سنرى.

(2) النوادر، ص 235.

18 الخاتمة السَّعيدة

«اللهمّ فارضَ عن تِلك الروح، وافتح له أبواب الجنّة فهي آخر ما كان يرجوه من الفتوح» النقش، الذي شاهده ابن خَلّكان سنة 680هـ على قبر صلاح الدين ، والذي أمر القاضي الفاضل بحفره عليه سنة 592 هـ.

«ولَقَد فَكّرت في نفسي في أمور هذا الرّجل، وقلت: إنّه سعيد في الدنيا والآخرة، فإنه فَعَل في الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكبيرة وغيرها، ورَتَّب هذه الأوقاف العظيمة وليس فيها شيء منسوباً إليه في الظاهر. . . **وهذه صدقة السِرِّ على الحقيقة**. والعجب أنّ له بدمشق في جوار البيمارستان النوري مَدْرَسَة يُقال لها الصلاحيّة فهي مَنْسُوبة إليه وليس لها وقف، وله بها مدرسة للمالكيّة أيضاً ولا تُعْرَف به. وهذه النّعم من ألطاف الله تَعَالى به» **وفيات الأعيان**، 7 ص 207.

بَعْد الانتهاء من مراسم عَقْدِ الهدنة ـ الصلح المؤقّت، عاد صلاح الدين إلى القُدْس يوم الرابع من رمضان 589 هـ/ 13 أيلول 1192 م. وقَرّر أداء فريضة الحَجّ بإشارة من ابن شَدّاد:

«وأشاعَ أمْر الحج، وقوي عَزمه على براءة الذمة منه. وكان هذا مِمّا وقع لي، وبدأت به في يوم تتمّة الصلح، وَوَقع منه موقعاً عظيماً، وأَمَرَ الديوان: **أنّ كُلّ من عزم على الحَجّ من العسكر يثبت اسمه حَتّى يُحْصِي عِدّة من يَدْخُل معنا في الطريق**. وكتب جرائد بما يحتاج إليه في الطريق من الخلع والأزواد وغير ذلك، وسَيّرها إلى البلاد ليُعِدُّوها»[1] .

(1) النوادر، ص 236 - 237.

وفعلاً كتبت الكتب إلى مصر واليَمَن لتجهيز ذلك:

«وأَمَرَ أن يحمل له في الراكب كل ما يحتاج إليه من الأزواد والنفقات، والثياب والكسوات» [1].

وكان القَرَارُ طبيعياً بالنسبة للقائد الذي لم تَتْرُك له الأيّام والأحداث وقتاً لأداء فَرضٍ على مثله أن يؤديه، لكن الرَّجل المؤمن الصادق الذي يثق بالناس ولا تشغله إلاّ أُمُور الدولة والجِهَاد، لم يُفكِّر بالعَواقِب السياسِيّة لما هو مُقْدِم عَلَيْه، ولا بما كان يجري في الخفاء في ديوان الخلافة العباسيّة وبعض رجاله وأعوانه. والوحيد الذي كان يَعْرِف كُلّ المداخلات السياسيّة بخبرته الطويلة هو القاضي الفَاضل؛ وهو في دمشق بَعِيد، أو أبْعد عن السلطان لأسباب لا نستطيع التعرّف عليها بصورة واضحة، لكنها كانت هناك، وقد طُلِبَ مَرّة أن يُرْسَل إلى ديوان الخلافة أثناء المفاوضات مع الملك الانجليزي: (شَوّال 587 هـ/ تشرين الثاني 1191 م):

«وأمّا الفصل الثالث [من كتاب الخليفة الناصر]: فكان يتَضَمّن التَقَدّم بإحضار القاضي الفاضل إلى الديوان العزيز رسولاً ليُقَرّر معه قَواعد، وتُكْشَفَ إليه أَسْبَاب».

فكان جواب صلاح الدين القاطع:

«. . . فإنه اعتذر عن القاضي الفاضِل بأنّه كثير الأمراض، وقُوّته تضعف عن الحركة إلى العراق» [2].

ثُمّ وَصَل رسول آخر بعد الصُلْح مباشرة إلى معسكر العادل في العازاريّة وهو في طريقه إلى الكرك. (24 رمضان 588 هـ/ 3 تشرين الأول 1192 م). وسَنَعُود إلى ذلك بعد قليل، أما الآن فلننظر رِدّة فعل القاضي الفاضِل من دمشق على فكرة الحَجّ:

---

(1) الروضتين، ص 206 - 207.

(2) النوادر، ص 198 - 199. وربما كان ذلك في الوقت الذي أعيد فيه ابن زبادة إلى الأستاذ دارية في دار الخلافة العبّاسيّة.

يذكر أبو شامة:

«قُلْتُ: ولمّا بلغ القاضي الفاضِل من قِبَل السلطان أنّه عازم على الحجّ كتب إليه مشيراً بتبطيله: إنّ الفرنج لم يخرجوا بَعْدُ من الشام، ولا سَلُوا عن القُدْس، ولا وُثق بعهدهم في الصُلْح؛ فلا يؤمن مع بقاء الفرنج على حَالهم، وافتراق عسكرنا، وسَفَر سلاطِيننا سَفراً مُقدّراً معلوماً مُدّة الغيبة فيه، أنْ يَسْروا ليلة فيصَبِّحوا القُدْس على غَفْلَة، فيدخلوا إليه والعياذ بالله، ويفرط من يَد الإسلام، ويَصير الحَجّ كبيرة من الكبائر التي لا تُغْفَر، ومن العثرات التي لا تقال».

ثم قال:

«وحاج العراق وخراسان، ألَيْسَ هم مائتي ألف وثلاثمائة ألف أو أكثر؟ هل يؤمن أنْ يُقَال قَدْ سار السلطان لطلب ثأر [ابن المقدّم] وسفك دم وتشوش موسم، فاقعدوا وإلا فيكون تاريخ سوء أعُوذ بالله منه. ما هذه الشناعة ممتنعة الوقوع، ولا مستبعدة عن العقول السخيفة. فليُنْعِمَ المولى بتأمل ما أنهاه المملوك مَسْتُوراً، فإنّه يَسْأل مولانا أن لا يُشَارك أحداً فيما يَكْتُبه لا من مُهِمٍّ ولا من غير مُهِمٍ».

فلولا خطورة الموقف، وخَوْفِ الفاضِل من بِطَانـة صلاح الدين في الميدان، لما طلب منه عدم اطلاع أحدٍ عليه. من ناحية أخرى ربّما كان رُسل دار الخلافة في دمشق آنذاك في طريقهم إلى العادل.

ثم يقول:

«يا مولانا مَظَالِم الخَلْق كَشْفُها أهم من كل ما يُتَقَرّب به إلى الله. . . (الفلاّحون والمقطعون في دمشق وبلادها) وللمسلمين ثغور تريد التحصين والذخيرة، ومن المهمات إقامة وجوه الدّخل وتقدير الخراج بحَسَبِها، فمن المستحيل نَفَقَة من غير حاصل، وفرع من غير أصل، وهذا أمر قد تَقَدّم فيه حديث كثير، وعَرَضَتْ للمولى شَواغِل دُونَه، ومَشَت الأحْوال مَشْياً على ضِلْع؛ فَلَمَّا خَلَت النوب ـ أعاذ الله من عودها ـ كان خلو بيت

المال أشَدّ ما في الشِدّة، وليس المملوك مُطَالِباً بذَخِيرَةٍ تُحَصَّل، إنَّما يَطْلُب تَمْشِيَةً مِنْ حَيْثُ استَقَرّ» (1).

واقتنع السلطان صلاح الدين بحجج القاضي الفاضِل، وأجَّل الفَرْضَ الذي يمكن تأجيله مِن أجْلِ الدولة وحَسْم ما يمكن أن يؤدي إلى فتنة كان المسلمون بغنى عنها، وكيف نُفَسِّر ما حصل لأمير حَاجّ دار الخليفة بعد انتهاء حَجّ نفس السّنة. يذكر محمد بن القادسي، المؤرخ البغدادي المعاصر الذي ذُكر قبل ذلك أكثر من مَرّة، أنّه بَعْد عَوْد الأمير طاشتكين، - قتل حَاجَةُ ابن المُقَدّم سنة 583 هـ، - «وُكِّلَ» به ثم قُبِض عليه:

«وسَبَبُه أنَّه أتهم بمكاتبة السلطان صلاح الدين رحمه الله [توفي في صفر 589 هـ والقبض عليه في رجب 588 هـ]، فيما يَتَعَلّق بقَلْب الدولة [العباسيّة] وأظهر عليه أستاذ الدار أبو المُظَفّر بن يونس [ما غيره] (2) كتاباً قِيلَ أنَّه خَطُّه، وفيه:

«المَصْلَحَةُ مُهَادَنة الفرنج والمجيء إلى البلاد [العراق] فما يقف بين أيديكم أحد، والبلاد لكم إذا ملكتم العراق، وهذا وقتكم إن كان لكم نيّة، وأنا مشدود الوسط في الخِدْمة» (3).

فَهَلْ كان ذلك صحيحاً؟ أم أنه كان مؤامرة من ابن يونس كما ذكر القادسي. لا أريد الدخول في تفاصيل ذلك، ولنَعُدْ إلى السلطان الذي رَحَل من معسكره في السهل مقابل يافا إلى اللطرون بَقَصْد التوجه إلى القُدْس «لتهيئة أسباب عمارته، والنظر في مصالحه، **والتأهب للمسير إلى الحجّ**» (4) ثم سار من اللطرون [4 رمضان/ 13 أيلول) إلى مار صموئيل حيث كان العادل مُعَسكراً، فوجده قد توجّه إلى القُدْس ومعه ابن شدّاد والأمير دَلْدَرِم والعدل

(1) الروضتين، 2 ص 205.

(2) هو الوزير العباسي الذي كان مكاتبه سبب سوء التفاهم بين الخليفة العباسي وصلاح الدين بعد حطين وفتح القُدْس، والذي كان في ذلك الوقت في منصب أستاذ دار الخليفة.

(3) الروضتين، 2 ص 211.

(4) النوادر، ص 237.

السفير. وفي مار صموئيل اجتمع صلاح الدين إلى أخيه، ثم توجها معاً إلى القُدْس.

وفي يوم الجمعة 23 رمضان/ 2 تشرين الأول، توجّه العادل بعد صلاة الظُهر إلى معسكره بالعازاريّة ومعه الإذن من صلاح الدين بالتوجه إلى الكرك أولاً ثم شرق الفرات. وفي العازارية وصل خَبَرٌ بأن رَسُول دار الخلافة واصل إليه، فأرسل إلى صلاح الدين يُعْلمه بذلك وأنّه سيجتمع به «ويطالع [السلطان] بما وَصَل فيه». فلماذا الاجتماع بالعادل أولاً قبل السلطان؟.

واجتمع العادل برسول ابن الناقد[1]، الذي وُلي نيابة الوزارة في بغداد، واطلع على الكتاب. ثُمّ اجتمع العادل في اليوم التالي مع السلطان، وأطلعه على مضمون الكتاب:

1 ـ «يحثه على استعطاف قلب السلطان إلى الخدمة الشريفة، والدخول بينه وبين الديوان العزيز».

2 ـ «الإنكار عليه في تأخر رُسله عن العتبة الشريفة».

3 ـ «اقتراح تسيير القاضي الفاضِل ليحضر الديوان في تقرير قَوَاعِدَ لا تَتَحرّر بينه وبين السلطان... إلاّ به». وبالرغم من غموض الجزء الأول من الكتاب، إلاّ أنّ ابن شدّاد يُعَلّق التعليق التالي:

«وقد وُعِدَ العَادِل من الديوان [العباسي] بوعودٍ عظيمة إذا قَرّر ذلك، ويكون له يد عند الديوان يستثمرها فيما بعد وما يشبه هذا المعنى»[2].

فماذا كان موقف السلطان من هذه الرسالة الغريبة: قَرَّر إرسال الضياء الشهرزوري إلى بغداد لـ« يسمع كلام الديوان» ويَسْتَعْلِم سبب [أواثر] دُخول

---

(1) ولاّه الخليفة حجبة الباب، ثُمّ نيابة الوزارة، ثم صاحب المخزن، فطغى وظلم وشرع في الفسق»، فأعلم الخليفة بعد مُدّة طويلة بأعماله، فقتل سنة 604 هـ. مرآة الزمان، 8 ص 536.

(2) النوادر، ص 237 - 238.

الملك العادل في البَيْنِ». ثم يعلق ابن شَدّاد: «وزاد الحديث ونَقَص، وطال وقَصر... وعاد الملكُ العادل إلى مخيّمه بالعازاريّة بَعْدَ تَقرِيرِ هذه القاعدة، وعَرَّفَه [الرسول] إجابة السلطان إلى إنفاذ رسول إلى خدمة الد يوان العزيز... وسار الضياء متوجهاً إلى بغداد يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر رمضان»[1] [5 تشرين الأول 1192 م]. أما العادل فسار إلى الكرك، كما توجه الظاهر بن صلاح الدين إلى حلب في اليوم التالي وقد زَوّده والده بوصيّة في الحكم جامعة شاملة [2].

واهتم صلاح الدين أثناء إقامته في القدس باستكمال تحصين المدينة وترتيب أمورها، فعَيَّن مكان سِيَارُوخ واليها الذي استعفى من الخدمة، الأمير الكبير عز الدين جُرّديك بولايتها وبلادها [3]، وفَوّض القضاء والنظر في الأوقاف التي أوقفت (وزيدت) على المسجد الأقصى وقبّة الصخرة والخانقاه والمدرسة الشافعيّة والبيمارستان الذي أنشأه في كنيسة داخل مجمع الاسبتاريّة السابق إلى القاضي بهاء الدين ابن شداد [4]، مدون سيرته.

ولم تقتصر تراتيب صلاح الدين على ذلك، وإنّما نظم أمور بلاد فلسطين الجنوبيّة التي تأثرت أكثر من غيرها بالخراب نتيجة العمليات العسكريّة التي امتدت طويلاً، فعيّن على أعمال الخليل وعسقلان وغَزّة «وما والاها» الأمير علم الدين قَيْصَر مملوكه [5]، الذي كان يتولاّها منذ استعادتها من الصليبيين سنة 583 هـ/ 1187 م، وأَمَرَ بنقل الغَلاّت إليها من مصر لمساعدة الفلاحين فيها على عمارتها من جديد، كما أَمَرَ بنقل الغلاّت من عملي (أو عمل) البلقاء والسلط إلى القُدْس لذات الغرض [6]. أمّا نابلس وبلادها فكان يتولاّها وبلادها،

---

(1) المصدر نفسه، ص 238.
(2) انظر الوصيّة الشفوية، كما سجلها ابن شداد. النوادر، ص 238.
(3) النوادر، ص 240.
(4) الفتح، ص 611 - 612؛ النوادر، ص 239.
(5) الفتح، ص 611.
(6) الفتح، ص 611 - 612؛ الروضتين، 2 ص 197.

منذ وفاة واليها الأمير محمد بن عمر بن لاجين، ابن أخته ست الشام، الأمير سيف الدين علي المشطوب (أخو الفقيه عيسى) الذي كان آنذاك مع السلطان في القدس وبلاده بيدهم نُوَّابه [1].

وبَعْد أن اطمأن السلطان إلى هذه التراتيب، وحضور العيد في القُدس والصلاة فيه والتَعَبّد ما بقي من رمضان، قَرَر العودة إلى دمشق، وتَفَقّد كل المدن والقلاع والحصون التي تقع في طريقه في مواجهة بقايا الصليبيين.

وفي يوم الخميس 5 شَوّال 588 هـ/ 14 تشرين الأول 1192 م تَحَرّك السلطان مع قُوّاته الخاصة من القدس على طريق نابلس، فَمَرّ بالبيرة التي كانت حتى 583 هـ مستوطنة صليبيّة كبيرة تعرف **بالمحموريّة**، فودعه عندها القاضي ابن شَدّاد وعاد إلى القدس لمباشرة أعماله فيها [2]. وسار صلاح الدين في طريقه، وبات ليلة الجمعة على بركة كبيرة للداويّة قرب الطريق بين البيرة ونابلس. وفي ضحى الجمعة وَصَل إلى نابلس فأستقبله أهلها بالترحاب والشكوى من الوالي ومظالمه، فَصَلّى الجمعة فيها، وأقام حتى ظهر اليوم التالي لإصلاح أمورها وكشف مظالمها «وأسقط رسومها الجائرة» [3].

ورحل صلاح الدين بَعْد ظُهر يوم السبت من نابلس باتجاه جنين، وباتَ تلك الليلة بالفُرْيديسة عند عقبة ظَهْرِ الحِمَار، ثم رحل وَوَصَل ضحوة اليوم التالي إلى جنين. وهنا ودّع علي المشطوب السلطان وعاد إلى نابلس. وفي يوم الاثنين رحل، بعد تفقد أحوال البلد، إلى بيسان (9 شَوّال) فوصل إليها «وصَعَد إلى قلعتها المهجورة الخالية»، ففكّر في عمارتها وتخريب قَلعة كوكب المشهورة قربها:

«هذه إذا عمرت دَامَت في حضانة الحصانة، وكان جبلها لوثوقه مستودع الأمانة، والصواب بناء هذه وتخريب قلعة كوكب؛ ولم يزل حتى

(1) النوادر، ص 239 - 240.
(2) النوادر، ص 239.
(3) الفتح، ص 613: الكامل، 12 ص 87.

بيّن كيفية بنائها ورتّب، ووَعَد بإحكامها وإعلاء أعلامها».

ثُمّ صعد بعد الظهر إلى قَلْعة كوكب وبات ليلته بها، وتذكر صعوبة الاستيلاء عليها عندما حاصرها [1].

وتوجه قبل ظهر يوم الثلاثاء إلى مدينة طبريّة، أوّل فتوحه بعد حطين، فأقام بها ليلتين، وسار يوم الخميس منها إلى صَفَد:

«ونزلنا بقرب قَلْعَة صَفَد تحت الجبل، وصَعَد السلطان إليها، وأمَرَ بتسديد ما فيها من الخَلَل».

ثم سار صباح يوم الجمعة نحو تبنين فَمَرّ بضيعة **الجش** على الطريق «وهي عامرة محتوية على سُكّانها كأنها العش»، ونزل بها، ثم توجه حتى وَصَل إلى تبنين فخيّم في مرجها وبات ليلته هناك. وفي الصباح:

«وأصبح السلطان حوالي حيطانها بأحوالها محيطاً، ممتطياً قرا قَلْعَتِها ولأسباب اختلالها مميطاً. ووَصّى الوالي بعمارتها، وجَعَل مصالحها بكفايته منوطة، وسدادها بسداده منوطاً».

ثُمّ رحل منها إلى قلعة هونين الأكثر حصانة، ومَرّ بها دون دخولها، وبات ليلته عند عين الذهب حيث اجتمع هناك بالأثقال الخاصة به، وخيّم في اليوم التالي في مرج عيون التي عرفها أكثر من مَرّة في المواجهات السابقة مع الصليبيين:

«وجلس السلطان على عادته معنا في تدبير الممالك تلك الليلة...».

وتوجه صلاح الدين بعد ذلك على طريق البقاع إلى بيروت: «والسلطان مشغول في طريقه من تقرير العمارات وتحرير سنن الحسنات باقتناء المحامد...»، حتى وَصَل إلى بيروت [2].

---

(1) المصدر نفسه، ص 613.

(2) المصدر نفسه، ص 614 - 615.

واستقبل عز الدين أسامة، والي عَمَل بيروت، السلطان بحفاوة بالغة، «وقَام بالسلطان وكل من صحبه مدة مقامه...». وفي 21 شوال/ 30 تشرين الأول، وصل بوهمند أمير أنطاكية الصليبي، إلى بيروت، فاستقبله السلطان، واعتنى به:

«وكتب له من مناصفات أنطاكية معيشة بعشرين ألف دينار... وأعجبه استرساله إليه ودخوله عليه بغير أمان...»، وودّعه في اليوم التالي[1]، ثم رحل صلاح الدين إلى البقاع في الطريق إلى دمشق».

وعندما وَصَل صلاح الدين إلى مرج يبوس في وادي التيم في طريقه إلى دمشق، بعد أربع سنين من الغياب، وَصَل إليه:

«من أعيان دمشق من سبق للتلقي والاستقبال... وجاءتنا فواكه دمشق وأطايبها... واغتصت بالواصلين إلينا مسالكها ومذاهبها».

وفي صباح يوم الأربعاء 26 شوّال 588 هـ (16 تشرين الثاني 1192 م) دخل السلطان إلى دمشق:

«وقد أخرجت أثقالها، وأبرزت نساءها ورجالها، وكان يوم الزينة، وخَرَج كل من بالمدينة...»[2] وتوجّه إلى القلعة فاسْتَقَرّ فيها. وفي اليوم التالي (الخميس) جلس في مجلس المظالم:

«وعَمّ ذلك المجلس العام والخاص، وأقام ينشر جنَاح عدله... ويكشف مظالم الرعايا في الأوقات المعتادة...»[3]، يوم الاثنين والخميس».

وهكذا عاد صلاح الدين إلى دمشق التي يُحبّها والتي تَوَلى فيها أُولى

---

(1) المصدر نفسه، ص 616 - 618. ويذكر ابن شداد أنه أنعم عليه بالعمق وأرزغان ومزارع تغل 15 ألف دينار. النوادر، ص 240.

(2) الفتح، ص 619.

(3) النوادر، ص 241.

مَهامِّه القياديّة، والتي صارت بعد سلطنته قاعدة عملياته العسكريّة التي امتدت عقدين من الزمان كان آخرها أربع سنوات قمرية أمضاها في الميدان وامتدت من حصار شقيف أرنون، ثمّ حصار عكا الطويل، والتطورات التالية التي طالت بين قتال ومصابرة ومرابطة ومفاوضات ومساومات وتَقَاعس قُوات، وتغير مواقف الرجال، والتي انتهت بالهدنة ـ الصلح الذي أوقف العمليات العسكرية مُدّة معلومة أمِلَ السلطان استغلالها في إعادة بناء قُوّته واستئناف مهمته في استرجاع بقيّة البلاد المُقدّسة وبقيّة بلاد الشام التي كانت لا تزال بيد الصليبيين.

* * *

عَاد صلاح الدين إلى دمشق سلطاناً تخضع بلادٌ واسعة لسلطته الإسميّة، لكنّه صارَ سلطاناً «يملك ولا يحكم»، فالسلطة الفعليّة والحكم كان بيد غيره. وكانَ في حاله هذه يشبه إلى درجة ما الخلافة العباسيّة التي يتبعها ويَسْتَمدّ منها شرعية سلطته أو السلاطين السلاجقة بالنسبة للأتابكيات التي انبثقت عنها واستمدت أيضاً شرعيتها منها. ولقِصّة تنازل السلطان عن الحكم بداية لا بُدّ من الرجوع إليها، فهي تمثل القِمّة ـ أو قبلها بقليل ـ بالنسبة لتوحيد الجهد في مواجهة التحدي الذي بَذَل الكثير من الوقت والعمل لتحقيقه، وبداية تراجع نُفُوذه وحكمه، ولم يبق لديه من حكم فعلي على البلاد الواسعة الخاضعة لنفوذه إلاّ تلْكَ التي كانت بيد أمراء مماليكه التابعين له مباشرة، أما بقيّة البلاد فقد استأثر بحكمها من ستَحدّث عنهم في الفقرات التالية.

كان الثلث الأخير من سنة 581 هـ (تشرين الثاني 1185 ـ أواخر آذار 1186 م) بداية التَحَوّل الجذري في سيرة الجهاد وفي حكمه وسلطته أيضاً. ففيها تَمّ إنجاز عمليّة التوحيد التي كان بَعْدَها حِطّين وما تلاها، وفيها كان تقسيم البلاد التابعة له بين أبنائه وأفراد عائلته الآخرين. فَقَد كَرّس هو الفترة التالية لها للجهاد وبقي في الميدان، وترك الحكم والإدارة للأخ والأبناء وأولاد الإخوان.

في بداية رمضان من السنة المذكورة مرض السلطان في حَرّان أثناء الحملة الأخيرة التي قادها شرق الفرات لإخضاع بقيّة آل زنكي لنفوذه، وكان ذلك والمفاوضات بينه وبينهم لا تزال جارية دون الوصول إلى اتفاق. وساعد

المرض في موافقة صلاح الدين على عقد الاتفاق النهائي كما فَصَلنا في السابق.

وامتد مرض صلاح الدين واشْتَدّ طوال شهري رمضان وشوّال. فَنَذَر نذره المشهور:

«أنه إن خلّصه الله من نَبْوة هذه النوبة، وأعفاه من كدر هذه المرضَة ومرارتها بالعافية... اشتغل بفتح البيت المُقَدّس، ولو ببذل نفائس الأموال والأنفس، **وأنّه لا يَصْرِف بقيّة عمره إلاّ في قتال أعداء الله والجهاد في سبيله، وإنجاد أهل الإسلام**... وأن لا يَتْرك شيمة الجود، والسماحة بالموجود، **والوفاء بالعقود، والمحافظة على العهود**، وإنجاز الموعود...»[1].

وقَدِم إليه الملك العادل من حلب، وكان صاحبها آنذاك، فقام بضبط الأمور مكان أخيه السلطان:

«والقيام (عنه)... في كل مهم بحسن النيابة...»[1].

وشفي السلطان من المرض، وعاد إلى الشام، ووصل إلى دمشق في 2 ربيع الأول 582 هـ/ 23 أيار 1186 م. ثُمّ قَام في الأشهر التالية بتولية أبنائه على الممالك الأساسيّة إضافة إلى ما يتعلق بأفراد الأسرة الآخرين:

1 ـ عَيّن الظاهر غازي على حلب بعد تنازل الملك العادل عنها.

2 ـ نَقَل الملك الأفضل علي من مصر إلى الشام ـ دمشق وكل بلادها.

3 ـ نقل ابنه العزيز عثمان إلى مصر «ليكون عزيزها، وليحرز مملكتها ويحوزها»، فاستدعى الأفضل منها وبعث العزيز إليها، وعين معه أخوه العادل الذي أعطي إقطاعات مُحَدّدة طلبها في مصر.

4 ـ استدعى تقي الدين عمر بن شاهشناه من مصر وأعاد ما كان له من إقطاع: حماة والمَعَرّة ومنبج وسائر أعمالها، ثُمّ أضاف إليها فيما بعد ميّافارقين وبلادها.

---

(1) الروضتين، 2 ص 65.

5 ـ وكانت حمص وبلادها بيد شيركوه بن محمد بن أسد الدين شيركوه.

6 ـ وبعلبك بيد ابن عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه.

7 ـ أمّا البلاد شرقي الفرات فقد بقيت بيد أمرائها من العهد النوري كما ذكرنا [1].

ووفّى صلاح الدين بنذره الخاص بالجهاد، وَوَلّى معظم البلاد التي فتحها، خاصة تلك التي شارك العادل بفتحها، لأخيه ومنها السّاحل الفلسطيني جنوبي حيفا، وبلاد شرقي الأردن: الكرك والشوبك إضافة إلى البلقاء والسلط. وبهذا لم يبق بيد السلطان من ناحية فعليّة شيء من البلاد.

وإذا نظرنا إلى وضع ولاية البلاد التي كانت تتبع له بعد وفاته مباشرة، نجد أن الصورة العامة لم تتغير تقريباً:

1 ـ دمشق وبلادها: الملك الأفضل ومعه شقيقاه الظافر والمفضل.

2 ـ الديار المصرية: الملك العزيز عثمان.

3 ـ حلب وبلادها: الملك الظاهر، وعنده أخوه الزاهر.

4 ـ حمص والرحبة وتدمر: شيركوه بن محمد بن شيركوه.

5 ـ حماه وسلميّة والمعرة ومنبج: محمد بن تقي الدين عُمَر.

6 ـ حَرّان والرّها وميّافارقين والرقة وقلعة جعبر (شرق الفرات) والكرك والشوبك: الملك العادل.

7 ـ بعلبك: بهرام شاه بن فرخشاه.

فالتغيّر الأساسي هو إقامة مملكة للملك العادل من قسمة مملكة تقي الدين بعد وفاته كما بينّا.

فهل كان صلاح الدين، بالمناقلات والتعيينات التي قام بها بعد مرضه، يريد حَلّ مشكلة الوراثة في «دولته» الواسعة قبل تكريس نفسه كلياً للوفاء بما وقف حياته في السلطة من أجل تحقيقه، ومن أجل المحافظة على الوحدة التي

(1) المصدر نفسه، 2 ص 65 - 67.

حَقّقَها؟ وهل يمكن أن يمنع ذلك الإجراء ظهور قضيّة كبير العائلة في بيته الخاص أولاً وبيته العام ثانياً بعد وفاته إذ كـانت بوادره قد بدأت تبرز في سنوات الجهاد الأربع الأخيرة كما اتَّضَحَ لنا. في تقديري أنّه كان لا بدّ له من اتخاذ إجراءٍ ما بعد قراره النهائي، خاصة وأنّ ثلاثة من الأولاد قد كبروا وبلغوا الرشد في معايير ذلك الوقت (الأفضل 21 سنة تقريباً) والعزيز (20 سنة تقريباً) والظاهر غازي (19 سنة تقريباً). وأن يُقَرّر في ذلك الوقت أفضل بكثير من ترك الأمْرِ للظروف في حال وفاته. ففي الحالة الأولى يبقى بعض الهيبة لرغبته في حياته، وفي الثانية لا يُعْرَف كيف تجري التطورات. وهنالك أيضاً التقاليد السابقة وتراث المنطقة السياسي فيما يتعلّق برأس السلطة.

ولنتأمل أخير هذا المَقْطَع من رسالة للقاضي الفاضل إلى السلطان تَتَعَلّق بحِصّة العادل وتقي الدين عمر، يوردها أبو شامة في نهاية ما جمعه عن تراتيب صلاح الدين سنة 582 هـ:

«الملك العادل والملك المُظَفّر المذكوران ما هما أخ وابن أخ، بل هُما وَلَدان لا يَعْرِفان إلاّ إلى المولى [صلاح الدين] والداً ومنعماً، وكل واحد منهما له عش كثير الفراخ، وبيت كرقعة الشطرنج فيه صغار وكبار كالبيادق والرخاخ، **فلا يقنع كل واحدٍ منهم إلاّ طرف يملكه وإقليم يتفرّد** به، فيدبّر مولانا في ذلك بما يقتضيه صدره الواسع وجوده الذي ما نظر مثله النّاظر ولا سمع السامع؛ **ولا يَنسّ قَوْل عمر بن الخطاب**، رضي الله عنه، **مُرُوا القرابة أن يتزاوروا ولا يتجاوروا**، وما على مولانا عجلة في تدبير يدبره، ولا في أمر بيته، (**وستبدي لك الأيام ما كنت عارفاً**)، وفي غدٍ ما ليس في اليوم، ولله أقدار ولها أمد، وقد رزق الله مولانا ذريّة تَوَد الثقة بكرم النعم، ولهم أولاد والمولى مدى الآمال لهم كما قال مولى الأمة (تناكحوا وتناسلوا فإني مكاثر بكم الأمم)؛ طالما قال لهم المولى لذُوا وعلي تجهيز الإناث وغنى الذكور، وسواء على هذا البيت طلوع الشمس والبدور»[1].

(1) الروضتين، 2 ص 71.

وأمضى السلطان صلاح الدين الأشهر الثلاثة والنصف قبل مَرضِه الأخير القصير، في الجلوس في دار العدل وتمشية أمور الدولة؛ وأَخَذَ إجازة أسبوعين أمضاها شرق مدينة دمشق في الصيد، واستقبل الحاجّ عند وصوله قرب دمشق: الحاج الذي رغب في المسير معه في هذا الموسم، ثم تراجع عن قراره برأي القاضي الفاضل، حسماً لما يمكن أن يسيء إلى وحدة أهل السنة والجماعة، وقمعاً للفتن التي يمكن أنْ تحدث، أو انتشار الشائعات التي روّج مثلها أعداؤه في السابق في الطمع بزيادة الملك وقَلْبِ دولة الخلافة.

كان لقاؤه للحاج يوم الجمعة 15 صفر 589 هـ/ 20 شبطا 1193 م، وعاد إلى القلعة من طريقه المعتاد. وبدأ مرضه ليلة السبت: حُمّى صفراويّة «كانت في باطنه أكثر منها في ظاهره» (1). ثم تزايد المرض تدريجياً، ولم تنفع حكمة الأطباء المهرة الموجودين، وتوفي إلى رحمة الله بعد صلاة الصبح يوم الأربعاء 27 صفر/ 3 آذار. فكان هذا الصباح نهاية سعادة الدنيا لهذا القائد الكبير المجاهد الذي لم يُخَلّف لنفسه من متاع الدنيا من مال وأملاك شيئاً، لكنّه خَلّف ذكراً حسناً وسمعة طيبة وخلوداً سيبقى ما دام لأهل هذه المنطقة من العالم العربي والعالم الإسلامي ذاكرة وتراث وتاريخ وجذور.

(1) يَصِف ابن شداد تطور مرضه يوماً بيوم. وقد كنت أنوي إجراء دراسة لذلك، لكن آثرت ترك الموضوع للمهتمين بتاريخ الطب. انظر النوادر، ص 243 - 247.

ملاحِق

ملحق رقم 1

الخطبة للخليفة العبّاسي بمصر

«ولمّا حصل نجم الدّين بالجامع أحضر الخطيب وقال [له]: إن ذكرت هذا المقيم بالقصر ضربت عنقك. فقال فلمن أخطب؟ قال: للمستضيء العبّاسي. فلمّا صعد المنبر وخطب ووصل إلى ذكر العاضد لم يذكر أحداً لكنّه دعا للأئمة المهديّين وللسّلطان الملك النّاصر، ونزل، فقيل له في ذلك فقال: ما علمت اسم المستضيء ولا نعوته، ولا تقرّر معي في ذلك شيء قبل الجمعة، وفي الجمعة الثانية أفعل إن شاء الله ما يجب فعله في تحرير الاسم والألقاب على جاري العادة في مثل ذلك.

قال: وقيل إنّ العاضد لمّا اتّصل به ما فُعل من قطع اسمه من الخطبة قال لمن خُطب؟ قيل له لم يُخطب لأحد مسمّى، قال: في الجمعة الأخرى يخطبون لرجل مسمّى. واتّفق أنه مات قبل الجمعة الثانية. قيل إنه أفكر واستولى عليه الفكر والهم حتى مات. وقيل إنه لما سمع أنه قطعت خطبته اهتم وقام ليدخل إلى داره فعثر وسقط، فأقام متعلّلاً خمسة أيام ومات. وقيل إنه امتصّ فصّ خاتمه، وكان تحته سمّ، فمات.

ولمّا اتصل موته بالملك الناصر قال: لو علمنا أنه يموت في هذه الجمعة ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة. فحُكي أن القاضي الفاضل قال للسّلطان: لو علم أنّكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت؛ أشار إلى أن العاضد قتل نفسه. وكان موته يوم عاشوراء». الروضتين، 1 ص 499.

ملحق رقم 1 أ
قصـة الرؤيـا

«قال: وحكى ابن المارستاني في سيرة ابن هبيرة الوزير قال: إن من عجيب ما جرى في أمر المصريين أن رأى إنسان من أهل بغداد في سنة خمس وخمسين وخمسمائة (1153)، كأن قمرين أحدهما أنور من الآخر، والأنور منهما مُسامت للقبلة وله لحية سوداء فيها طول، ويهبّ أدنى نسيم فيحركها، وأثر حركتها وظلها في الأرض؛ وكان الرجل يتعجب من ذلك وكأنه سمع أصوات جماعة يقرءون بألحان وأصوات لم يسمع قط مثلها، وكأنه سأل بعض من حضر فقال ما هذا، فقالوا قد استبدل النّاس بإمامهم. قال: وكان الرجل استَقْبل القبلة وهو يدعو الله أن يجعله إماماً برًّا تقيًّا، واستيقظ الرّجل. وبلغ هذا المنام ابن هبيرة الوزير إذ ذاك ببغداد، فعبّر المنام بأنَّ الإمام الذي بمصر يستبدل به وتكون الدعوة لبني العباس لمكان اللّحية السّوداء، وقوى هذا عنده حتّى كاتَبَ نور الدين حين دخل أسد الدِّين إلى مصر في أوَّل مرة بأنه يظفر بمصر وتكون الخطبة لبني العباس بها على يده.

وقيلت في ذلك الزّمان أشعار في هذا، منها قصيدة شمس المعالي أبي الفضائل الحسين بن محمد بن تركان، وكان حاجب ابن هبيرة، قالها حين سمع تأويله المنام:

لتَهنـك يـا مـولـى الأنـام بشـارة ... بهـا سيف دين الله بـالحقّ مرهـف
ضـربـت بهـا هـام الأعـادي بهمّـة ... تقـاصـر عنهـا السمهـري المثقـف
بعثـت إلـى شـرق البـلاد وغـربهـا ... بعـوثـاً مـن الآراء تحيـي وتتلـف

فقامت مقام السيف والسيف قاطر ... ونابت مناب الرمح والرمح يرعف
وقُدت لها جيشاً من الروع هائلا ... إلى كل قلب من عداتك يزحف
ملكت به أقصى المغارب عنوة ... وكادت بمن فيها المشارق ترجف
ليهنك يا مولاي فتحا تَتَابعت ... إليك به حوص الركائب توجف
أخذت به مصراً وقد حال دونها ... من الشرك ناس في لهى الحق تقذف
وقد دنّت منها المنابر عصبة ... يعاف التّقي والدّين منهم ويأنف
فطهّرها من كل شرك وبدعة ... أغرّ غرير بالمكارم يشغف
فعادت بحمد الله باسم إمامنا ... تتيه على كل البلاد وتشر ـ
ولا غرْو أن دانت ليوسف مصره ... وكانت إلى عليائه تتشوّف
تملكها من قبضة الكفر يوسف ... وخلصها من عصبة الرفض يوسف

قال يحيى بن أبي طيّ: يريد بيوسف الأول يوسف الصّديق النّبي ﷺ، وبيوسف الثاني المستنجد بالله الخليفة يومئذٍ، وقاله على سبيل الفأل؛ ألا تراه قال بعد هذا البيت:

فشابهته خلقاً وخلقاً وعفة ... وكل عن الرّحمن في الأرض يخلف

وجرى الفأل في البيت باسم الملك الناصر صلاح الد؛ ن بن أيوب لأن المستنجد مات قبل تغيير الخطبة لبني العباس، وهذا من عجيب الاتفاق.

قلت: وذكر ابن المارستاني في السيرة المذكورة (قال): وكان هذا المنام سبباً إلى أن كاتب الوزيرُ بن هبيرة نورَ الدين بن زنكي يحثه على التعرض لمصر والبعث إليها؛ واتفق في أثناء ذلك نوبة شاور وزير صاحب القصر وقدومه هارباً منه إلى نور الدين، فحرك ذلك ما كان تخمر في نفسه مما كان كاتبه به ابن هبيرة، فاستطلع من شاور الأسباب التي يمكن بها الدخول على المصريين، فشرحها وأوضحها، فسير إليها أسد الدين». **الروضتين**، 1 ص 499 - 501.

ملحق رقم 1 ب

البشارة إلى بغداد بالخطبة العبّاسيّة في مصر

«ولما وصل خبر ذلك إلى نور الدين ندب للبشارة إلى بغداد **شهاب الدين أبا المعالي المطهّر بن أبي عصرون**، وكتب معه نسخة بشارة تقرأ بكل مدينة يمر بها يقول فيها: «أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الإسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا رتاجه، وأوضح لنا منهاجه، وهو ما اعتمدناه من إقامة الدعوة الهادية العباسية، بجميع المدن والبلاد والأقطار والأمصار المصرية والإسكندرية، ومصر والقاهرة، وسائر الأطراف الدانية والقاصية والبادية والحاضرة؛ وانتهت إلى القريب والبعيد، وإلى قوص وأسوان بأقصى الصعيد؛ وهذا شرف لزماننا هذا وأهله، نفتخر به على الأزمنة التي مضت من قبله، وما برحت هممنا إلى مصر مصروفة، وعلى افتتاحها موقوفة، وعزائمنا في إقامة الدعوة الهادية بها ماضية، والأقدار في الأزل بقضاء آرائنا وإنجاز مواعدنا قاضية، حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها، وقدرنا عليها وقد عجزوا عنها. وطالما مرت عليها الحقب الخوالي، وآبت دونها الأيام والليالي، وبقيت مائتين وثمانين سنة ممنوّة بدعوة المبطلين، مملوّة بحزب الشياطين، سابغة ظلالها للضلال، مقفرة المحل إلا من المحال، مفتقرة إلى نصرة من الله تملكها، ونظرة ستدركها، رافعة يدها في أشكائها، متظلمة إليه ليتكفل بإعدائها على أعدائها، حتى أذن الله لغُمتها بالانفراج، ولعلتها بالعلاج؛ وسَبَّب قصد الفرنج لها، وتوجُّههم إليها طمعاً في الاستيلاء عليها. واجتمع داءان: الكفر والبدعة، وكلاهما شديد الروعة، فملكنا الله تلك البلاد، ومكّن لنا في الأرض، وأقدرنا على ما كنا نُؤمّله في إزالة الإلحاد والرفض، ومن إقامة الفرض، وتقدّمنا إلى

من استنبَنَاه أن يستفتح باب السعادة، ويستنجح مالنا من الإرادة، ويقيم الدعوة الهادية العباسية هنالك، ويورد الأدعياء ودعاة الإلحاد بها المهالك».

قال: وسار شهاب الدين بن أبي عصرون إلى جهة بغداد ولم يترك مدينة إلا دخلها بهذه البشارة الجليلة القدر، وقرأ فيها هذا المنشور العظيم الخطر والذكر، حتى وصل إلى بغداد، فخرج الموكبُ إلى تلَقيه وجميعُ أهل بغداد، مكرمين لخطير وروده، معظمين لجليل مورووده. ونثرت عليه دنانير الإنعام، وحُبى بكل إحسان وإكرام، وأرسلت التشريفات إلى نور الدين....».
الروضتين، 1 ص 502.

ملحق رقم 2

كتاب صلاح الدين إلى ديوان الخلافة

«ومن كتابٍ فاضليٍّ عن السلطان صلاح الدين إلى وزير بغداد على يد الخطيب شمس الدين بن أبي المضاء. . . : كتب الخادم هذه الخدمة من مستقره ودين الولاء مشروع، وعلم الجهاد مرفوع، وسؤدد السواد متبوع، وحكم السداد بين الأمة موضوع، وسبب الفساد مقطوع ممنوع. وقد توالت الفتوح غرباً ويمناً وشآماً؛ وصارت البلاد بل الدنيا، والشهر بل الدهر، حرماً حراماً، وأضحى الدين واحداً بعد ما كان أدياناً؛ والخلافة إذا ذكر بها أهل الخلاف لم يخروا عليها [إلا] صُمًّا وعُمياناً؛ والبدعة خاشعة، والجمعة جامعة، والمذلة في شيع الضلال شائعة؛ ذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء، وسموا أعداء الله أصفياء، وتقطعوا أمرهم بينهم شيعاً، وفرقوا أمر الأمة وكان مجتمعاً، وكذبوا بالنار فعجلت لهم نار الحتوف، ونثرت أقلام الظُّبا حروف رؤوسهم نثر الأقلام للحروف، ومزقوا كل ممزق وأخذوا منهم كل مخنق، وقطع دابرهم، ووعظ آيبهم غابرهم، ورغمت أنوفهم ومنابرهم، وحقت عليهم الكلمة تشريداً وقتلاً، وتمَّتْ كلِماتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً؛ وليس السيف عمن سواهم من كفار الفرنج بصائم، ولا الليل عن سير إليهم بنائم. ولا خفاء عن المجلس الصاحبيّ أن من شد عقد خلافة وحلّ عقد خلاف، وقام بدولة وقعد بأخرى قد عجز عنها الأخلاف والأسلاف، فإنه مفتقر إلى أن يُشكر ما نصح، **ويُقلَّد ما فتح، ويبلَّغ ما اقترح، ويقدّم حقه ولا يطرَّح، ويقرب مكانه وإن نزح، وتأتيه التشريفات الشريفة**، وتتواصل إليه أمداد التقويات الجليلة اللطيفة، وتُلَبي دعوته بما أقام من دعوة، وتوصل عروته بما وصل من غزوة، وترفع دونه

الحجب المعترضة، وترسل إليه السحب المروضة، فكل ذلك تعود عوائده، وتبدو فوائده، بالدولة التي كشف وجهه لنصرها، وجرد سيفه لرفع منارها، والقيام بأمرها. وقد أتى البيوت من أبوابها، وطلب النّجعة من سحابها، ووعد آماله الواثقة بجواب كتابها، وأنهض لإيصال ملطفاته وتنجيز تشريفاته خطيب الخطباء بمصر، وهو الذي اختاره لصعود درجة المنبر، وقام بالأمر قيام من برّ، واستفتح بلباس السواد الأعظم، الذي جمع الله عليه السواد الأعظم، أملاً أنه يعود إليه بما يطوي الرجاء فضل عقبه، ويخلد الشرف في عقبة...».
الروضتين، 1 ص 496 - 497.

ملحق رقم 3

عهدُ السلطان صلاح الدين «يوسُفَ بن أيوب» بالديار المصرية من ديوان الإنشاء ببغداد.

إنَّ أوْلى من جادَتْ رِباعَه سُحُبُ الإصْطِناع، وخُصَّ من الإصْطفاء والإجْتباء بالصَّفَايا والمِرْباع، مَنْ تَرَسَّم انتاجَ الجَدَد القويم، والطريقِ الواضِح المستقِيم، واعتلَقَ من الوَلاَء بأَوْثَق عِصَمِه وحِباله، والفِنَاء الذي يَهْتدِي بأنواره في متَصَرَّفاته وأعمالِه؛ والتحَلِّي بجميل الذكر في سيرتِه، وخُلُوص الإعتناءِ بأمُور رعِيَّته؛ وكان راغباً في اقْتِناءِ حَمِيدِ الخِلاَل، مجتهداً في طاعةِ الله بما يُرْضِيه من العدْل الممتدِّ الظِّلال؛ عاملاً فيما يُناطُ به بما يَتضوّعُ نَشْرُ خَبَرِه، ويُجْتَنى بحُسْن صُنعه يانعُ ثمره؛ باذلاً وُسْعَه في الصلاح، مُؤْذِنةً مَساعِيه بفَوْز القِدَاح.

ولمَّا كان الملكُ الأجلُّ، السيدُ؛ صلاحُ الدين، ناصرُ الإسلام، عمادُ الدولة، جَمَالُ المُلْك، فَخْرُ الملة، صَفِيّ الخلافة؛ تاجُ المُلوك والسلاطين، قامعُ الكَفَرة والمشركين، قاهِرُ الخَوارج والمتمرِّدِين، عِزُّ المجاهدين؛ أَلْب غازي بك ابن يُوسف بن أيُّوب ـ أدام الله عُلُوّه ـ على هذه السَّجايا مُقْبِلاً، وبِصفاتِها الكاملة مشتَمِلاً؛ مُؤْثِراً تضاعُفَ المأْثُرات، مثابراً على ما تزْكُو به الأعمالُ الصالحات؛ متَحَلِّياً بالمَحَامد الرائقة، مُستَبِدّاً بالمناقِب التي هي لجميلِ أفعالِه موافِقةٌ مطابِقه؛ محَصِّلاً من رِضَا الله تعالى ما يُؤْثِره ويرومُه؛ [و] من طاعة الدَّار العزِيزة ـ لا زالتْ مُشَيَّدة البِناء، سابغةَ النَّعماء؛ دائمةَ الاستبْشار، عزيزة الأَنْصار ـ [و] من استمرار الظَّفَر ما يستدِيمُه، ـ اقتضَتِ الآراءُ الشريفةُ ـ لا زال التوفيقُ قَرِينَها، والتأييدُ مُظافِرَها ومُعِينَها ـ إمضاءَ تَصَرُّفه وإنفاذَ حُكْمه في

بلاد مِصْرَ وأعمالِها، والصعيدِ الأعلى، والإسكندرية، وما يفتَحُه من بلاد الغَرْب والساحل، وبلادِ اليَمن وما افتتحه منها ويستخلصُه بعدُ من ولايتها؛ والتعويلَ في هذه الويلاتِ عليه، واستنقاذَ ما استولى عليه الكُفَّار من البلاد، وإعزازَ كلِّ مَنْ أذَلُّوه واضْطهدُوه من العباد: لتعُودَ الثُّغورُ بيُمْن نَقِيبته ضاحكةَ المَبَاسِم، وبإصابة رَأْيه قائِمَةَ المَوَاسِم.

أمَرَه بادئاً بتقْوى الله التي هي الجُنَّة الواقيَة، والذَّخِيرةُ الباقِية، والعِصْمة الكافِيَة، والزادُ إذا أنْفضَ وَفْدُ الآخرةِ وأرْمَلُوا، والعَتَادُ النافعُ إذا وجَدُوا شاهداً لهم وعليهم وعمِلُوا: فإنَّها العَلَم المنصوبُ للرَّشَد، قال الله تعالى: **﴿يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَد﴾**.

وأمَرَه أنْ يتَّخِذ كتابَ الله سبحانه العَلَم الذي به يَقْتدي، وبأنوارِه إلى حُدُود الصواب يَهْتدي؛ ويستَمِعَ لزَواجره ومَواعِظه، ويعتَبِر بتخويفه ومَلاَحِظه؛ ويُصْغِيَ إليه بسَمْعه وقلبه، وجَوارِحه ولُبِّه؛ ويعمَلَ بأوامره المحْكَمة، ويقِفَ عند نَوَاهيه المُبْرَمة؛ ويتدَبَّرَ ما حوتْه آياتُه من الوَعْد والوَعيد؛ والزَّجْر والتَّهْدِيد؛ قال الله عزَّ وجل: **﴿وَإنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ منْ حَكِيم حَمِيد﴾**.

وأمَرَ أن يكونَ على صَلاَته محافِظًا، ولنَفْسه عن الإخلال والتقصِيرِ في أداء فَرْضها واعِظاً؛ فيغْتَنِم الاستعدادَ أمامَ أوقاتها للأَدَاء، ويحتَرِز من فَوَاتها والحاجة إلى القَضاء؛ مُوَفِّياً من الرُّكُوع والسُّجود، على الوصْف الواجبِ المحدُود؛ مُخْلِصاً سرَّه عند الدُّخول فيها، وناهياً نَفْسَه عمَّا يصُدّها بالأفكار ويُلْهيها؛ مجتهداً في نَفْي الفِكْر والوِسْواس عن قَلْبه، منتصباً في إخلاصِ العبادة لربِّه: ليغْدُوَ بوَصْف الأبرارِ منْعُوتاً، قال الله تعالى: **﴿إنَّ الصَّلاةَ كانَتْ على المُؤْمنينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾**.

وأمَرَه بقَصْد المساجد الجامعةِ في أيَّام الجُمَع، امتثالاً لأمْرِ الله المتَّبَع؛ بعزيمةٍ في الخير صادِقَة، ونيَّة للعبادة مُوافِقة؛ وفي الأعيادِ إلى المُصَلَّيَات المُصْحِرة المجمَّلة بالمَنَابر الحاليَة، التي هي عن الأدناس مطهَّرةٌ نائِيَه؛ فإنَّها من

مَواضِع العبادة ومَواطِنِها، ومَظَانِّ تلاوةِ القُرآن المأمورِ بحفظ آدابِها وسُنَنِها؛ فقدْ وصف اللهُ تعالى مَنْ وفَّقه لتحميل مُؤَنه بالعِمارة، بما أوْضَح فيه الإِشَارَة؛ وشَرَّفه بوضْع سِمَة الإيمان عليه بالإكرامِ الفاخِر، فقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ﴾: فيُقِيم الدعوة الهاديَة على المَنَابر على عادةِ مَنْ تَقَدّمه، ومُنْتهياً فيها إلى أحسَنِ ما عهِدَه وعَلِمَه.

وأمره بلُزُوم نَزَاهة الحُرُمات، واجتنابِ المُحرَّمات؛ والتحَلِّي من العَفَاف والوَرَع بأجمل القَلَائد الرائِقَة، والتقَمُّص بمَلَابس التقوى التي هي بأمثالِهِ لائِقَة؛ وسلوكِ مَنَاهج الصَّلاح الذي يجْمُلُ به فِعْلُه، ويصْفُو له عَلُّه ونَهَله؛ وأن يمنَعَ نَفْسه من الغَضَب؛ ويُرِدُّها عمَّا تأمُرُ به من سُوء المُكْتَسَب؛ ويأخُذَها بآدابِ الله سبحانَه في نَهْيها عن الهَوى، وحَمْلِها على التَّقْوى؛ ورَدْعَها عن التورُّطِ في المَهَاوِي والشُّبَه، وكلِّ أمْرٍ يلتبِس فيه الحقُّ ويشْتَبِه؛ ويُلْزِمَها الأخْذَ بالعفو والصَّفْح، والتأمُّلَ لمكان الأعمالِ فيه واللَّمْح؛ قال الله تعالى: ﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

وأمَرَه بإحسانِ السِّيرة في الرعايا بِتلكَ البِلادَ، واخْتِصاصِهم بالصَّوْن الرائح الْغَادِ؛ ونَشْر جَناح الرِّعايةِ على البعِيد منهم والقَرِيب، وإحْلالِ كلِّ منهم محَلَّه على القاعدةِ والترتيب؛ وإشاعةِ المَعْدَلة فيهم، وإسْهامِ دانِيهِم مِنْ وافِر مُلاحَظَتِه وقاصِيهم؛ وأن يحْمِيَ سَرْحَهم من كلِّ داعِر، ويَذُودَ عنهم كلَّ مُوارِبٍ بالفَساد ومُظَاهِر؛ حتّى تصْفُوَ لهم من الأَمْن الشَّرائع، وتَضْفُوَ عليهم من بركة وِلَايته المَدَارِع، وتستَنِيرَ بضَوْء العدْل منهم المَطَالع؛ ويحترِمَ أكابِرَهم، ويحْنُوَا على أصاغِرِهم؛ ويشْمَلَهم بكَنَفه ودِرَعه، وينْتهِيَ في مَصَالحهم إلى غاية وُسْعه؛ ولا يَأْلُوهم في النُّصْح جُهْداً، ولا يُخْلِف لهم في الخير وَعْداً؛ ويُشاورَهم في أمره فإنَّ المَشُورة داعيةٌ إلى الفَلَاح، ومِفتاحُ باب الصَّلاح؛ قال الله تعالى: ﴿فاعْفُ عَنْهُمْ واسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ في الأَمْرِ فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ على اللَّهِ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المتَوَكِّلين﴾.

وأمَرَه بإظهار العَدْل في الرعيَّة التي تضُمُّها جميعُ الأكنافِ والأطْراف، والتحَلِّي من النَّصفَة بأكمل الأوْصاف؛ وحَمْلِ كافَّتِهم على أقْوَمِ جَدَد، وعِصْيانِ

الهوى في تَقْويم كلِّ أَوَد؛ والمساواةِ بين الفاضِل والمفضُول في الحقِّ إذا ظهر صِدْقُ دليله، والاشتمالِ عليهم بالأمن الذي يَعْذُب لهم بَرْدُ مقِيله؛ وكشْفِ ظُلامة من انبسطَتْ إلى تَحَيُّفِه الأيْدِي والأطماع، وأعجزَتْه النُّصْرةُ لنفسه والدِّفاع؛ وتصَفُّح أحوالهم بعينٍ لا تَرْنُو إلى هَوًى يميلُ بها عن الواجب، وسَمْع لا يَصْغى إلى مَقَالةِ مائِنٍ ولا كاذب؛ ولا يَغْفُل عن مصلحةٍ تَعُود إليهم، ويرجِعُ نفعُها عليهم؛ ولا عن كَشْف ظُلاماتِ بعضِهم من بعض، وردِّهم إلى الحقِّ في كلِّ رَفْع من أحوالهم وخَفْض، فلا يُرى إلاَّ بالحق عاملاً، وللأُمُور على سَنَن الشريعة حامِلاً؛ مجتنباً إغْفالَ مَصَالحهم وإهمالَهَا، وحارساً نِظامَها على تتابُع الأيَّام واتِّصالها: ليكونَ ذلك إلى وُفُور الأجر داعِياً، وبحسن الأُحْدوثة قاضياً؛ مقتدياً بمانطَق به القرآن: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمرُ بالعَدْل والإِحْسَان﴾.

وأمَرَه أن يأمُر بالمعروف ويُقِيمَ مَنَارَه، ويَنْهى عن المنكر ويمْحُوَ آثارَه؛ فلا يتْرُك مُمْكناً من إظهار الحقِّ وإعْلانِه، وقَمْع الباطلِ وإخْماد نِيرانِه؛ ويعتمِدَ مساعدةَ كل مُرْشِد إلى الطريقِ الأقْصَد، وناهٍ عن التظَاهُر بالمحظُور في كل مَشْهَد؛ وكلِّ مَنْ تضحى مَعُونتُه مشاركةً في إحراز المَثُوبة ومساهِمَه، ومُساومةً في اقْتِناء الأجر ومُقاسِمَه؛ وأن يُوعِزَ بإزالة مَظَانِّ الرِّيَب والفساد في الدَّاني من الأعمال والقاصِي، فإنَّها مَواطِنُ الشيطان وأماكِنُ المَعاصِي؛ وأن يشُدَّ على أيْدي الآمِرين بالمعروف والناهِينَ عن المُنْكَر، ويُعِينَهم على ذلك بما يَطِيبُ ذكرُه في كل مَشْهَد ومَحْضَر؛ ويجتَهِدَ في إزالة كلِّ محظُور ومنْكَر، مقدّمٍ في الباطل ومؤَخَّر؛ قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بالمَعْرُوفِ وانْهَ عن المُنْكَر﴾.

وأَمرَه أن يُقدِّم الاحتياطَ في حفظ الثُّغُور ومجاوِرِيها من الكُفَّار، ويستعمِلَ غايةَ التيقُّظ في ذلك والاستظهار: ليأمَن عليها غَوَائِلَ المَكايِد، ويفُوزَ من التوفيق لذلك بأنواع المَحامِد؛ ويتجرّدَ لجهاد أعداءِ الدين، والانتقام من الكَفَرة المارقين؛ أخْذاً بقول رب العالمين: ﴿انْفِرُوا خِفَافاً وثِقَالاً وجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وأَنْفُسِكُمْ في سبيلِ اللّهِ ذلِكُمْ خيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون﴾. وأن يعملَ فيما يحصُل من الغَنائم عند فَلِّ جُمُوعهم، وافتتاح بلادِهم ورُبُوعهم، بقول الله وما أَمَرَ به قِسْمتها، وإيفاءِ كلِّ صاحبِ حصته منها؛ سالكاً سُبُلَ مَنْ غدا لآثارِ الصلاح

مُقْتفِياً، وللفَرْض في ذلك مؤدِّياً؛ وبهُدى ذَوِي الرشد مُهْتدِياً. قال اللّهُ تعالى في محكم التنزيل: ﴿واعْلَمُوا أنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وللرَّسُولِ ولِذِي القُرْبى والْيَتَامى والمَسَاكِينِ وابنِ السَّبِيلِ﴾.

وأمَرَه أن يُجِيبَ إلى الأَمَانِ مَن طلبَه منه، ويكونُ وفاؤُه مقتَرِناً بما تضَمَّنه؛ غير مُضْمِرٍ خلافَ ما يُعْطِي به صَفْقةَ أمانِه، ويجتَنِبَ الغَدْر وما فيه من العار، وإسْخاط المَلك الجَبَّار؛ قال الله عزّ وجلّ: ﴿وأَوْفُوا بِعَهْدِ اللّهِ إذَا عَاهَدْتُمْ ولا تَنْقُضُوا الأَيْمانَ بعْدَ تَوْكِيدِها وقد جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إنَّ اللّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ﴾.

وأمَرَه بأن يأمُرَ أصحابَ المَعاوِنِ بمساعدة القُضَاة والحُكَّام، ومَعُونتِهم بما يَقْضِي [بلَمِّ] شَمْل الصلاح في تنفيذِ القضايا والانْتِظام، وأخْذ الخُصُوم بإجابةِ الداعي إذا استُحْضِر [وا] إلى أبوابهم للإِنصاف، والمُسارعةِ إلى الحقِّ الواجبِ عليهم من غيْرِ خِلاَف؛ قال الله تعالى: ﴿وأَكْثَرهُمْ للحَقِّ كارِهُون﴾.

وأمره بالتعويل في المَظَالم وأسواقِ الرقيق ودُور الضَّرْب والحِسْبة على مَنْ يَأْوى إلى عَفَافٍ ودين، وعِلْم بأحكام الشريعة وصِحَّةِ يَقِين؛ لا يخفى عليه ما حَرَّمه الله تعالى وأحَلَّه، ولا يتلبسُ على عِلْمه، أوْضَح إلى الحقِّ الواضِح سُبُلَه؛ وإلى مَنْ يتولّى المَظالِمَ بإيصال الخُصُوم إليه، وإنصافِهِم كما أوجبه اللّهُ تعالى عليه؛ واستماعِ ظُلاَماتهم، وإحسان النظَر في مُشاجَرَتهم؛ فإنْ أسفَرَ للحق ضِياءٌ تَبِعه، أو اشتبَهَ الأمرُ ردّه إلى الحُكَّام ورَفَعه. و [إلى] الناظِر في أسواق الرقيق بالاحْتِراز والاستِظْهار، وتَعْرِيةِ الأحوال من الشُّبَه في امْتِزاج العبِيد بالأحرار: لتضحي الأنسابُ مَصُونةً مرعِيَّة، والأموالُ عن الثَّلْم محرُوسةً محميَّة. وإلى من ينظُر في الحِسْبة بتصَفُّح أحوال العامَّة في مَتَاجرهم وأَمْوالِهم، وتتَبُّع آثار صِحَّتهم في المعاملة واعْتِلالِهم؛ واعتبار المَوَازين والمَكَاييل، وإلزام أربابِها الصِّحَّةَ والتعدِيل؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ المُسْتَقِيم﴾.

وأن يُعْمل الجفن في تطهِير البِلاد، من كلِّ مدْخُول الاعتِقاد؛ معروفِ

بالشُّبَه في دِينِه والإلحاد، ومَنْ يسعى منهم في الفَساد؛ ويأمُرَ المرتَّبين في المراكز والأطْراف باقتِناصهم، وكَفَّ فسادِهم وإجْلائهم عن عِرَاصِهم؛ وأن يُجْرِيَ عليهم في السِّياسة ما يجبُ على أمثالهم من الزَّنادقة والذين تَوْبتُهم لا تُقْبل، وأمْرُهم على حُكْم المخاطبين لا يحمل. قال الله تعالى: **﴿إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إيمَانِهِم ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لن تُقْبَل تَوْبتُهم وأُولئك هُم الضَّالُّون﴾**.

وأمَرَه أن يتلَقّى النعمةَ التي أُفْرِغتْ عليه، وانساقَتْ إليه؛ بشُكْر يَنْطِق به لسانُه، ويتُرَجم عنه بَيانُه: ليَستديمَ بذلك الإكرام، ويقْتَرن الإحسانُ عنده بالإلْتئام؛ وأن يُوفِّيها حقَّها من دوام الحمد، والقَصْد إلى شُكْرها والعَمْد؛ قال الله تعالى: **﴿وَمَنْ شَكَرَ فإنَّمَا يَشْكُر لنَفْسه﴾**.

وَليعلمْ أن أمير المؤمنين[1] قد بيَّن له من الصلاح ما اتَّضحَتْ أعلامه، وأُثْبِتتْ في المَرَامي سِهامُه؛ وأرشَد إلى ما أودَع هذا المنشور من جَدَد الفوز بمرضاة الله تعالى وشُكْرِ عباده، عاملاً في ذلك بمقتضى جِدّه واجتِهاده؛ ليُحْرِز السَّبق في دنياه وعُقْباه، ويَتَوفَّر عنده ما مُنِح به مما أرْهَفَ عَزْمَه وحَبَاه؛ وغدا بمكانِه رافِلاً في ملابِس الفَخْر والبَهَاء، نائلاً مني ما طال به مَناكِبَ القُرناء؛ واختصَّ بما أعلى درجَتَه فتقاعسَتْ عنه آمالُ حاسديه، وتفرّد بالمَكانة عن مَقَام من يُباريه ويُناويه؛ وأُولِيَ من الإنعام ما أمَّنَ به سِرْبَ النعمة عنده، وأَصْفى من مَناهِل الإحسان وِرْده؛ وأهدى إليه من المواعظ ما يجِبُ أن يُودِعه واعيةَ الأسماع، ويأخُذَ بالعمل به كلُّ راعٍ؛ فيَنْهَج ـ أدام الله علوّه ـ مَحاجَّ الولاء، الذي عَهِده من أمثاله من الأولياء؛ متنَزِّهاً عن تقصيرٍ منه في عامَّة الأوقات، ومراعياً أفعالَه في جميع التصرُّفات؛ ويعلم أنَّه مسؤُولٌ عن كل ما تلفَّظ به لسانُه ناطقاً، ونَظَر طَرْفُه إليه رامقاً؛ قبْلَ أن يُجانِب هَوَاه، ويَبْقى رهِيناً بما اكتسبَتْ يداه؛ ولا يغتَرَّ من الدنيا وزُخْرفِها بغَرَّار ليس الوفاءُ من طباعه، ومُعِيرٍ ما أقْصَر مدَّةَ ارتجاعه!؛ وسبيلُ كافَّة القضاة والأعيان ومقدّمِي العساكر والأجناد، ورُؤساءِ البلاد، متابَعتُه وموافَقتُه، وطلُب مصالحهم من جَنابِه، والتصرفُ على

(1) في الأصل وليعلم أن الله وهو غير موافق لباقي الكلام كما لا يخفى.

استصوابه؛ وقد أُكِّدتْ وَصاتُه في الرفق بهم والاشتمالِ عليهم، والإحسان إليهم، وإجْمال السِّيرة فيهم؛ وكلَّما أشكل عليه أمْرٌ من المتجدّدات يطالع به الديوانَ العزيز ـ مجده الله تعالى ـ ليُنْهِج له السبيل إلى فتح رِتَاجه، وسُلِوك مِنْهاجه؛ والله وليُّ التوفيق والهداية، وجمعِ الكلمةِ في كلِّ إعادةٍ وبِداية، والمعونةِ على العِصْمة من الزَّلَل، والتأييدِ في القول العمَل؛ إن شاء الله تعالى، وهو حسبُنا ونِعْم الوكيل». **صبح الأعشى**، 10 ص 145 - 152.

ملحق رقم 4

قِصّة الاجتماع الأيوبي في القاهرة

«وكان الحادث أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلاد الفرنج والنزول على الكرك ومحاصرته، ليجمع هو أيضاً عساكره ويسير إليه، ويجتمعا هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم. فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرم، وكتب إلى نور الدين يعرفه أن رحيله لا يتأخر؛ وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو، فلما أتاه الخبر بذلك رحل من دمشق عازماً على قصد الكرك، فوصل إليه، وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليه، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول باختلال البلاد، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها فعاد إليها؛ فلم يقبل نور الدين عذره.

وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوّفوه من الاجتماع بنور الدّين. فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شقّ ذلك عليه، وعظم عنده، وعزم على الدّخول إلى مصر وإخراج صلاح الدين عنها. فبلغ الخبر صلاح الدين فجمع أهله، وفيهم والده نجم الدين، وخاله شهاب الدين الحارمي، ومعهم سائر الأمراء، وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين على قصده وأخذ مصر منه؛ واستشارهم، فلم يجبه أحد منهم بشيء. فقام ابن أخيه تقي الدين عمر وقال: إذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن البلاد؛ ووافقه غيره من أهله. فشتمهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه، وكان ذا رأي ومكر، وكيد وعقل، وقال لتقيّ الدين: أقعد، وسَبَّه؛ وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك، أتظنّ في هؤلاء كلِّهم مَنْ يحبّك ويريد لك الخير مثلنا؟ فقال: لا، فقال: والله لو رأيت أنا وهذا

خالك نور الدين لم يمكِنَّا إلاّ أن نترجّل إليه ونقبّل الأرض بين يديه، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيّف لفلعنا؛ فإذا كنّا نحن هكذا كيف يكون غيرنا، وكلّ من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر على الثّبات على سرجه، ولا وسِعَه إلاّ النزول وتقبيل الأرض بين يديه؛ وهذه البلاد له، وقد أقامك فيها، فإن أراد عزلك فأيّ حاجة به إلى المجيء؟ يأمرك بكتاب مع نجّاب حتّى تقصد خدمته ويولّي بلاده من يريد! وقال للجماعة كلّهم: قوموا عنا فنحن مماليك نور الدين وعبيده، ويفعل بنا ما يريد. فتفرّقوا على هذا، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر.

ولما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين قال: أنت جاهل قليل المعرفة؛ تجمع هذا الجمع الكبير وتُطلِعُهم على ما في نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أهم الأمور إليه وأولاها بالقصد، ولو قصدك لم تر مَعَك من هذا العسكر أحداً، وكانوا أسلموك إليه؛ وأمّا الآن بعد هذا المجلس، فيكتبُون إليه ويعرفونه قولي، وتكتب أنت إليه وترسل في هذا المعنى وتَقُول: أيّ حاجة إلى قصدي؟ يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي؛ فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهمّ عنده، والأيام تَنْدرج، والله كل وقت في شأن». **الروضتين**، 1 ص 518 - 519.

ملحق رقم 5

الوزير ابن القيسراني في مصر لعمل حسابها

«قال ابن أبي طيّ: وفي هذه السنة وصل رسول نور الدين الموفق بن القيسراني إلى الديار المصريّة، واجتمع بالسلطان الملك الناصر، وأنهى إليه رسالة نور الدين، وطالبه بحساب جميع ما حصله وارتفع إليه من ارتفاع البلاد. فصعب ذلك على السلطان وأراد شق العصا لولا ما ثاب إليه من السكينة. ثم أمر بعمل الحساب، وعرضه على ابن القيسراني، وأراه جرائد الأجناد بمبالغ إقطاعهم وتعيين جامكياتهم ورواتب نفقاتهم. فلمّا حصل عنده جميع ذلك أرسل معه هديّة إلى نور الدين على يد الفقيه عيسى.

قال: ووقفت على برنامج شرحها بخط الموفق بن القيسراني وهي خمس ختمات؛ إحداها ختمة ثلاثون جزءاً مغشّاة بأطلس أزرق، مطلية بصفائح ذهب، وعليها أقفال ذهب، مكتوبة بذهب، بخط يانس؛ وختمة بخط راشد مغشاة بديباج فُسْتُقي عشرة أجزاء؛ وختمة بخطّ ابن البواب، مجلّد واحد بقفل ذهب؛ وختمة بخطّ مهلهل، جزء واحد؛ وختمة بخطّ الحاكم البغـدادي ثلاثة أحجار باخش، حجر وزنه اثنان وعشرون مثقَالاً، وحجر وزنه اثنا عشر مثقالاً، وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف؛ ست قصبات زمرد، قصبة (171 ب) وزنها ثلاثة عشر مثقالاً وثلث وربع، وقصبة وزنها ثلاثة مثاقيل، وقصبة وزنها مثقالان ونصف، وقصبة وزنها مثقالان وربع وسدس، وقصبة وزنها مثقالان وثلث؛ وحجر ياقوت وزنه سبعة مثاقيل؛ وحجر أزرق وزنه ست مثاقيل وسدس؛ مائة عقد جوهر مختومة وزنها جيعها ثمانمائة وسبعة وخمسون مثقالاً؛ خمسون

قارورة دهن بلسان؛ عشرون قطعة بلور؛ أربعَ عشرة قطعة جزع، وذكر تفصيلها؛ إبريق يشم، طشت يشم سقرق ميناء وذهب؛ صحون صيني وزبادي وسكارج؛ أربعون قطع عود طيب قطعتين كبار؛ كرتان وزن إحداهما ثلاثون رطلاً بالمصري والأخرى [و] أحد وعشرون رطلاً؛ مائة ثوب أطلس؛ أربعة وعشرون بقياراً مذهبة؛ أربعة وعشرون ثوباً حريرياً؛ أربعة وعشرون ثوباً من الوشي حريرية بيض؛ حلة فلفلي مذهبة؛ حلة مرايش صفراء مذهبة. وذكر غير ذلك أنواعاً من القماش قيمتها مائتان وخمسة وعشرون ألف دينار مصرية، وعدّة من الخيل والغلمان والجواري، وشيئاً كثيراً من السّلاح على اختلاف ضروبه».

الروضتين، 1 ص 558 - 559.

ملحق رقم 6

المؤامرة

وقال ابن أبي طيّ: وقد كتب القاضي الفاضل إلى نور الدين كتاباً شرح فيه قضية المصلّبين، فقال بعد مطلع الكتاب: «قصر هذه الخدمة على متجددٍ سار للإسلام وأهله، وبشارة مؤذنة بظهور وعد الله في إظهاره على الدين كله، بعد أن كانت لها مقدّمات عظيمة إلا أنها أسفرت عن النُّجح، وأوائل كالليلة البهيمة إلا أنها انفرجت عن الصبح؛ فالإسلام ببركاته البادية وفتكاته الماضية قد عاد مستوطناً بعد أن كان غريباً، وضرب في البلاد بجرانه بعد أن كان لكفر يتم عليه تخيلاً عجيباً؛ إلا أنّ الله سبحانه أَطلع عَلَى أمرها من أوّله، وأظهر على سرها من مستقبله؛ والمملوك يأخذ في ذكر الخبر ويعرض عن ذكر الأثر».

«لم يزل يُتوسم من جند مصر ومن أهل القصر بعد ما أزال الله من بدعتهم، ونقض من عُرى دولتهم، وخفض من مرفوع كلمتهم، أنهم أعداء وإن تعدّت بهم الأيام، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الإسلام. وكان لا يحتقر منهم حقيراً ولا يستبعد منهم شراً كبيراً، وعيونه لمقاصدهم موكلة، وخطراته في التحرز منهم مستعملة، لا تخلو سنة تمر، ولا شهر يكرّ، من مكر يجتمعون عليه، وفساد يتسرعون إليه، وحيلة يبرمونها، ومكيدة يتممونها. وكان أكثر ما يتعللون به ويستريحون إليه المكاتبات المتواترة، والمراسلات المتقاطرة، إلى الفرنج خذلهم الله تعالى، التي يوسعون لهم فيها سبل المطامع، ويحملونهم فيها على العظائم والفظائع. ويزينون لهم الإقدام والقدوم، ويخلعون فيها ربة الإسلام خلع المرتد المخصوم؛ ويد الفرنج بحمد الله قصيرة عن إجابتهم، إلا أنهم لا يقطعون حبل طمعهم على عادتهم. وكان ملك الفرنج كلما سوّلت له

نفسه الاستتار في مراسلتهم، والتحيل في مفاوضتهم، سير «جرج» كاتبه رسولاً إلينا ظاهراً وإليهم باطناً، عارضاً علينا الجميل الذي ما قبلته قط أنفسنا، وعاقداً معهم القبيح الذي يشتمل عليه في وقته علمنا. ولأهل القص ـ والمصريين في أثناء هذه المدد رسل تتردّد، وكتب إلى الفرنج تتجدّد».

«ثم قال والمولى عالم أنّ عادة أوليائه المستفادة من أدبة ألاّ يبسطوا عق اً مؤلماً، ولا يعذّبوا عذاباً محكماً؛ وإذا طال لهم الاعتقال، ولم ينجع السؤال. أطلق سراحهم، وخلي سبيلهم، فلا يزيدهم العفو إلا ضراوة، ولا الرقة عليهم إلا قساوة. وعند وصول جرج في هذه الدفعة الأخيرة رسولاً إلينا بزعمه، ورد إلينا كتاب ممن لا نرتاب به من قومه، يذكرون أنه رسول مخاتلة، لا رسول مجاملة، وحامل بليّة، لا حامل هدية؛ فأوهمناه الإغفال عن التيقظ لكل ما يصدر منه وإليه، فتوصل مرة بالخروج ليلاً، ومرة بالركوب إلى الكنيسة وغيرها نهاراً، إلى الاجتماع بحاشية القصر وخدّامه، وبأمراء المصريين وأسبابهم، وجماعة من النصارى واليهود وكلابهم وكتابهم، فدسسنا إليهم من طائفتهم مَن داخلهم، فصار ينقل إلينا أخبارهم، ويرفع إلينا أحوالهم. ولما تكاثرت الأقوال، وكاد يشتهر علمنا بهذه الأحوال، استخرنا الله تعالى وقبضنا على جماعة مفسدة، وطائفة من هذا الجنس متمردة، قد اشتملت على الاعتقادات المارقة، والسرائر المنافقة، فكلاًّ أخذ الله بذنبه، فمنهم من أقرّ طائعاً عند إحضاره، ومنهم من أقرّ بعد ضربه، فانكشفت أمور أخر كانت مكتومة، ونوب غير التي كانت عندنا معلومة، وتقريرات مختلفة في المراد، متفقة في الفساد».

ثم ذكر تفصيلاً حاصله أنهم عينوا خليفة ووزيراً مختلفين في ذلك، فمنهم من طلب إقامة رجل كبير السن من بني عم العاضد، ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد وإن كان صغيراً: واختلف هؤلاء في تعيين واحد من ولدين له. وأما بنو رزيّك وأهل شاور فكل منهم أراد الوزارة لبيتهم من غير أن يكون لهم غرض في تعيين الخليفة.

ثم قال: وكانوا فيما تقدم، والمملوك على الكرك والشوبك بالعسكر، قد كاتبوهم وقالوا لهم إنه بعيد والفرصة أمكنت، فإذا وصل الملك الفرنجي إلى

صَدْر أو إلى أيلة ثارت حاشية القصر وكافة الجند وطائفة السودان وجموع الأرمن وعامة الإسماعيلية وفتكت بأهلنا وأصحابنا بالقاهرة.

ثم قال: «ولما وصل «جرج» كتبوا إلى الملك الفرنجي أن العساكر متباعدة في نواحي إقطاعاتهم، وعلى قرب من موسم غلاتهم، وأنه لم يبق في القاهرة إلا بعضهم وإذا بعثت أسطولاً إلى بعض الثغور أنهض فلاناً من عنده وبقي في البلد وحده، ففعلنا ما تقدّم ذكره من الثورة».

ثم قال: «وفي أثناء هذه المدة كاتبوا سناناً صاحب الحشيشية بأن الدّعوة واحدة والكلمة جامعة، وأن ما بين أهلها خلاف إلا فيما لا يفترق به كلمة، ولا يجب به قعود عن نصرة؛ واستدعوْا منه من يتُمّ على المملوك غيلة، أو يبيت له مكيدة وحيلة، ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ وكان الرسول إليهم عن المصريين خال ابن قرجلة المقيم الآن هو وابن أخته عند الفرنج».

«ولمّا صح الخبر وكان حكم الله أولى ما أخذ به، وأدب الله أمضى فيمن خرج عن أدبه، وتناصرت من أهل العلم الفتاوي، وتوالت من أهل المشورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوي، قتل الله بسيف الشرع المطهر جماعة من الغواة والغلاة، الدعاة إلى النّار، الحاملين لأثقالهم وأثقال من أضلوه من الفجّار؛ وشنقوا على باب قصورهم، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم؛ ووقع التتبع لأتباعهم، وشردت طائفة الإسماعيلية ونفوا، ونودي بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر وراجل السودان إلى أقصى بلاد الصعيد، فأما مَنْ في القصر فقد وقعت الحوطة عليهم إلى أن ينكشف وجه رأي يمضي فيهم، ولا رأي فوق رأي المولى، والله سبحانه مستخار، وهو المستشار، وعنده من أهل العلم من تطيب النفس بتقليده، وتمضي الحدود بتحديده. ورأى المملوك إخراجهم من القصر فإنهم مهما بقوا فيه بقيت مادّة لا تنحسر الأطماع عنها، فإنه حبالة للضلال منصوبة، وبيعة للبدع محجوجة». قال المؤلف لعلّها محجوبة».
الروضتين، ج 1 ص 562 - 565.

«ومما يطرف به المولى أن ثغر الإسكندرية على عموم مذهب السنة فيه،

أَطْلَعَ البحث أن فيه داعية خبيثاً أمره، محتقراً شخصه، عظيماً كفره، يسمى قديد القفاص، وأن المذكور مع خموله في الديار المصرية، قد فشت في الشام دعوته، وطبقت عقول أهل مصر فتنته، وأن أرباب المعايش فيه يحملون إليه جزءاً من كسبهم، والنسوان يبعثن إليه شطراً وافياً من أموالهنّ؛ ووجدت في منزله بالإسكندرية عند القبض له، والهجوم عليه، كتُب محرّرة فيها خرم العذار، وصريح الكفر الذي ما عنه اعتذار، ورقاع يخاطب بها فيها ما تقشعرّ منه الجلود (وكان يدعي النسب إلى أهل القصر، وأنه خرج منه صغيراً ونشأ على الضلالة كبيراً). وبالجملة فقد كفي الإسلام أمره، وحاق به مكره، وصرعه كفره». **الروضتين**، 1 ص 220 - 221.

ملحق رقم 7

كتاب صلاح الدين إلى الخليفة العبّاسي المستضيء سائلاً التقليد على مصر والشام وغيرها

ثم أرسل السلطان الخطيب شمس الدين بن الوزير أبي المضاء إلى الديوان العزيز برسالة ضمنها القاضي الفاضل كتاباً طويلاً رائقاً فائقاً، يشتمل على تعداد ما للسلطان من الأيادي من جهاد الإفرنج في حياة نور الدين، ثم فتح مصر واليمن، وبلادٍ جمة من أطراف المغرب، وإقامة الخطبة العباسية بها. يقول في أوله للرسول:

«فإذا قضي التسليم حق اللقاء، واستدعى الإخلاص جهد الدعاء، فلْيعُدْ وليعدَّ حوادث ما كانت حديثاً يفترى، وجواريَ أمور إن قال فيها كثيراً فأكثرُ منه ما قد جرى؛ وليشرح صدْراً منها لعلّه يشرح منها صدراً، ولْيوضح الأحوال المستسرة فإن الله لا يُعبد سراً:

ومـن الغـرائـب أن تسيـر عـرائـب   فـي الأرض لـم يعلـم بهـا المـأمـول
كالعيس: أقتل ما يكون لها الصدى   والمـاء فـوق ظهـورهـا محمـول

فإنا كنا نقْتبس النار بأكفنا وغيرنا يستنير، ونستنبط الماء بأيدينا وسوانا يستمير؛ ونَلْقى السهام بنحورنا وغيرنا يعتمد التصوير، ونصافح الصفاح بصدورنا وغيرنا يدعي التصدير. ولا بدّ أن نسترد بضاعتنا بموقف العدل الذي تُرد به الغُصوب، وتظهر طاعتنا فنأخذ بحظ الألسن كما أخذنا بحظ القلوب. وما كان العائق إلاّ أنا كنّا ننتظر ابتداءً من الجانب الشريف بالنّعمة، يضاهي ابتداءنا بالخدمة، وإنجاباً للحق، يشاكل إنجابنا للسبق. كان أول أمرنا أنا كنا في الشام نفتتح الفتوح مباشرين بأنفسنا، ونجاهد الكفار مُتقدمين لعساكرنا،

نحن ووالدنا وعمنا. فأي مدينة فُتحت، أو مَعْقل مُلك، أو عسكر للعدو كُسر، أو مصاف للإسلام معه ضرب (ولم نكن فيه). فما يجهل أحد صنْعنا، ولا يجحد عدونا أنا نصطلي الجمرة ونملك الكرة، ونتقدم الجماعة، ونُرتب المقاتلة، وندبر التعبئة، إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرُها، ولا يضرنا أن يكون لغيرنا ذكرُها».

«وكانت أخبار مصر تتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سوء تدبير، وبما دَوّلتها عليه من غلبة صغير على كبير، وأن النظام بها قد فسد، والإسلام بها قد ضعف عن إقامته كل من قام وقعد. والفرنج قد احتاج من يدبرها إلى أن يقاطعهم بأموال كثيرة، لها مقادير خطيرة؛ وأن كلمة السنة بها وإن كانت مجموعة فإنها مقموعة، وأحكام الشريعة وإن كانت مسماة فإنها متحاماة. وتلك البدع بها على ما يعلم، وتلك الضلالات فيها على ما يفتي فيه بفراق الإسلام ويحكم؛ وذلك المذهب قد خالط من أهله اللحم والدم، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهة تُعبد من دون الله وتعظم وتفخم؛ فتعالى الله عن شبَه العباد، وويل لمن غرّه تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ. فسمت همّتنا دون همم أهل الأرض إلى أن نستفتح مُقفلها، ونسترجع للإسلام شاردها، ونعيد على الدين ضالته منها. فسرنا إليها في عساكر ضخمة، وجموع جمّة، وبأموال انتهكت الموجود، وبلغت منا المجهود، أنفقناها من حاصل ذممنا وكسب أيدينا، وثمن أسارى الفرنج الواقعين في قبضتنا؛ فعرضت عوارض منعت، وتوجّهت للمصريين رسل باستنجاد الفرنج قطعت، ولِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ، ولكل أمل باب. وكان في تقدير الله تعالى أنا نملكها على الوجه الأحسن، ونأخذها بالحكم الأقوى الأمْكن، فغدر الفرنج بالمصريين غدرة في هدنة عظم خطبها وخبطها، وعلم أن استئصال كلمة الإسلام محطها. فكاتبنا المسلمون من مصر في ذلك الزمان، كما كاتبنا المسلمون في الشام في هذا الأوان، بأنّا إنْ لم ندرك الأمر وإلاّ خرج عن الْيَد، وإنْ لم ندفع غريم اليوم لم نمْهَل إلى الغد. فسرنا بالعساكر المجموعة، والأمراء الأهل المعروفة، إلى بلاد قد تمهّد لنا بها أمران، وتقرّر لنا في القلوب وُدّان: الأول ما علموه من إيثارنا للمذهب الأقوم، وإحياء الحق الأقدم؛

والآخر ما يرجونه من فك أسارهم؛ وإقالة عثارهم. ففعل الله ما هو أهلُه، وجاء الخبر إلى العدو فانقطع حبله، وضاقت به سُبله، وأفرج عن الديار بعد أن كانت ضياعها ورساتيقها، وبلادها وأقاليمها، قد نفذت فيها أوامره، وخفقت عليها صلبانه، ونصبت بها أوثانه، وأُيِس من أنْ يُسترجع ما كان بأيديهم حاصلاً، وأن يُستنقذ ما صار في ملكهم داخلاً. ووصلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير، وسوادهم كبير، وأموالهم واسعة، وكلمتهم جامعة، وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفر، والحيلة في السُرّ فيهم أنفذ من العزيمة في الجهر؛ وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف، كلهم أغنام أعجام، إنْ هُمْ إلاّ كالأَنْعَام، لا يعرفون ربًّا إلاّ ساكن قصره، ولا قبلةً إلا ما يتوجهون إليه من ركنه، وامتثال أمره؛ وبها عسكر من الأرمن باقُون على النّصرانية، موضوعة عنهم الجزية، كانت لهم شوكة وشكة، وحمة وحمية؛ ولهم حواشٍ لقصورهم من بين داع تتلطف في الضلال مداخله، وتصيب القلوب مخاتله، ومن بين كُتّاب تفعل أقلامهم أفعال الأسل، وخُدّام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النحل؛ ودولة قد كبر نملها الصغير، ولم يعرف غيرها الكبير، ومهابة تمنع من خطرات الضمير، فكيف بخطوات التدبير. هذا إلى استباحةٍ للمحارم ظاهرة، وتعطيل للفرائض على عادةٍ جاريةٍ جائرة، وتحريفٍ للشريعة بالتأويل، وعدول إلى غير مُراد الله بالتنزيل، وكفرٍ سُمي بغير اسمه، وشرعٍ يتستر به ويحكم بغير حكمه. فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار، ونتحيّفهم تحيُّف الليل والنهار، بعجائب تدبير لا تحتملها المساطير، وغرائب تقدير لا تحملها الأساطير، ولطيف توصّلٍ ما كان من حيلة البشر ولا قدرتهم لولا إعانة المقادير. وفي أثناء ذلك استنجدوا علينا الفرنج، دفعة إلى بلبيس ودَفْعة إلى دمياط، وفي كلّ دفعة منهما وصلوا بالعدد المجهر، والحشد الأوقر، وخصوصاً في نوبة دمياط، فإنهم نزلوها بحراً في ألف مركب، مقاتل وحامل، وبرًّا في مائتي ألف فارس وراجل، وحصروها شهرين يباكرونها ويراوحونها، ويماسونها ويصابحونها القتال الذي يصلبه الصليب، والقراع الذي ينادي به الموت من (كلّ) مكان قريب ونحن نقاتل العدوين الباطن والظاهر، ونصابر الضّررين

المنافق والكافر، حتى أتى الله بأمره، وأيدينا بنصره، وخابت المطامع من المصريين والفرنج، وشرعنا في تلك الطوائف من الأرمن والسودان والأجناد، فأخرجناهم من القاهرة، تارةً بالأوامر المرهقة لهم، و [تارةً] بالأمور الفاضحة منهم، و [طوراً] بالسيوف المجردة، وبالنار المحرقة، حتى بقي القصر ومن به من خدم ومن ذرّية قد تفرّقت شيعه، وتمزقت بدعه، وخفَتَت دعوته، وخفِيَت ضلالته؛ فهنالك تم لنا إقامة الكلمة، والجهر بالخطبة، والرفع للواء الأسود المعظم، وعاجل الله الطاغية الأكبر بهلاكه [وفنائه]، وبرأنا من عُهدة يمين كان إثم حنثها أيسر من إثم إبقائه، لأنه عوجل لفرط روعته، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته. ولما خلا درعنا، ورحب وسعنا، نظرنا في الغزوات إلى بلاد الكفار، فلم تخرج سنة إلا عن سنة أقيمت فيها براً وبحراً، مركباً وظهراً، إلى أن أوسعناهم قتلاً وأسراً، وملكنا رقابهم قهراً وقسراً، وفتحنا لهم معاقل ما خطر أهل الإسلام فيها منذ أُخذت من أيديهم، ولا أُوجفت عليها خيلهم ولا ركابهم مذ ملكها أعاديهم. فمنها ما حكمت فيه يد الحراب، ومنها ما استولت عليه يد الاكتساب، ومنها قلعة بثغر أيلة كان العدوّ قد بناها في بحر الهند، وهو المسلوك منه إلى الحرمين واليمن، وغزا ساحل الحرم، فساء منه خلقاً، وخرق الكفر في هذا الجانب خرقاً، فكادت القبلة أن يستولي على أصلها، ومشاعر الله أن يسكنها غير أهلها، ومقام الخليل عليه السلام أن يقوم به من نَارُه غيرُ بَرْدٍ وسلام، ومضجع الرسول ﷺ أن يتطرقه من لا يدين بما جاء به من الإسلام. فأخذت هذه القلعة وصارت معقلاً للجهاد، وموئلاً لسُفّار البلاد، وغيرهم من عبّاد العباد».

ثم قال: «وكان باليمن ما علم من ابن مهدي الضال الملحد، المبدع المتمرّد، وله آثار في الإسلام، وثأر طالبه النبيّ عليه الصلاة والسلام، لأنه سبى الشرائف الصالحات، وباعهن بالثمن البخس، واسْتباح منهنّ كل ما لا يقر لمسلم عليه نفس؛ ودان ببدعة، ودعا إلى قبر أبيه وسماه كعبة، وأخذ أموال الرّعايا المعصومة وأجاحها، وأحلّ الفروج المحرّمة وأباحها. فأنْهَضْنا إليه أخانا بعسكرنا بعد أن تكلّفنا نفقات واسعة، وأسلحة رائعة؛ وسار فأخذناه ولله

الحمد، وأنْجَح الله فيه القَصْد؛ والكلمة هنالك بمشيئة الله إلى الهند سامية، وإلى ما يفْتَضّ الإسلام عذرته متمادية».

«ولنا في الغرب أثر أغرب، وفي أعماله أعمال دون مطلبها مهالك كما يكون المهلك دون المطلب؛ وذلك أن بني عبد المؤمن قد اشتهر أنّ أمْرَهم قد أَمِر، وملكهم قد عُمِر، وجيوشهم لا تطاق، وأمرهم لا يشاقّ، ونحن بحمد الله قد تملكنا مما يجاورنا منه بلاداً تزيد مسافتها على شهر، وسيرنا إليها عسكراً بعد عسكر، فرجع بنصر بعد نصر. ومن البلاد المشاهير، والأقاليم الجماهير: برقة، قَفْصة، قسطيلية، تَوْزَر؛ كلّ هذه تقام فيها الخطبة لمولانا الإمام المستضيء بأمر الله، أمير المؤمنين، سلام الله عليه؛ ولا عهد للإسلام بإقامتها، وينفذ فيها الأحكام بعلمها المنصور وعلامتها».

«وفي هذه السنة كان عندنا وفْدٌ قد شاهده وفود الأمصار، ورموه بأسماع وأبصار، مقداره سبعون راكباً، كلّهم يطلب لسلطان بلده تقليداً، ويرجو منا وعداً ويخاف وعيداً؛ وقد صدرت عنا بحمد الله تقاليدها، وألقيت مقاليدها، وسَيَّرنا الخلع والمناشير والألوية، بما فيها من الأوامر والأقضية. فأما الأعداء المحدقون بهذه البلاد، والكفار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام والعزائم الشّداد، فمنهم صاحب قسطنطينية، وهو الطاغية الأكبر، والجالوت الأكفر، وصاحب المملكة التي أكلت على الدّهر وشربت، وقائم النصرانية الذي حكمت دولته على ممالكها وغلبت، جَرَت لنا معه غزوات بحرية، ومناقلات ظاهرة وسرّية، ولم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رسله في جمعة واحدة نَوْبتين، بكتابين، كلّ واحدٍ منهما يظهر فيه خفض الجناح، وإلقاء السلاح، والانتقال من معاداة إلى مهاداة، ومن مفاضحة إلى مناصحة، حتى إنه أنذر بصاحب صقلية وأساطيله التي تردّد ذكرها، وعساكره التي لم يخف أمرها».

«ومن هؤلاء الكفار هذا صاحب صقلية، كان حين علم بأن صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا في نوبة دمياط فغلبا وقُسرا، وهزما وكُسرا، أراد أن يظهر قوته المستقلة، فعمر أسطولاً استوعب فيه ماله وزمانه، فله الآن خمس

سنين تكثُر عِدّته، وتنتخب عُدّته، إلى أن وصل منها في السنة الخالية إلى الإسكندرية أمر رائع، وخطب هائل، ما أثقل ظهر البحر مثل حمله، ولا ملأ صدره مثل خيله ورَجْله؛ وما هو إلا إقليم، بل أقاليم، نقله، وجيش ما احتفل ملك قط بنظيره لولا أن الله خذله».

«ومن هؤلاء الجيوش البنادقة، والبياشنة، والجنوية، كلّ هؤلاء تارةً يكونون غزاةً لا تُطاق ضراوة ضرّهم، ولا تُطفأ شرارة شرّهم، وتارةً يكونون سُفّاراً يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة، وتقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده؛ وكلهم قد قُرِّرت معهم المواصلة، وانتظمت معهم المسالمة، على ما نريد ويكرهون، وعلى ما نؤثرُ وَهُمْ لا يؤثرون».

«ولما قضى الله سبحانه بالوفاة النورية، وكنا في تلك السنة على نيّة الغزاة، والعساكر قد تجهزت، والمضارب قد برزت، ونزل الفرنج [على] بانياس، وأشرفوا على اجتيازها ورأوها فرصة مدُّوا يَدَ انتهازها، استصرخ بنا صاحبها، فسرنا مراحل اتصل بالعدوّ أمرها، وعوجل بالهدنة الدمشقية التي لولا مسيرنا ما انتظم حكمها».

«ثم عدنا إلى البلاد وتوافت إلينا الأخبار بما المملكة النورية عليه من تشعُّب الآراء وتوزعها، وتشتُّت الأمور وتقطعها، وأن كلّ قلعة قد حصل فيها صاحب، وكلّ جانب قد طمح إليه طالب، والفرنج قد بنوا قلاعاً يتحيَّفون بها الأطراف الإسلامية، ويضايقون بها البلاد الشامية، وأمراء الدولة النورية قد سجن كبارهم، وعُوقبوا وصودروا، والمماليك الأعماد الذين خدموا الأطراف لا الصدور، وجعلوا للقيام لا للقعود في المجلس المحضور، قد مدُّوا الأيدي والأعين والسيوف، وسارت سيرتهم في الأمر بالمنكر والنّهي عن المعروف، وكلّ واحد يتخذ عند الفرنج يداً، ويجعلهم لظهره سنداً. وعلمنا أن البيت المقدس إن لم تتيسّر الأسباب لفتحه، وأمرَ الكُفر إنْ لم يُجرد العزم في قلعه، وإلا نبتت عروقه، واتسعت على أهل الدين خُروقه؛ وكانت الحجة لله قائمة، وهمم القادرين بالقعود آثمة. وإنّا لا نتمكن بمصر منه مع بعد المسافة، وانقطاع

العمارة، وكلال الدواب التي بها على الجهاد القوة، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية، والمنفعة جامعة، واليد قادرة، والبلاد قريبة، والغزوة ممكنة، والميرة متسعة، والخيل مستريحة، والعساكر كثيرة الجموع، والأوقات مساعدة. وأصلحنا ما في الشام من عقائد معتَلّة، وأمور مختَلّة، وآراء فاسدة، وأمراء متحاسدة؛ وأطماع غالبة، وعقول غائبة، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه، فإنّا به أوْلى من قوم يأكلون الدّنيا باسمه، ويُظهرون الوفاء في خدمته، وهم عاملون بظلمه».

«والمراد الآن هو كلّ ما يقوّي الدولة، ويؤكد الدعوة، ويجمع الأمة، ويحفظ الألفة، ويضمن الرأفة، ويفتح بقية البلاد؛ وأن يطبق بالاسم العباسي كل ما تطيفه العهاد، وهو تقليد جامع بمصر، واليمن، والمغرب، والشام، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية، وكلّ ما يفتحه الله تعالى للدولة العباسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا، ولمن نقيمه من أخ أو ولد من بعدنا، تقليداً يضمن للنعمة تخليداً، وللدعوة تجديداً، مع ما ينعم به من السّمات التي فيها الملك. وبالجملة فالشام لا ينتظم أموره بمن فيه، والبيت المقدس ليس له قرْن يقوم به ويكفيه، والفرنج فهم يعرفون منا خصماً لا يملّ الشر حتى يملّوا، وقرناً لا يزال محرم السيف حتى يحلوا. وإذا شد رأينا حسن الرأي ضربنا بسيف يقطع في غمده، وبلغنا المنى بمشيئة الله تعالى ويَدُ كلّ مؤمن تحت برده، واستنقذنا أسيراً من المسجد الذي أسرى الله إليه بعبده». الروضتين، 1 ص 616 - 623.

ملحق رقم 8

كتاب دار الخليفة إلى صلاح الدين بالعتب على أشياء

«قلت [أبو شامة]: ووقَفْتُ على كتاب كتبه الصاحب قوام الدين ابن زبادة[1] [أ ص: زيادة] من الديوان العزيز ببغداد إلى السلطان صلاح الدين، وكان قوام الدين يومئذٍ أستاذ الدار العزيزة، يَقُول فيه:

«لولا مكان صلاح الدين من الخِدْمة والشُحّ به والمنافسة فيه، لما جُوهِرَ بالعِتَاب، ولا دُفع دُونه الحِجَاب، بل ان يُتْرَكْ مَعَه الأمْرُ على اختلاله، ويُدْمل الجُرْح على اعتلاله. وقَدْ ذكرتُ الأسباب التي أَخَذَها الديوان العزيز عليه، واستغرب وقُوعها من كماله ليوعيها سَمْعَه الكريم، ويَسْتَوريَ فيها رأيه الأَصِيل، ويُنْصِفَ في استمَاعِها والإجابة عنها غير عَارِجٍ على الجَدَل ولا مؤتمٍ بالمِرَاء المذمومين عَقْلاً وشرعاً، بل يحمل قَوْلي هذا على سبيل المماحضة والإنتصاح وصِدْق النِيّة في رأب التنائي والإصلاح، فإن إبحار الدواء المُقَرّ لا يُتَّهم فِيه الطبيب المُجْتَلِب للعافية».

(1) يحيى بن سعيد بن هبة الله بن علي بن فرْغلي بن زبادة الشيباني، الكاتب الواسطي الأصل، البغدادي المولد والدار والوفاة، المُلَقّب قُوام الدين تولّى النظر بديوان البصرة وواسط والحلّة، ولم يزل على ذلك إلى أن طُلب إلى بغداد. وفي مُحَرّم 575 هـ / 1179 م رُتّب حاجباً بباب النوبي، وقلّد النظر في المظالم ثم عُزل في ربيع الأول 577 هـ ثُمّ أعيد في جُمادى الأولى 582 هـ / 1186 م. فلما قُتِل أستاذ الدار ابن الصاحب (19 ربيع الأول 583 هـ/ 1187 م) ترتب ابن زبادة مكانه، ثُمّ عُزل 585 هـ / 1189 م، وعاد إلى واسط، ثُمّ أعيد إلى بغداد في سنة 592 هـ/ 1196 م وقلّد ديوان الإنشاء. ت 594 هـ/ 1198 م. وولي في وزارة عبيدالله بن يونس.

ذيل الروضتين، ص 14؛ معجم الأدباء، 6ص 2817-2818رقم 1228 ؛ وفيات الأعيان، 6 ص 244 - 249؛ سير أعلام النبلاء، 21 ص 336 - 337.

ثم ذَكَر فيه من تِلْك الأمور:

«إن من انتفى من العراق بسَبَبٍ من الأسْبَاب لجأ إلى صلاح الدين، فَوَجَد عِنْدَه الإقْبَال عَلَيْه، وكانَ الأدَبُ يُوجِبُ إبْعَاد من أبْعد عَنْه وتقريب مَن قرّبه إليه. . . .

وإنّ مِمّا أضْحَك بثغر الاسْتِعْبَار ما انتهى عِن العوام وأشباه الأنْعَام وطغام الشام، من الخَوْضِ في المذاهب، والانتهاء في التَّشَيُّع إلى اختلاف كُلّ كاذب.

ومنها ما جَرى من سيف الإسلام بالحجاز من إزعاج الحُجّاج، وإرهاج تلك الفجاج، والإقدام على مناسك الله وشعائره، وإيقاد سعير الفتنة فيها ونوائره، واحتذاء السِّيرة القاسطة، وإحياء بِدَع القرامطة، ما نَفَر مِنْه كل طبع، ومَجّه كل سَمْع، فكيف جاز لصلاح الدِّين أن يُرْخي عنان أخيه فيما يُقَرّض سوابقه وأَوَاخِيه.

ومِنْها ما قَضى النّاس منه العَجَب، وفُورق فيه الحَزْم والأدب، وهو ما أوْجَبَ اللّقب الذي استأثر به أمير المؤمنين. . .».

ثم قال:

«وقَدْ سَاوَق زمان الدولة العبّاسيّة، ثبَّتها الله، خوارج دَوّخوا البلاد وأسرفوا في العناد، وجَاسوا خلال الديار وأخافوا المسالك واستضاموا الممالك، واقتحموا من الشقاق أشَق المهالك، فما انتهى أحدهم فيما احتقب وارتكب إلى المشاركة في اللقب. ومن الحِكَم الذائعة في وجيز الكلام الذي يَصْلُح للمولى على العبد حَرَام.

ومنها مكاتبة كُلّ طرف يُتَاخم أعمال الديوان من مواطن التركمان والأكراد، ومُراسلتهم ومهاداتهم وقَرْع أسماعهم بما يَعُود باستنزال أقدامهم وفَلّ عزائمهم، وهم لا يَعْرفون إلاّ أنهم رعيّة العراق وخَوَل للديوان يرثون الطّاعة خالفاً عن سَلَف».

«ثُمّ قال في آخر الكتاب:

وهذا كُله لا أقُوله إنكاراً لجلائل مقامات صلاح الدين، ومشاهير مواقف جهاده في سبيل أمير المؤمنين، فإنّه أدام الله عُلُوّه رجل وقته ونسيج وحده والمربي على من سلف من صنائع الدولة وعلى من يأتي من بعده، وهو الوُلي المُخْلِص الذي عَهد فوفا واستكفى فكفا، وطَبَّ فشَفا، فكيف يَجُوز له بسعادته أن يُهَجن مساعيه الغر المُحجّلة ويَخرج من مكانته المكرّمة المُبَجّلة، ويُبْطِل حقوقه الثابتة المُسَجّلَة.

ثُمّ قال:

فقد عَلِم كل من نظر في التواريخ والآثار، ونَصَحَتْهُ بَصِيرَته في التَّبَصُّر والاعتبار أن هذا البيت العظيم ما زال يرفع الأقْدَار الخاملة فينزون عليه بَطَراً فيغار الله له منتصراً، ويعقبه عليه أظفاراً وظفراً، كدأب آل طولون وآل سامان وآل سلجوق وقروناً بين ذلك كثيرة. فمن الذي زلزلوه، ومن الذي حصدوه فنبت، وأيّ نار وقدوها فما خبت.

ثم قال:

اللهم قَد بَلَّغت، وللرأي الصلاحي ما يزيد عُلُوّه إن شاء الله تَعَالى».
الروضتين، 2ص 122 - 123.

وكتب القاضِي الفاضِل جَواباً على كتاب الديوان بالعتاب، منه:

«المحافظة تُوجب المفارقة، وإغْلاَق هذا الباب خَيْرٌ من فَتْحِه، واندمال هذا الجُرح أَوْلَى من إتِّساعه وخَرْقه». شفاء القلوب، ص 152.

ملحق رقم 9

كتاب بقلم القاضي الفاضل عن السلطان صلاح الدين بفتح القدس ومعركة حطين قبله

«أدام الله تعالى أيام الديوان العزيز النبوي، ولا زال مظفر الجد بكل جاحد، غنياً بالتوفيق عن رأي كل رائد، موقوف المساعي على اقتناء مطلقات المحامد، مستيقظ النصر والنصلُ في جفنه راقد، وارد الجود والسحاب على الأرض غير وارد، متعدد مساعي الفضل وإن كان لا يلقى إلا بشكر واحد، ماضي حكم العدل بعزم لا يمضي إلا بنبل غوي ورئش راشد، لا زالت غيوث فضله إلى الأولياء أنواء إلى المراتع وأنواراً إلى المساجد، وبعوث رعبه إلى الأعداء خيلاً إلى المراقب وخيالاً إلى المراقد.

كتب الخادم هذه الخدمة، تلو ما صدر عنه مما كان يجري مجرى التباشير لصبح هذه العزمة، والعنوان لكتاب وصف النعمة، فإنها بحر للأقلام فيه سبح طويل، ولطفٌ لحملِ الشكر فيه عبء ثقيل، وبشرى للخواطر في شرحها مآرب، ويسرى للأسرار في إظهارها مسارب، ولله تعالى في إعادة شكره رضا، وللنعمة الراهنة به دوام لا يقال معه: هذا مضى. ولقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها، وقد استتبت عقائد أهله على أبين بصائرها، وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط، وصدق الله أهل دينه فلما وقع الشرط وقع المشروط، وكان الدين غريباً فهو الآن في وطنه، والفوز معروضاً فقد بذلت الأنفس في ثمنه، وأمرَ أمرُ الحق وكان مستضعفاً، وأُهلَ ربعه وكان قد عيف جين عفا، وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة، وأدلجت السيوف إلى الآجال وهي نائمة، وصدق وعد الله في إظهار دينه على كل دين، واستطارت له أنوار أبانت أن الصباح عندها جَنان الجنين، واسترد المسلمون تراثاً كان عنهم آبقاً، وظفروا

يقظة بما لم يصدقة أنهم يظفرون به طيفاً على النأي طارقاً، واستقرت على الأعلى أقدامهم، وخفقت على الأقصى أعلامهم، وتلاقت على الصخرة قبلهم، وشفيت بها وإن كانت صخرة كما تشفى بالماء غُلَلهم، ولما قدم الدين عليها عرف منها سويداء قلبه، وهنأ كفؤها الحجر الأسود بيت عصمتها من الكافر بحربه.

وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لهذه العظمى، ولا يقاسي تلك البؤسى إلا رجاء هذه النعمى، ولا يناجز من يستمطله في حربه، ولا يعاتب بأطراف القنا من يتعادى في عتبه، إلا لتكون الكلمة مجموعة فتكون كلمة الله هي العليا، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا، وكانت الألسن ربما سلقته فأنضج قلوبها بالاحتقار، وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فأطفأها بالاحتمال، والاصطبار، ومن طلب خطيراً خاطر، ومن رام صفقة رابحة جاسر، ومن سما لأن يجلّي غمرةً غامر، وإلا فإن القعود يلين تحت نيوب الأعداء المعاجم فيعضها، ويضعف في أيديها مهز القوائم فيفضها، هذا إلى كون القعود لا يقضي به فرض الله في الجهاد، ولا يرعى به حقه في العباد، ولا يوفي به واجب التقليد الذي يطَوَّقه الخادم من أئمة قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون، وخلفاء كانوا في مثل هذا اليوم يسألون، لا جرم أنهم أورثوا سرهم وسريرهم خلفهم الأطهر، ونجلهم الأكبر، وبقيتهم الشريفة، وطليعتهم المنيفة، وعنوان صحيفة فضلهم لا عدم سواد القلم وبياض الصحيفة، فما غابوا لما حضر، ولا غضوا لما نظر، بل وصلهم الأجر لما كان به موصولاً، وشاطروه العمل لما كان عنه منقولاً، ومنه مقبولاً، وخلص إليهم إلى المضاجع فاطمأنت به جنوبها، وإلى الصحائف ما عبقت به جيوبها، وفاز منها بذكر لا يزال الليل به سميراً، والنهار به بصيراً، والشرق يهتدي بأنواره، بل إن بدا نور من ذاته هتف به الغرب بأن وارِهِ، فإنه نور لا تكنه أغساق السدف، وذكر لا توازيه أوراق الصحف.

وكتب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظّت قناته شققاً، وطارت فِرَقُهُ فَرَقاً، وفل سيفه فصار عصا، وصدعت حصاته وكان الأكثر عدداً وحصى، وكلّت حملاته وكان قدراً يضرب فيه العنان بالعنان، وعقوبة من الله ليس لصاحب يديها يدان، وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة، وغضت عينه

وكانت عيون السيوف دونها كثيفة، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نُطفَ الكرى من الجفون، وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى أو راعفة بالمنون، وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث، والرب الفرد الواحد وكان عندهم الثالث، وبيوت الكفر مهدومة، ونيُوبُ الشرك مهتومة، وطوائفه المحامية، مجمعة على تسليم القلاع الحامية، وشجعانه المتوافية، مذعنة لبذل القطائع الوافية، لا يرون في ماء الحديد لهم عصرة، ولا في نار الأنفة لهم نصرة، قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وبدل الله مكان السيئة الحسنة، ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة إلى أيدي أصحاب الميمنة.

وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى فأمده الله بمداركته، وأنجده بملائكته، فكسرهم كسرة ما بعدها جبر، وصرعهم صرعة لا ينتعش بعدها بمشيئة الله كفر، وأسر منهم من أسرت به السلاسل، وقتل منهم من قتلت به المناصل، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار، وعن أصناف يخيل بأنه قتلهم بالسيوف الأفلاق والرماح الأكسار، فنيلوا بثار من السلاح ونالوه أيضاً بثار، فكم أهلة سيوف تقارضن الضراب بها حتى عادت كالعراجين، وكم أنجم قنا تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين، وكم فارسية ركض عليها فارسها الشهم إلى أجل فاختلسه، وفغرت تلك القوس فاهاً فإذا فوها قد نهش القرن على بعد المسافة وافترسه، فكان اليوم مشهوداً، وكانت الملائكة شهوداً، وكان الضلال صارخاً وكان الإسلام مولوداً، وكانت ضلوع الكفار لنار جهنم وقوداً. وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه، وآكد وصله بالدين وعلائقه، وهو صليب الصلبوت، وقائد أهل الجبروت، ما دهموا قط بأمر إلا وقام بين دهمائهم يبسط لهم باعه، وكانت مد اليدين في هذه الدفعة وداعه، لا جرم أنهم يتهافت على ناره فراشهم، ويجتمع في ظل ضلاله خشاشُهم، ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقه، ويرونه ميثاقاً يبنون عليه أشد عهد وأوثقه، ويعدونه سوراً تحفر حوافر الخيل خندقه، وفي هذا اليوم أسرت سراتهم، وَدُهيَتْ دهاتهم، ولم يفلت منهم معروف إلا القومص، وكان لعنه الله مليّاً يوم الظفر بالقتال، ومليّاً يوم الخذلان بالاحتيال، فنجا ولكن

كيف، وطار خوفاً من أن يلحقه منسر الرمح أو جناح السيف، ثم أخذه الله تعالى بعد أيام بيده، وأهلكه لموعده، فكان لعدتهم فذلك، وانتقل من ملك الموت إلى مالك.

وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية العباسية السوداء صبغاً، البيضاء صنعاً، الخافقة هي وقلوب أعدائها، الغالبة هي وعزائم أوليائها، المستضاء بأنوارها إذا فتح عينها النشر، وأشارت بأنامل العذبات إلى وجه النصر، فافتتح بلاد كذا وكذا، وهذه كلها أمصار ومدن، وقد تسمى البلاد بلاداً وهي مزارع وفدن، كل هذه ذوات معاقل ومعاقر، وبحار وجزائر، وجوامع ومنابر، وجموع وعساكر، يتجاوزها الخادم بعد أن يحرزها، ويتركها وراءه بعد أن ينتهزها، ويحصد منها كفراً ويزرع إيماناً، ويحط من جوامعها صلباً ويرفع أذاناً، ويبدل المذابح منابر والكنائس مساجد، ويبوىء أهل القرآن بعد أهل الصلبان للقتال عن دين الله مقاعد، ويقر عين وعيون أهل الإسلام أن يعلق النصر منه ومن عسكره بجارٍ ومجرور، وأن يظفر بكل سور، ما كان يخاف زلزاله ولا زياله إلى يوم النفخ في الصور.

ولما لم يبق إلا القدس وقد اجتمع إليه كل طريد منهم وشريد، واعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد، وظنوا أنها من الله مانعتهم، وأن كنيستها إلى الله شافعتهم، فلما نزلها الخادم رأى بلداً كبلاد، وجمعاً كيوم التناد، وعزائم قد تألبت وتألفت على الموت فنزلت بعرصته، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته، فزاول البلد من كل جانب، فإذا أودية عميقة، ولجج وعر غريقة، وسور قد انعطف عطف السوار، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقر الدار، فعدل إلى جهة أخرى كان للطالع عليها معرج، وللخيل فيها متولّج، فنزل عليها وأحاط بها وقرب منها، وضرب خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه، ويزاحمه السور بأكنافه، وقابلها ثم قاتلها، ونزلها ثم نازلها [وبرز إليها ثم بارزها]، وحاجزها ثم ناجزها، وضمها ضمة ارتقب بعدها الفتح، وصدع جمعها فإذا هم لا يصبرون على عبودية الحد عن عنق الصفح، فارسلوه ببذل قطيعة إلى مدة، وقصدوا نظرة من شدة وانتظاراً لنجدة، فعرفهم الخادم في لحن القول، وأجابهم

بلسان الطول، وقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون عصيها وحبالها، وأوتر لهم قسيها التي ترمي ولا تفارقها سهامها ولكن تفارق سهامها نصالها، فصافحت السور فإذا سهمها في ثنايا شرفاتها سواك، وقدم النصر نسراً من المنجنيق يخلد إخلاده إلى الأرض ويعلو علوه إلى السماك، فشج مرادع أبراجها، وأسمع صوت عجيجها صم أعلاجها، ورفع منار عجاجها، فأخلى السور من السيارة، والحرب من النظارة، وأمكن النقّاب، أن يسفر للحرب النقاب، وأن يعيد الحجر إلى سيرته الأولى من التراب، فتقدم إلى الصخر فمضغ سرده بأنياب معوله، وحل عقده بضربه الأخرق الدال على لطافة أنمله، وأسمع الصخرة الشريفة أنينه واستغاثته إلى أن كادت ترق لمقتله، وتبرأ بعض الحجارة من بعض، وأخذ الخراب عليها موثقاً فلن تبرح الأرض، وفتح من السور باباً سد من نجاتهم أبواباً، وأخذ ينقب في حجره فقال عنده الكافر: يا ليتني كنت تراباً، فحينئذٍ يئس الكفار من أصحاب الدور، كما يئس الكفار من أصحاب القبور، وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور، وفي الحال خرج طاغية كفرهم، وزمام أمرهم، ابن بارزان سائلاً أن يؤخذ البلد بالسلم لا بالعنوة، وبالأمان لا بالسطوة، وألقى بيده إلى التهلكة، وعلاه ذل الهلكة بعد عز المملكة، وطرح جنبه على التراب وكان جنباً لا يتعاطاه طارح، وبذل مبلغاً من القطيعة لا يطمح إليها أملُ طامح، وقال: ها هنا أسارى مسلمون يتجاوزون الألوف، وقد تعاقد الفرنج على أنهم إن هُجمت عليهم الدار، وحملت الحرب على ظهورهم الأوزار، بدىء بهم فعجلوا، وثني بنساء الفرنج وأطفالهم فقتلوا، ثم استقتلوا بعد ذلك، فلا يقتل خصم إلا بعد أن ينتصف، ولا يفلّ سيف من يد إلا بعد أن تقطع أو ينقصف، فأشار الأمراء بأخذ الميسور، من البلد المأسور، فإنه لو أخذ حرباً فلا بدّ أن يتقحم الرجال الأنجاد، ويقال كفوا عنها في آخر أمر قد نيل من أوله المراد، وكانت الجراح في العساكر قد تقدم منها ما اعتقل الفتكات، وأثقل الحركات، فقبل منهم المبذول عن يد وهم صاغرون، وانصرف أهل الحرب عن قدرة وهم ظاهرون، وملك الإسلام خطة كان عهده بها دمنة سكان، فخدمها الكفر إلى أن صارت روضة جنان، لا جرم أن الله

تعالى أخرجهم منها وأهبطهم، وأرضى أهل الحق وأسخطهم، فإنهم، خذلهم الله، حموها بالأسل والصفاح، وبنوها بالعمد والصفّاح، وأودعوا الكنائس بها وبيوت الديوية والاسبتارية فيها بكل غريبة من الرخام الذي يطرد ماؤه، ولا ينطرد لألاؤه، قد لطف الحديد في تجزيعه، وتفنن في توشيعه، إلى أن صار الحديد الذي فيه بأس شديد، كالذهب الذي فيه نعيم عتيد، فما ترى إلا مقاعد كالرياض لها من بياض الترخيم رقراق، وعمداً كالأشجار لها من التنبيت أوراق.

وأوعز الخادم برد الأقصى إلى عهده المعهود، وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده المورود، وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شعبان فكادت السموات يتفطرن للسجود لا للوجوم، والكواكب منها تنتثر للطرب لا للرجوم، ورفعت إلى الله كلمة التوحيد وكانت طريقها مسدودة، وطهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدودة، وأقيمت الخمس وكان التثليث يقعدها، وجهرت الألسنة بالله أكبر وكان سحر الكفر يعقدها، وجهر باسم أمير المؤمنين في وطنه الأشرف من المنبر، فرحب به ترحيب من بر بمن بر، وخفق علماهُ في حفافيه، فلو طار سروراً لطار بجناحيه.

وكتاب الخادم وهو مجدٌّ في استفتاح بقية الثغور، واستشراح ما ضاق بتمادي الحرب من الصدور، فإن قوى العساكر قد استنفدت مواردها، وأيام الشقاء قد مردت مواردها، والبلاد المأخوذة المشار إليها قد جاست العساكر خلالها، ونهبت ذخائرها وأكلت غلالها، فهي بلاد ترفد ولا تسترفد، وتجمّ ولا تستنفد، ينفق عليها ولا ينفق منها، وتجهز الأساطيل لبحرها، وتقام المرابط بساحلها، ويدأب في عمارة أسوارها ومرمات معاقلها، وكل مشقة بالإضافة إلى نعمة الفتح محتملة، وأطماع الفرنج بعد ذلك غير مرجئة ولا معتزلة، فإن يدعوا دعوة يرجو الخادم من الله أنها لا تسمع، ولن يكفوا أيديهم من أطراف البلاد حتى تقطع، وهذه البشائر لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تتشخص، ولا بما سوى المشافهة تتخلص، فلذلك نفذ الخادم لساناً شارحاً، ومبشراً صادحاً، يطالع بالخبر على سياقته، ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ساقته، وهو فلان، والله الموفق». **وفيات الأعيان، ج 7 ص 180 - 186.**

ملحـق رقـم 10

ذكر أول خطبـة
خطب بها ببيت المقدس بعد الفتح

«ولما كان يوم الجمعة التالية لجمعة الفتح، وهو الرابع من شعبان، حضر المسلمون الحرم الشريف، فَغُصَّ بالزحام، فإنه من حين تسامع الناس به في سائر الأطراف، وكسر العدو، والقصد إلى فتح بيت المقدس، توآفى الناس من كل صقع، وجاءوا من كل فج، ليفوزوا بالزيارة ويحظوا بالمشاهدة للفتح، فاجتمع من أهل الإسلام عدد عظيم لا يقع عليهم الإحصاء، فلما أُذِّن الظهر من يوم هذه الجمعة المباركة حضر السلطان بقبة الصخرة المقدسة وهو في غاية السرور والفرح، إذ جعله الله تعالى في هذا الفتح ثانياً لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه الفاتح الأول ـ وميَّزه بهذه المنقبة دون سائر الملوك من ملوك الإسلام.

وامتلأت عراص المسجد وصحونه بالخلائق، واستعبرت العيون من شدة الفرح، وخشعت الأصوات، ووجلت القلوب، وكان جماعة من الأكابر والعلماء قد رشحوا أنفسهم للخطبة في هذا المسجد المعظم، وأخذوا لذلك أهبته وألَّفوا ما يخطبون به، ومنهم من عرض للسلطان يطلب ذلك، ومنهم من صرح، والسلطان ساكت لا يبدي سره، فلما حان وقت الخطبة نصّ على القاضي محيي الدين بن زكي الدين، وقدمه لهذا الأمر الجليل، فرقي المنبر بالأهبة السوداء العباسية، وخطب خطبة بديعة بليغة، هي:

[292] ﴿فقُطِعَ دابِرُ القَوْمِ الذِين ظَلَمُوا والحمدُ لِلهِ رَبِّ العَالِمين﴾ [1].

---

(1) السورة 6 (الأنعام)، الآية 45 (ك).

﴿الحمدُ لِلّهِ ربِّ العالمِين، الرَّحْمَن الرَّحِيم، مالِكِ يومِ الدِينِ﴾ [1] .

﴿الحمد لِلّهِ الذِي خَلَقَ السمواتِ والأَرْضَ وجَعَلَ الظُّلُماتِ والنور ثم الذِين كفروا بِرَبِّهم يَعْدِلون﴾ [2] .

﴿وقُلِ الحَمْدُ لِلّهِ الذِي لم يَتَّخِذْ وَلَداً ولم يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الملْكْ ولم يَكُنْ له وَلِيٌّ مِن الذُلِّ وكَبِّرهُ تَكْبِيراً﴾ [3] .

﴿الحمدُ لِلّهِ الذِي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكِتَابَ ولم يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً، قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْه وَيُبَشِّر المؤمِنِين الذِين يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً، ماكِثِين فِيهِ أَبَداً، ويُنْذِرَ الذِين قالوا اتَّخَذَ اللّهُ ولَداً، ما لهم بِهِ مِن عِلْمٍ ولا لآبائِهم كَبُرَت كلمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِم إِنْ يَقُولُونَ إِلا كَذِبا﴾ [4] .

﴿قُلِ الحَمْدُ لِلّهِ وَسَلامٌ على عِبَادِهِ الذِينَ اصْطَفَى اللّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشرِكون﴾ [5] .

﴿الحمدُ لِلّهِ الذِي لَهُ ما فِي السَّمَوَاتِ وما فِي الأَرْضِ وله الحَمْدُ فِي الآخِرةِ وهو الحكيمُ الخبِيرُ، يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الأَرْضِ وما يَخْرُجُ مِنْها وما يَنْزِلُ مِنَ السماءِ وما يَعْرُجُ فِيها وهو الرحِيمُ الغَفُورُ﴾ [6] .

﴿الحمدُ لِلّهِ فَاطِرِ السَّمَواتِ والأَرْضِ جَاعِلِ الملائِكَةِ رُسُلاً﴾ [7] .

---

(1) السورة 1 (الفاتحة): الآية 2 (ك).
(2) السورة 6 (الأنعام)، الآية 1 (ك).
(3) السورة 17 (الإسراء)، الآية 111 (ك).
(4) السورة 18 (الكهف)، الآيات 1 - 5 (ك).
(5) السورة 27 (النمل)، الآية 59 (ك).
(6) السورة 34 (سبأ)، الآية 1، 2 (ك).
(7) السورة 35 (فاطر)، الآية 1 (ك).

الحمد لله معز الإسلام بنصره ومذل الشرك بقهره، ومصرف الأمور بأمره ومديم النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدر الأيام ولا بعد وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاض على عباده من ظله، وأظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع؛ والحاكم بما يريد فلا يدافع.

أحمده على إظفاره وإظهاره، وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره، وتطهير بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاده.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه، وأرضى به ربه.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، دافع الشرك، وداحض الإفك، الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى، وعرَّج به منه إلى السموات العلى، إلى سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، ما زاغ البصر وما طغى.

صلى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر الصديق، السابق إلى الإيمان؛ وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذي النورين جامع القرآن؛ وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، مزلزل الشرك ومكسر الأوثان؛ وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.

أيها الناس: أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى، والدرجة العليا، لما يسَّره الله على أيديكم [293] من استرداد هذه الضالة، من الأمة الضالة، وردها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مائة عام، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه، وإماطة الشرك عن طرقه، بعد أن امتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه، ورفع قواعده بالتوحيد، فإنه بني عليه، وإنه أسس بالتقوى من خلفه ومن بين يديه، وهو

موطن أبيكم إبراهيم، ومعراج نبيكم محمد عليهما السلام، وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام، وهو مقر الأنبياء، ومقصد الأولياء، ومقر الرسل، ومهبط الوحي، ومنزل تنزل الأمر والنهي، وهو في أرض المحشر، وصعيد المنشر، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين، وهو المسجد الذي صلَّى فيه رسول الله ـ ﷺ ـ بالملائكة المقربين، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحه عيسى، الذي شرَّفه الله برسالته ، وكرَّمه بنبوته ، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته ، فقال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ المسِيحُ أن يكون عَبْداً لِلّهِ﴾[1] وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الذِّينَ قَالُوا إنَّ اللّهَ هُوَ المَسِيحُ بنُ مَرْيم﴾[2].

وهو أول القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا تُعقد الخناصر بعدالموطنين إلا عليه، ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده، واصطفاه من سكان بلاده، لما خصَّكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجارٍ، ولا يباريكم في شرفها مبارٍ، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية، والفتوح العمرية، والجيوش العثمانية، والفتكات العلوية، جددتم للإسلام أيام القادسية، والوقعات اليرموكية، والمنازلات الخيبرية، والهجمات الخالدية.

فجزاكم الله عن محمد نبيه أفضل الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء، وتقبل منا ومنكم ما تقربتم به إليه من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهي دار دار السعداء، فاقدروا ـ رحمكم الله ـ هذه النعمة [294] حقَّ قدرها، وقوموا لله بواجب شكرها، فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة، وترشيحكم لهذه الخدمة، فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء، وابتهج به الملائكة المقربون، وقرَّبه عيناً الأنبياء والمرسلون، فماذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح

(1) السورة 4 (النساء)، الآية 172 (م).
(2) السورة 5 (المائدة)، الآية 17 (م).

عليه البيت المقدس في آخر الزمان، والجند الذي يقوم بسيوفهم بعد فترة من الرسل أعلام الإيمان، فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء أكثر من التهاني به بين أهل الغبراء.

أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه، ونصَّ عليه في خطابه؟ فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلى المَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ [1].

أليس هو البيت الذي عظمته الملوك، وأثنت عليه الرسل، وتليت فيه الكتب الأربعة من إلهكم عزّ وجلّ؟.

أليس هو البيت الذي أمسك الله عزّ وجلّ فيه الشمس على يوشع لأجله أن تغرب، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب؟.

أليس هو البيت الذي أمر الله [تعالى] موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان، وغضب عليهم من أجله، وألقاهم في التيه عقوبة العصيان؟.

فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو إسر ئيل وقد فضلهم على العالمين، ووفقكم لما خذل عنه أمم ممن كان قبلكم من لأمم الماضية، وجمع كلمتكم وكانت شتى، وأغناكم بما أمضته كان وقد سوف وحتى.

فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده، وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لأهويتكم جنده، وشكر لكم الملائكة المنزلون على ما أهديتم إلى هذا البيت من طيب التوحيد، ونشر التقديس والتحميد، وما أمطتم فيه عن طرقهم من أذى الشرك والتثليث، والاعتقاد الفاسد الخبيث، فهو الآن يستغفر لكم أملاك السموات، ويصلي عليكم الصلوات المباركات.

فاحفظوا ـ رحمكم الله ـ هذه الموهبة فيكم، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي من تمسك بها سلم، ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم، واحذروا من اتباع الهوى، ومواقف الردى، ورجوع القهقهرى، والنكول عن العدى

(1) السورة 17 (الإسراء)، الآية 1 (ك).

وخـذوا في انتهـاز الفرصة، وإزالة ما بقي من الغصة، وجاهدوا في الله حق جهاده، وبيعوا أنفسكم عباد الله في رضاه إذ جعلكم من عباده، وإياكم أن يستذلكم الشيطان، وأن يتداخلكم الطغيان، فيخيل إليكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد، وبخيولكم الجياد، وبجلادكم في موضع الجلاد، والله ما النصر إلا من عند الله، [إن الله عزيز حكيم].

واحذروا ـ عباد الله ـ بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل، والمنح الجزيل، وخصكم بهذا النصر المبين، وأعلق أيديكم بحبله المتين، أن تقترفوا كثيراً من مناهيه، وأن تأتوا عظيماً من معاصيه، فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، والذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين، ولجهاد الجهادِ، فهو أفضل عباداتكم وأشرف عاداتكم، انصروا الله ينصركم، اذكروا الله يذكركم، اشكروا الله يزدكم ويشكركم، جدوا في حسم الداء، وقطع شأفة الأعداء، وتطهير بقية الأرض التي أغضبت الله ورسوله، واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله، فقد نادت الأيام بالثارات الإسلامية والملة المحمدية.

الله أكبر، فتح الله ونصر، وغلب الله وقهر، وأذل الله من كفر.

واعلموا ـ رحمكم الله ـ أن هذه فرصة فانتهزوها، وفريسة فناجزوها، ومهمة فأخرجوا إليها هممكم وأبرزوها، وسيروا إليها سرايا عزماتكم وجهزوها، فالأمور بأواخرها، والمكاسب بذخائرها، فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول وهم مثلكم أو دون، فكيف وقد أضحى في قبالة الواحد منهم منكم عشرون، وقد قال تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ (1).

أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره والازدجار بزواجره، وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده، ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (2).

---

(1) السورة 8 (الأنفال)، الآية 65 (م).

(2) السورة 3 (آل عمران)، الآية 160 (م).

ثم أتم الخطبة الأولى وجلس.

ثم قام وخطب الثانية كما جرت العادة.

[296] ثم دعا للخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين، ثم قال:

«اللهم وأدم سلطان عبدك الخاضع لهيبتك، الشاكر لنعمتك، المعترف بموهبتك، سيفك القاطع، وشهابك اللامع، والمحامي عن دينك الدافع، والذابِّ عن حرمك [وحرم رسولك] الممانع، السيد الأجل الملك الناصر جامع كلمة الإيمان، وقامع عبدة الصلبان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، مطهر البيت المقدس، أبي المظفر يوسف [صلاح الدين] بن أيوب، محيي دولة أمير المؤمنين.

اللهم عمَّ بدولته البسيطة، واجعل ملائكتك براياته محيطة، وأحسن عن الدين الحنيفي جزاءه، واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه.

اللهم أبق للإسلام مهجته، ووق للإيمان حوزته، وانشر في المشارق والمغارب دعوته.

اللهم فكما فتحت على يديه البيت المقدس، بعد أن ظنت [به] الظنون، وابتلى المؤمنون، فافتح على يديه داني الأرض وقواصيها، وملّكه صياصي الكفر ونواصيها، فلا يلقى منهم كتيبة إلا مزقها، ولا جماعة إلا فرقها، ولا طائفة بعد طائفة إلا ألحقها بمن سبقها.

اللم اشكر عن محمد ـ ﷺ ـ سعيه، وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونهيه، وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها وأرجاء الممالك وأكنافها.

اللهم ذلل به معاطس الكفار، وأرغم به أنوف الفجار، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار، واثبت سرايا جنوده في سبيل الأقطار.

اللهم ثبت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الدين، واحفظه في بنيه وبني أبيه الملوك الميامين، واشدد عضده ببقائهم، واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم.

اللهم فكما أجريت على يده في الإسلام هذه الحسنة التي تبقى على

الأيام، وتتخلد على مرور الشهور والأعوام، فارزقه الملك الأبدي الذي لا ينفذ في دار المتقين، وأجب دعوته ودعاءه في قوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلَى وَالِدَيَّ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاه، وَأَدخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ في عِبَادِكَ الصَالِحِين﴾[1].

ثم دعا بما جرت به العادة، ونزل وصلى بالناس صلاة الجمعة.

ولما قضيت الصلاة نُصب سرير الوعظ [وتقدم السلطان صلاح الدين إلى زين الدين الواعظ]، فجلس وذكر الفتح، وفضائل الأرض المقدسة، والصخرة، وما ورد فيها من الأخبار والآثار، فجلب بعبارته العبرات، وشار العسل بمعسول الإشارات». مفرج الكروب، 2 ص 218 - 228.

(1) السورة 27 (النمل)، الآية 19 (ك).

ملحق رقم 11

داود بن أبي المُنى، أبو سليمان الطبيب النصراني

«كان نصرانياً بمصر زمن الخلفاء [الفاطميين]، طبيباً حَظِياً عندهم.

وأصله من القُدْس، وكانت له معرفة بالنجوم. وكان له خمسة أولاد.

فلمّا وصل الملك ماري [عموري] إلى الديار المصريّة، طَلَبه من الخليفة ونقله هو وأولاده إلى القُدْس.

ونشأ للملك ماري ولَدٌ مجذوم، فركب له الترياق الفاروق.

وتَرَهّب، وتَرَكَ ولده الأكبر ـ وهو المُهَذِّب أبو سعيد ـ خليفته على منزله وأخوته.

فاتفق أنّ ملك الفرنج أسر الفقيه عيسى، ومرض [الأخير] فأرسله الملك إليه، فلمّا رآه في الجُبّ مُثَقَّلاً بالحديد، رَجَع إلى الملك، وقال: هذا ذو نعمة، ولو سقيته ماء الحياة وهو على هذه الحال، ما انتفع به. قال الملك: فما نَفْعل؟ قال: أطلقه من الجُبّ وفُكَّ عنه حديده وأكرمه، فما يحتاج إلى مداواة أكثر من هذا. فقال الملك: نَخَاف أن يَهْرُب وقطيعته كثيرة؛ فقال: سَلِّمْهُ إليّ وضَمَانه علي؛ فقال: تسلمه، وإذا أتى قطيعته لك منها ألف دينار. فتوجّه إليه وتَسَلَّمَه من الجُبِّ، وأقام عنده في داره يَخْدِمه.

فلمّا حَضَرت قَطِيعَته، أمر الملك للمُهَذِّب أبي سعيد بألف دينار، فوَهَب الألف دينار للفقيه عيسى. فأخذها الفقيه عيسى وتوجه إلى الملك الناصر [صلاح الدين].

فاتفق أن الحكيم سليمان ظَهَر له من النّجَامة أنّ صلاح الدين يملك القُدْس في اليوم الفلاني من السّنَة الفلانية، وأنّه يَدْخل إليها من باب الرحمة، فقال لولده الفارس أبي الخير ابن سليمان: امضِ إلى صلاح الدين وبشِّره بذلك. وكان أبو الخير قد تربى مع ابن الملك المجذوم، وزِيُّه زِيُّ الأجناد. فمضى إلى النّاصر، فاتفق وصوله والناس يُهَنُّونه بسنة ثمانين وخمس مائة، فَمَضى إلى الفقيه عيسى، فَفَرح وتَوَجه به إلى السلطان، وبلَّغَه بشارة أبيه، ففرح [صلاح الدين] بذلك وأَنْعَم عليه بجائزة سَنِيّة، وقال له: متى يَسَّر الله ما ذكرت، اجْعَلُوا هذا العَلَم الأصفر والنَشَّابة فوق داركم، فالحارة التي أنتم فيها تَسْلَم في خفارة داركم.

فَلمّا حَضَر الوقت، صَحّ جميع ما قاله.

ودَخَل الفقيه عيسى إلى الدار التي للحكيم، وأقام بها حفظاً لها وللحارة. ولم يَسْلَم من القتل والأسر والقطيعة سوى بيت الحكيم المذكور. وضَاعَفَ [صلاح الدين] لأولاده ما كان لهم على الفرنج، وكتب كتباً إلى سائر ممالكه براً وبحراً بمسامحتهم بجميع الحقوق اللازمة للنصارى، واعفوا منها.

واستدعى السلطان الحكيم أبا سليمان، وقام له قائماً، وقال له: أنت شيخ مبارك، وصلتنا بُشْرَاك، وتَمّ لنا جميع ما قُلْت فَتَمنّ عليّ، فقال: حفظ أولادي، فأَخَذَ أولاده، واعتنى بهم، وسلمهم إلى العادل، وأوصاه بإكرامهم».
الوافي بالوفيات، ج 13ص 504 - 505 رقم الترجمة 603.

ملحـق رقـم 12

مقتطفات من رسائل القاضي الفاضل

إلى السلطان أثناء حصار عكا

إذا كان هدفنا في هذا الجزء من الدراسة، معرفة الحال النفسيّة والجسميّة (المرض) ـ الناتج عن الحال النفسيّة ـ، والفكرية للقائد خلال الفترة الصعبة الممتدة من حزيران 1189 م عند وصوله إلى مرج عيون لحصار شقيف أرنون وحَتّى شباط 1191 م عندما عاد إليه القاضي الفاضل في معسكره المرابط فيه منذ بداية حصار، فلا بُدّ من دراسة دقيقة لِقـطع من كتب القاضي الفاضل التي احتفظ لنا بها أبُو شامة، والتي تُبين لنا حالة القلق النفسي التي كانت تنتاب القائد بين الحين والحين من تطور الأمور وتَقَلّب الأحوال والرجال، والتـي أدت إلى مَرَض القولنج ومعاودته، والتي كان يبثها مستشاره البعيد في مصر الذي كان ينصح بالصَبْر والمُصَابرة ـ التي تَتَرَدّد في أكثر الرسائل خاصة المتأخرة منها ـ والتحمل والمرابطة، والتوكل على الله وشُكره في حال اليُسْر والعُسْر في تَحَمُّل المسؤولية الكبيرة التي وضَعَتْها الأمة، بعد الله، في عُنقه، والتمثُّل بقول عُمَر بن الخطاب (الفاتح الأول للقُدْس ومعيدها لأهلها من الروم) «لو كان الصبر والشكر بَعِيريْن ما بَاليتُ أيهما أركب». ولولا أنْ الفَصْل لا يَتَحَمّل إيرادها كاملة لأوردتها، ولذلك سأكتفي بمقتطفات تفي بتوضيح ما يُسَاعد على فَهْم القائد الإنسان الذي امتحن في أصعب الظروف فصَبَرَ وثابر ورابط، وبذل من الجُهْد كُلّ ما توافر لديه.

وتبدأ **الرسالة الأولى** بالقُدْس وحال قُبّة الصخرة بعد الاستعادة، كما تواترت الأخبار بذلك إليه:

«. . . ولا تُفْرج الشدائد إلاّ بالرجوع إليه، والامتثال لأمْرِ شريعته. . . وقد أجرى الله تعالى على يَدِ مولانا من فتح بيت المقدِس ما يكون بمشيئة الله له حُجّة في رضاه، ونعوذ بالله أن يكون حُجّة عليه في غَضَبه، بلغ المملوك من كل واردٍ منه مكاتبة ومخاطبة بأنّه على صِفَة تقشعر منها الأجساد. . . (من) عدم القُدْرة على المَرَمّة لقبّة الصخرة والمسجد الأقْصَى، والغَفْلَة عن مَرَمّتِهما وبفقدِهِما في أشتية القُدس الجليلة المثلِجة لا يؤمن سقوطهما، وافتضاح القدرة في العجز عن إعادتهما. . .»، ويذكر بعد ذلك انشغال السلطان، ويُذَكره بأن الصبر والمرابطة تحتاج أيضاً إلى الحَزم، وأن:

«لا يُعَجّل في الأمور الخطيرة، ولا يُقْدِم بالعَدَدِ القليل على الأعداد الكثيرة، فالمولى إذا أقبل كان واحداً، وإذا أدْبَرَ كان مقوماً بجميع الخلق. . . وليذكر المولى نوبة الرملة. . . ولا يَكْره المولى أنْ تَطُول مُدّة الابتلاء بهذا العَدُوّ، فثوابه يَطُول وحسناته تزيد. . .».

وأما ما يتعلق بصاحب صيدا السابق، وشقيف أرنون حالياً:

«. . . وبإعداد في أعدائه لجهاده بصاحب صيدا في الفرنج فهو جهاد قد أربى فيه رأي المولى فَرَجَح، والحديد بالحديد يفلح، وأكْيَدُ ما قوبل به العَدُوّ سلاحه، وأسرع جناح طار لقَنْصِه جناحه. . .»[1].

وأما **الرسالة الثانية** فتتعلق بسفن المؤن التي أرسلت إلى عَكّا في شعبان، وتبدأ المقتطفة بمرض السلطان:

«وبينما نحن ننتظر من كتب المولى ما يُستدَل به على أن قلب المولى قد طاب، وقَصْد العدو قد خاب، إذ ترد كتب يكون الوقوف عليها قاطعاً للأكباد، مفتتاً للقلوب ولو أنّها جماد».

ثم يذكر سفن شحن المؤن:

(1) الروضتين، 2 ص 166.

«وبينما نحن نعتقد أن البُطَس في عَكّا، وَصَل الخبر بأنها في دمياط، ويوم وَصَل الخَبَر بأنها في دمياط نحن على انتظار خروجها منها، وكتب البطائق بالاستحقاق الاستعجال وتحذيرهم من تمادي المقام، وما تيقّنّا أخرجت أم هي باقية».

ثم يذكر ورود الكتب بالخوف على عكا من عدم التمكن من الدخول إليها:

«فما المملوك وكل من يعرف الأمر إلاّ كاهل الصراط، ربع سلم رب سلم، فنسأل الله سبحانه ألاّ يكلنا إلى أنفسنا فنعجز، ولا إلى الناس فنضيع، ومجهود أهل الأرض قد انتهى، وبقي ما يفعله الله والخير منتظر منه...».

وعن سوء الإدارة في مصر:

«والله يا مولانا ما تَنَجّز شيء من هذه الأمور (التموين) إلاّ بأن تضرب الوجوه بالشوك، وتستحلب الحجارة، ويُنَبّه النُوّام، وتبحّ الأصوات من التذكار، وتحفى الأقلام من الكتابة، ويخضع لمن يلزمه الشغل كالخضوع لمن لا يلزمه...»(1).

تشتمل الرسالة الثالثة على جملة من القضايا الهامة، نلخصها في ما يلي:

1 ـ «وما تجدد للعدو من الشروع في آلات الحصار لعكا، وما أرجف به من النجدتين الفرنجيتين الواصلة والبعيدة، وافتراق العساكر في هذا الوقت للضرورة، والتماس العسكر الشرقي الدستور [الإذن بالسفر] للضجر، وحاجة المولى من الانفاق إلى ما لا يسعه التدبير ويضيق عنه الإمكان، ومطالبة الغني بالزيادة مع الغنى والضعيف بأكثر مما يحتاج إليه، وضياع فرصة، واختلاف رأي بين المتشاورين من الجماعة، وبُخل الأيدي بالمعونة، وانفراد المولى بالتعب واشتراك الناس في الرّاحة، وما ابتلي به

(1) الروضتين، 2 ص 166.

المسلمون من مرض أظهروه ليكون لهم عذراً في القُعود، وكتمه المولى على نفسه لئلا يجلب ضعف النفوس.

فهذه الأمور، وإن كانت شدائد وزائدات عن العوائد، فقد ألهم الله مولانا فيها **سعة الصدر** وحسن الصبر، ليشعره أنّ صبره يعقبه النصر، وحسبته يعقبها الأجر. **ولو لم يَرَ الله تَعَالى أنّ قُوّة مولانا أكمل القُوى، وعروة عزمه أوثق العرى، لَمَا أهله لأن يَنْصُر أمة لا يعرف المملوك غير الله ينصرها...**

2 ـ قضية طلب الصليبيين السلم: «... ومعاذ الله أن يَفْتَح علينا البلاد ثم يغلقها، وأنْ يسَلَم على يدينا القُدس ثُمّ ينصره. وإذا كان ما يُقَدّم الله إليه المماليك قبل المولى لا بدّ منه، وهو لقاء الله سبحانه، فلأن نلقاه والحُجّة لنا خير من أنْ نلقاه والحُجّة علينا، فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر صَبْرَه، وتملأ صدره، فلا تهونوا وتَدعُوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم، فهذا دين ما غَلَب بكثرة، ولا نُصِرَ بثروة، وإنّما اختار الله أرباب نيات وذوي قُلُوب معه وحالات، فليكن المولى نِعْمَ الخلف لذلك السلف... والغمرات تذهب ثُمّ لا تجيء، والله يُسْمع الأذن ما يَسُرّ القلب، ويَصْرف عن الإسلام وأهله غاشية هذا الكرب» [1].

وفي **الرسالة الرابعة** يَتَحَدثَ عن هدوء الأحوال في مصر وقِلّة الواردات الماليّة، **وأما الخامسة** فعن مرض السلطان:

«وما في نفس المملوك شائبة إلاّ بقيّة هذا الضعف الذي بجسم مولانا، فإنه في قلوبنا ونفديه بأسماعنا وأبصارنا...» [2].

وتركز **الرسالة السادسة** على تَقَاعس الأمراء في الحرب:

«إنما أوتينا من قبل أنفسنا، ولو صدقناه لعجّل لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعَدُونا، ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا ما

(1، 2) الروضتين، 166 - 167.

لا نقدر عليه إلاّ به، فلا يستخصم أحد إلاّ عمله، ولا يَلـم إلاّ نفسه، ولا يرج إلاّ ربّه؛ ولا تنتظر العساكر أن تكثر، ولا الأموال أن تُحْصَر، ولا فلان الذي يعتقد أنّ عليه أن يُقَاتل، ولا فلان الذي ينتظر أن يَسير، **فكل هذه مشاغل عن الله ليس النّصْر بها**، ولا نأمن أن يكلنا الله إليها والنصر به واللطف منه[1].

وتختص **السابعة** من الرسائل بالملك العزيز بن صلاح الدين، لكنّ **الثامنة تعُود** للتركيز على العساكر وضَجَرِها من طول البقاء في ميدان المعركة؛ وربما كانت أهمها في إبراز تقاعس المسلمين عن نجدته مقارنة بحماس أوروبا في نجدة بقايا الصليبيين بالشام:

«وعسكرنا لا يشكو والحمد لله منه خوراً، وإنما يشكو منه ضجراً. والقوى البشريّة لا بُدّ أن يكون لها حَد، والأقدار الإلهيّة لها قَصْد. وإنما ذكر المملوك هذا ليرفع المولى من خطاره مقت المتقاعس من رجاله، كما يثبت فيه شكر المسارع من أبطاله، قال الله تَعَالى: ﴿فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾.

يا مولانا: أليس الله تعالى أطلع على قلوب أهل الأرض، **فَلَمْ يُؤهل ولم يستصلح**، ولم يختر ولم يسهل، **ولم يستخدم في إقامة دينه، وإعلاء كلمته، وتمهيد سلطانه**، وحماية شعاره، **وحماية قبلة موحديه، إلاّ أنت**؛ هذا وفي الأرض من هو للنبوة قرابة [الخليفة العباسي]، ومن له المملكة وراثة، ومن له في المال كثرة، ومن له في العَدَد ثروة، **فأقعَدَهُم وأقامك**، وكسَّلَهم ونشّطك، وقبضهم **وبَسَطك**، وحبب الدنيا إليهم وبغّضَها إليك... وأمسك أيديهم وأطلق يدك، وأغْمَد سيوفَهم وجَرّد سيفك... ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة....

وأخرى أهم من الأولى: أنّه لمّا اجتمعت كلمة الكُفْر من أقطار الأرض، وأطراف الدنيا، ومغرب الشمس، ومزخر البحر، **ما تأخر منهم**

---

(1) الروضتين، 166-167.

متأخر، ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد، وخرجوا من ذات أنفسهم. لا أموال تنفق فيهم، ولا ملوك تحكم عليهم، ولا عَصَا تسوقهم، ولا سيف يزعجهم، مهطعين إلى الداعي، ساعين في أثر الساعي، وهم من كُلّ حدب منسلون، ومن كل بَرٍ وبحر يقبلون...

هذا و [أنت] ليس لك من المسلمين كافة مساعد إلاّ بدعوة، ولا مجاهد معك إلاّ بلسانه، ولا خارج معك إلاّ بهم، ولا خارج بين يديك إلاّ بالأجرة، ولا قانع منك إلاّ بزيادة، تشتري منهم الخطوات شبراً بذراع وذراعاً بباع، تَدْعوهم إلى الله وكأنّما تدعوهم إلى نفسك، وتَسألهم الفريضة وكأنك تكلّفهم النافلة... والآراء تختلف بحضرتك، والمشورات تتنوع بمجلسك، فقائل لم لا نتباعد عن المنزلة، وآخر لِمَ لا نميل إلى المصالحة، ومتندم على فائت ماكان فيه حظ، ومشير بمستقبل لا يلوح فيه رشد، ومتخيل بالتخلي عن عكا كأن تركها تغليق المعاملة، وما كأنها طليعة الجيش ولا قِفْل الدار ولا خَرَزة السلك إن وهَتْ تداعى السلك...».

ومع كل ذلك يسأل السلطان أن يصبر:

«... ويريد المملوك بهذا أن لا يتغيّر لمولانا... وجه عن بشاشة، ولا صَدْر عن سعة، ولا لسان عن حسنة، ولا نرى منه ضَجَرَه، ولا نَسْمَع منه نَهْرَه، فالشدّة تذهب ويبقى ذكرها، والأزمة تنفرج ويبقى أجْرُها، وكما لم يحدث استمرار النعم لمولانا عَزّ نَصْره بطراً، فلا تُحدِث له ساعات الامتحان ضَجَراً...».

«والمملوك بأن يَسّمع أنّ مولانا عَزّ نَصْره على ما يَعْهَده من سعة صدره، أسَرّ منه بما يسمعه من بشائر نَصْره...».

والرسالة التاسعة تتضَمّن سؤال السلطان العناية بجسمه ونفسه لأنه قَلب المسلمين:

«المملوك يُوصي المولى بالإسلام، والإسلام هو قَلْب المولى

فيُرَوِّحَه ولا يُحَمِّلَه ويُشْغِلَه بما يثقله، ويُوصي المولى بقلوب المسلمين، وقلوب المسلمين جسم مولانا أبقاه الله، من علم أنّه لا تَوفية عنده لرواتب الحياة وترويج خطراته، فقد بلغ المملوك من حمله على نَفْسِه ما يخشى على مولانا الإثم فيه، وإنّما نتجشّم كل مَشَقّة لنسلم منه، ونحن في ضَرّ قد مسّنا ولا نرجو لكشفه إلاّ من ابتلى به، وفي صُوفان فتنه، ولا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رَحم. . . ».

وشأن الجند المقَصّرين:

«. . . أنْ عَلِم الله من جُنْد مولانا أنّهم قَدّ بذلوا المجهود فقد عَذَرهم فيعذرهم المولى، وأن علم أنهم قد ذَخَروا قُوّة وقصروا في نُصْرَةِ كلمة الله فيكفيهم مقت الله، والمملوك يذكّر المولى بصبره، وبرحب صدره، وبفَضْل خُلُقِه وتَقْواه لربّه، وبمُدَاراة مزاجه، وببر القلوب الإسلاميّة وببر جسمه، وإن كان كَبُر عليك إعرضاهم ـ الآية إلى ـ ولو شاء لجمعهم على الهدى. . .

قيل للمهلب: أيَسُرّك ظفر ليس فيه تعب؟ فقال: أكره عادة العجز.

ولا بُدّ أن تنفذ مشيئة الله في خلقه، لا رادّ لحكمه، فلا يتسَخّط مولانا بشيء من قدره، فلأن يجري القَضَاء وهو راضٍ مأجُور خير من أنْ يجري وهو ساخط مَوْزُور فيصطلي ناراً لشدّة أعاذ الله منها، ولا يجد راحة الثواب ـ وفّر الله حَظّه منه ـ من شكا بَثّه وحزنه إلى الله شكا إلى مُشْتكي واستغاث بقادر، ومن دعا رَبّه دعاه خفياً استجاب له استجابة ظاهرة، فلتكن شكوى مولانا إلى الله خِفية عَنّا، ولا يقطع الظهور التي لا تشتد إلاّ به، ولا يُضيق صدوراً لا تنفرج إلاّ منه».

القوت إلى عكا:

«وما شرد الكرى، وأطال على الأفكار ليل السّرى، إلاّ ضائقة القوت بعَكّا، ولم يبق إلاّ ضعف نِعم المعين عليه ترويح النفس وإغْفَاؤها

من الفكر؛ فقد علم مولانا بالمباشرة أنّه لا يُؤثّر الدّهْر إلاّ برب الدّهْر، ولا ينفذ الأمر إلاّ بصاحب الأمر. . . .

وكُلّ مقترح يُجَاب إليه إلاّ ثغراً يصير نَصْرانياً بعد أن أسلم، أو بلداً يخرس فيه المِنْبَر بَعْد أن تكَلّم.

يا مولانا، هذه الليالي التي رابطت فيها والناس كَارِهُون، وسَهِرْت فيها والعيون هاجعة؛ وهذه الأيام التي يُنادى فيها يا خيل الله اركبي، وهذه الساعات التي تَزرع الشيب في الرؤوس. . . هي نعمة الله عليك. . وغِراسُك في الجَنّة. . . فاشكر الله عليها كما تشكره على الفتوحات الجليلة، واعلم أن مثوبة الصّبْر فوق مثوبة الشكر. ومن رَبْط جأش أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب، رضي الله عنه، قوله: لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت».

«وأهَمّ الوَصَايا أنْ لا يحمل المولى همّاً يضعف به جسْمُه، ويَضُرّ مزاجه. والأمّة بنيان وهو ـ أبقاه الله تَعَالى ـ قاعِدَته، والله يُثَبِّتُ تِلْك القاعدة القائمة في نُصْرَة الحق.

وما تشاؤون إلا أن يشاء الله. هذا سُلْطان هو بحول الله أوثق منه بسلطانه، قاتلت الملوك بطمعها وقاتل هذا بإيمانه. . . فلا يقنط من روح الله، ولا يَقُل متى نصر الله وليَصْبِر فإنما خُلِق للصّبْر بل ليشكر فالشكر في موضع الصبر أعلى درجات الشكر. . .»[1].

(1) الروضتين، 2 ص 161 - 169.

مصادر ومراجع ودراسات مختارة

المصادر:

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد (ت 630 هـ / 1233 م):

الباهر في الدولة الأتابكيّة، تحقيق عبد القادر محمد طليمات، القاهرة، 1963.

الكامل في التاريخ، ج 10 - 12، دار صادر، بيروت، 1965 - 1967.

ابشرلي، محمد (ناشر):

أوقاف المسلمين وأملاكهم في فلسطين، مركز الأبحاث والتاريخ والفنون والثقافة في اسطنبول، اسطنبول، 1982.

أسامة بن منقذ (ت 583 هـ / 1187 م):

كتاب الاعتبار، تحرير فيليب حتى، طبعة جامعة پرنستون، الولايات المتحدة الأميركية، 1930. (طبع الدار المتحدة للنشر، بيروت، 1981 م).

ابن أيبك الدواداري، أبو بكر بن عبدالله (أواسط ق 8 هـ / 14 م):

كنز الدّرر وجامع الغُرَر، ج 6: **الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطميّة**، تحقيق صلاح الدين المُنَجد، ج 7: **الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب**، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، نشر قسم الدراسات الإسلاميّة بمعهد الآثار الألماني بالقاهرة، 1960، 1972.

البُنداري، الفتح بن علي بن محمد (642 هـ / 1244 م):

تاريخ دولة آل سلجوق (للعماد الأصفهاني باختصار البنداري)، ط 2، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1978.

سنا البرق الشامي (مختصر البرق الشامي للعماد الأصفهاني)، ج 1 تحقيق رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1971؛ وطبعة كاملة للكتاب بتحقيق فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1979.

ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف (ت بعد 874 هـ / 1469 م):

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 12 ج، مطبعة دار الكتب المصرية،

القاهرة، 1929 - 1958. (ج 5).

ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد (ت 614 هـ / 1217 م):

رحلة ابن جُبير، دار صادر ـ دار بيروت، بيروت، 1980.

ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (ت 597 هـ / 1201 م):

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج 6 - 10، مطبعة دائرة المعارف العثمانيّة، حيدرآباد الدكن، 1357 - 1358 هـ.

الحموي الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر (ت 617 هـ / 1220 م):

مضمار الحقائق في أخبار الخلائق، تحقيق حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة، 1962.

الحموي، ياقوت بن عبدالله (ت 626 هـ / 1229 م):

معجم البلدان، 5 ج، دار صادر ـ دار بيروت، 1955 - 1957.

معجم الأدباء ـ إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ـ ج 1 - 7، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993.

الحنبلي، أحمد بن إبراهيم (ت 876 هـ / 1471 م):

شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق ناظم رشيد، وزارة الثقافة والفنون العراقية، بغداد، 1978.

ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد (ت 681 هـ / 1282 م):

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 8 ج، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1972 م.

ابن الدبيثي، محمد بن سعيد (ت 637 هـ / 1239 م):

تاريخ المختصر المحتاج إليه من تاريخ الدبيثي (اختصار الذهبي)، ج 15 من **تاريخ بغداد وذيوله**، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1985.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748 هـ / 1348 م):

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الطبقات 61-63، تحقيق بشار معروف وشركاه، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1988 م.

سير أعلام النبلاء ، ج 21 ، تحقيق بشار معروف ومحيي السرحان ، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1984.

ابن رجب الحنبلي، عبد الرحمن بن أحمد (ت 795 هـ / 1393 م):
ذيل طبقات الحنابلة، ط 2، (مصورة دار المعرفة ببيروت، بيروت، 1952 - 1953.

سبط ابن التعاويذي، محمد بن عبيد الله:
ديوان سبط ابن التعاويذي، تصحيح د. س. مرجليُوث، مطبعة المقتطف، القاهرة، 1903.

سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزاوغلو (ت 654 هـ / 1256 م):
مرآة الزمان، ج 8، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، 1370 هـ.

ابن شدّاد، عز الدين ابن علي (ت 684 هـ / 1285 م):
الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج 1 ق 1، تحقيق د. سورديل، منشورات المعهد الفرنسي بدمشق، دمشق، 1951؛ ق 2: وصف «الشمال سورية لعز الدين شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة»، نشر وتحقيق آن ماري إدّه، **مجلة الدراسات الشرقية** (BEO) التي تصدر عن المعهد الفرنسي بدمشق، م 32 - 33، السنوات 1980 - 1981. و ج 2 قسم 1 - 2، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي بدمشق، دمشق، 1956 - 1962. و ج 3 قسم 1 - 2، تحقيق يحيى عبارة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1978.

ابن شدّاد، أبو المحاسن يوسف بن رافع (ت 632 هـ / 1235 م):
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفيّة، تحقيق جمال الدين الشيال، الدار المصريّة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1964.

أبو شامة، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل (ت 665 هـ / 1266 م):
ذيل الروضتين أو تراجم رجال القرنين السادس والسابع، نشر محمد زاهد الكوثري وعزت العطار، ط 2، دار الجيل، بيروت، 1974.
الروضتين في أخبار الدولتين، 2 ج، مطبعة وادي النيل، القاهرة، 1287 - 1288 هـ.
الجزء الأول: تحقيق محمد حلمي أحمد.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت 764 هـ/ 1363 م):
الوافي بالوفيات، ج 13 باعتناء محمد الحجيري، نشر دار فرانز شتاينر ـ ڤيسبادن، 1404 هـ / 1984 م.

ابن العديم، كمال الدين عمر (ت 660 هـ / 1262 م):

بغية الطلب في تاريخ حلب، 8 ج، تحقيق سهيل زكار، دمشق، 1988.

التراجم الخاصة بتاريخ السلاجقة، نشر علي سويم، مطبعة لجمعية التاريخيّة التركية، أنقرة، 1976 زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج 1 - 3، تحقيق سامي الدهان، منشورات المعهد الفرنسي بدمشق، دمشق 1951 - 1968.

عرقلة الكلبي:

ديوان عرقلة، تحقيق أحمد الجندي، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، دار الحياة، دمشق، 1970.

ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن (ت 571 هـ / 1176 م):

تاريخ مدينة دمشق، ج 1 - 2، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، دمشق، 1954.

العماد الأصفهاني، عماد الدين محمد بن صفي الدين (ت 597 هـ / 1201 م):

البرق الشامي، ج 3 تحقيق وتقديم مصطفى الحياري، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، 1987 م، ج 5تحقيق فالح حسين (نفس الناشر ومكان النشر وتاريخه).

الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمود محمد صبح، القاهرة. لا. ت.

خريدة القصر وجريدة أهل العصر. قسم شعراء مصر، ج 1: تحقيق أحمد أمين، وشوقي ضيف وإحسان عباس، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1951. وقسم شعراء الشام، ج 1 - 3 تحقيق شكري فيصل، دمشق، 1955 - 1964.

عمارة اليمني، أبو محمد بن علي الحكمي (ت 569 هـ / 1174 م):

النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية، مصورة عن نشرة ديرنبرغ، نشر مدرسة اللغات الشرقية، باريس 1897 - 1909.

أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل (ت 732 هـ / 1332 م):

المختصر في أخبار البشر، ج 2، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت. لا. ت.

ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم (ت 708 هـ / 1404 م):

تاريخ ابن الفرات، م 4 ق 1 - 2، تحقيق حسن الشماع، مطبعة حداد ودار الطباعة الحديثة، البصرة، 1967 - 1969.

القاضي الفاضل، عبد الرحيم بن علي بن الحسن البيساني (ت 596 هـ/ 1200 م):
رسائل عن الحرب والسلام، اختيار موفق الدين ابن الديباجي، ط 2، تحقيق محمد نغش، القاهرة، 1984 م ـ 1404 هـ.
مجموعة رسائل في Bayerische Staats bibliothek (ميونيخ) رقم: Cod. Arab. 402، ومجموعة مكتبة برلين رقم 1264.
ديوان القاضي الفاضل، ج 1 - 2، تحقيق أحمد بدوي ـ مراجعة إبراهيم الأبياري، وزارة الثقافة، القاهرة، 1961.
ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي (ت 555 هـ/ 1160 م):
ذيل تاريخ دمشق، تحقيق هـ. أمدروز، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908 م.
وتاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دار حَسّان، دمشق، 1983.
القلقشندي، أحمد بن علي (ت 821 هـ/ 1418 م):
صبح الأعشى في صناعة الإنشا، 14 ج، مطبعة دار الكتب المصريّة، القاهرة، 1913 - 1919 (ج 5 بصورة خاصة و ج 13).
ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت 774 هـ/ 1372 م):
البداية والنهاية في التاريخ، ج 13، مكتبة المعارف ـ بيروت، مكتبة النصر ـ الرياض، 1966.
المقريزي، أحمد بن علي (ت 845 هـ/ 1441 م):
اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج 1 - 3، تحقيق جمال الدين الشيال، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1967 - 1972.
السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1 ق 1، تحقيق محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1934.
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج 1، دار صادر، بيروت، (طبعة مصورة بالأوفست عن طبعة بولاق 1270 هـ).
المقفى الكبير، ج 1 - 8، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991 م.
ابن النجار البغدادي، محمد بن محمود (ت 642 هـ/ 1245 م):
المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، ج 3 صحح بمشاركة قيصر فرح، دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، 1982 م: (مصورة دار الكتب العلميّة ببيروت، ج 19 من تاريخ بغداد وذيوله).

النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت 927 هـ/ 1520 م):
الدارس في تاريخ المدارس، ج 1 - 2، تحقيق جعفر الحسني واستدراكات صلاح الدين المنجد. مصورة عن طبعة المجمع العلمي العربي بدمشق، دمشق، 1988.

النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت 732 هـ/ 1332 م):
نهاية الأرب في فنون الأدب، ج 28، تحقيق محمد أمين ومحمد حلمي أحمد، مركز تحقيق التراث، القاهرة، 1992.

ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت 679 هـ/ 1280 م):
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج 1 - 3، تحقيق جمال الدين الشيال، منشورات الإدارة العامة للثقافة بمصر، القاهرة، 1953 - 1960.

Fulcher of Chartes

A history of the expedition to Jerusalem, trans. Francis Rita Ryan, W.W. Nortan and company, New York, 1978.

The Third Crusade: an eye witness account of the campaigns of Rickard coer-de Lion in Cyprus and the Holy Land, ed. Kenneth Fenwick, London, 1958.

Willam of Tyre:

A history of deeds done beyond the Sea (Eng. Trans.) translated by E. A. Babcock and A.C. krey, 2 vols., Octagon Books, 1976.

الدراسات

Baldwin, M.

«The Decline and fall of Jerusalem, 1174-1189». in **A History of the Crusades,** vol. I, ed. Marshall W. Baldwin, the University of Wisconsin press, Madison, Milwaukee, London, 1969.

Benvenisti, H.

The Crasaders in the Holy Land, Israil University Press, Jerusalem, Second Printing, 1970.

Hiyari, M.A.

«Crasader Jerusalem» in **Jerusalem in History** ed. K. Asli, Scorpion publ., London, 1989.

الحياري، مصطفى، «حصن حبيس جلدك...» مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، عمان م، 13، 1986، «مدينة بانياس في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي»، مجلة دراسات، م 13 ع 12، 1986.

و «حصن بيت الأحزان»: جانب من العلاقات بين المسلمين والفرنجة زمن صلاح الدين مجلة دراسات، م 13، 1986.

Gibb, H. A.R.
«The rise of Saladin» in **A history of the Crusades,** the first hundred years, gen. ed. k. Setton, vol. l. ed. M. Baldwin, the University of Wisconsin Press, Madison, 1969.

Glidden, H.W.
«Ayla» **EI,** Second ed.

Howarth, S.
The Knights Templer, Collins, London, 1982.

Join - Lambert, M.
Jerusalem, Trans. Charlotte Haldine, Elek Books limited, London, 1958.

Lyons, M.C. and Jakson, D.E.P.
Saladin: the politics of the holy War, cambridge University Press, Cambridge, 1982.

Mayer, Hans,
The Crusades, trans. J. Gillingham, Oxford University Press, 1972.

Minorsky, V.
«Pre - History of Saladin» in **Studces in Caucasian history,** Taylor's Foreign Press, London, 1953.

Painter, S.,
«The third Crusade: Richard the Lionheart and Philip Augustus» in **A history of the Crusades** vol. II, gen. ed. k. Setton, ed, R. Wolf and H.W. Hazard, University of Penn. Press, Philadelphia 1962.

Prawer, J.
«Hittin», in **Crasader institations,** Oxford, 1980.
The Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1972.

Runciman, Steven:
A history of the Crasades, Vol, II, The, Kingdom of Jerusalem and the Frankish East, 1100 - 1187, Harper Torchbacks, New York, 1965.

Smail, R.C.
Crusading Warfare, 1097 - 1193, Cambridge University Press, Cambridge, 1956.

Richard, J.
The Latin Kingdom of Jerusalem, Vol. A, trans, Janet Shirley, Amesterdam, 1970.

Riley - Smith, J, (ed.).
The Atlas of the Crusades, Times Books, swaston publishing Ltd., London, 1990.

Tibble, Steven.
Monarchy and Lordship in the Latin Kingdom of Jerusalem, 1099 - 1291, Clarendon Press, Oxford, 1989.

ثبت المحتويات

1 ـ نجم الدين وأسد الدين 5
2 ـ صلاح الدين في دمشق 27
3 ـ من دمشق إلى القاهرة 47
4 ـ في الطريق إلى الوزارة 71
5 ـ الوزير 99
6 ـ مؤامرات وغزوات 123
7 ـ الفترة الحاسمة 147
8 ـ توحيد المسلمين من أجل الجهاد 175
9 ـ من الدفاع إلى الهجوم 205
10 ـ الطريق إلى حِطّين 231
11 ـ حِطّين 263
12 ـ الطريق إلى القُدس 293
13 ـ استعادة القُدس 319
14 ـ الحملة الشماليّة 343
15 ـ حصار عَكّا 375
16 ـ تحصين القُدس والمحافظة عليها 407
17 ـ المفاوضات وصلح الرملة 435
18 ـ الخاتمة السعيدة 463
ملاحق 477
ملحق رقم 1 ـ الخطبة للخليفة العبّاسي بمصر 479
ملحق رقم 1 أ ـ قصة الرؤيا 480
ملحق رقم 1 ب ـ البشارة إلى بغداد بالخطبة العبّاسيّة في مصر 482

ملحق رقم 2 ـ كتاب صلاح الدين إلى ديوان الخلافة 484
ملحق رقم 3 ـ عهدُ السلطان صلاح الدين «يوسفَ بن أيوب» بالديار المصرية
من ديوان الإنشاء ببغداد 486
ملحق رقم 4 ـ قِصّة الاجتماع الأيوبي في القاهرة 493
ملحق رقم 5 ـ الوزير ابن القيسراني في مصر لعمل حسابها 495
ملحق رقم 6 ـ المؤامرة 497
ملحق رقم 7 ـ كتاب صلاح الدين إلى الخليفة العبّاسي المستضيء سائلاً التقليد
على مصر والشام وغيرها 501
ملحق رقم 8 ـ كتاب دار الخلافة إلى صلاح الدين بالعتب على أشياء 508
ملحق رقم 9 ـ كتاب بقلم القاضي الفاضل عن السلطان صلاح الدين بفتح
القدس ومعركة حطين قبله 511
ملحق رقم 10 ـ ذكر أول خطبة خطب بها ببيت المقدس بعد الفتح 517
ملحق رقم 11 ـ داود بن أبي المُنى، أبو سليمان الطبيب النصراني 525
ملحق رقم 12 ـ مقتطفات من رسائل القاضي الفاضل إلى السلطان أثناء حصار
عكا 527
مصادر ومراجع ودراسات مختارة 535
ثبت المحتويات 543



دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان

لصاحبها: الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء، بناية الأسود

تلفون البناية: 340131/ تلفون مباشر: 350331 ص.ب. 5787-113 بيروت، لبنان

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI B.P.:113-5787 Beyrouth, LIBAN

رقم 263 / 2000 / 10 / 1994

التنضيد: كمبيوتايب

الطباعة: دار صادر، ص.ب. 10 - بيروت

SALADIN

(ṢALĀH AL-DĪN)

THE LEADER AND HIS AGE

BY

MUSTAFA A. HIYARI



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI

1994

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI
P. B. : 113-5787- BEIRUT

SALADIN
(ṢALĀH AL-DĪN)